كولن ويلسون

حُلـمُ غـاية مـا

سيرة ذاتية

ترجمة وَ تقديم: لطفيّة الدّليمي

كولن ويلسون

حُلمُ غايةٍ ما

ترجمة وَ تقديم
لطفيّة الدّليمي

سيرة ذاتية

المؤلف: كولن ويلسن
عنوان الكتاب: حُلمٌ.. غـايـة مـــا
ترجمة: لطفية الدليمي
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: 2015

جميع الحقوق محفوظة

Author: **Colin Wilson**
Title: **Dreaming To Some Purpose**
Translator: **Lutfiya Al-Dulaimi**
cover designed by: **Majed Al-Majedy**
P.C. : **Al-Mada**
First Edition: **2015**

Copyright © Al-Mada

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

هذا الكتابُ ترجمةٌ للسيرة الذّاتيّة للكاتب – الفيلسوف كولن ويلسون Colin Wilson المنشورة عام ٢٠٠٤ تحت عنوان :

الحُلُمُ بغايةٍ ما Dreaming To Some Purpose

عن دار نشر (سنتشوري Century) ، و قد أستُخدِمتْ في الترجمة النسخة الألكترونيّة من الكتاب و الّتي نشرتْها دار نشر (راندوم هاوس Random House) .

المحتويات

مقدّمة المُترجمة ٩
كولن ويلسون: الكفاح في مقابل الهزيمة ٩
القسم الأوّل
إضاءات في فكر الكاتب كولن ويلسون وَ حياته ٢٣
الفصل الأوّل.............................٢٥
في إستذكار عقلٍ شغوف ٢٥
١. الوجوديّ المنسيّ ٢٥
٢. اضاءات في السيرة الذاتية للروائي – الفيلسوف
الراحل (كولن ويلسون) ٣٢
٣. التفاؤل في مواجهة العدمية القاتلة.......... ٣٩
٤. هيدرا معرفيّة في القرن العشرين ٤٩
رؤوس الهايدرا الويلسونيّة ٥٠
كولن ويلسون: الرومانتيكيّ الوجوديّ ٥٢
تجارب الذروة التصوّفية لكولن ويلسون ٥٦
تقييماتٌ إيجابيّة و سلبيّة ٥٧
٥. رؤية في الطريق إلى السّعادة الشخصيّة ٥٩
٦. هل أخطأ اللّامنتمي الأبديّ ؟ ٦٦

الفصل الثاني: خمسةُ وجوه لِلكاتب كولن ويلسون ٧١
١. الكاتبُ و كتبُهُ:
كولن ويلسون قارئاً ٧٣
٢. رؤية في الرواية:
كولن ويلسون روائيّاً ٨١
٣. صنعةُ الإبداع: ١٠٥
كولن ويلسون و رؤيةٌ في الكتابة الإبداعيّة ١٠٥
٤. الظاهراتيّة و الفلسفة وَ التصوّف:
كولن ويلسون فيلسوفاً مُتصوّفاً ١١٩
٥. إستبصاراتٌ ويلسونيّة:
كولن ويلسون و رؤية في السّايكولوجيا البشريّة ١٢٤
الفصل الثالث: رؤية بطوليّة لعصرنا ١٣١
حوارٌ موسّعٌ مع كولن ويلسون ١٣١
القسم الثّاني
الحُلُمُ بغايةٍ ما
السّيرة الذاتيّة للكاتب – الفيلسوف كولن ويلسون ١٥٩
١. أنْ تعيد تذكرة دخول الحياة إلى الربّ ١٦١
٢. الرّومانتيكيّ العدميّ ١٨٠
٣. ماري ٢٠٠
٤. فرنسا ٢٠٩
٥. الزّواج و لندن ٢٢٧

٦. أيّام الفوضى في سوهو ٢٥٢
٧. جوي ٢٧٤
٨. لندن و اللّامنتمي ٢٩٢
٩. الإنعطافة ٣١٨
١٠. صعودٌ و إنكفاء.................. ٣٤٠
١١. بعيداً عن لندن و النساء الفاتنات ٣٦٠
١٢. جون برين وَ رحلةٌ إلى لينينغراد ٣٧٥
١٣. من كورنوال إلى أمريكا ٣٩٤
١٤. أفق جديد في الوعي البشريّ ٤٠٧
١٥. سيرةٌ وَ كتبٌ قذرة و مِسكالين ٤٢١
١٦. على الطريق................... ٤٤٢
١٧. كاتبٌ مقيمٌ في كلّية أمريكيّة ٤٦٢
١٨. سياتل ٤٧٥
١٩. أيّامٌ في مايوركا المتوسّطية ٤٨٦
٢٠. الإنهيار ٤٩٨
٢١. التأريخ الإجراميّ................. ٥١٦
٢٢. اليابان و أستراليا ٥٣٧
٢٣. لمحاتٌ من سنواتي الأخيرة ٥٥٤
٢٤. خاتمة ٥٦٥
ملحق (١): ٥٧١
ملحق (٢): ٥٨٤

مقدّمة المُترجمة

كولن ويلسون: الكفاح في مقابل الهزيمة

كان (كولن ويلسون) الكاتب الأكثر إشكاليّة في العالم العربيّ و بخاصّة في حقبة العقدين الخمسينيّ و الستّينيّ من القرن العشرين، و ثمّة ظاهرةٌ رافقت هذه الاشكالية وَ هي أنّ ويلسون قد ناله الإجحاف كثيراً في عالمنا العربي - بصرف النظر عن كلّ التهويل الإعلامي و تهافت دور النشر على طبع كتبه الأولى لدوافع تجاريّة محضة - بسبب الرّطانة و الأحكام المجّانيّة و السّريعة التي إعتاد الكتّاب إطلاقها على أعماله و إضفاء سمة الشاب المعجزة ذي القدرات الخارقة عليْهِ - رغم أنّ أعماله تتفاوت في مستوياتها بسبب الطيف الواسع من الموضوعات الذي يشتغل عليه، و بسبب لجوء ويلسون إلى قناعاتِهِ الميتافيزيقيّة و محاولة إضفاء سمة علميّة عليها و عدّها مواضعاتٍ معرفيّة شاملة في سياقٍ إعتبرَهُ كثيرٌ من المختصّين الثقاة غير وافٍ بمعايير الرّصانة، و يبقى تأكيد ويلسون على "أسبقيّة الحدس على المعرفة المُنظّمة " بطريقة تماثل قولَ آينشتاين بأسبقيّة الخيال على المعرفة - و الدور الحاسم للعقل الكاشف والرؤية الملهمة - هو الإنجاز الأهمّ لويلسون في معظم كتاباته إلى جانب إطلاقه لفكرة الوجوديّة الجديدة الباعثة على التفاؤل و النقيضة للوجوديّة السارتريّة العدميّة. ربّما كان زجّ إسم ويلسون طرفاً في الحروب الأيديولوجية التي كانت مستعرة في عالمنا العربي إبان الحقبة الستينية من القرن العشرين سبباً في حشره

مع خانة الطوباويين الثوريّين أو الفوضويّين و إبعاد صفة العقل المدقق و الباحث الجاد عنه و تحويله إلى محض أيقونة شعبيّة تلوكها الألسن بكلام رميم مختلف عما كان يهدف إليه ويلسون في أصل دافعه للكتابة.

رغم كونه مؤلّفاً غزير الإنتاج و ذاتيّ التعلم و عاش حياة غرائبية عندما كان يافعاً – حيث كان يُمضي معظم أوقاته بين دهاليز مكتبة المُتحف البريطانيّ – فأنّ كولن ويلسون Colin Wilson لا زال يعرف حول العالم بصورة أساسيّة بأنه مؤلّف " اللامنتمي The Outsider " الذي نشره عام ١٩٥٦ و لا يزال يلقى صَدىً واسعاً بين القرّاء العالميّين و العرب سواء بسواء.

ولد كولن ويلسون عام ١٩٣١ و عاش حياة دراميّة مثيرة قبل أن يُعرَفَ ككاتب، و هو ذاته يفضّل وصفه بأنه كاتب – فيلسوف، و قد كتب في موضوعات واسعة الطيف: الرواية، الجّريمة، الباراسايكولوجي، التصوّف، تأريخ الأفكار و يفضل على الدوام أن تدعى فلسفته " الوجوديّة الجديدة The New Existentialism ". ذاعتْ شهرةُ ويلسون في أوساط الشباب بخاصة في العالميْن الغربيّ و الشرقيّ في خمسينات القرن العشرين و حافظت تلك الشّهرةُ على زخْمها – و إن باندفاعةٍ أبطأ – إبّان ثورات الشباب العنيفة في أواخر الستينات التي تمازجت فيها الليبراليّة الجنسيّة مع الدعوة الى تجربة عقاقير صانعة لعوالم مُتخيلة (و أهمُّها عقار ال اس دي LSD و المسكالين) ثم خفتت تلك الحركات في الحقب اللاحقة، و ربّما كان التّوصيفُ القسريّ الّذي أسبغَ على ويلسون كوْنهِ واحداً من أهمّ وجوه جماعة (الشّباب الغاضب Angry Young Men) عاملاً

إعتباطيّاً ساهمَ في توكيد السّمة الوجوديّة الشّائعة عن كتابات ويلسون وَأبعدَ القرّاء عن معاينة أفكاره الأكثر جدّيّة.

يرى بعض النقاد البارزين و بخاصة الإنكليز منهم في كولن ويلسون شخصية شعبوية تجيد التعليق على الأفكار المطروحة أكثر من إنتاج أفكار تتسم بالجِدّة و الأصالة حتّى ذهبَ بعضهم إلى وصفه بالأنثولوجيّ الماهر، و لكن برغم كل شيء يبقى الرّجل ذا مقروئية عالية و تلفت غزارة نتاجه و تنوّع موضوعاته نظر مؤيّديه و مُنتقديه معاً و ليس ثمة مجال لتعداد مؤلفاته التي تتجاوز العشرات ويمكن الاطّلاع عليها بسهولة فائقة من مراجعة المواقع الألكترونية و قد شاع الكثير منها في الأسواق العراقية و العربية و منها: " اللامنتمي The Outsider" عام ١٩٥٦، " الدين و المتمرد Religion and the Rebel " عام ١٩٥٧ و الذي ترجم في العالم العربي تحت عنوان سقوط الحضارة، " طقوس في الظلام Ritual in the Dark " عام ١٩٦٠، " ضياع في سوهو A Drift in Soho " عام ١٩٦١، " أصول الدافع الجنسي Origins of Sexual Impulse " عام ١٩٦٣، " ما بعد اللامنتمي Beyond the Outsider " عام ١٩٦٥، " القفص الزجاجي The Glass Cage " عام ١٩٦٦، " طفيليات العقل Mind Parasites " عام ١٩٦٧، " فنّ الرواية The Craft of the Novel " عام ١٩٧٥.

غادرَ الروائيّ – الفيلسوف كولن ويلسون (أو الفنان – الفيلسوف كما يحبُّ هو ذاته أن يصفَ نفسه) عالمنا في الخامس من كانون أوّل ٢٠١٣ بعد أن نشر ما يزيدُ على المائة كتابٍ في مختلف الفروع المعرفيّة إذْ كان ينشرُ أحيانا ثلاثة أو حتى أربعة كتبٍ في السّنة الواحدة و

بخاصّة في الحقبة التي تلت سبعينات القرن العشرين، و من المؤسف أنَّ بعضاً من أفضل ما كتب ويلسون لم يترجَمْ الى اللغة العربية و لم يسمع بها الكثيرون ممن صمّوا أذاننا بالحديث الأيديولوجي المُغلب عن (اللامنتمي) و (سقوط الحضارة) و (طقوسٌ في الظلام) و (القفص الزجاجي) و بضعة كتب أخرى لا تتجاوز العشرة في مجملها وَ أهملوا قراءةَ أغلب المنجز الثري لويلسون، و ربّما كان هذا بسبب عدم ترجمتِها و تجاوزِ الشباب المتحمّسين لها عتبة الاندفاع الجارف و الحيويّ مع الأفكار الثورية و المكوث في خانة السّكون المُستلب في حقبة السبعينات و ما بعدها وَالتي تلت العقد الستينيّ الملتهب بالرؤى و الأفكار، و هنا مكمنُ الأسف إذ نشر ويلسون أغلب أعماله الأكثر ثراء في هذه الحقبة و نذكر منها مثلاً دراستهُ الرّائعة عن (أبراهام ماسلو و الفتوحات الجديدة في السايكولوجيا مابعد الفرويديّة) و كذلك عن (الوعي الفائق و التجارب الذرويّة) بالإضافة إلى عشراتٍ من أعمال رائعة مع أعمال أقل جودة و ليس هذا بالغريب على كاتب ينشر ثلاثة كتب دفعة واحدة في سنةٍ واحدة !!. تكمنُ الإشكاليّة التي لطالما إلتصقت بكولن ويلسون أنّ الكثيرين من المتمسّكين بالتقاليد الثقافية الفكتورية كانوا ينظرون إلى نتاجِهِ بغيظ و يعدّونهُ خارجاً عن المنظومة المعرفيّة التي سادت الكومنولث البريطاني في الحقبة الكولونيالية و إمتدّت لبضعة عقود في فترة ما بعد الكولونيالية.

وثّقَ كولن ويلسون الكثيرَ من خبراته و تجاربه في كتابه (رحلة نحو البداية A Voyage to the Beginning) الذي نشره عام ١٩٦٩ و ترجمه سامي خشبة و نشرته دار الآداب البيروتيّة، ثم عاد ويلسون لنشر سيرة ذاتية مكملة للأولى و أكثر شموليّة و كشفاً منها و قد عنوَنَها (الحلمُ بغايةٍ ما: Dreaming to Some Purpose) ونُشرت في شهر

أيّار ٢٠٠٤ و هو ذات الشهر الذي نشر فيه كتابه الأول (اللامنتمي) عام ١٩٥٦ و تلك إشارة لا تخلو من رمزيّة محسوبة بدقة، و منذ ظهوره المدوي على الساحة الأدبية في منتصف خمسينات القرن العشرين و حتى وفاته أبدى كولن ويلسون قناعة ذاتية لا تهتزُّ و حافظ على حيوية فكريّةٍ يحسدُهُ عليها الكثيرون.

توفي كولن ويلسون نتيجة مضاعفاتٍ رئوية بعد إصابته بجلطة دماغية عام ٢٠١٢، و كتلويحة وداع للرجل الذي غابَ عن عالمنا أقدِّمُ هذه الترجمة لسيرته الذاتيّة مع فصولٍ إضافيّة للتعريف بأفكار الكاتب و حياته.

* * * * *

ظلّت السّيرة – و السيرة الذاتيّة منها بخاصّة – و لم تزل حتى يومنا هذا ذلك اللون الأدبي الذي يتقدّم على ما سواه من الألوان الأدبيّة مجتمعةً – بإستثناء الرّواية –، و أحسب أنّنا لو خُيّرنا بين قراءة عملٍ لكاتب ما و بين قراءة سيرته الذاتيّة فإنّ أغلبنا سيختار قراءة سيرته الذاتية أوّلاً، و لا يقتصر الأمرُ على الأدباء و الروائيين بل ينسحبُ إلى العلماء المشتغلين في التخصّصات العلمية الدّقيقة ممّن حملوا جوائز نوبل أو كان مشهوداً لهم بإنجازاتهم المرموقة في ميادينهم العلميّة مع جمهرةٍ من المُفكّرين و الفلاسفة في شتّى الإشتغالات المعرفية الأخرى، و ربّما يكون السبب في هذا التوق إلى أدب السيرة الذاتية عائداًلرغبتنا في تفحّص الجذور الأولى التي أنبتت فكر من نقرأ سيرته الذاتيّة و التي غالباً ما يجد فيها الكاتِبُ مساحة من الحرّية في البوح و الكشف عن تفاصيل دقيقة مخبوءة بين ثنايا الذاكرة و التي لا يمكن

إعلانها في فضاءات أخرى غير فضاء السّيرة الذاتيّة، و من المُؤكّد أنّ أغلبنا قد عاش التجربة الفريدة عندما قرأ سيرة ذاتية لكاتبٍ ما و تملّكته الدهشة لمعرفة حقيقةٍ أو واقعةٍ لم تكن لتخطر له على بال في يوم من الأيام !!!، وَ ثمّة مسوّغ براغماتيٌّ يقف إلى جانب الإهتمام الكبير الذي توليه المجتمعات الحديثة و الليبراليّة للأعمال الخاصّة بالسيرة الذاتيّة: ذاك هو المعرفة الواثقة بأنّ الخبرات الثمينة و الدفينة للمُبدعين و التي لا يُحكى عنها في الأحوال العاديّة ينبغي أن لا تضيع هباءً بعد مغادرتهم لعالمِنا بل ينبغي توثيقها و العمل على نشرِها لتكون بمثابة سجلّ حيّ و نابض بالخبرات المتحصّلة في الحياة من جانب إنسان إجتهد و أخطأ في مواضع و أصاب في أخرى و رأى في حياته الكثير من الإغراءات و الشدّ و الجذب و الحبّ و الكراهية و غيرها من الثنائيات المعتادة وغيرها مما تنطوي عليه حياة ثريّة هي بعض ما توصف به حياة المُبدعين التي هي بحقّ ذخيرة عظيمة من المعرفة الإنسانيّة ينبغي المحافظة عليها و تمريرُها إلى الأجيال اللاحقة. أودُّ الإشارة هنا أنْ ليس مِنْ منفعةٍ تُرتجى من سيرة ذاتيّة تحكي عن كائن بشري أقرب إلى روبوت ملائكي يتحرّك على وقع تعليمات ربّانية صارمة تزيّنها الفضيلة المطلقة كما لو كان هذا الكائن شخصا إفتراضيّاً يعيش في بيئةٍ غير بيئتنا الأرضية بكل مافيها من الثنائيات المتناقضة و المكمّلة لبعضها في الوقتِ ذاته، و للأسف فإنّ هذه هي الحالة الشائعة في بيئتنا العربيّة – و المشرقيّة بعامّة – والّتي إستحال فيها فنّ السّيرة الذاتيّة إلى ما يُشبِهُ المذكّرات الحافلة بالوقائع البروتوكوليّة المقتصرة على سِيَر الزعماء و رؤساء الأحزاب السياسيّة حيث تأتي سيرتهم تجميعاً لوقائع عابرة لا تنتمي إلى عالم الأفكار النشطة و المتفاعلة مع نبض الحياة وحراكها و لهذا تكون الحصيلة

عقماً غير منتج و لا ينطوي على أيّة خبرة جديّة بعكس ماهو حاصلٌ مع الأفراد المبدعين الموصوفين بالجِدّة و الأصالة.

* * * * *

كما نوّهنا من قبلُ فإنّ الكاتب كولن ويلسون كان قد نشر سيرته الذاتية الأولى بعنوان (رحلة نحو البداية: سيرة ذاتية ذهنية) في أواخر ستّينات القرن الماضي، و لكن ثمّة فروق بيّنة بين سيرته الأولى و سيرته الثّانية المعنونة (الحُلُمُ بغايةٍ ما): إذ جاءت السيرة الأولى مثقلة بتفاصيل كثيرة تخصّ علاقاته مع الآخرين تماشياً مع إندفاعة الشّباب المتأخّر الّتي كانت تستعرُ في روح الكاتب، أمّا سيرته الثانية فقد جاءت أكثر تركيزاً على فضاء الأفكار التي شكّلت شخصية الكاتب و إستمدّ منها ينبوع إلهامه على مدى حياته الحافلة بإشتغالات معرفيّة كثيرة، وَ منذ أن غادرَنا الروائيُّ و الفيلسوف الإشكاليّ أواخر عام ٢٠١٣ طفت على السطح كتاباتٌ كثيرة تؤبّن الرّجل بطريقة محايدة و بتقريضٍ بروتوكوليّ لأعماله دون الإنغماس في إشتغالات نقديّة كثيرة بإستثناء قلّة من الإشارات إلى أعماله كتبها صحفيّون أو مراجعو كتب، و لكنّ بضعةً من هذه الدراسات كتبها فلاسفة مرموقون لهم مكانتهم في البيئة الأكاديميّة البريطانيّة و هو ما يمنح هذه الكتابات مقبوليّة معقولة و يشجّع على قراءتها من قبلِ مُحبّي الكاتب الراحل أو سواهم، و هذا السبب لوحده أراه كافياً و دافعاً لترجمة أعمال من هذا النوع بعيداً عن الكتابات المتعجّلة أو تلك الّتي تترسّم صدى سنوات سابقات في عقدَي الخمسينات و الستّينات و تحشر كولن ويلسون في خانة الوجوديّة اليساريّة في حلّتها السياسيّة كما هو مألوف في بيئتنا العربيّة حيث يسود واحدٌ من أمرين: محبّة عمياء للكاتب حدّ أسطرته

و جعله أيقونة شبيهة بالأيقونة السارتريّة و أمثالها من أيقونات الفكر الوجوديّ التقليديّ في نسخته الفرانكوفونيّة بخاصة، أو بغضاء غير مفهومة للرجل تنحو منحى أيديولوجياً بدوافع سياسية على الرغم من أنّ الرّجل كان ميالاً إلى الإشتراكيّة المرشّدة المعقلنة – السائدة في بريطانيا و المنطقة الإسكندنافية و عموم القارة الأوربية – و الّتي كان يتشارك فيها مع برناردشو: الكاتب الأثير إلى عقل ويلسون وَ روحه، كما أنّ إشتغالات ويلسون فلسفيّة و أدبيّة وَ سايكولوجيّةٌ في أساسها و لم يعرَف عنه أيّة حركيّة حزبيّة تحت جناح سياسيّ محدّد السمات.

كانت نيّتي قد إستقرّت منذ البدء على ترجمة السّيرة الذاتيّة لكولن ويلسون بعد بضع سنواتٍ من نشرها عام ٢٠٠٤، و بعد أن إقتنيْتُ نّسخة ألكترونيّةً من الكتاب الّذي نشرتْهُ دار نشر (راندوم هاوس Random House) على موقع "أمازون" شرعْتُ في العمل الجادّ و المنظّم لترجمتها، وَ حصلَ أن أثارتْ بعضُ الفصول القليلة و المحدّدة من السيرة الذاتيّة للكاتب الراحل وَالّتي دأبتُ على نشرها في ثقافيّة المدى تعليقاتٍ عديدةً و بخاصّة في الفضاء الفيسبوكي الصّاخب و ذاك أمرٌ محمودٌ في كلّ الأحوال، و ما أريدُ التعليق عليه – من بين الملاحظات الكثيرة التي أثارتها تلك التعليقات – هو أنّ المرء ينبغي أن يرتكن إلى ذائقته الشخصيّة و لا ينجرف في تيّار التعميمات الّتي يطلقها بعض النقّاد – وَ يستوي في ذلك النقّادُ العربُ و الأجانب – إلى جانب إمتلاك المروءة و كرم الروح و تقدير السّمات الشخصيّة لأيّ كاتب في مجاهدته وصّبره و إنطلاقه في مضمار العمل المثمر و عدم التخاذل و الإنكسار إزاء النقودات القاسية. ثمّة الكثيرُ ممّا يمكن أن يقالَ في حقّ كولن ويلسون وتبقى المسألة الحاسمة هي تأسيسه لوجوديّة جديدة متدفّقة بالتفاؤل و النظرة البطوليّة للحياة و التي تجاوزت الوجوديّة

السارتريّة السوداوية المتجهمة الدافعة نحو العدميّة، و تأسيساً على هذه الفكرة و إبتغاءً لإزالة الكثير من اللبس و سوء الفهم الشّائع عن كولن ويلسون إرتأيْتُ أن يسبقَ السيرة الذاتيّة للكاتب مقدّمةٌ تعريفيّة بهِ تمثّل مادّة القسْم الأوّل من الكتاب، و يتأسّسُ هيكلُ هذه المادّة على ثلاثة فصول:

* الفصلُ الأوّل: إضاءاتٌ في عمل كولن ويلسون وَ حياته، و حرصْتُ في النصوص الستّة التي يَحتويها هذا الفصلُ أن تكون مُترجمةً عن مصادر معروفةٍ برصانتها العالميّة (مثل مجلّة Philosophy Now العالميّة المرموقة) واجتهدت أن تكونَ بعيدةً عن الإنثيالات العاطفيّة الشائعة في فضائنا العربيّ وأن تتناولَ فكر الكاتب و أعماله بإحترافيّة نقديّة لاتعوزُها المروءة المُستحقّة بعيداً عن أيّة مرجعيّات مسبّقة أو أحكامٍ كيفيّة متداولة.

* الفصلُ الثّاني: و هو الفصلُ الّذي جاهدْتُ فيه أن أكشفُ للقارئ وجوهاً للكاتب كولن ويلسون غير ذلك الوجه التقليديّ الّذي أشاعهُ كتاب (اللامنتمي) حيث يبدو الكاتبُ فيه بهيئة الوجوديّ السّاخط و الناقم و المأزوم الّذي يتحرّكُ وفقاً لما تُمليه عليه العواطف الجّامحة: و تلكَ صورةٌ أبعدُ ما تكونُ عن حقيقة الكاتب الّذي لطالما أكّدَ على الأهمّية الحاسمة للنظام و الإنضباط الذّاتي و الصّرامة كعوامل لازمةٍ ينبغي أن يمتلكَها كلُّ فردٍ جادّ يطمحُ إلى تحقيق هدفٍ محدد في حياته.

* الفصلُ الثّالث: و هو فصلٌ يقومُ على حوارٍ موسّعٍ و شامل مع الكاتب، و أراهُ جزءً مكمّلاً و حيوياً لسيرته الذاتيّة و ينبغي إعتبارهُ إمتداداً طبيعيّاً لها إذ أشار الكاتبُ فيه إلى موضوعات و تفصيلاتٍ و أفكارٍ قلّما نعثرُ عليْها في أماكن أخرى، و حرصْتُ في هذا الحوار

أن أنتخب الأسئلة الكاشفة ذات الأبعاد الفلسفيّة و تجنّبْتُ الأسئلة التقليديّة المتداولة. ثمّة ميزةٌ في هذا الحوار أراها غاية في الأهمّية: إجتهدت كثيراً و بدقة في إنتخاب فقرات الحوارات التي رأيتها تصلح مقالات بذاتها في ميادين الفلسفة و تأريخ الافكار و الإشتغالات التأريخيّة و السوسيولوجية و السايكولوجيّة الّتي عُرِف عن الكاتب ولعُهُ الشّديد بها على الرغم من أنّني لم أغفل الجوانب الشخصيّة التي لها دلالات كاشفة على حياته و كيفيّة تأثيرها في ديناميكيّة إبداعه، فالحوارُ بهذا الوصف أبعد كثيراً من ذلك النمط من الحوارات التقليديّة التي آعتدناها بل هي قريبة لأن تكون مطارحات و مُساءلات ثقافيّة و فكريّة قيّمة و هذا ما يوضّح تماماً السبب الكامن وراء إنتخابي للأسئلة و الأجوبة غير المرتبطة أو المقيّدة بزمنٍ ما time irrelevant: تلك التي تكسر قيود الزمان و يمكن للقارئ أن يقرأها بعد قرن مثلاً و هي لمّا تزل تملأه دهشةً مثلما فعلت فيه من قبلُ.

* * * * *

ثمّة بضعُ ملاحظاتٍ يمكنُ وصفها بأنّها (تقنيّة) تختصُّ بعمليّة الترجمة و هيكلة السيرة الذاتية و سأتحدّثُ عنها في النقاط المحدّدة التّالية:

* نشرَ الكاتبُ كولن ويلسون سيرته الذّاتيّة المعنونة (الحلمُ بغايةٍ ما) عام ٢٠٠٤ كما ذكرتُ في ملاحظةٍ سابقة، و تضمُّ السيرة إثنيْن و عشرين فصلاً مع خاتمة، و يمكنُ ملاحظةُ أنّ سبعة فصولٍ منها هي فصولٌ تعتمدُ إلى حدّ كبير على سيرة الكاتب الذاتيّة السّابقة المعنونة (

رحلةٌ نحو البداية) بعد أن أعاد الكاتبُ هيكلتَها و تشذيبها و جعْلَها مقتصرةً على التفاصيل الوقائعيّة للأحداث الّتي عايشَها الكاتب في طور شبابه و كهولته المبكرة.

* ثمّة تفاصيلُ محدّدة في السيرة فضّلْتُ تجاوزها لواحدٍ من الأسباب التّالية: أسبابٌ إعتباريّة لا أراها مناسبةً التداول، أو تفاصيلُ إجرائيّة غير ذات أهمّية في سيرة الكاتب، أو تعليقاتٍ على بعض الأفكار الّتي كان الكاتبُ ناقشها بإستفاضةٍ في كتبه و الّتي يمكنُ الرّجوعُ إلى كتبه ذاتها للحصول على صورةٍ أفضل عنها بدل الإكتفاءِ بمحض تعليقاتٍ قد تكونُ مبتسرةً و تثلمُ الفكرة الأصليّة، و لكن ينبغي التأكيد على أنّني حرصْتُ على ترجمة الأفكار الواردة في سيرة الكاتب حيثما جاءت في سياق طبيعيٍّ من السّيرة و ليس كمحْضِ عرضٍ يجعلُها أقرب إلى الدراسات البحثيّة أو مراجعات الكتب الشّائعة في الصّحف، و يمكنُ الإشارةُ بالتّحديد في هذا الصّدد إلى الفصل الأخير من السيرة و المعنْون (الحضارات القديمة) الّذي فضّلْتُ تجاوز ترجمة الكثير من فقراته المتخمة بتفاصيل تأريخيّة و أركيولوجيّة لا أحسبُها تثيرُ رغبة القارئ غير المتخصّص و تحفّزُ شهيّته للقراءة، و يمكنُ للقارئ الشغوف الرّجوع إلى قراءة مؤلّفات الكاتب المذكورة فيه بصورةٍ مباشرة و بإستفاضة و بخاصّة كتاب (من أتلانتس إلى أبو الهول From Atlantis to the Sphinx)، و إقتصرتُ في هذا الفصل بالتحديد على ترجمة اللمحات الإنسانيّة التي تخصّ حياة ويلسون و عائلته في سنوات حياته الأخيرة . أودّ الإشارة في هذا السّياق أيضاً أنّ واحدةً من الأمور المعروفة عن الكاتب هي ولعهُ اللّحوح في تكرار ذكر بعض التفصيلات و الوقائع و الأفكار لذا كان لزاماً عليّ أن أبتعد عن مسايرة الكاتب في ولعهِ ذاك متى ما رأيْتُ هذا ممكناً و لا يتسبّبُ

في قطعٍ مخلٍّ لسياق الأفكار و سّرد الوقائع في السّيرة الذاتيّة.

* حاولْتُ جاهدةً الإحتفاظ بعناوين الفصولِ ذاتها الّتي إستخدمها الكاتبُ و لكنّي وجدْتُ نفسي مدفوعةً في بعض الفصولِ إلى إستبدالِ عناوينِها بعناوين أكثر دلالةً للسياق الّذي يمثّلُ (حبكة) الفصل إذا جاز لنا إستخدام مفردات التقنيّات الروائيّة.

* ثمّة فصلٌ واحدٌ (هو الفصلُ الثّالث في السيرة الذاتيّة) عمدْتُ إلى تجزئته إلى فصليْن متمايزيْن بعنوانيْن مختلفيْن و ذلك بسبب الهوّة العميقة الّتي تفصلُ بيْن سياقَي الحدثيْن اللّذيْن يحكي عنهما ذلك الفصلُ.

* لم أشأ إتخام السّيرة بشروحاتٍ و تعليقاتٍ كثيرة لبعض المفردات الواردة فيها و الّتي قد تبدو غريبةً لبعض القرّاء - إلّا في مواضع محدّدة و قليلة -، و الحقُّ أنَّ ثقتي الحاسمة في شغف القارئ وذكائه وَ رغبته في الإستزادة الذاتيّة من المعرفة هي ما دفعتْني إلى تحاشي حشْو النصّ بالشّروحات و التعليقات المستفيضة.

* إستكمالاً للفائدة المتوخّاة من وراء هذه السّيرة الذاتيّة و الإضاءات الملحقة بها فقد إرتأيتُ إضافة ملحقين ختاميّين: الأوّل بمثابة جردة لمعظم الأعمال التي كتبها الكاتب مبوّبةً بحسب نطاق إشتغالها المعرفيّ، أمّا الملحق الثاني فيحوي قائمة منتخبة لبعض الأعمال التي إختصّت بدراسة ويلسون و ذلك إبتغاء لفائدة من يطمح في الإستزادة من الفهم و الدراسة سواء لغاية أكاديميّة أو لمحض إشباع شغفه الذاتيّ الخالص.

* * * * *

ثمّة ما أودُّ قولهُ في خاتمةِ هذه المقدّمة: لستُ أُخفي رغبتي المقترنة بأملي في أن يكونَ هذا الكتابُ – السيرةُ الذاتية نوعاً من مرجعيّةٍ ما تخدمُ طيفاً واسعاً من القرّاء المُحبّين للأدب و الفلسفة، و قبل هذا أولئك الّذين يّحرصون على متابعة نتاجات الكُتّاب ذوي الإشتغالات المعرفيّة الكثيرة و المشتبكة مع بعضها و الّذين يصلحُ وصفهم بِـ (الهايدرا المعرفيّة) كما وصفتْهم إحدى مقالات هذا الكتاب، و تملأني رغبةٌ جامحةٌ في أن يكون هذا الكتابُ بمثابة مرثيّة وداعٍ جميلةٍ لكاتبٍ سيثْبِتُ مع الأيّام أنّ أعمالهُ – و بخاصّة الفلسفيّة منها – تستحقُّ الإشادة الكاملة و التقدير الواجب و بطريقةٍ تليقُ بكاتب وفيلسوف إنكليزيٍّ متفرّد تمرّدَ على التّقاليد الثّقافيّة الأنكلوسكسونيّة و الفرانكوفونيّة السّائدة وَإمتلك رؤيةً بطوليّة لعصرنا و لم يتخاذل أمام الصّعاب و حافظ على روح التفاؤل الشّجاعة تحت أقسى الظّروف حتّى غدا رمزاً يستحقُّ البحث المُعمّق و القراءة الجادّة.

لطفيّة الدّليمي

عمّان: ٧ آذار ٢٠١٥

القسم الأوّل

إضاءات في فكر الكاتب كولن ويلسون وَ حياته

الفصل الأوّل

في إستذكار عقلٍ شغوف

١. الوجوديّ المنسيّ

ما إنفكّ كولن ويلسون يمثّلُ في المخيّلة الشعبيّة ذلك الكاتب الّذي تناول جملةً من الموضوعات المتباعدة – بل حتّى المتنافرة أحياناً – في كتاباته الكثيرة: الجريمة و الإنحراف السلوكيّ، الظواهر الخارقة للوعي البشريّ الإعتياديّ، حفريّات المعرفة، الوجوديّة الجديدة و سايكولوجيا الوجود البشريّ،،،،،، و لكن لا تزال طائفةٌ عريضة من القرّاء الأكبر عمراً تذكرُهُ في هيئة ذلك الشاب الطموح ذي الستّ و العشرين عاماً مؤلّف كتاب (اللامنتمي) الّذي نشر عام ١٩٥٦ و الّذي حاز قبولاً واسعاً بين الأوساط الفلسفيّة و سواها و أطراها الكثيرون من كبار النقّاد و مراجعي الكتب إذ رأوا في الكتاب تحليلاً ممتازاً لموضوعة الإغتراب الفلسفيّ و السايكولوجيّ و الذهنيّ السائدة في القرن العشرين مع إستعراض شامل لانماطٍ عديدة من الشخصيّات المهمّة الّتي عدّها ويلسون نماذج معياريّة في الإغتراب و اللاإنتماء الفلسفيّين. قذف " لا منتمي " ويلسون بمؤلّفه في أحضان الشهرة و الأضواء مبكّراً و بات ويلسون أيقونة قياسيّة للشابّ الصغير الغاضب و الناقم على مجتمعه، و لكن لسوء الحظّ فإنّ محصّلة الشهرة العريضة

و الأضواء البرّاقة الّتي سلّطت على عمل ويلسون مع ما رافقها من سطحيّة فجّة في تناول عمله من قبل الأوساط الصحفيّة الّتي تسعى للمكاسب الآنيّة شكّلت إرتداداً ربّما أثّر كثيراً في عمل ويلسون اللاحق الّذي ظهر عام ١٩٥٧ تحت عنوان (الدين و المتمرّد Religion and the Rebel) (ترجم في عالمنا العربيّ و ظهر في الأسواق بعنوان سقوط الحضارة، المترجمة)، فقد قوبل العمل بإنتقادات شنيعة و قاسية للغاية من قبل ذات النقّاد الّذين كالوا المديح و أسهبوا في إطراء عمل ويلسون الاوّل و منذ ذلك الحين تُركَ ويلسون في البرّية ليقيم أوده و يصارع الوحوش بنفسه من غير مُعين !! و لكن الرّجل مع كلّ هذا لم يركن إلى الخنوع و لم يتوقّف يوماً عن الكتابة و أنجز أعمالاً لاحقةً كثيرة تستحقّ قراءة متفحّصة و جدّية و بخاصّة تلك الّتي كتبها في العقد الستّيني من القرن العشرين قبل أن تفرض إشتراطات سوق النشر شروطها القاسية عليه إلى حدّ جعله يحيد بإتّجاه الاعمال الّتي تلقى رواجاً شعبيّاً و الّتي كانت ربّما أقلّ رصانة من سابقاتها، كما أنّ الرجل لم يستطع كبح جماح هواه الجارف و شغفه الثابت في مقاربة موضوعات أنماط الوعي غير الإعتيادي العابر للوعي اليومي و البديهيّ، و الإحساس الفائق، و التصوّف.

عُدّت أفكار ويلسون: ذلك الوجوديّ الإنكليزيّ الّذي يندر مثيله بين الوجوديّين الإنكليز، غريبة و صادمة و غير متناغمة مع التيّار الفلسفيّ العام السائد في العالمين الأنكلوسكسونيّ و الفرانكوفوني معاً في القرن العشرين، و لطالما إزدرى الرّجل ما رأى فيه صياغة متيبّسة مفتقدة إلى الشغف و الّتي تظهر في أدبيّات التيّارات الفلسفيّة السائدة بكلّ مدارسها: الوضعيّة Positivism، التحليل اللّغوي، الأختباريّة Empirical،،،،،، و حاجج الرجل أن ديكارت لا

يمثّل نقطة الشروع في إنطلاق الفلسفة الحديثة بل قادها إلى طريق مسدود، و لم يحمل تقديراً عالياً لأعمال برتراند راسل و عدّه طالب مدرسة متفوّقاً ذا أصول أرستقراطيّة حسب !!!. إشترك ويلسون مع الفيلسوف الشهير أي. جَي. آير(*) A. J. Ayer لبرهة من الوقت في ممارسة لعبة مسلّية لكليهما تقضي بأن يكتب كلّ منهما مراجعة نقديّة قاسية متى ما نشر أحدهما كتاباً و مضيا في إستمراء هذه اللعبة حتّى توقّف ويلسون عن كتابة هذه المراجعات فكان على آير أن يتوقّف هو الآخر عن كتابتها.

كانت العلامة المميّزة الّتي وسمت أعمال ويلسون و أفكاره منذ بواكير أعماله الأولى هي نفوره الثابت من الوجوديّة العدميّة القاتلة الّتي كان يروّج لها كلٌّ من سارتر و كامو في الضفة الفرانكوفونية المقابلة للساحل الإنكليزيّ رغمَ أنّه كان متعاطفاً إلى أبعد الحدود مع إنشغالاتهما الفلسفيّة و طرائقهما في الفكر و التحليل. كانت الوجوديّة بالنسبة إلى ويلسون الحركة الفلسفيّة الأكثر أهمّية في القرن العشرين، لكنّه رأى انّها إنحرفت عن مسارها منذ عام ١٩٢٧ على يد (مارتن هايدجر Martin Heidegger) في كتابه (الوجود و الزمان Being and Time) عندما حاد عن فكرتها الأوّليّة المؤسّسة على ظاهراتيّة هوسرل، و هنا توجّب على ويلسون أن يعود إلى أصل المنبع الظاهراتي لفكر هوسرل و يشرع تبعاً لذلك في بناء هيكليّة جديدة للوجوديّة: وجوديّة جديدة مختلفة نوعيّاً عن وجوديّة سارتر و كامو، ثم مضى الرجل في التعريف بهذه الهيكليّة الجديدة للوجوديّة في كتابه (اللامنتمي) و سلسلة الكتب الّتي تنحو في ذات إتّجاهه حيث عرض فيها وجوديّةً مغلّفة بحسّ رقيق من التفاؤل على العكس من النزعة العدميّة القاتلة الّتي وسمت الوجوديّة في نسختها الفرانكوفونيّة،

ثمّ شرع ويلسون في إلباس ثوبٍ من العقلانيّة و المحاكمة المنطقيّة للحس التفاؤليّ هذا. يبدو ويلسون متفّقاً مع سارتر و كامو في النظرة المفاهيميّة الأساسيّة عن طبيعة الوجود البشريّ و لكنّه تقاطع معهما عندما قفزا إلى الإستنتاج الكيفيّ المحض بأنّ الحياة هي بالضرورة تراجيديا عدميّة: فقد جادل الرجل أنّ هذا الإستنتاج محض قناعة شخصيّة لا يدعمها أيّ منطقٍ عقلانيّ و لا ينبغي أن ترقى بأيّ حال من الأحوال إلى مرتبة إعتبارها حقيقة موضوعيّة ناجزة لكونها تعكس وجهات نظر الفيلسوفين و رؤيتهما الفلسفيّة و السايكولوجيّة الشخصيّة فحسب: فقد عُرِف عن ويلسون كونُهُ شابّاً مفعماً بالتفاؤل و لم يكن له متّسعٌ من وقت يقضيه و هو حبيسُ الدياجير المظلمة لأقبية سارتر و كامو الوجوديّة في الوقت الّذي كان فيه الرجلان ذوي نزعاتٍ تشاؤميّة حالكة، و لم تكن وجوديّتهما الّتي لطالما بشّرا بها سوى إستجابةٍ عاطفيّة لتركيبتهما السايكولوجيّة الميّالة إلى التشاؤم.

الميزةُ الثانية الّتي تسِمُ أعمال ويلسون هي إفتتانهُ و إنسحارهُ بالمديات الّتي يمكن أن تبلغها القدرة البشريّة و تلك إحدى المظاهر المبكّرة الّتي عكسها شغفهُ الواضح بالظواهر غير الإعتياديّة السائدة في الحياة الإعتياديّة حتّى لكأنّ الرجل بدا ممسوساً على الدوام بفكرة أنّ الوعي اليوميّ الإعتياديّ يعمل في مستوىً أدنى بكثير ممّا هو خليقٌ ببلوغه، و أنّ أصل العبثيّة الوجوديّة الّتي ينادي بها البعض و يروّج لها بإستماتة إنّما يكمن في الميل الطبيعيّ للعقل البشريّ إلى الإنزلاق في حالة الكسل الذّهني و الإسترخاء البليد عندما لا يتمّ قدحه على الدوام بمحفّزاتٍ تختلف نوعيّاً عن المُحفّزات السائدة في حياتنا اليوميّة الكسولة الّتي أجاد ويلسون عندما وصفها بكونها شبيهة بوضعيّة الطيّار الآلي Autopilot في الطائرة: حالةٌ من التبلّد و الضجر الممتدّين

بلا نهاية. كتب ويلسون عن قدرة العقل البشريّ عبر التدريب المنضبط في الوصول إلى حالة من الوعي الكامل: ذلك الوعي الشبيه بوعي الطفل في الليلة الّتي تسبق ليلة عيد الميلاد عندما يغمره الإحساس بأنّ الحياة غنيّة و مليئة بأطايب الأشياء و تعِدُ بالكثير من الآمال و التوقّعات المبهجة الّتي لطالما دعا الآباء المؤسّسون للوجوديّة جنباً إلى جنب مع الرومانتيكيّين إلى طردها و قذفها في سلّة المهملات بإعتبارها زيفاً خالصاً و خداعاً ذهنيّاً، و لكن بالنسبة إلى ويلسون فإنّ وجهة النظر التشاؤميّة عن العالم هي ذاتها ما يستحقّ بكلّ جدارة و عدالة أن يوصف بالزيف الخالص، و أنّ حالات الوعي الكامل المترافق مع تجارب الذروة Peak Experiences هي وحدها المستحقّة أن تكون شاهداً أميناً عن الحقيقة في هذا العالم، لذلك رفض ويلسون عمل سارتر المعنون (الغثيان) و عمل كامو المعنون (السخيف) و عدّها أعمالاً تنمّ عن كسل عقليّ، كما إتّهم الكتّاب من أمثال سارتر و بيكيت في أحد النصوص النادرة من كتاباته بانّهم يسمّمون الثقافة الجمعيّة للمجتمع بطريقة ساخرة و مقيتة كما لو أنّ أحداً يسمّم مصدر الماء الّذي يشرب منه الجميع !!!، و لابدّ من الإشارة هنا أنّ ويلسون لم يكن ليدعو إلى توسيع تخوم الوعي البشريّ عبر تخليق أوهام ذهانيّة سمعيّة أو بصريّة تحدثها المكيّفات العقليّة إبتداءً بالكحول و صعوداً حتّى أخر قائمة المخدّرات الخطيرة الّتي تحرف المزاج الذهني و تدفع بالفرد في هوّة سحيقة بعد أن تدمّر فعالياته العقليّة، كما لم يدْعُ الرجل يوماً إلى مخالفة التقاليد الثقافيّة المحترمة السائدة بل هو على العكس من ذلك يدفعنا دفعاً إلى الإنغمار في خضمّ عمليّة ذهنيّة جدّية تقوم على الإنضباط العقليّ الصارم. يرى ويلسون أن الكائنات البشريّة غارقة في طوفانٍ من الروتين البديهيّ و لطالما رأى الرجل انّ

الإشكاليّات المحيقة بالوجود البشريّ ناجمةُ عن ميل الأفراد للتقليل من قيمة ما يحوزونه من قدرات جوّانيّة مخبوءة لم يختبروها من قبلُ و ربّما كان حديثهُ الواضح و المباشر في هذه المسألة يبدو للكثيرين أقرب إلى المثاليّات اليوتوبيّة على الرغم من إقرار منتقدي أعماله العتيدين بأنّ واحدةً من أهمّ سمات أعماله – و بخاصّة أعماله الأولى – هي أنّها تأسّست على قاعدة متماسكة من المنطق و العقلنة.

سواءً إتّفقنا أم لم نتّفق فإنّ عمل ويلسون (اللامنتمي) و سلسلة الأعمال اللاحقة الّتي نحت منحاه بالإضافة إلى عمل ويلسون الضخم و المثير المعنون (التأريخ الإجرامي للإنسانيّة A Criminal History of Mankind) المنشور عام ١٩٧٥ توفّر كلّها أدلّة كافية للأخذ بجدّية بحديث ويلسون عن إحداثه ثورة صغيرة في السياق الفلسفيّ السائد لأنّه إستطاع إضفاء سمةٍ إنسانيّة تفاؤليّة على النزعات الوجوديّة العدميّة السائدة، و سيثبت الرّجل مع الأيّام أنّ أعماله – و بخاصّة تلك الّتي أشرنا إليها أعلاه – تستحقّ الإشادة الكاملة و التقدير المستوجب لوجوديّ إنكليزيّ متفرّد بات أيقونةً تستحقّ عبء البحث المعمّق و القراءة الجادّة.

ماثيو كونيام Matthew Coniam

مجلّة الفلسفة الآن Philosophy Now

٢٠٠١

* أي. جَي. آير Sir Alfred Jules Ayer : فيلسوف بريطاني مرموق

ولد عام ١٩١٠ و توفّى عام ١٩٨٩ و يعدّ أحد أقطاب الفلسفة الوضعيّة المنطقيّة Logical Positivism التّي إرتقى بها في كتابيه الذائعين: اللغة و الصدق و المنطق Language ، Truth and Logic عام ١٩٣٦، و مشكلة المعرفة The Problem of Knowledge ١٩٥٦. درّس في جامعات مرموقة مثل الكلية الجامعة و أكسفورد كما عمل رئيساً للجمعية الأرسطوطاليسيّة للفترة ١٩٥١ - ١٩٥٢ و حصل على لقب (فارس) عام ١٩٧٠. نشر حوالي ثلاثين كتاباً في مختلف الإشتغالات الفلسفيّة و العامّة لاقت صدىً واسعاً في كلّ انحاء العالم، نذكر منها:

- أصول البراغماتيّة The Origins of Pragmatism، ١٩٦٨.
- الميتافيزيقا و الحس العامّ Metaphysics and Common Sense، ١٩٦٩.
- الفلسفة في القرن العشرين Philosophy in the Twentieth Century، ١٩٨٢.
- الحرية و الاخلاق و مقالات أخرى Freedom and Morality and Other Essays، ١٩٨٤.
- معنى الحياة و مقالات أخرى The Meaning of Life and Other Essays، ١٩٩٠. (المترجمة)

٢. اضاءات في السيرة الذاتية للروائي – الفيلسوف الراحل (كولن ويلسون)

غاري لاكمان Gary Lachman: مؤلف كتاب (ربة الالهام المظلمة: كتاب دايدالوس للسحري الغامض The Dark Muse: The Daedalus Book of the Occult) هو أحد المعجبين الكبار بالسيرة الذاتية لويلسون و يُعِدُّها الأكثر إفصاحا و كشفا بين جميع السّير الذاتية المنشورة و قد كتب عنها التعليقات التالية في صحيفة (الإندبندنت) اللندنية في ٦ حزيران ٢٠٠٤ بعد بضعة أيام فقط من نشرها و أعيد نشرها في موقع (Colin Wilson World).

المُترجمة

عندما كان بعمر السادسة عشرة قرّرَ كولن ويلسون الإنتحار بعد أن تخلى عن المدرسة و إنخرط في سلسلة من الأعمال غير المجدية التي قادته الى حالة من الإكتئاب المقترن بظلمة عقليّة مُستعصية و شديدة التعقيد، و كان ويلسون يؤمن يومذاك بالرؤية غير الواعدة التي ما انفكّت تقول له أنْ ليس من المنطقي أن يمضي بحياته على هذه الشاكلة و لكن المفارقة هي أن فكرة الإنتحار ذاتها جعلته – كما يدوّنُ في سيرته – مسؤولاً عن نفسه و عن مصيره الشخصي.

دخل ويلسون ذات يوم مختبر الكيمياء في مدرسته التي غادرها و أزاح سدادة قنينة حامض الهيدروسيانيك التي كانت قادرة على قتله في ظرف ثواني معدودات، و في تلك اللحظة ذاتها يقول ويلسون أنه رأى ذاته و قد إستحال مخلوقيْن: المراهق الأخرق الذي على وشك أن يضع حدّاً لحياته، و شخص آخر أكثر حكمة من المراهق لكنه ذو روح قلقة مضطربة. يحكي ويلسون أنّ رؤية " الثّراء الهائل للحقيقة " الذي إنكشف أمامهُ من وراء محاولة الإنتحار تلك و ما نجم عنها من تجربة ذروةٍ (*) Peak Experience أضحت في البؤرة من كلّ عمله اللاحق الذي إمتدّ عقوداً بعدها. الآن و بعد أن صار ذلك الفتى المراهق الذي إبتغى يوماً قتل نفسه بعمر الثالثة و السّبعين (يشير الكاتب هنا إلى عمر ويلسون في تأريخ نشر مذكراته عام ٢٠٠٤، المترجمة) فقد نشر سيرته الذاتيّة (الحلم بغايةٍ ما) و التي هي مراجعة ممتِعَةٌ و جذابة القراءة لحياة كولن ويلسون وَ عملِه، وَهي تفيض في الكلام عن كل تجارب الرّجل إبتداءً من اللحظة التي قَرّر فيها إعادة سدادة قنينة حامض الهيدروسيانيك إلى مكانها و المُضيّ في مواجهةِ حياته بشجاعة.

ما يعرَفُ عن ويلسون أكثر من أيّ شيء آخر هو انتقاله من الفقر المدقع الى البحبوحة الماليّة مع نشر كتابه الأول (اللامنتمي)، ففي ٢٨ أيار ١٩٥٦ إستيقظ كولن البالغ ٢٤ عاما آنذاك من نومه ليجد نفسه و قد أطبقت شهرته الآفاق بعد أن إعتاد على النوم داخلَ حقيبةٍ في ساحة هامبستد هيث. كان اللامنتمي دراسة في الإغتراب و الحالات العقلية المتطرّفة التي طبعت حياة بعض الكُتاب و المُبدعين و قد كتب ويلسون الكتاب و هو يقضي جُلّ أوقاته في غرفة القراءة القديمة في المتحف البريطاني، وَ أشيد بكولن ويلسون على أثر نشر الكتاب و وُصِفَ الكاتب بأنه " الوجوديُّ المصنوع صناعة بريطانية

خالصة ". كان جون أوزبورن John Osborne قد نشر في ذات وقت نشر اللامنتمي عمله الأشهر (أنظر وراءك بغضب) و هكذا وجد الإثنان – ويلسون و أوزبورن – نفسيْهما و سط عاصفة جماهيريّة خلقت جماعة " الشّبابُ الغاضب The Angry Young Men ". قبل نشر اللامنتمي كان جلُّ همّ ويلسون هو تفادي التبعات المؤلمة للحياة الحديثة و قد ساعدته سنواتٌ من القراءة و الكتابة المُنظمة و المنضبطة على خلق ثقة عالية بنفسه و ساهمت التعليقات الداعمة من قبل مراجعي الكتب الذين فتنوا بعمله الأول – و في مقدّمتهم فيليب توينبي و سيريل كونوللي – في تدعيم قناعته المتنامية بأنه ولد ليكون كاتبا مُبرّزاً.

عندما نقرأ في سيرة ويلسون المبكرة يمكن لنا أن نتحقّق من رسوخ فكرة عظم المَدَيات الّتي يمكن أن يقود إليْها الإيمان بالذات: فبعد أن تخلّى ويلسون عن الخدمةِ في القوّة الجّية الملكّية بإدّعائه أنّه مثليٌّ جنسياً ظل يتنقلُ من عمل لعملٍ و من غُرفَة بائسة لأخرى أكثر بؤساً في ليسستر و لندن تخلّلتها بضعة أشهر قضاها متجوّلاً في فرنسا يبيعُ قسائم الإشتراك في مجلة (باريس ريفيو) و عن هذا يكتب ويلسون (إنّ العمل الكئيب الذي يمارسُهُ المرءُ إلى جانب العيش في غرفة شبيهة بالسجن و الإنغماس في علاقاتٍ متعدّدةٍ مع السيّدات الجحيميات لهو الطريق المؤكّدُ لِوَهَن و خسارة روحك العصيّة على الفناء)، ثم جاء الحدث غير المتوقّع عندما وجد ويلسون نفسه زوجاً و أباً و هو بعمر العشرين: ذلك الحدث الذي أحدثَ ندوباً غير قابلة للشفاء في رومانتيكيّة ويلسون الرقيقة. كانت أحدى وسائل ويلسون لمعالجة هذا الجّدب الروحيّ في حياته هي الإنغماس في التأمّل و إلتقاط شذراتٍ من حكمة باغافادغيتا Baghavad Gita و كانت وسيلته الثانية الإرتماء

في الجنس. يبدو ويلسون أكثر من مجرّد رجل نزيه و غايةً في الصّراحة و الكشف فيما يتعلق بأهمية الجنس في حياته فثمة رغبة جارفة لديه يمكن وصفها بانها " إكلينيكية " في البوح بتفاصيل جموحه الجنسي التي تقدّمُ أعذاراً لبعض نزواته السّاخنة !! و مع أنّه بات مقتنعاً اليوم أنّ الجنس ممتعٌ في ذاته و أنه يبقى " وهما غير جوهري " و لا ينبغي التعويل عليه و دفعُهُ إلى مرتبة ملحميّة فإنّ الأعمال المبكّرة لويلسون مثل عمله الرّوائي (طقوسٌ في الظلام) و دراسته الظاهراتيّة في (أصول الدافع الجنسي) بالإضافة الى دراسات و مباحث أخرى له قد أوجدت رابطةً بين الفعل الايروتيكي مع كلٍّ من العناصر التصوّفية و الإجراميّة في النفس الإنسانية. كان ويلسون – و كأغلب المراهقين الصّبيان من نظرائه – مسكوناً بالجنس و قد تطورت لديه في عمر مبكّر النزعة الفيتيشية في الإستغراق بِأحلام اليقظة اللذيذة أمام الملابس الداخلية للنساء و ربما التعبّد أمامها كما تفعل القبائل البدائية امام طوطمها، و يتحدّثُ ويلسون عن تجاربه هذه بكل إنفتاحٍ في سيرته الذاتية و يقول أنّها تطوّرت لديه منذ أن كان صبياً صغيراً حيث إعتاد أن يلبس بعض القطع من ملابس أمّه الداخلية.

ويلسون راوي حكايات جذاب، وتزخر سيرته بحكايات غايةٍ في الإمتاع عن لقاءاته مع المشاهير من الكُتّاب و المبدعين بعدَ أنْ وجد نفسه يستحيلُ من محض متسكّع ضائع يعيش في حقيبة نوم بائسة ليتفادى دفع الإيجار الى أحد المشاهير المحسوبين على الطبقة المثقّفة العليا: اليوت، أودن، أنكوس ويلسون، كنغزلي أميس، إلياس كانيتي، أنتوني بيرغيس، ألبير كامو، روبرت غريفس، آيريس مردوخ الى جانب بعض الشخصيّات المعروفة الأخرى مثل مارلين مونرو. لم يكن غريباً ان ترى ويلسون يتبادل الآراء حول " ترومان كابوت " مع نورمان

ميللر، و أن يخوض أولى معاركه الأدبية مع كينيث تينان، و أن يتساءل فيما اذا كان غراهام غرين ذا ميل للإستغلال الجنسي للأطفال، و أن يحكي عن ذكرياته فيما يخصُّ مهنة الكاتب جون برين. في الستّينات المتأخّرة من القرن العشرين كانت أعمالُ ويلسون قد شهدت خسوفاً لما يقاربُ العقد الكامل و ربّما كان هذا ردّ الفعل العنيف للهتاف المدّوي الذي قوبلت به أعماله المبكّرة، و لكن مع إطلالة عام ١٩٧١ وجد ويلسون نفسه ضمن قائمة الكتّاب الأفضل مبيعاً بعد نشر مُجلّده الضخم عن الظواهر الخارقة، و بعد نشر كتابه الآخر عن السّحريّ و الغامض إستحال ويلسون و بحسب كلماته هو ذاته " ألة كتابة " و كان مهووساً بالعمل و هو قابع أغلب الوقت في منزله بمُقاطعةِ كورنوول حيث إعتاد نشر الكتاب بعد الآخر في موضوعات مختلفة لكن بثيمات متقاربة: الجّريمة، القتلة التسلسليّون، الظواهر الخارقة، السّايكولوجي، الجنس، الصحون الطائرة، الحضارات القديمة، السيرة (فقد كتب سيرة كل من فيلهلم رايخ، أليستر كرولي، رودولف شتاينر، غوردجيف،،،،،،) بالإضافة الى عدة روايات، و يخصّصُ ويلسون النصف الثاني من سيرته الذاتية للكتابة عن " الصّواميل و البراغي " أي العدة اللازمة لكي يكون من يرغبُ من الناس كاتبَ محترفاً و مدمناً للعمل.

عانى ويلسون لفترةٍ ما من حياته نوباتِ ذعرٍ قاسية جعلته غير واثق من هويّة " حقيقته الذاتية " و لكنه إستطاع و ببطء أن يتعلّم كيف يتمكنُ من السّيطرة على هذه النوبات، و هو يخشى على الدوام من أن تكون له وجهات نظر غير معتادة للآخرين في ثيمات محددة: الأرواح الشريرة Poltergeist التي تنشأ عن الأرواح، أرضنا التي زارها زوّارٌ من خارج مجرّتنا الأرضيّة في الماضي البعيد جداً، إمكانيّة نشوء

الحضارات المعروفة في وقتٍ أبكر بكثير ممّا يحدده الأركيولوجيّون، و أنّ ثمّة شواهدّ كافيةّ لنوعٍ من أنواع الحياة بعد الموت، و يعلّقُ ويلسون على آرائه هذه و أمثالهاً في عبارة واحدة شديدة الإقتصاد: " إقبلْها أو أتركْها "، و قد يحصل كثيراً أن لا نشاطره في الكثير من آرائه و لكن القارئ المتفتح الذهن يدرك أنَّ ويلسون لم يتوصل لقناعاته هذه بسهولة أو نتيجة مقاربات سطحية و أن كشوفاته هذه ليست ضرورية و لازمة – كما يذكر هو في سيرته الذّاتيّة – لبلوغ رؤيته الأساسية و قناعته الملهمة في " القوّة الكاشفة للعقل الشغوف التي قلما نفهمها للآن ".

بكلمات شخصية دافئة شغوفة و متخمة بالكرم و البهجة يعترف ويلسون بأنّ " كوْننا أحياءً هو واجب قاسٍ يدعو للتجهم و الإكتئاب " و لكنّ (الحلم بغاية ما) هو دليل مقبول يؤكد أنّ الناتج من هذا الحلم يستحقُّ كلّ الجهد المبذول للإنخراط الشّجاع في هذه الحياة.

* تجربة الـذروة Peak Experience: حالةٌ من إختبار وعـي مفارق للوعي البشريّ الإعتياديّ تقترن بنشوة ecstasy و زهو euphoria يقودان إلى الإحساس بالتوازن الداخلي العميق و الإنسجام و الهارمونيّة و التداخل المركّب مع كلّ الموجودات في الطبيعة و الكون، و غالباً ما تقترن الحالة أيضاً مع تمظهرات روحانيّة شبيهة بتلك الّتي نقرأ عنها في الفلسفات الآسيويّة، أمّا في التراث المشرقيّ السائد – و منه التراث العربيّ و الفارسيّ و التركيّ – فإنَّ الحالة الأقرب إلى تجربة الذروة هي الكشوف العرفانيّة و الفيوض الرؤيويّة الّتي كتب عنها عرفانيّونا الأكابر. أستخدمت مفردة تجربة الذروة لأوّل مرّة على يد عالم النفس الأمريكيّ الشهير

إبراهام ماسلو Abraham Maslow حيث جعلها تظهر على غلاف كتابه المنشور عام ١٩٦٤ تحت عنوان (الأديان و القيم و تجارب الذروة ، Religions Values and Peak Experiences). تحدّث ويلسون في الفصل الأوّل من سيرته الذاتية عن صداقته العتيدة مع ماسلو كما وصف بعضاً من تجارب الذروة الّتي خبرها في حياته. (المترجمة)

٣. التفاؤل في مواجهة العدمية القاتلة

المقال التالي واحد من المقالات االتي تنتمي إلى صنف المقالات الرصينة غير الملوّثة بصبغة الأهواء الأيديولوجيّة المؤذية، و كاتب المقال هو البروفسور جون شاند John Shand أستاذ الفلسفة في الجامعة المفتوحة في بريطانيا، و المقال منشور في موقع Academia. edu ذي الرصانة الأكاديميّة الهائلة و المعروف للطلبة و الأساتذة و الباحثين في مختلف المجالات المعرفية و هو بهذا شبيه بكونه نافذة للنشر الألكتروني لمن يتوسّم في نفسه الكفاءة و المقدرة الأكاديميّتين، و أشير هنا أنّ البروفسور شاند مؤلّف كتب فلسفيّة عديدة ذات صيت عالميّ نذكر منها: (فلسفةٌ و فلاسفة Philosophers (Philosophy and) ٢٠٠٢، (أساسيّات الفلسفة Fundamentals of Philosophy) ٢٠٠٣، كما حرّر كتابين فلسفيّين هما: (الأعمال الأساسيّة في الفلسفة Central Works of Philosophy) في خمسة أجزاء بين عامي ٢٠٠٥ – ٢٠٠٦، و (الموضوعات الأساسيّة في الفلسفة Central Issues in Philosophy) ٢٠٠٩.

المُترجمة

عندما بلغ كولن ويلسون السادسة عشرة من العمر عزم على قتل نفسه، و يمكن عدُّ كلّ عمله الذهنيّ اللاحق أثناء حياته إستجابةً فلسفيّة

للتساؤل الممضّ: لماذا لا ينبغي للمرء الإقدامُ على قتل نفسه ؟. أعمال ويلسون تحومُ حول ثيمةٍ أساسيّة هي أنّ المرء لا ينبغي أن يُهزَمَ بدفعٍ من أفكاره عندما يجتاحه الإنطفاء العقليّ و الخواء الروحيّ في مقاطعَ زمنيّة محدّدة من حياته، و أنّ فعل قتل النفس هو أكثر الخيارات سوءً من بين كلّ الخيارات الّتي يمكن تجريبها. عملَ ويلسون و أنجز الكثير طوال حياته خارج الأوساط الأكاديميّة الّتي قابلتْه بجحود و نكران و لم تفرد له مساحة في نشاطاتها الأكاديميّة، و بالرغم من ذلك فإنّ عدداً مدهشاً من الأفراد رأوا فيه مُلهِمهُم الدافع للإنغمار في دراسة الموضوعات الفلسفيّة و لم يكن الرجل من جانبه ليعدم من يعجَبُ به داخل الأوساط الفلسفيّة الأكاديميّة و خارجها في الوقت ذاته كما يعبّر البروفسور ستيفن كلارك Stephen Clark أستاذ الفلسفة في جامعة ليفربول بالقول " يمتلك ويلسون أفكاراً مهمّة في الميدانين الفلسفيّ و السايكولوجيّ و بخاصّة في ميدان الشغف و الضجر البشريّين و لستُ أعرف من بين الفلاسفة و السايكولوجيّين من كتبَ بمثل ما كتب ويلسون فيما يختصّ بالضجر: المرض الفلسفيّ الذي يدفع بإتّجاه هوّة حياتيّة تقود إلى الكثير من الآلام "، و كتب روبرت سولومون Robert Solomon الأستاذ المتمرّس للفلسفة في جامعة تكساس – أوستن قائلاً " بدا لي كولن ويلسون على الدوام روحاً بعيدةً من أحد أسلافي الموغلين في القدم "، و لطالما لقيت إستقلاليّة ويلسون العقليّة و سعة إطّلاعه و عدم خضوعه للنمطيّات الثقافيّة السائدة إطراءً عظيماً من جانب الكثيرين و بخاصّة روجر سكرتون Roger Scruton (*) .

في عام ١٩٥٦ و عندما كان ويلسون في الخامسة والعشرين نشر كتابه الأوّل " اللامنتمي The Outsider " الّذي جعله شخصيّة شهيرة بين ليلةٍ و ضحاها، و فضيلة اللامنتمي و سلسلة مؤلّفات ويلسون الّتي

تندرج في ذات السياق هي أنّها أسّست لما بات يعرفُ ب " الوجوديّة الجديدة The New Existentialism " الّتي أرادها ويلسون أن تكون وسيلة فعّالة في مقاومة النزعة الأنهزاميّة Defeatism في الحياة و الّتي كانت سائدة آنذاك. يتساءل ويلسون: لماذا لا نُمضي حياتنا مبتهجين و مُقبِلين على الحياة بدل النزوع إلى مغادرتها بفعل قصديّ قاتل ثمّ يمضي في القول " تنطلق الوجوديّة من تساؤل كيركيغارد: ما الّذي أفعله في هذا المكان الّذي وُجِدتُ فيه ؟ من رَماني في هذا المكان ؟ و ما الأشياء الّتي وُجِدتُ لأكون خليقاً بفعلها ؟ ". يبدو واضحاً لنا و بصورة حدسيّة تماماً – رغم أنّ الفلسفة الأكاديميّة تنكر هذا الحدس – أنّنا نعلم أنّ حيواتنا مصمّمةٌ لتكون ذات معنىً و أنّنا ينبغي أن نسعى لجعلِ حيواتنا تحوزُ ما يستحقّ من معنى و ندركُ هذا عندما نُقدِمُ على فعلٍ جميل أو طيّب: الوقوعُ في الحبّ، النهوض صباحاً مع الإنغمار الكامل في حالة وعي الصباحات الربيعيّة، إستعادة طفلك المحبوب بعد أن تكون ظننته ضاع منك، الإستماع إلى الموسيقى،،،،،،.

كانت الصورة الشعبيّة السّائدة عن الوجوديّة إبّان عقدَي الخمسينات و الستّينات من القرن العشرين – كما جسّدتْها شخصيّتا سارتر و كامو – هي الإدراك الذاتيّ لما أُفترِضَ فيه أن يكون أعلى مراحل الحكمة المؤسّسة على قاعدة عبثيّة الأشياء و الأفكار، و أنّ الأرواح الراكدة الخادعة لذاتها و الّتي تدعو إلى الشفقة هي وحدها التي تظنّ أنّ ما تأتي به من أفعال يمكن أن يكون له شأنٌ في هذه الحياة، و وحدهم الأغبياءُ و المفتقدون للإحساس هم الّذين يرون معنىً و قيمةً في هذا العالم. إستكشف ويلسون بشجاعة في كتابه الأوّل هذه الفكرة المتشائمة الّتي ألبسها الوجوديّون لبوس الفكرة الأصيلة، و مضى يفحص حيواتِ شخصيّاتٍ لطالما نظرنا لها بكونها ممثّلة لفكرة

البطولة المعاصرة في أدب القرن العشرين و ثقافته، و جادل بقوّة أنّ الفكرة العدميّة السائدة آنذاك ليست محض مشكلة محلّية تخصّ الوجوديّة السائدة بل هي خليقةٌ بأن تقود الوضع الإنسانيّ بكامله في وجهة محدّدة ذات عواقب ثقيلة الوطأة و خطيرة النتائج حتماً.

إنّ المفتاح في فهم فكر ويلسون هو أنّنا ننقادُ إلى حالة العدميّة بفعل خطأ أساسيّ ناجم عن قصور فلسفيّ، و أنّ هذا الخطأ يكمن في عدم إمتحان عقولنا و وعينا قبل المضيّ في إمتحان العالم الّذي وُجِدنا فيه جنباً إلى جنب مع منظومة القيم السائدة في العالم، و جوهر هذا الأمر ينبع من ظاهراتيّة هوسرل المؤسّسة على قاعدة من الموضوعيّة العلميّة، و هذه هي ذات نقطة الإنطلاق الّتي شرع منها سارتر في بناء وجوديّته و لكنّ الفرق الجوهريّ أنّ ويلسون يأخذ هوسرل في مسارٍ يختلف عن ذاك الذي يأخذه سارتر إليه و هو الأمر الّذي إنتهى بويلسون لتخليق ظاهراتيّة وجوديّة إيجابيّة مستحدثة تقوم على دراسة هيكلة إدراك وعينا البشريّ ؛ الأمر الّذي يمكن أن يقود إلى مجاوزة حالة العدميّة الوجوديّة الّتي بشّر بها الآباء المؤسّسون للوجوديّة. كتب ويلسون يقول " نيتشه هو الفيلسوف العظيم الوحيد الّذي أرى أنّه نجح في ممارسة نمطٍ من الرواقيّة العنيدة و تمكّن من إحداث إنقلابٍ جذريّ في حياته من العدميّة الكاملة صوب التفاؤليّة الكاملة، و هذا هو الأمر الّذي يدعوني لأرى في نيتشه الشخصيّة الفلسفيّة الأهمّ من بين كلّ الفلاسفة ". ثمّة خطيئة فلسفيّة أخرى سائدة لطالما أشار إليها ويلسون في أعماله: تلك هي أنّ الفلسفة الأكاديميّة في نسختها السائدة لا تتعامل مع الطيف الكامل لمدى التجربة الإنسانيّة و تطرح جانباً ما تراه غير جوهريّ بالنسبة إلى الموضوعات الفلسفية و هنا تنشأ المشكلة المستعصية الّتي عبّر عنها الفيلسوف ألفريد نورث وايتهيد

Alfred North Whitehead بوضوح عندما كتب " ينبغي علينا دوماً أن نأخذ في حسباننا التعامل مع كلّ أشكال الوعي: أن نتعامل مع وعي شخص ثمل بنفس أهمّية تعاملنا مع وعيه الرصين، و أن نتعامل مع الوعي الشعريّ بنفس أهمّية تعاملنا مع الوعي غير الشعريّ، و أن ليس من شكلٍ للوعي يمكن طرحه جانباً " ثمّ يمضي في القول " الفلسفة تبدأ من لمحات، حدوسات، رؤى،،،،، قبل أن تتدخّل اللغة و تتكفّل بإنجاز العمل الفلسفي بأكمله "، و اللمحات الدافعة للنظر الفلسفيّ الّتي أشار إليها وايتهيد يمكن وصفها بالحقيقة الواسعة: الحقيقة الّتي يرى بها الإله أوليمبوس العالم أو الحقيقة الّتي تبدو لعين الطائر المحلّق في تخوم الفضاء البعيدة و هي بالتأكيد مختلفة جوهريّاً عن الحقيقة اليومية الإعتياديّة أو الحقيقة كما تراها دودة الأرض، و يمضي وايتهيد في القول تماهياً مع هذه الفكرة " الفلسفة تبتغي الخير للجميع مثلما تفعل اللمحات الّتي تمنحنا طيفاً واسعاً للحقيقة: فهي توفّر لنا لقطة فوتوغرافيّة سريعة عن العالم و تساعدنا في تخليق شيء من الموضوعيّة بدل محاولة إضفاء سماتنا الذاتيّة على الحقيقة الكامنة في العالم ".

يشخّص ويلسون سبع مستوياتٍ في تحليله الظاهراتيّ لهيكلة الوعي البشريّ، و هذه المستويات تتفاوتُ بين حالة النوم اللاواعي إلى الحالات المفارقة للوعي البشري الإعتياديّ و الّتي تقدحها جذوةٌ من تجربةٍ تدعى (تجربة ذروة Peak Experience) حيث يبدو فيها العالم مكاناً عجائبياً يحوز هدفاً و معنىً مذهليْن، و ربّما سيسارع الكثيرون إلى القول أنّ هذه الحالة من الوعي هي نتاجُ فرط تمحورٍ ذاتيّ و إطالة نظر في ذات المرء بطريقة مَرَضيّة، و لكن يبدو أنّ العكس هو أقربُ كثيراً إلى الحقيقة: حالة الوعي المفارق للوعي اليومي العابر هذه هي

حالة نسيانٍ للذات و الكفّ عن الإنشغال المفرط بها و الإنطلاق نحو إزالة العوالق عن وعينا المضبّب و الّتي تحجب عنّا حقيقة العالم الواقعيّ الّذي نعيش فيه. إنّ ما ينبغي لنا أن نتقن التعامل معه كما يقول ويلسون هو " كيفيّة دفع وعينا البشريّ إلى آفاق أبعد مع تكثيف شدّته في الوقت ذاته، و أنّ المعضلة الأساسيّة الّتي تواجه وعينا البشريّ تكمن في إشكاليّة تسريب leakage طاقتنا الحيويّة الداخليّة " (يناقش ويلسون في الفصل الاوّل من سيرته الذاتيّة المنشورة عام ٢٠٠٤ هذه المعضلة عبر أمثلة واقعيّة مع ما يتلازم معها من تغذية إرتجاعيّة سلبيّة أو إيجابيّة، المترجمة).

ثمّة سببٌ باهتٌ يدعونا للإعتقاد أنّ تجارب الذروة العابرة لا يمكن و لا ينبغي لها أن تكون نمطاً مستديماً في حياتنا، و هذا السبب هو قبولنا من غير أيّ مسائلة نقديّة بإدمان العيش اليوميّ المملّ الّذي يمكن مقارنته بنموذج " الطيّار الآلي " في الطائرة: هذه الحالة الروتينيّة الّتي يسميّها ويلسون " وجهة النظر الروبوتيّة " و الّتي لطالما أمضى الكثيرون حيواتهم و هم يرون أنّها تمثّل وجهة النظر الأصيلة عن الحقيقة، و يكون من المؤكّد عندها أن نظنّ في تجارب الذروة شيئاً أقرب إلى الإنحرافات الخادعة في وعينا البشريّ، و قد يكون الإطراء الخجول على هذه التجارب بسبب كونها آليّةً مجرّبة و فعّالة للهروب من نمط حياتنا اليوميّ المملّ فحسب من غير التشكيك في الأسطورة المُضلّلة الراسخة والمتداولة التي ترى فيها حالة منحرفة لوعينا في كشف الحقيقة كما ينبغي للوعي أن يكون رغم أنّ أحداً لم يتمكّن لليوم من الجهر بكون هذه التجارب إنحرافاتٍ عن الحقيقة. قد يرى البعضُ أنّ ما نحكي عنه بخصوص تجارب الذروة وسط طوفان الضّجر في الحياة اليوميّة لا يعدو أن يكون حيلةً عقليّة، و لكن

بالنسبة إلى ويلسون فإنّ تجارب الذروة هي ما يوفّرُ لنا رؤية أدقّ عن الحقيقة إلى حدّ أن الرجل وضع هذه الحقيقة في هيئة عبارة قريبةٍ من أن تكون معادلةً رياضيّاتيّة: " شدّة زخم وعينا تساوي كمّ الموضوعيّة التي نقترب بها من ملامسة الحقيقة "، و ليس ثمّة من مسوّغٍ يجيزُ لنا إفتراض أنّ العالم الحافل بالألم و الضّجر هو وحده العالم الحقيقيّ لأنّ تلك هي محضُ وجهٍ واحد من أوجه خبراتنا المعروفة عن العالم، و تقوم محاججة ويلسون على أساس أنّنا متى ما تمرّسنا في التّعامل مع حالات وعينا و إدراكنا المُجاوزيْن لليوميّ و العابر من التجارب فإنّنا نكون عندئذٍ أقرب إلى حيازة نظرة دقيقة عن الحقيقة لأنّ ذينك الوعي و الإدراك يشتملان على طيفٍ أعلى من التجارب البشريّة: فنحن في خضمّ حالات تجارب الذروة نشعرُ بأنّنا نترك وراءنا كثيراً من نظرة " دودة الأرض " الضيّقة عن العالم و الّتي لطالما كانت ملوّثةً بالكثير من أدران عدّتنا المفاهيميّة الّتي تحرفنا عن الحقيقة بفعل الوعي الشخصيّ المثقل بمحدوديّاته الفيزيائيّة، و بهذه المقاربة يخدمُ وعينا المفارقُ في تنظيف زجاجة وعينا و إزالة ما علق بها من أدران الحياة اليوميّة.

ثمة إشكاليّة سايكولوجيّة مزمنةٌ تنشأ مع تجارب الذروة: لماذا ينبغي أن نرى في وعينا العلويّ المفارق للوعي اليوميّ العابر تجربةً أكثر أصالةً و أقرب إلى العالم الحقيقيّ ؟ يمكن إجمال الجواب في الحقيقة التالية: عندما نخوضُ في تجارب الذروة ينتابنا شعورٌ مقترنٌ بالمعرفة و البهجة و لا ينفكّ يذكّرنا بأنّ ما نختبرهُ يبدو ظاهراتيّاً أقرب إلى الحقيقة، و أن الإدراك العلويّ لا يزيح الستار عن جلّ الحقيقة فحسب بل يمدّنا ببصيرة نرى معها أنّ حالات الوعي اليوميّ العابر لا تعدو أن تكون حالاتٍ ذاتيّة و غير ضروريّة و تنطوي على الكثير من الزيف.

تخبرُنا حياة ويلسون كم يمكنُ لحياة فردٍ أن تكون ذات معنىً عبر الإنضباط الذاتيّ و التصميم الهادف و مقاومة الإنـزلاق في وهدة اليأس الّذي يمكن أن ينجم عن تقلّبات و إضطرابات الحياة اليوميّة. كتب ويلسون يقول في هذا " هدفّنا الأسمى في الحياة هو أن لا نسمح لأنفسنا بالإنهزام متى ما خضنا غمار أيّة تجربة جديدة " و كان الرجل حقّاً أميناً لما قال فعمل بإنتظام و صرامة لأكثر من ستّين عاماً و على نحو متواصل بلا غطاء ماليّ ثابت و مستديم و بعيداً عن التمركزات الذاتيّة و النرجسيّات الطاغية الّتي يكتظّ بها العالم الأدبيّ الأكاديميّ و حافظ الرجل على سياق عمله اليوميّ: النهوضُ مبكّراً في السّادسة من صباح كلّ يوم و العمل لساعاتٍ أثمرت عن إنتاجيّة غزيرة في مختلف الألوان الأدبيّة و لا ينبغي أن ننسى أنّ الرجل كتب مائة و خمسة عشر كتاباً بالضبط !!! (عندما توفّى كولن ويلسون أبان إحصاءٌ كاملٌ و دقيقٌ لكتبه أنّهُ كتب مائةً و ثمانية عشر كتاباً بالضّبط، المترجمة). قد يبدو ويلسون بعيداً عن مكابدة الإحساس المؤلم بما تعنيه الحياة الّتي يسودها ذبول الروحِ و الخواء و غياب المعنى و لكنّ هذا بعيدٌ تماماً عن حقيقة الرجل و تعدُّ إحاطته الشاملة بالجانب المظلم من الحياة و الّذي يمكن أن تنزلق حياة الأفراد إليه سبباً كافياً لجعل أعماله تحوز إعتباراً مرموقاً و قدرةً على الإقناع عزّ نظيرُها، و في هذا السياق يمكن النظر إلى شخصيّته و سيرته الذاتيّة كشاهدٍ رصين على رؤيته الفلسفيّة القائمة على أساس أنّ الفلسفة ينبغي أن تتعشّق بما نفعل و قد عبّر الرجل عن فكرته هذه بعبارته المختزلة الرائعة " إذا أردتَ أن تعرف شيئاً مهمّاً عن أفكاري يتوجّبُ عليّ أن أخبرك شيئاً عن حياتي ".

يحمل ويلسون القليل من التقدير للفلسفة الأكاديميّة المهنيّة المعاصرة سواءٌ كانت فلسفة تحليليّة تتعامل مع التجربة البشريّة كمن يرى

في ذلك واجباً ثقيلاً ينبغي أداؤه، أو تلك الفلسفة الّتي تدعم لعبة العدميّة الذهنيّة لتقاليد مابعد الحداثة، و يرى ويلسون أنّ الفلسفة تقدّمت كثيراً و قطعت اشواطاً مرموقة بإتّجاه أن تكون أقرب إلى حاجات الإنسان و أكثر قدرة على منحه الراحة و الأمان و بخاصّة في ميدان الظاهراتيّة الوجوديّة الّتي أفضت إلى الوجوديّة المحدّثة الطاردة لليأس و الباعثة على الإحساس الرقيق بالتفاؤل، و كتب ويلسون بصدد هذه المسالة قائلاً " لكي يتمكّن فيلسوفٌ ما – أيّ فيلسوف – من تقليص مساحة ضيق الأفق لديه فربّما ينبغي له أن يجتاز إمتحان تذوّق طعم المرارة لتجربة مؤلمة قد تصل تخوم حدّ محاولة الإنتحار، و أنّ الفلاسفة الّذين خبروا هذه التجربة هم وحدهم الأكثر قدرةً على إفادة الآخرين و إمتاعهم في الوقت ذاته ".

ثمّة ثلاثة أمثلة في تاريخ الفلسفة تمثّل إستثناءات مهمّة ذات دلالات فارقة و فتوحات فلسفيّة مميّزة في سياق التيّار الفلسفيّ العامّ: هوسرل، نيتشه، وايتهيد، و قد أكّد الأخيران في مواضع كثيرة على أهمّية أن تشتمل الفلسفة على الطيف الكامل للتجربة الإنسانيّة بكلّ تلوّناتها و تشكّلاتها، و كتب ويلسون يقول في هذا الشأن " كان فيتكنشتاين Wittgenstein وجوديّاً خالصاً و أصيلاً بالمعنى التطبيقيّ للكلمة: لم يخادع نفسه و لم يفهم طيلة حياته ما الّذي كانت حياته خليقةً بفعله ". إنّ ما يميّز ويلسون في مجمل كتاباته الكثيرة هو نمطُ من الرؤية التطوّريّة الخلّاقة في الحساسيّة الأخلاقيّاتية البشريّة تجاه الأفراد، و الأفكار، و الأشياء، و المهمّ في الأمر أنّ هذه الحساسيّة لا تنبع من الدين بل من فهم ظاهراتيّ جديد للوعي البشريّ يتيحُ لنا إستكشاف مدياتٍ غير مطروقة لما يمكن لوعينا البشريّ بلوغه، و يكتب ويلسون في هذا يقول " الفلسفة محاولة جريئة لفهم الكون و موجوداته بطريقة شاملة و

متسامية و موضوعيّة، و لا يمكن حيازة هذه الرؤية الموضوعيّة عن طريق العلم و طرائقه فحسب لأنّنا متى ما علمنا أنّ فهم الكون الموضوعيّ يمكن إضاءته عبر الوعي البشريّ ندركُ حينها أنّ نقطة الشروع في بحثنا المعرفيّ ينبغي أن تكون مع أنفسنا و وعينا الذاتي أوّلاً و هذا هو ميدان الإشتغال الفلسفي الأرحب في كلّ العصور. تحدّث هايدغر عن البديّهيّة العابرة و التقليديّة الّتي يمكنها أن تجعلنا ننسى ببساطة إشكاليّة وجودنا البشريّ و ما يحوم حوله من معضلاتٍ فلسفيّة، و هذا ما يحتّم على الفيلسوف الحاذق أن يجعل مهمّته الأساسيّة على الدوام تذكيرنا بضرورة الإنتباه إلى وجودنا البشريّ متى ما أهملناه و تركناه قابعاً على رفوف النسيان في خضمّ حياتنا اليوميّة الحافلة بالإرتباك و التشويش ".

* روجر سكراتون Roger Scruton: فيلسوف بريطاني مرموق و ذائع الصيت وُلِد عام ١٩٤٤ و تخصّص في الجماليّات الفلسفيّة و درّس الفلسفة في العديد من الجامعات البريطانيّة و الأمريكيّة المرموقة. ألّف أكثر من ثلاثين كتاباً كما كتب عدّة اعمال روائيّة بالإضافة إلى عملين للأوبرا و فلم وثائقيّ لقناة BBC البريطانيّة. نذكر من أعماله المنشورة:

– الفن و الخيال Art and Imagination، ١٩٧٤

– جماليّات العمارة Aesthetics of Architecture، ١٩٧٩

– الدافع الجنسي: فلسفة أخلاقيّة للإيروتيكا Sexual Impulse: A moral Philosophy for the Erotic ، ١٩٨٦

– فهم الموسيقى Understanding Music، ٢٠٠٩

– روح العالم The Soul of the World، ٢٠١٣ (المترجمة)

في ٢٦ حزيران ٢٠١١ أكمل الكاتب كولن ويلسون عامه الثمانين، و أظنّ أن هذا الرجل لم يلقَ التقدير و الإهتمام المناسبيْن في موطنه البريطانيّ كفيلسوف و روائـيّ و ناقد و باحث متعدّد الإشتغالات في مختلف جوانب القدرات البشريّة، و ربّما كان بعضُ السّبب في خفوت التقدير المستوجب لهذا الرّجل في بريطانيا و أمريكا على وجه التحديد – فهو أكثر شهرة بكثير خارج حدودهما – يعود إلى أنّ ويلسون يمثّلُ شيئاً شبيهاً بالهايدرا في عصرنا هذا.

تمثّلُ الهايدرا في الميثولوجيا الإغريقيّة كائناً أسطوريّاً بسبعة رؤوس – و أحياناً بتسعة – تنشأ عن كتلةٍ واحدة صلدة ولو حصل و قُطِع أحد هذه الرؤوس فستعود لتنمو ثانيةً، و يبدو أنّ هذا هو ما يحصل فعلاً مع كولن ويلسون: الكاتب الدؤوب و المفكّر الواسع المعرفة و الإهتمامات، فهو يُرى في البرامج الحواريّة التلفزيونيّة، و في مؤتمرات الصحافة، و في المكتبات الّتي تبيع الكتب المستعملة، و أخيراً في الأقراص المضغوطة DVD كما حصل مؤخّراً مع القرص المضغوط المعنون (الغريب هو الإعتياديّ Strange is Normal) الّذي يحكي عن جوانب من حياة الفيلسوف و الكاتب. يجادِل البعض أن ويلسون لديه فكرةٌ واحدةٌ لا يملُّ من عرضها بأشكال عديدة في معظم ما يكتبه و انّه يقول الشئ ذاته دائماً، و حصل أن علّق الرجل على هذه المسألة بعبارة واحدة موجزة " قال الفيلسوف إشعيا برلين Ishaia

Berlin مرّة أنّ ثمّة نوعان من الكتّاب: قنافذ و ثعالب، و أنّ الثعلب يعلم أشياء كثيرة في حين أنّ القنفذ يعلم محض شيء وحيد فحسب، و إستناداً إلى هذه الرؤية يمكن عدُّ شكسبير ثعلباً مثاليّاً في حين يكون دوستويفسكي و تولستوي قنفذيْن مثاليّيْن. بالنسبة لي فأنا أرى نفسي قنفذاً يعلم شيئاً واحداً أحاول قوله دوماً و لكن من زوايا نظر مختلفة لجعله يبدو مختلفاً و لكن يبقى الأصل واحداً في كلّ الأحوال ".

رؤوس الهايدرا الويلسونيّة

* **اللّامنتمي**: كان كتاب ويلسون الأوّل و الأكثر تميّزاً بين أعماله هو (اللامنتمي) المنشور عام ١٩٥٦ و منذ ذلك الحين لا يزال كولن ويلسون يدور في مدار لاإنتمائيّته الخاصّة به.

* **الروائيّ**: كتب ويلسون روايات في مختلف الأنواع الروائيّة: خيال علميّ، فانتازيا، واقعيّة، جريمة،،،، و تنضوي كلّها في إطار فلسفته الخاصّة و تتقمّص لبوساً حداثيّاً رغم انّ ويلسون يبدو في أغلب الأوقات كاتباً مابعد – حداثيّاً في إبلاغ و تمرير رسالته المتوخّاة و تبدو أدواته الحكائيّة أقرب إلى ديريدا منها إلى ديكنز مثلاً.

* **المُنظّر الأدبيّ**: ويلسون منظّرٌ متماسك و دقيق في خصوص كيفيّة كتابة الرواية أو القصيدة (راجع مثلاً كتابه الرائع عن حرفة الرواية The Craft of the Novel و ستدرك المقصود بكلامي تماماً)، و تبدو الحرفة الأدبيّة في كتاباته وسيلة لمقاربة الأسئلة الكبرى في الوجود و

المعنى الكامن وراء الحياة اليوميّة و بكيفيّة جعل الوجود البشريّ و الحياة الإنسانيّة أكثر ثراءً و إمتلاءً و قوّة، و هذه السماتُ بالتحديد هي ما يقع في بؤرة الجانب التطوّري من الحياة على وفق رؤيته.

* **الباحث في الظواهر الخارقة**: يمكن مقارنة عمل ويلسون في هذا الميدان بعمل السير آرثر كونان دويل رغم أنّه يؤخذُ عليه احياناً فرط ثقته بالنتائج الّتي توصّل إليها، و لكن في العموم ليس في إمكاننا في الأحوال الإعتياديّة إلّا أن نرفع القبّعة للرجل و نقول له " عملٌ طيّب يارجل ".

* **المؤرّخ و الأنثروبولوجيّ الممتاز**: يمثّل هذا الجانب إحدى الرؤوس الكبيرة و المميّزة للهايدرا المسمّاة (كولن ويلسون) حيث تمتزج مفاهيم مثل: السفينة الفضائيّة، أتلانتيس المفقودة، شكسبير المثليّ جنسيّاً، في طبخة واحدة يطبخها الطاهي الماهر ويلسون على نار هادئة !!، و مع أن هذا الإشتغال جلب للرجل العديد من المعجبين الجدد – بخاصّة من جيل الشباب – لكنّه أفقده في ذات الوقت الكثير من ذوي التقاليد الفلسفيّة الرّصينة من الّذين أعجبوا بأعماله الأولى.

* **الباحث في الجريمة**: ويلسون هو المفتون دوماً بالجرائم الجنسيّة و القتولات المدفوعة بدافِعَيْ اللّذة و الشهوة و اللّتين تمثّلان الجانب المُظلم في الحلقة التطوّريّة البشريّة.

يمكن لنا أن نلحظ نشوء رؤوس إضافيّة للهايدرا المسمّاة (ويلسون

) مع السنوات: كتب الرّجل أعمالاً في الجنس، و الموسيقى، و المسرحيّة، و نصوص الأعمال الدراميّة، و الأعمدة الصحفيّة، و كان شخصيّة كثيرة الظهور في الدعوات التلفزيونيّة كما كان جامعاً مرموقاً للكثير من الكتب النادرة و الأسطوانات الموسيقيّة. يمكن ملاحظة أن ويلسون لم يتبرعمْ له رأسٌ مع جماعة الشباب الغاضب Angry Young Men رغم انّه حُشِر حشراً معهم، كما لم يتبرعم له رأسٌ أكاديميٌّ جامعيّ و أظنّ في هذا أمراً حسناً له و لنا جميعاً فربّما لم يكن الرجل سيغدو ويلسون الّذي نعرفه لو فكّر و مضى في الإرتقاء بدراسته الأكاديميّة، و يمكن أن نرى في الرجل أيضاً براعم – و لو أنّها صغيرة – لكاتب إنكليزيّ مابعد حداثيّ، و مشتغل بالموضوعات النسويّة، و ماركسيّ، و مبشّر بالأدب مابعد الكولونياليّ.

أودّ التركيز في هذا المجال على رأسين من رؤوس الهايدرا الويلسونيّة و الّتي يراها الكثيرون الأكثر تمثيلاً لسمات الرجل: الفيلسوف الوجودي، و المتصوّف الرومانتيكيّ.

كولن ويلسون: الرومانتيكيّ الوجوديّ

أفكار ويلسون الأساسيّة معروضةٌ في سلسلة كتبه الّتي يسمّيها (حلقة اللّامنتمي The Outsider Cycle) الّتي ظهرت في الخمسينات و الستّينات و تشمل كتاب اللّامنتمي و الكتب اللّاحقة الّتي تدور في ذات مدار إشتغاله المعرفيّ: التأسيسُ لمنهجِ الوجوديّة الجديدة في نسخة بريطانيّة بعيداً عن منهج الفلسفة الإختباريّة اللغوية الإنكليزيّة الذي كان سائداً في الستّينات، و يعدّ ويلسون ظاهرة فريدة في هذا الميدان،

ففي كتاب (الوجوديّة) لمؤلّفه روبرت سولومون Robert Solomon نقرأ أن كولن ويلسون كان الشخصيّة الرئيسيّة الّتي أسّست للوجوديّة البريطانيّة فيما لو جاز لنا إستثناء الكاتب المسرحيّ هارولد بنتر ككاتب و فيلسوف فنّي، و نقرأ أيضاً أنّ ناقداً فرنسيّاً مرموقاً كتب في الغلاف الداخليّ للطبعة الأصليّة من كتاب ويلسون المعنون (مدخل إلى الوجوديّة الجديدة) عام ١٩٦٦ " هذه هي المساهمة الأولى المعتبرة للوجوديّة ينهض بأعباءِها كاتب إنكليزيّ "، و كتب (غراتان فراير) في صحيفة الأوقات الإيرلنديّة Irish Times في معرض مراجعته لذات الكتاب قائلاً " أيّ فردٍ له إنشغالٌ حقيقيّ بقيم القرن العشرين و فكره لا بدّ أن يكون معتاداً على أفكار ويلسون و أعماله ".

ما الّذي يقوله ويلسون إذن فيما يخصّ الوجوديّة و الّذي منح أعماله تلك الأهمّية الّتي كتب عنها الكثيرون من النقّاد ؟. إنّ الرجل بإختصار و بساطة يبتغي مسحاً شاملاً و معمّقاً للحالات الإنسانيّة الجوّانيّة إلى جانب بواعث الشغف و الضجر لدى النوع البشريّ، و بشكل أكثر تخصيصاً: يطمح ويلسون في وجوديّته الجديدة – بالإضافة إلى كلّ أعماله الفلسفيّة الأخرى – إلى الإرتقاء بالوجوديّة الأوّلية (وجوديّة كيركيغارد و هايدغر و سارتر و ياسبرز و كامو،،،) و تاسيسها إبتداءً من نقطة شروع أبعد من الناحية التاريخيّة من نقطة شروعها المعهودة، و يقصد ويلسون بذلك العودة إلى ينابيع الرؤيا للسلف الجميل للوجوديّة: الحركة الرومانتيكيّة Romanticism و يكتب الرجل في هذا الميدان " الوجوديّة هي الرومانتيكيّة، و الرومانتيكيّة هي الشعورُ بأنّ المرء لم يعُدْ محض تلك الشخصيّة الّتي إعتاد أن يكونها كأمرٍ مسلّم به و محسوم من قبلُ ". نشأت الحركة الرومانتيكيّة كحركة فنّيّة و أدبيّة و ثقافيّة في أواخر القرن الثامن

عشر كردّة فعْلٍ متوقّعة على العقلنة الطاغية الّتي طبعت عصر التنوير الأوربـي مع ما رافقها من من طغيان السّطوة العلميّة، و إمتدّت الحركة حتّى منتصف القرن التاسع عشر و إنضوى تحت لواءها العديد من النساء و الرجال ممّنْ أحسّوا أنّ ثمّة ما هو إضافيّ و مثمر يمكن عيشُهُ في هذه الحياة كما ينبؤنا بهذا ثراء الطبيعة الّتي حولنا. ضمّت الحركة الرومانتيكيّة شعراء من أمثال: كولردج، بايرون، شيللي،،، و فنّانين من أمثال: وليم بليك، ترنر،،، و كتّاباً من شتّى الأطياف مثل: غوته، ثورو،،، و كان الطابع المميّز للرومانتيكيّة هو إيلاءُ الإحساس الجماليّ بالحياة ما يستحقّهُ من شغف. الوجوديّة، من جانب آخر، وِلدتْ منتصف القرن التاسع عشر و وصلت أوج زخمها منتصف القرن العشرين على يد جان بول سارتر، و ألبير كامو، و سيمون دي بوفوار من الّذين رأوا في النساء و الرجال كائناتٍ إغترابيّة تتخبّطُ في وحدانيّتها وسط فضاء بارد و عقيم إستحالت فيه القيمُ محض رطاناتٍ سخيفة. الفرقُ بين وجوديّة ويلسون الجديدة و الوجوديّة الرومانتيكيّة للقرن الثامن عشر مع الوجوديّة الّتي جاءت بعدها يكمن في أنّ الوجوديّة الويلسونيّة تأسّست على قاعدتين إثنتيْن: النزعة التفاؤليّة، و الموقف الايجابيّ من الحياة. أراد ويلسون التأسيس لوجوديّة تقوم على الطقوسيّات الرومانتيكيّة للحياة الرواقيّة الشقيّة للرومانتيكيّين الوجوديين الأوائل و دفعها إلى حدودٍ يمكن معها إستكشاف الثراء الداخليّ للتجربة الإنسانيّة الشاملة الخليقة بدفع الناس – بعضهم في أسوأ التقديرات – ليرتقوا على نحوٍ سريع نحو مصاف كائناتٍ عقليّة تضجّ بالنشوة و السعادة الذهنيّة و تحوزُ أعلى مراتب الحرّية الوجوديّة و تلك هي بالضبط مواصفات القيم الّتي دعاها ويلسون " القيم الموضوعيّة للوجود الإنسانيّ ". كتب ويلسون في مقدّمته عن

الوجوديّة الجديدة " ثمّة مثالٌ قياسيٌّ للقيم الموضوعيّة يقبع خارج تخوم الوعي البشريّ اليوميّ، و إنّ وعينا البشريّ في حدود ما تمثّله التجربة اليوميّة المعتادة ماهو إلّا كذبة كبيرة متوارثةٌ و غير مستساغة ".

ما أبتغيه الآن هو صنعُ نصبٍ برونزيّ لرأس الهايدرا الويلسونيّة الّتي تمثّلُ لي أثمن الرؤوس و أغناها من الناحيتيْن الإنسانيّة و المعرفيّة و الّتي أرى فيها خير ممثّلٍ لويلسون الّذي يبدو لي كائناً خلِقَ منذ البدء ليكون بطبيعته رومانتيكيّاً و متصوّفاً، و لطالما بيّنْتُ في مواضع كثيرة و بخاصّة في أطروحتي للكتوراه المعنونة (النقد الأدبيّ الوجوديّ و روايات كولن ويلسون) أنّ ويلسون رومانتيكيٌّ خالص في المزاج و الرؤية و السمات و الموقف الذهنيّ و لا أظنّ أنّ الرجل سينكرُ أيّاً من هذه التوصيفات، و أرى ان الرجل كان ايضاً متصوّفاً إنكليزيّاً على ذات النهج الذي سار فيه كلّ من وليم بليك، توماس تراهيرن، جورج فوكس (يمكن الرّجوع إلى مقالتي: ويلسون متصوّفاً Wilson as Mystic المنشورة عام ٢٠٠١). المتصوّفُ كما أراه هو ذلك الشّخص الّذي تتوسّمُ فيه خبرةً مع الحقيقة المتجاوزة لمحدوديّات الخبرة اليوميّة الإعتياديّة و الذي يرى أن إستكشاف تضاريس هذه الخبرة الثريّة لا يتمّ بوسائل العقلنة العلميّة المعهودة، و الوجوديّة الجديدة في الأساس كانت محاولةً لرسم ملامح للوجوديّة السائدة تتّفِقُ مع الخبرة التصوّفيّة اللّامحدودة، و قد يأخذ البعضُ على ويلسون أنّ كتاباته التصوفيّة تفتقدُ شيئاً من المنطق، و لكنّني أرى أنّ ويلسون يكتبُ بكثافةٍ خلّاقة مدفوعاً بالرّغبة في رسم تفاصيل رؤيته و تمريرها إلى الآخرين و هنا لا يكون لوضوح المفردات أو التدرّج المنطقيّ الصّلب تلك الأسبقيّة الّتي إعتدناها في موضوعات معرفيّة أخرى.

تجارب الذروة التصوّفية لكولن ويلسون

طوّر عالم النفس الأمريكيّ (أبراهام ماسلو(*)) نظريّة سايكولوجيّة تقولّ أنّ الناس يختبرون في بعض فترات حياتهم ما يسمّى (تجارب الذروة Peak Experiences) الّتي هي لحظاتٌ من الإحساس الفائق للطبيعيّ بالإلهام، أو الحب، أو السعادة، أو البصيرة، أو الوعي العلويّ حيثُ يشعر المرءُ بالتناغم المطلق مع ذاته و مع الموجودات في الطبيعة. إقتنع ماسلو أنّ الافراد الّذين تطوّرت قدراتهم الذهنيّة و الرؤيويّة إلى إقصاها يمكنُ لهم أن يختبروا تجارب الذروة كلّ يوم بينما يختبِرُ آخرون هذه التجارب لمرّاتٍ أقلّ بكثير، و هنا أمسك ويلسون بزمام اللّحظة و رأى في المفهوم الماسلويّ لتجارب الذروة إمكانيّةً للإنطلاق في تأسيس مشروعه فيما يخصّ الوجوديّة المكيّفة بطريقة عاطفيّة إيجابيّة. تساءل ويلسون: لماذا لا تكون تجارب الذروة جزءً أصيلاً من حياتنا طوال الوقت ؟ و هل يمكنُ أن يتكيّف الافراد ذهنيّاً بطريقة قصديّة لتكون هذه التجارب جزءً متأصّلاً في حياتهم كلّ الوقت ؟ و راح ويلسون يصبّ بعضاً من جهده في محاولة تخليق تجارب ذروةٍ لدى الأفراد عبر الفكر المركّز و الموجّه نحو بؤرة إهتمام واحدة.

واحدةٌ من أهمّ المفاهيم الأساسيّة في الوجوديّة الجديدة – إلى جانب مفهوم تجارب الذروة – هي القصديّة Intentionality الّتي ترجع أصولها إلى ظاهراتيّة هوسرل و الّتي صارت لاحقاً مفهوماً أساسيّاً في فلسفة العقل بعامّة، و المقصودُ بالقصديّة هو سلطة الفعاليّة العقليّة في أن تتمحور حول أشياء أو حالاتٍ بعينها دون سواها و هي تشيرُ إلى النزعة التحديديّة directedness و الإنتباه الموجّه attentiveness

للوعي. خلقَ ويلسون تركيباً synthesis من مفاهيم ماسلو و هوسرل كقطبيْن في الوجوديّة الجديدة: المساءلة القصديّة للوعي بذاته يقودُ بالضرورة إلى توسيع نطاق تجارب الذروة و ربّما الوصول إلى تخوم أبعد منها و هنا يبدو ويلسون كَمَنْ يُلقي ضوءَ كاشفاً على أعمال مفكّرين آخرين، و أحبّ في هذا السياق إقتباس عبارتيْن لويلسون كُتِبتا عام ١٩٦٦ و ١٩٨٨ على التوالي و ترسمان صورة مقبولة لما كان الرجل ينوي تحقيقه في وجوديّته الجديدة: " الوجوديّة الجديدة تقوم على مساءلة ظاهراتيّة الوعي البشريّ "، و " إذا كان الوعي قصديّاً بطبيعته إذن يمكن لنا أن نجعله أكثر قصديّةً و ستكون النتيجة بالتأكيد خطوة في إتّجاه حيازة إستبصار تصوّفيّ للحياة ".

تقييماتٌ إيجابيّة و سلبيّة

بالنسبة لي أظنّ أنّ كولن ويلسون تحمّل الكثير من نكران الجميل كفيلسوفٍ ينبغي أن نذكره دوماً إن لم يكن من أجل إجاباته المتقنة لبعض المعضلات الفلسفيّة و الوجوديّة فعلى أقلّ تقدير من أجل تخليقه للوجوديّة الجديدة، و بسبب كونه أيضاً ذلك المرء الّذي لم يكفّ عن التساؤل يوماً في طبيعة المشكلات الّتي نواجهها جميعاً في حياتنا اليوميّة. إنّ الحقيقة الناصعة و الّتي لا نختلف عليها هي أنّ ويلسون أنجز الكثير وسط بيئةٍ أكاديميّة صلدة ناقدة و لاتنحو منحىً عمليّاً في بلده الأمّ و ذلك هو الدليلُ الأكثر بلاغةً على صبْر الرّجل و جلده العنيد غير القابل للتخاذل أمام الصّعاب. إخترق ويلسون حيّزاً قلّما تجرّأَ الكثيرون على مغامرة إختراقه و إذا ما جاز لنا أن نوجّهَ له نقداً موضوعيّاً فينبغي أن يكون بذات الطريقة الّتي ختم فيها ويلسون .

مراجعته النقديّة لعمل ألبير كامو المعنون (الممسوس The Possessed) عام ١٩٦٠ حيث يقول في مقطع بالغ الإثارة و المروءة في ذات الوقت " بعيداً عن كلّ النقودات القاسية الّتي يمكنُ أن تقال بحقّ هذا العمل، فـأنت أزاء كاتبٍ أفضل من تسعةٍ و تسعين بالمائة من الكتّاب المعاصرين لهُ "، و ذلك هو بالضبط ما أشعرُ به تجاه ويلسون رغم بعض تحفّظاتي على تفاصيل صغيرة في الوجوديّة الجديدة و في بعض كتاباته المتأخّرة، لذا فلْنُرفعْ الأنخاب عالياً في صحّة الفيلسوف الكاتب في عيد ميلاده الثمانين و لنقُلْ له جميعاً: " عيد ميلاد سعيد يا عزيزنا كولن ".

الدكتور فوغان راباتاهانا *

المجلّد ٨٥ من مجلّة الفلسفة الآن Philosophy Now

* فوغان راباتاهانا Vaughan Rapatahana: ناقد أدبي و شاعر حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة اوكلاند النيوزلنديّة. يقيم حاليّاً في هونك كونك.

كنتُ أحاولُ مؤخّراً كتابة قائمةٍ تحوي مائة من كُتّابي المفضّلين مع عناوين كتبهم في محاولةٍ لتذكير نفسي بضرورة إعادة قراءة أكبر عدد ممكنٍ منها في السنة الّلاحقة، و بينما كنتُ منهمكاً في إعداد قائمتي لاحظتُ أنّ ثمّة أربعةٌ من الكتّاب الّذين يستحقّون أعلى نسب القراءة و الحضور الأدبيّ في كلّ العصور تمّ حذفهم من كتاب الناقد الأدبيّ المرموق (هارولد بلووم Harold Bloom) الذائع الصيت و المعنوَن (لائحة أعمال المؤلّفين الغربيّين The Western Canon)، كما هالني مدى خفوت حضورهم في المواقع الألكترونية و نسيان أعمالهم الرائعة، و هؤلاء الكتّاب الأربعة هم: نيكوس كازانتزاكيس Nikos Kazantzakis، جون كوبر بويس John Cowper Powys ، جان جيونو Jean Giono، و أخيرهم كولن ويلسون Colin Wilson، و لكي نقدّم فروض التقدير اللازمة لهؤلاء الأساتيذ الأربعة أرى أنّ علينا أن نبدأ بإعادة قراءة: زوربا اليونانيّ Zorba The Greek لكازانتزاكيس، ذئب سولنت Solent Wolf لبويس، متعةُ أنْ تبقى رغبة الإنسان متّقدة The Joy of Man"s Desiring، و الأخير هو ما ينبغي أن تعرفه عن كولن ويلسون The Essential Colin Wilson **(و هو قرصٌ مضغوط CD صوتيّ يحكي فيه ويلسون عن جوانب مهمّة من حياته)، و الميزة الفارقة الّتي تجمع هؤلاء العباقرة هي إمتلاكهم الإحساس الكتابيّ الميلوديّ الّذي يمكن توصيفه بالتفاؤليّة الكونيّة Cosmological Optimism: الإعتقاد بأنّ العالم رغم الإنتقاد الموجّه له بكونه حاضنةً للأحزان**

و الآلام و المشقّات فإنّ كلّ فردٍ فيه يمكن أن يخلق لنفسه حياةً مُتجدّدة،،، حياة يمكن لها أن تحوز معنىً، و بهجةً، و أن تكون مثمرة و باعثة على الإستمراريّة المنتجة.

ما يزال كولن ويلسون لحسن حظّ الجمهور القارئ يتنفّسُ الهواء و مُنكبّاً على الكتابة بنهم – النصّ مكتوبٌ قبل وفاة ويلسون عام ٢٠١٣، المترجمة)، و كتب ويلسون لحدّ اليوم أكثر من ثمانين كتاباً بدأها عام ١٩٥٦ عندما هزّ العالم بكتابه (اللّامنتمي) و هو لمّا يتجاوز الرابعة و العشرين، و حصد اللامنتمي شهرة مدوّية واسعة حول العالم و كان الكتاب الاوّل في سلسلةٍ من سبعة كتب سيكتبها ويلسون لاحقاً و يعرضُ فيها رؤيته الفلسفيّة الويلسونيّة عن الوجوديّة الجديدة.

كولن ويلسون كاتبٌ يبعثُ على الإدهاش – مثل ألدوس هكسلي – بسبب إهتماماته و إشتغالاته الكثيرة: فقد كتب ثلاثة و عشرين روايةً و ثلاث مسرحيّات، و يمكن تصنيفُ أعماله غير الروائيّة في أربع مجالات: الفلسفة الوجوديّة، الجريمة، الظواهر الخارقة، السايكولوجيا البشريّة. يمتلك الرجلُ ميزة رائعة في أنّه يبسطُ آراء المفكّرين العظام إلى جانب آراءه أيضاً في سياقٍ واضح قابل للقراءة الجماهيريّة الواسعة و بعيد عن الغموض و الفذلكات اللغويّة. يمكن تلخيص و حصر فلسفة ويلسون في القدرات البشريّة في طائفةٍ من مكتشفاته مثل مفهوم الرؤيا غير الإعتياديّة Occult Vision الّتي عرضها ويلسون في شريط صوتيّ لحديثٍ كان ألقاه في كاليفورنيا عام ١٩٨٧ في ذات الوقت الّذي أنهى فيه كتابة (مابعد الغامض Beyond the Occult) و كان الرجل يطمح لجعلِ عنوان الكتاب (الرؤيويّون The Visionaries) و لكنّ الكلمة العليا كانت لناشر كتبه بالطبع و الذي أصرّ على عنوان

(ما بعد الغامض)، و مفردة الغامض هنا تستحضِرُ و بطريقة فوريّة كلّ ما يقعُ فوق عتبة الفهم البشريّ حيث لا يكون الإستيعابُ ممكناً إلّا بوساطة وسائل غير طبيعيّة. ربّما كانت مفردة (الغامض) المعضلة الكبرى الّتي تقف بوجه القبول الواسع لأعمال ويلسون من جانب نقّاده الشرسين و لطالما تساءلتُ: ما المشكلة في هذه المفردة ؟. أذكرُ قبل سنوات خلت أنّ كتاباً نُشِر تحت عنوان (السلطعون العنكبوتي الياباني العظيم) و لم يلقَ نجاحاً يذكر، و عندما أعادت دار النشر نشر الكتاب تحت عنوان (سلطعون آلاسكا الملكيّ) بيعت منه آلاف النسخ مباشرة بعد عرضه في الأسواق !!.

في القرص المضغوط الّذي أشرتُ إليه من قبلُ ثمّة القليل من التركيز على الموضوعات الفائقة للفهم البشريّ الطبيعيّ و الظواهر غير المفهومة و تبدو موهبة ويلسون مميّزة للغاية في عرض كيفيّة عمل العقل البشريّ و كيفيّة جعله يعمل بفعاليّته المثلى.

الإستماعُ إلى كتابٍ تجربةٌ تختلف كلّيةً عن تجربة قراءة الكتاب: فنحن نقرأ في الأوقات الملائمة لنا و قد نتمايل طرباً لفكرة هنا و لفكرة هناك و نعيد قراءتها مرّات و مرّات و لكن لا يحصل شئٌ من هذا مع تجربة سماع ذات الكتاب في العادة إذ ليس ثمّة تقليبٌ لأوراق أو توقّف لِمُساءلةِ فكرة ما و كلّ ماهو أمامنا نصّ مفتوحٌ مقروء بصوت مؤلّفه و عليه وحده تقع مسؤوليّة التوكيد على الأفكار المهمّة في النصّ، و أذكر تماماً كيف كان صوتُ ويلسون في التسجيل الصوتيّ يأتي مشوباً بلكنة بريطانيّة واضحة مضمّخة بالقوّة و السطوة المحمّلتيْن بحسّ مرح و عاطفة يعملان على مساعدة المستمعين في فهم الكاتب و كتابه معاً. أفكار ويلسون المعروضة في كتابه الصوتيّ

هذا مدهشة للغاية و يحكي فيها الكاتب عن قائمة مكتشفاته في الحياة و الّتي تبدأ مع نظريّته عن الروبوت الكامن داخلنا: الطيّار الآليّ Autopilot الّذي فينا و هو كنايةٌ عن الفعاليّة العقليّة التلقائيّة الّتي تدفعنا لعمل أشياء حتّى من غير تدبّر أو إعمالِ نظر طويل مثل قيادة سيّارة أو الحديث بلغة أجنبيّة. الروبوت هذا مهمّ للغاية في إدامة حياتنا اليوميّة و لكنّ المعضلة هي أنّ هذا الروبوت قد أمسك بزمام قيادتنا إلى مدياتٍ عالية حتّى صرنا معها بعيدين عن ذواتنا الحقيقيّة و عمّن نكون نحنُ، و لكن متى نكون " نحن " فعلاً ؟ و متى نختبر ذواتنا الحقيقيّة بعيداً عن سطوة الروبوت الآليّ الذي في داخلنا ؟ يحصلُ هذا عندما نستمع إلى الموسيقى، أو نقرأ، أو نتحدّثُ مع من نحبّ، أو نعمل، أو نلعب، أو نقوم بأداء أيّة فعاليّة تقريباً تستلزم أن نمسك بزمام قيادة عقولنا و لا ندعها تنقاد لسلطان الطيّار الآليّ الّذي فينا، و لكنّ ما يحصل أنّ أداءنا إذا ما دام طويلاً فإنّ سطوتنا على ذواتنا الحقيقيّة تفلت زمام الإمساك بالقيادة و سرعان ما ينهض الروبوت الآليّ من وهدته و سباته ليمسك بالقيادة عوضاً عن ذواتنا الحقيقيّة و عندها تظهر علينا عوارض الضجر و الملل و إستنزاف الطاقة الحيويّة و القلق و الغضب و الإكتئاب. يقول ويلسون عن هذه التجربة الحياتيّة السائدة " الروبوت الّذي بداخلنا وجِدَ ليساعدنا و لكن ما يحصل في العادة انّه يختطف حيواتنا و يمنعنا من العيش البهيج لانّه صار هو بذاته يختبرُ ما ينبغي لنا نحن ككائنات بشريّة إختباره ". يمضي ويلسون – في ثنايا قرصه الصوتي ذاته – في الإسهاب عن الحديث الخاص بالإشكاليّة التالية: كيف يمكن لنا ككائناتٍ بشريّة أن نحرّر أنفسنا من معيقات هذا الروبوت و الإنتقال إلى تجربة حياة أكثر بهجةً ؟ هنا يوضّح الرجل أنّ واحدةً من أكثر الطرق فعاليّة لتحقيق هذا الغرض

هو مركزة إهتمامنا و تعزيز شدّته و توجيهه نحو بؤرةٍ واحدة تقع في قلب كلّ ما نفعله، و ثمّة طريقة أخرى تتأسّسُ على عمل عالم النفس (أبراهام ماسلو) و تقوم على إستحضار تجارب الذروة الّتي مررنا بها من قبلُ، و يجادِلُ ويلسون مدعوماً بآراء صديقه ماسلو السايكولوجيّة أنّ إستذكار تجارب الذروة السابقة لنا يمكن لها أن تستحضِر المزيد منها في حياتنا الحاضرة.

يرى الكثيرون من المفكّرين المعاصرين – إلى جانب نظراءهم القدماء – أنّ الإشكاليّة الأساسيّة للوجود الإنسانيّ هي بالضبط هذه: كيف يمكن للكائن البشريّ تحقيق السعادة الناجزة ؟ و يرى هؤلاء المفكّرون أنّ هذا السؤال عظيم للغاية و شديد الأهمّية " لانّ الافراد السعيدين لا يقدحون شرارة الحروب و لا يخوضون غمارها، و لا يغشّون الآخرين، و لا يلهثون في مراكمة الممتلكات غير الضروريّة و الأساسيّة، و لا يلوّثون الطبيعة الّتي حواليهم و الّتي هي سرّ إستدامة حياتهم، و لا ينكرون حاجات أطفالهم و يتركونهم نهباً للمخاطر و عاديات الزمان، و لا يضربون زوجاتهم،،،،، " و هكذا يمكن النظر إلى عمل ويلسون في شريطه الصوتيّ كنظريّة لامعة و دليل عملٍ واضح في إمكانيّة الكائن البشريّ في خلق سعادة أكبر لحياته و حيوات الآخرين معاً.

يقول ويلسون أنّ اللّامنتمين من أمثال: نيتشه، و فان كوخ ذهبوا بعيداً في ملامسة تخوم تجارب الذروة الخاصّة بهم و إنتهوا إلى الجنون لانّهم إفتقدوا الثقة الّتي تمكّنهم من الثبات وحيدين في ممالكهم القصيّة، ثمّ يمضي ليقول عن هذه المأساة البشريّة " الأمور تتغيّر اليوم بطريقة مدهشةٍ و دراماتيكيّة، و لو أنّ خمسين شخصاً إستطاعوا

الثبات بقوّة في مملكة رؤاهم المدهشة فسيكون ذلك كفيلاً بنقل البشريّة كلّها إلى آفاق غير مسبوقة". يطرح ويلسون في قائمة مكتشفاته – كما عمل من قبل في كتابه المعنون (مسارات جديدة في السايكولوجيا New Pathways in Psychology) – نظريّة أصيلة في السّايكولوجيا و السعادة البشريّتيْن: ففي الوجوديّة القديمة نرى أنفسنا أحراراً و لكن مُقيّدين إلى فخّ السّفالة الأخلاقيّة و الخيارات غير المقنعة، في حين أنّ الفلسفة السايكولوجيّة الأكثر إنسانيّة يمكن لها أن تمدّنا بلحظات ذروة و لكن تبقى فيها المعضلة المزمنة هي في كيفيّة إستجلاب المزيد من برهات الذروة المدهشة هذه في حياتنا، و لكن الأمر يتّخذ منحىً ثوريّاً مع فلسفة ويلسون السايكولوجيّة الجديدة حيث يمكن لنا أن نتمرّس في تركيز فعاليّاتنا العقليّة بقصد تخليق برهات ذروة أكثر و الإرتقاء صوب مستوياتِ وعيٍ أعلى من تلك المعتادة في حياتنا الإعتيادية الّتي لطالما خبرناها من قبلُ.

إنّ ممّا يؤسفُ له و يدعو إلى الخيبة العميقة أنّ أغلب النقّاد – و قد يكونون هم أنفسهم كائناتٍ شقيّة – يبالغون في كيل الإطراء و المديح لهؤلاء الكتّاب الّذين يتخموننا برؤى تدفعُ بإتّجاه اليأس و اللاجدوى المطلقة، و من الباعث للدهشة بذات الوقت أنّ ويلسون وقف وحيداً طيلة حياته الشخصيّة و المهنيّة في وجه هؤلاء النقّاد كاشفاً لنا عن رؤيةٍ لحياةٍ حافلة بالإمكانيّات و القدرات اللازمة لرحلتنا الإنسانيّة الباعثة على أعلى درجات الدهشة، و يبدو ويلسون متقدّماً بسنوات ضوئيّة عن ذلك الصنف من الكتّاب الّذين لا ينفكّون عن محاولة تسميم حياتنا و ثقافتنا البشريّتيْن بتشاؤميّتهم الكالحة، و يبقى متاحاً للقرّاء في كلّ الأوقات أن يستمتعوا بقراءة كتب ويلسون الكثيرة الّتي تنبئُ عن كاتبٍ لم يتوانَ يوماً عن دفع المتخاذلين القانطين نحو تيّار الحياة الهادر و المنعش.

مايكل باستور Michael Pastore

الملحق (A) من كتاب كولن ويلسون المعنون:

مسارات جديدة في السايكولوجيا: ماسلو و الثورة مابعد الفرويديّة

٦. هل أخطأ اللّامنتمي الأبديّ ؟

بالنسبة إلى الكُتّاب الطموحين و السّاعين نحو الإنجاز و تثبيت أقدامهم في ميدان الحرفة الأدبيّة تبدو حياة كولن ويلسون حكايةً جديرة بالتمثّل و لكن لا ينبغي أبداً أن نُجانب الحذر عند سماعها، و سأحاول هنا أن أستكشف المواضع الّتي أظنُّ أنّ ويلسون – الّذي رأى في ذاته واحداً من عباقرة القرن العشرين – جانبَ فيها الصّواب. أتساءلُ هنا: كم كان ويلسون سيبدو فزِعاً لو جاز له – بوساطة بعض القوى الغامضة الّتي لطالما آمن بحيازة شيءٍ منها – قراءةُ بعض أعمدة النّعي الّتي كتِبتْ عنه بعد وفاته ؟

كولن ويلسون: الّذي تسبّب له نشر كتابه الأوّل (اللّامنتمي) عام ١٩٥٦ في أن يختالَ إنتشاءً مدفوعاً بالإطراء الّذي كاله له بعضٌ من أكبر الكتّاب و النقّاد الأدبيين في ذلك الوقت صار اليوم يذكرُ في بعض المواقع الألكترونيّة بكونه الكاتب الّذي أنجز كتابة رواية (مصّاصو الدماء الفضائيّون Space Vampires) و الّتي خدمت كخلفيّة سيناريو لأحد الأفلام الهوليووديّة الساذجة، و طغى على أعمدة النعي للكاتب بعد وفاته عباراتٌ تصف حياة الكاتب بما يمكن إختصاره في جملتيْن إثنتيْن: " تمركزٌ طاغٍ حول الذات " و " أملٌ مضاعٌ "، و لكن برغم كلّ شيءٍ فإنّ ثمّة بطولةً حقّة في حياة ويلسون ربّما لا تكون في بعض إنجازاته قدر ما تكمن في جلدِهِ و قدرته و مثابرته على العمل بعد أن تركه وحيداً ذاتُ النقّاد الّذين أسبغوا عليه أبلغ عبارات الإطراء: فقد

ظلّ الرّجل وفيّاً لموهبته الذاتيّة و الإندفاعِ في عيش حياةٍ منتجة في الكتابة، و القراءة، و التفكير غير المقيّد. ينبغي الإعترافُ من الناحية المهنيّة على الأقلّ أن الرجل كانت له أخطاؤه و أظنّ أن سيرة حياته تصلحُ تماماً لتكون مثالاً قياسيّاً للكتّاب الطموحين متى ماتوجّب عليهم الإجابة على التساؤل التالي: ما الّذي ينبغي الإبتعاد عن فعله في خضمّ اللعبة الأدبيّة الصاخبة ؟

* لا تستعجل النجاح و أنت لمّا تزلْ شابّاً بعدُ: تسبّب نجاح اللامنتمي بإشكاليّاتٍ كبيرة لويلسون بعد أن نال إطراءً و تقريضاً عظيمين من جانب: إديث سيتويل، سيريل كونوللي، فيليب توينبي و غيرهم من الشخصيّات الأدبيّة المهمّة في ذلك الزمان حتّى بات اللامنتمي الأيقونة المثاليّة الّتي يلهث وراءها الكتّاب و دور النشر، و حتّى كولن ويلسون نفسه لم يشفَ من هذا التأثير السلبيّ عليه في أعماله الّلاحقة. نصح في. إس. نيبول V. S. Naipaul مرّة الكاتب الشاب بول ثيرو Paul Theroux " المسألة الأهمّ في حرفتك الأدبيّة أن تتجنّب الحصول على الكثير من المال قبل أن تبلغ الأربعين !! ".

* لا تخلقْ أساطير سخيفة عن ذاتك: يتغذّى الإعلام دوماً على الكليشيهات و لا شئَ أدعى للملل من كاتبٍ يظلّ يكتب وحسبُ. لاحظوا مثلاً كيف نظر القرّاءُ بإعجابٍ إلى ذلك الشخص الّذي كتب (الّلامنتمي) و هو يعيشُ حياة بوهيميّة و يقف بتفاخرٍ أمام كيس النوم الّذي يقضي ليلته بداخله في هامبستد هيث ثمّ سرعان ما إنقلب الفضول حول الكاتب سخريّة مريرة.

* قاوم رغبة الإنضواء القسريّ في محفلٍ أدبـيّ: عندما طرحت الديلي إكسبريس فكرة أنّ جماعة الشباب الغاضب (كولن ويلسون، كينغزلي أميس، مايكل هاستينغز، جون أوزبورن) قد تشكّلتْ مضى ويلسون و طاوعها في الأمر رغم أنّ الشباب لم يكن يطيق أحدهم الآخر !! و كانت النتيجة المتوقّعة أن الحركة حجّمت من شأنهم جميعاً.

* لا تسمح لنفسك أن تتسبّب في جعل المؤسّسة الأدبيّة تبدو حمقاء: ليس ثمّة عالم مهنيٌّ منتفخٌ غروراً و خيلاءً أكثر من ذلك العالم المكتظّ بالكتّاب و الناشرين، و حصل أنّ الإحراج الّذي تسبّب به ويلسون لهؤلاء الّذين أفرطوا في كيل المديح له لم يكن بالإمكان شفاؤه إلّا بعمليّة أشبه بطرد الأرواح الشرّيرة عبر تدبيج مراجعات مغاليةٍ في القسوة تجاه عمله الثاني كمحاولة لردّ الإعتبار لذواتهم أزاء ما إعتبروه عملاً لا يليق بسمعة الكاتب و منجزه الأوّل.

* لا تُفرِطْ كثيراً في الكتابة عن موضوعات: الجنس، و الجريمة، و الغموض: قد تبدو الحماسة اللحظيّة و العابرة لهذه الموضوعات مقبولة على يد كتّابٍ من أمثال: نابوكوف، ميللر، ييتس،،، و لكنّ ويلسون مضى يكتب في هذه الموضوعات ذاتها كمن مسّتْهُ حمّى لا شفاء منها !!. قد تصلح هذه الموضوعات في الترويج لكاتبٍ مبتدئ و لكنّها لا تتّفقُ أبداً مع نهج كاتبٍ يدّعي العبقريّة و يبتغي الجدّية و الصّرامة الأدبيّتيْن.

* لا تنتقِلْ للسكن بعيداً عن المدينة: عالم النشر و الكتاب يتمحورُ حول معارض الكتاب، و التجمّعات الأدبيّة و حفلات تسلّم الجوائز الّتي تجري وقائعها غالباً في المدن الرئيسيّة و بخاصّة لندن (الإشارة هنا إلى الكتّاب الإنكليز فحسب، المترجمة)، و أيُّ كاتبٍ ينبغي أن يكون على دراية كاملةٍ بهذه المسلّمة، و لكن يبدو أنّ ويلسون مضى بعيداً في التأكيد على خصوصيّة حياته الشخصيّة و عمله الأدبيّ عندما قرّر منذ أن كان يافعاً الإنتقال إلى بلدة كورنوال Cornwall و المكوث فيها حتّى مات.

* عندما تكونُ في السبعينات لا تناقشْ موضوعاتٍ مثل ولعك بإستعراض ملابس أمّك الداخليّة مع أناسٍ مثل لين باربر Lynn Barber(*): نعيشُ اليوم في مجتمعٍ تشارُكيّ من ناحية سهولة إنتقال المعلومة، و جاء إعترافُ ويلسون عامَ ٢٠٠٤ بأنّه كان يُستثارُ لرؤية ملابس أمّه الداخليّة ليمثّل فعلاً غير حكيم لا يخدم كاتباً في سعيه نحو تأكيد حقيقته كعبقريٍّ لم ينلْ الإعتراف المستحقّ في الأوساط الأدبيّة و العامّة.

تيرينس بلاكر Terence Blacker (**)

صحيفة الإندبندنت

٩ كانون أوّل ٢٠١٣

* لين باربر Lynn Barber : صحفيّة إنكليزيّة مولودة عام ١٩٤٤ و عملت لصحف عديدة آخرها الصنداي تايمز. (المترجمة)

** تيرينس بلاكر Terence Blacker: مؤلّف و كاتب أعمدة و صحفيّ و ناشر إنكليزيّ مولود عام ١٩٤٨. كتب العديد من الكتب للأطفال و البالغين و يعرفُ عنه سلسلته الشهيرة المسمّاة (سلسلة السيّدة ويز Ms. Wiz Series). (المترجمة)

الفصل الثاني: خمسةُ وجوه لِلكاتب كولن ويلسون

١. الكاتبُ و كتبُهُ:

كولن ويلسون قارئاً

هذه ترجمةٌ للقسم الأوّل المعنون (كمْ عدد الكتب الّتي ينبغي إمتلاكُها ؟ How Many Books is Too Many) من كتاب كولن ويلسون (الكتب في حياتي The Books in My Life) المنشور عام ١٩٩٨.

المُترجمة

في عام ١٩٥٠ و بدفعٍ من نصيحة مكتبيٍّ يعمل في لوس أنجيليس إنطلق (هنري ميلّر) في إعداد قائمةٍ بمائة كتاب من الكتب الّتي عدّها الأكثر تأثيراً في حياته، و كما يحصل في العادة إشتطّ ميلّر كثيراً و إندفع بعيداً عن مخطّطه الأوّلي و كتب مجلّداً بثلاثمائة صفحة عنوانه (الكتبُ في حياتي). سجّل ميلّر ملاحظةً في مقدّمة كتابه هذا يقول فيها أنّ كتابه سيتطوّرُ إلى مجلّدات عديدة في خضمّ السنوات القليلة اللّاحقة، و لكنّ الحقيقة أنّ المجلّد ظلّ يُطبع بحجمه الأصليّ و لم تحصل أيُّ إضافات عليه كما لم تظهر أيّ مجلّدات لاحقة تكملُ ما إبتدأه ميلّر في عمله الأصليّ، و أرى أنّ بإمكاني تفهّم دوافع ميلّر الكامنة وراء ذلك: فعندما بدأتُ أنا ذاتي بعمل قائمةٍ لأكثر الكتب

تأثيراً في حياتي كنت توقّعتُ في البدء أن تكون في حدود العشرين كتاباً و عزمتُ أن أُرفقَ مع كلّ كتاب مقالة وافية لاتتجاوزُ دزينة من الصفحات، و بعدما إنطلقتُ في وضع قائمة أوّلية بالكتب المطلوبة رأيتُ نفسي أدوّنُ خمسين عنواناً من الكتب دفعة واحدة و بدون أن أتوقّف و لو لبرهة قصيرة و تبيّنتُ أنّ بالإمكان بكلّ بساطة ان أضيف خمسين عنواناً آخر من غير كثير جهدٍ أو إعمال نظر طويل و كان هذا يعني أنّ كتابي الموعود عن حياتي مع الكتب سيكون مجلّداً بألف و مائتي صفحة في أقلّ تقدير، و لك أن تعلم بعد كلّ هذا كم كان ينبغي أن أمارس من جهد و إنضباط لكي أقلّل عدد العناوين بغية جعل الكتاب في حجم مقبول و قابل للتداول السّهل.

لطالما كنتُ طوال حياتي شخصاً مهووساً بالكتب و هو الأمر الّذي يجيب عن سبب إمتلاكي لرفوفٍ كثيرة للكتب في بيتي تحوي ما بين عشرين إلى ثلاثين ألف كتاب، و يمكن لك أن تتصوّر الحال إذا عرفتَ أنّ كلّ غرفة في بيتي تحوي رفوفاً متخمة بالكتب – غرف النوم ليست مستثناة من هذا الوصف – حتى بات من المستحيل من الناحية الواقعيّة إيجادُ فسحة لإضافة أيّة كتب جديدة، و يوجد بضعة آلاف أيضاً من الأسطوانات و الشرائط الفديوية و هي كلّها صارت تمثّل مشكلة تخزينيّة جدّية بالنسبة لي، و من الطبيعيّ للغاية أن الزائرين يسألونني في كلّ مرّة يرون فيها هذه الرفوف من الكتب " كولن، هل قرأت هذه الكتب كلّها ؟ "، وَ يتوجّبُ عليّ أن أوضّح الأمر كلّ مرّة: العديد من هذه الكتب تخدمني كمراجع أعود إليها عند الحاجة طالما أنّ المكتبة العامّة بعيدة عن منزلي و لا أستطيع الوصول إليها متى كنتُ في حاجة للنظر في أحد الكتب المرجعيّة، و أنّ البعض الآخر من الكتب إقتنيتُهُ على أمل قراءته لاحقاً عند تيسّر الوقت (مثل مجموعة

كتب السير والتر سكوت Walter Scott الّتي لم أقرأها لليوم)، و لكن إذا كان يتوجّب عليّ قول الحقيقة فإنّني قرأتُ فعلاً معظم تلك الكتب و هذا يعني بالضرورة أنّني لو أردتُ الحديث عن الكتب الأكثر تأثيراً في حياتي لتوجّب عليّ فعلاً المضيّ في كتابة بضع مجلّدات عنها و ليس أقلّ من ذلك أبداً.

دعوني الآن أوضّح كيف توطّدت علاقتي الحميمة مع الكتاب: كنتُ أنا و زوجتي جوي Joy نعيشُ في منزل ريفيّ صغير قرب البحر بعد أن غادرنا لندن للعيش في كورنوال Cornwall مدفوعين بطلب السكينة بعد الضجّة الّتي رافقت نشر كتابي الاوّل (اللامنتمي) عام ١٩٥٦، وَ حصل أنّ الشخص الّذي إستأجرنا المنزل الريفيّ منه كان شاعراً يعمل لدى ناشر في لندن و كان لديه حنينٌ جارف للعودة إلى بلدته، و كان الإتّفاق بيننا أنّنا سنستأجرُ منزله لمدّة سنتيْن و إذا لم يجد في نفسه رغبة في العودة فإنّ العقد سيمتدّ لسنتيْن أخريتيْن. كان المنزل الريفيّ مصمّماً على الطراز الإليزابيثيّ و كانت جدرانه مبنيّة من كتل رمادية اللون مصنوعةً من نوع خاص من الطين المفخور و بسماكة قدميْن، و كان ثمّة جدول ماء صغير ينساب أمام الباب الأماميّ للمنزل مالئاً الفضاء بصوت خرير الماء الهادئ و كانت بضعُ بقراتٍ ترعى في الحقل المقابل لسفوح التلال القريبة من المنزل. كان اوّل ما فكّرتُ فيه و عزمتُ على تنفيذه فعلاً هو صنعُ رفّ في غرفة الطعام لوضع الكتب الّتي جئتُ بها من لندن، و كانت لديّ أيضاً حوالي المائتين من أسطوانات الغراموفون الّتي لم يكن مضى على تصنيعه سوى عقد من السنوات، و كان من أوائل الأمور الّتي أقدمتُ عليها بعد تسلّمي لدفعة من مكافأتي على كتاب (الّلامنتمي) أنّني إقتنيتُ جهاز غرامو فون حديثاً مع أسطواناتٍ للموسيقى المفضّلة لديّ: سيمفونيّات

برامز، بروكنر، ماهلر، و رباعيّات بيتهوفن و سوناتاتُهُ على البيانو، إلى جانب عملَيْ فاغنر العظيميْن فالكيري Valkyrie و شفق الآلهة Gotterdammerung. لم يكن في المنزل من مصدر للكهرباء لأنّه كان يبعد حوالي الميل عن أقرب طريق رئيسيّ لذا إستعضنا عن الكهرباء بدزينةٍ من البطاريّات و محوّلة للطاقة لتحويل التيّار الكهربائي المستمر إلى متناوب كما إمتلكنا داينمو كهربائيّاً لشحن البطاريّات متى ما فرغت من الطاقة.

كان عيشنا في منزلنا الريفيّ مبعث إرتياحٍ عميقٍ لنا و بخاصّة بعد النجاح اللافت للنظر الّذي قوبل به كتابي الأوّل رغم أنّ الأمر لم يكن ليخلو من بعض المنغّصات المتوقّعة: فقد ظهرت أولى المراجعات لكتابي في ذات اليوم الّذي ظهرت فيه مراجعات مسرحيّة (جون أوزبورن John Osborne) الشهيرة (أنظر وراءك بغضب) و راحت الصحافة تطلق علينا ما بات يعرف تقليديّاً بالشباب الغاضب رغم أنّ هذه الصفة لم تكن لتنطبق على حالتي أبداً إذ لم تكن ثمّة مشتركاتٌ بيني و بين المسرحيّ أوزبورن و جماعته: كينغزلي اميس Kingsley Amis و جون وين John Waine، و لطالما رأيت نفسي كاتباً مهووساً بعالم الأفكار و أعمل في ذات إتّجاه التقليد الأوربي كما عمل سارتر و كامو، و لكنّ المشكلة معي كانت في إنعدام التقاليد الثقافيّة التي تعنى بتأريخ الأفكار في بريطانيا على عكس الحالة السائدة في الثقافة الفرانكوفونية. جاء نجاح كتابي (اللّامنتمي) كضربة حظّ غير متوقّعة و في الوقت الّذي إنتقلْتُ أنا و زوجتي للعيش في منزلنا الريفيّ في كورنوال بعد تسعة أشهر من نجاح (اللامنتمي) أدركتُ أنّني كنت أعملُ في فراغٍ بقدر ماكانت بريطانيا معنيّة بالأمر، و بعد أربعين عاماً من ذلك الوقت لا أزال أشعر أنّ بريطانيا ليست تلك البلاد الّتي تمنح

لتاريخ الأفكار ما يستحقّ من رعاية و إهتمام فائقيْن و لا زلتُ أرى في نفسي مثالاً قياسيّاً لِ (لا منتمٍ) حقيقيّ مثلما فعلتُ طوال حياتي.

مكثتُ أنا و زوجتي جوي في المنزل الريفيّ في كورنوال لسنتيْن كاملتيْن، و في ربيع عام ١٩٥٩ سرتْ إشاعاتٌ أنّ الشاعر مالك الأرض الّتي يقوم منزلنا فوقها ينوي التصرّف بها لأغراض خاصّة به فما كان منّا إلّا أن نكاتبه في حقيقة الأمر لنتبيّن مدى صدقيّته، و لأنّ الرجل كان شاعراً فقد كان كسولاً كما هو متوقّعٌ من الشعراء و لم يحمّلْ نفسه عناء الإجابة على سؤالنا، و كنت آنذاك منهمكاً في كتابة روايتي (طقوس في الظلام Ritual in the Dark) الّتي تحكي عن قاتلٍ مهووس جنسيّاً يماثل جاك السفّاح (جاك السفّاح Jack the Ripper: **هو الاسم الأشهر الذي أطلق على قاتل متسلسل مجهول الهوية كان نشطاً في المناطق الفقيرة جداً في منطقة وايت تشابل وحولها في لندن سنة ١٨٨٨، المترجمة**)، لذا تكفّلتْ جوي بالبحث عن منزل آخر يصلح لسكننا، و بعد ظهر أحد الأيّام عادت لتخبرني انّها عثرت على منزل مناسب في قرية مجاورة عندما رأت رقعة مثبّتاً عليها عبارة "للبيع" أمام أحد المنازل، و بعد أن أجالت جوي النظر في المنزل عبر البوابة صدمت لأنّه كان أكبر بكثير من حاجتنا فقرّرت المغادرة لكنّ صوتاً من داخل المنزل إستوقفها فرأت أنّ من غير اللائق المغادرة فإستدارت و ذهبت عبر البوّابة لتطرق على الباب الداخليّ، فما كان من أحد ساكني المنزل إلّا أن يفتح الباب و يدعوها لتناول قدح من الشّاي. كان مالكا الدار ثنائيّاً من برايتون أكبر من أعمارنا أنا و زوجتي و قد قرّرا بعد تقاعدهما قضاء سنواتهما القادمة في هذه الدار الريفيّة و لكنّهما وجداها بعد فترة من الإقامة فيها مدعاة لشعورهما العميق بالوحدة فقرّرا بيعها و العودة ثانيةً إلى حياة المدينة الصاخبة. وجدت جوي

الثنائيّ فاتناً و جذّاباً و لكنّها رأت أنّ المنزل كان أكبر بكثير جدّاً ممّا نحتاج و كان سيكلّفنا أكثر ممّا يمكننا دفعه: فقد كان يتطلّب دفع أربعة آلاف و خمسمائة جنيه أسترلينيّ و هو ضعف السعر السائد للمنازل المعروضة للبيع لدى سمسار العقارات في تلك المنطقة، و عندما أخبرتني جوي بالأمر لمعت عيناي فرحاً و قلت لها " هذا خبر طيّب، كثيرٌ من الغرف الّتي تكفي لكتبي أيضاً !! "، و إنطلقنا أنا و جوي عصر ذات اليوم لمعاينة المنزل فوجدْناهُ ينتصبُ وسط أرضٍ مساحتها إيكران (الإيكر acre يساوي ٤٠٤٦ متراً مربّعاً، المترجمة) و لم تكن ثمّة منازل حوله و كانت أمام المنزل حقولٌ فسيحة ممتدّة حتى ساحل البحر، و لم يكن على العُمومِ ذلك المنزل الجذّاب رغم عدم مضيّ أكثر من ستّ سنوات على بنائه المشيّد من الكتل الخرسانيّة الرماديّة الّتي طلِيت لاحقاً بلون أخضر فاتح و لكنّ إمتيازه الوحيد – كما رأيت أنا و وافقتني جوي في ذلك – أنّهُ كان يضمّ فسحة كافية تكفي لإيواء الألاف من كتبي الأثيرة. كنّا نملك القليل من المال آنذاك و تفاقمت ضائقتُنا الماليّة بعد أن لاقى كتابي الثاني (الدين و المتمرّد Religion and the Rebel) هجوماً قاسياً حتّى أنّه لم يطبع طبعة ثانية ولكن مع هذا كان في مقدورنا الحصولُ على قرض عقاريّ فمضينا بقوّة و قرّرنا شراء المنزل، و هذا ما حصل فعلاً، و إنتقلنا إلى منزلنا الجديد أنا و زوجتي و والديَّ اللّذان دعوتهُما للعيش معنا و بدأتُ أوّل ما بدأت في نصب رفوفٍ لكتبي في كلّ غرف المنزل، و كانت العادة عند زيارة أيّة قرية قريبة منّا أن أسأل عن المكتبة فيها و عند عودتنا كانت السيّارة في العادة مليئةً بشتّى صنوف الكتب. كان المنزل أوّل الأمر يبدو كبيراً جدّاً بحيث يكونُ من المستحيل تصوّر أمكانيّة أن يضيق بالكتب يوماً ما و لكن حصل مع الأيّام أن إمتلأت الغرف برفوف الكتب فعمدْتُ

إلى إستغلال المساحات المتاحة في مدخل البيت فكنتَ ترى الرفوف المليئة بالكتب إلى حافات فوق رؤوسنا ببضع بوصات أينما ذهبتَ حتّى أدركتُ يوماً إستحالة إضافة و لو رفّ صغير إضافيّ آخر في أيّ مكان حتّى لو كان في مطبخ المنزل !!.

قد يتساءل البعضُ: أيّ نوع من الكتب كنتَ أحِبُّ إقتناءه ؟ أقول: كنتُ أقتني كلّ الكتب الّتي تتناول الموضوعات الممتعة لي، و كمثال على هذه الموضوعات: الجريمة، و أذكرُ عندما كنتُ يافعاً أنّني قرأتُ كتاباً عن الجريمة عنوانه (الجرائمُ الخمسون الأكثر إثارةً للدهشة في المائة عام المنصرمة) و أحببت أيضاً كتب الشعر و إقتنيتُ المئات منها بدءً من أعمال شوسر مروراً بملتون و حتّى تي. إس. إليوت. إقتنيتُ آلاف الكتب في الموسيقى، و الفلسفة، و السيرة، و التأريخ، و النقد الأدبيّ، و العلوم، و حتّى في الريّاضيّات، و بالطبّع في الرواية أيضاً، و كانت لديّ مجاميعُ كاملة لكلّ أعمال كُتّابي المفضّلين: دوستويفسكي، تولستوي، برناردشو، جي. إج. ويلز و لازالت لديّ بعضٌ من المجموعات الّتي تنتظر القراءة مثل أعمال: كارلايل و راسكين.

منذ أن كنتُ طفلاً أحببتُ كثيراً شراء الكتب المستعملة و هكذا وجدتُ نفسي في منزلي الجديد الملآن كتباً كمن حقّق أحلامه بإقتناء ما يحبّ من الكتب الّتي لطالما حلم بقراءتها، و قد إقتنيتُ الكتب بلا هوادة كمن يطلب الخلود لأجل أن يتوفّر له الوقت الكافي لقراءة كلّ هذه الكتب، كما إقتنيتُ الكثير من الأسطوانات الموسيقيّة و الغنائيّة إبتداءً من كلاسيكيّات بيتهوفن و حتّى آخر إصدارات الجاز، و عندما بلغتُ منتصف الأربعينات من عمري أدركْتُ انّني لستُ بقادر على قراءة كلّ تلك الآلاف من الكتب أو سماع تلك الأعداد الهائلة من

الأسطوانات و حسبتُ أنّني لو أدمنتُ سماع الأسطوانات الّتي لديّ بمعدّل عشر ساعاتٍ يوميّاً فسأحتاجُ ما لايقلُّ عن عشر سنواتٍ لسماعها كلّها !! و لا زلتُ حتّى اليوم عندما أسمعُ تقريضاً حسناً لسيمفونيّة بيتهوفن التاسعة مثلاً أو لعمل شتراوس المسمّى Rosenkavalier لا أستطيع مقاومة الرغبة الجامحة في إضافة هذا الإطراء إلى مجموعتي من الأسطوانات و أحسبُ أنّ هذه الشّهوة الجامحة و المنفلتة تجاه الكتب و الأسطوانات هي شكلٌ مخفّفٌ من أشكال الجنون في أقلّ تقدير.

هذا ما حصل في نهاية الأمر إذن: أن أرى نفسي ساكناً في منزلٍ يعجُّ بالكتب و الأسطوانت الموسيقيّة في كلّ الأمكنة: في المطبخ و غرف النوم و مدخل البيت حتّى بات يحلو لزوجتي أن تسمّي هذه الاكوام " مصيدة الشمس " !! و بلغ بي الأمر حدّ أنّني لم أعدْ أقرأ أيّة مراجعات حديثة للكتب خشية أن لا أكون قادراً على مقاومة الإغراء العنيف في إضافة المزيد من الكتب إلى منزلنا المتخم بالآلاف منها.

٢. رؤية في الرواية:

كولن ويلسون روائيّاً

هذه ترجمة لمعظم أجزاء الفصل الأخير المعنون (خلاصات) من كتاب كولن ويلسون (فن الرواية The Craft of the Novel) الّذي نشرته دار نشر Ashgrove عام ١٩٨٨.

المُترجمة

أبتغي في الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب عرض بعض وجهات النظر الخاصّة بي حول الرواية و الفن الروائي بعامّة، و لكن أفضّلُ أوّلاً تلخيص الأفكار الأساسيّة في كتابي هذا **(المقصودُ هو كتاب فنّ الرّواية، المترجمة).**

الرّواية في الأصل محاولةٌ لخلق مرآةٍ يستطيع الروائيّ من خلالها رؤية وجهه، و هي بهذا الوصف محاولةٌ لخلق الذات و توكيد وجودها، و هنا تكون عباراتٌ من أمثال (وصف الواقع) أو (قول الحقيقة) محض أهدافٍ ثانويّة و ليست أكثر من السّعي في طلب شغف القارئ و إهتمامه بالرواية التي يقرؤها و لكن يظلّ الغرض الأساسيّ من الرواية أن يفهم الكاتب نفسه و يدرك غرضه، و هو بهذا الفعل إنّما يساعد القارئ في فهم نفسه و إدراك غرضه في الوقت ذاته، و لا ينبغي أن يفهم من هذا أن الروائيّ ليس معنيّاً بقول الحقيقة، بل أعني بالضبط

أنّ الحقيقة الّتي نحكي عنها لا يمكن تحقيقها في نهاية المطاف من غير التعريف الواضح و الحاسم لصورة الكاتب الذاتيّة و هذا يعني تماماً أنّ هدف الفنّ الروائيّ – و الفن بعامّة – لا يقوم على رفع مرآةٍ أمام الطبيعة بل أمام وجه الفرد،،، لا وجهه اليوميّ المعتاد بل (وجهه القابع وراء وجهه اليوميّ): وجهه النهائيّ المستور إذا شئنا تعريفاً أكثر دقّة، و حتّى شكسبير فشل في تحديد نوع المرآة الّتي كانت تشغل ذهنه: فثمّة مرايا مستوية تعكسُ ما يوضعُ أمامها و حسب و هي بهذا لن تكونَ شيئاً أفضل كثيراً من زوج العيون المعلّقة في سقف رؤوسنا، و هناك مرايا محدّبة تظهرُ فيها الأشياء مشوّهة كثيراً مثل ضفدع كبير الحجم و هي مذهلةٌ متى ما أراد المرءُ التمعّن في تجاعيد وجهه و الأجزاء المنتفخة تحت عينيه و لكن ليس في مقدورنا أن نسمّيها صادقة، و ثمّة أيضاً مرايا محدّبة و هذه تمتاز بفائدة عظمى مشخّصة: إذ تستطيعُ في مدى حدودها الضيّقة أن تعكس مساحة كبيرة من الواقع الّذي أمامها، و أحسبُ أن الروائيّ يطمحُ أن يكون مرآةً متّسعة الزاوية أو الأصحّ عدسة متّسعة الزاوية إذا شئنا الدقّة التصويريّة، و إنّ الهدف من وراء هذه العدسة ليس إظهار العالم بصدقٍ أكبر بل جعلُ القارئ واعياً بتجربته، و يشير أينشتين في هذا السياق أنّ سكّان المدن يتوجّهون إلى الجبال غالباً في عطلات نهاية الأسبوع لأنّ الأفق الرّحيب يمنحهم إحساساً بالحرّية و هذا هو ما يسعى الروائيّ تماماً و يجتهد في طلب تحقيقه. تكمنُ الحرّية بالنسبة لكلّ فردٍ منّا في الطرف الآخر من المتاهة مثل تلك الّتي نجدها في صحف الأطفال حيثُ يتوجّبُ رسم خطّ متّصل يمرّ بين غابة من الدهاليز، و الحرّية حقٌّ لكلّ البشر غير أنّ المتاهة الشخصيّة لكلٍّ منّا مختلفة عن الآخر و هدفُ الروائيّ هو الوصولُ إلى الطرف الثاني من متاهته الخاصّة.

بالنسبة إلى القواعد الروائيّة: الأسلوب و هيكلة الرواية و بناء الشخصيّات، فتلك من الأمور الّتي يتقنها الكاتبُ مع مواصلة كدحه و يتعلّمها من خلال قراءة روايات الآخرين كذلك، و لا أرى ثمّة قاعدة واحدة أساسيّة للكتابة الروائيّة أكثر من القاعدة الّتي تؤكّدُ على تجنّب الدهاليز المسدودة النهايات: فمعظمُ الكتّاب الّذين إنتهوا في دهاليز مسدودة النهايات – من فلوبير و حتّى بيكيت – عانوا تبعات هذه النهايات غير السارّة لانّهم آمنوا بالحدس الفنّي إيماناً يكادُ مطلقاً على حساب عالم الأفكار. إنّ ما ينبغي فهمه و وضعهُ فوق كلّ إعتبار بالنسبة لكلّ كاتب هو فهم الطرق و الأهداف الأساسيّة للرواية و أعني بالضبط ما كان يحاول كلّ الكتّاب القيام به و الطريقة الّتي حاولوا بوساطتها تحقيق ما كانوا يبتغون القيام به و هو في المقام الأخير فهم حرّية الكاتب و الارتقاء إليها بثبات و شجاعة و إنَّ مفهوم كلّ كاتبٍ عن الحرّية الّتي يبتغيها هو ما سيحدّدُ في النهاية شكل كلّ شيء آخر في عمله الروائيّ. إنّ الهدف من الرواية لا ينزعُ إلى خلق عالمٍ مستقلّ و منعزل للكاتب بقدر ما يساعده في خوض عالم الأفكار لأنّ الرواية في الأساس تجربة فكريّة (**التجربة الفكريّة Thought Experiment: مفهومٌ ينسّب في العادة إلى العالم الفيزيائيّ إينشتين و فيها يمكن تصوّر بعض المواقف الفيزيائيّة الراديكاليّة الّتي يصعب إنجازها في الواقع الفيزيائيّ – مثل ركوب قطار يسير بسرعة الضوء – مع تصوّر النتائج المترتّبة عليها و ذلك بإستخدام القدرة التخييلية الخالصة للعقل البشريّ، و قد أجمل إينشتين أهمّية التجارب الفكريّة في عبارته الأيقونيّة: الخيالُ أهمّ من المعرفة، المترجمة**)، و الرواية نوعٌ من الارتقاء الصامت نحو التجربة الفعليّة: فإذا أردْتَ أنْ تجد حلّاً لمشكلة شخصيّة معقّدة فبالكاد تستطيع العثور على حلّ أفضل من كتابة رواية حول مشكلتك ذاتها !! و لطالما كانت الكتابة الروائيّة

بالنسبة للروائيّين العظام عاملاً يساعدهم في تمثّل تجاربهم و استيعابها و إذا شئنا إستخدام إستعارة علميّة فإنّ الرواية أداة مثل الميكروسكوب أو التلسكوب تساعدنا في زيادة قوّة مَلَكاتِنا المحكومة بمحدوديّات فيزيائيّة طبيعيّة.

عبّر كامو في الصفحات الختاميّة من (الغريب) عن بصيرته الأكثر عمقاً في إدراك (ميرسو) أنّه كان سعيداً، و من المؤكّد أنّنا جميعاً قد إختبرْنا حالات مثل إدراك ميرسو: نوعُ من الشعور بالضغط الداخليّ المتفجّر مصحوبٍ ببرهة من البرهات البروستيّة Proustean عندما نبطل التفكير و الشعور بالموت و الضِّعة و ندرك - مثلما أدركْ ستيبنوولف في رواية هسّه - وجود موزارت و النجوم، و ثمّة عنصرٌ ما يشير إلى تناقضٍ هنا: إذا كان ميرسو في رواية الغريب سعيداً بالفعل عندما كان يحدّق و هو ضجِرٌ من خلال النافذة فلماذا لم يدركْ أنّه كان سعيداً ؟ و هنا نتساءل: هل يمكن أن تمرّ بنا برهاتٌ نكون فيها سعداء من غير أن ندرك ذلك ؟ نعم كما هو واضحٌ و نحن ننظر دوماً إلى ما فاتنا و نقول في لحظة محدّدة: كان ذلك وقتاً سعيداً على الرغم مِنْ أنّنا لم نكنْ نعي تلك السعادة وقت حدوثها. إنّ ما يحصل هو أنّ لحظات التبصّر العميقة تعيد إستكشاف مدى سعادتنا تحت مجهر أنظارنا فجأة تماماً بذات الطريقة الّتي نعدّل فيها وضع المنظار لنرى المشهد أمامنا بوضوحٍ أكبر، و قد علم ستيبنوولف أنّ موزارت و النجوم وُجِدوا بالتأكيد قبل أن يشرب كأس نبيذه غير أن النبيذ هو ما تسبّب في أخيراً في جعله يدرك السعادة الّتي منحها له موزارت و النجوم معاً، و هذا يقودنا إلى توكيد حقيقةٍ في غاية الأهميّة: إنّ أغلب قيمنا التي تحفّزنا في الحياة إلى جانب الأشياء الّتي نحبّها تظلّ مخفيّة عنّا معظم الأوقات و كأنها قابعةٌ وراء ضباب كثيف، فنحن في واقع

الأمر لدينا مئاتٌ من الأسباب الّتي تدفعنا للشعور بالسعادة و اوّل هذه الأسباب و أكثرها وضوحاً هو كوننا على قيد الحياة و في قدرتنا أن نمضي لتشكيل حياتنا وفق ما نرغب، غير أنّ هذه الأمور تظلّ كامنة تحت وعينا بإستثناء برهاتٍ نادرة من البهجة، و لكن من جانبٍ آخر ثمّة وجه آخر للإشكاليّة هذه: إذ حتّى لو وجِد أمروٌ مقتنع بحياته قناعة تامّة و يستشعر برهات سعادته أغلب وقته فهو لا يسمح إلّا بقدر ضئيلٍ من ذلك الشعور بالإنبثاق من وعيه و هنا أعني أنّك إذا ما أردْت سؤاله عن السبب الكامن وراء قناعته الهانئة بحياته فسيعطيك ربّما عشرات الأسباب الشخصيّة لكنّه لن يفكّر في سبب غير شخصيّ و لن يقول لك شيئاً مثل (لانّ موزارت عاشق) أو (لانّ الأغصان تبدو متالّقة في المطر) طالما هو لا يشعر أن هذه يمكن أن تسعده سعادة شخصيّة هائلة إلّا في الحالة الّتي يسمع فيها موزارت أو يرى غصناً غضّاً يتألّق تحت المطر. يمتاز الشعراء و الصوفيّون عن غيرهم أنّهم يدركون فعلاً أنّ العديد من الأمور غير الشخصيّة يمكن أن تكون سبباً في سعادتهم إلى حدود يصعب تخيّلها عند غيرهم، و كمثالٍ نذكر (روبرت برووكRupert Brooke) الّذي كرّس قصيدة طويلة له وضع لها عنوان (العاشق العظيم) و فيها يذكر عشراتٍ من الأمور غير الشخصيّة الّتي تجعل المرء سعيداً، و لا يختلف الروائيون العظام عن الصوفيّين في إمتلاكهم القدرة على جعل (القيم الخفيّة) الباعثة لأعلى أشكال السعادة المتصوّرة تبرق في الوعي كالشعلة المتوهّجة. إكتشف (ريتشاردسون Richardson)(*) أنّ الناس العاديّين يستمتعون بالقراءة و أنّهم يتوقّفون لبرهة عن الإحساس الضِعة و الزوال و المحدوديّة و بكونهم مخلوقات عابرة جاءت بمحض صدفة، و تستطيع الرواية – عبْر عمليّة إنعكاس ذاتيّ – تقديم حالةٍ مستمرّة و متوسّطة الكثافة

من تجربة الذروة و هذا يعني في النهاية أنْ ليس من موضوع في الحياة يمكن عدّه غير ملائم للتناول الروائيّ، و حتّى العدميّة الخالصة لروايات بيكيت المتأخّرة يمكن لها أن تقدح وميضاً من الإحساس بالشبع و القناعة لشخصٍ يؤمن بعبثيّة الحياة المطلقة.

تكمن المشكلة الأساسيّة المرتبطة بالوعي البشريّ في (الروبوت): ذلك الجزء الآلي الّذي بداخلنا و يسيّرُ حياتنا بطريقة تلقائيّة، فنحن كائناتٌ بالغة التعقيد و قد تمّ تصميمُنا بطريقة خلّاقة بحيث نكون قادرين على أداء أشياء عظيمة كثيرة بطريقةٍ آليّة لا نكادُ نلحظها مثل التنفّس، قيادة السيّارة، التحدّث بلغة اجنبيّة،،،،، و حقيقةُ الأمر أنّ روبوتنا يقوم بتنفيذ أصعب الأمور و أكثرها مشقّة بصورةٍ أفضل بكثير ممّا لو أردنا تنفيذها بطريقة قصديّة، و أذكرُ أنّني كنتُ أستخدم آلتي الكاتبة بطريقة سيّئةٍ للغاية حتّى تعلّمتُ الضرب على الآلة الكاتبة و و بعدَها راحت أصابعي تتولّى تنفيذَ العمل تنفيذاً آليّاً، و لو حاولتُ أن أُمارس الضرب على الآلة الكاتبة اليوم بطريقة قصديّة فأظنّني سأنفّذ العمل بطريقة غاية في السوء!! و لكنْ عندما أفرغُ من عملي اليوميّ أديرُ مفتاح التلفزيون و أشاهدُ النشرة الإخباريّة و أصبُّ لنفسي كأس نبيذ ثمّ أصغي لبعض الموسيقى،،، و هذه كلّها إشاراتٌ للروبوت الّذي في داخلي بالكفّ عن العمل التلقائيّ و السماح لنفسي الحقيقيّة أن تأخذ زمام القيادة بدلاً عنه، غير أنّني لو حصل و كنتُ أعمل بطريقةٍ شاقّة جدّاً و توقّفت فجاةً عن العمل طلباً للإسترخاء فربّما قد يحصل أن أجلس في كرسيٍّ ذي المساند الجانبيّة و أتساءل في حنق واضح: ليس ثمّة شيء مسلٍ في التلفزيون، أو هل يتوجّبُ عليّ المطالعةُ في كتاب،،،،،، و حقيقة الأمر هنا أنّ روبوتي ما زال يعمل – ربّما يعمل النبيذ على الإسترخاء عن طريق كبح هذا الروبوت !! –. يميلُ روبوتنا

الداخليّ إلى تولّي أمورنا عندما نكونُ منهمكين تماماً في أداء أمرٍ ما تماماً كما يشتغل الثرموستات تلقائيّاً في جهاز التدفئة المركزيّة عندما تنخفض درجة الحرارة أقلّ من حدّ محدّد: و هنا يحصل أنّني على الرغم من كوني أنا من ينظر بعينيه و يسمع بأذنيْه فإنّ الروبوت هو من يقوم بعمليّة النظر و الإستماع، و ثمّة أوقاتٌ ننسى فيها أحياناً أشياء فعلناها قبل بضعِ دقائق – إقفال باب مرآب السيّارة أو وضع آلة جزّ العشب في مكانها – لأنّ الروبوت هو من قام بفعل ذلك و لستُ (أنا) الحقيقيّة، و لكن ثمّة أوقاتٌ يكون فيها هذا الروبوتُ خطيراً للغاية: فعندما أقومُ بفعل شيءٍ ما بإهتمامٍ و متعة فأكون كمن يشحنُ بطاريّات نشوته الداخليّة كما تشحنُ بطاريّات السيّارة عند قيادتها، و لكن عندما أنفّذُ الأعمال تنفيذاً آليّاً ينعدم الشحن و تكون النتيجةُ الحتميّة أن أصابَ بتعبٍ شديدٍ أو أهوي في قعر الكآبة المنفّرة و حينها يكون الروبوتُ قد تولّى القيادة بواسطة مفاتيح سيطرته الآليّة، و قد أعيشُ أسابيع أو شهوراً أو حتّى اعواماً في حالةٍ تخلو من أيّة دفقة حيويّة أو نشاط دون شحن بطارياتي المستنفذة و حينها أدركُ أنّ هذه الحالة الّتي أعيشها شاذّة تماماً، و إذا حصل أن تعقّدت هذه الحالة بفعل القلق و المخاوف ستكون النتيجة حينها إنهياراً نفسيّاً شاملاً أو مرضاً عقليّاً حادّاً، و في هذه الحالة ينبغي أن نتوجّه باللائمة على الروبوت الكامن بداخلنا أو بشكل أكثر دقّة ينبغي لومُ أنفسنا لأننا أخفقنا في إدراك حقيقة أنّنا كائناتٌ خُلِقت لتعيش لا لكي تديم عمل الروبوت بلا نهاية !! و هكذا تعثّرت شخصيّات بيكيت في هذه الحلقة المفرغة حيث السأم يولّدُ الإحساس باللاجدوى و الّلاجدوى تقودُ إلى العيش على نحوٍ آليٍّ الأمر الّذي يتولّد معه مزيد إحساسٍ بالسأم و الّلاجدوى، و تشكو إحدى شخصيّات بيكيت في عمله المُسمّى (نهاية اللعبة) من

أنّ العالم صار أشدّ قتامةً، و واضحٌ تماماً أنّ تجربة الذروة البالغة النشوة مستحيلةٌ من الناحية العمليّة بالنسبة لأيّ فردٍ يعيش حالةً من الشقاء المُفرط في السّلبيّة و الإنكفاء إذ تظلّ بطاريّاته هابطة على الدوام. من ناحية أخرى فإننا متى ما أدركنا أنّ الرؤية الّتي نرى بها العالم تعتمد تماماً على مدى الإهتمام الّذي نصبّه في عمليّة الإدراك ذاتها عندها نشرع و بطريقة فوريّة في الحصول على نوعٍ من الإمساك بزمام أمور السيطرة القلقة على أمزجتنا و تجاربنا الشخصيّة.

يعزى إلى الفيلسوف الظاهراتيّ الألمانيّ هوسرل إكتشافٌ أساسيّ يرى أنّ الإدراك البشريّ عمليّة تنطوي على قصديّة intentionality بيّنة: فأنت عندما تنظرُ إلى شيءٍ ما تكون قد وضعْتَ كلّ إهتمامك فيه بالضبط كما ترمي حجراً ليصيب هدفاً محدّداً، أمّا لو حصل و حدّقت فيه تحديقاً سلبيّاً و حسبُ دون بذل جهدٍ فأنت تكون كمن يفشل في ملاحظته تماماً – مثل قراءة صفحةٍ في كتاب عندما تكون تتجوّلُ بعقلك في مكانٍ آخر –. نحن – ككائناتٍ بشريّة – نمسكُ المعنى كما تمسك أيدينا بشيءٍ محبّبٍ و مهمّ لنا و لو أردنا الإستزادة في المعنى فما علينا سوى أن نشدّد قبضتنا و نرفع من جرعة القصديّة في رؤيتنا، و من السهولة تماماً رؤيةُ السّأم و الضّجر كَحالتيْن نصلهما بقصديّة كذلك: فعندما يُقدِمُ أحدنا على عملٍ متكرّر و بطريقة مفعمة بالرتابة فهو غالباً ما يمتعض و يقول "كم هذا عمل مضجرٌ وَ باعِثٌ على السّأم !! " و نرفق تصريحنا بحركة داخليّة ترمي إلى توكيد فكرة الإمتعاض و الشعور بالإحتجاج و رفض القيام بأيّ جهد إضافيّ، و لكن لو طلِبَ منّا أن ننفّذ هذه المهمّة المضجرة تنفيذاً سريعاً قبل الحصول على مكافأةٍ من نوعٍ ما تطيب له نفوسنا فربّما نقذفُ أنفسنا في معمعة العمل ذاته و سندهشُ كثيراً لمعرفة كم إستمتعنا به الآن !! و مع أن

الكثيرين قد خبروا هذه الحالة غير أن قليلين للغاية تعلّموا منها: إنّ عادة التفكير بأنّ أموراً معيّنة تبعثُ على الضجر و السأم، و أنّ أموراً أخرى تبعثُ على المتعة و البهجة هي في حقيقتها عادةٌ متأصّلة فينا مثل البصمة العقليّة، إذْ ليس في مقدور العقل البشريّ أن يستوعب إلّا للحظات عابرة فكرة أنّنا نسبغُ قيم السأم أو المتعة على أمرٍ ما ثمّ نعود إلى ذات خطإنا السلبيّ المتأصّل في ذاتنا.

و لكن ما شأن كلّ هذا الّذي تحدّثنا عنه بالرواية ؟ هو شأنٌ عظيم تماماً، و ليس علينا إلّا أن نقارن (روبنسون كروزو) مثلاً بِ (كلاريسا) لنكتشف كيف أنّ ريتشاردسن قدّم عمله بقصديّة فائضة بينما كتب ديفو عمله و هو مستغرِقٌ في عمله و يخوضُ في تفاصيل كثيرة ذات طبيعة موضوعيّة حتّى ليبدو انّ كلّ ما يحكي عنهُ سبق أن أعلمَكَ به أحدٌ ما من قبلُ: ريتشاردسن يقدّمُ إهتماماً دقيقاً و مهووساً بكلّ شئٍ يحكي عنه في روايته و على الرغم من موضوعيّة ما يكتبه لكنّنا ندركُ تماماً أنّ العالم الّذي يحكي عنه هو صناعته الخالصة و ندرك معه أنّ الكاتب لم يعدْ حكّاءً بسيطاً أو راوياً مغلوباً على أمره بل صار نمطاً إلهيّاً و خالقاً لكونٍ موازٍ للكون المادي، و قد أدرك الرومانسيّون بكلّ قوة أنّ ميزة الهوس كانت مقتصرة على الفنّ الروائيّ حيث يمتلك الكاتب القوّة و الجرأة لوضع الحياة تحت مجاهر مكبّرة و التدقيق في أدقّ تفصيلاتها و لكنّ الرومانسيّين أضاعوا هذه الميزة تحت ضغط الكآبة و الروح الإنهزاميّة الرومانسيّيْن و لدينا ذاتُ الحالة مع الروائع الروائيّة الواحدة تلو الأخرى من بلزاك و حتّى نوت هامبسن حيثُ يعالج الروائيّ واقعه الخاصّ معالجة ذكيّة مدقّقة و متمهّلة ثمّ يحصل في الصفحات الأخيرة للعمل إنهزام البطل و موتُهُ الّذي يرى فيه القارئ تجسيداً لموت حظوظه هو !! و الحقّ أنّ ثمّة ما يبعثُ على

التناقض المُربك في هذه الأعمال الإشكاليّة: يجد القارئ نفسه – و قد تاه من الإعجاب و الدهشة – مفتوناً بقدرة الحيويّة الخلّاقة للخيال البشريّ و طاقته العظيمة في الإرتقاء بالواقع البائس للكائنات البشريّة ثمّ يطلَبُ منه فجأة في خاتمة الرواية أن يؤدّي مراسيم الإشفاق للبؤس البشريّ، و سبق لكاتبٍ عظيم مثل برناردشو أن لاحظ ذات التناقض في موسيقى فاغنر حيث قوّتها المتدفّقة بهدير هائل تؤكّد عظمة الذات البشريّة و لكنّ معظم أوبراته تنتهي بنهاياتٍ مأساويّة، و كان من شأن هذا التناقض الذاتيّ أن يتسبّب في إنهيار الرواية، و انا هنا لستُ أرمي إلى الايحاء بأنّ النهاية السعيدة أفضلُ من النهاية المأساويّة على نحو دائم فمن الأكيد أنّ مسرحيّة أوديب أو الملك لير ستظهر شاذّة للغاية لو أنّ كلّ شخصيّة فيها عاشت حياة سعيدة في نهاية المسرحيّة، و لكن تبقى هناك حقيقة صارخة: المأساة الّتي كُتِبَ بها عدد كبير من روايات القرن التاسع عشر لم تكنْ إلّا الوسيلة المناسبة الوحيدة التي يمكن من خلالها جعلُ الحكاية تتوهّج في ذات الوقت الّذي يمكن معه تجنّب الأسئلة الرئيسة التي تطرحها الرواية، و ثمّة جامع مشتركُ بين روايات (الأوهام الضائعة) لبلزاك و (الأحمر و الاسْوَد) لستندال و (مدام بوفاري) لفلوبير إذ تحوم جميعُها حول ثيمة شبّان يافعين يواجهون الحياة و يتطلّعون للحرّية بقدر أكبر بكثير ممّا يحوزونه و. قد نجح الروائيّون الثلاثة في دفع القارئ إلى السؤال " ما الحلّ المثاليّ لمشكلة هؤلاء اليافعين ؟ " و بدلاً من تقديم حلّ جاهز فهم يخبروننا .بما حصل لهؤلاء في واقع الحال: خور العزيمة و الإنتحار في إحدى الروايات و الإعدام شنقاً في الثانية !!

الحقيقة المؤكّدة هي أنّنا نعرفُ جميعاً شيئاً عن اللامعنى و المصادفة و الهزيمة و المأساة لأنّها جزءٌ أساسيٌّ و متأصّلٌ في الحياة اليوميّة، و

الفن بعامّة محاولة لضبط عدسة منظار رؤيتنا على معنىً بعيد،، على ومضةٍ من الحرّية البعيدة اللامعقولة و غير المتاحة لنا. أشارَ جوليان هكسليJulian Huxley إلى الدور العظيم الّذي يَنهض به الفنّ في الإرتقاء بالنوع البشريّ:عندما إكتشف الإنسانُ الوسائل الفنّية للتعبير أدرك معها أنّه صار حائزاً على شيءٍ من الألوهيّة و الخلود - و إن كان بكيفيّة تبعث على الحيرة - و لمْ يعد ذلك المخلوق البائس الشقيّ نتاج المصادفة العشوائيّة و ضحيّة الأحداث اليوميّة بل يستطيعُ ذلك الجَزء الخلّاق من كينونته أن يخلق أعمالاً أرقى بكثير ممّا يخلقه ذلك الجزء من الإنسان الّذي لطالما ذهب للصيد أو قام بحرث الأرض من قبلُ، و الفكرة الحيويّة وراء كلّ هذا هو أنّ الجزء الخلّاق فيه أتاح له الإنسحاب من الحياة اليوميّة الإعتياديّة، و يبدو أنّ الحيوانات لا تختبر هكذا لحظاتٍ من البصيرة المدهشة المرتبطة بالعمل الخلّاق إلّا بشكل بسيط مخفّف للغاية أثناء الإرتواء الجنسيّ، أمّا الإنسانُ فقد أتيحت له وسائل عديدة لإختبارها: الطقوس الدينيّة، الرقص، إمتصاص بعض السوائل من النباتات (مثل الصبّار الأمريكي)، و الأشربة المخمّرة،، و في الوقت الّذي تُصارعُ فيه الحيوانات في طلب الطمأنينة و الأمن يبدو الإنسانُ ماضياً في سعيه من أجل ومضات البصيرة الكاشفة و قد دفعه هذا الحافزُ وراء ما هو أكثرُ من محض الأمن و الطمأنينة الجسديّة: نوعٌ من أنواع نشوة الإنجاز و الإرتقاء في سلّم الرقيّ العقليّ و الفكريّ، و صارت رغبة الإنسان في تحقيق التعمّق ببصيرته الكاشفة ملحّة و توجّه إهتمامها لِتحقيق الرغبات القويّة الدافعة لتعزيز الوعي الفرديّ و لمْ تعُدْ مجرّد رغبات و أمنيات مائعة فباتت رسومه و موسيقاه و أدبه تهتمّ إهتماماً مباشراً بتحقيق هذه الرّغبات الإنسانيّة المتعاظمة، و تقدّم لنا لوحات ميخائيل أنجيلو و ليوناردو دافنشي هذا

الوعي البشريّ المستحدث بأفضل تعبير و كذا الأمر مع مسرحيّات الإليزابيثيّين و موسيقى مونتفيردي و باخ، و كانت المأساة بالنسبة للكتّاب الإليزابيثيّين واحدة من أقوى الفعاليّات في خلق التأثير العاطفيّ إذْ لا زلنا نشعرُ بوخزة في رؤوسنا عندما نسمع هذا الشعر الإليزابيثيّ:

طابت ليلتُك أيّها الأميرُ البهيّ

و لتنشدِ الملائكةُ لراحتك

هنا عمل شكسبير للتوّ على توسيع مدى المسرحيّة و دفعها بعيداً وراء تخوم الوحدات اليونانيّة الكلاسيّكية في المكان و الزمان لكونه أراد ضخّ مزيد حيويّة فيها، ثمّ كانت الرواية الخطوة المنطقيّة التالية حيث يقدّمُ لنا دون كيخوته في عمله المسمّى باللاتينيّة (Gil Blas) بلداً بكامله في حقبة محدّدة و كأنّنا نرى المشهد من قمّة جبل عالٍ بوساطة منظارٍ، ثمّ أعقبه ريتشاردسن بميكرسكوبه الشخصيّ ليجعلنا نكتشفُ أنّ الحياة اليوميّة أكثرُ فتنةً من أيّة حكاية من حكايات المغامرات متى ما تمّ التمعّن فيها بدقّة.

إنطلقت الروح الإنسانيّة في مسار حاسم و ثابت للإرتقاء منذ أن أكتشف الفن و جاهد الشعراء الرومانسيّون و الروائيّون و الموسيقيّون و الرسّامون وراء الحظوة بلحظات النشوة الفائقة: تلك اللّحظات اللامعقولة عندما تبدو الحياة غرائبيّة و كأنّ المرء يراها من بعيد و هو جالسٌ فوقها، لكنّ الرومانسيّة بانت كَمثل حالة نباتات الدفيئة المزروعة في بيئة غير طبيعيّة لذا ذوتْ سريعاً و إستنفذت كلّ إمكاناتها الموعودة

الّتي لطالما بشّرت بها و إنقلبت لتستحيل حالة من العُصاب في مقابل الرؤية الكاشفة: مهّد بلزاك و فلوبير و دوستويفسكي الطريق لظهور جويس و بيكيت، و قاد بيرليوز و فاغنر إلى ظهور ماهلر و شوينبرك و لاحقاً ستوكهاوسن و عشراتٍ من الموسيقيّين الآخرين الّذين تبدو موسيقاهم أحجياتٍ خالصة أمام جمهور الحفلات الموسيقيّة، و قاد ديلاكروا إلى ظهور التأثيريّين و بعدهم بيكاسو و موندريان و كاندينسكي، و في كلّ هذه الحالات يمكننا تلمّس نمط الإرتقاء ذاته و هو الرغبة الملحّة في تعميق البصيرة الكاشفة بصرف النظر عن التكلفة الّتي قد تدفع بإتّجاه المرض العصابيّ و هنا ينبثق إدراك الطريق المسدود الّذي قادنا له التطوّر الموعود و عندها يجنحُ المرء نحو الإنكفاء إلى التجريديّة المفرطة و نزع المعنى المطلق في محاولة لإستعادة السطوة العقليّة، و ربّما يكون هذا هو السّبب – مع التنبّه لوجود إستثناءات نادرة – وراء قرار الروائيّين في فترة مابعد جويس العودة إلى الأنماط الروائيّة القديمة في إنتظار معاينة ما سيحدثُ و لهذا فإنّ معظم الأسماء الروائيّة المهمّة في فترة مابعد الحرب العالميّة الثانية كانوا من التقليديّين الّذين مارسوا حرفة الكتابة و كأنّهم لم يسمعوا أبداً بأسماء جويس و كافكا و غرترود شتاين و هيمنغواي.

أظنّ أنّ من المناسب الآن الحديث قليلاً عن مقاربتي الشخصيّة لمشاكل الرواية و التقنيّات الروائيّة. كتبتُ روايتي الأولى و أنا في عمر الثامنة عشرة عام ١٩٤٩ و نُشِرت تحت عنوان (طقوسٌ في الظلام) بعد مرور عشرة أعوام على كتابتها، و أرى اليوم أنّ معظم الكتّاب يتعلّمون من روايتهم الأولى أكثر ممّا يتعلّمونه من أيّة روايةٍ أخرى لاحقة لهم، و كانت رواية (يوليسيس) هي إنجيلي المُعلّى في تلك الأوقات، و عندما إلتحقْتُ بالقوّة الجوّية الملكيّة أذكرُ أنّني أخذْتُ معي كتاب

(دكتور فاوستوس) المنشور حديثاً لتوماس مان و كذلك (ستشرقُ الشمسُ ثانيةً) لهيمنغواي و (يقظة فينيغان) لجويس و ظلّت هذه الروايات و لا زالت تمثّلُ المؤثّر الأعظم في مقاربتي الروائيّة: سحرني هيمنغواي بإقتصاده المكثّف في وسائله الروائيّة، و أبهرني مان لانّه قدّم رواية للأفكار تعدّ الأعظم و الأوحد بين الروايات منذ الحرب العالميّة الثانية، و كذا الأمر بالنسبة لجويس الّذي أدرك أنّ الطريق للإرتقاء الروائيّ لا بدّ أن يمضي عبر بوّابة الأفكار – و هو ما أفسد وضع يوليسيس – و أرى أنّ (يقظة فينيغان) كانت محاولة إقتحاميّة من جانب جويس لخلق وحدة متماسكة و نهائيّة بين الأفكار و الوجود البشريّ، و في تلك الأوقات بدا لي ممكناً أن تبتكر الرواية لغة أصيلةً أصالة تامّة ترقى إلى أن تكون شكلاً لغوياً مُستحدثاً يمكن له الإتّحاد بالموسيقى و حصل أن كافحتُ في قراءة قرابة عشر صفحات في رواية تدّعي التبشير بِهذا الشكل اللغوي – الموسيقيّ على نمط تعليميّ لكنّني عرفتُ أنها لم تخرج بنتيجةٍ مُعتبرة.

كنتُ منذ بدء هَوَسي بالكتابة الروائيّة أعرف تماماً ماأبتغي قوله: المشكلة الأساسيّة مع المدنيّة الحديثة أنّها محتشدةٌ بالحمقى و المُسرنمين (السائرين نياماً) و وجدتُني أتناغم مع إليوت في إعتقاده أنّ ما كان ينقصُنا بصورة جوهريّة هو العودةُ إلى القيم الدينيّة الأصيلة و عندها أمضيتُ وقتاً طويلاً للغاية أتجوّلُ بين الكنائس و الكاتدرائيّات و أنا اقرأ في التصوّف المسيحيّ. كانت المشكلة الأساسيّة آنذاك تبدو لي في بذل المحاولة و إيقاظ النفس يقظةً تامّة و كان النمط الروائيّ المثاليّ عندي هو شئٌ يجمع بين مشتركاتٍ من (الجريمة و العقاب) لدوستويفسكي و (الأرض اليباب) لإليوت و مضيتُ بعيداً في هذا إلى حدّ أنّني لو سؤلْتُ آنذاك عن طموحي الأسمى لقلت " أطمحُ أن

أكون دوستويفسكي بملابس إنكليزيّة "، و رحتُ أتيهُ في لندن و أنا في أشدّ حالات النفور ممّا بدا لي (القيم المزيّفة) الّتي كانت تعجُّ بها جميع إعلانات الصحف، و كنت أبتغي في الرواية الّتي كنت أفكرُ في كتابتها آنذاك أن تكون سلسلة من المصادمات القاسية بين القيم المزيّفة و الواقع القاسي و تقع أحداثها في مدينة إفتراضيّة من المدن الّتي تجمعُ بين الأحلام و الجرائم !!. في عام ١٩٥٢ و بعد ثلاث سنواتٍ من الكفاح الشاق مع روايتي الموعودة كان لا يزال ثمّة أجزاءٌ حاولتُ ان أقسر عليها وحدة مفترضة على أساس النمط الّذي تشكّل منه هيكل (كتاب الموتى) المصريّ و بالضبط كما إستخدم جويس (الأوديسّة) في يوليسيس، و لكنّ الأمر بدا لي عشوائيّاً تماماً و لا يبعث على الراحة، و حصل في أحد الأيّام أن صرفْتُ ساعاتٍ عدّة في قاعة المطالعة في المتحف البريطانيّ – كعادتي تلك الايّام – و أنا أفكرُ فيما أبتغي قوله في روايتي و بان لي بكلّ وضوحٍ أنّ ثمّة ثيماتٌ مترابطة وثيقاً تشكّل أساس ما ينبغي قولُهُ في العمل الروائيّ: أوّلاً و قبل كلّ شيءٍ آخر كانت مشكلة اللامنتمين في المدينة الحديثة إلى جانب الرومانسيّين و المثاليّين الرؤيويّين الّذين يتلبّسهم إحساسٌ كامل بأنْ لا مكان لهم (في المدينة المُعاصرة): نيتشه و فان كوخ و تي. إي. لورنس،،،،،،و رأيتُ أنّ المدينة الحديثة – من خلال آليّتها الرتيبة – تخلقُ لا منتمين أكثر من أيّ وقت سابق و تعجّ بالأشخاص الّذين يعانون إشكاليّة وجوديّة رهيبة: فهم بلغوا مستوىً من الذكاء يتعذّر معه قيامهم بأيّ عمل رتيب و لكنّهم في ذات الوقت يفتقدون ذلك القدر من الذكاء التكيّفي و التصالحيّ مع مجتمعاتهم. أمّا الثيمة الروائيّة الثانية الّتي رأيتها غاية في الأهمّية فكانت ثيمة جنسيّة: فمجتمعُنا اليوم يوفّرُ حوافز جنسيّة أكثر من الازمان السابقة بكثير و أنّ معظم اليافعين يقضون أيامهم في حالة

دائمة و شبقة من الرغبة الجنسيّة المحمومة غير أن المفارقة تكمنُ في انّ البضاعة ترقد ساكنة وراء زجاج العرض في واجهات المحلّات !!، و هنا يرد قول بطل (الجحيم) لهنري باربوس " ما أريده فعلاً ليس إمرأة واحدة بل جميع النساء !!"، و يبدو أنّ المجتمع الحديث يخلق حافزاً جنسيّاً ينمو و يتكاثر كالطفح الجلدي – لأسبابٍ تجاريّة محضة – و من ثمّ يكون المتوقّع حتماً زيادة رهيبةً في معدّلات الجرائم المرتبطة بالجنس. أمّا الثيمة الثالثة فهي إنهيار الدين و إنبثاق الماديّة العقلانيّة. كانت هذه الثيمات الثلاث تتصارع في إتّجاهات مختلفة فتكون النتيجة المتوقّعة تفتيت العمل الروائيّ، و من جانبي تمثّلتُ المشكلة في حدود إيجاد حبكةٍ يمكن لها أن تلعب دور المادة البنائيّة التي توحّدُ بين هذه الثيمات، وَ عندما أدركتُ هذه الإشكاليّة بدأت الأمور تنتظمُ و تأخذ نمطاً متّسقاً: فالشخصيّة الرئيسيّة في روايتي لا يمكنها أن تكون قاتلاً كما حصل في مسوّداتي الاوّلية بل الافضلُ لها أن تكون بمثابة مراقب جيمسيّ (نسبة إلى هنري جيمس، المترجمة) و هو الأمر الّذي يستوجبُ أن يكون القاتل هو الشخصيّة الرئيسيّة الثانية و أن يكون لا منتمياً مُحبطاً تمظهرت إحباطاته في العنف الجسديّ المفرط الّذي يلجأ إليه على الدوام – مثل الراقص العبقريّ نيجينسكي –، و كنتُ أفكّر في خلق رابطةٍ قويّة بين الشخصيتيْن: البطل و القاتل، فالقاتل هو بذاته كائنٌ شبِقٌ إلى أقصى الحدود و مستغرِقٌ في التناقض الكامن في الدافع الجنسيّ. أوجدْتُ في الرواية أيضاً رسّاماً تتأسّسُ شخصيّته على ملامح من شخصيّة فان كوخ، و بينما كنت أناقشُ الرواية مع صديقٍ لي ذات يوم وجدْتُ نفسي أوضّحُ أنّ البطل و القاتل و الرسّام يمثّلون ثلاثة أوجه للّامنتمي المُعاصر: فالبطل يتمتّعُ بالإنضباط العقليّ المفرط و لكنّه يفتقدُ ضبط نزعاته الجسديّة و العاطفيّة، و يتمتّعُ

الرسّام بالإنضباط العاطفيّ لا الجسديّ أو العقليّ، أمّا القاتل فيمتاز بإنضباطه الجسديّ الصارم، غير أنّ الجميع يشتركون بميزة مواجهتهم خطر الإنزلاق في مُستنقع الإنهيار العقليّ مثلما حصل مع نيتشه و فان كوخ و نيجينسكي.

حصل مع إقتراب أعياد الميلاد عام ١٩٥٤ أن خطرت لي فكرة بينما كنت وحيداً وسط أعياد الميلاد لتلك السنة: رأيتُ أنّ روايتي تجنحُ كثيراً صوب الإنشغالات العقليّة و عالم الأفكار و أنّها محتشِدةٌ برموز و إشاراتٍ كثيرة للغاية على غرار ما نلحظهُ في (الأرض اليباب) لإليوت، و تبيّنْتُ فجأة أنّ من الأفضل و الأكثر معقوليّةً أن اطرح كلّ هذا جانباً و أشرعَ في تاليف كتابِ آخر - لا رواية أخرى - تحومُ أفكارهُ حول ثيمات روايتي الأصليّة، و هذا ما حصل و إندفعْتُ في تأليف (الْلامنتمي) الّذي وضعْتُ له تخطيطاً أوّليّاً على صفحات صحيفتي و مضيْتُ في كتابته بإندفاع في أروقة المُتحف البريطانيّ بعد أن فتح أبوابه عقب إنقضاء عطلة الميلاد و رأس السنة، و بعد بضعة شهورٍ فحسبُ أرسلْتُ بضعَ صفحاتٍ ممّا كتبْتُ إلى الناشر (فكتور غولانز) الّذي بدا مهتمّا للغاية و هكذا حصل و طُبعَ الكتاب قبل أسابيع قليلة من بلوغي عامي الخامس و العشرين. عدتُ إلى كتابة (طقوس في الظلام) بعد أيّام من نشر اللامنتمي إلى جانب عزمي على كتابة جزءٍ ثانٍ من اللامنتمي يركّزُ على موضوعة الصوفيّة الدينيّة و كم كانت دهشتي عظيمة عندما إكتشفْتُ أنّ الكثير من أجواء العنف الأصليّ في مخطّط الرواية تبخّرت و لم اعدْ أرى لها ضرورة موجبة و عندها تذكّرت الدكتور جونسن Dr. Johnson و قوله أنّه لطالما أراد أن يكون فيلسوفاً غير أنّ المرح وقف حائلاً دون تحقيقه لرغبته !! و وجدْتُ الأمر ذاته مع طقوسي الموعودة إذْ رفض غولانز مسوّدتي

الأولى من العمل بذريعة أنّها مثيرة للكآبة و الغثيان !! فلم أجدْ بديلاً عن إعادة كتابتها مرّات عديدة مندفعاً في التركيز على الأفكار بدلاً عن العواطف المتطرّفة حتّى صارت المسوّدات الأوليّة لها تحوي ما ينوف على المليون كلمة !! و هكذا عملْتُ على النسخة النهائيّة من روايتي هذه في مدينة هامبورغ الألمانيّة شتاء عام ١٩٥٧ و فرغْتُ منها بعد عاميْن كامليْن و كانت المشكلة الرئيسيّة في هذه الرواية تكمن في الخاتمة حيث أردْتُ إنهاء الرواية بنوعٍ من التجربة الصوفيّة لكنّ ناشري أخبرني بضرورة حذف هذه الصفحات لكونها لم تكن ذات علاقة عضويّة ببقيّة الكتاب و إختار هو موضعاً كيفيّاً من روايتي ليجعله الخاتمة المنتظرة و أراه اليوم محقّاً تماماً، و منذ تلك التجربة الروائيّة الأولى لي صارتْ لديّ خبرةٌ في كيفيّة ختم الرّواية بطريقة طبيعيّة غير متكلّفة من دون التفكير كثيراً بالنهايات المفتوحة.

إرتبطت رواية (طقوسٌ في الظلام) إرتباطاً وثيقاً ب (اللامنتمي) و أرى اليوم أنّ من الطبيعيّ للغاية – بل المحبّذ لي دوماً – أن أكتب رواية و كتاباً فلسفيّاً في أوقات متزامنة حيث تميل الأفكارُ بصورة طبيعيّة و تلقائيّةٍ تماماً إلى تجسيد نفسها من خلال الأحداث و الشخصيّات و الحبكة الروائيّة، و هكذا نشرتُ روايتي (رجلٌ بلا ظلّ) – الّتي نشرت في أمريكا بعنوان مذكّرات جيرارد سوم الجنسيّة – بعد نشر كتابي (أصول الدافع الجنسيّ)، و جاء كتاب (طفيليّات العقل) مؤسّساً على فقرة من كتابي (مقدّمة في الوجوديّة الجديدة)، أمّا كتابي (ما بعد اللامنتمي) فقد دفعني بقوّة إلى السعي لإعادة كتابة الثيمات الأساسيّة في روايتي (طقوسٌ في الظلام) في مسعىً لخلق تمايزٍ أكثر وضوحاً بين السمات السايكولوجيّة للمجرم و الصوفيّ و ظهر ذلك في كتابي (القفص الزجاجيّ). يبدو من خلال هذا العرض الزمني –

التأريخيّ أنّ قراري الأكثر أهمّية في ميدان حرفتي الروائيّة تمثّل في تحويل (طقوس في الظلام) إلى رواية بوليسيّة رومانسيّة: فقد إقتفيْتُ مثالَيْ (دوستويفسكي) و (غراهام غرين) إقتفاءً واعياً رغم أنّ إعجابي بغرين كان نظريّاً وحسب لانّني وجدْتُ تشاؤمه لا يطاق و بدا لي أنّ الرواية – شانها كشأن أي إشتغالٍ دراميّ – تهدفُ إلى المتعة و أنّ الكاتب حرّ تماماً في تضمينها بما يشاء من هواجسه سعْياً وراء أستقطاب المتعة الخالصة و لكن إذا حصل و رجحت كفّة الهواجس على المتعة فعندها لا ينبغي لذلك الكاتب أن يطالب بعدد مقبول من القرّاء له تحت حجّة " إنّني فنّان جاد ": فهو متى ما فقد صفة الحكّاء الّذي يصلح نديماً و محاوراً محبوباً يبطل فوراً أن يكون فنّاناً جادّاً مهما سطّر من إدّعـاءات، و أنّ جدّية الفنّان و الروائيّ لا تحسَبُ بمحض إستيعابه العقليّ و تمثّله العاطفي للمشاعر القويّة بل بعمق أهتمامه بالعالم الموضوعيّ أيضاً و محاولة التعبير عن ذلك في عمله، و يمكن أن تستحوذ الرواية الّتي تنشغل بمعالجة جوانب من الحقيقة اليوميّة فحسب على إهتمامنا لكنّ الرواية الّتي تحكي عن المشاعر الذاتيّة الخالصة تجازف بالوقوع في فخ الإهمال و عدم القراءة على وجه التأكيد. أمّا روايتي الثانية (ضياعٌ في سوهو) فأردتها أن تكون من نمط روايات (بيت Beat) و وجدت أن سمة اللاشكلانيّة السائدة فيها لم تأتني على نحوٍ طبيعيّ بل جاهدتُ فيها كثيراً حتى لم يعدْ في طاقتي الإستمرار على هذا النحو بعد مائتي صفحة فحسب و لكنّ الغريب أنّ ناشر كتبي لم يتضايق من أمر هذه الرواية و طبعها كما هي بلا أيّة تحويرات و لم أسمع شكوى من أية جهة تفيد بإفتقار الرواية إلى خاتمة مقبولة، و هنا يبدو أنّ ناشري كان مصيباً في حدوسه للمرة الثانية. خطّطْتُ لجعل ثيمة روايتي الثالثة تدور عن حس الإلتزام sense of

commitment: فالشخصيّة الرئيسيّة في الرواية عالمٌ رياضيّاتيّ mathematician يجد روحه ممزّقة بين عالمه الرياضيّاتي المجرّد الطافح بالجمال و العنف الملازم لواقعه الإجتماعيّ، و قد إعتبرْتُ هذا العمل أفضل كتبي على الإطلاق رغم أنّه قوبل بإهمالٍ كبير، و رأيت لاحقاً أنّ هذا الإهمال صنع لي خدمة فضلى فقد ذكّرني أن الرواية الناجحة ينبغي لها أن تمتلك دوماً هدفاً أخر إلى جانب هدفها الرئيسي المتمثّل في أستكشاف الكاتب لعوالمه الذاتيّة، و ذاك هو عنصر الشد و الجاذبيّة: فنحن نجد قصص الخيال العلمي و الفنتازيا ترمي لخلق الدهشة و التعجّب، و القصّة البوليسيّة تبتغي خلق التوتّر، و قصص المغامرات ترمي إلى بعث الإثارة، و القصص الفضائحيّة المكشوفة تهدف إلى تحفيز الإستثارة الجنسيّة،،،،،،و قد لا تكون هذه هدف الكاتب و لكنّها توفّر تبريراً له للإمساك بإهتمام القارئ و شد إنتباهه للعمل الروائيّ، و لا ينبغي أن يفهم من وراء هذا أنّ القارئ شخصيّة متبلّدة و حمقاء يتعيّن على الكاتِب أن يغلّف أعماله بالسكّر و يقدّمها له لكي يستطيب مذاقُها مثلما نفعل عند تقديم دواء مرّ للأطفال بل أنّ المسألة الجوهريّة تكمن في قيمة (المتعة) و أنّ المتعة هي وسيلة الكاتب في توطيد أركان عمله و الإمساك بتركيز القارئ مثلما تفعل كلمات (كان يا ما كان.........) السحريّة في عقول الأطفال، و هكذا حوّل (أيان فليمنغ) سلسلة رواياته عن جيمس بوند إلى مشاهد تمثيليّة تعجّ بقدر هائل من السخافات المتعمّدة من غير أن يفقد القارئ إهتمامه بها !!.

بعد أن إنتهيتُ من كتابة أعمالي: (الشك الضروريّ) و (القفص الزجاجيّ) – و هما قصّتان بوليسيّتان –، و (طفيليّات العقل) – و هي من قصص الخيال العلميّ –، و (الغرفة السوداء) – و هي من قصص

الجاسوسيّة -، علمتُ أنّي كنت أستخدِمُ مبدأ التغريب البريشتيّ إستخداماً غريزيّاً و أنّ هذا المبدأ أثبت نجاحاً في عالم الرواية مثل نجاحه في عالم المسرح، و أرى اليوم أنّ المشكلة الأساسيّة الّتي تواجه الرّواية هي أنّها صارت أسيرة جدّيتها المفرطة و لا يمكن أن نتوقّع حلّا لهذه المشكلة إذا ما غدت الرواية أكثر جدّية و هو ما يماثل القول أنّها ستغدو أكثر عُصابيّة و إبهاماً بل يكفي إدراكُ أنّ الأهداف الجادّة للرواية لا تتّفق مع الأطراف السائبة لها و حسب من غير الغلوّ في الجدّية و الإنضباط المفرط: أدرك جويس مثلاً و هو في الثلث الأول من (يوليسيس) أنّ العمل مكتوبٌ بلغةٍ تصويريّة تتماثل في كآبتها مع بيت مطليّ كلّه باللون الرصاصيّ القاتم و هنا تصبح العدسة الضيّقة الزاوية رتيبة بصورة قاتلة فكلّ شيء قريب و لا شيء بعيد و هنا أحسّ جويس بهذه المفارقة فراح يقارب موضوع روايته عبر تقديم وسائل محاكاة ساخرة أخرى و عندما إنتهى من كتابة يوليسيس أدرك تماماً أن تلك المشكلة كانت عامّة و لم تكن مشكلة خاصّة به، و على العكس من يوليسيس جاءت روايته الثانية (يقظة فينيغان) محاولة في إستخدام العدسة متسعة الزاوية حتّى مع المخاطرة بأن تكون غير مقروءة عندما تحوّلت المحاكاة الساخرة إلى فانتازيا ميثولوجيّة. في أوائل الثلاثينات (من القرن العشرين) و في ذات الوقت الّذي كان فيه ييتس يكتب أبياته حول السمك الشكسبيريّ كان ويلز قد مضى في كتابة (تجربة في السيرة الذاتيّة) و كتب بالتحديد في الصفحة الثالثة من عمله ما يماثل صورة ييتس الشعريّة تماثلا غريباً: " إنّنا نشبه البرمائيّات البدائيّة إذا جاز التعبير إذ لا نلبث نكافح للخروج من المياه الّتي غمرتْنا منذ الأزل نحو الهواء و نريد أن نشتنشق هواء نقيّاً و نحرّر أنفسنا من ضروراتٍ للبقاء طالما قبلنا بها كمسلّماتٌ و لم نخضعْها للمساءلة

الجدّية يوماً،،،،،،" و يذهب ويلز أنّ الحياة البشريّة كانت تحرّكها على الدوام الغريزة الجنسيّة: الصراع و التدافع في طلب المأكل و الملبس و الأمن و الإرتواء الجنسيّ، و ثمّة اليوم كراهيّة تجاه النشاط الإبداعيّ – عملي المميّز في العالم بتعبير ويلز – تنتاب أعداداً غفيرة من البشر و يغدو الصراع المستديم في طلب ضرورات الحياة الأساسيّة مملّاً بصورة متزايدة لمثل هؤلاء البشر لأنّهم يبتغون قضاء وقتٍ أطول و هم هائمون في ملكوت الخيال يستكشفون التأريخ و الفلسفة و قوانين الوعي و الوجود البشريّ، و يمضي ويلز في تجربة سيرته الذاتيّة فيقول في موضعٍ ما منها " صار الوجود بالنسبة لنا قضيّة أن نحصل على الهواء أو لاشئ،،، و المشكلة الّتي أمامنا أنّ الأرض الموعودة لم تظهر لنا بعدُ و ما زلنا نسبح في منطقة نودّ لو نغادرُها سريعاً،،،،، " و لا يزال ينتظرنا ما هو أسوأ من أشدّ مخاوف ويلز: ملكوت العقل الجديد هذا يبعث على تعب و ضجر أكثر بكثير من بحر ويلز، و نحن نتلوّى و نتلفّت على غير هدىً فوق رمال الشاطئ الّذي قذِفْنا إليه و نجاهد في التنفّس و الرغبة الملحّة في نموّ سيقاننا !!.

حاولت جاهداً أن أبيّن في الكثير من كتاباتي أنّ الرواية هي ما خلقتْ في الإنسان الأوربيّ كراهيّة تجاه النشاط الإبداعيّ: فنحن نعلم أنّ عالم الخيال يمكن أن يمدّ الكاتب بحرّية لم يعهدْها غيره من قبلُ و لطالما حلم الرومانسيّون بأنّ في وسع الإنسان أن يغدو إلهاً يوماً ما ثمّ حلّت خيبة الأمل الفادحة و الشاملة و إكتشف الحالمون أنّ اليابسة تستنفذ النوع البشريّ أكثر بكثير ممّا يفعل البحر و تحوّل الإحساس البهيج بالحرّية إلى ذهول و قلق و خوق و يأس إنتحاريّ و نزعة تشاؤميّة عدميّة و صار عصر الرومانسيّة مرادفاً لعصر الهزيمة و غدا الإنسان الذكيّ النبِهُ المهزوم هو بطل عصرنا و غدت خلاصة الحكمة

المقطّرة كامنة في المضمون الآتي: إذا أردتَ أن تعيش في العالم اليوميّ فإنّ فرصتك الأمثل للعيش تكمن في أن تكون غبيّاً فظّاً لا يرحم، و سبق لِ (اللامنتمي) أن عالج هذا المضمون الّذي ينطوي على تناقضٍ مؤلم: فعلى الرغم من أنّ الذكاء كان الوسيلة الرئيسيّة للنوع البشريّ في البقاء فإنّ الأمر وصل حدّاً لم يعد الإنسان الذكيّ يشعر أنّه في بيته و يمارس حياته اليوميّة، و قد لا تلعب الرواية ذات الدور الهامّ الّذي لعبتْه في الإرتقاء البشريّ قبل قرنيْن من الزمان و لكن ليس ثمّة ما يحول دونَ ذلك و النقطة الضروريّة في تحقيق هذا الأمر هو أن يدرك الروائيّ هدفه الحقيقيّ الّذي هو أبعد كثيراً من محض عكس بانوراما بشريّة هائلة عن اللاجدوى و الفوضى في وجودنا الإنسانيّ المعاصر بل أنّ الدور الأساسيّ للروائي و قبل كلّ شيءٍ آخر هو تحرير الخيال الإنسانيّ و منح الإنسان فرصة لرؤية الإمكانات الهائلة لما يمكن أن يؤول إليه الكائنُ البشريُّ، و هنا يتحتّم على الروائيّ أن يدرك بالضبط ما قصده شو عندما كتب " العمل الفنّيّ مرآةٌ سحريّة يمكن للإنسان من خلالها أن يرى روحه "، و عندما يدرك الإنسان – الروائيّ بخاصّة – ذلك سيكتشفُ أنّ مرآته السحريّة لها وظيفة أخرى أكثر فائدةً: إنارة الطريق أمام النوع البشريّ و كشف معالم إرتقاءه الموعود نحو المستقبل.

* صامويل ريتشاردسون Samuel Richardson: كاتبٌ وَ ناشرٌ و صاحب مطبعة إنكليزيّ عاش في الفترة ١٦٨٩ – ١٧٦١، و يعدُّ من الآباء المؤسّسين لفنّ الرواية الحديثة كما ينسَبُ إليْه الفضلُ في نشر الكثير من الكتب. لقيت أعمالُهُ إهتماماً كبيراً من جانب القرّاء و بخاصّة روايتاهُ (باميلا Pamela) المنشورة عام

١٧٤٠، وَ (كلاريسّا Clarissa) المنشورة عام ١٧٤٨ . أفردَ كولن ويلسون حيّزاً كبيراً للكاتب و أسهب في الحديث عن روايتيه المذكورتيْن أعلاه في كتابه (فنّ الرّواية). (المترجمة)

٣. صنعةُ الإبداع:

كولن ويلسون و رؤيةٌ في الكتابة الإبداعيّة

هذه ترجمة لمعظم أجزاء الفصل الأوّل المعنون (صنعة الإبداع)
من كتاب كولن ويلسون (فنّ الرواية The Craft of the Novel)
الصّادر عن دار نشر آشكروف Ashgrove عام ١٩٨٨.

المُترجمة

حصلَ في ربيع العام ١٩٧٤ أن تعاقدْتُ مع جامعة روتغرز الأمريكيّة في نيوجيرسي على تدريس منهجٍ في الكتابة الإبداعيّة، و كان ذلك نقطة مفصليّة حاسمة في حياتي إذ سبق لي قبل ثماني سنواتٍ من ذلك التأريخ أن حاولتُ تدريس الكتابة الإبداعيّة في إحدى الكلّيات بولاية فيرجينيا و إنتهيْتُ إلى قناعة حاسمةٍ أنّ هذه المادّة عصيّة على التدريس، و لا يقتصر الأمر على هذا و حسبُ بل يتعيّنُ عدم تدريسها بأيّ شكل من الأشكال !! فقد شعرْتُ أنّ المبدأ الأساسيّ للإبداع هو القانون الداروينيّ التطوّري القائلُ ببقاء الأصلح: إذ لطالما رأيْتُ الكتابة الإبداعيّة عمليّة شاقّة كإرتقاء تلّة عالية حيث يتساقط الضعفاء على جانبي التلّة بينما يُواصل الأقوياءُ الإرتقاء بتمهّلٍ حتّى يصبحوا كتّاباً جيّدين. إنّ تشجيع هؤلاء الذّين يمكنُ لهم أنْ يكونوا كتّاب المستقبل عمليّةٌ شبيهةٌ بوضع السّماد في مزرعةٍ تمتلئُ

بالأعشاب الضارّة، و لحسن الحظّ شاركني رئيس قسمي آنذاك في الجامعة الفرجينيّة نظرتي إلى الكتابة الإبداعيّة و طلب إليّ كبديلٍ معقول أن أدرّسَ منهجاً عن برناردشو، لكنّ الأمر إختلف مع جامعة روتغرز إذْ لم يكن ثمّة بديلٌ لتدريس منهج الكتابة الإبداعيّة رغم أنّ العقد الأصليّ كان يشير إلى تدريسي لمنهج عن الوجوديّة الجديدة و لكن إكتشفتُ أنّ المنهج تمّ تغييرهُ قبل وصولي للجامعة و صار بعنوان الكتابة الإبداعيّة، و لم يكن في مقدوري الإعتراض الجدّي بعد أن إلتحق بالكورس الدراسيّ فعليّاً ما يقاربُ العشرة طلّابٍ،،،، و هكذا حصل و مضيْتُ في تدريس منهج الكتابة الإبداعيّة في جامعة روتغرز في مدينة كامدن Camden، و الحقُّ أنّني وجدْتُ طلّابي مثيرين على نحوٍ لم أتوقّعْهُ: فقد كانوا جميعهم ممتازين من الناحية الفنّية و أفضل لدى المقارنة من نظرائهم الشبّان الإنكليز و يعبّرون عن أنفسهم تعبيراً حسناً وسهلاً يتّسم بتلقائيّة محبّبة و كانت كتاباتهم الأوّلية ذات مستوى يرتقي إلى بعض كتابات المُحترفين !! و لدهشتي إكتشفْتُ أنّ معظمهم شارك في دوراتٍ للكتابة الإبداعيّة من قبلُ، و لمّا بدأتُ التدقيق في النظر بماهيّة ما يعانونه بدأتُ أدركُ جوهر الخطأ الّذي إنزلقوا إليه من غير تحسّب: تعلّم هؤلاء كيف يكتبون مثل جيمس جويس و إرنست همنغواي و وليم فوكنر و فيرجينيا وولف إلّا أنّهم لم يغلموا شيئاً عمّا سيكتبون، و قد حصلوا على نصائح مسهبةٍ تشيرُ لهم بالكتابة عن أيّ شيءٍ يعرفونه و لهذا يمكن التوقّع بصورة فوريّة انّهم كتبوا أوّلاً عن أنفسهم، و كانت المسوّدات الأولى للقصص الّتي سلّموها لي عبارة عن سِيرٍ ذاتيّة أقرب إلى أدب الإعترافات في حين وصف بعضهم مقاطع زمنيّة مرّت بحياتهم: صديق لقي حتفه في حادث سيّارة، رجل مات إنتحاراً بعد تناوله جرعةً مفرطة من المخدّرات،،،، و

رأيتُ انّهم كانوا يستخدمون اللغة المحكيّة و كأنّهم يتحاورون مع بعض أخلص اصدقائهم في جلسة لشرب البيرة في إحدى الحانات، و أعاد كلّ هذا إلى ذهني تعليقاً رائعاً كان فوكنر قد ذكره عندما سُئِل مرّة عمّا يراه في جيل نورمان ميلّر من الكُتّاب حيث قال بوضوح " هم يكتبون بطريقة جيّدة لكن ليس لديهم ما يقولونه !! ".

هل كان الأمر مع طلّابي هكذا فعلاً ؟ هل حقّاً لم يكن لديهم ما يقولونه ؟ كانوا مجموعة منتخبة و أذكياء و يجيدون التعبير عن أنفسهم بوضوح كافٍ، و كان أحدهم سائق سيّارات سباق و الآخر بائع عقاقير طبّية و الآخر رياضيّاً،، و عندما كنّا نتحاور أحياناً و نحن نتناول قناني المشروبات في المقهى المجاورة للجامعة كان واضحاً أنّ لديهم الكثير ممّا يقولونه عن أنفسهم لكنّ المشكلة كانت في عدم معرفتهم لماهيّة ما يقولون و جعلوني بعد لقاءاتٍ عدّة متّسمة بالحيويّة أسترجعُ مقولة شو على لسان أحد ابطاله عندما يقول " إنّ ملكوت الربّ يكمن في داخلك و يتطلّبُ الأمر مشقّة هائلة من جانبك لإخراجه من أعماقك ". ثمّة مسألة أخرى وجدتها بعد عدّة دروس مع طلبتي و رأيتُ فيها مشكلة ممتعة للغاية و تكمن في أنّ هؤلاء درسوا الكتابة الإبداعيّة لا التفكير الإبداعيّ، و يجادل سقراط أنّ كلّ نفسٍ بشريّة تكتنز معرفة بكلّ الأشياء و لا يعدو دورنا أن يكون معرفة الوسائل الكفيلة بإخراج تلك المعرفة، و لا يرى سقراط في المعلّم شخصاً يمنح المعرفة لمن يطلبُها بل يشبّهه بالقابلة الّتي تساعد في الولادة. كان السؤال الاوّل الّذي طرحته على نفسي يتناول إمكانيّة تدريس منهجٍ في الكتابة الإبداعيّة يعين طلّابي على معرفة ما يكتبون، فعندما يجلس كاتبٌ أمام صفحة بيضاء موضوعةٍ أمامه فهذا لا يعني أنْ ليس لديه ما يقوله بل العكس هو ما يحصل على الأغلب إذ يكون لديه حشدٌ من الأمور الكثيرة

الجاهزة الّتي تغريه بكتابة رواية – هي سيرة ذاتيّة أيضاً في الغالب – تشبه رواية الحرب و السلام لكنّ المشكلة الممضّة هي أنّ كلّ تلك الأمور تفور في أعماق الكاتب و ليس أمامها سِوى منفذٍ ضيّق وحيد يسمَح بخروجها إلى العلن، و ربّما يبدأ الكاتب بتقليد بعض الكتّاب الآخرين: همنغواي أو جويس أو سالينغر، لا بسبب أنّه يشعرُ بغياب صوته الخاصّ به بل لشعوره أنّ نمطاً مُجرّباً و ناجحاً من أنماط الكتابة قد يساعده على التدفّق الحرّ في الكتابة ثمّ يكتشف بعد أيّام أو أسابيع من بدء محاولته تلك أن تدفّقه الموعود لم يبدأ أو قد يكون في أفضل الحالات رذاذاً شاحِباً يبعث على أشدّ حالات الأسى و الإشفاق و عندها يبدأ الكاتب بِفَهم ماكان يعنيه همنغواي بعبارته النبوئيّة الكاشفة عندما قال " تبدو الكتابةُ عملاً سهلاً للوهلة الأولى غير أنّها في واقع الأمر أشقّ الأعمال في العالم ". إنّ مشكلة هذا الكاتب و نظرائه من الكتّاب الناشئين هي أنّه غير قادرٍ أن يكون بمثابة سقراطٍ معاصرٍ يطرح الأسئلة المناسبة مثلما كان يفعل سقراط من قبلُ، و تبيّنْتُ آنذاك أنّ الحيلة الأساسيّة للإبداع هي في معرفة الكاتبِ كيف يطرحُ الأسئلة المناسبة و كيف يجيبُ عليها بنفسه، و قد قلتُ مفردة (حيلة) لأنّ الإبداع ليس سرّاً مقدّساً أو أحجية طلسميّة تكتنفها الألغاز بل هو في جوهره موهبةُ حلّ المشكلات: فالكاتب لحظة بدء الكتابة يضع أمامه مشكلة – و هنا أؤكّد أن تكون تلك المشكلة أمراً يهمّه على الصّعيد الشخصيّ –، و قد يحصل أن لا يهدف الكاتبُ إلى إيجاد حلّ لتلك المشكلة غير أنّه يتحتّمُ عليه إذا ما أراد التعبير عنها تعبيراً واضحاً أن يجد الحلول لعددٍ من المشكلات التكنيكيّة الخالصة: مِنْ أين يبدأ ؟ و ما الّذي يتوجّبُ عليه أن يدرجه أو يهمله ؟،،،،،، و تكرّسُ معظم مناهج الكتابة الإبداعيّة جلّ الوقت لهذه المشكلات التكنيكيّة و تترك المشكلة الحقيقيّة الكامنة

في قلب كلّ رواية دون حلّ، و سأتناولُ هنا بعضاً من المشكلات الّتي قابلها كتّابٌ مرموقون في رواياتهم الّتي باتت كلاسيكيّات باهرة على مدى السّنوات: ففي رواية بروست (البحثُ عن الزمن الضائع) نجدُ في موضعٍ ما من المجلّد الاوّل أنّ البطل يغمس قطعة كعك صغيرة في كوب شايه و يقضمها ببطءٍ و فجأةً يغمره شعورٌ طافح باللذّة و النشوة بعد أن أعاد إليه مذاقُ الكعكة أجواء طفولته و جعلها ترتسم أمامه و هذا يعني أنّ ماضينا لا يزالُ كامناً في موضعٍ ما من عُقولنا و يعني أيضاً أنّ بإمكاننا – بحيلة صغيرة – إسترجاعَ ذلك الماضي و عيشه ثانية و كأنّ الأمور تحدث في هذه اللحظة الآنيّة، و لكن ما الوسيلة في الوصول إلى تلك الكنوز المدهشة المخبوءة في أعماقنا ؟.

الحلّ الّذي يقدّمه لنا بروست هو أن نحاول بكلّ طاقتنا إستحضار الماضي و إعادة خلقه عبر وسيلة الكتابة المفصّلة عنه و تكون النتيجة حتماً رواية عظيمة، و لكنها بالرغم من هذا تخفق في إيجاد الحلّ: إنّ تأمّل الماضي قد يساعدنا في إستعادته بالتفصيل غير أنّه لا يقدر على إعادة خلق تلك اللحظات الفُجائيّة من السّعادة الغامرة الّتي إنتابتنا من قبلُ، و من المدهش معرفة أنّ علم النفس السريريّ وجد حلّاً للمشكلة البروستيّة في خمسينات القرن العشرين عندما إكتشف عالم الجراحة العصبيّة (وايلدر بينفيلد) من جامعة ماكغيل الكنديّة أنّ ملامسة مجسّ يحمل تيّاراً كهربائياً واطئ الشدّة لأجزاء محدّدة من القشرة الدّماغيّة سيتسبّبُ في إحداثِ إسترجاعٍ للذكريات البعيدة بكلّ تفاصيلها و هو الأمرُ الّذي يساعد المرء الخاضع للتجربة على معايشتِها ثانية، و لو أدرك بروست هذا و أتيحت له الفرصة فربّما كان سيلجأ إلى الجراحة الدماغيّة بدلاً عن الكتابة في محاولة بعث ذكرياته الدفينة و لكنّا خسرنا نحنُ رواية عظيمة.

دعونا الآن نعاينُ نموذجاً آخر للمشكلة الكامنة في قلب كلّ كتابة إبداعيّة: يكتب (هنري جيمس) في واحدةٍ من أوائل أعماله الروائيّة الموسومة (رودريك هدسن) عن نحّاتٍ يافع موهوب يبلغ به الفقر مبلغاً يدفع به إلى حافة العجز عن عيش الحياة التي يبتغيها كلّ فنّان بمثل موهبته، و بعد أن يزور ثريّ شاب قريباً له و يرى في بيته واحدة من منحوتات هدسن يحصل أن يتأثّر الثريّ بهذه الأعمال إلى حدّ أنْ يتّصل بهدسون و يعرض عليه إصطحابه إلى روما و توفير أستوديو و مرتّب مجزٍ له يساعده في شقّ طريقه في الحياة التي يستحقّها و هنا يصبح هدسون فجأةً و على غير توقّعٍ منه حرّاً في التفرّغ لإثبات إمكانيّاته الهائلة الّتي تتفجّر في أعماقه و يكون واضحاً ما الّذي أراد هنري جيمس قوله: الايمان المطلق بانّ الحياة توفّرُ إمكاناتٍ لا نهائيّة لمن يمتلك الخيال و العبقريّة، و السؤالُ الّذي يطرحه جيمس هو شخصيّ و لا شخصيّ في ذات الوقت، فهو يدمج شخصيّته مع شخصيّة النحّات رودريك هدسن و يسأل نفسه كيف سيتعاملُ شخصٌ كهذا مع موضوعة تحقيق الذات، كما يسأل بطريقة ضمنيّة عن الإمكانات المتاحة أمامه هو ذاته فقد كان جيمس في نفس موقع الثريّ الشاب المحظوظ و بلغ به الثراء حدّاً مكّنه من السفر إلى أوربا وَ عيشِ الحياة الّتي لطالما رغب فيها كشاب ذكيّ يتمتّع بخيالٍ خلّاق.

تمتاز الكتابة الابداعيّة بميزة سحريّة و هي إمتلاكها لسمة حلم اليقظة الممتع الممتدّ والباعث على النشوة، و يسود هذا الشعور لدى كلّ منْ جرّب كتابة رواية من الروايات بصورة جدّية أو حتّى حاول القيام بكتابتها حيث يسود الشعور بالحريّة المطلقة و كأنّ المرء يسبح في بحيرة من المياه الدافئة و لكن برغم ذلك فإنّ الحرّية في الكتابة ليست حرية غير مقيّدة بل هي حرّية لها قوانينها الخاصّة بها، و أنّ

ذروة الحرّية إنّما تكون في الصفحات الأولى للرواية ثمّ يصبح الكاتِب أكثر وعياً بالقوانين الحاكمة للعمل و عند هذا الحدّ يفقد المبتدئون حماستهم و يستسلمون أمّا بالنسبة للكتّاب المحنّكين و المتمرّسين في الصنعة الروائيّة فإنّهم يكتفون بإطلاق تنهيدة و يمضون في الكتابة. إنّ ما يحصل في واقع الأمر هو أنّنا متى ماخلقنا شخصيّة روائيّة ما و جعلناها تشترك في مواقف محدّدة نكون بذلك قد حجّمنا كثيراً من إمكانيّاتها المتاحة و هو ما يمكنُ أن نسمّيه (قانون تناقص الإحتمالات المُتاحة أمام الشخصيّات الروائيّة).

لنعد الآن إلى طلّابي في الجامعة: كان الأمر الأكثر أهمّية فيما يخصّ القصص التي سلّمها لي هؤلاء هو أنّها لم تكن ذات شكلٍ خاصّ بها، كما أنّها لم تستثرْ أيّ سؤالٍ مُحدّد، فقد وصفت إحدى الفتيات كيف أنّها ذهبت لتقود سيّارتها ثمّ إصطفّت في طابور تعبئة البنزين و راحت تروي بإسهاب كيف أنّ سائقاً واقفاً في الطابور شتمها بألفاظ مخجلة،،،، و وصف أحد طلّابي الشباب كيف أنّه تزوّج ثمّ تورّط بعدها في حكايات حبّ عديدة من غير أن تصلَ الحكايةُ نهاية ما، و من المثير أنّ الإثنين إعترفا لي أنّهما كانا يحاولان رواية مقاطع من سيرتهما الذاتيّة، و بدا غريباً لي للغاية أنّ معظم طلّابي شعروا أن ليس أمامهم ما يكتبون عنه إلّا وصف حادثةٍ ما، و أدركت بعمقٍ ماكان يحتاج إليه هؤلاء بقوّة: الإحساسُ بما يريد الكاتب أن يستخلصه من الحياة، و ما يريد أن يكونه في هذه الحياة. قال شكسبير مرّة أنّ الفنّ يحمل مرآة تعكس الطبيعة و كان من الأصوب له أن يقول أنّ الفنّ مرآةٌ يرى فيها المرءُ وجهه لا الطبيعة، و لكن لماذا يريد المرء أن يرى وجهه لا شيئاً آخر ؟ للسبب الآتي: لأنّ المرء لا يعرف بالضبط من يكون هو، و القصّةُ أو الروايةُ هي محاولة من جانب الكاتب لخلق صورة ذاتيّة واضحة المعا لم

له في المقام الأوّل، و ينبغي أن ننتبه إلى حقيقة أنّ الذات الإنسانيّة تعتمد إعتماداً كبيراً على الآخرين، فنحن نرى أنفسنا منعكسة على مرآة عيونهم رغم أنّنا ندرك إمتلاكنا قوّة خاصّة بمقاومة آراء الآخرين فينا فإذا ما نظروا إلينا بدونيّةٍ مكشوفة فليس من الضروريّ أبداً أن نشعر بأنّنا جديرون بهذا التوصيف و لا يحصل قبولنا بهذا إلّا متى ما ترسّخ لدينا شعور داخليّ قويّ بهذا الإحساس، و ترينا حياة شوبرت Schubert أنّ إحساسه بعبقريّته و تقديره لها تعزّزت بواسطة إعجاب حلقة من أصدقاءه الخلّص، و ترينا حياة إينشتين من جانب آخر أنّه إبتكر نظريّته النسبية الخاصّة من غير مساعدةٍ أو إطراء من جانب أيّ أحد بينما كان يشتغل منعزلاً مع أفكاره في مكتب براءات الإختراع في برن و ينسّبُ له الفضلُ الكاملُ في الإحساس بقدراته الذاتيّة و دفعِها على طريق الإرتقاء كفيزيائيّ ذي أصالة خلّاقة، و عندما يجلس اليوم كاتبٌ شابّ أمام حزمةٍ من الأوراق فإنّ السؤال الّذي يواجهه ببساطة ليس " ماذا أكتب ؟ " بل " من أنا ؟ و ماذا أبتغي أن أكون ؟ "، و من المؤكّد أن يكون هدفه من الكتابة مرتبطاً بإحساسه بالذات، و إذا حصل و أن لم تكن أمامه صورةٌ واضحة المعالم لإحساسه بذاته أو كانت صورته الذاتيّة مشوّهة فإنّه ربّما لا يزال في قدرته ملاحظة العالم المحيط به و وصفه بدقّة عظيمة لكنّ المُؤكّد أنّه سيكون عاجزاً عن خلق عملٍ عظيم و ذي أصالة.

تكشُفُ لنا رواياتُ برناردشو الأولى عن بصيرةٍ مدهشة في عمليّة خلق الصورة الذاتيّة لكاتب: فعندما قدم شو إلى لندن بعمر التاسعة عشرة كان مثالاً لشابّ دبلنيّ خجول إلى حدّ يبعث على الغرابة و لا يمتلك إحساساً محدّداً بما يبتغي القيام به في حياته القادمة، و عندما غمرتْهُ روح الكتابة بشكل طبيعيّ للغاية –كالتنفّس– تصادفَ أنّ قريبةً

له كانت روائيّة ناجحة و هنا تبيّن له أنّ من الممكن أن يغدو ناجحاً لو بذل جهداً معقولاً في ميدان الكتابة، و على أساس هذه الفكرة شرع في العمل على روايةٍ عنونها بشكل موقّت (الفظاظة) و كانت سيرة ذاتيّة إلى حدّ ما و هو ما نتوقّعُهُ في العمل الاوّل لأيّ روائيّ، و نقرأ في الرواية أنّ الشخصيّة الرئيسيّة و هو الشاب ذو الإسم الشائع (روبرت سمث) يصل لندن و يحلّ في غرفةٍ صغيرة ثمّ يشرعُ في إفراغ محتويات حقيبته و لا يمكن إهمال ملاحظة المتعة التي تغمر شو و هو يصفُ كلّ قطعة تحتويها حقيبة الشابّ الكالحة اللون،، و هنا يقرَعُ جرس الباب الخارجيّ و عندما يفتح الشاب الباب يجدُ أمامه فتاة أسكتلنديّة فاتنة و هي تقدّم له الشكر، و يمكننا أن ننتبه فوراً انّ شو يرمي إلى خلق قصّة حبّ بين الإثنين لكنّه لا يدري ما يبتغيه بالضبط: إذ يفترض بالشاب أن يُعَلّم الفتاة اللغة الفرنسيّة، ثمّ يقدّم لنا شو عدداً من الشخصيّات الثانويّة. إنّ الشاب سمث – بطل الرواية – ليس أكثر إلّا بقليلٍ جدّاً من متفرّج عاديّ يراقب الشخصيّات الأخرى و هي تحبّ و تتزوّج ولكنّ ميزة سمث الايجابيّة هي إمتلاكه لإحساسٍ قويّ بقيمته الذاتيّة، و مع أنّه لا يسمح لنفسه أن تكون ألعوبة بيد أحدٍ غير أنه لا يُقْدِمُ على فعل أيّ شيء. كانت مشكلة شو آنذاك هي إفتقارهُ لإمتلاك صورة ذاتيّة واضحة مع أنّه توفّر على فهمٍ خاصّ بكونه أكثر ذكاءً و تبصّراً من معظم الناس و لكنّه كان يفتقد أيّ تصوّر عمّا سيفعله بهذه المؤهّلات، و منحتْهُ فترة عمله في إحدى شركات الهاتف فكرة محدّدة: فقد إنتبه إلى أنّ المهندسين يملكون بعض السمات الّتي يكنّ لها الإعجاب و هي على وجه التخصيص كفاءة هادئة و قصورٌ مزمن في وعي الذات، و من هنا مضى في جعل (إدوارد كونولّلي) – بطله لروايته الثانية (عقدةٌ غير معقولة) – مهندساً و مخترعاً ينتمي إلى الطبقة العاملة بشكل ما و

يحصل أن يلتقي بسيّدة شابّة من الطبقة الأرستقراطيّة في حفلة موسيقيّة بإحدى الكنائس تماشياً مع عادة الفكتوريّين الّذين كانوا يقيمون إحتفالاتهم الموسيقيّة في قاعات الكنائس، و وجدت الشابّة في رباطة جأش السيّد كونوللي و هدوءِه ما يدعوها إلى الإعجاب به لذا عندما عرضَ عليها الزّواجَ وافقتْ من فورها، لكنّ الإشكاليّة تكمن في كونها رومانسيّة توّاقة للعواطف المتأجّجة و بعد فترة من الزواج تبعث برودة زوجها و إنضباطه العقليّ الملل في روحها فتهرب مع معجبٍ بها متوقّد الرومانسيّة و لم يتركْها ذلك العاشقُ الرومانسيُّ إلّا بعد أن جعلها مفلسة !! و هنا يذهبُ زوجها الاوّل لِإعادتها من نيويورك و يتوقّع القارئ حدوث تصالحٍ و وئامٍ بينهما إلّا أنّ شيئاً من هذا لا يحدث و تنتهي أحداث الرواية. تبدو مشكلة شو الأساسيّة في هذه الرواية واضحة للغاية: فهو يريد خلق نموذج بطلٍ خاصّ به و يستمدّ ملامحه من ذاته هو، و لمّا كان شو لا يعرف ما يفعلُ بحياته لذا يكون من الطبيعيّ توقُّعُ أنّ أبطاله يتلوّنون بمثل سماته و هي سماتٌ لا تصلح لتزويد الرّوائيّ بأيّ فعل مُثير. يمتلكُ شو واحدةً من مواصفات العظمة الأدبيّة: المثابرة، فبعد أن فشل في خلق عملٍ روائيّ ناجح لمرّتين إنطلق في المحاولة من جديد، و إذا كانت معرفته العلميّة و إستكشافه حياة المهندسين و العباقرة المخترعين لم تخدمْه في العمل السابق و جاءت مفتقرة إلى الإقناع المطلوب راح يجرّب نبوغه الأدبي بين جمهرة الفنّانين: فالشخصيّة الرئيسيّة في عمله الثالث (الحبّ بين الفنّانين) موسيقيّ يبتغي الإرتقاء إلى نموذج بيتهوفن و قد سخر الكثيرون من موسيقاه و رأوا فيها مادّة عصيّة على الأداء غير أنّه يتجاهل الإنتقاد و يواصل مسيرته، و في موضعٍ ما من الرواية يقدّم كونشرتو للبيانو يلاقي نجاحاً مدوّياً، و حصل أنّ شو وضع ذلك في منتصف الرواية و

عندها وقع في مشكلة واضحة: ما الّذي سيقدّمه في بقيّة صفحات الرواية التي تقرب من المائة صفحة ؟ واضحٌ أنّ شو وقع في فخّ لطالما مثّل معضلة مزمنة: فمتى ما كان البطل الروائيّ شخصيّة عبقريّة يدفعها الإحساس بالهدف الكامن فيما ترغب بإنجازه فإنّ الحبّ و كل حكايا الدسيسة و التآمر و الإنشغالات الرومانسيّة الّتي تمثّل كيان أية رواية أخرى تغدو حشواً زائداً غير ذي صلة بالحكاية الرئيسيّة، و سيُجابَهُ الروائيّ بالسؤال الممضّ: ما الّذي سيفعله البطل بعد أن حقّق قدراً معقولاً ممّا يبتغي؟ ماذا بعدُ ؟. كتب شو في حياته بضع رواياتٍ و كان الدرس الأعظم الّذي تعلّمه من وراء هذه الروايات هو أنّ صورة البطل الروائيّ الفعّالة و الديناميكيّة و المؤثّرة تنبع من صورة الكاتب الذاتيّة و يتوجّبُ دوماً أن تعكس صراع الكاتب و إحساسه الخاصّ بالهدف و الذات و أؤكّد: الذات فوق كلّ الإعتبارات الأخرى أوّلاً، أمّا الإعتبار الثاني فهو أنّك لن تستطيع كتابة رواية أو مسرحيّة مؤثّرة تتركُ صدى طيّباً إذا كانت شخصيّتها الرئيسيّة فرداً لا يعرف ما يريد فعله بحياته، و قد أوضح شو على نحوٍ صارم في (العودة إلى ميتوشالح) الدور الّذي تلعبه الصورة الذاتيّة في الرواية – و في الفنون بعامّة – عندما كتب " الفنّ هو المرآة السحريّة الّتي تعكس أحلام المرء غير المرئيّة و تحوّلها إلى صور مرئيّة، فأنت تستخدم المرآة لترى وجهك و تستخدم الفنّ و الأعمال الأدبيّة لرؤية روحك و أحلامك الخبيئة غير المتحقّقة " و هذا يعني بالضرورة أنّ الرواية هي في أساسها نوعُ من مرآة الحلم الّتي يجتهد فيها الروائيّ أن يعكس نفسه و أحلامه الجوهريّة، و نذكّر بما قاله المتحدّث الفنّان على لسان شو في أحد أعماله " أنت لا تستطيعُ في النهاية أن تخلق إلّا ذاتك ".

إذا شئنا الكلام من ناحية عمليّة محضة فإنّ السؤال الأوّل الّذي

ينبغي لكلّ من يطمح في مهنة روائيّة إحترافيّة ناجحة أن يجيب عليه ليس (من أنا ؟) بل (ما الّذي أريد أن أكون ؟) و هذا يعني ببساطةٍ أنّ الرواية لو كان لها فعلُ السّحر في تحويل الأشخاص إلى شخصيّات أخرى فأيّة شخصيّة يطمح الكاتب في أن يكونها: يوليوس قيصر أم ليوناردو دافنشي أم شكسبير أم تشارلي تشابلن أم ماذا ؟ قد يبدو هذا أشبه بلعبة جماعيّة ساذجة و لكنّها في واقع الحال الخطوة الأولى نحو الكتابة الروائيّة الإبداعيّة، و هناك بطبيعة الحال ألف وسيلة و وسيلة لإستخدام صورة الذات، ففي عمله المميّز (إشتراكيّ، لا إجتماعيّ) أسقط شو صورة مثاليّة لنفسه عندما يسأل (فردريك رولف) نفسه و هو الشخصيّة المصابة بداء العظمة و المنحرف جنسيّاً بذات الوقت " ماذا أودُّ أن أكون ؟ " و يجيب نفسه " البابا " و النتيجة هي ما قادت إلى تحفة أدبيّة ثانية ل (شو): رواية (هادريان السابع). يقسّمُ تولستوي صورته الذاتيّة في (الحرب و السلام) إلى قسمين يتوزّعان بين شخصيّتي (بيير) و (الأمير أندرو) و هما شخصيّتان متناقضتان إلى أبعد حدّ يمكن تصوّره، و في (الجريمة و العقاب) يُبدي القاتل راسكولنيكوف سماتٍ من خالقه دوستويفسكي، و أخيراً لا بدّ من التذكير أنّ المؤلّف عندما ينجز كتابة صورة واضحة للذات فإنّه يفضّل الإحتفاظ بها خارج نطاق عمله: أنّ صورة فلوبير مثلاً غير موجودة على الإطلاق في (مدام بوفاري) و لكن لم يكن ممكناً كتابة هذه الرواية إلّا على يد روائيّ وهب روحه للإبداع الأدبيّ كما الراهب الّذي وهبَ نفسه للبتوليّة الخالصة، و لا يمكن تصوّر كتابة هذه الرواية أو أيّة رواية أخرى عظيمة بواسطة كاتب لا يمتلك صورة قويّة و راسخة للذات.

يبدو أنّ طلبتي وجدوا في صورة الذات مادّة ممتعة لكنْ مربكة

بعض الشئ إذ سأل أحدهم " كيف السبيل إلى أن تتمتّع بصورة الذات إذا لم يكن لديك الإحساس الشخصيّ بهدفٍ ما ؟ أعني أنت تستيقظُ صباحاً لأنّك تعلم أن ثمّة عمل ما ينتظرك كالذهاب إلى المدرسة مثلاً، و تذهبُ إلى المدرسة لانّك تعلمُ انّك في حاجةٍ إلى شهادة من أجل الحصول على وظيفةٍ مرموقة، و أنت في النهاية تحيا في مجتمع تنافسيّ يتصارعُ فيه الجميع و لكنّ هذا ليس في النهاية هدفك الشخصيّ، بل هو هدفٌ مفروضٌ عليك من خارجك "، و هنا توجّب عليّ أن أقوم بتوضيح الفكرة التالية: إنّ لكلّ فردٍ منّا هدفاً شخصيّاً من نوعٍ ما و إنْ كان مطموراً تحت أكوامٍ من السأم و العادات المتواترة، و كلّ فردٍ منّا يبتغي شيئاً ما حتّى لو إدّعى نقيض ذلك و يمكن إدراك هذا الهدف من خلال الأزمات إذ يتوجّبُ علينا مثلاً مواجهة خطر الموت وجهاً لوجه لإدراك صلتنا القويّة بالحياة: فعند مواجهة الأزمات ينبعثُ الهدف المطمور من رماده و كأنّه وحش بحيرة لوخنيس (وحشٌ غريب الشكل له رأس ديناصور و قيل الكثير عن إدّعاء وجوده و حتّى رؤيته في بحيرة لوخنيس Loch Ness الأسكتلنديّة، المترجمة)، و الإشكاليّة الإبداعيّة الّتي تمثّل جوهر الخلق الروائيّ هي كيفيّة دفع هذا الهدف و إخراجه إلى السطح و ذلك جزءٌ أصيلٌ في كلّ إبداع كما هو جزءٌ متأصّلٌ في عمليّة الكتابة ذاتها و بهذا الوصف تكون الكتابة الإبداعيّة بمثابة وسيلة سايكولوجيّة للإسترخاء و تحقيق صورة أفضل قبولاً عن الذات، و مع كلّ هذا ظلّ طالبي صاحب التساؤل السابق غير مبتهج و لا مقتنع و عقّب قائلاً " أودّ بكلّ قوّة و إخلاص أن أكون كاتباً و لكنّي لا أستطيع أن أؤمن بأهمّية الرواية، و لو شاركْتُ مثلاً في مسيرة إحتجاجيّة ضد الحرب فقد يكون لذلك بعض التأثير العمليّ، و لكن لو كتبْتُ قصّة أو رواية فانا أعلم أنّها محضُ خيالٍ، و ما مِنْ

روايةٍ أحسب انّها غيّرت سياق الأحداث في هذا العالم،،،،،، "، و هنا تيقّنْتُ من خطل هذه الآراء و محدوديّة نظرتها إلى الفنّ الروائيّ: فالرواية لم يبلغ عمرها سوى قرنيْن و نصف القرن و قد غيّرت الكثير من ضمير العالم المتحضر، و غالباً ما نردّدُ أنّ داروين و ماركس و فرويد غيّروا مسار الثقافة الغربيّة و لكنّ واقع الحال أنّ تأثير الرّواية كان أعظم بكثير من تأثير هؤلاء الثلاثة مجتمعين، و أنّ غايتي الأساسيّة من وراء هذا الكتاب (**يقصد كتاب فنّ الرواية، المترجمة**) هو أن لا يقلّل أيّ روائيّ من أهمّية و عظمة صنعته وَ أن ينظر إلى ما يفعله على أنّهُ مبعثُ فخرٍ و حماسةٍ في الحياة البشريّة.

٤ . الظاهراتيّة و الفلسفة وَ التصوّف:

كولن ويلسون فيلسوفاً مُتصوّفاً

هذه ترجمة لمقطع منتخبٍ بدقّة من متن النص الّذي كتبه كولن ويلسون عام ٢٠٠٦ تحت عنوان (الظاهراتيّة كمسعىً تصوّفي Phenomenology As a Mystical Discipline) و نشره في العدد ٥٦ من مجلّة الفلسفة الآن Philosophy Now العالميّة المرموقة.

المُترجمة

سأحاوِلُ في المقالة التالية توكيد الحقيقةِ التّالية: أنّ ظاهراتيّة هوسرل أسيئَ فهمُها إلى أبعد الحدود من قبل هؤلاء الّذين يرون في أنفسهم تلاميذ و مريدين خُلّصاً للفيلسوف الألمانيّ – و بخاصّة سارتر –، و أنّ قلب المشكلة في سوء الفهم هذا يكمنُ في عجزِ هؤلاء عن فهم ما عناه هوسرل بفكرة (القصديّة Intentionality) المُلازمة للوعي البشريّ و ما يترتّبُ عليها من حقائق مدهشة في حرّية الفعل و السلوك، و أؤكّدُ هنا أنّ (بول ريكور Paul Recoeur) كان سبّاقاً في تثبيت هذه الملاحظة بأكبر قدرٍ ممكن من الوضوح، و أنا هنا أمضي في تثبيت رؤية هوسرل في أنّ القصديّة هذه فعلٌ خلّاقٌ يمكن أن يلعبَ دوراً حاسماً في تكييف الوعي البشريّ و تعديله و من ثمّ الإرتقاء به إلى ما يصلُحُ أن يكونَ نمطاً من المسعى الفلسفيّ الوجوديّ التفاؤليّ المقترن برؤية تصوّفية منعشة.

بينما كان سارتر و سيمون دي بوفوار يتناولانِ مشروباً مع ريموند آرون Raymond Aron(*) الّذي كان قد عاد لتوّه من المعهد الفرنسيّ في برلين، أشار آرون إلى كوكتيل الفواكه الّذي يتناولونه و قال لسارتر " ها أنت ترى، صديقي العزيز، لو كنتَ ظاهراتياً لكان في مقدورك الآن الحديث عن هذا الكوكتيل الّذي أمامك و أن تخرج بفلسفةٍ كاملة من وراء هذه الرؤية !! "، و علّقت دي بوفوار لاحقاً أنّ سارتر إنقلب شخصاً شاحِباً بعد سماعه هذا القول و إجتاحتْه هزّة عاطفيّة جامحة لأنّ هذا هو بالضبط ما كان يسعى إليه طيلة حياته: أن تصف الأشياء كما تراها و تلمسها،،،،،فغادر مسرعاً و إبتاع كتاباً عن هوسرل من مكتبة قريبة و راح يقرأُ و هو في طريقه عائداً إلى المنزل.
إختبرْتُ أنا نفسي ذات الإحساس في أيلول ١٩٦١ أثناء زيارتي الأولى إلى الولايات المتّحدة الّتي إمتدّت لثلاثة شهورٍ و زرْتُ خلالها العديد من الكلّيات و الجامعات الأمريكيّة مُتحدّثاً بشكلٍ متواصلٍ لخمس أو ستّ ساعاتٍ يوميّاً، و كان عليّ في كلّ كلّيةٍ أو جامعة جديدة أزورُها أن أبدأ من البداية و أعيد حكاية أفكاري الّتي طوّرتُها في كتابي (اللّامنتمي) و سلسلة الكتب اللّاحقة له و الّتي تدورُ في ذات مداره: الدين و التمرّد، عصر الهزيمة، القدرة على الحلم،،،،و مع إعادة أفكاري مرّاتٍ و مرّات صرتُ أكثر قدرةً على رؤيتها في صورةٍ جديدةٍ و عارفاً بما يترتّبُ عليها، و كمثالٍ على ذلك بدأتُ أرى انّ الوجوديّة كانت ببساطةٍ شكلاً مطوّراً عن رومانتيكيّة القرن التاسع عشر: الرّومانتيكيّة ذات العلامة II كما أسميتُها تمييزاً لها عن الرومانتيكيّة ذات العلامة I الّتي مثّلت الحنين الجارف و الأبديّ لما هو وراء الوجود الماديّ المحض و هي ذات الرومانتيكيّة التيّ إكتوى بنارِها العديدُ من شعراء القرن التاسع عشر و أصابتْهم بمسٍّ من جنونٍ

لا شفاءَ منه بعد أن أيقن هؤلاء الشعراء المبتلون أنّهم يلهثون وراء سرابٍ لا سبيلَ لبلوغه فغرقوا في لُجّة اليأس الشامل الّذي كان كفيلاً بوضع حدّ سريع لحياتهم. من جانبٍ آخر فإنّ الفلاسفة الوجوديّين الّذين تمتدّ جذورهم إلى كير كيغارد واجهوا الحياة بنوعٍ من القبول و إن كان قبولاً متجهّماً و محبطاً: ففي " أسطورة سيزيف The Myth of Sysiphus " يعبّرُ كامو أفضل تعبيرٍ عن هؤلاء الفلاسفة فيقول " حلّت اللعنة على سيزيف و عوقِبَ بأن يرفع صخرة إلى أعلى تلّة و يتركها تهوي في دورة أبديّة لا تنتهي و مع هذا يتعيّنُ علينا أن نرى في سيزيف شخصيّة سعيدة لانّه إمتلك رغم كلّ شيئٍ الحرّية الداخليّة لفعله الشخصيّ "، و يشير سارتر إلى ذات الفكرة بقوله " نحن مثلك يا سيزيف أحرارٌ في أن نفعل أيّ شيء و لكنّنا غيرُ قادرين على الفعل،،، نحن عاجزون يا سيزيف !! ".

تُرينا ظاهراتيّة هوسرل طريقاً خارج المـأزق الوجوديّ هذا: الفكرة الأساسيّة لدى هوسرل و أعني بها (قصديّة الإحساس Intentionality of Perception) لا تعني بأنّنا احرارٌ و حسبُ بل أنّنا و بشكلٍ قاطع لسنا عاجزين كذلك. إستعار هوسرل فكرة القصديّة هذه من معلّمه (فرانز برينتانو Franz Brentano)(**) الّذي رأى – أي هوسرل – في كتابه المهمّ (السايكولوجيا من وجهة نظر إختباريّة Psychology from an Empirical Standpoint) المنشور عام ١٨٧٤ أنّ السايكولوجيا هِي علم الظواهر العقليّة و ميّز بينها و بين الظواهر الجسديّة بقوله أنّ الظواهر العقليّة تمتلك قصديّة الفعل: فلو نظرْتُ في ساعتي و أنا شارد الذهن لما عرفتُ الوقت و لتوجّب عليّ إعادة النظر و لكنْ هذه المرّة بوعيٍ مقصود لأتمكّن من معرفة الوقت، و الأمر الأكثر أهمّية هنا هو أنّ هذه القصديّة فعلٌ معبّرٌ عن

الحرّية: فما دمنا قادرين على تغيير أفكارنا فيكون ممكناً أيضاً أن نغيّر حياتنا و أن نغيّر العالم تبعاً لذلك و يمكننا في الوقت ذاته أن نغيّر عوالمنا الداخليّة أيضاً. فشل سارتر و كامو في إدراك هذه الحقيقة و ربّما كانت مقولة سارتر الشهيرة " الإنسانُ عاطفةٌ لا جدوى منها " أفضل تعبيرٍ عن هذا الفشل المريع: إذ كيف نكونُ بلا جدوى إذا كنّا أحراراً في الفعل و الإختيار ؟ !! جاء كتابي (ما بعد اللّامنتمي) كمحاولة لمساءلة هذه الموضوعات و من اللافت للنظر انّ كتابي هذا يبدأُ صفحاته الأولى بمقاربة المعضلة الوجوديّة الإنسانيّة الأساسيّة: هل علينا ككائناتٍ بشريّة أن ننساقَ وراء سارتر و كامو في إعتبار الحياة مُعطىً عديم المعنى ؟

يلخّصُ شوبنهاور النظرة إلى موضوعتي الحياة و المعنى في تمثيلها ببندولٍ يتأرجحُ بين قطبَي الشقاء و الضجر: فعندما نختبِرُ حالةً من القلق أو عدم الإرتياح نعمل جهدنا على تخطّي هذه الحالة و عندما نشعرُ براحة يحصل بعد برهةٍ أن ننسى هذه لنقع في فخّ الضجر، و إذا كان هذا هو ما يحصل فعلاً إذن لتوجّب علينا قبولُ هذه " العدميّة غير البطوليّة " كحقيقةٍ مطلقةٍ تصفُ الحالة الإنسانيّة و إنّ الحياة لا بدّ ان تبدو غير مقبولةٍ و لا مُرضية لأيّ شخصٍ يمتلك قدراً معقولاً من الذكاء لأنّها ببساطةٍ تفتقدُ أيّ معنى، و من جهةٍ أخرى يمتلك (إج. جي. ويلز) رؤية مخالفة لرؤية شوبنهاور تجاه حالة عدم الرضا المكتنفة للوجود الإنسانيّ و قد عرض رؤيته هذه في كتابه (تجربةٍ في السيرة الذاتيّة Experiment in Autobiography) إذ يقول فيه " يجد الأفراد العاملون المبدعون ذوو الاصالة المؤكّدة الوجود الإنسانيّ الإعتياديّ باعثاً على السأم لانّهم يكتنزون في دواخلهم شوقاً عارماً و حنيناً لا يضاهى إلى وجودٍ بشريّ أكثر حيازةً للمعنى ".

ثمّ يمضي في القول " بكلماتٍ أخرى فإنّ هؤلاء الأفراد يطمحون في نوعٍ غير مُختبرٍ للآن من الحرّية البشريّة ".

* رايموند آرون Raymond Aron: فيلسوف و سوسيولوجيّ و صحافيّ و عالم سياسة فرنسي ولد عام ١٩٠٥ و توفّى عام ١٩٨٣. كتب العشراتِ من المؤلّفات أهمّها و أكثرها شعبيّة كتابه (أفيون المثقّفين The Opium of the Intellectuals) عام ١٩٥٥، و عُرِف عنه صداقتُهُ العميقة و الممتدّة مع سارتر. (المترجمة)

** فرانز برينتنانو Franz Brantano: فيلسوف و عالم نفس ألمانيّ مرموق ولِد عام ١٨٣٨ و توفّى عام ١٩١٧ و كان له تاثير هائل على كلّ من سيغموند فرويد و إدموند هوسرل و آخرين. وضع العديد من الأفكار الفلسفيّة و السايكولوجيّة الأصيلة، و الّف الكثير من الكتب المهمّة نذكر منها:

- سايكولوجيا أرسطو The Psychology of Aristotle، ١٨٦٧.

- منبعُ معرفتنا عن الصواب و الخطأ The Origin of Our Knowledge of Right and Wrong، ١٨٨٩.

- تصنيف الظواهر العقليّة The Classification of Mental Phenomena، ١٩١١. (المترجمة)

٥ . إستبصاراتٌ ويلسونيّة:

كولن ويلسون و رؤية في السّايكولوجيا البشريّة

هذه ترجمة لمقاطع منتخبة من بدايات الفصل الأخير المُعنْون (إستبصارات) في السّيرة الذاتيّة الأولى الّتي نشرها كولن ويلسون عام ١٩٦٩ بعنوان (رحلةٌ نحو البداية: سيرة ذاتيّة ذهنية A Voyage to the Beginning: An Intellectual Autobiography).

المُترجمة

أمضيتُ معظم حياتي و أنا دائم الإنشغال و التفكير طول الوقت بمعضلة العالمَيْن المُتمايزيْن: عالم التجربة و الممارسة اليوميّيْن وَ عالم العقل، و كنتُ على الدوام مسكوناً بفكرة أكسيل Axel – الّتي ردّدتها في غير موضعٍ من كتاباتي – و الّتي يقول فيها " أمّا فيما يخصّ حياتنا فإنّ خدَمَنا يستطيعون أن يحيوا بالنيابة عنّا "، و الحقّ أنا لا أحبّ الحياة اليوميّة الإعتياديّة و أراها مضجرةً إلى أبعد الحدود، و كان سبق للرومانتيكيّين أن إختبروا هذا الشّعور لكنّهم إنتهوا إلى أنّ رفض الحياة يعني بالضرورة إختيار الموت و هذا هو بالضبط الأمر الّذي هاجمه الفيلسوف البريطانيّ (غلبرت رايل Gilbert Ryle) في كتابه (مفهوم العقل The Concept of Mind)، و أرى أن ليس ثمّة عالمان متمايزان يحتويان التجربة

البشريّة بل يوجدُ محضُ وجهتي نظر مختلفتيْن: نظرة الصقر و نظرة دودة الأرض كما إعتدْتُ على وصف الحال في كتاباتي العديدة.

ثمّة نسبة مئويّة صغيرة من البشر تمثّل القلّة الثوريّة المتطلّعة من الجنس البشريّ و الّتي ترفضُ العيش لمجرّد العيش بذاته و ترى في العالم اليوميّ عالماً عقيماً ذا نهاياتٍ مغلقة تنتهي من حيثُ تبدأ: فإذا كان هوسُك الأساسيّ هو المال فبإمكانك أن تمضي وقتاً سعيداً و أنت تعملُ لتكون مليونيراً، و لكن ما أن تصبح مليونيراً حتّى تكون وصلْت نهايةً مغلقةً ليس بعدها ما يمكنُ أن ترغب في فعله و عند تلك اللحظة لن يشكّل كبيرَ فرقٍ لك لو كان دخلك الأسبوعيّ ألف جنيه أسترلينيّ أو عشرة آلاف إذ لن يكون بإمكانك أن تفعل بالنقود الأكثر شيئاً أبعد مدى و أعظم متعة ممّا يمكن أن تفعله بالنقود الأقلّ، و نفس الشئ يمكن قوله مع الطعام: فمتى ما كان بإمكانك أن تأكل مرّتين كلّ يوم في أرقى مطاعم العالم تكون عندها قد وصلْت نهاية مغلقةً فيما يخصّ الطّعام و حينها يمكنك أن تملأ إحدى غرف بيتك حتى سقفها بشتّى أنواع الأطعمة و لكن لن يكون لك رغبةٌ في تذوّق شئٍ منها، و لو كنتَ إمرءً مثل كازانوفا فسوف تستنفد أقصى حدود طاقاتك الحيويّة بعد إثنتيْ عشرة عشيقة تقريباً،،،،، إنّها ذات مشكلة الإسكندر الأكبر الّذي كان يصرخُ طلباً لأراضي جديدة تغزوها جحافله الجرّارة، أمّا تجربتنا مع العالم العقليّ فإنّها تختلفُ نوعيّاً عن تجاربنا الغرائزيّة الأخرى و إلى أبعد الحدود: فمتى ما ولْجنا عالم العلم أو الرياضيّات أو الفلسفة فستنفتحُ أمامنا فضاءاتٌ لانهائيّة من المتعة و الدّهشة، و ما يميّز التجربة العقليّة عن التجربة الحسّية أنّنا كلّما تعاظم ما نعرفه عنها زاد بالنتيجة سحرُ المعرفة و جاذبيّتُها – على عكس ماهو سائدٌ في الحياة اليوميّة الإعتياديّة – و يصدّقُ الأمر ذاته مع عالم الشعر أو

الرسم أو الموسيقى أو الأدب، فالعقلُ يمتلك القدرة على النفاذ إلى أعماق متزايدة و ليس ثمّة من تخوم مسبّقة لِما يمكن أن يصله العقل البشريّ كما قال ويلز " العقلُ هو المَملكة الحقيقيّة للإنسان "، و هنا تطلّ المشكلة الوجوديّة الّتي قهرت الرومانتيكيّين - و الوجوديّين من بعدهم - و هي ذات المشكلة الّتي واجهت فاوست: فبعْدَ ساعةٍ أو نحو السّاعة من الإنغمار الكامل في عالم العقل يحلّ الإرهاقُ بالمرء، و ربّما يمكننا معاينةُ هذه الإشكاليّة إذا ما أردنا إتمام قراءة كتابٍ ما قبل النوم و حينها ليست عيوننا ما سيحلُّ بها الإرهاق و حسب بل سنشعرُ بعد حينٍ بنوعٍ من الوهن يمكن تسميته " عسر الهضم الروحيّ ": شيءٌ شبيه بتشظّي الإرادة و تفكّكها و غياب الحيويّة العقليّة و إنزواءها في كهفٍ مظلم بارد.

نعلمُ تماماً أنّ عالم العقل لا يقلّ إتّساعاً عن الكون الخارجيّ و ليس علينا - ربّما - للتحقّق من سعة العالم العقليّ و مَدَياتِهِ الرّحيبة سوى أن نتناول جرعةً من المسكالين، و لا أظنّه ببعيد ذلك اليوم الّذي سيغدو فيه بمقدورنا الترحالُ بحرّية في أرجاء العالم العقليّ مثلما صرنا نتنقّل بحرّية مطلقة في العالم الحسّي الخارجيّ. جرفَ الحماسُ العارمُ لقوّة العقل البشريّ علماء القرن التاسع عشر فأعلنوا قائلين " لن يفشل الإنسان في مسعاه بإتّجاه أن يكون كاملاً و ربّما سيستحيلُ إلهاً في نهاية المطاف !! " و أجابهم الرومانتيكيّون - و الوجوديّون من بعدهم - بازدراءٍ كامل " على مهلكم أيّها السادة، أنتم تتجاهلون المشكلة الوجوديّة الكبرى: إنّ عقل الإنسان غير موْهّلٍ بعدُ للتعامُل مع أكثر مشاكل الإنسان أهمّيةً و أسبقيّة و الّتي هي عقله !! " فقد إمتلأ الإنسان المعاصر بالضجر، و الرغبة في إشعال فتيل الحروب، و التناقض القاتل مع رغباته الحقيقيّة المضمرة دوماً و إنقلب أنساناً مشوّشاً و

مضطرِباً إلى حدودٍ لا شفاء منها، و ربّما كان الفكرُ كلّيَّ القدرة لكنّه لا يستطيعُ في النهاية تجاوز الحقائق المؤلمة الخاصّة بوهنه و خفوته و موته المحتّم. لا ينبغي لنا في هذا السياق نسيانُ حقيقة أنّ غوته كان خلق في فاوست رمزاً كلاسيكيّاً للتأكيد على عدم كفاية المعرفة، و هنا لا بدّ للعقل البشريّ من أن يخطو واحدةً من أهمّ الخطوات البشريّة و أكثرها مشقّة: الإقرارُ بأنّ جوانب القصور و عدم الكفاية في الوعي البشريّ يمكنُ علاجها مثلما نعالجُ المشكلات في شبكة المجاري مع معرفتنا المسبّقة بأنّ هذا أمرٌ في غاية الصعوبة بسبب عاداتنا اليوميّة و مُواضعاتنا العقليّة الّتي تميلُ إلى الرسوخ و الثبات و الإستقراريّة على ما نحنُ عليه، و لو حصل أنْ أصاب عطْلٌ سيّارتي فسيكون حتماً في قدرتي أن أصلحه بإستخدام فعلٍ هو أساساً من أفعال الفكر، و لكن أليس من المفترض أنْ يكون بإستطاعتي إذن التأثير على وعيي الشخصيّ من خلال بعضٍ من فعاليّات الفكر ذاته ؟ يمكنُ لي في وقتنا الراهن أن أغيّر حالة وعيي بتناول كأسٍ من الويسكي، أو بتعاطي جرعةٍ من المسكالين، أو بأن أحصل على عطلةٍ حيثما شعرْتُ بالتعب و الضجر، و لكنّ الإشكاليّة المؤلمة هي أنّ الوعي البشريّ – في حدود التجربة الإنسانيّة غير المُعدّلة أو المُكيّفة بمؤثّراتٍ خارجيّة – يبدو أنّه لا يملك القدرة على تغيير حالته: إذ كلّما أمْعنْتُ في التفكير بمشكلةٍ عقليّة ما كلّما إزددْتُ إنغماساً في تعقيدات تلك المشكلة، و كلّما أصابني التعب و الإرهاق العقليّان وجدْتُ يدي تمتدُّ إلى زجاجة الويسكيّ، أو تدير جهاز التلفاز، و هذا بذاته إعترافٌ صارخٌ بالهزيمة و بخضوعي المطلق لإشتراطات العالم الماديّ الحسّي الذي أعيش وسطَهُ.

بعدما تعاطيْتُ المسكالين يوماً ما قبل سنواتٍ عدّة – و كانت المرّة الأولى و الأخيرة الّتي تعاطيْتُ فيها المسكالين – كان تأثيره المباشر أنّه

جعل إنطباعاتي الحسّية أكثر حيويّة و توهّجاً و طافِحةً بالمعنى كما كان الحال أيّام طفولتي (**يحكي الكاتبُ عن تجربة تعاطيه هذه في فصلٍ من سيرته الذّاتيّة في القسم الثّاني من هذا الكتاب، المترجمة**)، و لكنّه من جانبٍ آخر جعل العالم يبدو مُزعجاً و مُخيفاً لي في الوقت ذاته كما كان الأمر معي أيّام الطفولة، كما إختبرْتُ بعد تناول المسكالين إنفجاراتٍ متتالية من التوهّجات العاطفيّة، و الحقيقة المجرّدة هي أنّ المسكالين ضاعف من قدرتي كمُفكّر و مكّنني من النفاذ إلى ما وراء الوضوح العاديّ حيثُ يستحيلُ التفكير هناك نوعاً من الرؤيا، و لكنّ الإشكاليّة هي أنّ المسكالين بالغ كثيراً في جعل إحساساتي متطرّفة الحدّة إلى الحدّ الذي شلّ معه ذكائي العقليّ و عندها أيْقنْتُ أنّ المسكالين ليس بالإستجابة المثاليّة لضيق مدى وعيي اليوميّ، و هنا سنتساءلُ أيضاً: كيف يمكن أن يُتاحَ لتفكيري بلوغُ الحرّية غير المقيّدة الّتي يكون عندها التفكيرُ نوعاً من رؤيا ملهِمة ؟ الإجابة هي: سنواتٌ من الإنضباط المنظّم شديد الصرامة. يصِفُ ت. ي. لورنس إنطلاقه ذات صباحٍ باكرٍ مع بدو الصحراء العربيّة و كيف تصحو الحواسُ قبل أن يستيقِظَ العقلُ و كيف يبدو كلّ شيءٍ جميلاً و مليئاً بالحياة، و كنتُ أنا ذاتي في سنواتِ مراهقتي المبكّرة شديد الحساسيّة تجاه مشكلة فاوست: كانتْ تمرّ بي برهاتٌ تزوّدني فيها قصيدةٌ أو فكرةٌ ما بالشفرة المطلوبة لفكّ مغاليق بوّابة عقلي الموصد و عندها كان يغدو العالم الخارجيّ شيئاً ثانويّاً لا يُعتدّ به و لا أهمّية له أبداً و لم يكنْ ليتجاوز كونه خلفيّة تلازِمُ حياتي الحقيقيّة و كان عقلي حينذاك يتجوّلُ بكامل حرّيته الخالصة، و لكن سرعان ما كان يبدو العالم الحقيقيّ و كأنّ الغيرة تملّكتْهُ و لم يعدْ يرغب بالبقاء كمجرّد خلفيّة لحياتي و عندئذٍ كانت الرؤيا تبدأ بالتلاشي و الخفوت، و يحصل معك أنْ كلّما راودتْك الرغبةُ في الركون إلى عالم

العقل إنبرى لك العالم الحقيقيّ و أمسك بك من ياقتك و خاطبك بفظاظة " لا تفعلْ ذلك !! " و بدلاً من أن تنتقل إلى عا لم العقل بسلاسةٍ و تلقائيّة تجدُ نفسك مُراوِحاً بين العالميْن ثمّ ينتابُك إحساسٌ بالخوَر و الضعف، و حصل بعد أن عزمْتُ على التدقيق في جذور هذه المشكلة العقليّة أن إقتنعْتُ بكونها ناشئةً بسبب نوعٍ شائعٍ من الكسل العقليّ و الإنشغال المفرط في المشاكل الذاتيّة الصغيرة: يحصلُ أحياناً أن تقرّر قضاء إجازتك في أداء بعض الأمور الّتي نويْت أداءها و ترى أنّ وقت الإجازة هو أفضل الأوقات لأداءها، مثل قراءة هيغل أو وايتهيد(*)، أو سماع موسيقى بيتهوفن، و لكن الحرّية المُتاحة وَالشائعة عند الأفراد تقترِنُ في العادة مع كسلٍ مزمنٍ، فقد تبدأ القراءة الّتي كنت تتطلّع إليها من قبلُ و بعد قراءة فصلٍ أو إثنيْن و حينما ينتصفُ النهار تنخفضُ درجة حرارتك العقليّة و تبدأ في التملّص من إلتزاماتك الّتي كنْتَ قطعْتَها على نفسك من خلال التساؤل عمّا ينبغي لك فعلهُ في الحديقة ممّا فاتتْك ملاحظته من قبلُ !! و من المؤكّد أنّ أيّ إمرءٍ حاول أنْ يدقّق في هذه الإشكاليّة سيكتشِفُ القدر الهائل من ضآلة الإرادة و خور العزيمة الّتي ترافقُ حياتنا و مدى السهولة الّتي ننجرِفُ بها مع تيّار الحياة الإعتياديّة بدلاً من محاولة الإبحار إلى الجهة الّتي نقصدُها نحن لا تلك الّتي تأخذنا المقاديرُ العابثةُ إليها، و للأسف ينتهي بنا الأمرُ إلى قبول كسلنا العقليّ وَ وَهَنِ إرادتنا كسِمةٍ أساسيّةٍ من السّمات المُميّزة لِلظروف الإنسانيّة المُلازمة للحالة البشريّة. إنّ معرفة هذه الحقيقة هي نقطة الشروع الجوهريّة في أيّة محاولةٍ جدّيّة للعثور على حلّ لهذه الإشكاليّة الملازمة لوجودنا البشريّ، و يبدأ الحلّ أساساً من رفض المرء لقبوله المُهين بما يبدو الحالة السائدة و الإعتياديّة للوعي البشريّ و ركْلِها بعيداً عنه.

* ألفريد نورث وايتهيد Alfred North Whitehead: فيلسوفٌ وَ عالم رياضيّات إنكليزيٌّ عاش في الفترة ١٨٦١ - ١٩٤٧. توصفُ فلسفتهُ (فلسفة الصّيرورة Process Philosophy)، و يعرَفُ عنه إشتراكهُ مع تلميذه في جامعة كامبرج (برتراند راسل) في تأليف المجلّدات الثلاث لكتاب (أسس الرياضيّات Principia Mathematica) التي صدرت عن جامعة كامبردج في الفترة ١٩١٠ - ١٩١٣. درّس سنواتٍ طويلة في كامبردج ثمّ غادرها إلى جامعة هارفرد و بقي فيها حتّى وفاته. له الكثيرُ من المؤلّفات الّتي نالت شهرةً عالميّة واسعة، نذكر منها:

- مفهوم الطّبيعة The Concept of Nature، ١٩٢٠.
- العلمُ و العالَمُ الحديث Science and the Modern World، ١٩٢٥.
- مغامراتُ الأفكار Adventures of Ideas، ١٩٣٣ (ترجمَهُ الأستاذ أنيس زكي حسن و صدر عن دار الآداب البيروتيّة).
- الطّبيعة و الحياة Nature and Life، ١٩٣٤.
- أنماطُ الفكر Modes of Thought، ١٩٣٨.

و ثمّة الكثيرُ من الإشارات إلى وايتهيد في أعمال كولن ويلسون و في سيرته الذّاتيّة أيضاً. (المترجمة)

الفصل الثالث: رؤية بطوليّة لعصرنا

حوارٌ موسّعٌ مع كولن ويلسون

أقدم هذه الترجمة لأسئلة منتخبةٍ بدقّة شديدة مع إجابات كولن ويلسون عليها و هي منقولة عن موقعيPoetic Mind الألكتروني و مجلّة الفلسفة الآن Philosophy Now.

المُترجمة

* لم يكن كتابك (اللامنتمي) محض سرد و مسائلة لحياة بعض أشهر اللامنتمين في الأدب، و لعلّك كنت ترمي إلى إلقاء ضوءٍ ما على عنصرٍ من أكثر العناصر تأثيراً في الحالة الإنسانيّة. ماهو ذلك العنصر الحاسم كما ترى ؟

- كتبتُ (اللامنتمي) في محاولة للإجابة على التساؤل الممضّ الذي لا أحسب أنّه سيغادر عقولنا يوماً: ما الخطأ فينا ؟ و يبدو أنّ الشخص العاديّ عندما ينظرُ إلى نفسه من وجهة النظر السائدة فإنّه لن يجد فيها خطأً ما و لكنّ هذا الأمر لا يستقيمُ مع بعض الشّخوص من ذوي العقول المتطلّعة و التي تجد نفسها واقعة تحت ضغط شعورٍ بعدم الرضا الداخليّ الطاغي و لا تنفكّ تسائل نفسها دوماً (من أنا ؟): ذلك التساؤل المتعاظم في تأثيره و الذي عبّرت عنه المعاناة الرهيبة التي قاساها بنيان (يوحنا بنيان John Bunyan: كاتب و واعظ مسيحيّ من القرن السابع عشر، المترجمة)، و قد دفعت هذه المعاناة الرهيبة بنيان للتساؤل بشيءٍ من الحسّ اللاهوتي: " ما الذي ينبغي أن أفعل لكي أخلص ؟ "، و ربّما كان غوردجييف Gordjieff هو الأكثر دقّة في

التعبير عن حالتنا الإنسانيّة عندما قال بأنّنا جميعاً نِيامٌ، و هنا يمكن إعادة صياغة مقولة بنيان ذات النكهة اللاهوتية لتكون بحسب رؤية غوردجييف " ما الذي ينبغي أن أفعله لكي أجعل عقلي النائم يصحو ؟ " !!.

*** نشرتَ " اللامنتمي " عام ١٩٥٦ و بعد أكثر من نصف قرن من الزمان لا زال هذا العمل يأسر عقولنا - لنقُلْ بعض العقول على الأقل -. هل لا زال هذا الكتاب قادراً على كشف ما أنت عليه الان، و القاء ضوء على الطريقة التي ترى فيها العالم اليوم ؟**

- نعم بالتأكيد، فكما ترى إنّ عملي تواصل في طريق مستقيم لا يحيد يمنة أو يسرة عن الأفكار التي طرحتها أولاً في " اللا منتمي "، و لا زلت أحسبُ أنّ اللامنتمي هو بصورة أساسية مقاربةٌ لسؤال " كيف يمكن للكائنات الإنسانية أنْ توسّعَ من مديات وعيها ؟ "، و قد يظن البعض أنّ روايتي " طقوسٌ في الظّلام " أجابت على السّؤال السابق بإمكانية توسيع مديات وعينا عبر التّجارب الجنسية التي يعتقدُ بها بطل الرّواية: جيرارد سورم Gerard Sorme الذي يرى ما عاناه أحدُ الضحايا من وراء هذه التجارب فَيرتعد رعباً و يعيدُ التفكير في ما يظنُّ و يساءل نفسه " ليس هذا ما أردتُه من وراء هذه التّجارب ". يقول بودلير: " كل شيء في هذا العالم ينضح بالجريمة " و أظنُّ هذا محض زيفٍ رومانتيكيّ فقد تخدم الجريمة - كهدف مثاليّ - بعض الفنانين ذوي السّلوكيّات المرضيّة لكنّها ليست بالفكرة الثمينة لأنّها تعجز عن الإيفاء بمتطلّبات إختبار الحقيقة.

*** يتمحورُ كتابك (اللامنتمي) حول ثيمة العيش في حالةِ من الوعي المفارق للحالة العقلية اليوميّة، و ذكرتَ أسماء لمبدعين إختبروا هذه الحالة المفارقة: فان كوخ، دي. إج. لورنس، نيجينسكي و آخرين من الذين لم يكن بإمكانهم الإرتدادُ إلى حياةٍ فيها شيءٌ من توازن بين الإعتياديّ و المفارق للإعتياديّ. هل ثمّة من أسماء أخرى يمكن إضافتها لهذه القائمة منذ أن نشرت كتابَكَ هذا ؟**

– نوت هامسون فحسب: فهو لم يغادر طور الشخصيّة اللامنتمية أبداً.

*** ماهي وجهة نظرِكَ فيما يخصُّ الإستعارة النيتشويّة عن الأسد و الجمل و الطفل و هل ثمّة من رابطة ما لها مع الفلسفاتِ الّتي توجّه فكر اللامنتمين ؟**

– نيتشه محقّ تماماً في إستعاراته الجميلة: يبدأ المفكّرون حياتهم مثل أسود جامحة مليئة طاقة و عنفواناً، ثمّ يجدون أنفسهم (لو نجحوا في مهنتهم) حاملين لأعباء جسامٍ مثل جملٍ صبور: زوجة و أطفال و مسؤوليّات أكاديميّة، و لو كانوا محظوظين فَسينتهون إلى حالة من البراءة كبراءة الأطفال، و أظنّني قد خبرْتُ هذه الأطوار النيتشويّة كلّها.

*** بالرغم من أنّك وجوديُّ النزعة فقد كتبت مرّة مقالةً بعنوان " ضدّ سارتر ". هل يمكنك أن تخبرنا ماالذي تراه المشكلة الأساسيّة في النهج السارتريّ ؟ و ما القيمة التي تراها ستدوم في أعمال سارتر ؟**

– ينتمي سارتر إلى التّقليد الشكوكيّ sceptical الفرنسيّ ذي الجذور القديمة في الفكر الديكارتيّ و لديّ رفض غريزيّ لبعض

ما كتب سارتر من أمثال عبارته (الإنسان عاطفة غير ذات جدوى)، و مع أنّ سارتر له إمتياز على بقيّة الشكوكيّين الفرنسيّين في أنّه يرى الفرد حرّاً لكنّ يرفض مثلما يفعلون فكرة (النفس الحقيقيّة) أو الأنا المتعالية باللغة الكانتيّة Kantian، و هو يرانا على مثال (الرّجال الجُوّف Hollow Men) الذي إبتدعه تي. إس. إليوت و أرى في هذا كلّه مدعاة لتشاؤميّة غير منتجة. أعتقد أنّ سارتر كان على المسار الصّحيح عندما قال مرّة أنّه شعر بحرّيته الكاملة في الحرب بعدما إنخرط في فصائل المقاومة الفرنسيّة و كان يمكن أن يؤسر و يقتل و ربّما لو سأل نفسه " لماذا أشعر بحرّيتي الكاملة وسط أهوال الحرب ؟ " فربّما كان سيجيب نفسه " لأنّني عندما أكون وسط خطر داهم فسأبذل جهداً نابعاً من إرادتي الحرّة لتجنّب المخاطر و هذا ما يُشْعِرُني أنّني على قيد الحياة ".

*** كثيرون ممّن أعجبوا بأعمالك الوجوديّة المبكّرة ربّما هزّوا رؤوسهم في إستغراب بعد أن وجّهت أعمالك صوب الظواهر الخارقة وعدّوا ذلك نكوصاً غير مُستحَبّ. هل ندمت يوماً ما لتوجّهك صوب الخوارق في كتاباتك اللّاحقة؟**

– يبدو هذا التساؤل مثقلاً بهواجس غير منطقية: دعني أقول أنّ السؤال الوجودي الجوهري " من أنا ؟ " يحتوي ضمناً على إمكانية أن أكون شخصاً أخر بميّزات تتفوق كثيراً على ما أنا عليه، وهو ذات ما إكتشفه سارتر بعد أن واجه خطر الموت لأن فعل مواجهة الموت يستلزم نمطاً سارترياً – نيتشوياً بمواصفات متعالية على الشخصية السارترية الإعتيادية اليومية.

*** هل تظنّ أنّ الدين و كلّ أشكال الإعتقاد الأخرى بخلود الروح هي قناعات يغذّيها خوف الإنسان المزمن من الخوف ؟**

- أحياناً نعم و لكن بعامّة كلّا. عندما كنت مراهقاً كنت مؤمناً بخلود الروح و لكنّي إنْجذبْتُ إليْهِ كنوع من التفكير الرّغائبي Wishful Thinking و لكنّي بالتدريج وجدت نفسي مقتنعاً بهذه الفكرة.

*** هل ترى ثمّة علاقة بين الإبداع و الإعتلال العقليّ ؟ و هل ترى ملمحاً تطوّريّاً للإبداع تجاه ما يمكن عدّه مرضاً عقليّاً مزمناً ؟**

- لا أشعر بالتأكيد انّ الإعتلال العقليّ يمكن أن يعين الإبداع والخلق، و حالُ الإعتلال العقلي في هذا مثل حال وجع الاسنان مثلاً الذي لانعرفُ أنّه دعم الإبداع يوماً ما، و كثير من المبدعين مثل: بليك، برناردشو، غوته كانوا أصحّاء تماماً في قدراتهم العقليّة. كافحت كثيراً في سنوات مراهقتي الأولى لأوهم نفسي بأنّني معتلّ عقليّاً و أقف على تخوم الإبداع المتخيّلة و لكن أصابني اليأس و الإحباط و لم أتقدّم خطوة واحدة تجاه أيّ شكل من أشكال الإضطراب العقليّ المزعوم. الإعتلال العقليّ وراثيّ بطبيعته و هو نتاج الحظّ السيئ بالكامل، و يبدو لي الإعتلال العقليّ نتيجة متوقّعة لعدم قدرة الجمل على النهوض بأعباء حياته و الإنكسارات الطبيعيّة الحاصلة فيها و أظنّ على العموم أنّ من الأفضل للمبدعين أن لا ينجبوا أطفالاً و ينوؤوا بأعبائهم لاحقاً.

*** من تراه أكثر الشخصيّات الإبداعيّة و الفلسفيّة التي كان لها تأثير بيّن على حياتك و لماذا ؟**

– التأثيرات الذهنيّة العظمى كانت من جانب: برناردشو، غوردجييف، نيتشه. أشارك نيتشه رؤيته التفاؤليّة التطوّريّة، و أرى أنّ غوردجييف هو المعلّم الروحي الأعظم في القرن العشرين، و أعدّ نيتشه الأعظم من بين الفلاسفة.

*** لاتبدو فرداً ذا ميول سياسية وليس ثمة من إشارات سياسية فيما تكتب، وربما كان السبب أن الاشتغال الفلسفي يسلك مسلكاً مفارقاً للطبيعة الواقعية الصلبة التي ينطوي عليها الاشتغال السياسي. لو إفترضنا أنك عملت في السياسة، فأي الرؤى السياسية ستكون لك والى أي جناح سياسي كنت ستنتمي ؟**

– لديّ اهتمامات سياسية – وإن كانت غير معلنة – لأن برناردشو قال مرّةً أن كلّ المفكّرين الجادّين لابد أن تكون لهم إهتمامات في حقلي الدين والسياسة، وجرياً على سيرة برناردشو أصبحت إشتراكياً منذ بواكيري الأولى وقد أفردت فصلاً كاملاً في كتابي عن برناردشو الذي كتبته في الستينات من القرن العشرين لبيان الأسباب التي جعلت برناردشو إشتراكياً، وقد تسبّبت نظرية فائض القيمة Surplus Value لكارل ماركس في صدمتي فقد عددتها نفايةً فكرية، وجعلتني أميل الى السياسات المحافظة. كان لديّ في مراهقتي حلم: حلمُ أنْ أتقاعد وأقضي حياتي في جزيرة وسط بحيرة بالضبط كما حلم ييتس Yeats في أن يبني مستعمرةً فنية في جزيرة مثل هذه، ولكنّ الاشكالية أنّ الفنانين يكونون في العادة مثاليين الى الحد الذي لايمكن أن يخرجوا

بنتيجة مفيدة من مكوثهم في هكذا جزيرة ربما بسبب تكوينهم العصابيّ المُفرط.

*** كيف تصف إتّجاهك الفني: هل ترى نفسك كاتباً أم فيلسوفا ام متصوّفاً أم ربّما ناقداً أيضاً ؟**

– أرى نفسي فنّاناً – فيلسوفاً. عندما كنت في مقتبل شبابي أعجبت بعمق بمسرحية برناردشو الذائعة الصيت " الإنسان و الإنسان الخارق Man and Superman " التي لا زلت أراها المسرحية الأكثر تاثيراً في القرن العشرين و التي طرح فيها برناردشو نظريته في الفنان – الفيلسوف، و لهذا تراني أكتب روايات و أعمالاً نقدية و فلسفية على نحو ترادفي: يمكن لي هنا أن أذكر كمثال كتابي " اللامنتمي " الذي أعقبْتُهُ برواية " طقوس في الظلام " و قد درجت على هذه العادة منذ أن بدأتُ مهنتي في الكتابة أواسط الخمسينات و منذ ذلك الحين كانت أعمالي الفلسفية و النقدية على الدوام تُنشَرُ في ذات وقت نشرِ رواياتي التي كانت في العادة تعالجُ موضوعاتٍ سبق لي أن تناولتُها في كتبي الفلسفيّة و النقدية.

*** هل أنّ ما تكتبُهُ مدفوعٌ بتوهّج عالمك الداخلي أم بمحض أحداث خارجية؟**

– أرى هذا سؤالا شاقا للغاية لأننا نعيش بين عالمين وَ أرى أنّ هذا السّؤال يشكّلُ قلْبَ الثيمة التي إشتغلت عليها في " اللامنتمي ": ففي ذلك الكتاب أحكي عن أناسٍ يستشعرون في دواخلهم أنّهم يعيشون في برزخ بين عالمين و ليس في أيّ واحدٍ منهما بالكامل !!.

دعني أوضح فكرتي بهدوء: قبل أن أكتب " اللامنتمي " عملت في أعمالٍ كثيرة لطالما كرهتها من أعماقي مثل ساعٍ للبريد، غير أنني كنتُ محظوظاً بسببِ كوْني ألمعيّاً إلى حدّ أن أعبّر عَن نفسي بمصطلحاتي الذاتية، و قد نتج عن أفكاري كتاب " اللامنتمي " و هو الذي منحني فرصة لأن أكون كاتبا و أتوقّف عن تعاطي الأعمال الكريهة إلى روحي. أغلب الناس يعيشون على التّخم الفاصل بين عالمين، و ما عملتُهُ أنا بالضبط هو أنني حاولتُ منذ البدء أن أعيش في عالمي الثاني الذي أحبُّ: أعني عالم العقل، و هذا هو الفعلُ ذاتهُ الذي قام به ييتس Yeats و رومانتيكيّو القرن التاسع عشر الذين أعلنوا أنّ هويّة العالم الآخر الذي يتوقون له هو عالم " الكينونة الجوّانية " أو باستخدام مفردات كيركيغارد " الحقيقة هي الذاتيّة الكاملة ". إقتنع ييتس بعالم من الجنيّات fairies بديلٍ عن عالمنا و هو في أقلّ التقادير بذل مجهوداً معقولاً ليستبدل عالمنا اليوميّ المُثير للضجر بعالمٍ آخر يراه أكثر واقعيةً و قدرة على تحفيز و خلق الأفكار.

*** ما الذي يُلهمكَ في خلق أعمالك ؟ أعني هل أنّ الانغماس مع الطّبيعة يُلهمك أم أنّ إلهامك ينبعث من الصّمت الذي يتيحُ لك سماع الكلمات التي تبحثُ عنها ؟**

– أنا في الأساس شخصية عملية و براغماتية للغاية و هذا ما يفسّرُ على الدوام لماذا تدربتُ في حياتي المبكّرة لأكون عالماً. أكتبُ بوعيٍ كاملٍ و بعد تمحيص هادئ و بحث و استقصاء دقيقين و إنضباط كاملٍ و ليس ثمّة من إنزلاقٍ نحو طقوسٍ تبتعدُ كثيراً عن المألوف.

*** هل صحيحٌ أنّك تدعو إلى مستوى آخر من الحياة ينبغي التركيزُ عليه جنباً إلى جنب مع الحياة اليوميّة الإعتيادية ؟ و هل أنّ هذا المستوى من الحياة يعملُ بالتّشارك مع " اليوميّ " على إثراء الحياة أم بإمكانه أن يثري هذه الحياة لوحده و من غير أيّ مشاركةٍ مع عنصرٍ آخر ؟**

– هذا هو بالضبط ما أحكي عنه دوماً و أراهُ السّؤال الأهمّ بين الأسئلة جميعاً، و قد بذل الرومانتيكيّون ما في وسْعهم للتعبير عنه و لكن ما يميّزُ بيتس و يجعلُهُ الأعظم بينهم هو أنه تساءل دوماً: " هل يوجد هذا المستوى من الحياة الذي يتجاوز الحياة اليومية ؟ " في الوقت الذي رأى فيه الرومانتيكيون الآخرون أنْ ليس ثمة ما يمكن أن يتجاوز هذا العالم العفن الذي رأوا فيه فخا قاتلا للإنسان و بخاصة للشاعر.

*** هل تراه عملاً يسيراً عندما تتناول الأفكار الروحانيّة مع جمهورٍ واسعٍ؟ و هل ترى ثمة ضرورة لتقليل جرعة الأفكار فيها بقصد أن تجعلها قابلة للوصول الى جمهور أكبر و بالتالي تحقيق تفهُّمٍ أعظم لها ؟**

– لا أقلّلُ محتوى المعلومات أبداً و كلُّ ما أفعلُهُ أنني أكتبُ أفكاري بأوضح ما يمكنني و أتوقُّعُ أنّها ستجد صدىً طيّباً لدى كلِّ عقل واعٍ.

*** ذكرتَ في مواضع كثيرة من كتاباتِك أنّ الرؤيويين Visionaries من الناس لا يمكنهم التعبير عن تجاربهم بالكامل بوساطة الكلمات فحسب. هل ترى ثمّة محدوديّة متأصّلة في اللغة ؟ و هل ثمة من وسائل تعيننا على توسيع قدرتنا في التعبير عن أفكارنا ؟**

– أكثرُ ما لا نستطيع التعبير عنه في محض كلمات هو الرؤية Vision التي أسماها بروست " اللحظة المباركة ": تلك البرهات الغرائبية من الدهشة النقيّة المُطلقة. يقول بروست بالضبط: " قد نظنُّ بأنّنا قد إختبرْنا كل شيء في هذه الحياة حتى لم يعد ثمّة ما نضيفُهُ إلى جعبة خبراتنا أو نضعُهُ في حسباننا ثم نكتشف في لحظاتنا المُباركة الكاشفة أنّ ملايين الأشياء قد نسيناها و هي ذات أهمية فائقة.". إنَّ المشكلة مع الكائنات البشرية هي أنّها يمكنُ أن تغدو ذات نوازع إنتحاريّة لأنّها تنسى إمكانيّة وجود هذه اللحظات المباركة في حياتها و تلك هي بالضّبط الحالة التي عبّرَ عنها هيدغر " نسيان الوجود ".

*** عندما كنتَ طفلاً هل كانت لديك رؤية او إحساسٌ طاغٍ عما يمكن أن تكتب عنه مستقبلاً ؟**

– نعم، فقد كانت لحظتي الرؤيوية الأساسية أو لنقُلْ " لحظتي المباركة " – اذا ما إستخدمنا المفردات البروستية – تأتيني أوقاتَ أعياد الميلاد التي كنت أساءِلُ فيها نفسي " يا إلهي، أ ليس العالم جميلاً بما يفوقُ التصوّر ؟ كيف لي أن أتصور أنني لم أفكّر بجماله الخارق من قبل ؟ كيف يمكن لي أن أكون ضجراً في تشرين أوّل و أنا أعلمُ أنّ أعياد الميلاد قريبة للغاية ؟ "، و يمكن أيضا أن أدعو رؤيتي القائمة على لحظتي المباركة بأنّها " وعي العطلة ": لأنني كنت أنطلق أثناء العطلات خارجاً و كان ينتابني و أنا في الطبيعة المفتوحة الأرجاء تساؤلات من نوع " أ ليس هذا عالماً معقداً رائعاً الذي نعيش فيه ؟ ". أراه أمراً في غاية الصعوبة اليوم أن أستعيد و لو شيئاً بسيطاً من هذه التجارب الثمينة في وقتنا هذا.

*** ما هي إنطباعاتك عن أبراهام ماسلو ؟ هل تظنُّ أنه إمتلك تجارب رؤيوية عميقة ؟ (أبراهام ماسلو: عالم سايكولوجي معروف بنظرية التدرج الهرمي للحاجات الفردية و قد كتب فيه ويلسون كتاباً عنوانه " مدخل جديد الى السايكولوجيا: أبراهام ماسلو و الثورة ما بعد الفرويدية، عام ١٩٧٢، المترجمة)**

– نعم كانت لماسلو تجارب رؤيوية رائعة و عميقة في حياته لأنّه كان إنساناً منفتحاً و متسامِحاً و لم يكن مثالاً للمثقف الأكاديميّ الصّلد و الضيق الأفق.

*** ماذا يعني الإلهام في الفنّ على حسب ما ترى ؟**

– الإلهام يعني أن تصل إلى ذلك الشئ الجوهري و الأساسيّ الذي تعلمه و تؤمن فيه: هو طريقة في رؤية الأشياء، و متى ما إمتلكْتَ هذه الطريقة في رؤية الأشياء ستعرف لماذا كان سيزان يرى الأشياء بطريقة هندسية غريبة و قد تقول لسيزان حينها: " و لكن الأشياء لا تبدو في الحقيقة هكذا ؟ " و سيجيبك هو: " و لكن هذا هو ما تبدو به هذه الأشياء لي عندما أستخدم نظارات الإلهام الرؤيوية الكاشفة ".

*** ما الّذي تراه دافعاً أصيلاً في شحذ إلهامك و إندفاعك في الكتابة عن موضوعتي: الغامض، و المفارق للإعتياديّ ؟**

– بدأ الأمر ببساطةٍ عندما طلب إليّ ناشر كتبي عام ١٩٦٨ أن أكتب كتاباً عن الظواهر الخارقة، و لم يلقَ الأمر في البدء إستجابة من

جانبي رغم أنّني كنت أحبّ موضوعة الغموض منذ صغري و لطالما إقتنيتُ كتباً عن الأشباح و المصادفات الغريبة المبهجة وغير المتوقّعة و قرأتها أثناء مكوثي في صالات الإنتظار في المطارات الأمريكيّة و كنت أرى في مجمل الأمر محض قراءاتٍ خفيفة مسلّية و لم أكن أنظر لها بعين الجدّية و الرصانة ابداً، و ربّما كنت في أفضل الأحوال أرى في تلك القراءات تنفيساً عن تفكير رغائبيّ wishful thinking يحوز قدراً مقبولاً من المعقوليّة، و هكذا حصل و مضيتُ في توقيع العقد مع ناشر كتبي طمعاً في الحُصول على مال إضافيّ فحسب، و عندما مضيتُ في تفحّص الظواهر الغامضة و الخارقة للإعتياديّ ذهلتُ إلى أبعد حدّ متصوّر و عرفتُ كم يوجد من الشواهد ما يؤكّدُ حقيقة هذه الظواهر بالضبط كما تأكّدت الحقيقة الفيزيائيّة للذرّات و الألكترونات فإندفعتُ في البحث بحماسة أكبر و كانت موضوعة بحثي الأساسيّة هو تأكيد حقيقة إمتلاكنا لقوى خفيّة هائلة لا نعلم عنها شيئاً و لا نستطيع ملامسة تخومها في الأحوال الإعتياديّة و ربّما يموت أغلبنا بعد أن يعيش حياة ممتدّة و هو لا يعلم أيّ كنزٍ ثمين مخبوء داخله، و أظنّ أنّ كتابتي عن هذه الظواهر بعد نشر كتابي عن اللامنتمي جاءت تماماً في اللحظة المناسبة.

*** لماذا تظنّ أنّ حقل الظواهر الغامضة و الخارقة للوعي الإعتياديّ ستكون المادّة الأثيرة الّتي ستعنى بها العلوم المستقبليّة ؟**

– أرى أنّ جوابي سيكون تتمّة منطقيّة لما قلتُهُ في جوابي عن السؤال السابق: نحن – ككائنات بشريّة – ندرك أنّنا نختزنُ قدراتٍ عظيمة خبيئة في داخلنا و لا نعرف عنها شيئاً كثيراً لليوم، و أرى أنّ

واحدة من أعظم مهمّات العلوم المستقبليّة ستكون في إستكشاف هذه القدرات و تطويعها للإستخدامات اليوميّة رغم أنّ علوم اليوم لا تعيرُ الإهتمام الكافي بهذه القدرات البشريّة و لم تتعاملْ معها بما يستلزم من إنضباط علميّ صارم بل أنّ ثمّة دوائر علميّة تشكّكُ في صدقيّة الظواهر الخارقة. أرى أنّ هذا النوع من العلم الناكر للظواهر الخارقة و تلك الّتي يلفّها الغموض ينتمي إلى مدرسة قديمة الطراز مؤسّسة على نظرة ماديّة فجّة و مبتسرة.

*** أظنّ أنّك قلت مرّة أنّ كتابك الاوّل لو حصل أن لاقى نجاحاً مدوّياً و حصدْتَ من وراءه الملايين فستكفّ حينها عن الكتابة و ربّما كنتَ تلمّحُ من وراء هذه الملاحظة إلى توكيد فكرة أنّ شحّ المال كان دافعك الأساسيّ في ولوج عالم الكتابة. من جانبي أنا أرى العكس تماماً: إنّ إفتقاد الحرّية الذهنيّة عند الكتابة و الناجم عن القلق المستديم بشأن توفير الموارد الماليّة الكافية لتأمين عيش لائق هو بالضبط ما يعيقُ الكثيرين عن الكتابة الإبداعيّة. ما الّذي تراه أنت اليوم في هذه المسألة ؟**

- أوووووه، لا لا لا. دعني أوضّح الأمر: كتبتُ كتابي الأوّل (اللّامنتمي) كنتيجة للشغف العميق الّذي أحسستُهُ و عشتهُ طيلة عطل نهايات الأسبوع من قبلُ و لم تكن النقود لتتقدّم على شغفي إطلاقاً، و لستُ أذكر أنّني قلتُ يوماً ما كلاماً من نوع: متى ما أصبحتُ مليونيراً فسأكفّ عن الكتابة، بل الصحيحُ هو العكس تماماً، أي متى ما أصبحتُ مليونيراً فلن يكون ثمّة مسوّغٌ لي للتوقّف عن الكتابة تحت أيّ ظرف من الظروف. إنّ ما قلتهُ بالضبط هو كالآتي: لو أنّ روايتي (طقوسٌ في الظّلام) حوّلتْ إلى فلم – و هو الأمر الّذي

كان على وشك ان يحصل عام ١٩٦٠ - فإنّ كلّ رواياتي اللاحقة ستتحوّل إلى أفلام و سأكون في بحبوحة ماليّة عظيمة، و ربّما لو حصل و تحقّق هذا لكان إختياري لموضوعات كتابتي و مجمل مسار حياتي قد تغيّر رغم أنّني عندما أنظرُ اليوم إلى ما انجزتُ طيلة سنوات مهنتي الكتابيّة لا أرى أنّني كتبتُ أشياء سيّئة. دعني أحكي لك الحكاية التالية: عندما ذهب فريتز بيترز Fritz Peters (روائيّ عاش في الفترة ١٩٠٣ - ١٩٧٩، المترجمة) طلباً لمعونة غوردجييف Gurdjieff(*) في إنقاذه من حالة إكتئابيّة عنيدة شلّت قدراته الإبداعيّة بذل غوردجييف جهداً عظيماً و أخرجه من وهدة الكآبة المميتة الّتي إنزلق إليها، و عندما سمع الناس بقدرات الرجل سارعوا إلى زيارته و الإستفادة من خبراته العلاجيّة، و بدلاً من أن تبدو على الرجل علامات الإجهاد الفارقة إجتاحتْه موجة من الحيويّة الّتي بدت و كأنّها نبعٌ لا ينتهي ماؤه !! و حصل أن أخبر الرجل بيترز يوماً: " أنت من جعلني أبذل جهداً عظيماً في إنقاذك من إكتئاب مميت و قد أثبت الأمر انّه كان مفيداً لكلينا. شكراً لك لتذكيري بأهمّية قدراتي الّتي أهملتها طويلاً ". هكذا هو الأمر إذن: يحصل غالباً أنّ الجهود العظيمة الّتي لا نريد بذلها في إنجاز عملٍ ما قد تثبتُ في النهاية أنّها هي بالذات أفضلُ ما عملناه يوماً ما في حياتنا كلّها، و أنّ تذوّق طعم النجاح الناجز و المدوّي سيعمل على إزاحة الضغط الداخلي الناجم عن إنشغالاتنا اليوميّة الثانويّة العابرة فحسب و ليس أكثر من هذا ابداً.

*** هل ترى ثمّة وشائج بين العقول الباثولوجيّة (المرضيّة) ذات النزعات الإجراميّة و بين العقول الإبداعيّة ؟**

– قال برنارد شو مرّةً " نحن نحاكمُ المجرم بجريرة عمل إرتكبه في أكثر أوقاته شعوراً بالدونيّة و التفاهة، و نحاكمُ المبدع تبعاً لما أنجزه و هو في أكثر لحظات حياته إشراقاً "، و بلا شكّ ثمّة إختلافاتٌ مؤكّدة بين العقول الإبداعيّة و الإجراميّة و هذا بالضبط ما يجعل الموضوع ممتعاً و باعثاً على التشويق كمادّة بحثيّة. يحصل أحياناً و بخاصّة في أيّامنا هذه و بعد أن قطعت الإنسانيّة أشواطاً في التحضّر أن نُجالِسَ مجرماً و نعجب لما نرى فيه من خصالٍ مهذّبة لشخصيّة تبدو هادئة و ذات قدرات ذهنيّة و إبداعيّة جليّة، و لكن عندما ينفجر هذا الرجل المهذّب مثلما كان يفعل بندي Bundy **(أشهر قاتل تسلسليّ في أمريكا أعدم على الكرسي الكهربائيّ عام ١٩٨٩ و هو بعمر ٤٢ عاماً، المترجمة)** فإنّه يمضي في إرتكاب جرائمه بالضبط كما كان بيكاسو و فان كوخ يمضيان في خلق أعمالهما الإبداعيّة. إنّ القوّة الإنفجاريّة الّتي دفعت كلّاً من فان كوخ و بيكاسو لإبداع أعمالهما هي بكلّ وضوح نوعٌ من الإستجابة للشعور بالإحباط و هو ذات ما يحصلُ مع الشخصيّة الإجراميّة و لكنّ الفرق الوحيد بين فعلَي الشخصيّتيْن أنّ المبدع يمضي في تحقيق إنتقالةٍ إلى مستويات خلّاقة أعلى من مستويات العيش اليوميّ الإعتياديّ بينما يستجيبُ المجرم بطريقة بدائيّة فيخاطِبُ نفسه " اللعنة على كلّ شيء، سأحطّم كلّ ما أجده أمامي و ليحصل ما مقدّرٌ له أن يحصل و لتتهدّم جدران المعبد عليّ و على أعدائي "، و من المؤكّد أنّه بهذا الفعل يحطّم شيئاً ثميناً للغاية داخل نفسه. ثمّة مسرحيّة كتبها (بوشكين) بعنوان (موزارت و ساليري) يستكشف فيها الأسطورة المتداولة القائلة أنّ ساليري إغتال موزارت بدسّ السمّ له، و كانت إحدى الموضوعات المهمّة الّتي طرقتْها المسرحيّة هي أنّ المبدع لا يمكنُ أن يكون قاتلاً في يومٍ ما، و عندما وضع ساليري السمّ

لموزارت و قتله كان يخاطِبُ نفسه أنّه قتل غريمه الموسيقيّ العبقريّ و لكنّ الحقيقةّ الصارخة أنّه قتل موزارت بسبب إدراكه المتأصّل داخله أنّه لا يرقى لمرتبة موزارت و لا يصلح أن يكون أكثر من مساعد ثانويّ له في أحسن الظروف.

*** قلتَ مرّة " إنّ من الممكن الحصول على تأكيد رياضياتيّ بأنّ (الوعي النابع من الرأس) هو الجواب لمعضلة الوجود البشري المستديمة مُذ وُجِدَ النوع البشريّ. هل تظنّ حقّاً أنّ العقلنة الذهنيّة تتقدّم على الشبكة العصبيّة العاطفيّة في توفير إجاباتٍ مناسبة للمعضلات المترافقة مع الوجود البشريّ ؟ ألا تظنّ مثلاً أنّ الفرد ينبغي له أن يلجأ إلى كلّ الطرائق المتاحة للمعرفة بالإضافة إلى وسيلة المعرفة الذهنيّة: الوسائل الحسّية، و الإنفعاليّة، و العشقيّة الّتي تثيرُها النواقل العصبيّة المعروفة بالفرمونات Fermones، و الحدسيّة، و ربّما حتى التليباثيّة (التخاطريّة) ؟**

– ما قلتَهُ بالضبط هو أنّنا في القرن العشرين أعلَيْنا كثيراً من شأنْ أنماط المعرفة الّتي ذكرتَها في سؤالك: دعا كتّابٌ من أمثال دي. إج. لورنس إلى العودة إلى قلب الجذوة الملتهبة المحرّكة للنشاط البشريّ و كان يعني بها الجنسانيّة Sexuality و أن لا نثق بالمعرفة الذهنيّة أبداً، و كتب هنري ميللر في ذات الإتّجاه داعماً فكرة لورنس، كما كان والت ويتمان يدعو إلى ذات الفكرة عندما كتب عن ضرورة الإصغاء إلى ما يقوله الجسد البشريّ، و لستُ هنا في معرض التشكيك بصوابيّة رؤى هؤلاء الكتّاب المرموقين الّذين لو كانوا إدّعوا بوحدانيّة رؤيتهم كطريق إلى المعرفة البشريّة لكانوا بالتأكيد مخطئين تماماً. ما أريد التأكيد عليه هنا أنّ الجنسانيّة و الجسد البشريّ يلعبان دورهما المهمّ في التركيبة البشريّة

المتوازنة و لعلّك تذكر المقولة اللّاتينيّة الّتي صارت أيقونة مخلّدة و الّتي تقول أنّ العقل السليم في الجسم السليم، و لكن يبقى للعقل البشريّ و فعاليّاته الذهنيّة علويّة على ما سواها من الوسائل في إكتساب المعرفة و أنّ الوسائل الذهنيّة تبقى هي الأساس في تأكيد صدقيّة أيّ إتّجاه نمضي فيه بإتّجاه إكتساب المعرفة عن العالم الّذي نعيش فيه بما يمكّننا من التعامل الخلّاق مع معضلات الوجود البشريّ، و من الطبيعيّ أن هذا التوجّه يتعارض بصورة أساسيّة مع رؤية لورنس بشأن عدم الثّقة بأيّة فعّاليّة ذهنيّة لأنّها لن تمنحنا سوى الأوهام، و أظنّ أنّ رؤيته هذه هي السبب الّذي يجعل من رواياته و بخاصّة روايته نساء عاشقات Women in Love تخلّفُ فينا عند الإنتهاء من قراءتها إحساساً مريعاً بالمرارة و الإنهزام و العبثيّة.

*** قلتَ في موضعٍ ما أنّ الدليل على كوننا نمتلك إرادةً حرّة لا ينبثق من قدرتنا على إشباع حاجاتنا الغرائزيّة – مثل الطعام و الجنس – بطريقة روبوتيّة، بل من معرفة أنّنا قادرون على التفكير فيما نريد (يشيرُ المُحاوِرُ إلى مبدأ القصديّة intentionality الّذي يشكّلُ حجر الزاوية في فلسفة هوسرل الظّاهراتيّة، المترجمة). هل حصل و تساءلتَ يوماً عن الإشكاليّة الفلسفيّة الكامنة في كيفيّة معرفتنا بأنّنا نفكّر فعلاً فيما نريد، و بخاصّة في ضوء التطوّرات المتسارعة في العلوم العصبيّة الّتي باتت ترى أن الوعي يتغيّر لحظيّاً مع كلّ تغيّر يطرأ على الكيميائيّة العصبيّة للدماغ ؟**

– ما قلتُهُ أعلاه كان في سياق تعليقي بأنّ برهان الفيلسوف و عالم النفس الأمريكيّ وليم جيمس على أنّ الفرد يمتلك إرادةً حرّة و ليس محض آلة ميكانيكيّة هو في قدرة المرء على أن يفكّر بأمرٍ يختاره هو و

أن لا يُقسَرَ على التفكير في أمر آخر في الوقت ذاته إلّا إذا أراد هو ذلك. من الواضح تماماً أنّنا نستطيع الإيفاء بمتطلّبات برهان وليم جيمس و يمكن لأغلبنا إختبارُ الشّعور بأنّ كلّ فعل هو في النهاية محدّدٌ ميكانيكيّاً و أنّ ما سأفعله في اللحظة التالية يمكن معرفته بمفردات ميكانيكيّة محدّدة للغاية (يشير ويلسون هنا إلى الفلسفة الديكارتيّة الّتي توسَمُ أحياناً بالفلسفة الآليّة، المترجمة)، فمثلاً قد أذهب إلى تناول العشاء لأنّي أكون لحظتها أشعر بالجوع و هكذا يمكن التعميم على بقيّة الأفعال البشريّة و لكن تبقى الحقيقة الصارخة الّتي تستعصي على كلّ منهج ميكانيكيّ هي أنّنا نمتلك إرادة حرّة لأنّنا نستطيع التفكير في أمر محدّد برغبتنا و دون سواه من الأمور.

*** لماذا ترى في تجربة تناول المكيّفات العقليّة Psychedelics(**) السائدة خطوة تطوّريّة إرتداديّة إلى الوراء فيما يخصّ غرائزنا الطبيعيّة في حين يرى الكثيرون عكس ما تراه تماماً ؟**

– أنت تشيرُ هنا إلى حالة تيم ليري Timothy Leary **(عالم نفس و كاتب أمريكيّ عاش في الفترة ١٩٢٠ – ١٩٩٦ و عُرِف عنه وقوفه إلى جانب الإستخدام الجماهيريّ الواسع للمكيّفات العقليّة، المترجمة).** إذا كان إدّعاء تيم ليري صادقاً بشان إمكانيّة إستخدام المكيّفات العقليّة في الوصول إلى ممالك جديدة من الذاتيّة داخلنا إذن يكون من المنطقيّ أن نعرف كيف نجد طريقنا إلى تلك الممالك المدهشة في المرّات القادمة بدون معونة المكيّفات العقليّة !!، و عندها سأتّفقُ مع تيم ليري و سأقف بجانبه و سأرى في المكيّفات العقليّة وسيلة رائعة لتوسيع تخوم وعينا البشريّ. إنّ ما يحصل في واقع الأمر هو أنّ الناس

عندما يختبرون تجربة تناول أحد المكيّفات العقليّة المتداولة فإنّهم يرون عوالم و فضاءاتٍ و يختبرون أحاسيس يعجزون عن وصفها لانّهم لا يمتلكون حينها المفردات المناسبة الّتي تمكّنهم من نقل أحاسيسهم و رؤاهم إلى الآخرين، و هكذا لا تعدو تجارب تناول المكيّفات العقليّة حينها سوى تجارب عقيمة و غير مثمرة. قد يجادل البعض أنّ هذه التجارب مدهشةٌ بذاتها و بغضّ النظر عن أيّ شيء آخر، و أقول: حسناً، قد تكون مُدهشةً، و لكن ما الفائدة الّتي ترتجى من وراء هذا الإدهاش إذا لم نكن قادرين على التعبير عنه بكلماتٍ محدّدة ؟ إنّ حالة عدم القدرة على التعبير هذه ليست بتلك الحالة الهيّنة بل هي حالة خطيرة للغاية و ستقود حتماً إلى الشعور المتراكم بالنكوص و الإنزلاق في قعر نزعة تشاؤميّة مرضيّة و هنا سيدخل المرء حتماً في خضمّ لعبة مفتوحة النهايات حيث سيتوجّب عليه تناول المزيد من العقار للإفلات من سطوة الأفكار التشاؤميّة وهو الأمر الذّي سينشأ عنه حتماً فعلٌ تدميريّ للنفس. إختبرْتُ مرّة أحد أنواع العقاقير المكيّفة للحالة العقليّة و كلّ ما استطيع قوله بخصوصها أنّني عزمتُ على عدم تناولها ثانية فقد رأيتُ فيها تجربة سيّئة إلى أبعد الحدود (**ثمّة جزءٌ مطوّلٌ في أحد فصول السيرة الذّاتيّة للكاتب يصفُ فيها بالتفصيل تجربة تناوله عقار المسكالين الّذي عناه في جوابه هذا، المُترجمة**).

*** و ماذا لو أنّ الناس إستطاعوا إستخدام هذه المكيّفات العقليّة في حيواتهم اليوميّة و بطريقة مفيدة و مثمرة ؟**

– عندئذٍ لن يكون بوسعي سوى القبول بما يريدون فعله.

*** كيف ترى الشّكل الّذي سيتطوّر إليه الوعي البشريّ في المستقبل ؟ و ما الخطوةُ التالية في التطوّر البشريّ بشكلٍ عام ؟**

– ظلّ النوع البشريّ و لعقود طويلة يتأرجحُ كبندولٍ بين نهايتيْن متنافرتيْن: المادّية الكاملة في مقابل الرغبة الشغوفة للافراد في إستكشاف قدراتهم الباطنيّة الهائلة لانّهم لطالما عرفوا أنّ ثمّة ما هو أبعدُ و أكثر قدرةً على التأثير من العالم الماديّ المحض، و قد إبتدأت هذه الرغبات الشغوفة مع الحركة الفلسفيّة الأفلاطونيّة في اليونان القديمة ثمّ تمظهرت في الحركة الرومانتيكيّة في القرن التاسع عشر و حتّى ظهور الحركات المصاحبة لإنفجارات الوعي الشاملة في أمريكا و أوربا القرن العشرين. عندما كتبتُ (اللامنتمي) كان معظم الناس ميّالين إلى الأجنحة السياسيّة اليساريّة و كان أيُّ شخصٍ خليقٍ بوصف الشخصيّة المثقّفة ذات الميول الذهنيّة العميقة يوسَمُ على الفور بالماركسيّة أو بأنّهُ من ذوي الميول اليساريّة، و كان هؤلاء يعتقدون أنّ السؤال الوحيد الجدير بالطرح و المناقشة هو: كيف يمكن لنا أن نحوز نظاماً سياسيّاً أكثر توازناً و عدالة، و تلاشت هذه النزعة في العقد الستّيني من القرن العشرين و ظهرت محلّها ثورة إنفجار الوعي و لا زال البندول يتأرجحُ اليوم بإتّجاه أن تكون الثورة في ميدان فهم الوعي البشريّ هي الجواب لإشكاليّة الوجود البشريّ بكل تفاصيلها. أرى أنّ علينا المضيّ قدماً و بثباتٍ في إستكشاف تضاريس خريطة الوعي البشريّ، و أن لا تكون ثمّة عودةٌ للبندول إلى جانب المادّية الكاملة و ذلك هو الأمر المثير الّذي أراه ينمو بقوّة عظيمة اليوم، و ينبغي علينا مغادرة التفكير بإمكانيّة العودة في حركة إرتداديّة نحو أيّ شكلٍ من أشكال الفهم الماديّ المحض للوعي البشريّ.

*** هل يمكنك أن تخبرنا ببعض التقنيّات الّتي يمكن بوساطتها إدامة تجارب الذروة في حياتنا اليوميّة، و تجارب الذروة كما نعرف هي واحدةٌ من مبتكرات صديقك عالم النفس (إبراهام ماسلو) ؟**

– أعرف ما ترمي إليه من وراء سؤالك هذا: أنت تبحث عن تقنيّة بسيطة سحريّة لتحقيق الوصول إلى تجارب الذروة. أقول لك بكلّ وضوح: لستُ أعرف تقنيّة واحدة محدّدة للوصول إلى تلك التجارب و ربّما كانت تجارب اليوغا التأمّليّة هي أفضل التقنيّات المجرّبة، و لكنّ ما أودّ التأكيد عليه أوّلاً و أراه أمراً جوهريّاً للغاية هو: ما الّذي يبغي المرءُ تحقيقه من وراء بلوغه تجارب الذروة ؟ و كيف يمكن ترتيب الأوضاع من اجل بلوغ تخوم تلك التجارب المدهشة ؟ يبدو لي أنّ ما نرمي جميعنا لتحقيقه في خاتمة المطاف هو ذلك النمط من الوعي التكامليّ Integral Consciousness الّذي كتب عنه (جين غيبسر Jean Gebser) **(فيلسوف و عالم لغويّات سويسريّ عاش في الفترة ١٩٠٥ – ١٩٧٣ و يعرف عنه بحثه الدؤوب في هيكليّة الوعي البشريّ، المترجمة)**، و الوعي التكامليّ حالة من شعور الفرد بقناعة و رضا كاملَيْن و هو مغمورٌ في سكينة اللحظة الحاضرة، و ما يحصلُ في واقع الحال أنّنا في كلّ مرّة نشعر بتعب أو ضيق ما فإنّنا بدل أن نتقبّل تلك الحالة و نحاول التعامل معها بهدوء و لين لغرض تكييفها لصالح وعينا فإنّنا نمضي في التذمّر و رفض تلك الحالة و ما تلبث ان تتفاقم الحالة السلبيّة و تتخلّقُ في وعينا آليّة من التغذية الإرتجاعيّة السلبيّة الّتي ستقود بالتأكيد إلى تثبيط طاقتنا الحيويّة و من ثمّ الإنزلاق نحو لجّة الإكتئاب المظلمة.

*** لطالما أكّدتَ في بعض كتاباتك على ضرورة أن يكون للأفراد حسّ قويّ بالوثوقيّة Certainty في أشياء محدّدة تحتويها حياتهم. أنت تعرف بالتأكيد أنّ الفيزياء الكمّية Quantum Physics تخبرنا بعدم إمكانيّة بلوغ حالة الوثوقيّة الكاملة طالما أنّ الموجودات الفيزيائيّة لا تعدو أن تكون كثافاتٍ إحتماليّة لموجات إهتزازيّة. هلّا أخبرتنا ما الّذي انت واثقٌ بشأنه في هذا العالم ؟**

– ليس ما قلتَهُ بشأن الفيزياء الكمّية دقيقاً تماماً لأنّه يمثّل وجهة نظر مدرسة كوبنهاغن في تفسير الظاهرة الكمّية في الفيزياء الحديثة، و كما هو معلومٌ فإنّ هايزنبرغ Heisenberg كان أحد أقطابها الرّئيسيين و هو ذات الفيزيائيّ الذ ي وضع مبدأ اللادقّة الّذي ينبؤنا بعدم إمكانيّة قياس موضع الالكترون و سرعته بدقّة كاملة في ذات الوقت، و من جانب آخر رأى أينشتين عدم ضرورة الإعتقاد بوجود لاحتميّة أساسيّة في الكون و أن مظاهر عدم الوثوقيّة لا تعدو أن تكون قصوراً في وسائلنا لإستكشاف العالم الفيزيائيّ، و أنا أرى نفسي ميّالاً إلى نظرة أينشتين بخصوص هذه الجدليّة الأساسيّة في الفيزياء و الفلسفة المعاصرتيّن.

*** أيّ نوعٍ من العلاقة تراه قائماً بين الجنسانيّة و الإبداع ؟**

– تبدو لي العلاقة مهمّةً للغاية: فالجنسُ واحدةٌ من أكثر الفعاليّات البشريّة الّتي نختبرُ فيها الغموض حيث يكون شعورنا مع ختام كلّ تجربة جنسيّة هو ما يحمله التساؤل: أوووووه يا إلهي !! أهذا ما أبتغيه حقّاً في هذه الحياة ؟. كان اللاتينيّون القدماء يشعرون بالحزن مع نهاية كلّ تجربة جنسيّة بسبب إحساسهم بالضياع الكامل لأنّ الجنس كان لذّتهم الوحيدة المشتهاة في هذه الحياة و أكادُ أرى أنّ تأثير سفر الجامعة

Ecclesiastes (أحد الأسفار التوراتيّة في العهد القديم من الكتاب المقدّس، المترجمة) ينطبق عليهم تماماً حيث تتواتر العبارة الأيقونيّة مع كلّ إنطفاء جنسيّ: لا شيء جديد تحت الشمس، و الكلّ باطلٌ و قبض ريح !!. يبدو واضحاً لي تماماً أنّ الجنسانيّة تلعبُ دوراً مهمّاً في العمليّة الإبداعيّة و لكن ليس على أساس أنّ الجنس يمثّلُ القلب النابض المشتعل بالحياة و الّذي ترتوي منه شعلتُنا الإبداعيّة كما عبّر عن ذلك دي. إج. لورنس في غير موضع بل أرى أنّ العلاقة هي أقرب كثيراً لما كتب عنه وليم باريت William Barrett (***) في سياق مؤلّفاته عن الوجوديّة و الجنسانيّة إذ رأى في الجنسانيّة دافعاً لشحذ القوّة و المعنى و الهدف في حياتنا. تخيّلْ شخصاً غارقاً في لُجّة الضجر و اللامبالاة و فجأةً يلمح فتاة تعلي ذيل ثوبها إلى الأعلى، و لك أن تتصوّر ذلك الرجل الغارق في حمأة الضجر و اللامبالاة كم سيغدو يقِظاً و قابضاً على زمام حواسه المتبلّدة، و هذا المثال البسيط يعلّمُنا كم يمكن للتجربة الجنسيّة أن تشحذ حَواسنا و توقظ فينا ذلك الزخم الجارف للحياة و تردع وحوش التشاؤم من الإنقضاض علينا، و لا حاجة لي للقول أنّ من غير الممكن تصوّر أيّة عمليّة إبداعيّة مع حالة الخمود و الكسل و اللامبالاة و العبثيّة.

*** تأسيساً على ما ذكرْتَهُ في إجابتك السابقة، ما الدور الّذي يمكن أن يلعبه إمتلاك حسّ بوجود هدف ما – أو بإفتقاد ذلك الهدف – في حياتنا ؟**

– إنّ واحدة من أكثر الأمور الّتي لطالما أردْتُ تأكيدها في حياتي مع الكتابة هي الأهمّيةِ العظمى لوجود إحساسٍ قويّ للغاية بوجود هدفٍ ما في حياتنا، فقد لاحظتُ منذ بعيد أنّ الكتّاب الّذين أنجزوا

أعمالاً وصِفت بالعظيمة و الممتعة هم أنفسهم الّذين كافحوا بلا هوادة في وجه كلّ الصعاب الّتي إكتنفت بداياتهم و لم يكونوا ذلك النوع الّذي يستكين أمام الصعاب و يكتفي بالقول: فليذهبْ كلّ شيءٍ إلى الجحيم !!. يمثّل بروست Proust مثالاً لذلك الكاتب المتحدّر من طبقة وسطى طيّبة الحال، و مع انّه كان كاتباً عظيماً لكنّه كان يكظمُ في داخله مرارة و تشاؤماً عظيميْن و لم أتمكّن يوماً ما من قراءة أيّ من أعماله حتّى نهايتها: ما أريد قوله هنا أنّ الصعاب و المشقّات الّتي تعترض حياتنا في بواكيرها الأولى ليست هي ما يدفعنا إلى الإنغمار في نزعة تشاؤميّة تظلّ ملازمة لنا طوال حياتنا بل على العكس أرى أنّنا متى ما كافحنا في مواجهة الصعاب و عبورها سنعرف دوماً كيف نتفاعل معها لاحقاً بغية أن لا نجعلها قادرة على كسر إحساسنا بالتفاؤل و الإنطلاق في هذه الحياة.

* غوردجييف Gurdjieff: معلّم روحانيّ أرمينيّ شبيه بالغوروهات الهنود عاش في الفترة ١٨٦٦ – ١٩٤٩ و كان له تأثير كبير في النصف الاوّل من القرن العشرين. تقوم رؤيته على أساس أنّ أغلب الأفراد يقضون حياتهم في حالة من النوم اليقظ waking sleep كما هي الحالة مع التنويم المغناطيسيّ و لكن في إمكانهم دوماً الإنتقال إلى حالة أرقى من الوعي و إختبار قدراتهم البشريّة الهائلة. كتب ويلسون كتاباً عن سيرة حياته. (المترجمة)

** المكيّفات العقليّة Psychedelics: طائفة من العقاقير – أشهرها عقار LSD – الّتي لها القدرة على التأثير في الإدراك و الإحساس البشريّين عن طريق تحفيز مستقبِلات الناقل العصبيّ الدماغيّ المسمّى سيروتونين Serotonin، و هي تنتمي

اساساً إلى طائفة أوسع من العقاقير المسمّاة المهلوِسات Hallucinoge ns. تتماثل تأثيرات هذه المكيفات مع بعض مظاهر النشوة المرتبطة بالإحساس الفائق و الّتي تحفّزها التجارب التأملية. (المترجمة)

*** وليم باريت William Barrett: فيلسوف أمريكيّ عاش في الفترة ١٩١٣ - ١٩٩٢، و كان أستاذاً للفلسفة في جامعة نيويورك للفترة ١٩٥٠ - ١٩٧٩. يعرَف عنه كتاباته الفلسفيّة الموجّهة لعامّة الناس و الّتي من أهمّها كتابه الذائع الصيت (الإنسان اللاعقلانيّ: دراسة في الفلسفة الوجوديّة Irrational Man: A study in Existential Philosophy) الصادر عام ١٩٥٨. (المترجمة)

القسم الثّاني:

الحُلُمُ بغايةٍ ما

السّيرة الذاتيّة للكاتب - الفيلسوف كولن ويلسون

١. أنْ تعيد تذكرة دخول الحياة إلى الربّ

عندما بلغت السادسة عشرة من عمري عزمت على الإنتحار، و لم يكن قراري هذا محض نزوة عاطفيّة وليدة لحظتها بل كان يبدو قراراً منطقيّاً بالكامل في لحظة إتّخاذه: فقد كنت تركت المدرسة الثانويّة في تمّوز ١٩٤٧ بعد شهرٍ من ميلادي السادس عشر و كنت أتطلّع إلى الحصول على منحة جامعيّة و لكنّ والدي أراد لي الإنخراط في العمل و المساهمة في الميزانيّة المنزليّة من غير تأخير. كان والدي يعمل في صناعة الأحذية و لطالما عمل لقاء ثلاث جنيهات في الأسبوع خلال عقد الثلاثينات و كان عليه فضلاً عن عمله الشاقّ في صناعة الأحذية أن يعمل في خدمة طلبات الزبائن من المشروبات الكحوليّة في أحد النوادي الليليّة لكي يجعل أمورنا المالية تندفع بلا عقبات خطيرة و لكنّه قلّما أفلح في مسعاه هذا، و كان أخي الأصغر (باري) قد ترك المدرسة منذ سن الرابعة عشرة ليعمل كصبيّ لأحد الجزّارين و لكم بعد هذا أن تتصوّروا كم كان والدي ممتعضاً لفكرة أن يظلّ يدعمني ماليّاً للسنوات الّلاحقة التي تتطلّبها دراستي الجامعيّة المنتظرة.

كان طموحي الأعظم أن أكون عالماً منذ أن قرأت الكتاب المثير (الكون الغامض The Mysterious Universe) الذي كتبه السير جيمس جينز Sir James Jeans و كنت حينها في الثانية عشرة، و منذئذٍ صار حلم اليقظة لديّ أن أكون الخليفة المنتظر لأينشتاين و لكنّ حلمي هذا كان يتطلّب في حدّه الأدنى أن أحصل على شهادة

البكالوريوس في العلوم، و كانت الخطوة الأولى نحو الشهادة هذه تتطلّب أن انال تدريباً جادّاً في إحدى شركات الصناعة الكيميائيّة ذات السمعة العالميّة مثل شركة الصناعات الكيميائيّة الإمبراطورية ICI بقصد الحصول على منحة ماليّة تمكّنني لاحقاً من إكمال دراستي الجامعيّة، و لكن للأسف حصل أمر قلب الطاولة على ترتيباتي هذه: فقد رسبت في الإمتحانات النهائية للمرحلة الثانويّة في مادة الريّاضيّات و كان هذا يعني وجوب إعادة أمتحاني في تلك المادة بعد ترك المدرسة، كما كان لزاماً عليّ آنذاك أن أقبل بعرض مكتب العمل بأن أعمل في مصنعٍ لمعالجة و تصنيع الصوف. كان العمل في مصنع الصوف هذا صدمةً هائلةً لي: فقد كنت أنطلق إلى العمل في الثامنة من صباح كلّ يوم و أعود إلى المنزل في السّادسة مساءً و لم تكن ثمّة فسحة لراحةٍ ما بإستثناء ساعة الغداء. كان الطابق العلويّ من المصنع مشغولاً من قبل النساء العاملات أمام مكائن النسيج و كان عملي هو ضمان تزويدهنّ بخيوط الصوف الملفوفة في هيئة كبّابات hanks و أن اجمع نتاجهنّ و أنقله إلى الطابق السفليّ من المصنع بعد توضيبه في أقفاص و قد كان عملي هذا مملاًّ كئيباً و رتيباً يدعو إلى الغثيان و كنت عندما أقود درّاجتي عائداً إلى المنزل كائناً مستنزفاً و كئيباً إلى اقصى الحدود المتصوّرة و كنت أقضي الوقت القليل المتاح أمامي كلّ مساء في المنزل في قراءة الشعر كمحاولة لاواعية ربّما منّي في بعث شيءٍ من الراحة الذهنيّة و السكينة العاطفيّة داخل روحي المرهقة الخاوية، و على الرغم من محبتي الهائلة ل (كيتس) و رفقائه من الرومانتيكيّين فقد كان مزاجي العقليّ الكئيب يجد إنعكاساً له في قراءات من نوع (الأرض اليباب) و (رجال مجوّفون) للشاعر و الكاتب إليوت.

حصل ذات يوم عندما ذهبت إلى مدرستي الثانويّة بقصد إستعارة

بعض كتب الرياضيّات أن أخبرني مدير المدرسة أنّني لو حصلت على الدرجات الإضافيّة الكافية لنجاحي في الإمتحان فسيكون في قدرتي آنئذ العمل في المدرسة كمساعد مختبر و عندها سيتوفّر لي الوقت الكافي للحصول على شهادة بكالوريوس العلوم التي لطالما طمحت إليها. كانت الفكرة مدهشةً و مقدّراً لها أن تملأني غبطةً تفوق الوصف لو كنت قد أُخبِرتُ بها قبل بضعة شهور فحسب فقد كنت أعاني من مشكلة: لم تعد لي أيّة رغبة في دراسة العلوم و فقدت حماستي لها وكنت اقضي أغلب الوقت المتاح لي في قراءة الشعر الذي صار يتلبّسني تماماً !! و لكن مع كلّ هذا شعرتُ أن ليس من الحكمة في شيءِ البوح بما يجول في خاطري لذا مضيت في التحضير بكلّ جدّية لإمتحان الرياضيّات المرتقب و حصلت على الدرجات الإضافيّة المؤهّلة للنجاح و وجدتُني قبل إحتفالات أعياد الميلاد عام ١٩٤٧ و قد عدتُ إلى مدرستي لأعمل في مختبرها و أنا أرتدي رداء المختبرات المعهود الأبيض اللون، و اتذكّر جيّداً أنّ إمتحاناتي لنيل الشهادة الثانويّة كانت تجرى في مدينة بيرمنغهام التي تبعد ثلاثين ميلاً عن مدينة ليستر التي أقيم فيها لذا كان عليّ أن أركب القطار يوميّاً طيلة أيام الإمتحانات و قد أحببت القطارات كثيراً منذ تلك الايّام فقد أتاحت لي حينها التمتّع برؤية سهول المدلاند Midland الخضراء الواسعة التي كانت تبعث على الدهشة. ذهبت ذات يوم بعد أداء الامتحان لقضاء بعض الوقت في مكتبة بيرمنغهام العامّة التي كانت أكبر بكثير من نظيرتها في ليستر، و قد تملّكني العجب و الدهشة لرؤية رفوف الكتب و هي تطاول السقف و كان ينبغي أستخدام السلالم المعدنيّة المتحرّكة للوصول إليها، و قد رأيت فيها الكثير من الكتب الّتي لطالما حلمت بقراءتها و كم تمنّيت حينها أن أكون أحد المقيمين

الدائمين في بيرمنغهام !!! و عندما وقفت وسط مكتبة بيرمنغهام العامّة ذات صباح عرفت تماماً ما الّذي أبغي أن أفعله في حياتي القادمة: أن أقضي وقتي كلّه في القراءة منذ الصباح المبكّر و حتّى الليل، و وثقت حينها انّ الكتب عالمٌ قائمٌ بذاته و لذاته و مكتفٍ بها و له من الغنى و التنوّع و الرحابة بقدر مافي العالم الحقيقيّ.

وجدتُ العمل في مختبر مدرستي الثانويّة مبعثَ راحةٍ عظمى لي بعد العناء الذي لقيته في مصنع الصوف: كان شيئاً شبيهاً بإطلاق سراحي من سجنٍ رهيب، و لكنّ مسألة تحديد مستقبلي المهني بقيت تقلقني طول الوقت إذ ظلّت تجربة عملي في المصنع تمثّل لي الجحيم لما إنطوت عليه من رتابة فظيعة، و من جانب آخر شكل فقداني لأيّة رغبة من تلك الرغبات التي كانت متوقّدة في داخلي من قبلُ مصدرَ قلقٍ مستديم لي، و كنت أسائل نفسي دوماً: ما المستقبل الذي يمكن توقّعه لي وسط تلك الظروف ؟ و كان يبدو أن ليس من مستقبلٍ ينتظرني و أن ليس من مكانٍ لي وسط هذا المجتمع الذي ليس بوسعي أن أجد فسحة كافية لمتابعة حياتي فيه. كان متوقّعاً جدّاً أن يكتشف مدير المدرسة إنعدام أيّ شغف لي أو حتّى أدنى إهتمام لي في الرياضيّات التطبيقيّة أو الكيمياء التحليليّة و أنّني حينئذ سأغدو بلا عمل بعد أن أكون قد فقدت وظيفتي في مختبر المدرسة و سيتعيّن عليّ حينها العودة إلى مكتب العمل و الإضطرار لإختيار عملٍ من بين عدّة أعمال لا تقلّ سوءً عن العمل في مصنع الصوف، و عندئذٍ صار أمراً بمثابة اليقين لديّ بأنّني سأقضي بقيّة حياتي القادمة و أنا أعمل في مهنة أمقتها بشدّة، و وجدتُني وسط هذه الأجواء المدلهمّة الكئيبة ألوذ بالأدب الذي تذوّقت في أجواءه شيئاً من بقايا راحة مفتقدة في عطل نهاية الأسبوع على أقلّ التقادير حين كنت ألتهمُ الشعر إلتهاماً و لكنّ هذا

الفعل لم يكن ليخلو من جانبٍ شديد القتامة: إذ كان ينبغي عليّ العودة إلى العمل صباح كلّ إثنين من بداية أسبوع العمل الجديد و الوقوع في حبائل معاناة جديدة، و لم يكن هذا الأمر ليخفى عن أنظار أستاذ الفيزياء الّذي كان مديري المباشر في ذات الوقت، و لم يكن لتفوتَه ملاحظة تظاهري بقناعٍ من الجدّية الكاذبة و لم يكن ليُفوّت كذلك أيّة فرصةٍ سانحةٍ لإغراقي في طوفانٍ من التعليقات المُذِلّة، و لكن لحسن حظّي إكتشفتُ وسيلة عجائبيّةً يمكن لها أن تحفظ شعور المرء بوجود غرضٍ ما في حياته: الكتابة.

بدأت الكتابة بتجربة كتابة قوائم أشبه بيوميّات تحتوي على توصيفٍ لفعالياتي اليوميّة ثمّ بدات أدوّن فيها كلّ ما أشعر به أو أفكّر فيه، و استعرت ذات يوم كتاباً من مكتبة مدرستي الثانويّة بعنوان (ما أعتقدُ فيه I Believe) كان خلاصةً لعبارات ايقونيّة ذكرها أشخاص لامعون و مميّزون من أمثال: أينشتاين، جوليان هكسلي، إج. جي. ويلز،،، و في أحد أيّام الاحد و بعد أن أمضيتُ معظم الصباح في عملي المختبريّ مضيت و إبتعتُ كتاب ملاحظاتٍ ضخماً و جلست في أحد الأمكنة لأُدوّن عبارتي الخاصّة فيما أعتقده أسوة بهؤلاء المميّزين الذين قرات عنهم في الكتاب، و كانت عبارتي كاشفةً لما أعتقد فيه و لمكانتي الخاصّة التي كنت أفترضها في هذا العالم، ثمّ وجدت العبارة الواحدة البسيطة قد تضخّمت و إستحالت صفحة كاملة، و مضيتُ أكتب الصفحات واحدة بعد الأخرى و أنا في حالةٍ من الشعور الطاغي بالحرّية و التحرّر من أيّة قيود !!، و كنت أدوّن بقدر مقبول من الموضوعيّة - كما كنت أحسب حينذاك - تشخيصي الشخصيّ لشكوكي و آلامي و المنغّصات التي تعترض حياتي، و بعد أن وضعت القلم جانباً و إنتهيت من ساعات طويلة من الكتابة غمرني

إحساسٌ عارمٌ بأنّني لم أعُد ذلك الشخص الذي كنته من قبلُ و الذي جلس قبل ساعاتٍ ليدوّن هذه الملاحظات على طاولة الكتابة: كانت حالتي آنذاك تبدو كمن يدقّق النظر في صورته التي يراها في المرآة و يعرف عنها أشياء جديدة لم تكن لتخطر له على بالٍ من قبلُ، و منذ تلك اللحظة صارت الكتابة لي بمثابة البِئر العميق الذي أطرح فيه كلّ ما يمثّل عائقاً أمامي من قلقٍ و شكٍّ متعب في قدراتي الذاتيّة و تعلّمت أنّني عندما أفعل هذا أعيش بعدها في حالة تفاؤليّة جميلة و داعمة لنوعيّة الحياة التي أعيشُها.

كنتُ أقضي جميع عطل نهاية الأسبوع و أنا منغمسٌ في الكتابة مستعيداً حالة التفاؤل المبهجة التي تمنحها الكتابة، و لكن ظلّت مشكلتي المستعصية قائمة: إذ كان يتوجّب عليّ ان أبدأ كلّ أسبوعٍ بتوبيخٍ مُذِلٍّ من أستاذ الفيزياء، و بالحيرة التي تلتهم روحي و توخز ضميري و أنا أتطلّعُ في منحنيات البلوَرَة الخاصّة بهيدروديناميك الموائع غير القابلة للانضغاط !!! و لم يكن مخزوني من حالة التفاؤل التي تُعمّر قلبي و روحي أيّام العطل لتقاوم اكثر من بضع ساعاتٍ حتّى ظهيرة يوم الإثنين من كلّ أسبوع و عندها أشعر أنّ عقلي قد إستحال كتلةً ميّتةً غير قادرةٍ على الإتيان بأيّ نوع من الأفعال الحيويّة التي تسِم الاحياء !!!. أذكرُ كيف عدتُ عصر أحد الأيام التعيسة إلى المنزل وقت شاي العصر لأجد المنزل خالياً فوجدت الفرصة سانحةً أمامي لأُفرّغ إحباطي المتراكم في دفتر ملاحظاتي، و كان الجوّ آنذاك حارّاً للغاية و شعرت بإعياءٍ شديد ثمّ بعد ان إنغمست في ساعة متّصلة من الكتابة اللذيذة بدأت اشعر بثقل مميت ينزاح بعيداً عن كاهلي و إجتاحني طوفانٌ من الراحة كما لو انّ دلو ماءٍ مثلّج إندلق على جسدي في تلك الأجواء الحارّة، و لكن ما أسرع ما عاودني شعور الإكتئاب الخانق

لانّني كنت على يقين كامل بانّ شعور الضجر و الإحباط سيجتاحني في نفس الوقت من اليوم التالي مثلما جرت العادة كلّ يوم، ثمّ إنتهيتُ إلى القناعة بأن لم يعد الأمر منطقيّاً في المضيّ بحياتي على هذا النحو المرعب و كنتُ حينئذٍ في أشدّ حالات الغضب من الله أو القدر أو أيّ شيء أخر شكّلني على تلك الهيئة المزرية ثمّ قذفني في هذا العا لم القاتل ليجعل منّي عرضةً لسيلٍ لا ينتهي من التوبيخات المذلّة و الجارحة من جانب المسؤولين عن أمور عملي، كما تملّكني شعورٌ طاغ بأنّ الحياة ليست شيئاً حقيقيّاً و ما هي إلّا اكذوبةٌ و أنّ الزمان نوعٌ من أنواع الخداع نمارسه مع انفسنا،،، و عندئذ بدأت أتساءل: لِمَ يتوجّبُ عليّ المضيّ في هذه اللعبة السخيفة التي لاجدوى ترتجى من ورائها ؟ أليس الأفضل لي أن أتخلّص من كلّ هذه الأوهام بان أدير مؤخّرتي نحوها إحتقاراً لها ثمّ أمضي و أقتل نفسي بهدوء لأضع حدّاً حاسماً لمعاناتي القاسية ؟ !!، و في اللحظة التي راودتني فيها فكرةُ قتلِ نفسي شعرت براحة كاملة ثمّ أدركت أنّني مسؤولٌ مسؤوليّة كاملة عن نفسي و عن قدري، و أنّ الله إذا كان مسؤولاً عن قذفي في خضمّ هذه اللعبة المميتة و السخيفة في ذات الوقت فلستُ مُرغماً بأيّ حال و تحت أيّ ظرف أن أستمرّ في اللّعب بالطريقة المفروضة عليّ، و عندما ركبت درّاجتي لاحقاً ذلك اليوم و مضيتُ للإلتحاق بحصّة الكيمياء في المدرسة وسط أجواء الحرّ الخانقة كنتُ أشعر بنفسي قويّاً و متعالياً على وقائع الحياة اليوميّة العاديّة و متجاوزاً لحالة الضعف و الإنكسار الذليل، و كعادتي وصلتُ الصفّ متاخّراً و نِلتُ حصّتي المقرّرة من توبيخ الأستاذ بلا أدنى علائم الاهتمام بما يحدث من جانبي، و عند اوّل فرصة سانحةٍ تسلّلتُ إلى غرفة المختبر الثانية الّتي صُفّت فيها رفوفٌ عليها زجاجات المحاليل و المواد الكيميائيّة، فتناولتُ قنّينةً

تحوي حامض الهيدروسيانيك و أزحت غطاء القنّينة و بدأت رائحة اللوز النفّاذة المنبعثة من الحامض تتسلّلُ عبر انفي و كنت أدركُ تماماً أنّ رائحة هذا الحامض ستتكفّلُ بقتلي في أقلّ من نصف دقيقة !!، ثمّ حصل أمرٌ غريب: أحسستُ بنفسي كائنين متمايزين عن بعض، و في برهة وعي عجيب تأمّلتُ ذلك المراهق النزق المدعوّ (كولن ويلسون) بكلّ بؤسه و إحباطه و بدا لي كائناً أحمق لا يستحقّ أن أعيره أدنى إهتمام سواءٌ قتل نفسه أم لم يفعل، و لكنّ المعضلة كانت انّه إذا مضى و قتل نفسه حقّاً فسيقتلني أنا الآخر معه !! و في لحظةٍ وجدتُني أقف بجانب ذلك الغِرّ و أهمس في أذنه: إنّك ما لم تبطل عادة الإشفاق على الذات المستحكمة فيك فلن يكون في مقدورك فعلُ شيءٍ ذي قيمة في هذه الحياة، و أذكر كيف أنّ ذاتي الحقيقيّة أخبرت ذلك المراهق البائس: " تريّث أيّها الاخرق و تفكّر كم ستخسر عندما تمضي في إنتزاع روحك من جسدك "،،، و في تلك اللحظة الغرائبيّة كان في وسعي أن استشعر الغنى السحريّ العميق و الهائل الذي يحوزه العا لم الحقيقي ممّا لم يكن بوسعي رؤيته أو تحسّسه من قبل، ثمّ إمتدّ ذلك الإحساس الجارف ليأخذني معه بعيداً نحو آفاقٍ لم أعهدها أبداً من قبلُ. أعدت غطاء قنّينة حامض الهيدروسيانيك القاتل إلى موضعها، ثمّ تسلّلت بهدوء إلى صفّ الكيمياء التحليليّة وأنا أشعر بإسترخاء عميق و بخفّة في القلب و قدرة على ضبط النفس لم أختبر مثيلاً لها في حياتي، و من المثير للغاية أن أذكر أنّني و بعد أربعين سنة من محاولتي الإنتحاريّة هذه أخبرتني السيدة (مارلين فيرغسون) و نحن نتمشّى على ساحل إحدى البحيرات في كاليفورنيا أنّها لطالما آمنت أنّ كلّ من أنجز عملاً ذا أصالةٍ يعتدُّ بها في حقل الأدب أو الفلسفة قد إختبر حتماً تجربة أن يكون على شفير هاوية الانتحار يوماً ما في حياته، و

بالنسبة لي فأنا أظنّ أن تجربة الإنتحار توفّر للمرء إمكانيّة فريدة – لا تُتاح لآخرين – في معاينة الهاوية السحيقة الّتي هو مُزمعٌ على الرحيل إليها و هنا تتحقّق له قدرة عجائبيّة في الفصل بين ذاته الحقيقيّة المبدعة بكلّ ما تحوزه من فرادة و بين ذاته الأخرى النزقة العابثة، و في هذه اللحظة المفصليّة تستحيل تجربة الإنتحار نوعاً من إعادة ولادة لذاتٍ خلّاقة عجزت عن رؤية إمكاناتها الثمينة قبل هذه التجربة الفريدة.

عندما بدأتُ عام ١٩٥٥ بكتابة كتابي الأوّل (اللامنتمي The Outsider) كنتُ أعرف منذ لحظة الشروع في الكتابة أنّ ثيمة الكتاب الأساسيّة ستبحثُ في إستكشاف مدى حسّاسيتنا أزاء فعل الإنتحار، و كان لديّ إطّلاعٌ كافٍ بما كتبه (ألبير كامو) في كتابه (أسطورة سيزيف The Myth of Sisyphus) الّذي أعلن فيه أنّ موضوعة الإنتحار هي السؤال الأوحد الذي يستوجب التنقيب الفلسفيّ الجاد في هذه الحياة، و كانت لديّ أنذاك قائمة بعددٍ من المبدعين الذين قضوا إنتحاراً: كلايست Kleist (**شاعر و كاتب دراما و روائي و كاتب قصّة قصيرة عاش في الفترة ١٧٧٧ – ١٨١١، المترجمة**)، بيدوس Beddoes (**طبيب و شاعر و كاتب دراما بريطاني عاش في الفترة ١٨٠٣ – ١٨٤٩، المترجمة**)، ستيفتر Stifter (**كاتب و شاعر و رسّام نمساوي عاش في الفترة ١٨٠٥ – ١٨٦٩، المترجمة**)، فان كوخ Van Gogh، هارت كرين Hart Crane (**شاعر أمريكي عاش في الفترة ١٨٩٩ – ١٩٣٢، المترجمة**).

كنت مأخوذاً على وجه التخصيص بالفنّان فان كوخ الّذي لطالما أكّد على قوّة الحياة و دفقها العارم في أعماله الكنفاسيّة و بخاصّة في عملَيه الفريدين: (الليلة المرصّعة بالنجوم The Starry Night)

و (الطريق المحفوف بأشجار السرو The Road with Cypresses) الّذي تبدو فيه الأشجار مثل مشاعل خضراء تمتدّ في إتّجاه النجوم المتلألئة، و ما أثار إنتباهتي و ظلّ عالقاً في ذاكرتي أنّ فان كوخ بعد أن إنتحر بإطلاق رصاصة في معدته ترك ورقة كُتِب فيها (البؤس لن ينتهي أبداً) و بدا فان كوخ و كأنّه يلخّص في ملاحظته القصيرة هذه ما سبق أن كتبه (كارلايل Carlyle) فيما يخصّ (نعم) الخالدة في مقابل (لا) الخالدة. كان السؤال الّذي مضيت في مقاربته في كتابي (اللامنتمي) هو: " أيّهما سيكتب له الثبات و الإنتصار: (نعم) الخالدة أم (لا) الخالدة ؟ "، و على الصعيد الشخصيّ كنت ميّالاً إلى جانب (نعم) لأنّ (لا) بدت لي مؤسّسة على موقف ضعيف لأناسٍ مفتقدين إلى الإنضباط الذاتيّ و منغمسين في نزعة تشاؤميّة تبدو دوماً أكثر تأثيراً و جاذبيّة من الناحية الفنّية.

حضرتُ أحد الأيّام في أواخر الثمانينات حلقة دراسيّة ليوم واحد ممتدّ في مركز بلايموث للفنون، و شاركني في هذه الحلقة كلّ من الشاعر (ديفيد غازكوين David Gascoyne)، و المختصّ بالسايكولوجيا (آر. دي. لينغ R. D. Laing)، و كانت لي معرفة مسبّقة بالشاعر غازكوين منذ أيّام نشري لكتاب (اللامنتمي) و لطالما أعجِبتُ بشعره المتخم بالرؤى الدينيّة فيما لم يكن سبق لي أن قابلتُ لينغ بإستثناء لقاء عابر تشاركنا فيه حضور إحدى الحلقات النقاشيّة ضمن سلسلة محاضرات (العصر الجديد New Age) المعقودة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة و كان لقاؤنا ذاك فرصة له ليخبرني بأنّه عقد العزم على كتابة كتابه الأوّل الّذي إختار له عنوان (الذات المنقسمة The Divided Self) بعد أن قرأ كتابي (اللامنتمي) و صمّم أن يكتب كتاباً يماثل كتابي من حيث قدرته على أرتقاء مراتب النجاح و الشهرة التي أحرزها

كتابي. حاضرَ غازكوين ذلك اليوم عن السرياليّة و كانت رؤيته تقوم على أساس أن الحياة بذاتها تعجّ بأشكال الغرابة و أنّها لوحة سرياليّة خالصة فيما حاول لينغ عرض فكرته الّتي رأى فيها أنّ المعتلّين عقليّاً ليسوا بمرضى حقيقيّين بل هم يعكسون بكلّ بساطة المرض المتجذّر في مجتمعنا، أمّا أنا فمضيتُ في تبيان الأسباب التي دفعتني إلى رفض (الوجوديّة التشاؤميّة) الّتي إنتهى إليها (سارتر) و (كامو)، و بيّنت أيضاً أوجه مسعاي في خلق شكلٍ جديد من الوجوديّة يقود بالضرورة إلى نتائج تعزّز النزعة التفاؤليّة في الحياة، و عجبتُ كثيراً عندما بدا لي أن صديقيّ (غازكوين) و (لينغ) تعاملا مع فكرتي هذه على نحوٍ شخصيّ محض: فعندما طُلب منّا منظّمو الحلقة الدراسيّة أن نتوجّه نحو المنصّة الاماميّة أخبرني الإثنان أنّني إذا كنت قادراً على الإحتفاظ بنزعتي التفاؤليّة فذلك لأنّني ضحل الفكر و أفهم الأمور الجوهريّة بطريقة سطحيّة !! و ما أثار دهشتي أكثر أن الإثنين لم يبذلا أيّ جهدٍ لتوضيح وجهة نظرهم القاسية تجاهي بل تصرّفا معي كتلميذي مدرسة عملاقين يجتمعان على ضرب تلميذٍ آخر أصغر منهما سنّاً !! و حينها أدركت أنّ موقفي التفاؤلي الذي عبّرت عنه أثناء كلامي في الحلقة الدراسيّة كان بمثابة إهانةٍ و تحدٍّ شخصيّ لهما الإثنان لذا لم يحاولا مناقشتي على صعيد الأفكار بل إكتفيا بأخذ الأمور على محملٍ شخصيّ متعصّب و ضيّق فحسب، و عندما تفحّصتُ بهدوءٍ الأسباب وراء هذا السلوك لاحقاً بدأتُ بتفهّم الدوافع الكامنة وراءه: عانى غازكوين إنهياراتٍ عصبية عديدة في حياته و لطالما وشت عيناه بشخصيّته التي تبدو مسكونة بالأشباح منذ عهد بعيد، أمّا لينغ فكان مدمناً على المشروبات الكحوليّة و هو الأمر الّذي قاده في النهاية إلى فقدان ترخيص العمل الرسميّ بممارسة مهنته كطبيبٍ متخصّص في

السايكولوجيا و لم أكن أعرف هذه الحقيقة عنه إلّا بعد أن قرأت سيرته التي نشرت بعد وفاته عام ١٩٨٩.

كان (غازكوين) و (لينغ) لا منتمين حقيقيّين بسبب حساسيّتهما المفرطة – القريبة من تخوم الحساسية المرضية – تجاه (نعم) الخالدة في مقابل (لا) الخالدة و بذات الطريقة الّتي فعلها صديقي الشاعر تشارلز غاردنر Charles Gardiner عندما عنوَنَ سيرته الذاتية بهذا العنوان الصادم (الجواب أزاء الحياة هو لا The Answer to Life is NO) و تلك هي ذات النتيجة التي إنتهى إليها (غازكوين) و (لينغ) و هو الامر الذي يفسّر سبب إعتبارهم أيّة نزعة تفاؤليّة كما لو كانت نوعاً من الإنتقاد المباشر تجاه ذواتهم. إنّ ما فشل (غازكوين) و (لينغ) في إستيعابه و تمثُّله عقليّاً هو أنّ هذه النزعة التفاؤليّة ليست مسألة مزاجٍ شخصيّ بل هي مسألة منطق في المقام الأوّل: كانت نقطة الشروع لديّ عندما بدأت كتابة (اللامنتمي) هو تفحّص حيوات حفنةٍ من رومانتيكيي القرن التاسع عشر من الذين خبروا فتراتٍ من الغبطة الفائقة و الرؤى التي غمرتهم بالتفاؤل و الثقة ثمّ نهضوا صباح اليوم الثاني ليتساءلوا ما الّذي يعنيه كلّ هذا الّذي خبروه و انغمروا في أتونه ؟ و أحسبُ أنّ الكثير منهم فقدوا عقولهم أو أنهوا حياتهم إنتحاراً بعد أن إنتهوا إلى القناعة الكاملة أنّ " الجواب أزاء الحياة هو لا " و أنّ الحياة في جوهرها مأساويّة، و أنّ (برهات الرؤية) الملهمة الّتي أُتيحت لهم مُقدّرٌ لها أن تتبخّر تاركة وراءها العدم و لا شيء سواه.

قارنَ (بوشكين Pushkin) قلب الشاعر بفحمة سوداء تستحيل قطعة متوقدة عندما تهبّ رياح الإلهام عليها ثمّ تغدو جمرة خابية بعد إنحسار الريح عنها، و بدا واضحاً لي تماماً أنّ معظم اللامنتمين

الذين كتبت عنهم قد إختبروا هذه التجربة و رأوا في الحياة فعالية باعثة على أشدّ أنواع الملل تدميراً: شيء شبيه بذاك الذي كتبه ليزلي آدم في عمله الدراميّ (Axel) قائلاً " بالنسبة إلى العيش فإنّ ذلك أمرٌ يستطيع خُدّامنا أن يفعلوه نيابةً عنّا !! ". يبدو واضحاً للغاية أنّ المعضلة الفتّاكة بالنسبة لهؤلاء تكمن في كيفيّة إستعادة (لحظات الإلهام) و الإمساك بها و بدا لي أيضاً أنّ ما تحتاجه الكائنات البشريّة هو شكلٌ من اشكال الطَّرق على مقدّمة جباههم – مثلما نفعل مع موقد البريموس – بقصد تعظيم قدرتهم على تخليق الرؤى الملهمة، و مع أنّ الكثيرين تملّكتهم على نحوٍ إستحواذيّ مخيف فكرةُ أنّ الكحول أو المواد المخدّرة بإمكانها النهوض بهذه المهمّة و لكن من الواضح أنّ لهما تبعاتهما المدمّرة للروح البشريّة، و كانت قناعتي الحاسمة هو الايمان بوجود وسيلةٍ أخرى تقود إلى بعث الرؤى الملهمة من غير نتائج تدميريّة تنتهي إلى الخراب المطبق.

في عام ١٩٦٢ بدأت أولى وشائج معرفتي الشخصيّة بعالم النفس الأمريكيّ (أبراهام ماسلو Abraham Maslow)(*)الّذي يعدّ أوّل من شخّص في كتاباته ما بات يعرف اليوم (التجارب الذرويّة Peak Experiences) التي يمكن وصفها ببساطة بأنّها شعورٌ ببرهاتٍ من السعادة الطافحة المتفجّرة، و كانت إحدى الأمثلة المعياريّة لهذه التجارب الفريدة هي تلك التي كتب عنها ماسلو واصفاً حالة أحد طلّابه الجامعيّين من دارسي الجاز و الذي وجد نفسه صباح أحد الأيّام ممتلئاً بطاقة عجائبيّة متفجّرة و راح يعزف الجاز بطريقة مثاليّة تخلو من أيّة شائبةٍ في الأداء.

رأى ماسلو أنّ التجارب الذرويّة كانت تحدث بمحض الصدفة

و ليس ثمّة من وسيلةٍ لحثّها إرادياً، و لم أكن أشاطره الرأي بعد أن شهدت أنّ كثرةً من هذه التجارب يمكن أن تحدث في مواقف متباينة: بعد جهدٍ طويلٍ متّصل، أو بعد إنزياح شدٌّ نفسيّ أو جسديّ مفاجئ عن كاهل المرء مع ما يعقب هذا الإنزياح من دفقة راحة و إسترخاء، و لم أكن أنا نفسي إستثناءً من هذه التجارب الذرويّة و أستطيع ان أزعم أنّ واحدةً منها على الأقلّ حدثت معي في منتصف الستّينات عندما كنت أقود سيّارتي عائداً أنا و عائلتي من أسكتلندة و كنّا قد إنطلقنا من لارنكشاير. ظننت في البدء أنّ رحلتنا ستمتدّ لمسافة حوالي مائة ميل، و بعد أن أمضيتُ قرابة الساعة في قيادة السيّارة أدركت كم كنت مبالغاً في تخمين المسافة من موضع إنطلاقنا حتّى بلوغنا الحدود الفاصلة بين أسكتلندة و إنكلترا إذ شاهدتُ علامةً تشيرُ إلى أنّ أمامنا قرابة عشرة أميالٍ لنبلغ الحدود الإنكليزيّة و هذا يعني أنّ (ليدز) صارت قريبة منّا ففكّرت حينها أن بإمكاننا زيارة صديقٍ قديم لي يقيمُ هناك و ربّما قضاء الليلة بأكملها في منزله، و أذكر كيف أنّ إدراكي باننّا كنّا أقرب إلى الحدود الإنكليزيّة ممّا كنت أظنّ ملأني بغبطة عارمة لم أشهد مثيلاً لها من قبل و بخاصّة انّ ذلك الصباح كان رائعاً و مشمساً فرأيت مزاجي مشحوناً بطاقةٍ جيّاشة من التفاؤل الطاغي، ثمّ تصاعد مزاجي التفاؤليّ مع رؤيتي للمرتفعات العظيمة في مقاطعة البحيرات المحاذية للحدود الأسكتلنديّة - الإنكليزيّة ماثلة في الأفق أمامي و لطالما كانت هذه المنطقة واحدة من أجمل المناطق و أحبّها عندي و أعرف تضاريسها الجغرافيّة بأعلى مايمكن من الدقّة و التفصيل، ثمّ إجتاحني إحساسٌ غريب فوجدتُني قادراً على رؤية ما يقع على الجانب الآخر من المرتفعات و لست هنا أعني أن المرتفعات صارت شفّافةً بطريقة مباشرة و حرفيّة و لكنّ ما أعنيه أنّني صرتُ كطيرٍ يمتلك

القدرة على رؤية ما يقع على جانبَي تلك المرتفعات و هو يحلّق في الأقاصي العالية و إمتدّ هذا الشعور المكثّف المقترن بالإدراك الفائق حوالي ساعة أو أكثر بقليل.

إكتشف ماسلو و بطريقة تدعو للدهشة أن طلبته الجامعيّين عندما كانوا يناقشون تجاربهم الذروية مع بعضهم كانت تجاربُ ذرويةٌ جديدة تنهال عليهم طوال الوقت و لم يكن ذلك بالأمر الذي يمكن إغفاله بالنسبة لأيّ عقل مدرّب و عين مستبصرة. تعيش الكائنات البشريّة أيّامها الإعتياديّة و هي مقيّدة دوماً إلى نمطٍ من المحدوديّات الطبيعيّة و تستجيب هذه الكائنات تبعاً إلى ما يواجهها من التحدّيات و المشاكل اليوميّة و هذه الإستجابة المزمنة هي ذاتها ما يقيّد الإمكانات الهائلة للوعي البشري و آفاقه غير المستكشفة، و إنّ ما يميّز الحديث المتواتر عن التجارب الذرويّة أنّه يتيح إمكانيّة أن نختبر كم نحن محظوظون في إختبار حالاتٍ لم يختبرها غيرنا و هذا ما يمنحنا سطوةً قويّة لتجاوز المقيّدات و المحدوديّات المفروضة على وعينا البشريّ: المسألة بالضبط كمن يدرك أنّه يمتلك مالاً في البنك أكثر بكثير ممّا كان يظنّ، أو بالعودة إلى مثال تجربتي الذرويّة الأولى عندما أدركت أنّ الحدود الإنكليزيّة هي أقرب بكثير ممّا ظننت لحظة شروعي في القيادة و عندها توفّر لي المزيد من الطاقة الايجابيّة التي بإمكانها ان تجترح بدورها تجارب ذروية جديدة.

حاجج ماسلو لاحقاً أنّ تجربتي الذرويّة عند قيادتي السيارة من أسكتلندة إلى أنكلترا كانت وهماً ناتجاً عن خطأ في إحتساب المسافة و لم تكن أكثر من محض مصادفة و حسب و حصل أن وافقته الرأي آنذاك و لكن كان ثمّة موقف آخر في كانون ثانٍ ١٩٧٩ عندما

إنغمرت في تجربة ذروية و لكن بعد جهدٍ محسوب و مدبّر من قبلي و ليس بمحض الصدفة العابرة: كان عليّ يوم السبت ٣٠ كانون أوّل ١٩٧٨ أن أسافر إلى قرية تدعى (شيبووش Sheepwash) في مدينة ديفون الإنكليزيّة و إلقاء محاضرة هناك، و كان الجوّ ممطراً عندما شرعت في رحلتي، و بعد أن وصلت مدينة (لونسستون Launceston) بدأ المطر يستحيل كرات ثلجيّة. وصلت مزرعة تدعى (توتلاي بارتون Totleigh Barton) متأخّراً بعد الظهر و حاضرتُ في مجموعة من الطلبة في الشعر بعد أن تناولنا وجبة الغداء، و عندما ذهبت تلك الليلة إلى الشاليه المخصّص لي كان الثلج قد تكوّم بهيئة طبقة سميكة و كان لايزال يهطل بشدّة و بدا واضحاً لي صباح اليوم التالي أن ليس في مقدوري أن أقود سيّارتي و أعود إلى منزلي لذا إتّصلتُ هاتفيّاً بزوجتي و أخبرتها أنّني قد أعلق في القرية بسبب الثلج لبضعة أيّام قادمة، و أذكر ذلك اليوم جيّداً لانّه تصادف مع ليلة رأس السنة و كان يوماً شديد البرودة حتّى أنّ المياه تجمّدت في صنابير المياه. ركبتُ سيّارتي صباح اليوم التالي - المصادف بداية السنة الجديدة ١٩٧٩ - و صعدتُ المنحدر المتصل بالطريق العام و مضيت في طريقي عائداً إلى المنزل. كانت الطرقات ضيّقة للغاية في المدينة و كان على كلّ جانب من الطريق خندق لتجميع مياه الامطار و تيقّنتُ منذ البدء أنني إذا إنزلقت بفعل الجليد إلى أحد الخندقين الجانبيين فسأعلق حينها في ورطة كبيرة و لن يكون بإمكاني الخروج إلّا إذا توفّرت لي القدرة على الإتّصال بخدمة الإنقاذ التي قد تتأخّر كثيراً في تلك الأجواء الصقيعيّة القاسية، و لمّا كان كلّ شيء غارقاً في الجليد فلم أكن قادراً علي تمييز الحدّ الفاصل بين الطريق و الخندق الجانبي المحاذي له من كلا جانبيه و هكذا جلست خلف مقود السيّارة في سكينة مطبقة و

رحت أقود السيّارة واضعاً جهاز تبديل السرع الميكانيكي على النمرة الثانية مكتفياً بالتحديق في زجاج السيارة الامامي في تركيز تامّ، و قد إستغرق الامر أكثر من ساعتين من القيادة للوصول إلى طريق إكستر العام حيث كان الجليد هناك قد إستحال طيناً ملوّثاً بالأوساخ و عندها صار بإمكاني ان أسترخي قليلاً بعد أن زال خطر الإنزلاق المفاجئ للسيّارة عنّي و هنا إكتشفت أمراً باعثاً على أشدّ حالات الدهشة: إنّ ساعتين من التركيز المحموم على الطريق خشية الإنزلاق و الوقوع في الخندق الجانبي إستحثّ فيّ حالة من الوعي المفارق للوعي الإعتياديّ و كان كلّ شيء يبدو لي مثيراً و باعثاً على الغبطة بطريقة لم أعهدها في الأحوال الإعتياديّة من قبلُ حتّى أنّ الاكواخ التي كنت أراها على جانبي الطريق بدت لي أماكن مدهشة للعيش و كم كنت راغباً في التوقّف عند كلّ كوخ منها و معاينته بتدقيق عظيم !!. دامت حالة الوعي المكثّف هذه معي طوال قيادتي نحو منزلنا و عندما إقتربت من المنزل وجدت الكهرباء مقطوعة عن المنزل و كانت زوجتي واقفة في الفناء أمام المنزل و هي تحمل مصباحاً يدويّاً تضيئُ به طريق تسعةِ من الجراء الصغيرة التي أطلقتها لتكون دليلاً لي عند إقترابي من المنزل.

أثبتت تجربتي الذرويّة هذه لي بصورة بعيدة عن أيّ شكّ أنّ ماسلو كان مخطئاً في تصوّراته و أنّ حالات الوعي العميق المفارق للوعي الإعتيادي و المقترن بالغبطة العارمة يمكن حثُّها و تخليقها بواسطة التركيز الكامل و الشامل ثمّ إكتشفت بعدها التكنيك الأساسيّ القادر على حثّ التجربة الذرويّة: عندما نكونُ في حالة ضجرٍ فإنّنا نسمح لطاقتنا الحيويّة الداخليّة أن تتسرّب خارجنا و عندها يبدو العالم لنا على نحو مفاجئ مكاناً كئيباً و مضجراً إلى أبعد الحدود المتصوّرة و كأنّ الامر يتبع القاعدة التالية: عندما تكون حماستُنا الداخليّة واطئة

فإنّ كلّ شيء خارجنا يبدو مضجراً، و من جهة أخرى عندما نكون في حالة إنتظار أمرٍ أو شيء يجلب لنا السعادة و يفجّر حماستنا الداخليّة – حتّى لو كان أمراً ضئيلاً مثل تناول وجبة عشاء جيدة – فإنّ أمراً ما بداخلنا سيعمل على منع تسريب طاقتنا الداخليّة نحو الخارج و عندها يبدو العالم مكاناً مشرقاً و مفعماً بالحياة، و بالإستناد إلى هذه الفكرة يمكن المضيّ في ممارسة حيلة صغيرة باستطاعتها أن تستحثّ في داخلنا حالة من الإستيعاب الممتع – عبر استخدام ماكنة الخيال الجبّارة – لحالة الإنتشاء الناجم عن الحرية الداخليّة التي تقود إلى الحفاظ على طاقة حماستنا الداخليّة و منعها من التسلّل خارج ذواتنا. يمكن تشبيه هذه الحالة الفريدة بحضور حفلة كونسرت و المكوث في حالة إنتظار لمايسترو الفرقة حيث يكون ثمّة متّسع لتبادل الإشاعات و تشتيت الإنتباه في أمور بعيدة عن الموسيقى تماماً، و لكن ما أن يظهر المايسترو يتوجّه جميع الحضور بأنظارهم إليه و تختفي الهمهمة و اللغط فوراً و يغدو الجميع مشتركين في فعالية مشتركة واحدة.

إنّ ما يحدث عندما تغمرنا حالة الملل و الضجر أنّنا نشعر أن ما من شيءٍ خارج ذواتنا يستحقّ لفت إنتباهنا إليه، و لكن ثمّة مغالطةٌ أساسيّة هنا و هي ذات المغالطة التي بدأت بفهمها عندما قدتُ سيّارتي عائداً إلى منزلي في التجربة التي سبق و تحدّثت عنها: إنّ تركيز و تكثيف إهتمامي خوفاً من إنزلاقي المفاجئ و الوقوع في فخ الخندق الجانبي خلق في داخلي ما يمكن تسميته " طاقة الملاحظة "، و عندما إستطعت أن أؤمّن نفسي من خطر الوقوعِ في هذا الفخّ صار بإمكاني أن أسترخي طوال الطريق و هو ما مكّنني من رؤية الخارج بعيون جديدة جعلتني أدرك كم انّ هذا الخارج ممتع و باعث على الدهشة و هو الأمر الذي دفعني إلى التدقيق أكثر في خفايا الدهشة المستترة التي يحتويها

عالمنا و التي لا يمكننا ملاحظتها في الأحوال الإعتياديّة، و يقود هذا الإدراك إلى زيادة جرعة الطاقة الإيجابيّة المختزنة في داخلي و هكذا تدور الأمور في حلقة من " التغذية الإرتجاعيّة الإيجابيّة Positive Feedback " على عكس نظيرتها من " الطاقة الإرتجاعية السلبية " حيث الضجر يولّد المزيد من الضجر !!، و أعترف الآن أنّ الغرض الأسمى في كلّ حياتي كان معرفة كيفيّة خلق هذه التغذية الإرتجاعيّة الإيجابية بطريقة الفعل الإراديّ الواعي لا بإنتظار ما تجود به علينا المصادفات المدهشة و حسب.

* أبراهام ماسلو: عالم نفس امريكيّ ولد عام ١٩٠٨ و درّس في جامعات أمريكيّة عديدة مثل: كولومبيا، برانديس،،، و تعزى إليه نظرية التدرّج الهرمي للحاجات الإنسانية، و له العديد من المؤلّفات منها (الأديان و القيم و التجارب الذرويّة Religions ، Values & Peak Experiences)، و قد أكّد في معظم كتاباته على وجوب التركيز على السمات الإيجابيّة للأفراد بدل التعامل معهم بإعتبارهم سلّة من الأعراض السايكولوجيّة. كتب فيه ويلسون كتابا عنوانه: " مدخل جديد الى السايكولوجيا: ابراهام ماسلو و الثورة ما بعد الفرويدية " عام ١٩٧٢. توفّى عام ١٩٧٠. (المترجمة)

٢. الرّومانتيكيّ العدميّ

عندما بلغتُ قرابة الرابعة عشرة من عمري أخبرتني والدتي بتفاصيل اللحظة التي قادت إلى حملها بي: كانت هي و والدي الذي كان في التاسعة عشرة يومذاك يودّعان بعضهما بعد لقاءٍ خارج بوّابة الحديقة و شعرا فجأةً بدافع قويّ يدفعهما إلى الإلتحام الجسديّ الكامل،،، حصل هذا في أواخـر أيلول ١٩٣٠، و بعد شهرين كاملين من غياب دورتها الشهريّة راجعت والدتي طبيباً فاخبرها انّها حاملٌ، و عندما أخبرت والدي بالأمر قرّر فور سماعه أن يتزوّجها في عيد الميلاد من تلك السنة. علمتُ لاحقاً أنّ (كوني Connie) الشقيقة الكبرى لوالدتي هي من دفعها للوقوع في حبائل والدي: كانت خالتي كوني مخطوبةً إلى رجل أرملٍ يعمل في تصنيع عدسات النظّارات Optician يدعى (فرانك كارلايل)، و حصل ذات يوم أن دعت عمّتي إيثيل والدتي و أختها الكبرى كوني للمبيت في منزلها الواقع قرب دونكاستر و كان فرانك و والدي مدعوّين أيضاً، و كان لزاماً بسبب ضيق المكان أن تنام والدتي و أختها في سرير مزدوج واحد في إحدى غرفتي النوم و مثل هذا فعل الرجلان عندما ناما في سريرٍ مزدوجٍ في الغرفة المجاورة، و عند منتصف الليل تسلّلت خالتي كوني بخفّة إلى الغرفة المجاورة و حشرت نفسها إلى جانب فرانك !! و عندما علم والدي بالأمر أسقط في يده و لم يكن أمامه بدٌّ من أن ينام في سرير والدتي !!!. أخبرتني والدتي – التي كان إسمها الحقيقي أنيتا و لكنّ الكلّ كان يدعوها هاتي – بكلّ هذه التفاصيل الشخصيّة

و أنا لم أتجاوز العاشرة بعد، و قد صعقني بخاصّة الحديث عن حالات الحمل من غير زواج رسميّ لا لانّني كنت محتشماً ميّالاً إلى الحياء – إذ لا أظنّ أنّ طفلاً في العاشرة يمكن أن تكون له حساسيّة محدّدة و صارمة تجاه أيّ من الموضوعات الأخلاقيّة – و لكن لانّ الحمل في ذاته بدا لي آنذاك أمراً كارثيّاً متى ماحصل، و أقسمتُ منذ ذلك الحين أنّ هذا الأمر لن يحصل مع أيّة فتاة أعرفها لاحقاً و لكنّه حصل فعلاً بعد تسع سنوات من ذلك التأريخ و إكتفيت حينها بأن رأيت في الأمر نوعاً من حتميّة لم يكن أمامي ثمّة وسيلة لتفاديها !!!.

لم تكن والدتي تأنسُ لمسألة كونها متزوّجةً، و فعل أبي أكثر من مجرّد عدم الإستئناس لزواجه من والدتي، و لكنّ الإثنين حاولا ما استطاعا سبيلاً أن يحصلا على أفضل ما يمكن الحصول عليه من زواجهما و هو ذات ماكان يفعله أبناء الطبقة العاملة. أحبّ والدي إحتساء البيرة و كان معتاداً على قضاء مساءاته في الحانة القريبة من منزلنا بينما كانت والدتي تمكث معظم الوقت في المنزل لتعتني بي و بأخي (باري) الذي إنضمّ إلى العائلة بعدي و كانت تقضي الوقت القليل المتاح لها بعد قضاء واجباتها المنزليّة في قراءة المجلّات الرومانسيّة الحالمة. كان والدي حادّ المزاج دوماً و مستثاراً طول الوقت بسبب ماكان يشعر به على الدوام من إمتعاض أزاء إضطراره للزواج و قضاء حياته عاملاً بسيطاً في معمل أحذية و كنّا جميعاً نتطلّعُ بشغف إلى تلك الأوقات التي يغادر فيها والدي إلى الحانة مساء كلّ يوم، و مع أنّ والدي كان عاملاً بارعاً و كدوداً و يقيم أود عائلته بكلّ نزاهة و شرف و لكنّه لطالما شعر بالحيف و المرارة ينهشان فؤاده عندما كان يستلم أجره الأسبوعيّ البسيط ذا الجنيهات الثلاث: فقد رأى في هذا الأجر تعويضاً غير عادل عن عمله المضنيّ لثماني و أربعين ساعة في الأسبوع.

كنتُ طفلاً ذكيّاً و جميلاً - ليس هذا إدّعاءً منّي، فَصُوري الفوتوغرافيّة الملتقطة لي آنذاك تشي بما أقول - و لطالما أُعتبِرتُ الأذكى في العائلة، و كان إبن عمّي (جون) ذكيّاً أيضاً و لكن بدا لي انّ الدلال المفرط أفسده تماماً بسبب كونه الطفل الأوحد لأبويه. لم يحصل أن ضرب والدي يوماً ما والدتي رغم انّهما كانا كثيراً ما يتشاجران، و كانت والدتي إمرأة قويّة الشكيمة و وثقت بي كثيراً و أسرّت لي بالكثير من أسرارها الشخصيّة و ربّما وجدت فيّ منقذاً لها من حالة الضجر المزمنة الملازمة لحياة الكدح الرتيبة الّتي يحياها أفراد الطبقة العاملة، و عندما كانت تكوي الملابس أو تنشرها على مجفّفة الملابس الملصقة بمنضدة غرفة الجلوس كنّا أنا و اخي باري نضطجع على السجّادة أمام موقد النار و نخاطبها " أخبرينا المزيد عنكِ عندما كنتِ طفلة صغيرة ". كانت والدتي عضواً في عائلةٍ تتألّف من سبعة أفراد عاشوا في وضعٍ أكثر فقراً بالمقارنة مع عائلتنا مع أنّ والدي لم يكن ليكسب غير ثلاث جنيهات في الأسبوع !!!، و كانت روايات والدتي عن أوضاع عائلتها الفقيرة تبدو لي رومانتيكيّة للغاية و جعلتنا أنا و أخي نتذوّق طعم الرّضا و القناعة لكوننا وُلِدنا في كنف أبٍ يعمل بثلاث جنيهات أسبوعيّاً !!.

عندما أعود بذاكرتي إلى أيّام طفولتي الباكرة في حضن عائلة من الطبقة الكادحة فإنّ أكثر ما يصيبني بالصدمة هو أنّ كلّ من كنّا نعرفه كان قنوعاً بحياة الكدح الشاقّة التي رأى نفسه ملقيّاً في أتونها و لم يكن بينهم ثمّة من يحلم بالهرب من واقعه المزريّ لأنّهم باتوا مقتنعين قناعة راسخة أن ما من طريقة متاحة أمامهم للهرب، و بدلاً عن التفكير في وسيلةٍ للإفلات إنغمسوا في شرب البيرة مساء كلّ يوم بعد أنتهاء عملهم أو لعب كرة القدم بعد ظهر كلّ يوم سبت، و على

العكس من والدي فإنّ والدتي و عمّتي دورا كانتا قارئتين نهمتين. و لطالما إلتهمتا كتب المكتبة العامّة في مدينتنا و كانتا تكنّان إعجاباً كبيراً بكتّابٍ على شاكلة (دي. إج. لورنس) و (أي. إج. كرونين) لانّهما تناولا في أعمالهما كثيراً مشكلة الفقر و الإحباط التي تعاني منها النساء الذكيّات من اللواتي دُفِنت مواهبهنّ في أتون حياة الكدح التي تعيشها الطبقة العاملة. إقتفيتُ خطى والدتي بصورة طبيعيّة للغاية و طفقت أقرأُ كثيراً و بخاصّة تلك الكتب التي أكملت والدتي قراءتها و أفادني كثيراً ملخّص الحبكة التي كانت والدتي ترفقها مع كلّ كتاب تقرؤه و كم سهّلت ملخّصاتها تلك عليّ فهم و إستيعاب الكتب و لا سيّما في الكتابين الرائعين (مرتفعات وذرنج) و (أبناء و عشّاق)، و مع أنّني بدأت مشواري في القراءة بكتب الكوميكس الشائعة غير أنّني وجدت نفسي ميّالاً أكثر إلى كتب الكِبار التي كانت تُشبِعني أكثر من سواها و كنت أشعر معها بكثيرٍ من الراحة.

بدأت أمورنا الماليّة تتحسّن عندما بلغتُ قرابة الرابعة عشرة من عمري، و أذكر أن العم فرانك كارلايل أعطاني مرّة كتاباً لأقرأه بعنوان (أعاجيب العلم و أحجياته The Marvels and Mysteries of Science) و منذ ذلك الحين صرت مفتوناً بعلم الفلك، و بعد أن سمعت عن إفتراضات (بيرسيفال لوويل) الحدسيّة القائلة أنّ الأخاديد التي تظهر على سطح المرّيخ يمكن أن تكون قنواتٍ للريّ عبر صحراء ذلك الكوكب إندفعت في قراءة كتاب (حرب العوالم) للكاتب (إج. جي. ويلز) ثمّ مضيت في إلتهام كتبه الأخرى مثل: (آلة الزمن) و (الرجل اللامرئيّ)، و في خضمّ تلك الأوقات السعيدة و أنا أقرأ تلك الكتب الرائعة تبرعمت رغبتي المستقبليّة في أن أكون عالِماً.

أهدتني والدتي عُدّةً كيميائيّة للعمل المختبريّ في عيد ميلادي الحادي عشر و كانت عدّةً رخيصة الثّمن غير أنّها إحتوت على دزينةٍ من المَحاليل الكيميائيّة الموضوعة في أسطواناتٍ كما إحتوت بضعة أنابيب إختبار فضلاً عن كتاب تعليماتٍ، و سرعان ما وجدتُني أشرح لأخي باري كيفيّة مزج إثنين من المحاليل العديمة اللون للحصول على محلول ناصع الزرقة أو أخر برتقاليّ داكن، و في هذه الأوقات كنت هجرتُ مدرستي الإبتدائيّة و حصلتُ على منحة دراسيّة في مدرسة ثانويّة، و كان من المصادفات الجميلة أن أعثر في مدرستي الثانويّة على نسخةٍ منزوعة الغلاف من كتاب (هولميارد) الواسع الشهرة آنذاك و المعنون (الكيمياء الأساسيّة) و كان الكتاب مركوناً على سطح أحد خزانات الطلبة Locker و لم يخامرني أدنى شعور بالسرقة عندما أخذت الكتاب و مضيتُ بهدوء في طريقي، و بعد أن أكملتُ قراءة كتاب هولميارد بدأت بإستعارة كتب الكيمياء المجلّدة الأنيقة و السميكة الأغلفة من المكتبة العامّة، و حصل أنّني عندما أكتشفت العلم و أنا في سنتي الحادية عشرة بالضبط شعرتُ بفجوة نفسيّة متعاظمة بيني و بين الناس حولي و إندفعت في الحلم بيومٍ يرتقي فيه الإنسان ليكون كالآلهة كما حلم ويلز في بعض كتاباته.

بدأت رغبتي الجنسيّة المتفتّحة في تلك السنوات المبكّرة من حياتي في بعث شيئٍ من القلق في روحي مع أنّ التأثير الجنسيّ للقصص الّتي كانت أمّي ترويها لي لا يمكن نكرانه، لكنّ الجنس لم يلقَ هوىً في نفسي عندما كنتُ يافعاً: فقد كانت لديّ سماتٌ بيوريتانيّة (تطهّريّة) و لطالما شعرتُ بالإشمئزاز يتلبّسُني وأنا أستمعُ إلى أصدقائي في المدرسة و هم يروون نكاتٍ وسخة. كان الحديثُ عن الفتيات يتسبّبُ في إحداثِ إثارةٍ فيّ لكنّني لم أجد رغبةً في نفسي للإنسياق في تيّار

الألعاب البهلوانيّة الجنسيّة الّتي كان يتباهى بها أقراني، و لستُ هنا في صدد الإدّعاء بأنّني كنتُ خلوّاً من أيّة رغبة جنسيّة قبل ذلك الوقت إذ لطالما عمدْتُ قبل أمدٍ بعيد من سماعي مفردة (جنس) إلى إرتداء ملابس أمّي الداخليّة في الأوقات الّتي كنتُ فيها وحيداً في المنزل و كنتُ أجد في هذه التجربة إثارةً محبّبة ناجمة عن الملمس الحريريّ لنسيج الرايون الذي صُنعتْ منه تلك الملابس، و منذ ذلك الوقت صارت الملابس النسائيّة الداخليّة مصدر إثارةٍ جنسيّة مستديمة لي في الأوقات الّلاحقة. حصل ذاتَ مرّة أن سألتُ صديقةً لي عن السبب الكامن وراء كون اللباس النسائي التحتانيّ المسمّى (كلسون) قادراً على إحداث كلّ تلك الإثارة المشتهاة لدى الذكور فأجابت بوضوح "لانّ تلك الملابس تذكّر حتماً بذلك الجزء من الجسد الانثويّ الذي يشتهيه الذكور !!" و لكنّني في العدوم لستُ واثقاً من أنّ هذا الإيضاح البسيط يقولُ كلّ الحقيقة طالما أنّني كنتُ أجهلُ أيّ شيءٍ عن تشريح الجسد الانثويّ و أنا لمّا أزلْ بعمر الثالثة فحسبُ. رؤيتي الشخصيّة حول هذه المسألة ترى أنّ هذا السلوك ليس من النمط الّذي نتعلّمه بل هو أقربُ إلى نوعٍ من الغريزة المطبوعة كبصمة مميّزة للتطوّر الذكوريّ خلال القرن و نصف القرن المنصرميْن: فقد صُنع الكلسون النسائيّ في منتصف القرن التاسع عشر و صار جزءً حتميّاً في كلّ عروض البورنو Pornography في ذلك الوقت، و لأنّ هذا الإختراع كانت رؤيته تقتصر على تلك العروض الإغرائيّة و لم يكن يُرى بين العامّة من النساء لذا صار من الطبيعيّ أن يُستثار الرجالُ بسهولة من مجرّد سرقة نظرة خاطفة إلى هذا الّلباس الداخليّ. يعتقد عالم الإحياء (روبرت شيلدريك Rupert Sheldrake) أنّ الأنواع المستحدثة من السّلوك يمكن لها أن تنتقل بوساطة ما أسماه (الرنين النحاسيّ

Morphic Resonance) و الّذي يمكن أن يشابه نوعاً من الحث التيليباثيّ (الإتصاليّ عن بعد): ففي واحدةٍ من تجارب دراسة هذه الظاهرة طُلِبَ إلى عددٍ من الأطفال في المرحلة التمهيديّة أن يحفظوا نصّاً من شعرٍ مقفّى مكتوب بلغة أجنبيّة و ذائع الصّيت في العا لم، و كانت النتيجة المدهشة أنّ الأطفال حفظوا هذا النصّ بسهولةٍ و سرعةٍ فائقتيْن قياساً إلى نصوصٍ أخرى بعد أن عرفوا أنّهم يتشاركون معرفة النصّ مع ملايين الأطفال في العا لم !! و أنا من جانبي أرى أنّ الإستثارة الذكوريّة لرؤية الملابس النسائيّة التحتانيّة إنتقلت بين الذّكور في نوع من التأثير السايكولوجيّ التيليباثيّ.

عندما بلغتُ سنّ المراهقة صار الوخزُ و الإرتعاش اللذيذ بين ثنايا عانتي لا يغادرني و وجدْتُني أفكّرُ في الجنس كلّ الوقت و أتسمّرُ أمام محلّات بيع الملابس النسائيّة الداخليّة و أصوّبُ نظري بإتّجاه تلك الملابس لساعاتٍ طويلة، و عندما كنتُ في الرابعة عشرة أذكر مرّة أنّني كنتُ مستلقِياً في فراشي أفكّرُ في معلّمتي الفرنسيّة الّتي إعتادت الجلوس على مقعدها في الصفّ و هي تضعُ ساقاً على مقعدٍ مقابلٍ في الصف الامامي للمقاعد، و تذكّرتُ حديث صديقٍ لي يدّعي أنّه إختلس نظرةً خاطفة إلى ملابسها الداخليّة - و ربّما كان يدّعي ذلك - و وجدْتُ نفسي أضغُطُ بقوّة على فرشة سريري و إختبرْتُ إحساساً من لذّةٍ جهنّميّة لم أختبرْها من قبلُ !! و كنت مندهشاً للغاية لإكتشافِ قدرة جسدي على إجتراح تلك المديات غير المسبوقة من النشوة.

إدّعى شو Shaw في واحدةٍ من مقدّمات كتبه أنّ تجربته الجنسيّة الوحيدة خلال مراهقته لم تكنْ لتتعدّى عتبة "الإنثيال الطوعيّ للأحلام الّلذيذة": ذلك الإدّعاءُ الّذي يبدو انّه ساهم في تعزيز نظرةٍ

بعض منتقديه من أنّهُ كان يعاني بروداً جنسيّاً، و بقدر ماكان الأمر يخصّني فأظنّ أنّني ورثْتُ طاقتي الجنسيّة المتفجّرة عن والدي – أبدتْ والدتي مرّة ملاحظة تقولُ فيها أنّ مطالب والدي الجنسيّة نحوها لم تخفتْ أبداً طيلة فترة زواجهما –، لذا إعتقدْتُ أنّ جذوة توهّجي الجنسيّ الّتي إمتدّت منذ الثالثة عشرة حتّى التاسعة عشرة ستظلّ متّقدةً حتّى اللّانهاية رغم انّ متعتي الجنسيّة فيها لم تكن أكثر من محض نشوة تخييليّة فحسبُ، و تلبّستْني خلال تلك الفترة من حياتي فكرة مضاجعة فتاةٍ – أيّة فتاة – على نحوٍ قاسٍ و مؤلم للغاية. قرأتُ مرّة عن إحصائيّة تقولُ أنّ الذكور المراهقين يفكّرون في الجنس كلّ ربع ساعةٍ، و لكن في حالتي أظنُّ أن تلك الإحصائيّة كانت تبدو تخميناً أقلّ بكثير من واقع الحال الحقيقيّ: فقد كنتُ أفكّرُ في الجنس على نحوٍ متصل طوال اليوم !! أذكر أنّني في الحافلة الّتي كانت تقلّني يوميّاً إلى المدرسة كنتُ أتحرّق شوقاً لرؤية لوحة إعلانٍ كبيرة عن الفاصولياء الصفراء الّتي تُستخدَمُ كنوع من العلاج للإمساك و كانت فتاةٌ بحمّالة صدرٍ و لباسٍ تحتانيّ أخضريْن تتوسّط الإعلان و كنتُ كلّ مرّة أراها أعضّ على شفاهي بقوّة شبقاً و إشتهاءً لها و تنتابني في ذات الوقت حمّى اللّمحة المخطوفة لملابس أمّي الداخليّة من قبلُ.

عندما كنتُ في الثالثة عشرة إندفعْتُ في كتابة كتابي الأوّل: كنتُ إبتعْتُ من بازارٍ (سوقٍ شعبيٍّ) لإحدى الكنائس مجلّديْن من العمل المعنْون (معرفة تطبيقيّة للجميع Practical Knowledge for All) و هو نوعٌ من الكتب المرجعيّة للتعلّم الذاتيّ عن كلّ شئٍ تقريباً إبتداءً من علم الطيران و الفلك و حتّى الفلسفة و علم الحيوان، و في أحد أيّام العطلة الطويلة في آب ١٩٤٤ عزمتُ على المضيّ في فكرة كتاب يلخّصُ كلّ المعرفة العلميّة العالميّة في مجلّدٍ متفرّد واحد !! و أسبغتُ

عليه عنواناً هو (دليلٌ للعلم العام A Manual for General Science) و بدأتُ أوّل ما بدأتُ مع تلك الموضوعات الّتي كنتُ أتقنها أكثر من سواها و هي الفيزياء و الكيمياء على وجه التحديد، و سرعان ما أنجزْتُ المجلّد و مضيْتُ في شراء دفتر ملاحظات ضخم ثانٍ لأواصل عملي بلا هوادة. أخذني الشغف اللّذيذ بالكتابة بعيداً و وجدتُني أكتبُ برغبةٍ و شغفٍ عظيميْن كمن ينحدرُ بسرعةٍ بدرّاجته الهوائيّة من قمّة تلٍّ إلى أسفله، و إتّخذتُ قراراً بأن أمضي في إستكشاف الموضوعات الّتي كانت معرفتي بها ضئيلةً أو معدومةً مثل علم الأرض و علم الأحياء و وجدْتُ التجربة مدهشة للغاية فمضيْتُ في الكتابة حتّى و لو بخربشة بعض الصفحات بعدما إنتهت العطلة. كانت تجربة الكتابة تلك أوّل إختبارٍ لي لعالمٍ من الفرح و الابتهاج لم أعهدْ له مثيلاً من قبلُ و إكتشفْتُ معه الآفاقَ الرائعة لعالم الأفكار الّذي طار بي إلى آفاقٍ سحريّة لم اتصوّرْ أنّني سأبلغُها يوماً ما، و كلّ يوم قضيْتهُ منذ أن بدأت تجربتي مع الكتابة بِتُّ أشعرُ فيه كأحد روّاد الإستكشافات الجغرافيّة من الّذين يسعون إلى إكتشاف بحيراتٍ و غاباتٍ و سلاسل جبليّة جديدة و لطالما شعرْتُ بالأسى و الأسف لهؤلاء الصبيان من زملائي في المدرسة الذين لم يجرّبوا بهجة الدخول إلى مملكتي السحريّة الّتي كنتُ أقضي فيها مساءاتي إلى جانب عطل نهايات الأسبوع، و لا زلتُ أذكر أنّني كتبتُ فصلاً كاملاً في مجلّدي عن الفلسفة منذ أفلاطون و حتّى باركلي و هيوم و أحببْتُ كثيراً أن أشرح لزملائي في المدرسة دليلَ باركلي في إثباتِ أنّ العالم الخارجيّ غيرُ حقيقيّ و أنّهُ سيتلاشى عن الوجود لو إنعدم وجودُ الكائنات البشريّة فيه.

بعد أن إنتهيّتُ من كتابة مجلّدي – أو على نحوٍ أدقّ عندما أقسرْتُ نفسي على التوقّف عن الكتابة بعد أن أدركْتُ بإمكانيّة المضيّ على

نحوِ لا نهائيّ - وضعْتُ لنفسي مشروعاً جديداً: أن أقضي عطلتي المدرسيّة القادمة في محاولة قراءة كلّ مسرحيّات شكسبير و معاصريه (الدكتور جونسون، ميدلتون، ويبستر، و البقيّة المعروفين أيضاً)، و في العطلة اللّاحقة مضيْتُ في قراءة الأعمال الكبرى للمؤلّفين الروس العظام: دوستويفسكي، تولستوي، غوغول، إلساكوف، تشيخوف، و مضيْتُ في العطلة التالية للإستدارة نحو تأريخ الفنّ الّذي إكتشفْتُ فيه عوالم فان كوخ، و غوغان، و سيزان.

في عام ١٩٤٦ و عندما كنتُ في الخامسة عشرة أدرْتُ مفتاح المذياع إحدى اللّيالي على القناة الثّالثة المستحدثة في هيئة الإذاعة البريطانيّة BBC و وجدْتُني أستمع إلى المشهد الثالث من عمل شو Shaw الأشهر المسمّى (الإنسان و الإنسان الخارق Man and Superman) و كنتُ في السنة السابقة تمتّعتُ بمشاهدة فلم (قيصر و كليوباترا) الّذي رأيتُ فيه ملحمة تأريخيّة مثيرة و لكنّه مع هذا لم يدفعْني إلى متابعة أعمال شو الأخرى على عكس المشهد الثالث من " الإنسان و الإنسان الخارق " الّذي كان بعنوان (دون جوان في الجحيم Don Juan in Hell): فقد هزّني بقوّة و إقتنعْتُ منذ ذلك الحين أنّ برناردشو كان الكاتب المسرحيّ الأعظم بين كلّ الكُتّاب منذ شكسبير. كان المشهد الثالث من مسرحيّة شو يحكي عن مناقشة بين دون جوان و إبنة أحد القادة العسكريين المسمّاة دونا آنا إلى جانب أبيها مع الشيطان بعد أن توفّيتْ دونا آنا حديثاً و وجدت نفسها ساخطة وسط الجحيم، و راحت تتساءَلُ بحرقةٍ: " أ لم أكن طيلة حياتي تلك البنت الوفيّة دوماً للكنيسة ؟ !! فلِمَ أنا هنا إذنْ ؟ "، و هنا راح دون جوان - بحسب المشهد المسرحيّ - يوضّح لها أنّ الجحيم ليس مكاناً للعذاب المُقيم بل هو متعةٌ لانهائيّة رغم أنّنا قد نجد فيه مكاناً باعثاً على الضجر،،، و

فجأةً ينضمُّ والد الفتاة إلى الحلقة النقاشيّة ليقول أنّ السماء هي المكان المضجر الأكثر جمالاً في الكون و انّ أفاضل القوم يفضّلون الجحيم على السماء.بمن فيهم آباء الكنيسة ذاتها !! و هنا يتدخّل الشيطان الّذي يقول أنّه يقف إلى جانب الحبّ، و الجمال، و دفء القلب، و انّه إنتقى هؤلاء ليكونوا عيّنة لما يبتغي في مسعاه، و في هذه اللّحظة يعلّقُ دون جوان: " إنّ الغاية من كلّ عمليّة التطوّر هي خلق الإنسان الخارق ".

ما أدهشني أكثر من سواهُ لدى سماعي مسرحيّة شو هو سؤالهُ الأساسيّ: ما الهدف المرتجى من الحياة ؟ و كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي أستمع فيها إلى منْ كان يسألُ ذات السؤال الّذي وقعتُ في حبائله منذ أن كنتُ في الثالثة عشرة. كتب (إج. جي. ويلز) كتاباً صغيراً بعنوان (ما الّذي ينبغي لنا أن نفعله بحيواتنا ?What Are We to Do with Our Lives؟) و لكنّه كان يعالِجُ موضوع الهدف من الحياة من زاويتيْ النظر السياسيّة و المجتمعيّة بينما فهم شو المشكلة الأساسيّة الكامنة وراء هذا السؤال: اللّاجدوى و غيابُ المعنى. كان جواب شو عن السؤال وراء الغائيّة المتصوّرة من الحياة هو فهمُ الحياة ذاتها و لكنّه جاء مخيّباً لي و لمْ يُشْفِ جموحي المتساءل دوماً، و عندما بلغْتُه السادسة عشرة و توجّب عليّ ترك المدرسة كان لديّ إحساسٌ متعاظمٌ بإنعدام المعنى في الحياة، و ما فاقم وضعي أكثر هو تلك الإشكاليّة المزمنة الّتي يعانيها المراهقون: الإحساس بالضجر و العبثيّة، و أمضيْتُ الكثير من أوقاتي في تلك المرحلة و أنا أعاني إنعداماً كاملاً لأيّ محفّز لي في الحياة و عندما إنطلقْتُ ظهيرة أحد أيّام السبت القائظة لقضاء جولةٍ في أحد المتنزّهات القريبة من منزلنا شعرتُ كما لو كنتُ كائناً مرّيخيّاً غريباً على الأرض و لم أرَ أيّ معنىً لوجودي في هذه الحياة.

حصل في أحد أيّام تموز – و بعد أن قرأتُ تحت الشمس الحارة لساعاتٍ طويلة كتاباً ممتازاً عن الأدب الروسيّ – أن ذهبتُ إلى المطبخ لتشغيل الفرن الكهربائيّ و إعداد شيءٍ من الطعام لي، و سرعان ما إسودّت معالم المطبخ أمامي فإتّكأتُ على الفرن الكهربائي و أنا أشعرُ أنّ هويّتي الذاتيّة و عقلي غادرا بعيداً عن جسدي، و بعد برهةٍ عاد إليّ نظري و وجدتُني أعاني رعباً هائلاً، و بالرغم من كلّ الكراهيّة و عدم الثقة اللّتيْن كنتُ أكنّهما للعالم حولي لكنّني كنتُ واثقاً من شيء وحيد: وجودي الشخصيّ، و ما شعرتُهُ خلال تلك التجربة المخيفة في المطبخ أنّني أيقنتُ أنّ وجودي الّذي لطالما وثقتُ فيه صار عرضةً للتشكيك والفقدان كما يفقد طفلٌ صغير قطعة الحلوى الّتي يمسكها بين يديْه بكلّ ما أوتي من قوّة !! و عندها بدأتُ أتساءلُ بذهول: من أنا ؟ و هل يمكنُ لي الإستمراريّة في الوجود عندما تنتزعُ هويّتي منّي ؟ ثمّ قفزت أمامي فجأة عبارة إليوت الّتي حكى فيها عن " عقلنا الأثيريّ الواعي الّذي ليس بمقدوره سوى أن يعي العدم ": الشيءُ الوحيد الّذي أذكره عن تلك التجربة المخيفة هو نوعٌ من سريان التيّار الكهربائيّ في قلب العدم و اللّامعنى و لا شيءَ سوى هذا !! و كتبتُ لاحقاً في يوميّاتي " إنّ الحياة ليست إرتقاءً بإتّجاه شيءٍ ما بل هي هروبٌ من شيءٍ ما،،، هُروبٌ من الألم الأقصى الكامن في قلب وجودنا الإنسانيّ "، و لأيّام خلتْ بعد تلك التجربة الغريبة و المخيفة معاً لم يكن العالم ليعني لِي شيئاً أكثر من سخافة سمجة و رأيتُ وجودي فيه مضجراً و غير قابلٍ لأيّ فهم كما هي الحالة بالضبط مع من يضطرّ لسماع لغة اجنبيّة لا يفقه منها حرفاً !! و كان من المؤكّد أنّ تلك التجربة ساهمت في تأكيد شعوري بخلوّ حياتي من أيّة قيمة إنسانيّة إيجابيّة و شعرْتُ كما لو أنّ وجودي كان محض حدث طارئ و هذا هو السبب الّذي

دفعني إلى الإنغماس الدائم في القراءة: فقد كنتُ أعلم و لحسن حظّي أنّ الكتاب هو وحده الخليقُ بإدهاشي و منحي إحساساً بأنّني ما زلتُ حيّاً، فمضيْتُ ألتهم الأدب الروسيّ إلتهاماً كما قرأتُ يوليسيس Ulysses للمرّة الخامسة و لا زلتُ بعد سنواتٍ أذكرُ أنّني عندما قابلتُ ناشر كتبي الاوّل (فيكتور غولانز) بادرني بالسؤال الأوّل و قبل كلّ شيء " قل لي يا رجل كيف يمكن لإنسانٍ على الأرض ان يقرأ كلّ تلك الكتب ؟ " فأجبته بإقتضاب " هو الضجر يا صديقي !! ".

لمحتُ ذات يومٍ حلاًّ لما بدا معضلتي الوجوديّة المزمنة في المقدّمة الّتي كتبتها (كونستانس غارنيت) لكلّ ترجماتها لأعمال دوستويفسكي و أعني على وجه التحديد وصفه الدقيق في رسالته إلى أخيه ميخائيل كيف أقتيد هو و رفاقه الثوريّون لكي ينفّذ فيهم حكم الإعدام رمياً بالرصاص في ساحة سيميونوفسكي في سانت بطرسبورغ: " سمعنا أوامر الإعـدام تتلى فوق رؤوسنا و أَمَرَنا السجّانون بإرتداء تلك الثياب البيضاء الّتي إعتاد المحكومون بالإعدام إرتداءها. كنتُ في الطابور الثالث للإعدامِ و أدركْتُ أنْ لم يبْقَ لي سوى دقائق قليلة في هذه الحياة،،، كنتُ أفكر فيكم أعزّائي، و إستدرْتُ لأقبّل بليسشيف و دوروف اللّذيْن كانا ينتظران الإعدام بعدي و رغبت في وداعهما الوداع الأخير،،،،، و فجأة صاح الجنود و وجدنا أنفسنا محلولي الوثاق و أخبِرْنا أنّ جلالة القيصر قرّر الإبقاء على حيواتنا،،،،،،،،، "، و حصل انّ أحد رفاق دوستويفسكي من المحكومين بالإعدام معه و تمّ الإبقاء على حياتهم فقد عقله لهول صدمته من هذا الموقف الغريب، و لطالما تساءلْتُ كلّ مرّة و أنا أقرأ هذا النص المحفوف بالرعب " لو أنّ القيصر إشترط على دوستويفسكي أن يبقي له حياته و يطلق سراحه في مقابل وعدٍ منه بأن لا يضجر طيلة حياته فإنّه كان سيفعلُ بكلّ

تأكيد و هو في غاية الجذل و الإبتهاج و لبدا في كامل الثقة بقدرته على الإيفاء بهذا الوعد !! ". عاينْتُ جواباً لمعضلة الضجر الوجوديّة أيضاً في كتاب بوزويل Bosewell عن حياة جونسون و الّذي كنتُ أبتغتُهُ بقصد قراءته في عطلة أعياد الميلاد القادمة، و يسجّلُ الدكتور جونسون في الكتاب الملاحظة المهمّة التالية " عندما يعلمُ شخصٌ بأنّه سيموتُ شنقاً الليلة فإنّ هذا كفيلٌ بتركيز قدرته الذهنيّة بطريقة عجيبة "، إذنْ هذا هو بالضبط مكمنُ الخطل في ذهني: فقدان الإحساس بوجود أمرٍ يدعو إلى الاهتمام على نحوٍ طارئ و لحظيّ، و لكن كيف يمكنُ لإمرئٍ ما خلقُ هذا الإحساس بوجود هكذا أمرٍ في حياته و هو قد أمضى جلّ حياته مفتقداً للإحساس بوجهةٍ ما في تلك الحياة ؟

كان لعابي يسيلُ على الدوام لفكرة أن أكون كاتباً و حسب و ليس شيئاً غير ذلك، و عندما كنتُ أعملُ مساعداً للمختبر في مدرستي الثانويّة كتبْتُ عملاً حسبْتهُ مكمّلاً لعمل برناردشو (الإنسان و الإنسان الخارق) أسميْتُهُ (أبٌ و إبنٌ Father and Son) و جعلْتُ فيه بطل شو المسمّى (تانر Tanner) يجدُ نفسه أباً لإبنٍ لا يشاطره أيّاً من معتقداته في الإشتراكيّة المجتمعيّة و الّذي يشعر أيضاً أنّ النزعة التطوّريّة في (الإنسان و الإنسان الخارق) تفشلُ في تقديم إجابةٍ مقنعة للتساؤل الممضّ حول كون الحياة لا تعدو أن تكون دعابة سخيفة، و كنتُ قبل هذا بوقت قصير إكتشفْتُ ما وضع حدّاً للعدميّة و الشكّ و النظر إلى الحياة بكونها محض دعابة خبيثة: فقد وجدْتُ بمحض صدفة جميلة أثناء بحثي في كتاب (مقالاتٌ مختارة لِ تي. إس. إليوت) إشارةً إلى العمل الكلاسيكيّ الهندوسيّ المسمّى (باغافاد غيتا Bhagavad Gita)، و لأنّني إعتبرْتُ إليوت على الدوام بمثابة موجّهي الأدبيّ الأعظم فقد مضيْتُ في قراءة كلّ الكتب الّتي أشار إليها في كتابٍ

مقالاته المختارة و سرعان ما إقتنيْتُ نسخة من كتاب باغافاد غيتا المترجم ترجمة جديدة من متجر الكتب المحليّ في بلدتنا، و وجدْتُ النصّ إجتزاءً صغيراً من الملحمة الهندوسيّة المعروفة عالميّاً باسم (مهابهاراتا Mahabharata)، و فيها يؤمَرُ البطل أرجونا Arjuna أن يقاتل جيشاً يضمّ بعضاً من أقاربه فإرتعب الرجل من فكرة أنّه قد يقتل بعضاً من أفراد عائلته، فأخبره معلّمه كريشنا Krishna الّذي يجسّدُ روح الإله الأعظم أنّ مأساته غير ضروريّة على الإطلاق ثمّ مضى كريشنا في تعليم أرجونا أساسيّات الحياة الدينيّة الّتي تقوم على فكرة أنّنا و على الرغم من كوننا مضْطرّين للعيش في هذه الحياة فإنّ من المهمّ للغاية أن نرفض بقوّة أن نكون عبيداً لرغباتنا و ينبغي أن نتعلّم تمرين ذواتنا على عدم الإلتصاق بهذا العا لم لأنّ الكائنات البشريّة تقضي حياتها و هي مقيّدةٌ إلى شبكةٍ من الأوهام و هذا هو السبب الرئيسيّ وراء شقاءهم، و ينبغي أن لا نقبل لهذه الأوهام أن تكون لها اليد العليا علينا أبداً.

تعلّمْتُ من الباغافاد غيتا كيف أتامّلُ و أعي أنّنا لسْنا "أجسادانا أو عقولنا أو عواطفنا فحسبُ" بل أنّ ماهيّة وجودنا تتماهى مع براهمان Brahman: القدرة الّتي تقف خلف الطبيعة و الكون. كنتُ مراهقاً مُحبطاً أتلظّى بأسواط رغباتي و عواطفي الجامحة وقتها فجاءت الباغافاد غيتا لتكون مرهماً لندوب روحي الشقيّة و تعلّمْتُ منها أنّ روحي لها ذاتُ الطّبيعة الّتي لِ براهمان، و عندما كنتُ أتعذّبُ تحت وطأة شعوري بالخجل و الإهانة – مثلما يفعل معظم المراهقين في العادة – كان عليّ أن أنظر إلى الحياة البشريّة من علوٍّ كما علّمتْني هذه المقطوعة من باغافاد غيتا:

مع أنّ الإنسان هو أعظم الآثمين

فإنّ هذه المعرفة ستحْمُلُه، كحصيرة رقيقة

فوق إثمه

لذا لم يكن يتوجّبّ عليّ الشعور بأيّ إثم أزاء أفعال المراهقة الّتي كنتُ مواظباً عليها: الإستمناء، و الحماقاتُ الصغيرة المعهودة في طور المراهقة، و لم أكنْ بعدها في حاجةٍ إلى إضفاء قناعٍ من التنسّك التطهيريّ تجاه تلك الأفعال و كان في ذلك كلّه مصدر راحةٍ لا تقدّرُ بثمن لي. أدركتُ في هذه الفترة من حياتي واحداً من أعظم أسرار الوجود البشريّ: لو إستطعْتُ أن أحافظ على مستوىً عالٍ من نشاطي الداخليّ المتّسم بالحيويّة و الحركيّة الهائلتيْن من غيْر أن أدع عقلي ينحدرُ في مستنقع التعب و الضجر فسيكون حينها كلّ شيْءٍ أمراً مستحبّاً و مقبولاً و باعثاً على البهجة، و لو حصل و فشلْتُ في هذا المسعى فإنّ كلّ شيْءٍ سينتهي إلى السّوء و الألم، و تبدّتْ لي بكلّ وضوحٍ معالُم المشكلة الاساسيّة الّتي تعانيها الكائناتُ البشريّة: الميلُ إلى السّماح لطاقاتنا الحيويّة بالتسرّب خارجاً عنّا، و متى ما سمحْنا لتلك الطاقات الثمينة بالتسرّب فسيخفُتُ وعينا البشريّ حتماً و نقعُ فريسةً لشتّى الإضطرابات النفسيّة و العقليّة معاً، و يبدو واضحاً لي اليوم كيف قضيْتُ سنواتِ مراهقتي في حياةٍ متّصلة من القلق المستديم و أدركُ تماماً أنّني أنا من تسبّبْتُ لنفسي بكلّ ذلك القلق غي الضروريّ لانّني سمحْتُ لطاقتي الحيويّة الثمينة بالتسرّب خارجاً عنّي.

كان من المهمّ لي في تلك المرحلة من عمري البحثُ عن عملٍ، و راقتْني أوّلاً فكرة العمل كمراسلٍ مبتدئٍ لصحيفة (ليستر ميركوري Leicester Mercury) و لكن للأسف لم تكنْ لديهم أماكن شاغرة

فأرسلني مكتب العمل إلى دائرة إستيفاء الضرائب الّتي كانت تقع قبالة مبنى الصحيفة، و تمّتْ مقابلتي من قبل أحد موظّفي دائرة الضرائب اللّندنيّين الّذي حدس فوراً عدم إمتلاكي لأيّة رغبة – حتّى لو كانت رغبة صغيرة – للعمل في مجال تحصيل الضّرائب و لكنّه مع ذلك منحني وظيفة موقّتة إلى أنْ يكون بمقدوري تحصيلُ عيشي من الكتابة. يمكن التخمينُ بكلّ تأكيد أنّ العمل في دائرة تحصيل الضرائب أضجرني إلى أبعد مدىً متصوّر: كنتُ أبدأ يومي بملء جداول من نوع A المعمول بها في الضرائب ثمّ لم يكن أمامي ما أفعلهُ سوى القليل للغاية، و لحسن حظّي آنذاك بدا أنّ رئيسي في العمل (السيد سيدفورد) وجد فيّ شخصاً مثيراً للإنتباه و كثيراً ما دعاني لمناقشة موضوعاتٍ محدّدة في الأدب. كنتُ أهربُ بعد إنتهاء العمل في دائرة الضرائب إلى مكتبة ليستر العامّة، و كان يُسمَحُ لي بالقراءة في الدائرة عندما لا يكون أمامي ما أفعله في ملء النماذج و هناك قرأت للمرّة الأولى رواية (الحرب و السلام) الّتي وجدْتُ فصلها الاوّل باعثاً على الملل و لكن مع الفصول الستّة الأولى بدأتُ أعيشُ عالم تولستوي مسحوراً بما اسماه ذات مرّة إي. إم. فورستر E. M. Forster "التأثير المشابه لفعل الموسيقى".

كنتُ في الثامنة عشرة عندما وجدْتُ نفسي ذات يومٍ أركب القطار المتوجّه إلى بادغيت Padgate في لانكشاير للإلتحاق بالخدمة العسكريّة الإلزاميّة، و كنتُ أحمِلُ حينها أسوأ المخاوف و التوقّعات بخصوص الحياة العسكريّة إذْ لطالما اخبرني والدي أنّ الخدمة العسكريّة ستمنحُني شيئاً من الإحساس الرّجوليّ الخشن الّذي أفتقده كثيراً !! و لكنّ تجربتي في التدريب العسكريّ – و لفرط دهشتي – كانت أكثر إمتاعاً ممّا توقّعْتُ و برهنتْ أنّ هواجسي بشأنها كانت في غير محلّها تماماً، و بعد أسبوعٍ من إرتداء الزيّ العسكريّ النظاميّ المعهود

في بادغيت أرسِلْتُ إلى برجوورث Bridgworth في شروبشاير Shropshire و كان مكاناً رائعاً و ثمّة سكّة حديديّة قريبة منه ترتقي تلّة صخريّة، و أذكرُ أنّني نهضتُ فجر أحد الأيّام الشتائيّة الباردة في السادسة و النصف و كتبْتُ قصيدة بدأتُها هكذا:

الشّمس جوهرةٌ بيضاء في الصباح

تكافِحُ لإضاءة ندبةٍ شاحبةٍ في جوف السماء المعتمة

كان ذلك اليومُ طويلاً للغاية و مستنفِذاً لكامل طاقتي، و عندما إستلقيْتُ على فِراشي متداعِياً من الإجهاد غطّطْتُ على الفور في نومةٍ عميقة على الرغم من كلّ الجلبة و الضوضاء حولي، و بعد ثمانية أسابيع من بداية التدريب كان علينا أداءُ مسيرةٍ إستعراضيّة في إشارةٍ إلى ختام مرحلة التدريب العسكريّ الأساسيّ و كنتُ – كحال معظم أقراني – مندهشاً للحصول على جرعة من البهجة عندما كان علينا إبداءُ مظاهر الإنضباط ثمّ المباشرة بالحركة على وقع أصواتِ آلات الفرقة النحاسيّة العسكريّة، و جعلتني تلك المسيرة أدرِكُ كم نختزن ككائناتٍ بشريّة من طاقة لاعقلانيّة على المرح و البهجة و أنّ مشكلتنا الاساسيّة هي في كيفيّة الوصول إلى منابع تلك الطاقة، و عزّزتْ هذه الرؤية ما كنتُ تعلّمتهُ سابقاً بعد محاولتي الإنتحاريّة: الجدران السميكة الّتي نحبِسُ أرواحنا بين جدرانها تعزلنا عن عالمٍ كامل و ساحر من السعادة و توكيد الذّات الإيجابيّتيْن.

كانت أيّامي بعد إنتهاء المسيرة الإستعراضيّة في القوّة الجوّية الملكيّة فاترةً و خالية من أيّة إثارة و كنت تأمّلتُ قبل إلتحاقي بالقوّة الجوّية الملكيّة أن أتعلّم شيئاً عن قيادة الطائرات و لكنّني للأسف أخبِرْتُ أنّ هذا غير متاحٍ لي ما لم أوقّعْ على عقد للخدمة لخمس سنواتٍ متّصلة

على الاقلّ و هذا ما لم أرغبَهُ بأيّ حال من الأحوال، و كان خياري الثاني أن أعمل في حقل الطبابة العسكريّة و لكن وجدْتُ نفسي في خاتمة المطاف مُنسّباً للعمل في وظيفة كتابيّة عموميّة و أرسِلْتُ لغرض التدريب الاضافيّ إلى معسكر قريب من بيرمينغهام يدعى ويتهول Wythall. وجدتُ المكان في ويتهول باعثاً على الإنشراح إلى أبعد الحدود و مضيْتُ في تعلّم الكتابة على الآلة الكاتبة و كان مسموحاً لي كتابةُ رسائلي الخاصّة أثناء دروس تمارين الطباعة، و في تلك الربوع الجميلة قرأت (أنتيك هاي Antic Hay) للكاتب آلدوس هكسلي Aldous Huxley فوجدتُها قائمة على نحو فظيع و حسدْتُ هكسلي على نجاحه المبكّر و قدرته على الإلتقاء بأشخاص مثل تي. إس. إليوت و دي. إج. لورنس و مضيْتُ في الإندفاع بأحلام يقظةٍ أرى فيها نفسي أقضي عطلَ نهاية أسبوعٍ مبهجة في كوخٍ ريفيّ أدير فيه أحاديث ثقافيّة راقية حتّى الفجر مع الأشخاص اللّذينَ لطالما أحببتُهم و تمنّيْتُ لقاءهم و لكنّ حقيقة الأمر في ويتهول أنّني كنتُ أبعُدُ آلاف الأميال عن الحياة الّتي كنتُ أبتغي عيشها في أحلامي اللّذيذة.

أذكر في فترة مكوثي في ويتهول أنّني ذهبّتُ مرّة لمشاهدة فلم غراهام غرين (الرّجل الثالث The Third Man) و بينما كنت واقفاً في الطابور لإستلام تذكرتي جاءني متسوّلٌ و طلب نقوداً فمنحْتُهُ شلناً، و عندما لمح الرجل شرطيّاً قريباً منّا أسرع و وضع في يدي سيكارة و هكذا تفادى إلقاء القبض عليه بتهمة الشحاذة، و لمّا كنتُ لم أدخّنْ في حياتي سيكارة قطّ – مع أنّ والدي و والدتي كانا مدمِنيْن على التدخين – فقد أعجبتّني فكرة تدخين تلك السيكارة الّتي وقعت بمحض صدفة غريبة بين يديّ، و أعطاني الرّجل الواقف خلفي في الطابور ولّاعة سكائر فأشعلْتُ السيكارة و رحْتُ أتظاهرُ بملء رئتي

بدخّان السيكارة و نفثه بعيداً في الهواء و أنا أقاومُ رغبتي المُلحّة في السعال، و مع أنّ السيكارة جعلتْني أشعرُ أنّ وقت الإنتظار في الطابور مرّ سريعاً غير أنّها ملاتْ فمي بطعْم مُرّغريب و غير مستحبّ و منذ ذلك الوقت لم أجدْ في نفسي رغبةً لتَدخين سيكارةً ثانيةً طوال حياتي.

٣. ماري

بعد ستّة شهورٍ من إلتحاقي بالقوّة الجوّية الملكيّة عدْتُ إلى الحياة المدنيّة ثانيةً و كان طردي من الخدمة في القوة الجوّية الملكيّة واحداً من أكثر الأحداث الحاسمة في تشكيل حياتي القادمة، و شعرْتُ تماماً بما كان يشعرُ به السيّد بوللي Mr. Polly في رواية ويلز الشهيرة و رحْتُ أردِّدُ مثله " إذا لم تكنْ حياتك تعجبك فبإمكانِك تغييرُها "، و كنتُ حتّى ذلك الحين أرى نفسي مثل كرة قدم يركلُها القدر كلّ وقتٍ و كيفما شاء: فقد إضطررْتُ للعمل في مهنٍ كثيرة لا تروقُ لي و كنتُ أتجرّعُ الضجر و القلق كنصيبٍ محتوم لامهربَ لي منه في هذه الحياة، و هنا حصل أنّ دافعاً صغيراً واحداً يتمثّلُ في قولي " لا، هذا يكفي " أثبت فعلاً أنّه كان كفيلاً بتغيير كلّ شئ في حياتي، و في حالةٍ من الحسّ التفاؤليّ الّذي أعقب قراري هذا إندفعْتُ في قراءة الأدب الرومانتيكيّ و كان التأثير الأعظم الّذي وجّه مسار تفكيري في هذه المرحلة من حياتي هو عمل رابليه Rabelais المسمّى (Gargantua and Pantagruel) الّذي صار يمثّلُ لي توكيداً لفِكرة " أستشعار المتعة في العيش " و باتَ رابليه بالنسبة لي على الدوام أكثر من محض ذلك القسّ الفاجر الّذي كنت أقرأ عنه: فقد صار بالنسبة لي يمثّلُ رمزاً للقبول البطوليّ للحياة. قادَني ولعي بعمل رابليه المترجم إلى الحلم المتواصل بالمكوث في جزر القدّيسين The Islands of the Saints و محاولة العثور على كوخٍ حجريّ قديم حيث يمكنني قضاء حياتي كلّها في التأمّل.

كانت واحدة من نتائج التفاؤل العقليّ الّذي غمرني هو قراري ترك سلك الخدمة المدنيّة إلى الأبد بعد أن ضقْتُ ذرعاً و نفد صبري مع حياة المكاتب الكئيبة، و لكنّ والدي إرتعب من هذه الفكرة و رأى أنّني كنتُ أدمّرُ حياتي: فقد حصل من قبلُ أن إنقلبْتُ على فكرة رغبتي في أن أكون عالماً، و ها أنا أركلُ وظيفة مضمونة في عملي كجامع ضرائب، و تساءل والدي " ما الّذي تبغيه إذن من حياتك ؟ " و عندما أخبرته أنّني أبتغي أن أكون كاتباً أجابني " و هل لديك فكرةٌ عن الكيفيّة الّتي ستكسُبُ بها عيشك من وراء الكتابة ؟ " و هنا كان عليّ أن أجيب بوضوح " كلّا و لستُ أعلمُ شيئاً عن هذا " فما كان من والدي إلّا أن يأمرني بترك المنزل. عندما أستذكرُ اليوم تلك الفترة الحرجة من حياتي أرى أنّ من واجبي الإعتراف بأنّني لم أكنْ أحبُّ والدي كثيراً: كان رجلاً متصلّباً ذا شخصيّة مخيفة و آراء مقنّنة و ثابتة و كان هوسي بالقراءة يمثّلُ له حالة غير سويّة، و أذكرُ أنّني إستعملْتُ مرّة مفكّاً للبراغي أخذتُهُ من عُدّته اليوميّة و نسيتُ إعادته إلى العدّة لاحقاً فعاقبني والدي بصفعات متتاليةٍ و بلا هوادة حتّى إهترأ وجهي لشدّتها و منذ ذلك اليوم كرهتُهُ كراهيّة مستفحلةً و لم تغادرْني تلك الكراهيّة له في السنوات الّلاحقة، و كنتُ كمراهقٍ أحبّ كثيراً الإستماع إلى المسرحيّات و الكونشرتوات السيمفونيّة على المذياع و عندما كان والدي يعود من تناول حصّته اليوميّة من مشروب البيرة في الحانة القريبة من منزلنا كان يعمدُ فوراً الى تغيير مؤشّر المذياع إلى برنامج كوميديّ أو برنامج منوّعات، و هكذا ترسّخت عندي فكرة عدم إمكانيّة وجود ابنٍ يحبّ أباه و لم تغادرني تلك الفكرة إلّا بعد أن أصبحتُ أباً.

كان عليّ في تلك المرحلة الحرجة من عمري أن أقرّر ما الّذي

سأفعله لاحقاً، و كانت لديّ نقود قليلة إدّخرتها من خدمتي في القوّة الجوّية الملكيّة و لكنّها لم تكن لتكفيني طويلاً و لكن برغم ذلك كنتُ في حالةٍ عقليّة تتفجّرُ سعادة و الأهمّ من ذلك أنّني كنتُ واثقاً أنّ كلّ ما سيأتي سيكون مثيراً و باعثاً على البهجة. غادرتُ المنزل ذات يومٍ و أنا أرتدي الزيّ القديم للقوّة الجوّية الملكيّة و حاملاً معي بضعة كتبٍ من تلك المفضّلة لي: باغافاد غيتا، و كتابا أفلاطون (المحاورات) و (فيدو Phaedo)، و المجموعة الكاملة لأعمال وليم بليك، و كنتُ أبتغي العثور على عملٍ كمساعد لمدير صالة عرض في أحد المسارح، و فشلتُ في العثور على وظيفةٍ كهذه و أرى اليوم أنّ ذلك كان ضربة حظّ موفّقة في جانبي و لو حصل و مضيْتُ في أن أكون ممثّلاً أو عاملاً في المسرحِ لأقلعْتُ تماماً عن فكرة الكتابة لاحقاً. قضيْتُ أسبوعيْن و أنا أعملُ في قطاع البناء، و بعد أن جمعْتُ عشر جنيهاتٍ إسترلينيّة قرّرتُ الذهاب إلى ساوثهامبتون عبر خدمة طلب التوصيلِ المجّاني و على أملِ أن أجد هناك مركباً يأخذني إلى الهند: كنت معبّأ أنذاك بتعاليم الغيتا و مسحوراً بالنصوص البوذيّة و راقت لي فكرة أن أصبح (تاثاغاتا Tathagata) أو الجوّال هناك كما راودتْني الفكرة الرومانتيكيّة في قضاء ليلةٍ في موقع (ستونهنج Stonehinge) الّذي رأيته مصوّراً في كتاب بليك عن أورشليم Jerusalem، فمضيْتُ إليه و رأيتُ المكان مسوّراً بأسلاكٍ شائكة كان يتوجّبُ عليّ تسلّقها، و كان اليوم وقتها صيفيّاً حارّاً و لكن مع إقتراب الساعة من الثانية بعد الظهر إنخفضتْ درجة الحرارة كثيراً و راحت أسناني تصطكّ، لذا مضيْتُ و إضطجعْتُ على كومة من القشّ في حقلٍ مجاور و كنتُ أتطلّعُ إلى النهوض قبل فجر اليوم التالي لمعاينة شروق الشمس لكنْ حصل أنّني نهضْتُ متأخّراً كثيراً تحت وقْع وخزات أبر القشّ الّتي إنغرزت في

جسدي كلّه، و عندما رأيتُ في موضعٍ قريبٍ علامةً تشيرُ إلى إحدى ثكنات القوّة الجوّية الملكيّة قرّرتُ على الفور أن أحاول الذهاب هناك و الحصول على وجبة إفطارٍ مجّانيّة، و في اللّحظة الّتي وصلتُ فيها الثكنة مضيْتُ إلى غرفة الحرس و شرحْتُ لهم أنّني صُرِفْتُ من الخدمة في القوة الجوّية الملكيّة و أنّني بإنتظار الحصول على أوراق صرفي النظاميّة من الخدمة و لا أعلم ما الّذي تسبّب في تأخيرها، و قد عاملني الحرّاسُ بكياسةٍ و قدّموا لي الإفطار و الغداء المجّانيّيْن و لكنّهم أبقوني قيد الإنتظار حتّى يتسنّى لهم الإتّصالُ بدائرة الشرطة في ليستر و التحقّق من أمري، و لكمْ أن تتصوّروا كم كانت والدتي منزعجة عندما طرق رجل شرطة باب منزلنا للسؤال عن مدى مصداقيّة أقوالي فطلبتْ منه والدتي أن يعيدني إلى المنزل و هكذا وجدْتُني بعد أربع و عشرين ساعة في منزلنا و دهشْتُ لرؤية أنّ أجواءه باتت أكثر هدوءً و لم يكن ثمّة حديثٌ عن طردي خارج البيت ثانية. كان الصيفُ حارّاً للغاية ذلك الوقت و عملتُ لأسبوعيْن لاحقيْن في ميدان البناء و لكنّي تعبْتُ و ضجرْتُ تماماً فمضيْتُ إلى مكتب إستعلامات العمل في طلب وظيفةٍ جديدة، و لم أشعر بأيّ تأنيب ضمير من جراء تغيير أعمالي بين حينٍ و آخر إذ لطالما تساءلْتُ " لمَ عليّ أن أظلّ مقيّداً إلى ذات العمل الغبيّ حتّى أصبح ضجراً و مستنفَذ القوى كلّياً ؟ "، و هكذا وجدتُ نفسي بعد بضعة أيّام أعمل بائعاً متجوّلاً لبطاقاتِ معرضٍ أفتتحَ حديثاً و يقع على حافة ليستر.

حصل مساء أحد الأيّام أنْ وقفت أمامي فتاة بدتْ لي في الثانية عشرة و راحت تحدّقُ فيّ بتمعّن غريب، و عندما سألتها إنْ كانت ترغبُ في شراء بطاقة من بطاقاتي أجابتْني " هل تريدُ أن تبيع نفسك ؟ " !!، و كانت حقّاً فتاة جميلة ذات وجهٍ بيضويّ مع شيءٍ من حمرة

خفيفة باردة على شفتيها، و عزَمَتْ على إنتظاري حتّى أفرغ من عملي ثمّ مشينا سويّة إلى منزلها الّذي يبعد بضع عشراتٍ من الأمتار و ودّعتها أمام باب المنزل بقبلة. كان إسم الفتاة (ماري) و عرفْتُ من طريقة سلوكها معي أنّها كانت تعتزِمُ أن تجعلني أطارحها الحبّ إلى أقصى مدياته، و إكتشفْتُ لاحقاً أنّ ماري كانت في السادسة عشرة و كانت تقيمُ في مقاطعةٍ قريبةٍ من مجمّع الغجر و كانت تنطقُ بلهجة أهل ليستر المعهودة، و كنتُ واثقاً أنّ رغبتي الجامحة في الجنس سيتمّ إشباعها عمّا قريب. ذهبْتُ صباح اليوم التالي لممارسة عملي كعادتي كلّ يوم فأخبِرْتُ بالإستغناء عن خدماتي فكانت فرصة لي لأن أعود أدراجي لرؤية ماري الّتي وجدْتها بائسة و منتحبة و علمْتُ أن أباها طردَها من المنزل لأنّها عادت الليلة الفائتة بعد حلول الظلام، و أنّها حاولت أن تبحث عن منزلي ففشلت في العثور عليه و لحسن حظّها قضتْ ليلتها في فراشٍ دافئٍ وفّرتْهُ لها إحدى السيّدات المحسِنات الّتي تقطن في منزلٍ لا يبعدُ كثيراً عن منزلنا، و هكذا وجدْنا أنفسنا – أنا و ماري – صباح ذلك اليوم جالسيْن في كافيه وضيعة و سألتْني ماري إنْ كنتُ راغباً في الزواج منها فصعقْتُ لسماع هذه الفكرة الّتي جعلتْ قلبي يغوصُ بين ضلوعي: فقد كان آخر أمرٍ أفكّرُ فيه هو زوجة مراهقة !!. تمالكْتُ نفسي و أجبتُها أنّني سأسعى في رؤية أمّها للحديث حول الأمر، و عندما ذهبْتُ لرؤية أمّها وجدْتُها إمرأةً بدينة متهالكة سقطتْ معظمُ أسنانِها وَ أخبرتْني أنّ بإستطاعة ماري العودة للمنزل ثانية و كان ذلك مبعثَ راحةٍ عظمى لي، و إنطلقْتُ فوراً لرؤية ماري و إخبارها بالأمر و عندما حصل و أخبرتُها لمحتُ إشراقة الإبتهاج في عينيها و كان نصيبي من الإبتهاج العظيم لا يقلّ عن بهجة ماري

بعد أن تيقّنتُ من العودة إلى عالمي الجميل الّذي لا أُطيقُ فراقهُ أبداً: الشّعرُ و الموسيقى و الفلسفة.

راحت ماري تحلُمُ أحلام يقظةٍ مُبهجة و ترى في نفسها زوجةً مستقبليّة لكاتبٍ كبير يُقيمُ في لندن و طبقت شهرته الآفاق، و كانت تطمحُ أن تكون أمّها قريبةً منها و لكنّ الحقيقة أنّني كنت تعبْتُ من كلّ الحبّ و التقبيل اللذيْن كنت أطارحهما ماري، و رغبُ بشدّة في العودة إلى منزلنا و الإنغمار في الكتابة و من بعدها الجلوس بأرجلٍ متقاطعَةٍ على أرضيّة غرفتي و ممارسة التأمّل حسب. أبانتْ لي علاقتي مع ماري واحدةً من الأسرار المخفيّة: فالطبيعةُ عادةً ما تُغري خطّافنا الجنسيّ بنوْعٍ من العسل المُشتهى الّذي يغدو بعد حينٍ سُمّاً نُدمِنُهُ و يملؤنا مذاقه بذلك الإحساس المتفجّر من الشهوة اللذيذة و عندها يبدأ العقلُ في إشتهاء كلّ ما يشبعُ شهيّته من المُحرّمات بعيدة المنال، و أنّ من المثير للغاية معرفةُ أنّ أكثر المتطهّرين عفّةً لن يشعروا بتلك الشهوة الجامحة تجاه زوجاتهم ما لم تمَسَسْهُم شرارةٌ من تلك اللذّة المشتهاة.

بعْدَ أن أطاحَ بي الضّجرُ من العمل في مواقع البِناء طلبْتُ معونة مكتب تنسيق العمل فإقترحوا عليّ أن أصبح تلميذاً زراعيّاً أتدرّبُ في إحدى المزارع بِمُنحةٍ صغيرةٍ يمكنُ تغطيةُ تكاليفِها بمساعدةٍ حكوميّة ستُقدَمُ لي طبقاً إلى برنامج التدريب الحكوميّ، و بدا الأمرُ لي مُستحِقّاً للمُحاولة لذا إنطلقْتُ أوّل الأمر إلى قرية نيوبولد فيردون Newbold Verdon حيثُ كان ثمّة مالكُ مزرعةٍ بحاجةٍ إلى مُساعدٍ زراعيّ. تعلّمْتُ هناك كيفَ أحلِبُ الأبقار في السّادسة صباحاً، و كيفَ أجمعُ الروث في عربة يدويّة ثمّ أنقلهُ إلى حيثُ يمكنُ تكديسهُ بهيئة أكوام، ثمّ بعْد تناول الفطور يبدأ العمل على عزل القشّ و تكديسه، و كان

هذا النّمط من العمل رائعاً عندما يقرأُ المرءُ عنه في كتب الشّعر و حسبُ و لكنّهُ في واقع الحال كان صلباً و قاسياً للغاية، و بعد وقتٍ ليس بالطويل علمَ صاحبُ المزرعة انّني لم أكن ذلك التلميذ المُكرّس لتعلّم فنون الزّراعة و فاجأني يوماً بسُؤاله " أنت تعملُ في هذا العمل لمجرّد تزجية الوقت و المزاح. أ ليس كذلك؟ " ثمّ أعادني إلى مكتب تنسيق العمل. عملْتُ لاحقاً مرّتيْن في أعمال الزّراعة: كانت المزرعةُ في المرّة الثانية قريبةً من المنزل إلى حدّ أنّني كنتُ أذهبُ إليها يوميّاً و أنا أسْتقلُّ الحافلة و كنتُ حللْتُ محلّ أجيرٍ زراعيٍّ ضُبِطَ مُتلبّساً و هو يتعاطى الجّنس مع بقرة، و لكن بقيت المُشكلة الأساسيّة تُطارِدُني: لم أكن أرغبُ ببساطةً العمل في أمثال هذه الأعمال و كنتُ مُتيقّناً أنّني أهدرُ وقْتي بلا نتيجةٍ مُتوقّعة.

مضت علاقتي مع ماري بسلاسةٍ مُمتعة، و كانت مشكلتي الوحيدة معها أنّها كانت تقعُ أحياناً فريسة عواطفها العنيفة تماماً مثل العواصف الصّيفيّة و ربّما لم تكن تشعرُ بأمانٍ كافٍ معي أو أنّ مزاجَها كان يستوْجبُ أحياناً إنفجاراتٍ سلوكيّة مفاجئة بقصْد تسخين الأجواء معي، و كثيراً ما حصل أن تشاجرت معي أو إنفجرت بالبُكاء بعد أن أكونُ تفوّهْتُ ببضعِ كلماتٍ قلتُها ببراءة كاملة، و كانت تحصلُ معها أحياناً إنفجاراتٌ عاطفيّة تنتهي بها و هي تضحكُ كفرْدٍ عاجز تماماً و كانت تجعلُ كلّ كلّ منْ حولها ينفجرُ ضاحكاً هو الآخر: حصل مرّة أن إستوقفتْنا غجريّة عجوزٌ في الشّارع و طلبَت إليْنا شراء حُليةٍ من بين الحلْي الكثيرة التي تبيعُها، و طلبتْ ثمناً لإحدى الحلْي أكثر بكثيرٍ ممّا يستوجبُ دفعهُ و لكن مع هذا نقدْتُها ما طلبَتْ و قلتُ لماري مُعلّقاً " أعرفُ أنّها غشّتْنا بالطبْع "، ثمّ أردفْتُ " ليُباركْها الربّ، إذ ينبغي عليْنا جميعاً أن نكسبَ عيْشنا في نهاية الأمر "، و كم دهشْتُ

عندما صعقَت كلماتي هذه ماري و جعلتْها تغرقُ في نوبةٍ من الصّراخ و الضّحك لخمس دقائق كاملة. لم تكنْ لديّ أيّة نيّةٍ في الزّواج من ماري و لكن لو كان أمري معها مضى على تلك الشّاكلة لإنتهى حتماً بالزّواج منها بحُكْمِ قوّة العادات لذا مضيْتُ في إلتقاط صوَرٍ لي و طلبِ جوازِ سفرٍ و تركْتُ ملاحظةً لدى صاحب المزرعة الّتي كنتُ أعملُ فيها آنذاك بأنّني عازمٌ على ترك العمل، و دُهشْتُ كثيراً لشُعور الحزن الّذي إنتابَني و أنا في طريقي إلى محطّة إنتظار الحافلة في يومِ عملي الأخير في المزرعة بعْد أن أصبحْتُ أستطيبُ العمل في الحقول الزراعيّة المفتوحة حيثُ الهواء العليلُ يملأُ صدري و لكن طالما كنتُ أبتغي أن أكون كاتباً فلم يكن أمامي ثمّة بديلٌ عن إيجادِ طريقةٍ أخرى في الحياة يمكنُ لها أن تقودَني في الإتّجاه الصّحيح.

بكتْ ماري كثيراً عندما أعلمْتُها بِما أرغبُ فعلهُ في الأيّام القادمة، و عزمْتُ على إصطِحابِها في نزهةِ وداعٍ أخيرةٍ إلى مُقاطعة البُحيْرات Lake District و لم تكن تلك النُّزهة بالقرار الحكيم بعد أن أتَتْ على النقود القليلة الّتي كنتُ إدّخرْتُها رغْمَ أنّنا إستخدمْنا التوصيلات المجّانيّة و مكثْنا في نُزُل الشّباب طول الوقت، و يمكِنُني القولُ أنّني مدينٌ لماري إلى أبعد الحدود: فقد غيّرت حياتي و جعلتْ منّي إنساناً جديداً و إستطاعت في خاتمة الأمر أن تستبْدِلَ ذلك الرّومانتيكيّ المملوء ضجراً من العالم بإنسانٍ واقعيّ يعرفُ ما يبتغي تماماً. أتذكّرُ حتّى اليوم عندما إنطلقْنا أنا وَ ماري إلى سفحِ تلّةٍ في ديربيشاير Derbyshireوسْط جوّ عاصف و تشاركْنا الحبّ و نحنُ مُستندانِ إلى جذع شجرةٍ، ثمّ إنطلقْنا إلى قمّة برْجٍ قريبٍ و أطارت الرّيحُ العاصفةُ غطاء رأسي (البيريّة) الّتي كنتُ أرتَديها، ثمّ بدأ المطرُ ينهمرُ بغزارةٍ فبحثْنا عن ملجإٍ مناسبٍ تحت الأرض مغطّىً بأوراق الشّجر و مضى

بنا الوقتُ و نحنُ نستمعُ إلى وقْعِ المطر فوقَ رؤوسنا، و عندما قفلْنا عائدين أسفل التلّة كانت أوراقُ الأشجار تمرُّ مع الريح من حولِنا و عندها إمتلاتُ بإحساسٍ لايُقاوَمُ من القوّة و الحرّيّة و رأيْتُ في ضجرِ سنواتِ مراهقتي أمراً تافهاً لا يستحقُّ كلّ ذلك العناء و علمْتُ أنّني وقعْتُ على سرّ عظيم: لا تقبلْ أبداً الضّجر و العجز عن تحقيق الذات كأمْرٍ مُسلّم به " و إذا لم تكن حياتُكُ تروقُ لك فيمكِنُكَ تغييرُها "، و ما إن تشبّعت روحي بهذا السرّ حتّى أدركْتُ أنّ المستقبل لن يأتي لي إلّا بالإنتصار في تحقيق ما أتطلّعُ إليْه، و أنّني قادرٌ على تحمُّل كلّ ما يمكنُ أن يحصل لي لاحقاً. إنبهرتْ ماري أيّما إنبهارٍ بجمال البحيرات الأخّاذ و كانت لا تتعبُ من ترديد عبارة " كمْ أودُّ أن تكون أمّي هنا "،و كنتُ أشعرُ حينذاك أنّها لم تكن ترى أيّة بهجةٍ أمامها واقعيّةً و مكتمِلةً ما لْم تكنْ أمّها برفقتِها و هنا إنتابَني إحساسٌ أبويٌّ بضرورة الحفاظ عليْها مقروناً بالأسف من أجلها كذلك و لكنّي كنتُ أعلمُ أنّ زواجي بها سينْتهي إلى كارثةٍ مفجعةٍ و أنّني إذا مامكثْتُ معها أكثر فستلتفّ خيوطُ حريرِها الّتي نسجتْها حولي لِتَجْعلُني مسجوناً داخل شرنقتها، و عندما عذْنا إلى ليستر كان ثمّة الكثيرُ من الوداع المؤلم المقترن بالدموع و تشاركْنا الحبّ حتّى آخر اللّحظات المتاحة أمامَنا، و أقسمت ماري أنّها ستبقى تنتظرُني إلى الأبد، ثمّ غادرْتُ إلى دوفر و أنا لا أملكُ في محفظتي أكثر من نصفِ جنيْهٍ إقترضْتهُ من والدتي.

٤. فرنسا

كانت محَطّتي الأولى في طريقي إلى دوفر منزلَ صديق لي مثليّ الجّنس وَيقيمُ في نورثهامبتون Northampton يدعى (جاكي شيفرد) الّذي أبدى ولهاً و تعلّقاً بي شَبيهاً بذاك الّذي أبدتْهُ ماري و لكنْ لمّا كنتُ بعيداً عن أيّة مُمارساتٍ جنسيّة مثليّة لذا لم يكن لديّ الكثيرُ الّذي يمكنني تقديمهُ لصديقي، و قد ساءت الأمورُ أكثر عندما جعلَني أهلهُ أنامُ معه في سريرٍ مزدوجٍ واحد لأنّهم ماكانوا يعرفون بميوله المثليّة تلك. إصطحبَني صديقي في اليوم التّالي إلى حفلة عيد ميلاد بمنزل أصدقاء له: أخٌ وَ أختٌ توأمان رائعا المظهر و تبدو عليهم علاماتُ الرّفعة، و إلتقيْتُ هناك فَتاةً مُمْتلئةً جميلة ذات بشرةٍ رقيقة تدعى (ماريون Marion) و إلتقيْتُها ثانيةً في منزل صديقٍ في اليوم التّالي، و لم أكنْ حينها نسيتُ ماري و لكنّ الحقيقة الصّارخة كانت تقولُ أنّ ماريون بدت متعلّقةً بي لذا فكّرْتُ بإيجاد عملٍ لي وَالاستقرار في نورثهامبتون. كانت سيرينات الإغواء المُغنّيات قد عدْن للغِناء و بطريقةٍ أجمل من غناء فتيات ليستر (**السيرينات: مخلوقاتٌ أسطوريّةٌ يونانيّة على شكل مَخلوق بنصف طائر و نصف امرأة، و يتسبّبُ غناؤها السّاحر في موت المستمعين جوعاً لانّهم ينسون أمر الطّعام، المُترجمة**) و لكن كنتُ أدرِكُ أنّ من العبث النكوص عن القدر الّذي إخترْتهُ لنفسي لذا لم يكنْ أمامي مناصٌ من الإنطلاق في اليوم التّالي و كنتُ أشعرُ حينها كبطل كوميديا موسيقيّة إنغمر في الوداع الأخير لحبيبة قلبه الوحيدة.

لحُسْن الحظّ قرّرَ جاكي مُرافقَتي إلى دوفر و لكن ليس إلى ما هو أبعدُ منها، و كنتُ حينها مُفلِساً تماماً، و كان جاكي قادراً على إدامةِ إحتياجاتِنا لبضعةِ أيّام فحسبُ و حتّى يمكِنَنا إيجادُ عملٍ لنا كجامِعي نبات الجنجل hop قريباً من كانتربري، و وفّر لنا مالكُ المزرعة كوخاً صغيراً مصنوعاً من صفائح قصديريّة و مُجهّزاً بأسرّةٍ من القشّ، و لمّا كنّا نمتلِكُ بطّانيّتين فقط كان لزاماً علينا النومُ مُشتَركيْن إتّقاءً للبرد. لم يكن جاكي مُعتاداً على العمل الجَسديّ لذا إمتلأ ضجراً و قرّرَ العودة إلى نورثهامبتون و إلتحقَ بي عوضاً عنهُ صديقي آلان – المثليُّ جنسيّاً أيضاً و الّذي تمتدُّ معرفتي به إلى ليستر – و عملْنا سويّةً في قطف التفّاح بمدينة ماردين Marden التابعة لمُقاطعة كنت، و لم يكُنْ مُقدّراً لِصُحبتِنا أن تدومَ طويلاً: كان آلان ذوّاقةً لأدب بروست و كان لا يملُّ من قراءته طول الوقت بينما كنتُ أنا أحملُ كتاب (Gargantua and Pantagruel) في حقيبة ظَهري و ربّما تسبّبْتُ لآلان بذات الإحباط الّذي ملأتُ به روح جاكي من قبله، و حصل ذاتَ يومٍ أن تشاجرْتُ مع آلان لذا تركَني و مضى لعبور القنال الإنكليزيّ – كما سمعْتُ لاحقاً – و إلتقى صَديقاً ثريّاً إصْطحبَهُ إلى روما، أمّا فيما يخصُّني فوجدْتُ عملاً لي في جمْع البطاطا و وافقَ صاحبُ المزرعة على نومي في الطّابق الأوّل من كوخٍ مُتداعٍ (كان الطابقُ الأوّلُ مليئاً بالبطاطا)، و لأنّ نصف أرضيّة الطّابَق الأوّل كانَ مخلوعاً لذا توجّبَ عليّ الإنتباهُ لئلّا أسقط وسط كومة البطاطا أثناء اللّيل، و وفّرَ لي العملُ مايكفي لِرُكوبِ العبّارة الّتي ستأخذُني عبْر القنال الإنكليزيّ مع حوالي الجنيْه كإحتياطيٍّ في جيْبي. ينبغي عليّ الإعترافُ في هذا المقام أنّني لم أطِقْ حالة التشرّد الّتي كنتُ أعيشُها آنذاك و كنتُ توّاقاً إلى دفء المنزل و كان التجوّلُ بحالتي تلك شبيهاً بريحٍ مُثلجة تدفعُ المرء للشُعور

بالإنقباض و عدم الرّاحة، و إنتهيْتُ إلى شعورٍ صارم بأنّ الحقيقة المتجسّدة أمامي أمرٌ بعيدٌ عمّا يمكنُ أن أرغب فيه أو اتطلّعَ إليْه.

بدت لي فرنسا بلداً غريباً تماماً: إذ لا يزالُ في مقدوري تذكّرُ ساحلها الخشن، و المنطقة المُسطّحة العارية المُحيطة بمرفأ كاليه Calais، و خطوط الترام، وَ المنازل المقصوفة بالقنابل، وَ الشّوارع المرصوفة. دلّتني الخريطةُ الّتي في حوزتي أنّ الطّريق سيكونُ طويلاً نحو ستراسبورغ حيثُ كنتُ أرْتجي المُكوث مع صديقٍ يُشارِكُني إهتماماتي الفكريّة: ويللي سشويسكا Willi Schwiscka في مقابل العُطلة الّتي قضاها في منزلِنا قبْل سنتيْن. إتّجهْتُ نحْوَ محلٍّ و إبتعْتُ رغيفاً طويلاً من الخبز الفرنسيّ (لوف Loaf) مع قنّينةٍ من النبيذ الأحمر (دفعْتُ مائةً من الفرنكات ثمناً للنبيذ و كان الجنيه الذي بحوزتي يعادِلُ ألف فرنك فرنسيّ) و بعض البصل و تناولْتُ وجبتي الأولى في فرنسا و أنا جالِسٌ على حافّة طريقٍ من الطرقات الكثيرة المشجّرة و أمامي كان الرّيفُ يمتدّ فسيحاً في كلِّ الإتّجاهات، و لم أكنْ تذوّقتُ النبيذ من قبلُ – بإستثناء البورت Port – و وجدتُهُ مُفرِطاً في المرارة. تمكّنْتُ أخيراً من بلوغ ليل Lille عبْرَ سلسلةٍ من التوصيلات المجانيّة و نجحْتُ في إيجاد مأوى لي هناك في أحد نُزُل الشّباب وعرفْتُ أنّني نسيتُ نسختي من كتاب بليك في إحدى التوصيلات المجانيّة و كانت تلك بدايةً سيّئة لي.

مررْتُ بمغامرةٍ غريبةٍ في ليل: كان ثمّة فتاتانِ إنكليزيّتان في النّزُل تعملان في بنك بمدينة ريديتش Redditch و كان إسماهُما ويندي وّ جين، و عندما كنتُ مُنهمِكاً صباح اليوم التّالي في إعدادِ فطوري تقدّمت الفتاتان منّي و سألتا عمّا أبتغي فعله ذلك اليوم فأجبْتُهم

برغبتي في الإنطلاق إلى ستراسبورغ، و عندها أخبرَتاني أنّ رجلاً فرنسيّاً عرضَ عليهما التّطواف في أرجاء مدينة ليل و لكنّ شكوكاً كانت تُراوِدُهُما بشأنه لذا طلبتا إليّ أن أرافقَهُما لو كان هذا ممكناً، و وجدْتُ العرْضَ غيْر قابلٍ للرفض لذا عزمْتُ على قضاء يومٍ إضافيٍّ في ليل. قدّم الرّجلُ الفرنسيُّ نفسهُ إليْنا باسم ميشيل دي ريوفور و أشار إلى تحدّره من عائلةٍ أرستقراطيّة و هو ما بعثَ الشكَّ في نفسي إذ لم يكنْ فيه ثمّة ما يشيرُ إلى جذوره الارستقراطيّة المُدّعاة. بدا الرّجلُ مهتمّاً بِـ (جين) لذا لم يكن أمامي مفرٌّ من مُصاحبة ويندي، و قبيْل نهاية اليوم راح ميشيل يمشي و ذراعـهُ تطوّقُ خصْر جين و راحا يتبادلان القُبلَ بين الأشجار، و برغْم أنّني لم أكن أميلُ إلى ويندي فقد وجدتُ نفسي مُرغماً على فعل الشئ ذاته معها: وضعُ ذراعي حول خصْرِها و تقبيلُها بين أغصان الأشجار المتزاحمة، و عندما عدْنا للنزل سألتْني ويندي و نحنُ جالِسان على السلّم الخارجي وسط الظّلمة " لماذا لا تُرافِقُنا إلى باريس ؟ سأفتقِدُكَ كثيراً. هل تفعلُها و تأتي معنا ؟ " و دُهشْتُ لعرضها كثيراً إذ بدا لي أمرُ تعلّقِها بي بعد بضع ساعاتٍ فحسب سخيفاً للغاية و محضَ تعلّقٍ عاطفيّ عارض و لكنّها أكّدت لي رغبتها في مرافقتهم، و هنا أوضحْتُ لها أنَ كلّ النّقود الّتي بمحفظتي لا تتعدّى بضع فرنكاتٍ و ينبغي لي أن أواصل طريقي إلى ستراسبورغ. تناولْنا الإفطارَ جميعاً صباح اليوم التّالي و قالت لي ويندي "تعالَ و ودّعْنا في الاقلّ" و قال ميشيل أنّه يعرفُ بأمر مقهىً يتكدّسُ فيه سائقو الشّاحنات و أنّهُ يستطيعُ العثور على توصيلةٍ للفتاتيْن إلى باريس، و أخذنا ميشيل إلى مقهى يقعُ في أحدى ضواحي ليل، و بعد عشرِ دقائق جاء ميشيل بصحبة أحد سائقي السيّارات و أشار إلى الفتاتيْن "سيأخذكُما في سيّارته"، و قبّلْتُ ويندي، و قبّل ميشيل جين، و

صعدت الفتاتان السيّارة و هنا لَكَزَني ميشيل على كتفي و قال " نذهبُ نحنُ معهما ؟؟؟ هههه "، فأجبْته " و لكنّي تركْتُ كلّ متاعي في النُّزل "، فردّ عليّ " لا بأس، لن نتأخّر كثيراً، سنعودُ غداً "، فرددْتُ عليه " لكن لا نقودَ معي "، فأجاب ميشيل " لا تقلقْ، سأقرِضُك بعض المال، فلديّ أختٌ مقيمةٌ في باريس " و هكذا وجدْنا أنفسنا جميعاً في السيّارة وسْط دهشة السّائق و إستغرابه للأمر.

كانت رحلتُنا إلى باريس مجهدةً للغاية: فقد تعطّلت بنا السيّارةُ بعد هبوط الظّلام و تمكنّا من الحصول على توصيلةٍ مجّانيّة ثانية، وّ وصلْنا باريس قرب ميدان الأوبرا حوالي السّاعة الثانية بعد منتصف الليل من اليوم التّالي و كنّا مُنهَكين للغاية و بروحٍ معنويّة متهالكة، و عقد ميشيل العزْمَ أن نقضي ليلتَنا في قسم الشّرطة، فإنطلقْنا جميعاً إلى قسم الشّرطة و شرحْنا لهم وضعنا و دهِشْتُ كثيراً للطريقة الّتي سلك بها ميشيل مع رجال الشرطة إذ أخبرَهم أنّهُ أمريكيٌّ و تحدَّثَ معهم بلهجةٍ فرنسيّة كان هو يعتبِرُها لكنةً أمريكيّة، و بالفعل سمحَ لنا رجالُ الشّرطة بقضاء ليلتِنا في إحدى الزنزانات الّتي كانت خلوّاً من أيّة أسِرّة و كان في وسَطها مائدةٌ كبيرةٌ صلبةٌ، و لم يكن أمامَنا إلّا أن ننامَ جميعنا على هذه المائدة الوحيدة مُستعينين بستراتِنا و معاطفِنا كبديلٍ عن الأغطية، و عند السّاعة السّادسة فجراً أيقظَنا رجالُ الشّرطة فَخرجْنا إلى فجْر باريس البارد و شاهدْنا أشعّة الشّمس و هي تتلوّنُ بلون النّار المتوهّجة على بوّابات دار الأوبرا، و رُحْنا نتساءلُ عن أقربِ مكانٍ يمكنُ أن نتناول فيه القهوة. إقترحْتُ أن نجد السّبيل إلى شقيقة ميشيل، و لكنّ ميشيل كان قد أصبح مراوغاً متملّصاً و راحَ يحاوِلُ جرّنا خلفهُ إلى متحف اللوفر و حدائق التفّاح، و كنّا جميعاً آنذاك في حالةٍ نفسيّة مُتعبة للغاية، وأخيراً عندما إختفى ميشيل لبعض الوقت في مِبْولةٍ بأحد

المرافق الصحّية قالت لي جين " أبعدْ هذا الرّجل عنّا بحقّ السّماء،، إنّهُ يدفعُنا إلى حافّة الجنون ". كان يبدو أنّ ميشيل يحبّ جين و قرّر أن يتزوّجها و كان يعرضُ عليْها الكثير من مُخطّطات المشاريع المجنونة، و ما أن عاد ميشيل حتّى قلتُ له " أنا عائدٌ إلى ليل بعد ظهرِ هذا اليوم، و الفتاتان تريدانِكَ أن تأتي معي "، و بعد أن ذرفت عينا ميشيل بعض الدموع وافق في نهاية الأمْرعلى العودة معي.

كانت رحلةُ العودة إلى ليل أسوأ بكثيرٍ من رحلتِنا الأولى إلى باريس: فقد أمضيْنا الكثير من الوقت و نحنُ نسيرُ في الظّلام تحت المطر، و عدتُ إلى نزل الشّباب بعد حلول الظّلام في اليوم التّالي و رافقَني ميشيل ثمّ إختفى فجّأةً، و تملّك الغضبُ المشرفَ على النّزَل بعد أن غادر ميشيل من غير أن يسدّد ما بذمّته الماليّة، ثمّ جاءت الشّرطةُ صباح اليوم التّالي للبحث عنْهُ و علمْنا منها أنّ ميشيل كان يعملُ لحسابِ شركةٍ تعملُ في تأجير المواد ثمّ تركَها بعد أن إختلسَ مبلغاً كبيراً من المال منها، و من الطبيعيّ أنّ إسمه لم يكن دي ريوفور بل كان ميريكال. لم أكن آنذاك في حالةٍ تسمحُ لي بأن أدقّق كثيراً .بما كان يجري من حولي بعد أن أصابتْني أسوأ نزلة برْدٍ في حياتي عقبَ عودتي من باريس: كان رأسي يدقُّ و حنجرتي تحترقُ و عينايَ تَسيلان بلا إنقطاع، و لسوء الحظّ لم يكن معي أيّة نقود لشراء أيّ طعام لي فضلاً عن دفْعِ فاتورة إقامتي في النُّزُل و لكنّي كنتُ دوماً أتدبّرُ كمّياتٍ قليلة من الطّعام في أوعية المطبخ الّتي كان بقيّة النّزلاء يَتركون بقايا طعامهم فيها، و صارت الأمورُ أكثر سوءً معي بعدما وصلتْني بطاقةٌ بريديّةٌ من ويندي تطلبُ إليّ فيها أن أعود للإنضمام إليهم في باريس و ذيّلت البطاقة بالتوقيع " ويندي الوحيدة الّتي هي لك وحدك ". كانت ويندي تقيمُ حينذاك في نزُلٍ للشباب بمنطقة بورت

دو شاتيلون، و فجاةً فقدْتُ كلّ إهتمام لي في بلوغ ستراسبورغ و تحدّثْتُ مع المُشرفة على النزل و ابلغتُها أنّني لا أمتلكُ أيّةَ نقودٍ و أنّني سوف أسدّدُ ما بذمّتي حالما أصلُ ستراسبورغ و تركْتُ معها بعض أحذيَتي كضمانةٍ للتسديد و إنطلقْتُ على الفور إلى باريس ثانيّةً. كان أمرُ بلوغي باريس ميؤوساً منه تماماً: كانَ رأسي يلفُّ كالمغزل وَ قدَماي لا تقويان على حملي و راح المطرُ يهطلُ بغزارةٍ بعد الظّلام، و لم أعثرْ على أيّة توصيلةٍ إلى باريس فعُدْتُ بتوصيلةٍ مجّانيّةٍ إلى ليل، و رآني رجلٌ فرنسيٌّ طيّبٌ و عرف أنّني كنتُ أعاني حمّى شديدة لذا أخذَني إلى مقهىً و أصرّ على أن أشرب كأسين من البراندي مع فنجان قهوةٍ ساخنة ثمّ أعادَني إلى النّزل، و في تلك الليلة تعرّقْتُ كما لم أتعرّق من قبلُ في حياتي كلّها و لكن عندما نهضْتُ في الصّباح كانت الحمّى قد تلاشت تماماً لكنّي كنتُ أشعرُ بوهنٍ شديد. كانت الشّمسُ مشرقةً و وَكانت (ويندي الوحيدة الّتي هي لي وحْدي) تنتظرُني بشوْقٍ في باريس، لذا مضيْتُ مرّة أخرى في حزْم حقائبي و كنتُ إلتقيْتُ بائعاً متجوّلاً في النّزل: كان رجلاً قصيراً وسيماً ذا خصلة شعرٍ تتدلّى على جبينه و له شاربٌ يشبهُ شارب كلارك غيبل، و سألتهُ إن كان يستطيعُ إقراضي أيّ مبلغٍ من المال فأجابني بأنّه لا يملكُ الكثير من المال و إنّ كلّ ما يستطيعُ الإستغناء عنه لا يتعدّى مائة فرنك و أعطاني عنوان محلّ إقامته في باريس، و إنطلقْتُ في رحلتي ثانيةً إلى باريس و عثرْتُ في منطقةٍ ما من رحلتي على مجموعةٍ من أشجار التفّاح كانت محمّلةً بثمار التفّاح الصّغيرة و لكن حلوة المذاق فملأتُ حقيبة ظهري و حقيبةً ثانيةً معي بتلك الثّمار كما ملأتُ جيوبَ معطف القوّة الجوّية الملكيّة بالثمار كذلك و صارت تلك الثّمارُ هي كلّ طعامي لبضعة الأيّام الّلاحقة. وصلْتُ باريس في المساء و ركبتُ الميترو إلى بورت

دي شاتيلون، و حاولْتُ أن أتخيّلَ وجهَ ويندي عندما تراني و هل سيغْتريها بهجةٌ أم دهشةٌ (فلم أكن أخبرْتُها بأنّني ذاهِبٌ إليْها) أم أنّها ستمكثُ خجولةً و لا تُبدي عواطفَها ؟ لَمْ تُبدِ ويندي لا بهجةً و لا دهشة بل أبْدتْ تضايقَها المعْلن لأنّها كانت إلتقتْ في الأيّام القليلة المضية بشابّ نرويجيّ طويل القامة، و حينما رأيتُها كانت تضعُ يدها حول خصره و بدا واضحاً أن لا مجال لأيّة إعتذاراتٍ أو عتابٍ معها، و إكتفيْتُ بهزّ كتفيّ و حاولْتُ ألّا أكتئب لهذا إذ كان ثمّة أمورٌ أكثر أهميّة من كلّ هذا: كنتُ بلا نقودٍ و لا سكن، و كان نزلُ الشّباب مكتظّاً عن آخره بالشّباب الّذين كانوا ينامون في حقائب النّوم على الأرضيّة (كانت ويندي تتشاركُ النّومَ في حقيبة صديقها النّرويجيّ) و لكن يبدو أنّ ضربة حظّ خدمتْني آنذاك بعد أن تلقّى شابّ أمريكيٌّ برقيّة بضرورة مغادرته و هكذا صار في مقدوري النّومُ في فراشه بعدَ أن طلبتُ منه عدم إخبار المشرف على النزُل بأمر مغادرته المفاجئة، و لمّا كنتُ لم أسجّل إسمي في قوائم النّزلاء فقد تمكّنْتُ من التسلّل خارج النُّزُل دون دفع أجرة مبيت اليوم التّالي، و لم أقلْ أيّة كلمة وداعٍ لِـ (ويندي). كان ذلك اليومُ كئيباً قاتماً و الرّياحُ تعبثُ بالأشجار في حدائق آفينيو دي شاتليون، و لم أكنْ أبداً من ذلك النّوع الّذي يستطيبُ لعبة الإشفاق على الذّات أو يستجديها من أحدٍ و لكنّي كنتُ موقناً أنّ ذكرى ويندي ستظلُّ تعبثُ بتفكيري مثلما يفعلُ وجعُ الاسنان في وقتٍ احتاجُ فيه لتركيز كلّ جهودي في مسائل أكثر جوهريّة بكثير، و في لحظةٍ ما حدث أمرٌ مدهشٌ: أشرقت الشّمسُ و غمر ضياؤُها قمم الأشجار الّتي كانت قِبالَتي، و فجأةً ملأني أحساسٌ باهرٌ بجمالِها و بهاءِها، و مضيْتُ أمتحِنُ الفكرة التّالية الّتي ملكت عقلي: شعرْتُ أنّ كلّ هذا الجَمال البهيّ موجودٌ سواءٌ شعرْتُ به أم لم أفعلْ، و في هذه

الّلحظة رأيْتُ نفسي كائناً بعيداً مَحدوداً كما لو كنتُ أعايِنُ نفسي من نافذة طائرةٍ، وَ وجدْتُني كمَنْ كنتُ أصارِعُ طول الوقْت بالضّدّ من مَشاعر وقتيّة عابرةٍ و زائلة كنتُ أعتبرُها كما لو كانت هي كلّ ما يوجدُ في هذا الكون، و شعرْتُ ببهجَةٍ عظمى و برغبةً في الضّحك و علمْتُ أنّ سعادتي الغامرة تلك قد أطاحت بذكرى ويندي بعيداً عن عقلي و أثبتت الوقائع اللاحقة صحّة إعتقادي بعد أن غادرتْني التفجّرات العاطفيّة المؤذية الّتي تسبّبت بها علاقتي بويندي.

كان عنوان كلود جيّوم (الرّجل الفرنسيّ الطيّب الّذي أقرضَني مائة فرنك في ليل) هو ميدان دي تيرن قريباً من الأتوال Etoile، و عندما طرقْتُ الباب فتحتْهُ لي فتاةٌ هائلةُ الجَمال لم أرَ مثلها مِنْ قبلُ و ذات بشرةٍ هي الأكثرُ رِقّةً من بين تلك الّتي رأيْتُها في حياتي كما كانت عيناها تشعّان جمالاً أخّاذاً و عرفْتُ أنّها ماري زوجةُ كلود، و عندما أعلمْتُها بسبب قدومي دعتْني للدخول على الفوْر و بدا أنّ الحظّ كان يُحالفُني ثانيّةً: كانت ماري مشغولةً في الإعدادِ لإمتحان تحضيريٍّ لكي تكون مدرّسةً و كانت تتصارعُ مع (حكايات كانتربري The Canterbury Tales) الّتي كانت تجدُ لغتَها مُستعصِيةً على الفهم، و لمّا كنتُ قرأتُ أغلب أعمال تشوسر Chaucer أثناء سنواتِ مُراهقتي فقد أمضيْتُ ساعةً كاملةً في مُساعدة ماري على فهم (حكاية الفارس A Knight"s Tale) و طلبت إليّ ماري في خاتمة الدّرس أن أبقى معهما لأطولِ فترة مُتاحة أمامي رغم أنّهما كانا يُقيمانِ في غرفةٍ واحدة، و بعد أن عاد كلود مساءً و علم بالحكاية سُرَّ هو الآخر لأنّ زوجتهُ وجدت مدرّساً لها، و في المساء و لاوّلِ مرّة منذ مايقارِبُ الشّهر تناولْتُ قطعةً من الّلحم (ستيك) مع الخضراواتِ و نمْتُ على وسادةٍ هوائيّة موضوعة على أرضيّة الغرفة، و عندما أستذكِرُ تلك الحكاية

أهمسُ لنفسي: كم كانت تلك الأفعالُ شاقّةً على شابٍّ غضّ في مثل عمري آنذاك، و لكن يبدو أنّ القدرَ وقف معي و ساندَني بكلّ قوّة. إلتقطْتُ في اليوم التّالي كتاباً غريب الطّباعة موضوعاً فوق بيانو كلود، و كان عنوانه (شراراتُ السّندان Etincelles de mon Enclume) و بدا لي الكتابُ مكتوباً بلُغةٍ فرنسيّة جافّة لا تنطوي على أيّ قدْرٍ من الطّراوة، و كان الكتابُ الّذي كُتبَ على غلافه طبعة ثانية محشوّاً بالعبارات الإنسانيّة الرقيقة من مثل " إنّ الإنسانَ لَفي حاجةٍ إلى الشّجاعة أكثر بكثيرٍ من حاجته إلى الذّهب " و كذلك " إنّ الأكثر أهمّيّةً في حياتنا هو المسرحُ و الموسيقى و الحوارُ الإنسانيّ "، و كان إسمُ المؤلّف مطبوعاً على الغلاف: رايموند دنكان Raymond Duncan، و رآني كلود أقرأُ في الكتاب فقال لي " آآآه، نعم، هذا مليونيرٌ أمريكيٌّ يديرُ مدرسةً لتعليم الكُتّاب في شارع سين، و هنا بدأتُ أصغي بكلّ إنتباه و أراني كلود مجلّداً آخر لِدنكان مكتوباً بالإنكليزيّة هذه المرّة، و بدا لي كتاباً مليئاً بأشعارٍ مكتوبةٍ بنكهةٍ ويتمانيّة Whitmanesque (إشارةً إلى والت ويتمان):

أنظرْ فوْقك إلى حيثُ السّماء،،،

و تحتك إلى حيثُ موضعُ أقدامك على الأرض،،،

فها هُنا موْضِعُ مسْرحِنا،،،

وجدْتُ في هذه العبارات العاطفيّة محضَ كلماتٍ رجراجةٍ متميّعة و غامضة، و لكن إذا كان هذا الرّجلُ يزعمُ أنّهُ راعٍ للكُتّاب الشّباب فليس لديّ سببٌ معقولٌ يجعلُني أحتارُ في أمره أو أرفضهُ من الأساس، و زوّدَني كلود بتذكرتيْن للمترو و مضيْتُ في طريقي إلى منزل دنكان في شارع سين و كان منزلهُ يتوسّطُ الشّارع قريباً

من الفندق الّذي مات فيه وايلد. كان ثمّة فناءٌ فسيحٌ مفتوحٌ تناثرت فيه أعمالٌ نحتيّةٌ، و وجدْتُ طريقي إلى مكتب دنكان و تحدّثْتُ أوّلاً إلى إمرأةٍ ضخمةِ الجثّة ترتدي مئزرة بيضاء اللون كتلك الّتي ترتديها الرّاهباتُ في العادة، و عرّفت نفسها لي: مدام آيا برتراند، و كانت تعملُ مساعدةً ثانية لِدنكان، و عندما أخبرتُها كم أنا معجبٌ بكتابات دنكان – و كانت تلك كذبةً بيّنةً – أبدت الكثير من الودّ على الفور، و عندما سألتُها إلى أيّة كنيسة أو مذهب تنتمي إكتفت بإجابةٍ وقورة " لا أتبعُ شيئاً، فأنا مُلحِدة ". دخل رايموند دنكان المكْتبَ فأصابتْني خيبةُ الأمل على الفوْر: كانت صورةُ الكثيرةُ المعلّقةُ في كلّ مكانٍ في المكتب تُظهِرُ رجلاً حادّ الملامح بوجْهٍ يشبِهُ وجْهَ صقْرٍ و له شعرٌ أبيض طويلٌ مصفّفٌ حول جبهته و مرفوعٌ إلى الوراء على طريقة الهنود الأمريكيّين و يرتدي عباءة بيضاء تجعلُهُ يبدو كواحدٍ من أنبياءِ بعض الطّوائف الكاليفورنيّة الحديثة، أمّا الرّجلُ الّذي دخل المكتب فكان رجُلاً ضئيلاً طاعناً في السنّ و فاقداً لنظرته الثّاقبة، و كان يضعُ نظّاراتٍ سميكةً على عينيْه وَ يرتَدي عباءةً رومانيّة أقْربَ إلى رداء النّوم الأبيض القذر المعمول من الإسفنج، و كانت طريقتهُ في التّعامل رقيقةً و يدفعُ المرءَ للإعتقاد الرّاسخ بأنّ عقله كان مشغولاً بأمورٍ غير تلك الّتي يتحدّثُ بها أو ربّما أنّه أصمّ و لا يسمعُ شيئاً ممّا يدورُ حوله. شرحَ الرّجلُ لي فلسفته الّتي تتركّزُ في ضرورة العوْدة إلى أساليب الحياة الحِرَفيّة الّتي كانت سائدةً في العصور الوسطى و كان يعتقِدُ أنّ كلّ النّاس سيكونون أكثر سعادةً لو أتيحتْ لهم الفرصةُ للعمل بأيديهم، و كانت فلسفتهُ – على قدْرِ ما تمكّنْتُ من فهمه – نوعاً من الفوضويّة الإنسانيّة القَريبة من فلسفةِ وليم موريس William Morris (**شاعر و روائيّ وَ مصممّ منسوجات و مترجم و ناشط إشتراكيّ عاش في الفترة**

١٨٣٤ - ١٨٩٦ وَدرسَ في جامعة أكسفورد. يعدُّ رائد حركة إحياء النّزعة الحرفيّة و الفنية في بريطانيا، المترجمة)، و كان يرى أنّ المجتمع الحديثَ قد جعل الإنسان المُعاصر يتشظّى و جرفَهُ بعيداً عن المثال الإنسانيّ القديم القائم على فكرة (الإنسان الواحد المُتكامل) على النّمط الّذي سعى عبقريّ عصر النّهضة الأوربيّة ليوناردو دافنشي لتحقيقِهِ و كان هو بذاته مثاله الأعلى، و كان رايموند يرسمُ و ينحتُ و يكتبُ الشّعر و يخرِجُ بنفسه المسرحيّات الّتي يؤلّفُها - وكلّها أعمالٌ رديئةٌ كما إكتشفْتُ لاحقاً - و لم يكتفِ بذلك بل أخبرَني أنّهُ يستطيعُ أن يصلحَ السّاعة، و أن يبنيَ جداراً، و أن يُخيط الثياب لنفسه. غادرَ دنكان هو و شقيقتاهُ - كانت إحداهما إزادورا دنكان Isadora Duncan - سان فرانسيسكو منذ طفولتهم و قدموا إلى أوربّا، و صارت إزادورا راقصةً معروفةً فيما بعدُ و كانت لاتتردّدُ في ممارسة الحبّ مع أيّ رجلٍ يعجبُها فأثارت لغطاً فضائحيّاً بسبب سلوكِها الدّاعم للحرّية الجنسيّة غير المُقيّدة، أمّا رايموند فقد إختار الذّهاب إلى اليونان و مضى في بناء معبدٍ ثمّ عاد إلى باريس و قضى ليلةً كاملة هناك إخترع خلالها حذاءً خفيفاً (صنْدل sandals) مريحاً صنعهُ من قطعةٍ جلديّة واحدة مدعمةٍ ببعض الأربطة و إفتتحَ محلّاً لبيْع هذه الصّنادل فربحَ منها مالاً كرّسهُ لنشْر أشعاره و إخراج مسرحيّاته فأصبح شخصيّةً مرموقة في باريس أيّام سطوة تريستان تزارا و الداداثيّين، و كان رايموند تجسيداً صارماً لمقولة ويل روجرز المشبعة عاطفةً " لم يحصل معي أبداً أن قابلْتُ رجُلاً لم أحبّهُ " و كان يشعرُ بعاطفةٍ ويتمانيّة جيّاشة تجاه كلّ مخلوقٍ بشريّ و بخاصّة العاديّون من النّاس، و حكى لي مرّة كيف نزلَ في أحد الفنادق الفخْمة في نيويورك، و بعدما قرّر المغادرة أصطفَّ الخَدَمُ في طابورٍ لينالوا إكراميّاتهم (البقشيش Tips) منهُ و لكنّهُ بدلاً من منحهم

الإكراميّات إكتفى بمُصافحتهم واحداً بعد الآخر، و علّق بإخلاصٍ بريءٍ " فضّل الخدمُ ذلك على النّقود. هم في الحقيقة ماكانوا يريدون المال "، وَ عند هذا الموضع من كلام الرّجل جاهدْتُ كثيراً لئلّا أبتسم. بعد ثرثرةٍ إمتدّت حوالي ربع ساعةٍ - أوضح لي خلالَها الرّجلُ أنّه ليس مليونيراً رغم أنّهُ جمع و فقد الكثير من الثّروات - عرضَ عليّ في نهاية كلامهِ ماكنتُ أتوقُ إلى سماعهِ " تعالَ و أقِمْ هنا و تعلّم كيف تعملُ بيديْك و سأعلّمُكَ كيف تطبعُ كتبكَ و كيف تخرجُ مسرحيّاتك..... " و حينما جاءت مدام برتراند و علمت بأمري نظرت نحْوي نظرةً مليئة بالرّيبة و لكنّها إستسلمت لواقع الأمر.

عذْتُ إلى غرفة كلود و أنا أتفجّرُ دهشةً ممّا حصل: سأتعلّمُ الطّباعة، و سَأعملُ على كتابة رواياتي في الأمسيات، ثمّ سأجمّعُ حروفها بنفسي تمهيداً لطباعتها، و سيكون في مقدوري كتابة المسرحيّات كذلك،،،،، و كانت سعادةُ كلود وَ ماري لا تقلُّ عن سعادتي و ربّما لأنّهما كانا يجدان شقّتهما أصغر من أن يشاركهما فيها شخصٌ ثالثُ مثلي، و حصل فعلاً أن إنتقلْتُ في اليوم التّالي إلى المنزل رقم ٣١ من جادّة دي سين و راودَني الأملُ بأنّني ربّما سأقفُ هذه المرّة على قدميّ بعد أن عثرْتُ على ما يمكنُ أن يستمرّ معي لفترة طويلة، و كان الأمرُ يبدو جديراً ببناء آمالٍ عريضةٍ عليه بالتّأكيد و كان أيضاً مثالاً لِما كنتُ توّاقاً لتحقيقه عندما كنتُ في ليستر: أن أعثرَ على مكانٍ للفنّانين حيثُ يمكِنُني إستخدامُ طاقتي في أعمالٍ خلّاقةٍ بدل هذْرِها في أعمالٍ تمقتُها روحي، و لكن كان يصعبُ عليّ التّصديقُ أنّ حظّي يمكنُ أن يتحوّل على هذه الصّورة المُفاجئة لأنّني أعرفُ أنّ الأمور لا تحصلُ بمثل تلك البساطة الّتي تبدو عليْها. يقولُ ييتس في وصْفِ نُسّاكه الزّاهدين:

يقعُ عليهم وقْعُ الحُشود كالطاعون

حتّى يدفعَهُم شغفُهُم نحوَ الهرب،،،

و هكذا حافظْتُ دوماً على إحساسي بالتفاؤل بزعْمي أنّ ما حكى عنه يتس هو السّبب الّذي دفع بالقدَر لأن لا يجعلَني أستقرّ أو أن أشعرَ بالرّاحة وهو ذات السبب الّذي جعلَ حياتي صعبةً و لا تنطوي على شيْ من راحة عندما كنتُ لا أستقرُّ في أيّة وظيفةٍ لأسبوعٍ أو أكثر بقليلٍ من الأسبوع، و لم يكن بأمكاني في هذه اللّحظة منعُ نفسي من التفكير في أنّ القدَرَ ربّما أراد منحي فرصةً لإلتقاط انفاسي و بدا لي أنّ أكاديميّة دنكان ربّما كانت هذه الفرصة.

لم تكُن إقامتي في أكاديميّة دنكان صورةً للمثال الّذي كنتُ اتوقُ إليْه: وجدْتُ العمل في المطبعة مُضجِراً للغاية إذ كانوا يزوّدونَني بِكُتَلٍ من أسطر الحروف المنضّدة و كان مطلوباً منّي تقسيمُها و وَضْعُها في صوانٍ صغيرة مختلفة، و كان العملُ كئيباً للغاية و وجدْتُ نفسي في نهاية المطاف صبيّاً يعملُ في عملٍ يمقتهُ أشدَّ المقْت. ألقى دنكان في أوّل يومِ عملٍ لي في الاكاديميّة محاضرةً في القاعة الكبيرة: تحدّثَ ببطءٍ و بفرنسيّة رديئة سهلة الفهم لانّ معظم تعبيراتِها كانت أقرب إلى الإنكليزيّة و كان أثناءَها يلوّحُ بيدِهِ في إيقاعٍ منتظم و هو مستلْقٍ على أريكته الفخمة، و بدا كلّ ما قالهُ تافهاً و أخرقاً إلى حدودِ عصيّة على التّصديق كمثل هذه العبارات:" الجَمالُ هو القيمةُ الأخلاقيّة الوحيدةُ لدى الكائنات البشريّة، و لاقيمة يعتدُّ بها للفضيلة ما لم تكن فضيلة الجَمال " و مضى في القول كمن كان يقرأُ شعراً و ببطءٍ شديد "…. لكنّ الكونَ يا أحبّتي هو الجَمالُ كلّه و هو الجَلالُ كلّه…. " و عند هذا الموْضع من محاضرة دنكان تذكّرْتُ عبارةً وردت في رواية

(الرّجلُ الّذي جاءَ على العشاء The Man Who Came to Dinner) تقولُ " قد أتقيّاً،، " و كان عليّ أن أجاهدَ كثيراً في محاولة منْعِ نفسي من الضّحك. كنتُ خلال السّنة الماضية بدأتُ كتابة نسختيَ الأولى من روايةٍ تدعى (طقوسٌ في الظّلام) و كان العملُ مسكوناً بالقتامة وَ يحكي عن قاتلٍ كما كنْتُ من جانبي مسكوناً أنا الآخر بفكرة الخطيئة الأصليّة و بفكرة أنّ المجتمع الحديث ليس أكثر من أرض خرابٍ موحشة، و هنا أجدُ نفسي في القاعة أستمعُ إلى رايموند دنكان و هو يقولُ هامِساً "... ترجعُ أعظمُ فضائل المخلوقات البشريّة إلى وجودهم الأوّل، فلنبحثْ عن شِعْرِنا في الحياة أيُّها الأحبّاء..... " و الغريبُ أنّ المُفترض فيّ كان إتّباعَ هذا الرّجل و أن أكون واحداً من مُريديه التّلاميذ الخلّص. كنتُ مُفلِساً آنذاك و لم يكنْ أمامي ثمّة أفاقٌ مفتوحةٌ و كان يتوجّبُ عليّ البقاءُ في الأكاديميّة حتّى يتسنّى لي إيجادُ مكانٍ أفضل، و لم أكنْ أحبّ التّظاهر الزائف بالسّعادة و الحقُّ أنّ المكان كان مُقبِضاً و كئيباً، و لم يكن من بين النّزلاء من يكره المكان بقدْري سوى فتاةٍ سويديّةٍ تدعى (سيبل Sybil): تلك الفتاة الضئيلة الّتي كانت ترتدي نظّاراتٍ و ثمّة بقعٌ تغطّي جسدَها، و كانت مدام برتراند تُعاملُها بجفاء و قسْوةٍ و كنتُ أنا لا أطيقُ رؤية تلك المُعاملة الفظّة معها لذا إخترْتُ مغادرة الغُرَف الكئيبة المظلمة و النّوم على أريكةٍ في أحد جوانب المسْرح. كان المسرحُ يضجُّ بعبادة شخْص إزادورا (شقيقة رايموند) فقرأتُ أجزاءً من سيرتها الذّاتيّة الّتي وجدْتُها مُسلّيةً و لكن لا تخلو من بلاهةٍ واضحة، و كان الجميعُ يَصِفونَها بالجميلة رغمَ أنّ وجْهها بدا لي مثلما وصفَهُ شو مرّةً: وجْهٌ صُنعَ من السّكّر ثمّ لعقَهُ شخصٌ ما. كان موْتُ طفلَيْ إزادورا – اللّذان سقطت بهم سيّارةٌ كانت تقلّهُما في نهر السين – مثالاً نموذجيّاً عن سوء الحظّ الّذي

يمكنُ أن يأتي به أمثالُ هؤلاء الأشخاص لأنفسهم تماماً مثل موْتها هي ذاتُها إذ ماتت بعد أن إلتفّت عباءةٌ طويلةٌ كانت ترتديها حول عنقها و تعلّقت بالعجلة الخلفيّة لسيّارَتِها فإختنقتْ حتّى الموْت، و لم يكن في مقدوري الصّبْرُ أكثر على إزادورا أو على دنكان رغم أنّ الرّجلِ كان طيّباً ودوداً دمث الأخلاق و حسن النيّة للغاية و من المؤكّد أنّ الرّجل لم يرتكب خطأً ما إذا كنتُ لا أرغبُ أن أكون تلميذاً مخلصاً له أو لأيّ شخصٍ آخر في العالم.

كتبْتُ رسالةً إلى صديقي في ستراسبورغ و وَصلَني منهُ على الفور تقريباً رسالةٌ جوابيّة تحتوي على خمسة آلاف فرنك مع دعوةٍ للتوجّه إلى ستراسبورغ على الفور، و جاءت الدّعوة في موعدها و لم أكن في حاجة إلى مزيد دعواتٍ لكي أحزم أمري و أغادر الأكاديميّة الّتي غدت بعد أسبوعيْن من وصول رسالة صديقي في ستراسبورغ مكاناً خانقاً لا يمكنُ المُكوثُ فيه، و كنتُ أخفّفُ الأمرَ عنّي بالذهاب مساء كلّ يومٍ إلى مكتبة جنفييف و العمل على كتابة روايتي (طقوسٌ في الظّلام)، ثمّ غادرَتْ سيبل و كان عليّ مساعدَتُها في تهريبِ ثيابِها، و حصل أن دعاني أحدَ الأيّام عازفُ بيانو مثليٌّ جنسيّاً يُدعى (فيكتور غيل Victor Gille) للإقامة معه بعد أن قدّم مقطوعةً موسيقيّة منفردة على البيانو للموسيقار العالميّ شوبان، و راقت لي فكرة الإقامة معه كوسيلةٍ لإكتساب نوعٍ من الحرّيّة الّتي كنتُ محروماً منها و لكنّ التفكير بِإحتمال أن يحصلَ معي ما حصل لأهل سدوم لم يعجبْني فصرفْتُ النّظر عن فكرة الإقامة مع الموسيقيّ.

دعتْني يوماً إمرأةٌ أمريكيّةٌ ثريّةٌ لتناولِ الشّاي في فندقِها و سمحت لي بقراءة بعضٍ من أشعاري أمامها، و قالت لي في حماسة مفرطةٍ أنّها

تعتقدُ بأنّي سأكون يوماً ما كاتباً عظيماً كمثل عظمة سومرست موم، و رأى رايموند و مدام برتراند أنّ ذلك الفعلَ لم يكن سوى نوعٍ من الإنتهازيّة المخجلة الّتي أقدمْتُ عليْها و كرّر رايموند تذكيري بقَوْلته تلك عند العشاء و لم أرَهُ يوماً على تلك الشّاكلَة من القسوة، و أضاف رايموند أنّني قَدِمْتُ إلى أكاديميّته مستنداً إلى مبادئ زائفة، و من جانبي لم يكن لديّ ثمّة ما أقولهُ لأنّ ما قالهُ رايموند كان صحيحاً بالتأكيد، و هكذا عندما وصلتْني النّقودُ أخبرْتُ رايموند و مدام برتراند برغبتي في زيارة ستراسبورغ، وَ اضفْتُ لقوْلي هذه العبارةَ " قد اعودُ يوماً للأكاديميّة " و هنا قالت مدام برتراند بلهجةٍ حاسمة " لا، ليسَ مسموحاً لِمَنْ يُغادِرُنا بأن يعودَ إلينا ثانيةً " و كان في مقدوري ان أشعر بتعاطفٍ كبير معهما إذ " لا أحد يرغبُ بمزيدٍ من الببغاوات الصّغيرة في العشّ ذاته " و قد عشْتُ أنا بنفسي مع الكثير من تلك الببغاوات في السّنوات الماضية.

إستغرقت رحلتي إلى ستراسبورغ ثلاثة أيّام، و وجدْتُ صديقي ويللي Willi يسكنُ في شقّة مع عائلته المُنتمية للطبقة الوسطى: كان والدهُ تاجر خرْدةٍ، و والدتهُ إمرأة بدينة قريبة المثال من المرأة الفرنسيّة صعبة المراس، أمّا أخته فكانت فتاةً بدينة و جميلة. عندما مكثَ ويللي معنا في ليستر كنّا أنا وَ هو نضحكُ وَ نروي الفكاهات متعمّدين إستخدام أسلوب التّورية الفظيعة للكلمات الفرنسيّة، و لكن بدا واضحاً أنّنا تغيّرْنا كثيراً الآن: فقد غدا ويللي شيوعيّاً يرى أنّ العمّال ينبغي لهم أن يقتلوا الأثرياء، و كنتُ أرى أنّني قد أنتهي إلى أن أكونَ راهباً في نهاية المطاف لذا لم يكنْ بإمكانِنا خوْضُ أيّ نقاشٍ من غيْرِ أن يستاءَ أحدُنا من الآخر، و بعْد ثلاثة أسابيع بدا أنّ عائلة ويللي ضاقت بي ذرْعاً و أخْبرتْني والدتهُ بأسفٍ ظاهر أنّهم في حاجةٍ لغرفتي من

أجلِ شخصٍ آخر غيْري. في اليوم التّالي راجعْتُ القنصليّة البريطانيّة و شرحْتُ لَهم موقِفي و طلبْتُ إليْهم ترحيلي و لم تكن ثمّة صعوبةٌ في ذلك إذ منحوني خلال ساعةٍ تذاكر للسفر بالقطار و سحبوا منّي جواز سفري كضمانةٍ لعوْدَتي إلى بريطانْيا و أعطوْني في المُقابل جوازاً موقّتاً يصلحُ لرحلةِ عودَتي فقط، و ركبْتُ القطار المتّجه إلى كاليه في وقتٍ متأخّر من عصْر ذلك اليوم و كان القلقُ يملؤني لانّني وجدْتُ نفسي مُضطرّاً إلى الحركة مرّة أخرى و لم يكن أمامي الكثيرُ لأتوقّعهُ لدى عودتي إلى إنكلترا، و فجأةً بدت لي الحياةُ مثيرةً للإهتمام و مليئة بحسّ المُغامرة كما بدا لي الشّهران الماضيان اللّذان قضيْتهُما في فرنسا مثمريْن و رائعيْن على الرّغم ممّا لقيتُ فيهما من متاعب. تذكّرْتُ توّاً كيف جلسْتُ وحيداً في أحد ميادين ليل و تمنّيْتُ أن أختفي و أتلاشى في الهواء فلايعرفُ أحدٌ بي: إحساسٌ بلامُبالاةٍ كاملة و إنعدام ثقةٍ مطلقة، و عرفْتُ أنّ ذلك الإحساس كان زائفاً و يدحضُ نفسهُ بنفسه، فما أن زمجر القطارُ ليبدأ رحلته وسْط ظلْمة اللّيل حتّى إجتاحَني إحساسٌ كَمِثْلِ ذاك الّذي يجتاحُ مَنْ يترقّبُ نتائج الإمتحان في نهاية السّنة الدّراسيّة و يعرفُ لاحقاً أنّهُ نجحَ في الإمتحان.

٥. الزّواج و لندن

كان من الممتع للغاية أن أعود ثانية إلى ليستر بعد جولتي الفرنسيّة الّتي قضيْتُها بين باريس و ستراسبورغ و ليل، و لكنّ ذات المشاكل الّتي دفعتْني بعيداً عن ليستر لم تكن قد حُلّت بعدُ و كانت تنحصرُ في كيفيّة الحصول على ما يُقيمُ أودي و أنا أحاولُ تدريب نفسي على الكتابة، و كان الفرق الواضحُ الوحيد هو أنّني لم أعُد أعيرُ إهتماماً للإكتئاب و الإحباط اللّذين كنتُ أعيشُ تحت وطأتهما في مدينتي الأمّ. كان ثمّة مشكلة أخرى آنذاك: ماري، و قد كتبَتْ لي الكثير من الرسائل و أنا في باريس و ستراسبورغ و كانت تبوحُ فيها بمدى إشتياقها و إفتقادها لي و بضرورة أن نُخطب لبعضنا فور عودتي إلى ليستر، و بعد أن حصل و عدْتُ فعلاً إلى ليستر لم أخبرْها بعودتي و بدا لي أنّ من الغباوة المطلقة تجديد علاقتها بي رغم أنّني كنتُ واثقاً بأنّها ستعلمُ بأمر عودتي في كلّ الأحوال. كتمْتُ أمر عودتي عن ماري لمدّة أسبوع ثمّ ذهبْتُ لرؤيتها حيثُ تعملُ في وولوورث Woolworth في فترة إستراحة تناول الغداء و بدتْ منذهلة لرؤيتي رغم أنّها لم تكن سعيدة بهذا الأمر، ثمّ بادرتْني بالسؤال " منذ متى عدْتَ ؟ " فأجبتُها بإقتضاب " بضعةُ أيّام "، ثمّ أردفت بسؤالٍ ثانٍ " و لمَ لمْ تتّصلْ بي حينها ؟ " فحاولْتُ التحجّج بالإجابة " أووه، أردْتُ الحصول على عملٍ قبل كلّ شيء،،،،، " و كان حديثنا هذا يجري بينما كنّا نذرعُ شوارع شارع تشارلس Charles Street و الريحُ المثلجة تكاد تجمّدُ أطرافنا، و فجأة صارحتْني ماري بالقول " أظنّ أنّ من الأفضل لي

إخبارك بأمر مواعدتي منذ وقتٍ ما لشابّ إلتقيْتهُ في حفلة رقص " و كان المفترضُ أن يكون قولُها هذا مبعث رضاي العميق و لكنّ غيرة غير طبيعيّة إجتاحتْني تلك اللحظة. لم يتبدّل حالي مع ماري كثيراً عمّا قبلُ فقد إلتقيْتُها مساء ذات اليوم و إنطلقْنا لرؤية جدّتي، و عندما حانت الفرصة و وجدْنا أنفسنا وحيديْن في منزل جدّتي قبّلتها كما كنتُ أفعلُ من قبل فقالت و هي تتاوّه آهة مُتألّمة " يا إلهي،، مرّ وقتٌ طويلٌ و أنا لم أفعل شيئاً مثل هذا الّذي يحصل الآن " و عرفْتُ منها أنّ صديقها كان مهندساً شابّاً خجولاً و كان ينوي الزّواج بها في أقرب فرصة سانحة. كانت مشاعري تجاه ماري منقسمة على نحوٍ خطير: فقد كنتُ متحفّظاً للغاية تجاهها و لابدّ لي من الإعتراف بأنّها كانت تنمو بسرعةٍ لتغدو إمرأة جميلة بوجهٍ بيضاويٍّ ذي قسماتٍ متناسقة و خدودٍ متورّدة على الدوام و فوق كلّ هذا كانت كريمة النفس و معطاءة و ربّما كانت لهجة أهل ليستر القويّة الناشزة الّتي تتكلّمُ بها هي الشئ الوحيد الّذي لم يكن ليروقني فيها و حدسْتُ منذ البدء أنّها ربّما وجدت في لهجتها هذه نوعاً من حائط الصدّ الّذي يوفّرُ لها آليّة دفاعيّة تحميها من تطفّل الآخرين، كما وجدْتُ في نزعتها الميّالة إلى المشاجرة و من ثمّ إطلاق العنان لدموعها الغزيرة شيئاً يبعثُ على الخذلان.

كان الوقتُ شتاءً عندما عدْتُ إلى ليستر من جولتي اللفرنسيّة و لم يكن الطقْس آنذاك يسمحُ لأعمال البناء بالإنتعاش، و ألحّ والدي عليّ بالعودة إلى سلك الخدمة المدنيّة و أخيراً إنتهيْنا إلى حلّ توفيقيّ: قبلْتُ بوظيفةٍ في مكتبٍ للأعمال الهندسيّة لقاء ثلاث جنيْهاتٍ أسبوعيّاً، و الحقيقة أنّ العمل لم يكن شاقّاً و لم يكن في بداياته مُضجِرا كما توقّعْتُ، و كان مطلوباً منّي توضيبُ الطّلبات و أوامر العمل و التنقّل

بين مساحات واسعة لتوزيع هذه الأوامر على مُراقبي العمّال و كان من الممتع للغاية مشاهدةُ المعدن المنصهر الخارج من الفرن و هو يُصَبُّ في قوالب مُحدِثاً شراراتٍ هائلة تتطايرُ في الهواء، و ربّما كان ينبغي لي في ظروفٍ أخرى أن أكون سعيداً في هذا العمل و بخاصّة بعد عودتي من رحلتي الفرنسيّة الّتي حجّمت كثيراً من حسّ الإمتعاض و الشدّ العنيف اللّذيْن كانا يجولان بداخلي كما جعلتْني أكثر سلاماً مع نفسي و لكنّ الحقيقة الصارخة الّتي أقضّت مضجعي على الدوام أنّني كنتُ أتطلّعُ إلى كتابة الكتب و لم يكن عملي آنذاك بذي علاقة - و لو من بعيد - مع الكتابة كما لم أكنْ ارغبُ أبداً في الإكتفاء بالزواج من ماري و قضاء بقيّة عمري و أنا مشدودٌ إلى وظيفةٍ مكتبيّة: لم أكنْ آنذاك و بإختصار لاقتنعَ بأداء أيّ من الأشياء الّتي كان المجتمع و والديّ يتوقّعون منّي أداءها. مضيْتُ كعادتي في لقاء ماري و لكنّنا كنّا نحن الإثنين ندرِكُ جيداً أنّ علاقتنا باتت تقارِبُ نهايتها المحتومة: فقد كانت تعرفُ بمجسّها الأنثويّ أنّني لم أكن أحبُّها و أنّ صديقها المهندس هو من يبادلُها الحبّ الحقيقيّ الّذي تتوقُ له، و عندما عدْتُ إلى المنزل أحد الأيّام وجدْتُ كلّ الكتب الّتي أعطيْتها لماري مرزومةً و مكوّمةً بهيئة عمود طويل أمام مدخل باب منزلنا و كان من ضمن الكتب الّتي إحتوتْها تلك الرزمة أربعة أجزاء من أعمال شكسبير المُصوّرة، و لم يحصل بعد ذلك أن بذلْتُ أقلّ مجهود في محاولة رؤيتها ثانية و من جهتي أظنُّ أنّها عملت الشئ الوحيد المنطقيّ الّذي يتوجّبُ على فتاةٍ في مثل حالتها أن تفعله كما لا يمكنُني نكران الإحساس العصابيّ الّذي إنتابَني آنذاك بعد معرفتي بأنّ فتاتي قد رفضتْني و أخرجتْني من حياتها إلى الأبد.

ذهبْتُ يوماً ما خلال العمل لرؤية الممرّضة المقيمة في مكاتب إدارة

العمل طلباً لعلاج حنجرتي الملتهبة، و كانت الممرضة – وَإسمُها بيتي Betty – امرأة ليست على قدرٍ كافٍ من الجمال و لكنّها كانت تملكُ شعراً جميلاً و فماً مُكوّراً شهوانيّاً جذاباً، و عندما رأيتُها أوّل مرّة ظننتها إمرأة باردة مستعصيّة على الرفقة: فقد كانت تبدو إمرأة جامدة الحواس و خامدة العواطف و تتحدّثُ بلكنة طبقيّة متعالية.

كانت بيتي تكبرُني بتسع سنوات إذ كنتُ حينها في التاسعة عشرة و وجدْتُ في تمكّنها من السيطرة على زمام عواطفها و برودتها البادية مصدر جذبٍ عظيم لي في أعقاب غياب ماري و عواطفها المتفجّرة، و كنتُ أتعمّدُ قبل ذهابي لرؤيتها الإتيان ببعض الحركات الّتي أبتغي من وراءها إثارة كوامن عاطفتها: كنتُ مثلاً أفكّ عقدة ربطة عنقي و أنا أعلمُ أنّ إنضباط المرأة و جدّيتها الصارمة ستدفعُها إلى المسارعة في شدّ العقدة و إحكامِها و عندها يمكنني وضع يديّ حول خصرها !! و بدا لي بعد إقترابي منها أكثر من ذي قبلُ أنّ سلوكها البارد كان سطحيّاً إلى حدّ بعيد و وجدْتُها شخصيّة خجولةً ودودة للغاية كما رأيْتُ نفسي ميّالاً نحوها بقوّة و بخاصّة بعد معرفتي أنّ طفولتها كانت تشابِهُ طفولتي من نواحٍ كثيرة: فقد ولِدت مثلي لعائلةٍ من الطبقة العاملة و كانت طفولتُها مثقلة بالتعاسة، و قد تركت عائلتها منذ بواكير الحرب العالميّة الثانية و راحت تعملُ ممرّضةً في لندن و بالتحديد أيّام حرب الصواريخ الألمانيّة الّتي كانتْ تمطرُ لندن آنذاك و توقعُ بها أفدح الخسائر، و حصل في خضمّ تلك المعرك الطاحنة أن قتِل الرجل الّذي كانت مخطوبة له و كان يخدمُ في سلك القوّة الجويّة الملكيّة البريطانيّة و منذ ذلك الحين وجّهت بيتي كلّ إهتمامها و تركيزها لعملها و حسب و لم يكن لها – على العكس منّي – أيّة ثقةٍ أساسيّة في الحياة، و قد أخبرْتُها أحد الأيّام أنّها تشبِهُ كثيراً أرنباً

كامناً في جُحره فأجابتْني " أعلمُ أنّ قولك صحيحٌ للغاية لانّني كلّما حاولْتُ إخراج رأسي خارج جُحري تلقّيْتُ لطمةً قويّة عليه !! ".
كنتُ أفتعلُ العذر تلو العذر لرؤية بيتي في دائرتها ثمّ لم أعد أرى أيّ مُسوّغٍ لإفتعال الأسباب بعد أن بدا واضحاً أنّها كانت تسعَدُ لرؤيتي، و حصَل أحد الايّام أن دعتْني لشقّتها لتناول القهوة معها و بينما كنتُ في طريقي إليها مضيْتُ أفكّرُ بعدد العشّاق المحتملين الّذين سبق لهم تناول القهوة في شقّتها قبلي كما راودتْني فكرة أن أكون محض عاشقٍ إضافيّ يُدوَّنُ في سجلّ عشّاقها و لكن بعد أن تناولْتُ القهوة فعلاً في شقّتها أدركْتُ أنّني لم أكن محض عاشقٍ محتملٍ و إضافي بعد أن أوضحت لي بيتي أنّنا سنكتفي بشرب القهوة و حسبُ كما غدا سلوكُها شديد التحفّظ و مفتقداً حتّى لتلك المُداعبات الخفيفة الّتي كانت تسمحُ لي بها أثناء العمل، و بعد أن غادرْتُ شقّتها بادلتّني قبلة باردة بشفتيْن مزمومتيْن و عندما كنتُ راكباً درّاجتي و أنا عائدٌ إلى المنزل لم أكن أرغبُ بأن أرْفَضَ من جديد كما رفضتْني ماري. عندما كنتُ أقابلُ بيتي أثناء العمل في الأيّام اللاحقة لزيارتها في شقّتها كانت قد غدَتْ أكثر ليناً عن ذي قبلُ و كانت تبادلني قبلاتٍ أكثر حرارةً من حرارة قبلاتي و لا تمتّ بصلة لقبلتها الباردة الشاحبة في شقّتها و كنتُ آنذاك أقرأ في رواية همنغواي (وداعاً للسلاح Farewell to Arms) و وجدْتُ شعوري تجاه بيتي يماثِلُ كثيراً شعور فريدريك هنري تجاه كاترين باركلي: فقد أحببْتُ بيتي بعنفٍ و أحببْتُ أكثر سلوكها المتحفّظ و برودتها الظاهرة و الّتي أثارت فيّ كوامن الرغبة في تحطيم أواصر هذه البرودة و إختراق جدرانها الصّلدة.

أحببْتُ في بيتي إمتلاكها لزمام شؤونها الخاصّة و إحساسها العالي بالمسؤوليّة و كان مزاجُها أقربَ إلى مزاجي الشخصيّ عمّا كانت

عليه ماري، و راقني كثيراً الإنطلاقُ إلى شقّتها و مُشاركتها العشاء و الإستماع إلى إحدى الأوبرات على البرنامج الثالث من ال BBC أو قراءة مقاطع من الفصل الأخير لعملي (طقوسٌ في الظلام) أو التحدّث عن المشاكل الّتي كانت تعترضُني في كتابة إحدى المسرحيّات على النمط الّذي يكتبُ به غرانفيل باركر Granville – Barker، و شيئاً فشيئاً بدأ التحفّظ الجنسيّ لدى بيتي يتلاشى و كانت في هذا الجانب تحديداً نقيضةً لماري: إذ لم تكن الرغبة الجنسيّة لدى بيتي تعملُ بإستقلاليّةٍ عن مشاعرها الشخصيّة على العكس من ماري، و عرفْتُ أنّ بيتي كانت ترغبُ في أن أكون زوجاً لها و أن ترى نهايةً قريبة للعلاقة الأفلاطونيّة الّتي كانت تجمعُنا حتّى ذلك الحين.

* * * * * * * * * *

كانت القصّة الأصليّة لعملي (طقوسٌ في الظلام) تحكي عن رجلٍ يقتلُ فتاةَ ليلٍ بعد تكبيل جسدها و كنتُ في عملي هذا أشيرُ إلى الإنحطاط الكامل للحضارة الّتي لا تكفُّ عن إفقار أرواحِنا إلى حدّ أنّ القاتل سأم حالة الإحباط و إستنفاد الطاقة اللّتيْن يعيشُ فيهما حتّى إنقلبَت حياته متاهة مظلمة: فهو لا يكادُ يشعرُ بأيّ شيء، و يعيشُ حياةً آليّة مُفتقدة للحسّ، و عندما قتل الفتاة لم يشعرْ بأيّ ذنبٍ يتملّكهُ لأنّ عمليّة القتل بدَت له غير حقيقيّة أبداً !!، و عندما يخبِرُ بأمر جريمته فتاةً كان يُطارِحها الغرام تخبِرهُ بأنّها لا تصدّقُ ما يقول فيمضي من فوره لإبتلاع سمّ الفئران بقصد الإنتحار و لكن السمّ لم يقتلْهُ بل جعله يتقيّأ فحسب، و كان من الواضح لي أنّ الرجل كان ينبغي له المضيّ في الحياة بطريقةٍ ما و أن يجد دافعاً شخصيّاً له يعينهُ على العيش و مواصلة

الحياة، و لكنّني عندما بلغتُ هذه النقطة الحاسمة لم أكن أعرفُ ما يتوجّبُ عليّ فعله مع الرواية، و في إحدى مسوّداتي الأحدث من الرواية وجدْتُ أنّ الأمر سيكون أكثر إمتاعاً لو أنّ بطل الرواية لم يكن يعرفُ فيما لو كان قاتلاً حقيقيّاً أم لا و أن يُعاني بذات الوقت من الهلوَسات مع إحساسٍ مزمن بعدم ملامسته للحقيقة و من الذنب كذلك، ثمّ إستحالت الروايةُ في مسوّدةٍ أحدث إلى حكايةٍ عن رجلٍ يُعاني ضغطاً هائلاً يدفعُ به إلى عتبة الإعياء العقليّ و يحصل أن يقرأ ذات يوم عن فتاة ليْلٍ وُجدت مخنوقة في سريرها فظنّ أنّه هو من قتلها، و كنْتُ أتطلّعُ آنذاك إلى كتابة روايةٍ تختصُّ بالإضطرابات العقليّة و كنتُ أترسّمُ في ذلك خطى تشارلس جاكسون Charles Jackson في روايته المعنونة (عطلة نهاية الأسبوع المفقودة Lost Weekend) و الّتي أظنّ أنّه أضاع فيها فرصة ثمينة كانت مُتاحة أمامه لجعلِها عمله الأفخم masterpiece، و هنا واجهْتُ بشكلٍ مباشر واحدةً من أكثر المشاكل تعقيداً في كتابة الرواية: فعندما يسألُ أحدنا مثلاً عن موضع القلب في رواية يوليسيس Ulysses العظيمة سنقولُ حتماً إنّها دبلن، و هكذا عرفْتُ أنّ الرواية العظيمة الّتي تحكي عن مكانٍ ما لا يمكنُ أن تكتفي بحبكة بسيطة مباشرة تتطوّرُ في نسقٍ خطّيّ كما لايمكنُ لها أن تمتلك شخصيّة واحدةً منفردة لأنّ الشخصيّات ينبغي أن تتحرّك دوماً في المكان بقصْد خلق بانوراما حكائيّة، كما عرفْتُ منذ وقت مبكّر أنّ الحكاية تميلُ إلى الإنزلاق في مسارٍ بعيد عمّا يبتغيه الكاتبُ و أنّ القارئ يميلُ في العادة إلى التركيز على الحكاية بدلاً من متابعة ما يبتغي الكاتبُ قوله. كانت تلك بالضبط مشكلتي مع رواية (طقوسٌ في الظّلام): كنتُ أبتغي إحاطة القارئ علماً بما يترتّبُ عليه الإحساسُ المزمن بالخواء و إنعدام الحسّ بالواقع و اللّذيْن

ينشئان عن مكابدة الإحباط و قضاء أوقاتٍ طويلة لا يتوجّبُ فيها على المرء عملُ شيئ ما و حيثُ تنعدم الإرادةُ و تتعطّلُ إلى حدودٍ قاتلة، و من الطبيعيّ أن يكون السؤال المترتّبُ على هذه الحالة هو: ما الّذي ينبغي أن نفعلهُ بحياتنا عندما نراها تنزلِقُ في هذا المنزلق المَرَضيّ الخطير المُهدّد للوجود البشريّ ؟ و هل يمكنُ لحياتنا أن تستحيل محض حركة فيزيائيّة بالقدر الّذي يُديمُها و يُبقينا على قيْد الحياة فحسبُ ؟. أردْتُ كتابة روايةٍ تكونُ فيها هذه الأسئلة الوجوديّة الحاسمة حاضرةً على الدوام في فكر بطلها في كلّ الأزمنة و الأمكنة و على نحوٍ تكونُ فيه قيمُ الحياة الإعتياديّة و اليوميّة صاعقةً لعقْله الّذي يرى فيها محض أوهامٍ و خداع، و ليس هذا بغريب أبداً، فالتأريخ مثلاً يديمٌ سطوته بالأوهام: المعارك الطاحنة بين الجيوش، و أمثولات الأبطال الأسطوريّين، و خرافات الأوهام القوميّة الفارغة، و حديث العشّاق عن إخلاصهم الأبديّ لبعضهم، و الأحاديث الدينيّة عن نار جهنّم المستعرة الخالدة،،،،، و هي كلّها ليست أكثر من صخبٍ و عنف !! و الحقُّ أن لاشئ حقيقيّاً يحصل و حتّى الزمان هو في شكلٍ من الأشكال محضُ وهم، و ليست الحقيقة بأكثر من وجهة النّظر الّتي تواضعَ الناسُ على رؤية هذه الأوهام بها !! و أنّ وجهة النظر هذه هي في واقع الأمر ما يهمّ أكثر من الحقيقة ذاتها. أثارتْ إشكاليّة الحقيقة و الوهم هذه أمامي معضلةً أخرى: هيكلة الرواية، فَكلُّ روايةٍ ينبغي لها أن تمتلك قدرةً على الارتقاء بطريقةٍ هادفةٍ و مصمّمة بإحكام، و مضيْتُ أتساءلُ آنذاك: كيف يمكنُ لي أن أخلع على أفكاري نوعاً من شكلٍ روائيّ مقبول ؟ و حصل آنذاك أن وجدْتُ نسخة من (كتاب الموتى المصريّ The Egyptian Book of the Dead) في المكتبة المحلّية في ليستر و رأيْتُ فيه إمكانيّة محتملة لإستخدامه كأساسٍ في كتابة روايتي

القادمة مثلما فعل جويس مع الأوديسّة Odyssey، و كتابُ الموتى المصريّ سلسلةٌ من صلواتٍ تُتلى لجَلْب الراحة لروح الميّت في الليلة اللاحقة لمماته و كذلك لحماية روحه من المحن و المُكابدات الّتي يمكنُ أن تعانيها بفعل مؤثّراتٍ مُختلفة – مثل الديدان الماصّة للدماء – قبل أن تغادرَ صبيحة اليوم التالي للوفاة نحو العالم السفليّ المصريّ: الأمينتيت Amentet، و هكذا مضيْتُ و هيكلْتُ روايتي على ذات خطى كتاب الموتى المصريّ، و الغريبُ في الأمر أنّني كنتُ أسميْتُ إحدى المسوّدات الأوّلية لروايتي بإسم (طقوس الموتى Ritual of the Dead) قبل أن أعرف بأمر كتاب المَوتى المصريّ في المكتبة المحلّيّة. كانت فكرة العالم السفليّ Underworld تروقُ لي تماماً، و إذا كان العملُ في بنكٍ قد جعل إيليوت يرى جموع اللندنيّين تعبرُ جسر لندن كأرواحٍ تمضي إلى متاهة النسيان في جهنّم الأبديّة (**يشيرُ المؤلّف هنا إلى مقطع من قصيدة إيليوت الذائعة الصيت " الأرض الخراب Wasteland "، المُترجمة**) فإنّ سنواتِ عملي في مهنٍ مؤذيةٍ لروحي جعلتْني أدركُ أنّنا نعيشُ وسط أتون جهنّم بعينه !!.

بدأتُ تلك الأيّام أثناء مكوثي في ليستر بِإدارة ما يشبهُ مجموعةً أدبيّة تجتمعُ مرّة كلّ أسبوعٍ في غرفةٍ تقعُ أعلى مقهىً قرب برج الساعة Clock Tower، و كنّا نتناولُ أثناء إجتماعنا لفائف الجبن مع الشاي و نحنُ نقرأُ بصوتٍ عالٍ قصائدنا و قصصنا القصيرة، و لم يكن ممكناً غضُّ طرفي عن رؤية البون الشاسع بيني و بين أقراني في تلك المجموعة: فقد بدا واضحاً أنّني كنتُ أكثرهم قراءة و تنقيباً بين أكوام الكتب كما كنتُ أقدرهُم على الكتابة عن أيّة فكرة، و كنتُ آنذاك قد غدوْتُ شخصيّة معروفة في ليستر – بين أوساط الشباب على أقلّ تقدير – و كان ينبغي لي آنذاك أيضاً أن أعدّ شيئاً من أعمالي للنشر،

و كنتُ بالرغم من إنضمامي للجماعة الأدبيّة أفتقِدُ أيّ دافعٍ جدّيّ للمشاركة الإجتماعيّة الواسعة النطاق و كان ثمّة بضع مشاكل في العمل تضيّقُ عليّ خناقي: فبعد نحو الشّهر من بدء العمل في شركة مقاولات الأعمال الهندسيّة بدأتُ أختنِقُ كلّما دلفْتُ إلى بناية العمل و شممْتُ رائحة الغبار و زيت الآلات، و مازاد في تعقيد الأمور أنّ بيتي لم تكن على درايةٍ كافية بتقلّبات مزاجي و كانت تظنّني ذاهباً لمقابلة فتاةٍ أخرى كلّما رأتني مشدوداً و مهتاجاً، و الحقيقة أنّني كنتُ آنذاك مهموماً بالتفكير ببواعث الكتابة الإبداعيّة لديّ و كنتُ أكرهُ أشدّ الكره حياة الإسترخاء و الدعة الّتي تقتصرُ على الإلتقاء مع نفرٍ من الأصدقاء في الجماعة الأدبيّة و تناول وجبات الطعام في شقّة بيتي.

بعد أن تحسّنت أحوالُ الطقس و باتت أكثر دفئاً تركتُ العمل لدى شركة ريتشاردز الهندسيّة و مضيْتُ للعمل في مصلحة كهرباء ليستر، و حصل يوم عملي الاوّل لدى المصلحة أن راح الثلجُ يتساقطُ بغزارة و أمضيْتُ أسبوعيْن في جوّ ثلجيّ أتعبَني كثيراً و بخاصّة بعد أن كنتُ فقدْتُ كثيراً من لياقتي الجسديّة على تحمّل أعباء العمل الشاقّ فعدْتُ إلى المنزل خائر القوى، و كانت بيتي في ذات الوقت تمرّ بظروفٍ حرجةٍ في العمل إذ كانت لديها مشاكلها المزمنة مع رئيسها الّذي كان يقدّرُ كفاءتها كثيراً و لكنّه كان دائم الشجار معها أيضاً !!. كنتُ أبتغي آنذاك الحصول على وقتٍ أكثر للتفكير و الكتابة، و مع أنّ حفر الخنادق و مدّ القابلوات الكهربائيّة كان عملاً أقلّ بعثاً للضجر من العمل المكتبيّ لكنّه كان يماثلهُ في الرتابة و الفعاليّات المكرّرة، و لم أكن أرغبُ على الإطلاق بالإقتصار على أداء ما يؤدّيه الآخرون بل جُلّ ما رغبْتُ فيه حقّاً هو أداء عملي الخاصّ بي و الّذي أرغب فيه بشغف عظيم. أثبتَ عملي التالي الّذي عملتُ فيه بعد عملي في

مصلحة كهرباء ليستر بأنّه كان أمتع عملٍ – من غير الكتابة بالطبع – عملته طيلة حياتي: فقد عملْتُ في مصنع دالماس للكيمياويّات Dalmas Chemical Factory و كان العمل يَضمُّ فعاليّات متنوّعة و كان في العموم مبهجاً على عكس الأعمال الّتي عملْتُ فيها من قبلُ، و أجملُ ما في الأمر أنّ العمل كان يتيحُ لي أوقاتاً حرّة عملْتُ على إستغلالها خير إستغلالٍ في قراءة أعمالٍ لطالما تطلّعْتُ لقراءتها من قبلُ، مثل: الجبل السحريّ، و الأخوة كارامازوف، كما كنتُ أقرأ آنذاك كتاب الفيلسوف الأمريكيّ وليام جيمس (أنواع التجربة الدينيّة The Varieties of Religious Experience)، و كنتُ آنذاك أعددْتُ قائمةً بالكتب الّتي طرقَت عقلي بكونِها تتناولُ موضوعاتٍ مثيرة و باعثة على التساؤل و المعرفة المعمّقة، و كانت القائمةُ تضمُّ كتباً مثل: الرجل الّذي مات Man Who Died للروائي دي. إج. لورنس، يوميّات نيجينسكي Nijinsky"s Diary، رواية (عبر النهر و نحو الأشجار Across the River and into the Trees) للروائي إرنست همنغواي، و كتاب (العقل في منتهى حدود الإحتمال Mind at the End of it"s Tether) للكاتب إج. جي. ويلز،،،،، و كنتُ عزمْتُ آنذاك كتابة سلسلة مقالاتٍ عن كلّ من هذه الاعمال أبيّنُ فيها كيف تترابطُ الأفكارُ في هذه الأعمال مع بعضها البعضِ فيما يخصّ موضوعة القيم الأساسيّة في الوجود البشريّ، و قد شكّلت هذه المقالاتُ فيما بعدُ القاعدة الّتي تأسّس عليها كتاب (اللّامنتمي).

أخبرتْني بيتي عصر أحد الأيّام بإحتمال كونها حاملاً، و كم وددْتُ حينا أنّ ظنّها هذا سيخيبُ لاحقاً: فقد كنتُ أعملُ في عملٍ بالكاد بدأتُ الإعتياد على أجواءه، و كنتُ أكتبُ بطريقة مقبولة، و كانت لديّ تطلّعاتٌ متفائلةٌ نحو المستقبل لذا كان آخرُ ما يمكنُ أن أفكّر فيه

هو تحمّلُ عبء طفلٍ، و مع أنّني كنتُ مُغرَماً بِـ (بيتي) لكن لم أكنْ أنوي الزواج منها آنذاك، و بعد بضعةِ أيّام أخبرتْني بيتي أنّ ظنّها كان خاطئاً و عندها إنزاح همٌّ ثقيلٌ عن صدري و تنشّقْتُ عبير الإرتياح حتّى أنّني أذكرُ كيف مضيْتُ لإقتناء أسطوانة الرقصة الختاميّة في عمل سترافنسكي المذهل (طائر النار Firebird) إذ لم يكن في مقدوري شراء الأسطوانة كاملةً حينذاك ثمّ أمضيْنا أنا و بيتي أوقاتاً رائعة في سماع الموسيقى السحريّة و قرّرنا بعد إنتهاء الموسيقى أن نمضي في قضاء عطلة نهاية الأسبوع في ويلز، و تركْتُ بيتي لأتمشّى ساعاتٍ مفعمة بالبهجة في الهواء الطلق، و لكم أن تتصوّروا كم كانت المفاجأة هائلة الوقْع و من العيار الثقيل عندما عادت بيتي و أخبرتْني أنّ حملها كان حقيقيّاً !! و تلبّسني شعورٌ حينها بأنّني كنتُ رجُلاً ملعوناً إحتوتْهُ روحٌ شرّيرة. رفضتْ بيتي كلّ المحاولات لإسقاط الجنين و أصرّت على واحدٍ من أمريْن: الزواج أو تركُها تربّي الطفل بمفردها، و هكذا وجدْتُ نفسي زوجاً لبيتي في ٦ حزيران ١٩٥١ و سُجّلَ زواجُنا في مكتب تسجيل ليستر وقت ساعة الغداء أثناء العمل، و بعد إتمام إجراءات التسجيل إنطلقْنا نحو أعمالنا اليوميّة المعتادة ثمّ أمضيْتُ الليلة مع بيتي بعد عودتِنا من العمل و إنطلقْتُ صباح اليوم التالي نحو لندن مستخدماً خدمة التوصيلات المجّانيّة hitch–hike إذ كنتُ عازماً على عدم المكوث في ليستر بعد الزواج. بعد أن وصلْتُ لندن أمضيْتُ ليلتي الأولى لوحدي في نُزُلٍ للشباب يقعُ في (Great Ormond Street) و تصادفَ أنّ جون كليمينتس John Clements وَ كاي هاموند Kay Hammond كانا يؤدّيان مسرحيّة (الإنسان و الإنسان الخارق) لبرناردشو على مسرح الأُمَراء Prince"s Theatre و لم أتأخّر في الذهاب لمشاهدة المسرحيّة و كانت تلك هي المرّة

السادسة الّتي أشاهدُ فيها تلك المسرحيّة العظيمة إذ لطالما كنتُ مُعجباً إلى حدود الهوس بمسرحيّات برناردشو و بخاصّة مسرحيّة (الإنسان و الإنسان الخارق) الّتي وجدْتُ فيها خيطاً من سخريّة مريرةٍ مخبوءةٍ بين ثناياها كما في العبارة التالية الّتي ترِدُ على لسان أحد أبطال المسرحيّة " الفنّانُ الحقيقيّ هو من يقبلُ جعل زوجته تعاني شظف العيش، و جعل أولاده يمشون حفاةً، و جعل أمّه المُسنّة تتسوّلُ الطّعام و هي في السبعين من عمرِها،،، و لكنّهُ لا يقبلُ العمل في شيءٍ لا يمتُّ بصلةٍ لفنّه " و من الواضح أنّني لم أكن فنّاناً حقيقيّاً بالإستناد إلى هذه المُقايسة البرناردشويّة !!.

وجدْتُ لنفسي غرفةً في حيّ كامدن Camden Town و إنتقلْتُ للسكن فيها و كانت تقعُ في نهاية شارع روتشستر و تكلّفتْني ثلاثين شلناً في الأسبوع، ثمّ مضيْتُ إلى مكتب العمل لإيجاد عملٍ جديد لي فوجّهني المكتب للعمل في ترميم كنيسةٍ كاثوليكيّة تدعى كنيسة إيثيليدريدا و هي واحدةٌ من أقدم الكنائس اللندنيّة، و كان ينبغي إجراء الترميم عليها بتبديل كلّ الروافد السقفيّة المتهالكة باخرى جديدة و كان العملُ خطيراً للغاية لأنّ الروافد الثقيلة كانت تُرفَعُ بحبالٍ مُثبّتةٍ على السقّالات و كثيراً ما حصل أن إنقطعَت الحبالُ تحت تأثير وزن الرافدة المعلّقة بها وَالّتي كانت تسقطُ على الأرض محدِثةً شروخاً عميقة، و رأيْتُ مرّة شرخاً من هذه الشروخ و كان بعمْق ست إنجات و لحسن الحظّ لم يحصل أن أصيب أحدُ العاملين خلال أعمال الترميم الشاقّة. مضيْتُ أبحثُ في الصحف المسائيّة عن الشقق و الغرف المزدوجة المعروضة للإيجار و كان واضحاً لي منذ البدء أنّ الشقق المؤثّثة بعيدةٌ عن متناول قدرتِنا في دفع الايجار لذا إكتفيْتُ بالتركيز على الغرف المُزدوجة و لكن ما أن كنتُ أكلّمُ مالكي الغرف

و أحدّثُهُم بامر حمْل بيتي حتّى كانوا يسارعون في رفض طلبي لأنّهم لم يرغبوا في وجود أطفالٍ في بيوتهم، و ما ضاعف من قلقي آنذاك أنّني كنتُ قدمْتُ إلى لندن بعد إستدانة ثلاث جنيْهاتٍ من جدّتي و لكنّ تلك الجنيْهات نفدت قبل إستلامي لأجور الأسبوع الاوّل من عملي، و قد دهشْتُ لأبعد الحدود عندما عدْتُ أحد الايّام من العمل لأتفاجأ أن بيتي أرسلت لي بعض المال مع طرْدٍ ضخم يحتوي صنوفاً مختلفة من الطعام، و لم تكن هذه اللفتة النبيلة باعثةً لإرتياحي و دهشتي فحسبُ بل أنّها اكّدت لي أنّ الزواج ليس محض عبءٍ و مسؤوليّة ملقاةٍ على كاهل المرء بل أنّ له فضائله مثلما له سيّئاته !!. إنضمّت لي بيتي في لندن بعد بضعة أيّام من وصولي و ذلك لتشاركني مناسبة عيد ميلادي العشرين و حصل حينها أن تغيّر مسارُ علاقتي معها كلّيّاً: إذ لم أعُد أنظرُ إلى الزواج كعبءٍ و لغوٍ فارغ و حظّ سيّئ و صرْتُ أسعَدُ بفكرة انّني غدوْتُ زوجاً و رأيْتُ آنذاك أنّ بليك كان مُصيباً للغاية عندما أشار في أحد المواضع من كتاباته إلى " أنّ ما يحتاجهُ الرّجالُ من النّساء و ما تحتاجه النساءُ من الرّجال هو الشّعور اللذيذ بالإمتلاء الثريّ الّذي ينشأُ عن الرغبة المُشبَعَة ": أي بكلماتٍ أخرى أكثر بساطةً أنّ الواحد منهم ينبغي أن يحتاجَ تماماً ما يستطيعُ الطرفُ الآخرُ أن يقدّمه، و في هذا الصّدد كانت بيتي على النقيض من ماري: فقد كانت تملكُ الكثير ممّا يمكنُ لها أن تمنحه إلى جانب التعاطف و الثقة كما كانت لها سِماتُها الممتازة في الإنضباط الذاتيّ و القدرة العمليّة اليوميّة إضافةً إلى أنّها كانت مُعتادةً على الطبخ و إدامة شؤون المنزل بكلّ تفاصيلها و كان هذا حتماً مبْعثَ سعادتي العميقة.

عادت بيتي إلى ليستر مساء أحد أيّام الأحد و كنّا نحن الإثنين سعيدَيْنِ للغاية بزواجنا، و كانت بيتي تنوي ترْكَ عملها بعد شهرٍ – عندما تبدأُ

علاماتُ الحمل بالظهور – و الإنتقال إلى لندن لأنّنا كنّا بغاية التوق للعيش معاً، و لحسن الحظّ وجذتُ غرفة مزدوجة صغيرة في شرق فينكلي East Finchley كما تركْتُ عملي القديم و إنتقلْتُ للعمل في مصنعٍ للمواد البلاستيكيّة نظير عشر جنيْهاتٍ في الأسبوع، و مع أنّ عملي الجَديد لم يكن ليخلو من سمةٍ تكراريّة لكنّه لم يكن بالعمل الشاقّ أو الصعب. تركت بيتي عملها فعلاً و إلتحقَت بي مع نهاية شهر آب من ذلك العام و بدا لي أنّ الحياة راحت تمضي في سلاسةٍ و بلا منغّصاتٍ متعبة.

إكتشفْتُ في الأيّام الأولى لزواجي من بيتي كتابَ (أعمدة الحكمة السّبعة The Seven Pillars of Wisdom) عبْر قـراءة الأنثولوجيا المعنْونة (ما ينبغي معرفتُهُ عن تي. إي. لورنس The Essential T. E. Lawrence)، وَ كانت بيتي تمتلكُ الكتاب كاملاً بجزئيْن و لكنّي وجدْتُه طويلاً يستعْصي على القراءة لذا إكتفيْتُ بقراءة الأنثولوجيا آنذاك و دهشْتُ كثيراً لمعرفة أنّ لورنس كان واحداً من قلائل الكُتّاب المُعاصرين الّذين أدركوا بعمقٍ طبيعة المشكلات الّتي كنتُ مهووساً بالتفكير فيها كلّ الوقت، كما مضيْتُ في قراءة بعض الكتب الرائعة الأخرى و الّتي بدا أنْ لا أحد كان يعلم بشأنها شيئاً يُذكر: يوميّات نيجينسكي، كتاب ويلز (العقل في أقصى حدود الإحتمال)، و كتاب غرانفيل – باركر (الحياة السرّيّة Secret Life)، و رواية هرمان هسّة الرائعة (ذئبُ البوادي Steppenwolf) كما عثرْتُ بمحْض صدفةٍ مدهشة في مكتبة فينكلي المحلّية على نسخةٍ من (كتاب سري راماكريشنا المقدّس The Gospel of Sri Ramakrishna) و عقدْتُ العزم منذُ ذلك الحين على كتابة كتابٍ يجمعُ بين الأفكار المتوزّعة في تلك المؤلّفات العظيمة.

* * * * * * * * * *

وجدْتُ النظام الّذي وفّره لي الزواج مُرضِياً لي للغاية: كنتُ أعودُ من العمل لأجد عشائي جاهزاً، ثمّ قد نذهبُ أنا و بيتي إلى السينما أو قد أذهبُ بمفردي إلى المكتبة المحلّيّة، و في الساعة التاسعة و النصف من مساء كلّ يوم كنّا نفتحُ أسرّتنا المحشورة في حائط غرفة النوم و ندلفُ معاً تحت الغطاء لنقرأ، و كنّا نخرجُ أحياناً في عطلات نهاية الأسبوع للذهاب في رحلاتٍ بالحافلة إلى أطراف لندن أو قد نذهبُ مشياً على الأقدام للتنزّه حول مُحيط منطقة فينكلي، و كان يحصلُ أحياناً أن أستقلّ الحافلة لوحدي و أمضي إلى المتحف البريطانيّ و أقضي مساء يوم الأحد بكامله في كتابة روايتي الّتي إنشغلْتُ بها بعد زَواجي مباشرةً، و لم أكنْ أفعلُ هذا لأنّ المتحف البريطانيّ كان المكان الأكثر ملائمةً للكتابة لي بالمقارنة مع المنزل بل لِمحضِ إنتشائي بالتفكير أنّني أكتبُ في ذات المكان الذي كتب فيه كلٌّ من صامويل بتلر، و كارل ماركس، و برناردشو، و ويلز،،،،، و حينما صدرت الطبعةُ الأولى من اللامنتمي شعرْتُ ببهجةٍ عظيمةٍ عندما قرأتُ في إحدى الصحفِ تأكيداً على أمر إدماني للقراءة و الكتابة في قاعة المتحف البريطانيّ: الأمر الّذي ترتّب عليه إضافة إسمي إلى قائمة مَن واظبوا على القراءة و الكتابة في هذه القاعة الخالدة. أظنُّ أنّني أدرِكُ اليوم السبب وراء السّعادة الّتي غمرتْني بعد أن غدوْتُ مُتزوّجاً: كان الزّواجُ بشكلٍ ما تعبيراً عن نُزوعي القديم للنظام و الإنضباط وسْط فوضى العالَم الخانقة، فالأطفالُ مثلاً يتلذّذون بسماع القصص و الحكايات لأنّها تنطوي على فوضى أقلّ بكثيرٍ للغاية ممّا يختبرونه في العالم الحقيقيّ و لا يكونُ عليهم أثناء متابعة القصّة أو الحكاية التّيهُ في حيرة الإختيار بين المواقف كما لا يتوجّبُ عليهم أن يفسّروا شيئاً لأنّ الحكاية الّتي بين أيديهم تحدّدُ المسارات التالية بشكلٍ غايةٍ في الوضوح و البساطة

تماماً كما تنسابُ المياهُ في قناةٍ محدّدة الإتّجاه، أمّا في الحياة الحقيقيّة فثمّة الكثيرُ من الإتّجاهات المتضادّة الّتي لاتُتيحُ لنا بلوغ السعادة الّتي يختبرُها الأطفالُ مع الحكايات إلّا في لحظاتٍ نادرةٍ ثمينة كمثل الإحتفال بعيد الميلاد أو الذهاب إلى مسرح الدّمى المتحرّكة، و ثمّة أمرٌ آخر: فالأطفالُ الصّغار جدّاً يتطوّرون في حياتهم و هم تحت مظلّة حماية الحبّ الأبويّ الّذي يُغدقُ عليهم بلا حساب و لكنّ هذه المظلّة الحمائيّة تبدأُ بالخفوت مع بلوغ الأطفال سنّ السّابعة عندما يتوجّبُ عليهم أن يكونوا أكثر إستقلالاً عن ذي قبل، و حينها يبدأ الأطفالُ في إختبار أولى الوسائل الّتي تعلّمهم كيفيّة التعامل مع الفوضى المُطبِقة على العالم، و فيما يخصّني أنا فقد عشْتُ معظم سنوات عمري حتّى بلغْتُ العشرين و أنا مفتقِدٌ إلى الحدّ الأدنى من الحبّ و الرعاية و الحنان لذا كان لزاماً عليّ أن أكتشف وسائلي الخاصّة في كيفيّة التعامل مع الفوضى منذ وقتٍ مبكّر، و عندما تزوّجْتُ بدا لي أنّني إنزلقْتُ إلى ما يشبِهُ عالم الطفولة الآمنة السعيدة المطمئنّة بعد أن تصادف و وجدْتُ شخصاً آخر يتّفقُ معي إتّفاقاً عميقاً و يؤمنُ بي و بقدراتي و يطهو لي طعامي و يطلبُ إليّ أن يُساعدني في خلع ملابسي !!، و بإختصار شديد كان الزواجُ لي كمن يسترخي في حوض حمّام ساخن بعد يومٍ طويل من الكدح الشاق.

حصلَ قبل موعد ولادة طفلنا أن نبّهتْنا مالكة المنزل الّذي نقيمّ في أحد غرفه إلى ضرورة إخلاء الغرفة مع ولادة الطفل، و الحقيقة أنّها كانت حذرتْنا بضرورة إخلاء الغرفة متى ما ولِد الطفل من قبلُ لكونها كانت مهووسة بالتحسّب لإحتمال أن يلد الطفلُ قبل أوانه الموعود فتبقى أسرتُها متيقّظةً طوال الليل بسبب صُراخه، و كانت تجربتي السّابقة مع مؤجّري الشقق من النساء أقنعتْني على نحوٍ حاسم

بوجوب توقّع أسوأ الأمور منهنّ حتّى ترسّخت لديّ قناعةٌ بأنّ المرأة متى ما صارت تديرُ منزلاً للإجار فإنّ هذا إعلانٌ مُؤكّدٌ لخسارة روحها الأنثويّة الخالدة !! و كنتُ توّاقاً في أن أرى إنكلترا تُحكَمُ بنظامٍ دكتاتوريّ قاسٍ يجمعُ كلّ مُؤجّرات الشقق السكنيّة في سجنٍ على ظهر سفينةٍ تأخذهنّ إلى منطقةٍ نائية معزولة – مثل باتاغونيا Patagonia – حيث يقضين البقيّة الباقية من أعمارهنّ في تعذيب بعضهنّ لبعضٍ بفعْل الغلظة و الغباوة اللّتيْن جُبِلْن عليهما.

عرضَ عليّ رئيسي في العمل غرفة خالية في المنزل الّذي يقيم فيه، و وُلِد طفلنا في تلك الغرفة و كان ولداً أسميْناه رودريك جيرارد (الإسم الثاني جيرارد هو إسم بطل رواية طقوسٌ في الظلام)، و لكن عادت مالكة المنزل بعد بضعة أسابيع لتعيد ذات الفعل الّذي فعلتّه السابقات و صارت لا تكفّ عن تقريع مسامعنا بضرورة إخلاء الغرفة بعد أن باتت صرخاتُ الطفل عصيّة على إحتمال النّزلاء، و عندما عجزْتُ عن إيجاد غرفةٍ بديلة قرّرت بيتي أن تعود إلى ليستر و تبقى فترة ما في منزل والديّ، أمّا أنا فعثرْتُ على غرفةٍ مفردة صغيرة للغاية و على مبعدة مسافة قصيرة من خط الحافلة الّتي كانت تقلّني إلى عملي في المصنع كلّ صباح. كانت مالكة غرفتي الجديدة سيّدةً صلبة الملامح تتظاهرُ بإمارات الرقّة و اللين و عرفْتُ حالما إلتقيْتُها أنّني سألقى منها عنتاً و متاعب لا قدرة لي على إحتمالِها: ففي ذات اليوم الّذي إنتقلْتُ فيه للسكن في الغرفة و أنا احملُ إثنتي عشرة حقيبة و صندوقاً كبيراً – و كلّها متخمةٌ بالكتب – و قفت المرأةُ أمامي لتمنع عليّ الدخول و هي تصرخُ بوجهي و تؤكّدُ أنّها ما كانت لتؤجّرني الغرفة لو أنّها علمت بأمر كلّ هذه الحقائب و الكتب، و صار من المعتاد لي أن اقرأ ملاحظةً مدوّنة في ورقة صغيرة كلّما عدْتُ إلى غرفتي تخبرني

فيها "من فضلك إنتبه حتّى لا تبعثرِ السُكّر على أرضيّة الغرفة" أو " من فضلك لا تترك أكواب الشاي على قاعدة النافذة"،،، و هكذا صِرْتُ أقضي عطلاتي الاسبوعيّة و أنا أبحثُ عن سكنٍ جديد لي كما راحت بيتي هي الأخرى تنشرُ إعلاناتٍ في الصّحف الخاصّة بوظائف الخدمات التمريضيّة طلباً لوظيفةٍ تضمنُ إقامتها حيث تعمل و وصلَها فعلاً طلَبٌ لخدماتها من رجلٍ يدعى (السيد بنمان Mr. Penman) من منطقة ويمبلدون و كان يعيشُ وحيداً في منزلٍ واسع مريح و يبحثُ منذ بعض الوقت عن ممرّضةٍ متفرّغة لرعايته، و إنتقلْنا بالفعل أنا و بيتي للسكن في منزل السيد بنمان الّذي يقعُ في أحد الأطراف الهادئة لحيّ ويمبلدون الجميل. كان السيّد بنمان رجلَ أعمالٍ مُتقاعِداً يعاني من مرض الربو و ظهر لنا في بداية الأمر كرجُلٍ شديد اللُّطف و الكرم و اللهفة كذلك للحصول على خدمات بيتي التمريضيّة الّتي راقت له كثيراً إلى حدّ أنّه أخبرها منذ وقتٍ مبكّر بأنّه ينوي ترك المنزل لها في وصيّته و هو الأمر الّذي ما كنّا لنصدّقه في كلّ الأحوال، و لكنّ الرجل سمح لي بإستخدام آلته الكاتبة الّتي أفادتْني أعظم الفائدة و كنتُ في العادة أُمضي أمسِية كلّ يوم سبت و انا عاكِفٌ على الكتابة في قاعة المتحف البريطانيّ ثمّ أعودُ صباح يوم الأحد التالي لإستنساخ ما كتبْتُهُ على الآلة الكاتبة.

كانت ويمبلدون – حيثُ نقيم – تبعدُ حوالي ساعة بالقطار عن مكان عملي في نورث فينكلي، و كنتُ آنذاك قانعاً بوظيفتي الّتي تمثّلت في تثبيت نماذج من تمثال الأله إيروس في حيّ البيكاديللي أو الحيّ المحيط بمبنى البرلمان كما كنتُ أحياناً أقوم بلصْقِ شعار الأله الايروتيكي على زجاجات مصنوعةٍ من اللدائن الصّلدة، و كان يَتوجّبُ عليّ قضاءُ حوالي الساعتيْن في التنقّل من العمل و إليْه، و لكن

يبدو أنّ القدَر القاسي بدأ في تنغيص شعوري بذلك المقدار الضئيل من الأمان: فقد كان العجوز بنمان يكره وجودي في المنزل بصحبة بيتي و إعتاد على التظاهر الماكر بأنّه واقعٌ تحت رحمة هجمة ربْوٍ شرسة بعد بضع دقائق من ذهابنا إلى الفراش و بدا الأمرُ كما لو كان مخطّطاً مقصوداً منه للوقوف في وجْه ممارسَتنا للحبّ !! كما إعتاد الرجل العجوز أيضاً على إيقاظ بيتي من نومها حوالي ستّ مرّات كلّ ليلةٍ ثمّ نتبيّنُ حقيقة الأمر و أن لا شيء جدّيّاً يهدّدُ حياته، و وصلت به الصّفاقةُ حدّ الطلب من سكرتيرته أخذ الآلة الكاتبة إلى منزلها بحجّة الإدّعاء أنّ لديها ما تعمل عليه هناك و يتطلّبُ وجود آلة كاتبة و كان واضحاً بالطبع أنّهُ يتقّصّدُ منعي من إستخدامها و هنا بدأ صبْرُنا معه ينفد. كنتُ آنذاك لا أزالُ مستمتعاً بقدر معقول من كوْني زوجاً لبيتي و لكن بدا أنّ هذا الزواج لم يوفّرْ لي الحرّية و الراحة اللّتيْن كنتُ أتوق لهما و كانت المشكلة وراء هذا تعودُ بشكلٍ جزئيّ إلى إختلاف السنّ بيني و بين بيتي كما كان لأسلوب حياة بيتي القائم على الإستقلاليّة الصارمة لسنوات طويلة قبل أن تتزوّجني دورٌ مهمّ في توسيع شقّة الخلاف بيننا، و إعتادت بيتي القول بأنّني لم أنضجْ كفاية بعدُ و أنّ عشر سنواتٍ إضافيّة من التجربة و الخبرة خليقةٌ بأن تجعلَني أرى الأمور على غير النحو الّذي كنتُ أراها حينها و كان هذا القول و أمثالُهُ تدفعُني إلى الغضب و الإهتياج، و نشبتْ بيننا أحد الايّام مشاجرةٌ عنيفةٌ بسببٍ من سلوكها الّذي حسبتُه حينها طغياناً فاضحاً: كنتُ ذلك اليوم أصلحُ بعض العيوب في الستائر الخارجيّة على نافذة غرفة النوم و إستطعْتُ من موضعي أن أتلصّص على بيتي و هي تغتسِلُ في الحمّام قبل أن تذهب إلى الفراش لتنام، و عندما خرجت بيتي من الحمّام أخبرْتُها بسذاجةٍ كاملة عمّا حصل فإنفجرَت غاضبةً بطريقةٍ غير معهودةٍ لي و

راح تكيلُ الكلام المقذع لي و تصفُني بأنّني محضُ طفلٍ يتلصّصُ النظر إلى الآخرين، و عند هذه النقطة أخبرْتها أنّ الأطفال يتلصّصون على الغرباء في العادة و أنّها زوجتي و ليست غريبة عنّي و لكنّ قولي هذا لم ينفع في تهدئة سورة غضبها، و كان ثمّة أمرٌ آخر: فقد كانت تُبدي تحفّظاً غريباً و هي تخلعُ ملابسها أمامي إذ كانت في العادة تُديرُ لي ظهرها و تضعُ ثوب النوم فوق رأسِها ثمّ تستديرُ دورةً سريعة و هي تخضّ جسدها بحيثُ ينزلقُ ثوبُ النوم فوق جسدها بينما تتكوّمُ ملابسها الداخليّة حول قدمها.

غدا السيّد بنمان مصدراً لإزعاجٍ لا يطاق حتّى عزمْنا على مغادرة منزله في آخر الأمر، و عندما أعْلمَت بيتي شقيقته بأمر عزْمنا على الرحيل القريب توسّلت إليْها الشقيقةُ أن نبقى و نتحمّل و قدّمت لها خمساً و عشرين جنيهاً على سبيل التعويض عن متاعب الإزعاج و وعدتْها بمثلها كلّ ستّة أشهرٍ، و كان المبلغُ بطبيعة الحال كفيلاً بأن يجعلنا نعيدُ النّظر في أمر مُغادرتنا لمنزل السيّد بنمان كما وفّر لنا بذات الوقت فرصة الإنطلاق في أوّل إجازة طويلة لنا منذ زواجِنا حيثُ قضيْنا أسبوعاً في جزيرة هايلينغ Hayling بعد أن تركْنا الرجلَ المريض في عهدة ممرّضةٍ مبتدئة. إمتدّت رحلتُنا أسبوعاً ممتعاً للغاية بدا كأنّه وعْدٌ بأيّام قادمة أفضل من تلك الّتي إنقضت: فقد أمضيْنا اوقاتاً رائعة و نحنُ نُمتّعُ أنظارنا بمرأى كوخ بليك في فيلغام، و أمضيْنا يوماً في مُعاينة كاتدرائيّة تشيتشيستر الّتي عثرْتُ فيها على كتاب إليوت الممتاز الّذي يحكي عن الكاتدرائيّات و ضرورة إيفاءِها بمتطلّبات الإتّساع و الأحيزة الفارغة، كما القيْنا نظرة على نُصب النصر في بورتسموث، و عند شاطئ فيلغام شعرْتُ كما لو أنّني أرى أشباح بليك الملائكيّة تحومُ فوق سطح البحر، و لن أنسى التوعّك الّذي أصابَني نتيجة إفراطي

في تناول الكثير من ثمار الطماطم. عدْنا مع ختام أسبوع رحلتِنا إلى ويمبلدون بعد أن مررْنا بمنزلنا في ليستر و هناك علمْنا أنّ السيّد بنمان توفّي أثناء رحلتنا و ربّما كانت وفاته نتيجة إصابته بنوبة ربوٍ قاتلة و هو في خضمّ إحساسٍ قاسٍ بالشفقة على نفسه، و أخبرَنا أقاربُ الرّجل أنّ بإمكاننا البقاء في المنزل لبضعة شهورٍ قادمة كما صار في مقدوري إستعادةُ الآلة الكاتبة و العمل عليها بل و ذهبت شقيقة المتوفّى إلى حدّ منحها هديّة لي.

كانت الشهورُ اللاحقة لوفاة السيّد بنمان أمتع أيّام زواجي من بيتي: إذ لم تكن حينذاك ثمّة مالكة منزلٍ تُملي عليْنا أوامرها و لم نكن نسمعُ صوتاً أجشّاً يصرخُ أثناء نومنا " يا ممرّضة، أين أنت ؟ "، و مع هذا واجهتْنا مشكلة ضرورة إيجاد سكن جديد لنا إلى جانب أنّني كنتُ فُصِلْتُ من عملي آنذاك و مضيْتُ في طلب إعانةٍ حكوميّة أتاحت لي الحصول على أربع جنيهاتٍ أسبوعيّاً، و أعلنت بيتي من جانبها رغبتها في إيجاد وظيفةٍ كممرّضة منزليّة تقيمُ في منزل من يسعى لطلب خدمتها و حصلت فعلاً على عملٍ في منطقة كينسنغتون Kinsengton و كان العمل لحساب مديرة متقاعدة تدعى السيدة ديكون و كانت تديرُ قبل تقاعُدِها مركزاً علاجيّاً لمدمني الكحوليّات و تزوّجت من أحد الكهول المدمنين الأثرياء. إنتقلْنا أنا و بيتي إلى منزل السيّدة ديكون في خريف عام ١٩٥٢ و أمضيْنا ستّة شهورٍ في ذلك المنزل و نحنُ نعيشُ أسوأ أيّام زواجنا إذ كنتُ لا أزالُ مُسجّلاً على قائمة الإعانات الحكوميّة بعد أن غدت الوظائف شديدة النّدرة تلك الأيّام، و أقمْنا في غرفة تقعُ بالطابق السفليّ و كانت شبيهةً بسردابٍ مظلم حتّى أنّ المصابيح كانت تُتركُ مُضاءةً طول اليوم، و إذا كان يجوزُ لنا أن نُشبّه السيّد بنمان بنموذجٍ مصغّر من الطاغية تيبريوس فإنّ

السيّدة ديكون ستكونُ حتماً الصورة المؤنّثة من الطاغية كاليغولا: فقد كانت عصابيّة حدّ الجنون و لم تستطع أيّة مدبّرة منزل أن تمكث معها لأكثر من بضعة أسابيع فحسب إذ كانت مُنغلقة على نفسها و متعلّقة بحاجاتها الذاتيّة بطريقة مرضيّة دفعتْ بها لتكون شخصيّة إرتيابيّة ترى في الآخرين محض أشباحٍ خلوّة من أيّة مشاعر، و راحت السيّدة ديكون أحد الايّام تتّهمُ بيتي بفتح رسائلها الخاصّة بإستخدام البخار و حينها جنّ جنون بيتي الّتي كانت تمتازُ بأمانةٍ صارمة و إستقامة أخلاقيّاتيّة قلّ نظيرُها فنشبت بينها و بين السيّدة ديكون مشاجرةٌ إنتهت بالطلب إليْنا بإخلاء غرفتنا و مغادرة المنزل على الفور.

كنتُ إتّخذْتُ قراري مسبّقاً تلك السنة أن أقضي عطلة أعياد الميلاد في التأمّل و التفكير، و بينما كانت بيتي منهمكةً في إعداد فطور صباح عيد الميلاد كنتُ أنا أقرأ في أحد مُجلّدات وليم بليك مُجاهداً لبلوغ سكينتي الداخليّة الّتي إفتقدْتُها منذ زمنٍ بعيد، و كانت قراءة بليك وسيلة مجرّبة عندي للحصول على الإسترخاء العميق و لطالما لجأتُ إليها منذ سنواتٍ قبل بلوغي سنّ العشرين و كان الأمرُ يتطلّبُ منّي أحياناً يوماً كاملاً لبلوغ الإسترخاء الكامل و العميق حيثُ يطغى حسّ التفاؤل و الإحساس باليقين و الثقة على مشاعري المُتقلّبة و المُتعَبة، و جاءت أعياد الميلاد يومذاك لتوفّر لي فرصةً مناسبةً للعودة إلى ممارسة لعبتي الأثيرة تلك و لكن لسوء الحظّ لم أكن قد إستغرقْتُ في تامّلي سوى لدقائق معدوداتٍ حتّى قاطعت بيتي خلوتي الهادئة و طلبت إليّ الإعتناء بإبننا رودريك ريثما تكملُ إعداد الفطور، و عندها إنفجرْتُ غاضباً بوجهها بعد أن صار إستغراقي في التأمّل و الإسترخاء أمراً مستحيلاً، و بعد برهةٍ من الوقت ملأني إحساسٌ فظيعٌ بالذنب تجاه بيتي و ذهبْتُ طلباً للكلام معها و لكنّها كانت

منكمشةً على نفسها و أصابها ذلك النوع المخيف من تبلّد العواطف إلى حدّ لم يُتِحْ أيّ سبيلٍ لِلكلام معها و أمضيْنا طيلة صباح عيد الميلاد و نحن لا نكلّمُ بعضنا، و بعد الغداء و حينما نام رودريك حاولْتُ مُصالحتها بأن أقرأ شيئاً لها و كثيراً ما كنتُ أقرأ لها بعض الأجزاء من الكتب الّتي أحبّ و رأيْتُ آنذاك أنّ من الأفضل قراءة بعض المقاطع في كتاب دي. إج. لورنس (الرّجل الّذي أحبّ الجُزُر The Man Who Loved Islands)و هو دراسةٌ في غاية الإمتاع عن شخصيّة عصابيّة لرجُلٍ تملّكتْهُ رغبة جامحة في الإنفراد بذاته حتّى بات مهووساً بهذه الفكرة فإنتهى به الأمر إلى شراء جزيرة صغيرة، و كانت فكرة لورنس من وراء كتابه هذا أن يُذكّرنا – بما يشبه الموعظة – بأنْ ما مِن إنسانٍ يمكنُ أن يكون جزيرةً لوحده (**يشيرُ الكاتبُ إشارةً مباشرةً إلى القول المأثور للكاتب و الواعظ الإنكليزيّ جون دَن John Donne الذي يُعدُّ في طليعة الشعراء الميتافيزيقيّين الإنكليز العظام و عاش في الفترة ١٥٧٢ – ١٦٣١، المترجمة**)، و تعاطفْتُ كثيراً مع بطل القصّة و وجدْتُ نهاية القصّة مؤثّرة بطريقة غريبة حينما تنقضُّ كتلٌ هائلةٌ من الثلج على كوخ الرّجل فيما يشبه الطّوفان الجليديّ، و بعد بضعِ صفحاتٍ من القراءة أخبرَتْني بيتي أنّ هذه القصّة هي أكثر القصص الّتي سمعتْها في حياتها إثارةً للضجر و الإكتئاب و أنّها لن تحتمل أيّة كلمةٍ إضافيّة أخرى منها و هنا ثارت ثائرتي و غادرْتُ الغرفة على الفور و مضيْتُ أتجوّلُ و أنا راكبٌ درّاجتي بلا هدف في يومٍ غائم شديد البرودة ثمّ وجدْتُ نفسي عند جسر واندزورث فتوقّفْتُ بمحاذاته و طفقْتُ أتطلّعُ في المياه الباردة: لم أكن أفكّرُ حينها في الإنتحار قطعاً و لكن كنتُ أتطلّعُ إلى دواخل روحي مُحاوِلاً معرفة ما ينبغي لي فعلُهُ حقّاً و رأيْتُ أنّ الإحباط الكامل قد طال معي بما يكفي و إرتسمَت صورة نيجينسكي

أمامي على الفور إذ كانت زوجته هو الآخر إمرأة مستقيمةً مُخلصة و لكنّها فشلت في إدراك السّبب الّذي جعل زوجَها ينوءُ تحت عبء توتّرٍ قاتل. كانت بيتي تحاوِلُ دوماً أن تجعل منّي أسوأ أنواع الشّركاء و كانت لا تتردّدُ في إستفزاز مشاعري بأكثر الطّرق خشونةً و قسوة، و حينما غادرْتُ غرفتنا و رحتُ أهيمُ على غير هدىً مساء ذلك اليوم كان عقلي مُقفلاً على صورة فان كوخ الّذي إنتهى إلى قناعةٍ يقينيّة راسخة تمثّلت في صرخته بأنّ " البؤس لن ينتهي أبداً "، و رأيْتُ أنّ زواجي من بيتي كان حدثاً دخيلاً و عرضيّاً في حياتي و إنحرافاً عن هدفي الصحيح و تيقّنْتُ أنّ هذا الإنحراف طال كثيراً و آن له أن ينتهي إلى غير عودة، و لم يكن قراري هذا محض فورةٍ عاطفيّة آنيّة بل رأيْتهُ كحقيقةٍ صارخة أمامي و لم يكن بوسعي أن أتجنّبها مهما فعلت و عندها إجتاحَني إحساسٌ عميق بالراحة لم أختبرْ مثيله منذ وقتٍ بعيد كما شعرتُ بالأسف العميق تجاه بيتي في الوقت ذاته. إنفصلْنا أنا و بيتي عن بعضنا في كانون ثانٍ عام ١٩٥٣ و ودّعتْني و رحلَت بعيون دامعة بعد أن وعدْتُها بأن أعثر لها على غرفةٍ مستقلّة بأسرع ما يمكن.

٦. أيّام الفوضى في سوهو

كانت واحدةً من أهمّ النتائج الّتي ترتّبت على إنفصالي من بيتي هي أنّني غدوْتُ أكثر إرتباطاً بمجموعة الفوضويين في لندن London Anarchist Group الّتي كنتُ عضواً فيها خلال الشهور السابقة لإنفصالي من بيتي، و كنتُ إلتقيْتُ بهؤلاء لأوّل مرّة أثناء جولةٍ لي بصحبة بيتي في حدائق الهايدبارك عندما إلتقيْنا برجلٍ ذي لحيةٍ حمراء يبشّرُ بالفوضويّة و يُمجّدُ قِيَمَها في ركن المتكلّمين Speakers" Corner من الهايدبارك: بدا الرجل لي ذكيّاً و ذا معرفة واسعة، و عندما سألته بضعة أسئلة أجاب عنها بذكاء و إن بدت إجاباته غير مقنعةٍ لي. ذهبْتُ لرؤية الرجل صباح يوم الأحد التالي و سألته إن كان في مقدوري الإنضمامُ إلى الجماعة فأجابني بعدم وجود عضويّة رسميّة للجماعة و أنّني إذا كنتُ فوضويّاً مُكرّساً و مقتنعاً بالقيم الفوضويّة فيمكُنني أن أغدو رفيقاً لمجموعة الفوضويّين بل و ذهب لدعوتي إلى الحديث من فوق منبره،و ذهبتُ بالفعل يوم الأحد التالي للحديث من منبر الهايدبارك و أنا في غاية التوتّر و القلق: ركبْتُ مترو الأنفاق من محطّة ويمبلدون و حاولْتُ التملّص من دفع الثمن الحقيقيّ لتذكرة ركوب المترو بالإدّعاء أنّني ركبْتُ القطار من محطّة أقرب الى الهايدبارك من ويمبلدون، و إكتشف مفتش التذاكر خدعتي و سلمّني إنذاراً مع غرامةٍ بقدر عشر شلنات و كان من نتيجة هذا الفعل أنّ يستفزّ كلّ ميولي الفوضويّة الخامدة و هكذا بدأتُ خطابي في الهايدبارك بالحديث إلى الحضور عن تجربة توقيفي و تغريمي و مضيْتُ في تزويدهم بنصائح

عمليّة عن كيفيّة الإفلات من دفع قيمة تذاكر مترو الأنفاق !!، و حقّق خطابي الأوّل في الهايدبارك نجاحاً رائعاً و عرفْتُ أنّ من السّهولة الحديث في مكانٍ عامّ طالما كان بمقدور المرء الحديثُ بصوت عالٍ، و إجتذب حديثي العديد من المستمعين بحيث تضاعف عددهم عمّا كان في البدء بعد أن إنتهيْتُ من كلامي، و عندما نزلْتُ من منصّة الخطابة راح الجميعُ يربّتون على كتفي و دعوْني لتناول الشاي و الشطائر في إحدى المقاهي القريبة، و بلغت الحماسة مبلغاً يفوق التصوّر بأحدهم و يدعى (توني غيبسون) الّذي صار منذ تلك اللّحظة صديقاً حميماً لي و لكنّ الآخرين أخبروني أنّ كلمتي لم تكن فوضويّةً بما يكفي و أنّ عليّ قضاء بضعة شهور في دراسة أعمال كروبتكين (**فيلسوف إجتماعيّ روسي عاش في الفترة ١٨٤٢ - ١٩٢١ و يعدّ كتابه "مذكّرات ثوريّ" الكتاب المقدّس للحركة الفوضويّة، المترجمة**) قبل أن يكون مُتاحاً لي الحديث فوق منبر الفوضويّين في الهايدبارك ثانية.

كان إعتقادي الراسخُ أنّ النظريّة السياسيّة في الفوضويّة ليست سوى سخْفٍ لا معنى له: فقد ينشد المرءُ مجتمعاً بلغت فيه الديمقراطيّة و الثقافة مبلغاً متزايداً بحيثُ لم تعُد ثمّة حاجةٌ إلى أيّ شكلٍ من أشكال السلطة و لكن كان واضحاً تماماً أنّنا لم نكن مستعدّين بعدُ إلى ذلك الطّور من الإرتقاء السياسيّ و المجتمعيّ، و لكن من ناحيةٍ أخرى فقد كنتُ على الصعيد الشخصيّ توّاقاً إلى تحقيق الغاية المُعلنة من الحركة الفوضويّة و هو خلقُ مجتمعٍ من الأرواح الحرّة الّتي يحنو بعضُها على البعض الآخر بكرم روحٍ و سخاء. و كانت هذه الفكرة تلقى هوى طاغياً في قلبي و جوارحي، و كنتُ منذ سنواتٍ بعيدة حدسْتُ أنّ المرض القاتل في حضارتنا المعاصرة إنّما يكمنُ في تغليب المصالح الذاتيّة على ما سواها و كذلك في مرض السّلطة الّتي تستحوذُ

على قلوب رجال الأعمال و السياسيّين، و كنتُ عملْتُ في مصنعٍ للدمى من قبلُ و تملّكتني رغبةٌ جامحةٌ في تفجير المصنع بالديناميت فقد كان العمّال يُعامَلون كما لو كانوا آلاتٍ خرساء يُسيّرُها الجنّ إذ لم تكن ثمّة أيّة دقيقة من فسحة حرّية كما كان التأخّر لدقيقةٍ عن العمل يعني خسارة فادحة تصيبُ العامل المتأخّر، و كان عملي لأسبوعٍ واحد هناك كافياً لجعلي أشعرُ بالتقزّز و عجبْتُ كيف أنّ أرض إنكلترا الولودة الّتي أنجبت أفـذاذاً في الفكر من مثل السير توماس براون، و نيوتن، و شيللي قد إنتهت إلى هذه النهاية القاتمة: عبادة المال بطريقةٍ شيطانيّة لا رحمةَ فيها، و قد كرهْتُ هذا النوع من عبادة المال كراهيّة مفرطة لأنّها كانت تهدّدُ مواهبي الكتابيّة و لم يبْقَ أمامي سوى الإنخراط في الحركة الفوضويّة الّتي كانت تبشّرُ بخلق إنكلترا ملائمة للموهوبين و خلْق مجتمعٍ يرعى الموهبة، و هكذا بدا للفوضويّين أن توجّهاتي كانت مثاليّة بعض الشئ و لم تكن لتتّفق مع توجّهاتهم السياسيّة العمليّة و كانت النتيجة أن حُرِمْتُ من إرتقاء منبرهم الخطابيّ لذا تركتُ الفوضويّين و إنضممْتُ إلى جماعة نقابات شمال لندن الّتي أسعدَها إنضمام شخصٍ يجيد التحدّث مثلي و تركت لي الحرّية الكاملة في التحدّث من فوق منبرهم، و ما شجّعني أكثر في الإنفصال عن الجماعة الفوضويّة هو إنقسامُها بشأن منح لقب الفارس للسير هربرت ريد و هو الامر الّذي كان من شأنه دفعُها للإنقسام إلى جماعتيْن مُتصارعتيْن، و إنتهت علاقتي الرسميّة مع جماعة لندن الفوضويّة عندما دُعيتُ أحد الأيّام إلى إلقاء محاضرة في أحد أيّام الخميس و تحدّثْتُ فيها عن أباطرة روما المتأخّرين من تيبيريوس إلى نيرون ثمّ قرأتُ للحُضور مقاطع من كتابات سوتونيوس **(مؤرّخ و كاتب سير حياة روماني كتب كتاباً عن سيرة حياة القياصرة الرومان،**

المترجمة)، ثمّ تناولْتُ موضوع جاك السفّاح و ترزايد معدّل إرتكاب الجرائم في المجتمع البريطانيّ و كان ظنّ الجميع أنّني أبتغي الخلوص إلى فكرة أنّ السلطة مفسدةٌ لِلأخلاق و لكن الحقّ أنّني كنتُ أبتغي أمراً أبعد من هذا بكثير: كنتُ أبتغي تأكيد فكرة أنّ ثمّة عنصرٌ غير عقليّ في الطبيعة البشريّة يجعلُ من أمر إقامة مجتمعٍ مؤسّس على القيم الفوضويّة الخالصة أمراً مُستحيلاً، و إقتبسْتُ كَلمتي الرئيسيّة من رواية دوستويفسكي القصيرة (مذكّراتٌ من العالم السفليّ) و كانت النتيجةُ أن إنصرف نصف الحاضرين قبل نهاية المحاضرة كما هاجمني الباقون منهم هجوماً عنيفاً و وصفوني بأنّني كنتُ أنفّسُ عن بعض النوازاع الساديّة المتأصّلة في داخلي، و أنّني أتعامل مع منصّة الخطابة كما لو كانت أريكة محلّل نفسانيّ، و هكذا تضاءلت مقابلاتي مع أفراد الجماعة الفوضويّة و لم أعد أهتمّ بلقاءهم إلّا في بضع حالات نادرة.

* * * * * * * * * *

لم يكن فشلُ زواجي من بيتي يعودُ لي بالكامل و قد بيّنْتُ سابقاً أنّ الكثير من المشاكل و التوتّرات الكامنة قد نشأت بيننا على مدى الثمانية عشر شهراً الّتي قضيْناها مُتزوّجيْن، و رغم أنّ الودّ كان سائداً بيننا إلى حدّ كبير غير أنّ صداماً بين إرادتيْنا كان نما و تطوّر إلى حدودٍ لا يمكن السيطرةُ عليها بعدَ أن كنتُ قد ألزمْتُ نفسي بنوع من الإنضباط في سنوات ما قبل العشرين من عمري و كنتُ أتوقُ إلى أن ينظر لي الناسُ من خلال ما أردْتُ تحقيقه كما كان لزاماً عليّ آنذاك مقاومة كلّ عوامل الشكّ المدمّرة في قدرتي الذاتيّة على العمل و الإنجاز، و إذا كانت علاقتي مع أيّ فردٍ تتجاوزُ القواعد الّتي وضعتُها لنفسي قبل سن العشرين بوقت ليس بالقليل فهذا يعني أنّني أقبلُ بالتخلّي عن

تلك القواعد الحاكمة، و من الواضح أنّ علاقة زواجي مع بيتي كانت تُخالفُ هذه القواعد بشكلٍ صارخ و لا يمكنني التعايشُ معه مهما حاولْتُ: فقد وضعْتُ ذاتي في ذات الفئة الّتي ينتمي لها نيتشه، وَ فان كوخ، و نيجينسكي، وَ تي. إي. لورنس و كنتُ أعتبرُ نفسي مثلهم متصوّفاً ميتافيزيقيّاً لامنتمياً بطريقةٍ تليقُ بإمرءٍ يدفعهُ دافعٌ من دوافع نظريّة التطوّر الإرتقائيّة إلى الحدّ الّذي يتماهى فيه ذلك الدافعُ مع دوافعه الشخصيّة الطبيعيّة، و لسْتُ أعني هنا أنّ أغلب دوافعي كانت تقوم على دوافع غير شخصيّة لا تنبعُ من قرارة داخلي بل أقصدُ على وجه التحديد أنّ ثمّة مواقف محدّدة في حياتي لم تكن دوافعي فيها دوافع شخصيّة محضة، و ربّما يكون أقرب إلى الصّواب تفسيرُ الحلم الضّاغط علي جوانحي في الرغبة الجّامحة بالإرتقاء و التطوّر و الإنجاز المبدع بإعتباره شكلاً من أشكال الذاتيّة المفرطة أو الأنانيّة الصلبة طلباً لتوكيد إرادة تحقيق الذات: إذن أنّ الكثيرين ممّن يفترَضُ فيهم أن يكونوا فنّانين أو مُتمرّدين لايمكنُ تفسير الكثير من جوانب سلوكهم غلّا من خلال فكرة إرادة توكيد الذات، و هذه سمةٌ يمكنُ أن ترقى لمستوى الإتّهام الّذي يُوجّهُ إلى أيّ شخصٍ لا تعكسُ دوافعه سلوكه الشخصيّ تماماً، و غالباً ما يخدمُ هذا الإتّهام هدف تثبيت الشخص و منعه عن الحركة بهدف فهمه، و كانت بيتي وصفت حالتي معها عندما كانت تنفجر بقولِها أنّ حضوري معها كان يبدو مُغيّباً في كلّ مرّة كانت تأخذني فيها الافكارُ بعيداً فأغدو كمن يتكلّمُ إليْها و لا يتكلّمُ معها و كانت هيئتي آنذاك تشي بإنغماسي في شكلٍ من الإستمناء الذهنيّ في الوقت الّذي تكونُ فيه رغبتي الحقيقيّة هي مشاركتها الاهتمام بالأفكار و جعْلها تستمتعُ بها و بما ينجُمُ عنها من إثارة، و كانت هذه هي السبب الحاسم لرفضي تمضية بقيّة حياتي

مع بيتي، و عندما حصل و تخاصمْنا لمدّة يوميْن كتبتُ لها رسالةً أشرحُ فيها وجهة نظري بهدوء و ردّت هي برسالةٍ جوابيّة إتّهمتْني فيها بالأنانيّ المنغمس في ذاته وَ الّذي لا يلقي بالاً لشريك حياته، و كانت الحقيقة الصارخةُ الماثلةُ أمامي أنّنا – و بعد ثمانية عشر شهراً من الضغوط و اللوم الّذي لا ينقطعُ مع التوبيخات المستمرّة – قد هويْنا في قاع الجفوة الّتي لا سبيل إلى علاجها وهكذا إتّخذْنا قرارنا عبر المراسلات أنّ من الأفضل لكليْنا أن لا يمضي بقيّة حياته مع الآخر.

وجدْتُ بعد إنفصالي من بيتي عملاً في مُستشفى ويسترن للحميّات Western Fever Hospital في فولهام كبوّابٍ للمستشفى، و عاملٍ للنظافة، وعملْتُ لوقتٍ طويل كواحدٍ من إثني عشر عاملاً يعملون في تفريغ أوعية القمامة و حمْل أوعية الطعام إلى مُشرفي الأقسام المختلفة في المستشفى، و كذلك تنظيف النوافذ و القيام بأمور الإعاشة اللازمة في المستشفى، و قد إنتقلْتُ للإقامة في المباني الإداريّة الملحقة بِالمستشفى و كانت غرفتي لا تعدو أن تكون مكعّباً صغيراً بالكاد يسعُ لسريرٍ منفرد مع منضدة صغيرة تحوي بعض الأدراج، و مع أنّ الغرفة تلك لم تكن لتحافظ على الكثير من خصويّة المرء لكنّ ذلك لم يكن يمثّلُ مشكلة معوّقة و بخاصّة لمن قضى شطراً من حياته في القوّة الجوّية الملكيّة. باشرْتُ العمل في مستشفى الحميّات في كانون ثانٍ ١٩٥٣ و كان العملُ غير شاق: إذ كنّا نُمضي أغلب وقتنا و نحنُ نتسكّعُ حول غرفة البوّاب عند مدخل الإستقبال في إنتظار أن يرنّ الهاتفُ و عندها كان مطلوباً من إثنيْن منّا أن يحملا نقّالة و ينطلقا لحمل مريضٍ من المدخل إلى غرفة الإستقبال أو من غرفة الإستقبال إلى غرفة المُشرف، كما كنّا احياناً نحملُ الطّعام إلى عنابر المستشفى ثمّ نعودُ لجمع الأوعية بعد إنتهاء تناول الطعام، و الحقيقةُ لم يكن بيننا

من يشكو إرهاق العمل بل أنّ العكس هو ماكان يحصل: فقد كانت فترات الخمول الطويلة ذات تأثيرٍ تدميريّ لأخلاقيّات العمّال إذ كانوا لا ينفكّون عن لعب الورق، أو الإستماع إلى مباريات كرة القدم عبر المذياع، و عمل الشّاي كلّ نصف ساعة، لذا لم يكن غريباً أن يكونوا دائمي الشّجار فيما بينهم.

كان مكانُ عملي في المستشفى يزخرُ بالحكايات الّتي تفوحُ منها رائحة الجنس إلى الحدّ الّذي بات فيه يمثّلُ لي الحاضنة المثاليّة لتفريخ أمثال جاك السفّاح في المستقبل القريب آنذاك: فقد كان عملُنا يستوجِبُ أحياناً حمل نساءٍ نصف عاريات على النقّالات أو حملهنّ منها و إليْها، أو التجوّل بين عنابر المستشفى حيث يمكن رؤية الكثير من المريضات و هنّ يتجوّلن بملابس قليلة للغاية، و كان عمّال النظافة مهووسين بموضوعة الجنس و لم يكونوا يتحدّثون بشئ آخر سواه و مع كلّ هذا الهوس لم ينجحْ إلّا عدد قيلٌ منهم في إغواء بعض الممرّضات و المُشرفات من النساء، و لا زلتُ أذكرُ أنّ أحد الممرّضين كان ينفِقُ أغلب مرتّبه في شراء مطبوعات رديئة الطباعة و زاخرة بالصور الجنسيّة الفاضحة و كانت هذه المطبوعات تنتقل بسرعة البرق من يدٍ إلى يد. كان ثوماس مان Thomas Mann قد رسم صورةً في روايته (الجبل السحريّ The Magic Mountain) عن مرضى التدرّن الرئويّ بكونهم لا يلقوْن بالاً لأيّ شيء بإستثناء موضوع الجنس، و قد تحقّقْتُ من صواب نظرة الرّجل خلال عملي في عنابر مرضى التدرّن الرئويّ بالمستشفى، و لكن الحقيقة تقتضي القول انّ الاهتمام بالجنس كان طاغياً بين معظم المرضى الراقدين في كلّ عنابر المستشفى و لعلّ هذا يرجعُ إلى إحساس هؤلاء بطواف شبح الموت فوق رؤوسهم، و تأكّدت نظرتي هذه عندما أتيح لي أحد الأيّام الدخولُ

إلى ردهة التشريح حيثُ أمكنَني رؤية فتاةٍ غاية في الجمال راقدة على طاولة التشريح و كنتُ رأيتُها قبل بضعة أيّام و هي على قيد الحياة في أحدى ردهات المستشفى، و بعد بضع ساعاتٍ عدْتُ لردهة التشريح لأرى جسد الفتاة بعد تشريحه: كان دماغ الفتاة و أحشاؤها الداخليّة بهيئة كومتيْن قرب جسدها الّذي أعْمِلت فيه مشارط التشريح بقسوة و أيقنْتُ حينها انّ كائناً ينتمي إلى الجنس البشريّ قد أوشك على التلاشي !! و عرفْتُ لاحقاً أنّ هذه المرأة كانت أمّاً تُعيلُ بضعة أطفالْ و كانت زوجة سعيدة، و وجدْتُ نفسي حينها أتساءلُ برغبة توّاقةٍ إلى الفهم: لِمَ ماتت هذه المرأة ؟ و هل سيحصلُ يوماً أن أموت أنا ذاتي على هذِه الشاكلة ؟ و هل نحنُ حقّاً على هذه الدّرجة من التفاهة و السّخف في نظر الحياة بحيثُ نموت ميتات بشعة كهذه أم أنّ هذه المرأة لم تكن تمتلكُ رغبةً قويّةً للمضيّ في الحياة لإفتقارها إلى هدف جادّ و حقيقيّ ؟ و مضيْتُ حينها أتساءلُ: هل كان شو على حقّ عندما كتبَ أنّنا نموتُ لكونِنا أكثر كسلاً من أنْ نجعل الحياة تستحقّ أن تُعاش.

مـررْتُ خلال عملي في المستشفى بتجربةٍ إقتربت من تخوم التجربة التصوّفية الكاملة: فقد كنتُ مستلقِياً أحد الايّام في سريري و أنا أستمعْ عبْر المذياع إلى مقطع كونشرتو أحبّه كثيراً من عمل فاغنر العظيم (تريستان و إيزولده)، و كان ولعي الفائق بأداء نيجينسكي قد جعلني أرتجلُ رقصاتٍ عندما استمعُ إلى أيّة موسيقى محبّبة لي كما كان نيجينسكي يفعلُ تماماً (لستُ في حاجةٍ إلى القول طبعاً أنّني كنتُ أفعلُ هذا وحيداً و بعيداً عن الأنظار !!)، و عندما كنتُ في تلك الليلة أستمع إلى موسيقى فاغنر وجدْتُ نفسي أؤدّي حركاتٍ بطيئة متناغمة في الحيّز المحصور بيني و بين الحائط أمامي و أحسسْتُ بالموسيقى عندما وصلت ذروتها التعبيريّة تخترقُ كياني على نحوٍ غير مسبوقٍ

لي و إرتقى وعيي عتبة وضوحٍ لم أعهد مثيلاً له من قبل و بدا و كأنّني صرْتُ فوق الزمن و غدوْتُ كمَن ينظرُ إليه كعصفورٍ ينظرُ من عليائه إلى الأرض تحته، و إجتاحَني شعورٌ بأنذ ما تحقّق معي ذلك اليوم هو محضُ لمحةٍ عن الإمكانيّات الخفيّة المتاحة أمام إحتمالات الإرتقاء البشريّ و الّتي كانت إحدى معالمها هي الإفلاتُ من قبضة الزمن اليوميّ الّذي ينسابُ وئيداً في حياتنا اليوميّة، و كان شو من قبلُ تحدّث عن إمكانيّة البشر في العيش لثلاثمائة سنة و لكنّه لم يقترح ما يفيدُ في تحقيق هذه الإمكانيّة، و رأيْتُ أنا من جانبي في تلك " اللحظة العابرة للزمن " ما يمكنُ أن يوفّر نمطاً من ومضةٍ رؤيويّة تستطيعُ أن تكون جواباً لرغبة شو حيث يمكن إبطاءُ السيْر الحثيث للجسد البشريّ نحو الموت عبر إستخدام الإرادة الذاتيّة ككابحٍ لسطوة الموت العتيدة.

* * * * * * * * * *

في ميدان علاقاتي النسائيّة كاد صيفُ عام ١٩٥٣ أن يكون مُتخماً بالمغامرات: كنتُ مهتمّاً تلك الأيّام بفتاة تدعى (لورا دل ديفو) و كانت في الثامنة عشرة من عمرها و سأحكي عنها بعد بُرهة، و قد حصل أيضاً أن خرجْتُ صحبة عدّة فتياتٍ في المستشفى و كان منهنّ طالبةٌ فنلنديّة تعملُ خادمةً في أحد ردهات المستشفى و كنتُ أصحبُها أحياناً أيّام الأحد للتجوّل في لندن أو سّري Surrey، و كانت تتكلّم القليل جدّاً من الإنكليزيّة لذا وجدْتُ لزاماً عليّ تعلّم الفنلنديّة ليمكنني التعامل معها، و كانت في العموم فتاة رقيقة خجولة ذات بشرةٍ نضرة و تكنُّ وجلاً شديداً تجاه الإنخراط في علاقات الحبّ السّاخنة حتّى أنّها كانت تصرخُ بي كلّما شرعنا في تقبيل بعضنا " يجبُ أن نتوقّف عن فعل هذا فأنا ثائرةٌ للغاية " و كانت حينها جذوة تعطّشي لممارسة

الحبّ تخبو كما يخبو موج البحر. كان ثمّة فتاةٌ ألمانيّة أيضاً لاتقلّ جمالاً عن رفيقتها الفنلنديّة و تدعى (إيرمغارد) و كانت تعملُ أيضاً خادمةً في إحدى ردهات المستشفى و خرجَتْ في أوّل ليلةٍ لها في العمل بالمستشفى بصحبة أحد البوّابين من الّذين لا يشغلهم شئٌ في هذه الحياة سوى الجنس و شرب البيرة، و لكن يبدو أن تجربتها مع ذاك البوّاب كانت سيّئة للغاية فقرّرت تركه و الخروج معي و منذ ذلك الحين صرْتُ هدفاً لمضايقات البوّاب الّلعين. مثّلت لي إيرمغارد على الدوام نوعاً شديد التميّز للتمرّد الّذي يمكنُ أن تقوى عليه فتاة: فقد كانت ولِدت في قرية ألمانيّة صغيرة في أوائل الثلاثينات (من القرن العشرين) ثمّ أنضمّت في وقتٍ مناسب إلى فصائل الشبيبة الهتلريّة و صارت قائدةً مشرفة على تنظيم إستعراضات تلك الفصائل من الشبيبة بسبب حماستها المتفجّرة نادرة المثال، و كان هتلر بطلها المعبود كما كانت الحرب بالنسبة لها وسيلةً لجعْل العالم مكاناً أكثر جمالاً و بطولة !! و بعد نهاية الحرب و موت بطلها المعبود و خراب مدينتها الصغيرة – الّتي إستحالت أطلالاً مهدّمة – و تهديد شبح المجاعة لملايين الألمان لم يعد أمام إيرمغارد ما يشبعُ رغبتها الجامحة بإمتلاك هدف بطوليّ في حياتها فلبست الحداد على هتلر بلا وجَلٍ و كانت لا تنفكّ تردّد القول أنّ داخاو و بيلسين (**إثنان من معسكرات الإعتقال و الإعدام الجماعيّ النازيّة الرهيبة، المترجمة**) كانت أشياء فظيعة و غير مقبولة لكنّها لم تكن أكثر من محض بثورٍ معتمة في وجه المشروع الهتلريّ النازيّ المشرق و العظيم. كانت إيرمغارد فتاة رائعة الجمال إلى حدودٍ تستعصي على أيّ وصفٍ: كانت ذات وجهٍ سلافيّ مميّز التقاطيع و شعرٍ أسود فاحم كما كانت حيويّتها تشعُّ كَشراراتٍ ملتهبة من عينيْها على الدوام و لكنّها كانت تبعثُ على الإكتئاب بطريقةٍ مَرضيّة إذ كانت أحياناً

تضحكُ و تلقي الكثير من النكات العابثة و تبتغي فعل أمور صبيانيّة مشاكسة ثمّ إذا بها تنقلبُ بعد حين إلى شخصٍ يتحدّثُ عن عبثيّة الحياة و لا جدواها. أذكرُ مرّة عندما كنتُ أقفُ معها على جسر وستمنستر أن راحت تشيرُ إلى الناس و تقول " أنظر إلى هؤلاء الناس الحمقى،،، الدمى،،، عرائس خيال الظلّ،،، يا ليتهم كانوا حتّى انصاف أحياء !! هل تتصوّرُ أنّهم سيبدون إهتماماً لو خلعْتُ كلّ ملابسي أو إستلقيْتُ فس وسط الطريق ؟ " و هنا قلتُ لها " و لَمَ لا تجرّبين فعل ذلك ؟ " و الحقّ أنّ غايتي كانت رؤيتها و هي تخلعُ ملَابسها، فأجابت " سأفعل، لستُ خائفة " و مضتْ نحو منتصف الطريق و ركعتْ على الأرض حتّى لامست جبهتُها أرضيّة الطريق و لم يبدُ أنّ أحداً أعارها إهتماماً يذكر و راحت السيّارات و المارّة يمضون في حالهم كما لو كانت كتلةً هلاميّة غير منظورة، و أحسسْتُ براحة هائلة عندما نهضت من ركوعها قبل أن يلقي شرطيّ مرور القبض عليها، و أمضت الليل بطوله و هي مبتهجةٌ و هنا أدركْتُ مصدر إحباطها المزمن: تعلّمت إيرمغارد منذ طفولتها أن تنمّي في داخلها مستودعاً عظيماً من الطاقة الحيويّة و أن توجّه هذه الطاقة نحو أمورٍ تحبُّها و تشعر بعظيم أهمّيّتها ثمّ حصل أن خبت الأمور الّتي كانت تستحثُّ طاقتها الداخليّة فظلّت حبيسةً داخلها تماماً مثل أمّ ثدياها مليئان بالحليب و ليس أمامها مَنْ تُرضِعهُ !!، و بعد خمس سنواتٍ عندما كنتُ في جولةٍ لإلقاء بعض المحاضرات في ألمانيا رأيْتُ إيرمغارد ثانية و كان جمالُها قد ذبل و لكنّ قوّة ملامح وجهها كانت لا تزالُ على حالها رغم أنّ طاقتها الحيويّة الداخليّة كانت قد خبَت بالكامل و إجتاحَني حينها شعورٌ مؤلمٌ أنّ حضارتنا الّتي نعيشُ في كنفِها لاتُتيحُ المجالَ لإرتقاء شخوصٍ ممّن يمتلكون ذات الطاقة الحيويّة الّتي إمتلكتْها إيرمغارد يوماً ما.

كانت (لورا دل ريفو) هي الفتاة الّتي شغلت تفكيري أكثر من سواها ذلك الصّيف و كنتُ قابلتُها أوّل مرّة في كوفي هاوس Coffee House بشارع نورثمبرلاند، و لم تكن جميلةً إذ كان لوجهها تلك القسَمات المسطّحة الباهتة الّتي لنساء لنساء جزيرة بريتون في لوحات غوغان و لكنّ صوتها كان عذباً ذا نغمةٍ طفوليّة و كانت تتحدّثُ و ترتدي ملابس و كأنّها طفلةٌ في الثانية عشرة من عمرها، و شعرْتُ منذ البدء أنّها كانت مكتئبة و غير سعيدةٍ بحياتها و أخبرتْني أنّها كانت تنوي أن تغدو كاتبة و طلبْتُ إليها أن ترَيني شيئاً من أعمالها و تقابلْنا فعلاً في اليوم التالي بمقهى مواجهٍ لمحطّة تشيرينغ كروس و أخرجت المخطوطة الّتي جاءت بها و تركتْني أقرأ فيها بهدوء بينما راحت تدخّنُ و يداها ترتعشان إذ كانت تبدو على الدوام فريسة للتوتّر كحيوانٍ مذعور، و رأيتُ في قصّتها نوعاً من إنضباطٍ محبّب و كانت خلوّة من أيّة نزعة للإشفاق على الذات من تلك الّتي تشيعُ في كتابات المبتدئين و هو الامر الّذي أدهشَني أيّما إدهاشٍ لكونه حصل مع فتاة في الثامنة عشرة، و فجأةً بدا لي أنّ لورا هي الفتاة الّتي كنتُ أبحثُ عنها: كانت ذكيّةً، مُترعة الأنوثة، بعيدة عن الغرور المفرط و كانت إحدى عاداتها الذهاب إلى الكنيسة كلّ يوم أحد لأنّها كانت تعدّ نفسها كاثوليكيّة مخلصة، و قد أنسَحرْتُ كثيراً بشخصيّتها البريئة الحلوة الّتي كان بليك وصفها بكونها عصيّة على الدّنس. دعتْني لورا أحد الأيّام لزيارة منزل والديها في منطقة تشيم Cheam و وجدْتهُ منزلاً هادئاً مفعماً بالأمان، و كان والد لورا يعملُ مديراً لأحد المصارف و كانت لها أخت صغرى تدعى (لوسي) تشعُّ بالجمال و الحيويّة و كان ثمّة تمثالٌ للقدّيس جوزيف على قمّة السلّم في المنزل كما كان تمثالٌ ليسوع المسيح و هو معلّقٌ على الصليب قائماً في أحد أركان غرفة الجلوس، و

حينها أدركْتُ طبيعة المحنة الّتي تعيشُها لورا و أجواء الصّراع الداخليّ الّذي يطحنُ دواخلها: فقد كان سلوكُها الطفوليّ و أثوابُ الفتيات غير البالغات الّتي ترتديها محاولةً للتملّص من مسؤوليّات البالغين إذ كانت إستمتعت للغاية بطفولةٍ أمنةٍ سعيدةٍ يخيّمُ عليها الهدوء و المُصالحة و هاهي الآن تعيشُ في عالم البالغين بعد أن نضجت جسمانيّاً و أضحى هذا العالم يسحرُها من الناحيتيْن الذهنيّة و العاطفيّة و باتت تعاني من تبعاتِ دافعٍ قاهر يدفعُ بها لمنح روحها لشابّ روسيّ غير ناضج - هو ذات الشابّ الّذي حكت عنه في قصّتها - و هذا ما دفعها إلى قضاء معظم أمسياتِها في عالم حيّ سوهو المتخم بالعبثيّة حيثُ ينغمرُ العشّاق المزعومون في حفلاتٍ صاخبةٍ يشيعُ فيها التقبيلُ و العناق و لايكفّون عن فعْلِ هذا حتّى يبلغوا أشدّ حالات الإثارة الجنسيّة عنفاً و سخونة، ثمّ يمضون بعدها في أحاديث لا تنتهي عن مناقشة عمليّات الإجهاض و هم يحتسون الشّاي القويّ و يدخّنون الحشيش متى ماكان في وسْعِهم الحصولُ عليه، و يمكن تصوّر حجم الضّغط الّذي وقع على لورا - و هي الفتاة الكاثوليكيّة - عندما سمعت أنّ أقرب صديقاتها إلى قلبها إنغمست في علاقةٍ مجنونة مع وغد قبرصيّ متزوّج عمره بقدر ضعف عمرها ثمّ حصل أن حملت الصديقة و راحت تبحثُ عن وسيلة لإجهاض حملها، و إندفعت إحدى الليالي بالفعل إلى دورة المياه و أجهضت الجنين ثمّ طرحتْه مع المياه القذرة و راحت تنامُ في فراشها بهدوء و مضت في اليوم التالي للدوام كما كانت تفعلُ من قبل. كان في قدرة لورا أن تبتعدَ عن عالم سوهو الّذي وجدتْهُ باعثاً على التقزّز و الركون إلى دعة المنزل الّتي لم تتغيّر منذ أن كانت طفلةً لكنّها فضّلت أن تحتفظ بقدم في كلّ من الموضعيْن، و كانت لورا من النوع الّذي أحبّه و لكنّني لم أكن من النّوع الّذي تحبّه هي: فقد كانت

تستسلِمُ للتقبيل الّذي لم تكن تجيدُ فنونه كما لم تكن تعرفُ ما تريدُ فعلهُ بنفسها، و بإختصار كانت علاقتي مع لورا بمثابة تدريبٍ قاسٍ لنفسي في كيفيّة السيطرة على الحرمان من ممارسة الحبّ !!.

سألتُ لورا يوماً و نحنُ في وسط حفلةٍ في أحد عطل يوم الأحد عن السبب الّذي يمنعُها من إمتلاك إستجابةٍ جنسيّة قويّة، فقالت " نعم، هذا صحيح و يعود بكلّ بساطةٍ لكوني أحبّ شخصاً آخر غيرك !! " و هنا شعرْتُ و كانّني على وشك إفراغ ما في جوفي، و سألتُها " شخصٌ آخر ؟؟؟ من هذا ؟ " فقالت على الفور "لا يمكنني إخبارُك به"، و هنا إندفعْتُ في سؤالِها بطريقة لا تخلو من الزّهو بنفسي و التوبيخ لها في الوقت ذاته " يا إلهي،،، هل تقصدين أنّ بمقدورك التفكير بشخصٍ آخر حينما يقبّلُكِ من حباه الله بأكثر المواهب العبقريّة في عموم إنكلترا ؟ "، فأجابت " أووووه،،، هو يقولُ أيضاً أنّه عبقريّ "، و هنا إكتفيْتُ بالتعقيب " ما اكثر المُدّعين في هذا العالم !! " و راحت لورا تكمل " هو صاحبُ مؤلّفاتٍ منشورة "، و لم تُجْدِ كلّ محاولاتي في معرفة إسمه نفعاً و صارت لورا أكثر تحفّظاص و إنغلاقاً على نفسها من ذي قبل، و بعد بضعة أيّام أخبرتْني من جانبها و على نحْوٍ تطوّعيّ أنّ غريمي كان صحفيّاً و أنّ إسمه الاوّل هو بيل Bill، و بعد اسبوعٍ كنتُ أجلسُ مع لورا في نادٍ للجاز و حصل أن كنتُ أتحدّثُ مع فتاةٍ ذات وجهٍ شاحب غريب التقاطيع حدّثتني عن صديقها و عن أقرب الأصدقاء إليه الّذي يدعى (بيل هوبكينز) و قالت عنه أنّه كان أكثر مَن قابلتْهم من الرجال ذكاءً إذ كان طوفان الكلام ينهمرُ من شفتيْه على نحوٍ لا يصدّق و أنّها ترى أن ليس بوسْعِ إمرءٍ ما أن يهزمه في الحديث على الإطلاق، و هنا إلتفتُّ إلى لورا أسألُها هل بيل هوبكينز هو ذاته الّذي كانت تقصده من قبلُ فإحمرّ وجهها و صرفت نظرها بعيداً عنّي و قالت بسرعة "

كلّا "، و هنا عقدْتُ عزمي على البحث عن بيل هوبكينز و التاكّد بنفسي من علائم النبوغ و البريق في شخصيّته.

* * * * * * * * * *

لمْ يكنْ صعباً عليّ إيجادُ بيل هوبكينز بعد أن علمْتَ أنّ الكثيرين ممّن أعرفهم كانوا يبيعون قسائم الإشتراك لحساب مجلّة نقديّة كان ينوي إصدارها تحت إسم (ناقد الأحد Sunday Critic)، و إلتقيْتهُ لأوّل مرّة في نادي (A & A) حيث راح جمْعٌ من الحضور يصغون بسكونٍ لشخصٍ يتكلّمُ، فسألتُ عمّن يكون المتكلّم فقيل لي " بيل هوبكينز " و عندها إندفعْتُ للإنضمام إلى المجموعة و رحْتُ أراقبُ الرّجل عن قرْبٍ: كان لبيل هوبكينز وجهٌ شاحبٌ، و وسامةٌ شبيهةٌ بوسامة سكوت فيتزجيرالد، و ملامح حادّة التقاطيع، و فكٌ قويّ، و كان الرجل يتناقشُ في موضوعةٍ أدبيّة و كان له حضورٌ مهيمِنٌ و سطوة طاغية على المكان و لكنّي وجدْتهُ مخيّباً لأملي على غير ما توقّعتُ لأنّني توقّعْتُ أن أجدَ رجلاً ذا هدوءٍ و إنضباط قرأ بقدر ما قرأتُ و لكنّي وجدْتُ رجلاً ويلزيّاً ضخم الجثّة و ذا نزعةٍ رومانتيكيّة مثاليّة، و كان ساذجاً تماماً مثل شيللي و لم يكن ليخجلَ من الإعتراف بأنّه لايقرأُ كتب الآخرين بسبب تفضيله البقاء أصيلاً غير ملوّث بما ينتجه الآخرون، و بدا واضحاً لي منذ البدء أنّ ميله للفصاحة الخطابيّة جعل منه نسخةً شبيهة بِـ (ديلان توماس)، و لكن من جهة أخرى لم يكن في الإمكان إنكارُ قوّة شخصيّته الّتي تفرضُ حضورَها في المكان بحيثُ أنّه كان يترك إنطباعاً قويّاً لدى الجميع بأنّه ولِدَ ليكون قائداً، و كانت قوّة روحه السّاخرة متدفّقة لحوالي نصف ساعة ثمّ أخذت تفقدُ بريقها حتّى غدا – بالمقارنة بي – إمرءً مُتجهّماً و باعثاً

للإكتئاب. قدّمْتُ نفسي إلى بيل فصافحَني ببرودة و بدت مظاهرُ قلّة الكياسة و الشّرود واضحة عليه و حينها ذكّرْته بأنّني صديق لورا فإكتفى بالقول "أووه، حقّاً ؟"، و عندما قابلْتُهُ في المرّة التالية أعرتهُ المخطوطة غير المكتملة لرواية (طقوسٌ في الظلام)، و بعد بضعة أيّام إلتقيْتُهُ في تشيرينغ كروس و هو يرتدي لباس التمارين الرياضيّة و كانَ بحالةٍ من فورة المرح و الحماسة و لكنّ تلك الفورة خبت بصورة ملحوظة بمُجرّد أن سألتُهُ عن رأيه في مخطوطتي فشككْتُ حينها أن يكون قرأها بالفعل، و عندما ذهبْتُ يوماً إلى نادي (A & A) وجدْتُ مخطوطتي تنتظرُني هناك مع ملاحظة من بيل هوبكينز يقولُ فيها " مرحباً بك في مرتبة العباقرة، أنت عبقريّ حقيقيٌّ " و يبدو أنّ بيل قرأ المخطوطة و أندهش للغاية بنظام الكتابة و صرامة إنضباطها، أمّا من جانبي فقد رأيتُ كتابته مخيّبة عندما قرأتُ أحد أعماله: كانت محشوّة بنوعٍ غامض من الرومانتيكيّة و تحكي عن جنديّ جُرِح في الحرب جُرحاً قاتلاً و كان لديه ما يكفي من الوقت ليتبادل الحبّ مع فتاةٍ ريفيّة قبل أن يخطفه الموت !! و الحقيقة الصارخة أنّنا كنّا ننتمي إلى مستويَيْن مختلفيْن في الكتابة بينهما فارقٌ عظيم: فقد مرّنْتُ نفسي لسنواتٍ طويلة بقراءة أعمال إيليوت و شو و ييتس و هيمنغواي، أمّا بيل فكان رومانتيكيّاً خالصاً درّب نفسه بنفسه و كان يكتبُ على طريقة موسيه و هوغو (كان شبحُ هوغو يتلبّسه بالكامل: فقد قيل له خلال إجتماعٍ لتحضير الأرواح أنّه يُعَدُّ التَّجسيد المُعاصر لهوغو) و يذكّرُني هَوَسُهُ بهوغو بالإجابة الّتي إدلى بها أندريه جيد عندما سُئِل عمّن يكون الشاعر الفرنسيّ الأكثر عظمة في رأيه فقال " هو فكتور هوغو، للأسف !! ".. لم يكن بيل شخصاً يمكنُ أن يطيق صبراً مع ما تتطلّبهُ الكتابةُ من هدوء في التعبير و إنضباطٍ طويل المدى لذلك كانَت

كتاباته تُعاني من فقر مزمن في عمق المضمون لأنّه كان يستنفدُ طاقته بالكامل في صراع لا ينتهي مع المتطلّبات الفنّية المُتعبة للحبكة، و برغم كلّ هذا فإنّ السبب الّذي جعلَني أقعُ فريسةً لِسِحْر بيل هوبكينز هو أنّه كان الشخص الأوّل الّذي ألتقيْتُه و وجدْته شبيهاً بي من حيث ثقتُهُ الراسخة بنفسه و إيمانُهُ بِعَظمة ما سُينجزُهُ في المستقبل.

كان حيّ سوهو مخيّباً لأملي إلى أبعد الحدود: كنتُ أتوقّعُ أن أجد فيه نوعاً مثاليّاً من حرّيّة الروح فإذا بي أكتشفُ أنّ أكثر ما كان شائعاً هناك هو الإفتقارُ إلى الثّقة بالنفس و تلك سمةٌ كنتُ أظنّها تستوطنُ قلب المدن الكُبرى فحسب، و بعد ستّة شهورٍ من تجربتي في سوهو لم أكن قابلْتُ أيّ فنّان يؤمنُ بتكريس حياته لفنّه و يتسامى عن مُستوى الحياة اليوميّة العاديّة مع الإبتذال الذي يترافقُ معها في العادة، و بدا الجميعُ لي و كأنّهم يعانون ضغطاً هائلاً يجعلُهم واثقين من شيءٍ وحيد: فشلُهُم المُؤكّد في المستقبل و هو ما أراه بالضبط المعنى الزائف للقبول باللامعنى و اللامبالاة و الحديث البائس عن اللاجدوى في الحياة، و لم أقابلْ أيّ إمرءٍ هناك و هو مصمّمٌ تصْميماً حازماً و جادّاً على أن ينتج عملاً عظيماً في حياته، و رغم أنّنا نعيشُ عصر التخصّص الصارم حيث يتطلّبُ الأمرُ سنواتٍ من الدراسة الجدّيّة ليكون أمروٌ ما مُتخصّصاً في الرياضيّات أو التكنولوجيا فإنّ معظم من قابلْتهم ممّن يَوَدّون أن يكونوا كتّاباً كانوا يفتقدون إلى أيّ تصوّرٍ عن مدى الصّرامة و الجدّية و التدريب الشّاق – و قبل كلّ هذا الإنضباط الذاتيّ طويل المدى – الّذي تتطلّبهُ مهنة الكتابة. كان بيل هوبكينز يعتمدُ على دفق إلهامه الذاتيّ فيما يكتب و لكنّ إنطباعي عنه كان أنّه لم تمرّ به لحظةُ شكّ واحدة في عظمة ما هو خليقٌ بإنجازه في المستقبل و كذلك في الإحترام المستوجب لمصيره كفنّانٍ محترفٍ للكتابة، و بدت مشكلة

بيل الأساسيّة بسيطةً و خطيرة في الوقت ذاته: كان تأثيره الفوريّ و المباشر على الناس يبلغُ حدّاً من العظمة بحيثُ بدا لي ممكناً أن يُمضي حياته كلّها و هو مكتفٍ ذاتياً بمحض إبهار مُعجبيه – مهما كان عددهم ضئيلاً – و الّذين لن يفتأوا في إطراء عبقريّته الفائقة من غير أن يكتب سطراً واحداً و كان هذا المفصل قاتلاً و مُغرياً له لأنّه كان سليل عائلةٍ من الممثّلين و هكذا كان يمكنُ له أن يُمجّد تقاليد عائلته في الإحتفاء بالكلمة المنطوقة بدل التقدير المُستوجب للكلمة المكتوبة، و كنتُ تأكّدْتُ بنفسي من صحّة رؤيتي هذه بشأن بيل عندما سمعته يتكلّم أوّل مرّة عن الحبكة الكامنة وراء روايته (زمن الشموليّة Time of Totality): كانت الحبكة ذات تأثيرٍ دراميّ ساحر حينما يحكيها بيل بطريقته التمثيليّة المُبهرة فقد بدا لي حينها أنّ نزعتها الرومانتيكيّة الساذجة قد تلاشت و إستحالت نمطاً من أنماط الكتابة الروائيّة الّتي تمتازُ بالحركيّة و الإقتصاد و الصرامة بما يجعلُها خليقةً بأن تكون عملاً من أعمال غراهام غرين المثيرة، و بينما كنتُ أصغي إليْه لم يراودّني الشكّ في أنّ الرجل يمتلك كلّ الإمكانيّات و المادّة اللازمة لكتابة روايةٍ تكتسحُ السوق بإعتبارها تركيباً فريداً من رومانتيكيّة القرن التاسع عشر مع االتبصّر الرؤيويّ السايكولوجيّ المعاصر، و إندفعْتُ بذاكرتي إلى المُناسبة الّتى حكى فيها من قبلُ عن حبكة روايته السابقة (المُقدّس و الخراب The Divine and the Decay) ثمّ عن مُحاولاته العديدة في إعادة الكتابة و الّتي إستغرقتْهُ سنواتٍ عدّة و تبيّنْتُ كم يمكِنُ أن يكون الفارقُ هائلاً بين الفكرة و كتابتها على الورق و قد كنتُ أنا بذاتي واعياً بهذه الحقيقة عندما أعدْتُ كتابة مسوّدة روايتي (طقوسٌ في الظلام): فالمرءُ إذ يحكي حكايةً ما فإنّه يكتفي بالتفاصيل العامّة و يغضّ البصر عن بعض التفاصيل، و لكنّه عندما يجلسُ إلى

طاولة الكتابة قد تبدو بعضُ التفاصيل الّتي كانت مقبولةً من قبلُ مهترئةً كمعطف شحّاذ راحَ يُسَرّبُ مياه المطر عبر ثقوبٍ خفيّةٍ و هو الّذي بدا غلافاً مُحكماً مانعاً لتسرّب المياه عندما كانت الشمسُ مشرقةً !!، و ليس ثمّة من بديلٍ لإصلاح هذا العطب غير الكتابة و إعادة الكتابة مرّات عدّة حتّى لتغْدو الفكرة الأصليّة الّتي بدأ معها الكاتبُ محض فكرةٍ شبحيّةٍ بعيدة في أغلب الأحوال.

* * * * * * * * * *

كانت حياتي الزوجيّة مع بيتي قد خلّفت فيّ شكلاً من أشكال الصّراع الخفيّ اللاواعيّ: كنتُ أعاني قدراً هائلاً من التوتّر كلّما كنتُ أشارِكُها الفراش و ربّما حوّل تحفّظها و إحتشامُها حياتي الجنسيّة معها إلى ما يشبهُ النشوة الفحوليّة بعمليّة الإغتصاب، و كنّا كلّما تخاصمْنا نفكُّ عقدة خصامنا من خلال الإتّصال الجسديّ و لكن مع إستمرار المشاجرات تضخّم عندي ذلك الجزءُ الّذي يرفضُ المُصالحة و هكذا نشأت معي عادة الأنكسار الذاتي في علاقتي مع بيتي و إمتدّ تأثير هذا الإنكسار إلى علاقتي مع النّساء الأخريات، و كان مخيّباً لي تماماً الإحساسُ بمدى إفتقادي للقدرة على إمتلاك زمام إستجاباتي الجسديّة و جعلَتْني هذه الحالة المؤذية أكثر إدراكاً للأشياء الأعلى قيمةً و أهمّيّة الّتي أمتلِكُها بالفعل: فالبشرُ لم يُخْلَقوا لمحض الإيفاء بمتطلّبات الجّماع الآليّ الّذي يفتقِدُ المُتعة الروحيّة العميقة،،،،

هؤلاء اللابثون في حظيرة القناعة الغبيّة

إنّما يبتغون الموت،،،،

هؤلاء الّذين يُعانون أقصى العذابات كما الحيوانات المُسَخّرة للكدح وحده

إنّما يبتغون الموت،،،،

كانت الرياضيّاتُ و الموسيقى و أسرار الكون و الوجود الإنسانيّ هي الموضوعات الّتي كنتُ أكنّ لها عظيم إهتمامي آنذاك لا هذه الفتاةُ أو تلك من اللواتي تعملُ أردافهنّ كما الآلات !!.

لم أحبّ الحياة في سوهو أبداً: كان هناك الكثير من النشاط و لكن بغير معنى هادف، و حينما بدأت لورا في العمل ككاتبةٍ على الألة الطابعة لدى بيل هوبكينز أدركْتُ أنّ الوقت حان لعودتي إلى فرنسا، و كنتُ آنذاك قد مللْتُ المستشفى و أصابني شعورٌ قاتلٌ بالضّجر إلى الحدّ الّذي بات معه أيّ نشاطٍ أمارسهُ في ساعات الفراغ الطويلة المُتاحة أمامي عاجزةً عن مداراة شعوري بأنّي كنتُ أغرقُ في مستنقع البلادة على المستويَيْن الروحيّ و الذهنيّ، و كان بقائي لمجرّد خمس دقائق لا أكثر في غرفة بوّاب المستشفى كافياً لدفْع شعوري إلى وهدة الحضيض كمَنْ يسقطُ في قناةٍ آسنة، و رغمَ مُحاولاتي المُستميتة في قمْع هذا الشعور المظلم لكن لم تكن ثمّة فائدةٌ تذكر فإندفعْتُ أمضغُ مشاعري و أجترُّها، و كثيراً ما كنتُ أتسلّلُ إلى الغرفة الّتي تعلو غرفة الغسيل في المستشفى فإجلسُ على الأرضيّة المتربة متقاطع السّاقيّن أتنشّقُ رائحة الفئران الميّتة و أنا أحاولُ التركيز على ال (غيتا) و على فكرة الحُرّية و كانت تلاحقّني و تملأ عليّ جوانحي آنذاك صورةٌ كنتُ قرأتُها في كتاب (رؤيا آسيويّة Vision of Asia) لمؤلّفه (لونسيلون غرانمير – بينغ) و تحكي الصورةُ عن ثلاثة رجالٍ طاعنين في السنّ يجلسون وسط مُروج خضراء تُحيطُها التلال و يتذوّقُ كلٌّ منهم جرّة من الخلّ: يجدُ بوذا جرّته حامضةً تلذعُ اللّسان، أمّا كونفوشيوس فيظهرُ هادئاً لا يُبالي بطعم الخلّ، في حين تطغى البهجةُ على وجْه لاوتسو، و لستُ في حاجةٍ إلى التّصريح طبعاً أنّ جرّة الخلّ تعني الحياة و ملأتني هذه الصورة بشوقٍ مرضيّ إلى ماكنتُ أبحثُ عنه

طيلة حياتي بينما أنا جالسٌ في الغرفة أتنفّسُ التراب، و عندما هبطْتُ ثانية إلى حيثُ أصدقائي العمّال عاد نفسُ الحديث الّذي لا ينتهي عن الورق و الجنس و كرة القدم، و رغمَ أنّني كنتُ أشعرُ آنذاك بحرّيةٍ لم أختبرْ مثيلاً لها من قبلُ لكنّ عقلي كان يتقافزُ كفأرٍ محصورٍ في حيّزٍ مسوّرٍ بجدران عالية يستحيلُ عبورُها و لم يكن أمامه سوى القفز عالياً ثمّ السقوط ثانية بلا جدوى، و شعرْتُ آنذاك كمن إكتشف سرّاً ثميناً: لا ينبغي للمرء أبداً أن يتقبّل الضّجر و عدم إمتلاء حياته.بما يبعثُ على الشغف، وَ " إذا لم تُعجبْك حياتك فيمكِنُك تغييرُها "، و بعد معرفتي لهذا السرّ أدركْتُ أنّ المستقبل سيأتي لي بِالظّفر و الإنتصار المؤكّد.

عدْتُ مرّة إلى غرفتي ذات ليلةٍ و أنا أعاني بعض آثار ثمالةٍ و إستلقيْتُ على فراشي في الظلمة الدافئة و فجاةً هبط عليّ شعورٌ كاملٌ بسُخف وجودي و عبثيّته و لاجدواه، و أردْتُ أن أسأل " من أنا ؟ ما الّذي أفعلُهُ هنا ؟ ما الّذي يكمنُ وراء الحياة ؟ " و رأيْتُ أنّ من السّخف المُضيَّ في الحياة وسط هذا العالم الّذي نعيشُ فيه من غير مساءلةٍ كما لو كان عيشُنا هو أكثرُ الأشياء بديهيّة في الحياة، و مضيْتُ أتساءلُ: ما الّذي بوسعه أن يضمن لي أنّني لستُ قابعاً أنتظرُ دوري في غرفة الإعدام ؟ و وجدْتُ نفسي كفأرٍ وقع في فخّ مُحْكم و كانَ أكثر ما يبعثُ على السخريّة أنّ تلك الأسئلة و أشباهها لم تكُن ذات صلةٍ مباشرةً بحياتي: فلو سألني رئيسي في العمل " لَمَ تبدو مُتوعّكاً هذا الصّباح ؟ " فهل ثمّة من يتصوّرُ أنّ بإمكاني أن أجيب " لأنّني أرى في الحياة محض خدعةٍ كبيرة " أو " لأنّي أراك وهماً من الأوهام الّتي تجتاحُ خيالي ". يبدو واضحاً تماماً أنّ المرء يقفُ عاجزاً أمام هذه الرّؤية الكاشفة لحقيقة وجودنا الإنسانيّ و لكنّها مع ذلك رؤيةٌ تمحو

كلّ الأوهام الّتي تدفعُنا إلى الحركة اليوميّة المستمرّة، و بدا لي يومها أنّ البدائل المُتاحة أمامي هي الإنتحارُ أو مُغادرة المستشفى. بعْتُ كلّ كتُبي إلى مكتبة فويلز و جمعْتُ كلّ ما بحوْزتي من نقودٍ و كتبْتُ إلى بيتي أخبِرُها أنّني في طريقي إلى فرنسا رغمّ أنّنا كنّا إنفصلْنا منذ تسعة شُهور، و أمضيْتُ ليلةً نائماً على الأرض في مكتب بيل هوبكينز في ساوثوورك Southwark و حصلْتُ على توصيلةٍ مجّانيّة إلى ميناء دوفر صباح اليوم التالي، و نمْتُ الليلة التالية في غابةٍ قريبةٍ من كانتربري – في حقيبةٍ للنوم طبعاً – و نهضْتُ مبكّراً صباح اليوم التالي و أنا أتطلّعُ لِما ستجودُ به الحياةُ عليّ في الأيّام القادمة.

٧. جوي

وصلْتُ فرنسا منتَصف ذات يومٍ و كان بِجيْبي هذه المرّة بضعُ جنيْهات و هي بالتأكيد أكثر ممّا كنتُ أحملُه معي في رحلتي السابقة إلى فرنسا، و مضيْتُ على الفور لأحد المطاعم القائمة قرب جُرفٍ صخريّ و طلبْتُ بعض الطعام مع النبيذ و سرعان ما جعلني النبيذ مُنتشياً و سعيداً. كان المكانُ يضجُّ بموسيقى إسبانيّة صاخبة تناولْتُ على وقْع أنغامها شريحةً كبيرةً من اللّحم الطريّ (ستيك Steak) و للمرّة الأولى منذ سنواتٍ خَلَت إختبرْتُ ذلك النوع الطاغي من الفرح و البهجة بداخلي و صرْتُ أرى نفسي مثل محطّة كهربائيّة عملاقة و بتٍّ راسخ القناعة بأنّني إتّخذْتُ القرار المُناسب و الصّحيح بمُغادرة إنكلترا و شعرْتُ بأنّ كلّ الآلهة تقفُ بجانبي و أنّها أرسلت لي هذه الدفقة العظيمة من البهجة كإشارة خفيّة إلى وقوفِها معي، و كنتُ آنذاك أجولُ بخيالي أينما أريدُ و كان في مقدوري اللّحاقُ بالتأريخ كما ألحقُ بسيّارةٍ للنقل العام.

وصلْتُ باريس بعد يوميْن من نزولي الأراضي الفرنسيّة و توجّهْتُ من فوري إلى غرفة كلود جيّوم في جادّة باين و عرفْتُ أنّه لم يكن يُقيمُ هناك، و لحسْنِ الحظّ قيل للبوّاب أن يعطيني مفتاح الشقّة متى ما أردْتُ فإنتقلْتُ إلى الغُرفة على الفور. كانت مشكلتي الكبرى آنذاك هي الحصولُ على عملٍ أكسبُ منه قوت يومي و بدا الأمرُ كما لو أنّني وجدْتُ الحلّ المناسب في ليلتي الباريسيّة الأولى: قرأتُ

إعلاناً على الجدران حول مجلّة أمريكيّة جديدة تعدُّ العدّة لإصدارها في باريس تدعى (باريس ريفيو Paris Review) و ذهبْتُ لمقابلة المسؤول عن المجلّة في شارع غارانسييه فوجدْته شابّاً أمريكيّاً صارم المظهر و السلوك يدعى (جورج بليمبتون) و إقترح الرّجلُ عليّ أن أبيع قسائم الإشتراكات بالمجلّة على أن أحتفظ لنفسي بنسبةٍ من المبيعات و زوّدني الرّجل بأسماء الأمريكيّين المُقيمين في باريس مع خارطة تفصيليّة للمدينة، و بدت لي الفكرة رائعةً لأوّل وهلة: كانت قيمة الإشتراك الواحد ألفاً من الفرنكات الفرنسيّة (أي ما يُكافئُ حوالي الجنيه الإسترلينيّ الواحد آنذاك) و كان الإتّفاقُ أن أحصل على أربعمائة فرنكٍ منها و هو ما يعني أنّ في قدرتي أن أحيا حياة معقولة لو بعتُ قسيمةً واحدة أو إثنتيْن في اليوم، و عدْتُ إلى شقّتي وأنا مغمورٌ بالفرح و الإبتهاج، و لكنّي إكتشفْتُ في أوّل ساعاتٍ من بدء عملي أنّ الأمر سيكون أكثر صعوبةً ممّا كنتُ توقّعته: إذ كانت عناوين الأمريكيّين المُعطاة لي بعيدةً عن بعضها البعض و كان ينبغي لي صرفُ الكثير من النقود في رُكوب الحافلات أو المشي لمسافاتٍ منهكةٍ طويلة، ثمّ أنّ القليل للغاية من الأمريكيّين بدا مهتمّاً بأمر مجلّة أدبيّة حديثة الإصدار، و بعد يوم واحدٍ من العمل و السير لما يقرُبُ من عشرين ميلاً في القيْظ الشديد كنتُ قد بعْتُ إشتراكاً واحداً فحسب و لكنّي صرفْتُ في المقابل ألف فرنك على رُكوب الحافلات و تناول المشروبات الباردة، و عندما كنتُ أعثرُ على رقم هاتفٍ لأحد هؤلاء كنتُ لا أتردّدُ في الإتّصال به و لكنّي أقلعْتُ عن هذا بعد أن صار واضحاً أمامي أنّ الإستجابة الوحيدةَ المُتوقّعة من قبل الزبون على الهاتف هيَ رفضُ طلب الإشتراك على الفور، و أذكرُ أنّ أحد الأمريكيّين طلب إليّ الإتّصال به على الهاتف في اليوم التالي عندما

يكونُ في مكتبه، و لكنّني بعد أن عرفْتُ بعنوان منزله وجدْته قريباً من شقّتي فمضيْتُ لأبيعه قسيمة الإشتراك في منزله عوض المكتب، و عندما طرقْتُ الباب و جاءني حكيْتُ له عن أمر القسيمة فصاح غاضباً " إستمع جيّداً، أظنّني قلتُ لك تعالَ إلى مكتبي لا إلى منزلي، و إذا كنتَ تودُّ أن تراني فيجبُ أن تفعل هذا بالطريقة الّتي أريدُها أنا لا أنت، و الآن إذهب بعيداً من هنا !! " و صفقَ الباب بوجهي، فما كان منّي إلاّ أن أدعو الآلهة بأن تُذيقه أكثر أشكال الموت عذاباً، و مضيْتُ عائداً إلى شقّتي و أنا لا أنفكُّ أتساءل عن السّبب وراء كوْن الأمريكيّين أكثر المخلوقاتِ وقاحةً و وضاعةً على الأرض و أكثرهم جاذبيّة و حميميّة في الوقت ذاته ؟. بعد بضعة أيّام من عملي أدركْتُ السّبيل إلى بعض الوسائل الكفيلة بتحسين مدخولي الماليّ المتواضع عن طريق بيْع نسخٍ مفردة من باريس ريفيو لأنّ الكثيرين كانوا يتوقون لقراءة عدد منفردٍ قبل أن ينفقوا المال في إشتراك سنويّ بالإضافة إلى أنّ قراءة عدد مفردٍ ستتيحُ أمامهم فرصة طيّبة للإطّلاع على المجلّة و إتّخاذ قرارٍ مناسبٍ بِشَأن الإشتراك فيها، و معَ أنّ سلوكي هذا كان غير مشروعٍ لكن كان يتوجّبُ عليّ أن أعيش و بخاصّة بعد أن عانيْتُ الكثير من جورج بليمبتون فيما يخصّ الأرباح الّتي إتّفقْنا عليْها.

بعد أسبوعيْن من وصولي باريس كتبت لي لورا تُخبرُني أنّ بيل هوبكينز قد يُسافرُ إلى باريس للبحث عن مطبعةٍ فرنسيّة تقبلُ طبْع مطبوعه (ناقد الأحد)، و إغتنمْتُ هذه الفرصة للبقاء في غرفتي و إنتظار صديقي و قد أسعَدَتْني العودةُ إلى بعضٍ من طقوسي القديمة في قراءة الشّعر و مسرحيّات شو و بخاصّة أنّني كنتُ أكنُ كراهيّة مقيتة لوظيفتي البائسة. جاء بيل صحبة صديقٍ لندنيّ لنا يدعى (فيليب) و إنتعشْتُ أيّما إنتعاشٍ لرؤية بيل ثانية بعد أن وضعتْني باريس في حالةٍ

عقليّة سيّئة و إنهزاميّة، و كان بيل حاسماً و صُلباً مثلما عهدْتُهُ من قبلُ و إتّفقْنا أن نعمل في بيْع قسائم الإشتراكات معاً حتّى نحصل على المال الكافي لعوْدتِنا ثانيةً إلى إنكلترا، و لكنّ بيل كان مُفرِطاً في التدخين كما كنتُ أنا الآخرُ ألتهمُ كمّيات كبيرة من الشوكولاته لذا لم يكن في وسعنا إدّخار أيّة نقود و مع ذلك لم نشعرْ بالجوع يوماً ما معَ أنّنا كنّا بالكاد نُقيتُ أنفسَنا يوماً بيوْم. تناوبْنا أنا و بيل على النوم في الفراش الوحيد الّذي إحتوتْهُ الشقّة، و كان بيل من عُشّاق العمل في الليل إذ كان يسهرُ للعمل على نسخ روايته (زمن الشموليّة Time of Totality) على الآلة الكاتبة حتّى الثالثة بعد منتصف الليل ثمّ كان يوقظُني لنتمشّى في شوارع البوليفار الخالية، و حصل في الأيّام اللّاحقة أن تحدّثنا حوْل مزاجيّنا و منهجيْنا في الكتابة: كان يُسعدُني النّظر إلى بيل بإعتباره الكاتِبَ العبقريّ الوحيد الّذي قابلْتهُ في حياتي و لو أنّني كنتُ أنزعِجُ للغاية لكونهِ لم يبادلْني ذات النظرة الّتي كنتُ أنظرُها إليْه، و حرصْتُ على متابعة الأخطاء الّتي تشوبُ كتابته وَالّتي كانت تفتقدُ الدقّة والإنضباط اللازميْن لأيّة كتابةٍ جادّة - كما أرى - و وجدْتُ مأخذاً كبيراً عليه في هدر الوقت الثّمين في المناقشات و الحوارات بدلاً من التّركيز على خلق أعمالٍ عظيمة، و مِن جانبه أسرّني بيل بأنّه يرى فيّ مَحْض شخصٍ أنانيّ مُنطوٍ على ذاته و أنّ هذا الإنطواء يشي بخوفي من تحطّم أسطورتي الشخصيّة بشأنِ تفوّقي متى ماإقتربْتُ من الناس أكثر من ذي قبلُ، و مضتْ نقاشاتُنا على هذا المنوال لعدّة أيّام و إرتضيْنا في نهاية المطاف القبولَ بعدالة النّقد الّذي وجّههُ كلٌّ منّا للآخر كما قبلْنا بتكوين جبهةٍ مشتركة بيننا و هذا ما دفع بنا إلى آفاق جديدة من التفاؤل، و مضيْنا نحتفلُ في نهاية كلّ يوم طويلٍ من الكدح في بيع قسائم الإشتراكات بتناول بضعة أقداح من نبيذ رخيص

على حساب مجلّة باريس ريفيو، و لكن برغم روح التفاؤل هذه لم تنلْ مجلّة (ناقد الأحد) شيئاً من النّجاح لذا عقدْنا العزم - بعد إنفاق الكثير من الوقت على العمل في روايتيْنا و إعطاء بعض المحاضرات في اللغة الإنكليزيّة و شرب الكثير من النبيذ الرخيص - على الإستنجاد بالقنصليّة البريطانيّة لكي تسهّل لنا أمر عودتنا إلى بريطانيا.

عدْتُ ثانية إلى إنكلترا في أواخر شهر تشرين ثانٍ من ذات العام بعد أن أمضيْتُ حوالي الشهريْن في باريس، و لم يكن لديّ أيّة رغبةٍ في الذهاب إلى لندن و حتّى لو أردْتُ الذّهاب لم يكن لديّ ما يكفي من المال لإستئجار غرفةٍ متواضعةٍ هناك فمكثْتُ لبضعة أيّام مع شابّ هنغاريّ كنتُ عرفته من قبلُ و يُدعى (ألفريد رينولدز) وكان إنتقل للسكن حديثاً في منطقة دوليس هيل Dollis Hill، و كان رينولدز يقودُ مجموعةٍ سياسيّة ذات نزعة إنسانيّةٍ تدعى الجسر Bridge و يبشّرُ بأخلاقيّاتٍ تقومُ على التسامح المُطلق بين مجموعةٍ من الشّباب مرّةً في الأسبوع، و سنحتْ لي فرصةٌ لحضور أحد الإجتماعات و رأيْتُ أنّ التّسامح الّذي يدعو إليه رينولدز لم يكن من النّوع الذي يلقى هوىً في نفسي أو يمكنُ أن أتعلّمَ منه شيئاً جدّيّاً و رأيْتُ أنّ من الأفضل لي العودةُ إلى ليستر، و بعد مُراجعَتي لمركز إستعلامات العمل في ليستر حصلْتُ على عملٍ في محلّات لويس و هي أكبرُ محلّات البيع للمستهلكين وسط المدينة و كانوا بالفعل يحتاجون بائعاً موقّتاً خلال أعياد الميلاد فتمّ تنسيبي إلى قسم بيع السجّاد.

عدْتُ إلى ليستر يحدوني أملٌ غامضٌ بأنّ القدر ربّما سيغيّرُ من سياسته معي: فقد بدا لي في تلك المرحلة من حياتي أنّني أمضيْتُ جلّ أوقاتي و أنا أعيشُ كجوّالٍ متسكّع يتنقّلُ بين وظائف مقزّزة أو يكتفي

بالتطواف دون غايةٍ محدّدة و رأيتُ نفسي آنذاك كمجرّد مُتردّد قلقٍ بوهيميّ، و لم يكن هذا يحصلُ لي لأنّني كنتُ بالفعلِ أمتلكُ نزوعاً مزاجيّاً بوهيميّاً بل كان كلّ ما إبتغيْتُهُ آنذاك هو غرفةٌ صغيرةٌ مليئةٌ بشتّى صُنوفِ الكتب و ما يكفيني من المال لأعتاش على الطماطم المُعلّبة و البيض المقليّ و لكنّ الحقيقة المُرّة أنّني كنتُ و لسنواتٍ طوالٍ أعيشُ نمطاً واحداً من الحياة يتكرّرُ دونما نهايةٍ حينما أجدُ نفسي وسط موقفٍ تتعاظمُ وطأتُهُ عليّ يوماً بعد آخر ممّا يضطرُّني إلى هجرانهِ و سرعان ما أجِدُ نفسي وسْط موقف آخر لا يلبثُ أن يستحيل وضعاً مؤلماً و مُضجِراً لايقلُّ وطأةً عمّا سبقه. كانت المشكلةُ كما أحسبُ هي إنغلاقي المفرط على نفسي: فالحياةُ في المجتمع الحديث تعني حتماً الإختلاط معَ الآخرين، و الوظائفُ القليلة الّتي إستمتعْتُ بها كانت الوظائف الّتي أتيحَ لي فيها العمل بمُفردي مثل عملي في مصنع فريزر في نورث فينكلي حيثُ كنتُ أعملُ وحيداً في غرفةٍ لرشّ السوائل تبعدُ نصف ميلٍ عن المقرّ الرئيسيّ و لم يكن بصري ليقع على أحدٍ طول يوم العمل، و هكذا بدا لي أنّ القدر قد رسم لي طريقي بحيثُ لا يُتاحُ لي إلّا العمل المستمرّ لحساب آخرين ثمّ تركُ الوظيفة المُتاحة أمامي و الإلتحاقُ بأخرى لا تقلُّ سوءً عن الأخرى كلّ أسبوعيْن.

* * * * * * * * * *

لم يكنِ العملُ في محلّ لويس باعثاً على الإشمئزاز، و عندما ذهبتُ للمحلّ أوّل مرّة سألَني المديرُ بضعة أسئلةٍ بما يشبهُ الإستجواب و بدا غير مطمئنٍّ لرجلٍ جوّابٍ مثلي و لكنّه قبل بتوظيفي على أساسٍ مؤقّت لفترة أعياد الميلاد فحسبُ، و ماساهم في ظهوري بمظهرٍ غير محترمٍ كفاية هو عدمُ إرتدائي بدلةً مناسبةً عندما ذهبْتُ لتسلّم العمل

ولكن حصل و بدأتُ عملي في قسم السجّاد و إنغمسنا في عمل متواصل طيلة أيّام الأعياد و كانت مكبّرات الصوت لا تنفكّ تطربُنا بأغاني عيد الميلاد طيلة اليوم و أعجبَني زملائي العاملون في القسم معي. أمضيْتُ يومي الأوّل من العمل في غرفةً للتدريب تقعُ أعلى المبنى و مضيْتُ أتدرّبُ على كيفيّة تثبيت الأسعار على الجهاز و كان معي إثنان من المتدرّبين: الأوّل شابّ عادي المظهر نسيتهُ تماماً أمّا الثاني فكان ضابطاً من ضبّاط الجيش يدعى (مارتن هاليداي) و كانت له ملامحُ حادّة التقاطيع و شعرٌ أشقر قصير و كان يتحدّثُ بلكنة تلاميذ المدارس العامّة.

وجدْتُ الفتاة الّتي كانت مكلّفةً بتدريبنا هائلة الجاذبيّة و الإثارة، و بدت لي بطريقةٍ غامضة كما لو كانت تشبهُ بيتي و لو أنّ وجهها البيضويّ ذكّرَني بماري على الفور، و لم يكن وجهُها جميلاً و بخاصّة في بروفايله الجانبيّ و بالّتحديد عندما لم تكن تبتسم، و كانت ملامحها القويّة تَتركّزُ في عينيْها و إبتسامتها، و أعجبْتُ كثيراً بصوتها الّذي كان ناعماً رقيقاً متحرّراً من أيّة لكنةٍ ليستريّة و لكن كان له في الوقْت ذاته نفسُ الغنج الأنيق الّذي يَسِمُ لكنة النساء المتكلّفات المنتميات للطبقات الإجتماعيّة العُليا. كنتُ أكثر إهتماماً بمراقبة جوي و التدقيق بملامحها من الإنصات إلى تعليماتها بشأن آلة تسجيل الأسعار: كانت جوي نحيفةً و أطْولَ من الفتيات الأخريات وَكانت لا تتعبُ من التحرّك برشاقةٍ طول الوقت، و أتذكّرُ أنّني رأيْتُ خاتماً للزواج في إصبعِها فخطَر ببالي على الفور حجم المتعة الّتي كانت خليقةً بمنحِها لزوْجها، و كانت السيّدة المشرفةُ على التدريب تناديها باسم (مس ستيوارت) و لم يكن هذا يعني شيئاً لأنّ التقليد المتّبع كان أن تُخاطب كلّ الفتيات بمفردة (مس Miss). تناولْتُ الغداء مع هاليداي وقت

الإستراحة في مطعم العاملين، و وجدْتُ الرّجل مثيراً للإهتمام: فقد أمضى الرّجل ثلاث سنواتٍ في الجيش بعد إكمال تدريباته العسكريّة في ساندهرست، و كان يحبُّ الجيش حبّاً يفوقُ الوصف و كانت فكرة النظام الصارم تروقهُ كثيراً و كان يرى في المدنيّين محض كائناتٍ تعيشُ وسط الفوضى المُطلقة (عندما كان يحكي هذا لم ينفكّ عن أن يحملق بإستنكار في ذقني غير المحلوقة ذلك الصّباح !!)، و كان يرى في الحياة المدنيّة حياةً رخوة تكادُ تخلو من التحدّيات إلى درجةٍ مزعجة، و عندما تناولْنا بالحديث أمرَ مُدرّبتنا الشابّة أخبرني هاليداي أنّ إسمها (جوي) و أنّها صديقةٌ لمدرّبةٍ شابّة أخرى تدعى (بات Pat) كان يحاوِلُ إغواءها، و أنّ جوي لم تكن متزوّجةً بل كانت مخطوبة لشابّ كانت تدرسُ معه في الجّامعة و كانا يخطّطان للزواج سريعاً بعد رحيلهِما المرتقب إلى كندا.

عندما إنتهيْنا من العمل مساءً إقترح هاليداي أن نتناول شيئاً، و لم يكن معي ما يكفي النقود سوى لتناول قدحيْن من البيرة فذهبْنا إلى الفندق المقابل لمحلّ لويس وهناك إحتسيْنا البيرة و بانت علائم السعادة و الإسترخاء علينا و طلب هاليداي إليّ أن أدعوه (فلاكس) و كان من الواضح أنّ إسم التدليل هذا يشيرُ بشكلٍ ما إلى لون شعره الأشقر، ثمّ طلب فلاكس كأسيْن من الويسكي و سرعان ما نشأ نوعٌ من صراع (إرادات القوى) بيننا: وافقْتُ فلاكس على أنّ النّظام شيء عظيمُ الأهمّية و لكنّي أظهرْتُ في الوقت ذاته رفضي الحاسم للقوّات المسلّحة و لكلّ ما يتعلّقُ بها، فالنّوعُ الوحيدُ من النّظام الّذي يهمُّني حقّاً – و الّذي يمكنُ أن يُعتَدَّ به بالكامل – هو النّظام الذاتيّ الّذي يفرضُهُ الأفراد المُخلصون على أنفسهم، و كان تي. إي. لورنس قد أثبت من قبلُ أنّ الإرادة الذهنيّة للقوّة يمكنُ تجسيدُها في نتائج ماديّة

ملموسة على عكس الإرادة الجسمانيّة للقوّة الّتي لها سقفٌ محدّدٌ لا يمكنُ أن تتجاوزه، و من جانبه لم يتّفق فلاكس معي على الإطلاق و أبدى ملاحظة قاطعةً تفيدُ بأنّهُ لم يلتقِ أبداً بمثقّفٍ لم يكنْ خائر العزيمة و واهناً إلى درجةٍ مُريعة. رأيْتُ في تصوّر فلاكس عن القوّة شيئاً مثيراً للإهتمام، و راح الرجلُ يُبدي ملاحظاتٍ أخرى و نحنُ نتناولُ ساندويتشاتٍ دفع هو ثمنها، فأفاد بأنّ بعض ضبّاط الجيش من أبناء الأغنياء و ذوي الألقاب و النياشين و الرّتب كان يبدو عليهم أنّهم يُصدِرون الأوامر بطريقة تلقائيّة و دون أيّ مجهود كمن إعتاد عليها إلى حدّ أنّها صارت تقليداً راسخاً في حياته، و في المُقابل فإنّهم كانوا يحظوْن بالطاعة لا لشيءٍ إلّا لأنّهم كانوا يروْن طاعتهم من قبيل المسلّمات المحسومة التي لا تجوز مناقشتها، و بالفعل إختبرْتُ أحد الأيّـام كيف صاح إبنُ أحد الدوقات " هاليداي، هات المزيد من المشروبات " فما كان منه إلّا أن راح و جاء بالمشروبات المطلوبة من غير أن يبدو عليه أنّ طريقة الطّلب كانت بعيدة عن التهذيب و اللّياقة و أنّ المُفترض فيه أن يُبدي شيئاً من إمارات الرفض و الإمتعاض. كان فلاكس ذكيّاً و لم أشكّ للحظةٍ في هذا، وَعندما أخبرْتهُ أنّ الوجود المادّي يمتاز بالجدب و التكرار الباعث على الملل و أنّ قوّة الشّغف العقليّ هي وحدها الّتي تترُكُ بصمةً خالدة على الوجود الإنسانيّ راح الرّجلُ يحكي لِي جوانب مُسهبةً عن نظريّته الميتافيزيقيّة الخاصّة بالوجود الإنسانيّ: فهو يرى أنّ الخبرة الإنسانيّة لا تتبدّد، و أنّ ثمّة حاسبٌ كونيٌّ يعملُ على تسجيل تفاصيل كلّ طفرةٍ إرتقائيّة يُنجِزُها أيُّ كائنٍ حيٍّ، و أنّ هذا الجهاز الحاسب الكونيّ قد يكونُ ما تواضعَ المتصوّفةُ على تسميته " الله "، وَ رأيْتُ في كلام فلاكس شكلاً فريداً من أشكال المثاليّة الّتي تقومُ على فكرةٍ أساسيّة واحدة. إقترح فلاكس

أن نعود إلى شقّته في منطقة نيووك New Walk القريبة من ليستر لتناول المزيد من البيرة و تناول الشّطائر، و مضى فلاكس في شرح نظريّته عن القوّة: كانت فكرتُهُ أنّ القوّة هي ما تشدُّ أواصر المجتمع الواهنة بعضها إلى بعض، و أنّ هذه الإرادة ذات طبيعةٍ ميتافيزيقيّةٍ في جوْهرها، وجاء بهتلر كمثالٍ على صحّة إعتقاده ثمّ أعطاني في النّهاية نسخةً من كتاب (كفاحي Mein Kampf) ممْهورةً بإهدائه " من هاليّداي إلى ويلسون "، و أضاف فلاكس بأنّه يرى أنّ المجتمع المُعاصر يقومُ على أسسٍ متعفّنة طالما أنّ حضارتنا لاتقدّمُ ما يكفي من التحدّيات المناسبة لأصْحاب القوّة و العزيمة من الرّجال، و أنّ الكائن البشريّ لا يمكنُ أن يرتقي إلّا من خلال سلسلةٍ من التحدّيات المتعاقبة مثل درجات السّلالم. إمتدّت مناقشاتُنا بشأن موضوعة إرادة القوّة إلى مناقشة الجنس أيضاً و هو الموضوعُ الّذي كان يُسحرُهُ على الدّوام: قال فلاكس أنّ الذّكر المُعافى هو حصانُ تكثيرٍ للجنس البشريّ بطبيعته (و هي ذات الجزئيّة الّتي كان بيل هوبكينز يلتقي فيها مع فلاكس)، و أنّ لدى النساء سحراً و إغواءً يُداعبُ أعمق أوتار الرّغبة الذّكوريّة في الغزو و الإنتصار !! (و كنتُ أنا قد جعلْتُ يسوع في إحدى أعمالي يتساءلُ) و ما عساها تكونُ الحياةُ من غير غزوٍ و إنتصار ؟ "، و كان فلاكس يرى أنْ ما مِنْ أحدٍ من الكُتّاب كتب عن هذه الجزئيّة في الجنس بأمانة – و لا حتّى لورنس أو جويس – (و هنا بدا لي أنّه لم يقرأ روبرت موسيل) و كان يرى أنّ الفنّانين غيرُ مؤهّلين للكتابة في هذا الشأن بخاصّة لأنّهم ضعفاء و عاطفيّون للغاية، و تركْتُ فلاكس و ذهبْتُ مشياً على الأقدام لشقّتي و أنا أترنّحُ من أثر الثمالة و مرّ بخاطري أثناء المشْي بعضُ الضبّاط الّذين ورد ذكرهم في الأدب الروسيّ: هرمان في أعمال بوشكين، وَ دولوغوف في أعمال

تولستوي، وَ بنشورين في أعمال ليرمنتوف، و كان ما يجمعُ هؤلاء الضبّاط هو كونهم شخصيّات تراجيديّة إلى أبعد الحدود.

شعرْتُ بأسفٍ شديد لأنّ فترة تدريبِنا القصيرة إنتهت بسرعة و ربّما كان هذا إيذاناً لي بأنّني لن أرى جوي ثانية، و عندما شاركْتُ فلاكس تناول القهوة عند فترة الإستراحة أحد الأيّام دخلت جوي مكان الإستراحة و دعاها فلاكس على الفور لتُشاركَنا القهوة، و كنتُ مهتمّاً للغاية بمراقبة إبتسامتِها وَ الإنتباه إلى نغمة صوْتِها أكثر من الإصغاء لما كانت تقوله. كان فلاكس معتاداً على الحديث مع جوي و كان يتحدّثُ معها بلا تكلّف، و راح يسألُها عن صحّة " المُنقّب عن الصّخور " و هنا صار واضحاً لي أنّ خطيب جوي يعملُ جيولوجيّاً، و أذكر حينذاك كيف إنغمسْتُ في تفكيرٍ عميق: فلو حصل أن رأيْتُها قبل بضع سنوات لكنْتُ تركتُ العنان لنفسي للوقوعِ في سحرِ جوي بالكامل، و لكنّني بتُّ الآن أكثر إنضباطاً و قدرةَ على التحكّمِ الذاتيّ بعواطفي متى ماعرفْتُ أن لا طائل من مطاردة هدفٍ لا سبيلَ إلى بُلوغه، و حين تركَنا فلاكس وحيديْن قليلاً سألتُها متى تركت الجامعة؟ فأجابت قبل حوالي السنة، و عندها تجرّأتُ و سألتُها عن سنّها و أنا أتوقّعُ أن توبّخني و تطلب منّي أن لا أتدخّل في شؤونها الخاصّة لكنّها - وَ لِدَهشتي - أجابت بالقول أنّ سنّها إحدى و عشرون سنة، وَدُهشْتُ عند سماع هذا فقد كنتُ أتوقّعُ أن تكون في منتصف العشرينات من عمرها، و ذكّرَني ثباتُها و إعتدادُها بنفسها بجوانب من شخصيّة بيتي، و خطرتْ ببالي فكرةٌ مع نهاية ذلك اليوم في تنظيمِ نوعٍ من إستعراضٍ يناسِبُ عيد الميلاد (ربّما كنتُ سأقتبِسُهُ من العملَ المسمّى " إستعراضُ القرن العشرين Twentieth Century Revue " الّذي كتبْتهُ لجماعة الفوضويّين، أو مِنْ مسرحيّتي " برغمُ

الزّهرة المعدنيّة Metal Flower Blossom ") و حاولْتُ إقناع جوي بأن تساهمَ بدوْرٍ ما في العمل الّذي عرضتُ فكرته على صاحب المحلّ فوافق على الفور – رغم انّه كان ذا مزاجٍ متقلّب و نزواتٍ لحظيّة – شريطة أن يقرأ مخطوطة العمل، و عندما عرضْتُ العمل على جوي تردّدت في إبداء مُوافقتِها ثمّ عقّبت أنّها ربّما ستكتفي بأداء دوْرٍ صغير.

* * * * * * * * * *

أفكّرُ أحياناً بنزعة حبّ السّيطرة dominance المُتمكّنة من بعض النّاس الّذين تعاملْتُ معهم فتبدو لي مسألةً مفتاحيّةً و على جانبٍ عظيم من الأهمّية في تفسير جوانب مختِلفة من الوجود الإنسانيّ: كانت صراعاتي الداخليّة خلال سنوات مُراهقتي نتاجاً مُباشراً لتحويل نزعتي في السّيطرة نحو داخلي و جعْلِها أفكاراً مُنتِجة، و كنتُ على الدّوام أملُكُ إتّجاهاً طبيعيّاً – مثل فلاكس – في النّظر إلى كُلّ الفنّانين و المُفكّرين بكوْنهم جمهرةً من الإمّعات الجُبناء، و كنتُ في طفولتي مقاتلاً ممتازاً و قائداً بالفطرة رغم كراهيّتي المفرطة للنشاطات الرّياضيّة، و ربّما كنتُ سأتطوّرُ إلى رجلٍ من رجال الفعلِ و الحركة لو كنتُ عشتُ في بيئةٍ مختلفة، و كان من نتائج تحويلِ سيطرتي نحو داخلي أن صرْتُ شخصاً هادئاً ذا نزعةٍ مُعتدلة وَغير ميّالٍ لِلقتال، و كان يبدو عليّ أحياناً أنّني أتوافقُ مع الأعمال العاديّة و كان رؤسائي يُسرّون لذكائي الّذي كان ينبؤُهم بأنّني سأرتقي مراتب العمل بسرعةٍ فائقة و لكنّ السّيطرة المكتومة في داخلي كانت تمنعُني من التّوافق مع الأعمال العاديّة إلى جانب إحتقار من أكونُ أعملُ بمعيّتهم من الّذين كانوا يعبّرون عن ردّة فعلهم تجاهي في هيئة كراهيّة طبيعيّة، و من

الواضح أنّ رغبتي المُضمرة في السّيطرة هي الّتي تفسّرُ علاقتي المعقّدة مع بيل هوبكينز، و هي ذاتُها الّتي جعلتْني أجدُ في فلاكس شخصيّة ممتعة: فقد كان كلٌّ منّا يسلّي الآخر بلعبة الإرادات المُتعاكسة و كأنّنا كنّا لاعبَيْن مُتنافسيْن في لعبة ملاكمة، و في كلّ المرّات الّتي دقّقْتُ فيها بحياة فلاكس كان يبدو لي مؤكّداً أنّ شخصيّتي كانت ستغدو نسخةً من شخصيّته لو حصل و نشأتُ في بيئةٍ مثل بيئته أو لأبويْن من الطّبقة المتوسّطة. كانت أعراض السّيطرة الّتي تتحكّمُ بجوانب خطيرة في السّلوك الإنسانيّ هي السّبب وراء إعتباري كتاباتِ شو مُكتنزةً بمعاني أكبر بكثيرٍ من المعاني الّتي يتناولُها الكتّابُ الآخرون في كتاباتهم: فقد كانت أغلب أعمالِ شو تحكي عن موضوعة تصادم الإرادات، و ثمّة مسرحيّةٌ له بعنوان (ميجور باربارا Major Barbara) تحكي بطريقة مثيرة عن تصادم بين شخصيْن أحدهما يميلُ لممارسة نزعته السلطويّة في السّيطرة على الآخرين بينما يعملُ الثّاني على تحويل نزعة السيطرة لديه نحو داخله و على نحْوٍ تستحيلُ معه نمطاً من التطلّع الذهنيّ المفرط و الصّارم، و من المثير إلى أبعد الحدود قراءة ذلك الوصف الدقيق للشخص الثاني الّذي يكتبُ عنه شو قائلاً " فعلَ الوهنُ العقليُّ المزمنُ فعلاً قاسياً في بُنيانه الجسديّ بطريقةٍ مرئيّة بالغة الوضوح "، و لحسْنِ حظّي كانت صحّتي ما تزالُ سليمةً بإستثناء بعض المتاعب في المعدة، و لكن بدا لي واضحاً أنّ صحّتي لن تطولَ بها السّلامةُ فيما لو دام التوتُّرُ المزمن النّاجمُ عن فشلي في توكيد قدراتي الذّاتيّة لفترةٍ طويلة.

كان من المُفترض أن تغادر جوي إلى كندا بعد شهورٍ قليلة لكي تتزوّج من خطيبها الّذي ينتظرُها هناك و كانت كلّ الإحتمالات تميلُ إلى ترجيح كفّة مُغادرتها لذا لم يكن ثمّة فائدةٌ أمامي من التّخطيط

لفكرة إجتذابِها، و لكنّ علاقتي بها آنذاك كانت بلغت حدّاً سمح لي في أدنى تقديرٍ أن أفكّرَ بالحديث معها حول إمكانيّة التخلّي عن زواجها الموعود في كندا، و عندما كنّا نعبرُ فيكتوريا بارك في الظّلمة الحالكة ذات يومٍ سألتُها عن الكتب الّتي بحوزتِها في ليستر فعدّدتْ لي: قصائد ييتس و مسرحيّاتهُ، و أعمال بروست بالفرنسيّة، و أعمال فيرجينيا وولف، و رواية يوليسيز لِجويس، و قلّما أبْدَت معظمُ الفتيات الجذّابات اللواتي عرفتهنّ من قبلُ أيّ إهتمامٍ يذكرُ بالأدب، أمّا من كانت مهتمّة بالأدب من الفتيات فلم تكنْ جذّابةً على الإطلاق، و حتّى بيتي الذكيّة للغاية كان ذكاؤها براغماتيّاً مباشراً و لم تكنْ تشاركُني أبداً إهتمامي بعالَم الأدب و الأفكار بعامّة، و بان واضحاً لي تماماً أنّني لو نويْتُ أن تُشاركَني فتاةٌ ما حياتي فستكونُ جوي بالتأكيد هي أكثرُ الفتياتِ إقتراباً من صورة المثال الّذي أبحثُ عنه.

رحلت جوي لقضاء عطلةِ أعياد الميلاد وَ مضَت إلى ساوثهامبتون لتودِّع خطيبها الرّاحل إلى كندا، و حينما عادت أدركْتُ أنّ علاقتها بزوجها المقبل قد وهنت إلى حدٍّ بعيد خلال العام الّذي قضتْهُ و هي تدرّسُ الفرنسيّة في فرنسا و ساعدتْ علاقتُها بي في إدراكها لطبيعة الوهن الكبير الّذي شابَ علاقتها بخطيبها و فضّلت أن تتجنّب الدخول في متاهة الإختيار بيني و بيْنه و لكنّني كنت متيقّناً من أنّها لابدّ مضطرّةٌ إلى حسم خيارِها في وقتٍ ليس بالبعيد حتماً.

حالَما إنتهت أعياد الميلاد طلبني مدير المحلّ إلى مكتبه و ذكّرَني بحقيقة أنّني كنتُ قُبِلْتُ للعمل بوظيفةٍ موقّتة كما أشار إلى وعدي بإرتداء بدلةٍ مناسبةٍ أثناء العمل – و هو الوعْدُ الّذي لم أفِ به – و سألني عمّا يُناسِبُني من خيار: أن أشتري بدلةً مناسبة و أبقى أعملُ في المحلّ

أم أتركهُ و أرحل ؟ و كان قراري هو تركُ العمل في المحلّ و بخاصّة أنّني كنتُ أعدُّ االترتيبات آنذاك لعودتي إلى لندن. أمضيْتُ الأيّام التّالية في طلاء الشقّة، و ذات يومٍ حضرت جوي للشقّة و أعدّت لي الطّعام، و عندما حان وقتُ مُغادرتِها طلبْتُ إليْها أن تبقى معي و أنا مدرِكٌ تماماً أنّ هذا الأمرَ سيكونُ مُحرِجاً لها و لكنّها وافقتْ رغم شُعورِها بالتعاسة و الذنب، و قبْل أن ننام قلتُ لها بحسْم " أخبِريني بصراحة، هل تهتمّين بي أم لا ؟ إذا لم تكوني تهتمّين بي فَقوليها بوضوحٍ " و هنا صمتتْ جوي لفترةٍ طويلة و قالت أخيراً بصوْتٍ هامسٍ لا يكادُ يُسمَع " نعم، أهتمُّ بك "، فأجبتُها على الفور " إذن من الأفضل لك أن تأتي معي إلى لندن و تفسخي خطبتَكِ في الحال " و غرقْتُ عندها في النّوم و أنا ممتلِئٌ سعادةً بعد أن صار أمري مع جوي واضحاً وَ صريحاً. حينما إستيقظْتُ صباح اليوْم التّالي كانت جوي قد غادرت إلى غرفتها لتبديل ملابسها قبل الإلتحاق بالعمل في محلّ لويس، و قبْل أن ينْتصف النهارُ مضيْتُ إلى المحلّ للقاء جوي و مُشاركتها شرْب القهوة أثناء فترة الإستراحة و كانت تناتبُني آنذاك ذات المشاعر الّتي إختبرْتُها في شّهور زواجي الأولى من بيتي: فقد كان ثمّة إحساسٌ أنّني لن أكونَ وحيداً بعد اليوْم، و بالرّغم من أنّني كنتُ قبّلتُ جوي مرّة واحدة فحسب لكنّني كنتُ أتصرّفُ معها و كأنّنا مُتزوّجان، و عندما أبديتّ لها إقتراحاً بضرورة الكتابةِ إلى خطيبِها و إخباره بحقيقة الأمر أجابت على الفوْر: نعم، يجبُ أن أفعل هذا، و إتّفقْنا أن تأتي معي إلى لندن، وَ عثرْتُ آنذاك على عملٍ في مصنع للأحذية، و كانت أجورُ العمل فيه جيّدة و لكنّ العمل كان شديد الإنهاك و في نهاية يوم العمل كان جسدي يئنُّ من الرأس و حتّى القدميْن.

كان لقائي مع جوي نقطة مفصليّة عظيمة الشّأن في حياتي: كنتُ

أشعرُ معها على الدوام بأَن حياتي قد تكاملتْ و باتت أكثرَ ثراءً بعد أن كانت ممزّقة الأوصال منذ تركي للمدرسة، و كنتُ قبل أن أعرفَ جوي أترك مصيري لمقادير الظّروف تعبَثُ بها كيفما شاءت و كان الإستثناءُ الوحيد من مصيري العبثيّ هو الكتابةُ الّتي كانت مَعْلماً من معالم شغفي و إرادتي، أمّا الجوانبُ الأخرى من حياتي فكانت تعبيراً عن ضجرٍ مستمرّ من غير نهاية، و مع أنّني كنتُ شخصاً على شي من الغلظة و كان مُقدّراً لي قلبُ الطّاولة على كلّ شيء و إفسادِ كلّ الأمور لكنّني كنتُ متفائلاً للغاية و راسخ القناعة بما قاله (إزرا باوند) يوماً ما:

ما يملؤكَ شغفاً هو وحده الّذي يبقى

و الأشياء الأخرى محْضُ تفاهة،،،،

ما يملؤكَ شغفاً هو ما لَنْ يتسرّبَ من بين أصابعك،،،،

ما يملؤكَ شغفاً هوَ ميراثك الحقيقيّ،،،،

و كنتُ على درايةٍ أيضاً بِما كتبه أودن:

أن نكون محْبوبين يعني أن نقترف الأخطاء،،،،

نتعاملُ مع حياتِنا البليدة بغلاظة،،،،

قد نُعاني القليلَ جدّاً أو الكثير جدّاً،،،،

لكنّنا نُدقّقُ كثيراً في تفاصيل حبّنا الأنانيّ،،،،

كنتُ جرّبْتُ أن أكون عالماً من قبلُ، ثمّ إنغمسْتُ في عالم الكتابة لأنّني أردْتُ الهروب من إحساسي الدّائم بكوْني مُخطِئاً بالإضافة إلى شُعوري بالغِلظة و الغباوة أنّى نظرْتُ حولي: فقد كان شغفي بالكتابة مُحاولةً منّي لتثبيت أساسٍ من النّظام و الإنضباط حتّى لو في منطقةٍ صغيرة من الوجود الإنسانيّ، و يبدو دائماً أنّنا في صراعٍ أبديٍّ بين ما

نبتغي أن نكون و بيْن الحقائق الصّلبة لحياتِنا الواقعيّة حتّى ينتهي الأمرُ بكثيرٍ منّا إلى قُبولِ نوْعٍ من المُساومة المقبولة، أمّا أولئك الّذين يصرّون على التمسّك بتصوّرهم الخاصّ عن الحقيقة على الرّغم من حقائق الحياة الصّلبة فغالباً ما ينتهي بهم الأمر في المصحّات العقليّة حيث يصرّ واحدهم على الصّراخ: أنا يوليوس قيصر. كنتُ أتساءلُ على الدوام في ذروة لحظات إكتئابي العنيف: كيف سينتهي بي الأمرُ لو ظلّ الواقعُ على صلابته و لم يستجِبْ لمُحاولاتي المستمرّة فرض لغتِي الخاصّة عليْه ؟ متى تأكّد بنيامين روبرت هايدون (صديقُ كيتس) من أنّه ليس ذلك العبقريّ المُعجزة الّذي سيقفُ العالم مشدوهاً لعظمة أعماله، و أنّهُ في حقيقة الأمر ليس أكثر من رسّام رديئ ؟ إنّ للمخلوقات البشريّة وسائلها الماكرة في الهروب من الحقيقة و لطالما راقبتُهم لسنواتٍ عدّة و هم يبتكرون الكثير من هذه الوسائل و بلغ الأمرُ حدّاً دفعَني إلى مُحاولة كتابة كتابٍ عن هذه الموضوعة بعنوان (طُرُق و آليّات الخداع الذاتيّ البشريّ).

بدت علاقتي مع جوي العلاقة الإنسانيّة الوحيدة الّتي شعرْتُ بتناغُمِها مع عالمي الدّاخليّ و مع الأمور الّتي أحببْتُها غاية الحبّ: فقد قبلَتْ بي جوي على خلفيّة تقديرها الشخصيّ الخاص- لي و لمواهبي مثلما يتقبّلُ الطّفلُ الصّغيرُ أباهُ و بخاصّة بعد أن جعلت منّي حياتي الزوجيّة مع بيتي لمدّة سنتيْن متوتّراً للغاية و متحسّساً أزاء أيّة لفتةٍ تستحثُّ توتّري، و هنا لابدّ لي من الإعتراف بأنّ حياء جوي و حُشمتها تجاه العلاقات الجنسيّة شكّل مصدر راحةٍ عميقةٍ لي بعد أن دفعَني فشل زواجي من بيتي إلى الشّعور المزمن بِعَوَقي الجنسيّ أو على الاقلّ بمُعاناتي من شكلٍ من المرض الجنسيّ، و كما نعلمُ فإنّ الإخفاق بذاته يمثّلُ مصدراً للشدّ العصبيّ المُنهك تماماً مثل معاناة شخصٍ ما

من التاتأة: فكلّما إنشغل أكثر بتأتأتهِ ساءت حالتهُ أكثر من ذي قبلُ، و الأهمّ من كلّ أمرِ آخر أنّ جوي جعلتْني أتحرّرُ من الإنشغال المرضيّ بإثبات كفاءتي الذكوريّة.

وجدْتُ نفسي بعد بضعة أسابيع من العمل في مصنع الأحذية قد مللْتُ ليستر و نلْتُ منها الكفاية، و لم يكن أمامي دافعٌ يدفعُني للإنتقال إلى لندن كما نضب خزيني من أيّة نوستالجيا للعودة إلى حيّ سوهو أو عرض مسرحيّة (برعم الزّهرة المعدنيّة)، و مع أنّ حياتي آنذاك كانت خلوّةً من أيّ ثراء يمكنُ له أن يُرضيَني على نحْوٍ مقبول لكنْ لم يكن ثمّة بديلٌ أمامي سوى المُضيّ بعزيمةٍ في الحياة.

٨. لندن و اللّامنتمي

كانت سنتي التّالية في لندن أسوأ سنوات حياتي حتّى ذلك الحين، و مع أنّني حصلْتُ على إمرأة رائعةٍ مثل جوي فقد كان شعوري آنذاك أنّ شيطاناً مَسكوناً بحسّ دعابةٍ ساخرةٍ يتقاذفُني كما الكرة و لم أكنْ من جانبي أحسبُهُ إلّا راغباً في أن يصنع منّي كاتباً. عثْرْتُ لنفسي على غرفةٍ في منزلٍ يديرهُ رجلٌ أسكتلنديّ في آرتش واي Archway و كان يَحْدوني شعورٌ أنّ الرّجل سيكونُ أفضل من النسوة مالكات الغرف السّابقات غير أنّ ظنّي خاب تماماً: فقد كان الرّجل ثرثاراً لا يتعبُ من التّدقيق في توافه الأمور !!. راجعْتُ مكتب تنسيق العمل في نورث فينكلي فوجَدوا لي عملاً في محلّ لتنظيف الملابس و كيّها و كان عملي هناك ثقيلاً و مُجهداً يتطلّبُ حمْل الملابس الثّقيلة وَ وَضْعها في آوعية التجفيف ثمّ حمل الملابس المجفّفة بعد كلّ خمس عشرة دقيقة، و هكذا كان لزاماً عليّ حمْلُ أطنانٍ عدّة من الملابس كلّ يوم.

كانت جوي تُكاتِبُني آنذاك بإنتظام، و بدأتُ مع الوقت أكتشِفُ أنّ شخصيّتها الوديعة المُسالمة كانت تنطوي على شيءٍ من غموضٍ غير عاديّ إذ كانت تنسى أحياناً الكتابة لي لمدّة أسبوع حتّى أكون تيقّنْتُ حينها بأنّ أمراً جللاً قد حدث معها أو أنّها لم تعدْ ترغبُ بالعيْش في لندن، و لكنّها جاءت في النهاية و إستأجرت غرفةً لها في شارع فيللوز Fellows Road بمنطقة تشوك فارم Chalk Farm كما عثرتُ لها على عملٍ بمحلّات كبيرة تدعى بيتر روبنسون في أكسفورد

سركس Oxford Circus. كان ثمّة أمرٌ غريبٌ باعثٌ على الإحباط في علاقتي مع جوي و لم أستطع تحديده بدقّة: كنتُ أعرفُ أنّ جوي لم تكن واثقةً تماماً بي مع أنّ فلاكس كان حذّرها بأنّ سلوكها هذا كفيلٌ بتحطيم علاقتها معي خلال ستّة أشهرٍ ليس أكثر، و من جانبي كنتُ أعرفُ مبعث شعورِها هذا: كنتُ من قبلُ قد غدوْتُ معتاداً على إمرأة من طراز بيتي أو ماري و كانتا كلتاهما مُفتقِدتيْن إلى الإحساس الرّاسخ بالأمان و ميلان إلى االحصول على عواطف قويّة من جانبي تجاه العواطف الهائجة الّتي كانتا تُبدِيانِها تجاهي، أمّا مع جوي فكان الأمرُ مختلفاً تماماً إذ أنّها عاشت طفولة هادئةً يغمرُها السّلام وَ الأمان و كانت أسرتُها مغرمةً بها لكنّها كانت أسرةً مُحافظة لا تميلُ إلى البوْح بعواطفها، و نشأت جوي مثل أيّة سيّدة شابّة في عائلةٍ ذات تقاليد محترمة تُراعى فيها الإلتزامات الإجتماعيّة المُتوارثة: فقد تعلّمت ركوب الخيل، والإنضمامَ إلى نادي التنس المحلّي، و إرتداء ثوبٍ مناسبٍ للعشاء و الذّهاب إلى الحفلات الرّاقصة مع شبّان يرتدون هم الآخرون سُتراتٍ مُناسبة للعشاء، و كانت جوي عندما تتحدّثُ مع أقاربها تبدو كواحدةٍ من الشخصيّات القديمة الّتي نقرأ عنها في رواية (حكاية عائلة فورسايت The Forsyte Saga) **(سلسلتان من الروايات كتبها الروائيّ حامل نوبل جون غالسوورثي على مدى ثلث قرن و ختمَها عام ١٩٣١، و يحكي فيها عن التقلّبات الدراماتيكيّة الّتي رافقت عائلة فورسايت المنتمية للطبقة المتوسّطة خلال إنتقالها من العصر الفكتوريّ إلى القرن العشرين، المُترجمة)**. كانت حياة جوي شبيهةً تماماً بجذْولٍ ماء رقراق يستمدّ ماءه من ينبوعٍ صغير: مدْرَسَة خاصّة للفتيات الصّغيرات (حيثُ كانت الروائيّة بيريل بينبريدج Beryl Bainbridge زميلة دراستِها)، جامعة في دبلن، عطلات ممتعة لصيد السّمك على شواطئ إيرلندا

الغربيّة، ثمّ أمضَت جوي سنة لتعليم الفرنسيّة في فرنسا، و عندما رأيتها أوّل مرّة كانت قد أمضت بضعة شهورٍ من التدريب على العمل الإداريّ و كانت تعدُّ العدّة لينتهي بها المطاف إلى الحياة الروتينيّة كَسيّدة محترمة متزوّجة من الطبقة الوسطى تنْوي الإستقرار النهائيّ في كندا، و عندما عرفتْني جوي تسبّبْتُ لها في إقلاق حياتها على نحْوٍ خطير إذ جعلتُها تتّخذُ قراراً مصيريّاً لا سبيل إلى التّراجع عنه وهو فسخُ خطبتِها من خطيبها و نسْفُ كلّ خططها للزواج و الاستقرار في كندا، أمّا أنا فكنْتُ حينذاكَ حسّاساً، متعجّلاً، مزهوّاً بنفسي و ميّالاً إلى إبداء إمارات التّظاهر و التفاخر و إعتدْتُ توبيخ جوي متى ما وصلت متأخرة لنحْو السّاعة عن موعدها معي أو عندما تتركُني جالساً بجوار الهاتف منتظراً مكالمةً منها كانت وعدّت بها.

كنتُ ذات يومٍ خارجاً للتوّ من الحمّام عندما أخبرَني مالك المنزل الّذي أقيمُ فيه أنّ شخصاً ما يطلبُ رؤيتي، و حينها تقدّم بإتّجاهي رجلٌ مُسِنٌّ قائلاً أنّه والد جوي (عرّف نفسه بالقول أنا السيّد ستيوارت، سيّدي) و أنّهُ يودُّ الحديث معي، فدعوْتهُ إلى الدخول لكنّه رفض مُعلِناً عن رغبته في الحديث معي داخل سيّارته. كان حوارُنا سيّئاً للغاية: فقد بدا أنّ والِدَي جوي صُدِما بعد معرفتهما بأمر فسخ خطوبتها و إنهيار مستقبلها الّذي توقّعا له أن يكون مُريحاً، و قدا عرف الوالدان بأمري بعد أن فتّشا حقيبة صغيرة تعودُ لجوي و أكتشفا أمر بعض رسائلي إليها من تلك الّتي " كُتِبَت بمهارةٍ شيطانيّة " كما عبّر عنها والد جوي، و كان رأي والديْها أن إبنتهما وقعت فريسة لصٍّ صعلوك و بوهيميّ متسكّع تائه يريدُ إغواءَها وَ الإعتياش على أتعابِها، و كان الإقتراحُ الصّارم الّذي وضعه والد جوي أمامي هو أن أغيّر عنواني و أختفي من حياة جوي إلى الأبد أو أنّهُ سيكون مضطرّاً لأخذِها إلى

بيتربوروه Peterborough (كانت كلماته الحقيقيّة لي "غادِرِ المدينة، سيّد ويلسون")، و هنا أخبرْتُ والد جوي أنّ الأمر برمّته يعتمدُ على جوي ذاتها: فلو طلبت منّي ألّا أراها ثانية فسأفعلُ حتماً، و لكنّي لمّا كنتُ أقنعتُها بالقدوم إلى لندن فليْس في وسْعي ترْكُها لمحْض أنّ والديْها لا يقبلان بي، ثمّ مضيْتُ في سؤال والد جوي " بأيّ وجْه حقّ لا تقبلُ بي و أنت لا تعرفني بما يكفي من المعرفة ؟ " فأجابَني أنّ رسائلي إلى جوي أبانت حقيقة معدني و أنّ السّجنَ سيكون نهايتي الطّبيعيّة لا محالة !!. بدَت علاقتي مع جوي آنذاك غير واقعيّةٍ و لم أكن أتعاملُ معها بجدّيّة كافية: فقد أخبرْتُ والدَها أنّني أحِبُّ جوي لأنّها مغرمةٌ بي و تتوقّعُ الكثير منّي و لم يكن هذا صحيحاً بالكامل إذ لم أكن ذلك النوع من المُراهقين الرومانتيكيّين الّذين ينغمسون في علاقات الحبّ كلّ حين، و مع أنّني أعجبْتُ بجوي و بادلتْني هي ذات الإعجاب لكنّها كانت تبدو بعيدةً عنّي و لم تظهرْ علائم الحبّ الجارف عليها و يمكنُ القولُ بإختصار أنّنا وجدْنا أنفسنا في خضمّ علاقة كان لها من إحتمالاتِ النجاح بقدر ما لها من إحتمالات الفشل. كان قد مضى عليّ داخل السيّارة آنذاك حوالي نصف ساعة أحسسْتُ في خاتمتِها أنّ يديّ تكادان تتجمّدان من البرد و أنّ أنفلونزا حادّة ستطرحُني في الفراش (و هو ما تحقّق بالفعل)، وَ أخبرْتُ والد جوي أنّ أنظارنا لن تلتَقي ببعضٍ أبداً و أسرعْتُ لداخل المنزل للإتّصال بجوي و إخبارِها بحقيقة ما حدث مع والدِها الّذي كان في ذات الوقت قد ذهب لرؤية إبْنتِهِ و إعلامِها بالخيارات المُتاحة أمامها: أن تكُفَّ عن رؤيتي أو أن تُغادر لندن صحبة والدها و تعود ألى المنزل، و بعْد مناقشاتٍ مُجهدة مع والدها قبل لها أن تبقى في لندن بشرْط أن لا تزورَني في منزلي، و عندما رأيتُها لاحقاً كان الغضبُ يتفجّر منْ داخلي، فأيُّ حقٍّ يملكُ

والدُها لإنذارها هذا الإنذار الصّارم و المُعيب بحقّ فتاة كانت بلغت آنذاك الواحدة و العشرين ؟ كان من السهّل طبعاً على جوي أن تأخذ الأمر ببرودٍ كعادتها و تقول أنّ والديّها كانا منزعجيّن لعلاقتنا لأنّ كلّ ما يعرفانه بشأني يجعلهُما على يقينٍ تامّ بانّني محضُ مُتاجرٍ بالرقيق الأبيض !!.

عملْتُ حوالي الشّهر في محلّ تنظيف و كيّ الملابس و لكنّ العمل هناك كان مَضجراً للغاية و شاقّاً على نحْوٍ غير إعتياديّ كما لم أحصل على أجرٍ يكافئُ أتعابي فقرّرْتُ تغيير وظيفتي، و رغْم نيّتي المسبّقة بعدم العمل في المكاتب فقد طلبْتُ من مكتب تنسيق العمل إيجاد وظيفةٍ مَكْتبيّة لِي فوجّهَني المكْتبُ إلى محلّ تصليح سيّارات يقعُ بالقرب من محطّة فينكلي المركزيّة و كان عملي هناك مسؤولاً عن مخزن الأدوات الإحتياطيّة و كان عليّ دوماً مراجعة قوائم بآلاف قطع الغيار و جرْدها و توفير ما يلزمُ منها للعمّال القائمين على تصليح السيّارات في المحلّ، و لّما كنتُ لم أنظر طيلة حياتي إلى ما تحت غطاء المحرّك فلم يكن في مقدوري معرفةُ أسماء قطع الغيار تلك و بدت لي كشفراتٍ مكتوبة باليونانيّة و رفضتُ بذل أيّ مجهودٍ من جانبي لتعلّمها، و لاحظ رئيسي في العمل الضّجر الّذي كنتُ أعانيه ففصلَني على الفور، ثمّ وجدْتُ لي عملاً آخر في شركة فكتوريا للنبيذ Vectoria Wine Company و كان عملي هناك ينصبُّ على توصيل الطّلبيّات على ناقلةٍ ميكانيكيّة و لم يكنْ أقلّ بعثاً للضجر في نفسي من سابقه إذ لم أكن أعرفُ عن النبيذ أكثر ممّا كنتُ أعرفُ عن السيّارات، و كان الكاتبُ الأسكتلنديّ الّذي أعملُ بمعيّتهِ في الشّركة ذا وجهٍ متورّد و ملامح أنثويّة و كان يتأتِئُ قليلاً و يعشقُ الشّجار إلى حدّ الجنون كما كان يعتبِرُ جلوسَ بوهيميّ مثلي إلى جوارهِ إهانةً كُبرى !! و مضى يلعبُ معي طوال

اليوم لعبة فرض السّيطرة و جعلتهُ لامبالاتي به أكثر عدوانيّةً و إمعاناً في محاولة إيذائي (قابلْتهُ بمحض المُصادفة في أستوكهولم عام ١٩٦٠ و كانت أولى كلماته لي " إسمعْ، أنا أكثر عبقريّةً منك بكثير " و لكنّ صحيفةً سويديّة أخرستْهُ بعد أن نشرَتْ مقالةً مُسْهبةً عنّي إمتدحت فيها أعمالي كثيراً)، و بعد بضعة أسابيع من عملي في شركة النبيذ فُصِلْتُ من العمل أيضاً، و تسلّمْتُ في ذات الوقتِ تقريباً رسالةً من بيتي تُعلمُني فيها عن نيّتِها إقامة دعوىً عليّ للمطالبة بالنّفقة القانونيّة و كان ردّ فعلي الاوّليٌ هو التّفكيرُ بالعودة إلى فرنسا أو مُحاولة المغادرة بعيداً إلى مدينةٍ غير معروفة، و لكن لحسْن الحظّ أقنعْتُها بقبول مبلغٍ أسبوعيّ ضئيل لقاء تنازلِها عن الدّعوى، و كان لي مشاكلُ إضافيّةٌ مع مالِكة الغرفة الّتي أسكن فيها – و إنْ بدت مشاكل صغيرة –: فقد كانت المالكةُ تعيشُ على مبلغ الإعانة الوطنيّة و كان لها إبنةٌ قبيحة في منتصف الثلاثينات من عمرها بالإضافة إلى حفيدة بدينة، و سرعان ما إتخذتْني الإبنة القبيحة صديقاً مقرّباً لها و أسَرّتْني أنّها بعْدما إنفصلتْ عن زوْجها راحت تدعمُ مدخولها من الإعانة الوطنيّة بقليلٍ من المال الّذي تكسبُهُ عن طريق البغاء، و لم تكن هذه المسألة مصدراً لِضجري أبداً إلّا عندَما بدأتُ الاحظُ علاماتٍ مُؤكّدة في غرفتي تفيدُ بأنّ الإبنة إستخْدمتْها لمضاجعة زبائنها من الرّجال، أمّا الحفيدة البدينةُ فقد إعتادت أكل شطائر السّمك المقليّ في سريري و كان عليّ دوماً ترتيبُ السّرير و تنظيفه من بقايا الطّعام، و نشبتْ مشاجرةٌ بيني و بين جوي أنذاك لانّها رفضت زيارتي في شقّتي و بلغ الغضبُ بي مبلغاً قرّرْتُ معه ألّا أراها ثانيةً و لكنّنا كنّا إعتدْنا رؤية بعضنا – و ذاك هو الأساس في كلّ الزّيجات النّاجحة – لذا ذهبْتُ بعد يوميْن لرؤيتها حيثُ تعملُ في شارع أكسفورد، و لّما كنتُ قد غيّرْتُ سكني القديم

فاقنعْتُها أنّ وعدها لوالدِها بعدم زيارتي لم يكن ينطبقُ على سكني الجّديد و عندها إقتنعتْ جوي و بدأتْ بتمضِية بعض الأمسيات – و أحياناً بعض الليالي – معي، و عندما لمحتْها مالكة السّكن العجوز تتسلّل خارجاً في إحدى المرّات وبّختني و قالت إنّ هذا سلوكٌ لا يليقُ بساكنٍ عندها و بدت لي ملاحظتُها هذه كنوْعٍ من سخريّةٍ سخيفة، و لمّا لَم يكن في نيّتي إعلامُها بما تفعلهُ إبنتُها مَن وراءِها فقد قرّرْتُ مغادرة السّكن و البحث عن سكنٍ جديد.

عثرْتُ على عملٍ جديدٍ في مصنعٍ للمواد البلاستيكيّة في ويتستون Whetstone و كانَ العملُ فيه أقلّ ضَجراً لي من عملي في الأعمال المكتبيّة، و لكنّني تشاجرْتُ مع رئيسي في العمل بعد بضعةِ أسابيع من بدئي للعمل و طُلِبَ إليّ بعدها جمعُ أوراقي و تركُ العمل في المصنع، و بدأتُ حينذاك أشعرُ بالضّبط كما شعر راسكولنيكوف قبل إرتكابه جريمة القتل في رواية (الجّريمة و العقاب) عندما إجتاحهُ إحساسٌ طاغٍ بأنّ " من غير الممكن المُضيّ بحياته على هذه الشّاكلة "، و كان الغثيانُ قد بلغ معي آنذاك حدّاً لايُطاق بسبب إضطراري للتعامل مع الأغبياء و العملَ في أعمالٍ لا أطيقُها من دون الحصول على ما يكفي من الوقت للعملِ على روايتي (طقوسٌ في الظّلام) بعد أن بقيْتُ أكافِحُ في كتابتها منذُ أنْ كنتُ في السّابعة عشرة و كان كلُّ ما أحتاجهُ هو شهرٌ من العمل المُنضبط لتحويل الشّذرات التي تجمّعت لديّ إلى رواية كاملة، و مع أنّ بعض فُصولِها بدتْ لي جّيّدة غير أنّها لن تكون روايةً حقيقيّة ما لَمْ أبدأ من البداية و أمضي في العمل عليْها حتّى النهاية. قرأتُ في تلك الفترة أيضاً أعمال غراهام غرين الخفيفة بنفاد صبرٍ عظيم و بدا لي واضحاً أنّني كنتُ أكتبُ افضل بكثيرٍ من تلك الأعمال، فلِمَ كان عليَّ إذن أن أظلَّ أعملُ في أعمالٍ لا طائل من وراءها ؟ بدا لي أنّ الأوان قد حان لأكون

كاتِباً، و أدركْتُ في غمْرة إحباطي الكامل أنّ جانباً كبيراً من مشكلتي الآنيّة حينذاك تمثّل في إضطراري لدفع إيجار سكني الّذي كان معقولاً بالمعايير العاديّة و لكنّ الإيجار مع الوقود و التأمين و ضريبة الدّخل كانت بقدر ثلاثة أضعافِ ما أصرفهُ لتأمين متطلّبات طعامي، و في ذلك الوقت كان جوني أبراهام Johnny Abraham – و هو صديق سمح لنا من قبلُ بعرض إستعراض القرن العشرين في غرفة سكنه – يعتزِمُ القيام بجولةٍ في الشّرق الأوسط ليتجوّل هناك لمدّة تقربُ من العام و لكي يرى العالم ببساطة، و كان قد إبتاع خيمةً و حقيبة للنوم مانعة لتسرّب المياه، و هنا طرأت على ذهني فكرة: ربّما كان هذا هو الحلّ الأمثلُ لمشكلتي مع السّكن، فأنت متى ما دفعْتَ ثمن خيمةٍ ما فهي ستكونُ ملكاً لك إلى الأبد و يكون في مقدورك نصبُها في أيّة فسحةٍ مُتاحة من أيّ حقل، و كنتُ آنذاك أقيمُ قريباً من ضواحي لندن الغربيّة و على مبعدة نصف ساعةٍ بالسّيّارة شماليّ بارنيت. وضعْتُ الخطّة هذه موضع التنفيذ على الفور و إشتريْتُ خيمة رخيصة الثّمن و حقيبةً للنوم و زارَني في عطلة نهاية الأسبوع صديقي باري هيبويل Barry Hipwell: الشّاعر الليستريّ الّذي شارك في التمثيل بمسرحيّة (الإنسان و الإنسان الخارق) عندما عُرضت في محلّ لويس و أخبرَني أنّه قرّر الإنتقال إلى لندن و كان يبحثُ عن سكنٍ مناسب فأخبرته أنّ في وسعه أن يأخذ سكني، و نقلْتُ كتبي إلى مسكن جوي في تشوك فارم، و في أسبوع عملي الأخير في مصنع البلاستيك كنتُ أنام في الخلاء تحت خيمتي !! و كنتُ في أيّامي الأولى أنامُ في حافّة ملعب غولف قريباً من المصنع و سرعان ما ادركْتُ أنّ الخيمة كانت تزيدُ عن حاجتي و تسبّبُ لي الكثير من المتاعب في نصبها و إزالتها كما كانت تجتذبُ أنظار الآخرين و إكتفيْتُ بحقيبة النّوم إذ كان بإمكاني إدخالُ رأسي داخلها عند هطول المطر، و كان هذا

يعني حتماً عَجزي عن إرسال النّقود المطلوبة إلى بيتي، و لكنّها كانت حصلت على عملٍ قريباً من ليستر و هكذا لم يكن عجزي عن الإيفاء بمُتطلّباتِ نفقتها القانونيّة ذا نتائج خطيرة.

كنتُ أتوقّعُ أن أحصل على ما يُقارِبُ العشرين جنيْهاً لدى مُغادرتي مصنع البلاستيك، و كان هذا المبلغُ كافياً للإيفاء بمعيشتي فيما لو انفقتُهُ على شراء الطّعام فحسْبُ و قاومْتُ إغراء شراء الكتب، و مضيْتُ في النوم بمنطقة هامبستد هيث قريباً من سكن جوي و من المتحف البريطانيّ في الوقت ذاته، و علمْتُ بوجود مقهىً لسائقي الحافلات يقعُ قبالة محطّة تشوك فارم لقطارِ الأنفاق حيث إعتدْتُ الحصول على قدحٍ من الشّاي و شريحتيْن من الخبز و بعض المرق لقاء بضع بنسات، و كُنتُ أذهبُ إلى المقهى كلّ صباحٍ لتناول طعام الإفطار ثمّ أركبُ درّاجتي بإتّجاه المتحف البريطانيّ و هناك بدأتُ بكلّ جدّية في إعادة كتابة روايتي (طقوسٌ في الظّلام). أثبت النظّام الجديد لحياتي أنّه كان أفضل لي بكثيرٍ من العمل في مكتبٍ أو مصنعٍ مع أنّه لم يكن مثالياً بأيّ شكلٍ من الأشكال لانّني كنتُ في حالةِ إجهادٍ عقليّة ثقيلة الوطأة نتيجة متاعب السنتيْن الماضيتيْن و ما كابدْته خلالهما، و لم تنجح أثناءها مُحاولاتي للعيش كصعلوكٍ لندنيٍّ متشرّد في تخفيف آثار تلك التوتّرات القاسية عليّ، و عندما أخبرْتُ صديقي بيل هوبكينز أنّني أنامُ داخل حقيبة نومٍ في متنزّهٍ عام و أنغمسُ بالكتابة في قاعة المتحف البريطانيّ أثناء النّهار قال لي بحماسةٍ مفرطة " تلك هي الفكرة العظيمة، كول: هيّا إمضِ و إصنع أسطورة ويلسون " و لكن كان من الواضح أنّني لا أستطيعُ العيشَ على محْض الأساطير.

* * * * * * * * * *

قابلْتُ أحد الأيّام في قاعة المُطالعة بالمتحف البريطانيّ واحداً من الشخصيّات الكثيرة المثيرة للإهتمام الّتي قابلْتُها في حياتي: كنتُ أقرأ في مؤلّف بريتول Britall المُعنون (أنثولوجيا كيركيغارد Kierkegaard"s Anthology) و عندما مضيْتُ خارج قاعة المُطالعة بِالمتحف وقت الإستراحة لتناول شطيرةٍ إقترب منّي رجلٌ شابٌّ و قال " رأيتُكَ تقرأ كيركيغارد و كنتُ أنا أقرأ هايدغر " و إنغمسْنا في مناقشاتٍ مستفيضة و عرفْتُ منه أنّه كنديٌّ يُدعى (آلان ديتوايلر) و أنّه يدرّسُ الموسيقى و بخاصّة أعمال المؤلّف الموسيقيّ السويديّ بيروالد Berwald، و عندما عرّجْنا في حديثِنا بمحض المُصادفة إلى ذكر خطاباتي في جمهور الفوضويّين في زاوية الهايدبارك إقترح عليّ أنّ من المناسب مقابلة صديقٍ له، و هكذا وجدْتُني بعد أيّامٍ قليلة أغذُّ خطاي نحو جادّة وارويك Warwick Avenue لمقابلة شخصٍ في منتصف العمر يتكلّمُ بلهجةٍ أوربّية متكسّرة و ترتسِمُ على وجهه إبتسامةٌ ودودة: كان الرّجل يدعى (ألفريد رينولدز Alfred Reynolds) و كان يقطنُ غرفةً محشورةً بالكتب و أسطوانات الغراموفون. كان ألفريد يهوديّاً هنغاريّاً أجْبِرَ مع نهاية الثلاثينات (من القرن العشرين) على مغادرة ألمانيا بتأثير القمع النازيّ و غيّر إسمه من (راينهارت) إلى (رينولدز) و عمل ضابط إستخباراتٍ في الجيش البريطانيّ، ومع نهاية الحرب العالميّة الثّانية عُهِدَ إليه بوظيفةٍ شاقّة تتمثّلُ في نزع المبادئ النازيّة من عقول الشّبيبة النازيّة، و حكى لي الرّجلُ كيف راح الشّبيبة الغاضبون في أوّل لقاءٍ له معهم يتطلّعون إليْه بغضبٍ و ينتظرون أن يتفوّه بعبارةٍ مثل " كان هتلر وحشاً " أو " النّازيّة شرّيرة " و لكنّهُ – وَعلى العكْس ممّا توقّعوه – تصرّفَ بكلّ هدوء و جلسَ على الكرسيّ في القاعة و طلبَ إليهم أن يحكوا لهُ عن سبب إنضمامهم إلى منظّمات الشّبيبة الهتلريّة

و إستمعَ إلَيْهم بكلّ تعاطفٍ و تفهّم و راح يطبّقُ الطريقة السّقراطيّة في جعلِ الطّرف المُقابل يدرِكُ تناقُضاته الشّخصيّة الّتي إرتكبَها، و هكذا ربحَ الرّجل قلوب هؤلاء الشّباب بحيثُ لم يتركْ أيّاً منهم و في قلبه شيءٌ من بقايا حنينٍ إلى النّازيّة و بادلهُ هؤلاء الشبابُ من جانبهم كلّ الإخلاص و الايمان بمبادئه في التسامح و التفهّم. صار ألفريد فيما بعدُ قائداً لمجموعةٍ تدعى (الجّسر Die Bruke) و الّتي غطّت تعاليمُها معظم أجزاء القارّة الأوربّية فيما بعد الحرب و إنخرط فيها الآلافُ من الشّباب، و لكن مع التحسّن الّذي طرأ على أداء الاقتصاد الألمانيّ بدأ الشّبابُ الشّغوفون بالمبادئ المثاليّة يُوجّهونَ إهتمامهم صوْب جني المال و إنحسرتْ حركة الجسر كثيراً و باتت تقتصِرُ على بضعة شبّانٍ يجتمعون بمنزل الفريد في لندن. طلبَ إليّ رينولدز إستعراض مهاراتي الخطابيّة بشكلٍ مباشر لذا ركبْنا الحافلة بإتّجاه الهايدبارك و مضيْتُ على الفور أعِظُ هناك في جمْعٍ غفير من الحُضور عن المبادئ المقدّسة للفوضويّة، و بعد نصف ساعةٍ من الكلام المُباشر و المُناظرة أقفلْتُ باب المناقشات و توجّهْتُ صوْب الفريد فوجدْتُهُ في غاية الإنشراح و إقترح فوراً أن أكون أحد قادة حركة الجّسر في إنكلترا، ثمّ إصطحبَني إلى شقّته و أعدّ لي عشاءً فاخراً – فقد كان طبّاخاً رائعاً أيضاً –، و بعد العشاء أكملْنا سهرتَنا بالحديث عن كلّ من توماس مان وَ هيرمان هسّه.

إقترح عليّ رينولدز حضور بعض إجتماعات جماعة الجّسر و لم أرَ ضيْراً في ذلك طالما أنّ مبادئ الفوضويّة كانت متوافقةً إلى حدّ كبير مع مبادئ تلك الحركة، و عندما حضرْتُ أوّل إجتماع لي في الحركة وجـدْتُ حوالي العشرين شابّاً مع شابّة رائعة الجّمال و قد إنحشروا كلّهم في غرفة رينولدز، و كان من عادة رينولدز أن يبدأ

الإجتماع المسائيّ بعزفِ بعض الموسيقى و هناك عرفْتُ بعضاً من أعظم المقطوعات الموسيقيّة: كونشرتو البيانو الأولى العظيمةُ لِـ (برامز)، وَ السمفونيّة الرومانتيكيّة لِـ (بروكنر)، و السمفونيّة التّاسعة لِـ (ماهلر)، و بعد الإنتهاء من سماع الموسيقى مضيْنا في إستراحةٍ لتناول القهوة و البسكويت، ثمّ راح رينولدز بعدها يتحدّثُ عن مبادئ العقل و التّسامح و فتح في ختام حديثه باب المناقشة، و هنا بدأتُ أختبرُ أولى شكوكي الحادّة تجاه الموضوع بأكمله: فقد كنتُ بكلّ جوارحي ميّالاً إلى العقل و التّسامح، و لكن هل كان بإستطاعة رينولدز فهمُ نوع الدّوافع الّتي يمكنُ أن تدفع أشخاصاً مثل (فلاكس هاليداي) أو (إرمغارد هاكمان) للبحث الدؤوب عن المعنى و المُغامرة وسْط حضارةٍ لاتوفّرُ إحساساً بوجودِ غايةٍ ما في الحياة ؟. كان ألفريد مُعادياً للدين بشدّة و كان لا يتردّدُ في كلّ الأحوال عن وصف الكهنة بكونهم (غرباناً سوداء)، و لكن هل أحسّ ألفريد بطبيعة الدّوافع الّتي حفّزت أشخاصاً دينيّين لتجرّع مُرّ العذاب مثلما حصل مع جورج فوكس George Fox **(قائد مسيحيّ بروتستانتيّ أنشأ جماعة الأصدقاء الدينيّة " الكويكرز " Quakers في القرن السّابع عشر، المترجمة)**، أو يوحنّا بُنيان John Bunyan **(وردت الإشارة إليه في فصل الحوار الموسّع مع كولن ويلسون، المُترجمة)** ؟ و رأيْتُ في إستبعاد رينولدز لهكذا رجالٍ مميّزين لمحْض صفتهم الدينيّة عملاً نزِقاً يفتقِدُ الذّكاء و البصيرة و كان من شأن هؤلاء جعلُ رينولدز يبدو بمظهر العقلانيّ السّطحيّ الأخرق، و عندما ناقشْتُ هذا الأمر مع رينولدز في حواراتنا الشخصيّة المنفردة أوّلاً ثمّ في إجتماعات جماعة الجسر لاحقاً بدا عليْه الإمتعاضُ المُفرط و طلبُ إليّ الكفّ عن حضور الإجتماعات و إنْ كنتُ على الدّوام ضيفاً مُرحّباً به وقت العشاء، و لكن لابدّ لي من الإعتراف بفضلِ

ألفريد في تعريفي بموسيقى بيروالد، و تعلّمْتُ منه عشق موسيقى برامز، و علمْتُ بأمر إنجاز بيتهوفن المسمّى (مطرقة البيانو Hammerklavier) و كذلك الرّباعيّة الأولى لِـ (راسوموفسكي Rasoumovsky).

كانت الشّابّة الرّائعة الجمال الّتي أشرْتُ إليْها سابقاً زوجةً لشابّ جميل الطّلعة يُدعى (ستيوارت هولرويد) و لعبَ دوراً مهمّاً للغاية – كما سأبيّنُ في فصلٍ لاحق – في تحفيزي لكتابة (اللّامنتمي)، و قدّمْتُ جوي إلى مجموعة الجَسر يوماً ما و أعجِبَ ألفريد لكوْنِها حاصِلةً على شهادةٍ جامعيّة و هو الأمرُ الّذي كان نادراً مع الفتيات تلك الأيّام، و حصل أن إصطحبَت جوي فلاكس هاليداي عندما كنتُ مُنشغلاً بالعمل مساء أحد الأيّام، و لسْتُ في حاجةٍ إلى وصْفِ أجواء الإستياء الّتي تسبّبَ بها فلاكس بين الحُضور بعدما تحدّثَ مُمجّداً الحرب و النّزعة العسكريّة.

* * * * * * * * * *

كان يتوجّبُ عليّ بموجبِ كلّ المعايير أن أعيش كصعلوكٍ متشرّد: إذ لمْ أكن قد إنتظمْتُ في أداء عملٍ لمدّة سنة كاملة كما كنتُ أعيشُ بلا منزلٍ يأويني للتملّص من دفعِ النّفقة القانونيّة لزوجتي السّابقة و للإيفاء بمتطلّبات طعامي فحسبُ، و لكنّي في كلّ الأحوال كنتُ لا أزالُ أحتفظُ بالمزاج الذّاتيّ – الّذي كان سمة طفولتي – و الّذي تعبّرُ عنه رغبتي اللامحدودة في إمتلاك حيّز يخصّني حيثُ يمكنُني العيشُ فيه بمُفردي مع أكوام من الكتب، و الحقُّ أنّني كرهْتُ كثيراً نومي خارج سقفٍ يأويني كما أضجرَني إفتقادي للنوم العميق إذ كنتُ أخافُ دوماً من إمكانيّة إنقضاض أحد المُتشرّدين عليّ و أنا أغطُّ في نومٍ عميق، أو أن يوقظني شرطيٌّ ليأمرَني بالإبتعاد عن محيط لندن (و حصل بالفعل أن أخبرَني شرطيٌّ يوماً بأنّ من غير الجائز حسب القوانين المرعيّة في إنكلترا أن ينام

فردٌ دونما سقفٍ فوق رأسه). كنتُ أستيقِظُ صباحَ كلّ يومٍ لأجد الشّمس تسطعُ فوق رأسي، و السّماء زرقاءٌ و صافية، و حديقة منطقة هيث خالية من المارّة، و ربّما كان لهذا المشهد أن يكون شعريّاً لي لو كنتُ في وضعٍ آخر و لكنّي لم أكن آنذاك قادراً على إبداء الحماسة المطلوبة بسبب رؤيتي للأمور من خلال غيمةٍ مضبّبة من الإجهاد العقليّ و الجسديّ.

عندما كنتُ أداوِمُ على القراءة في قاعة المُطالعة بالمُتحف البريطانيّ لم يكنْ ممكناً إغفالُ مُديرها الروائي أنغوس ويلسون Angus Wilson: كان للرجُلِ شعرٌ أشيب يمتدُّ من فوق جبهته بِإتّجاه الخلف، و أنفٌ دقيقُ الملامح، و صوتٌ ذو نبرةٍ عالية مميّزة تُرغِمُ كلّ مَنْ في القاعة إلى الإصغاء إليْه و هو يتحدّثُ عبْر الهاتف و يقولُ أشياء مثل " هل يمكِنُني الحديثُ مع جون غيلغود ؟،،، أوووه، هلو جون، هذا أنغوس يتحدّثُ معك،،،، ". نُشِرَت رواية أنغوس ويلسون (الشّوكران و ما بعدَهُ Hemlock and Beyond) عام ١٩٥٢ عندما كنتُ أقيمُ مع بيتي في نورث فينكلي، و أطرى حينها المُلحق الأدبي لصحيفة التايمز Times Literary Supplement الرّواية كثيراً وَ وصفها بكوْنِها واحدةً من أكثر الرّوايات براعةً منذ عهد روايات أوسكار وايلد و هو الأمر الّذي دفعَني إلى التّعجيل بطَلب شراءها من احدى المكتبات، و بعدَما قرأتُها وجدْتُها مُخيّبةً لي و لم أجد فيها ما يماثِلُ أعمال أوسكار وايلد، و ذكّرتْني الرّوايةُ على الفور – بنبرة السّخريّة المريرة الطّاغية عليْها – بعمل ألدوس هكسلي (نقطةٌ بمقابل نقطة Point Counterpoint). كان أنغوس ويلسون هو الكاتبُ الوحيدُ ذو الأعمال المنشورة الّذي أراه بعينيّ في حياتي و عندما رأيْتهُ لأوّل مرّة رحْتُ أتفحّصُهُ بدهشةٍ عجيبة، و حصلَ ذات يومٍ أن أمضيْتُ نصف ساعةٍ و أنا أبحثُ عن مقالةٍ كان إليوت كتبَها بشأن رواية يوليسيز و لم أعثر عليْها و عندها طلبْتُ

معونة أنغوس، و جاءني الرّجلُ فعلاً بالكتاب الّذي يحتوي على مقالة إليوت بعد أن أمضى ساعات الصّباح كلّها و هو يبحثُ بدأبٍ عنها بين أكداس القوائم، و تبادلْنا حينها حواراً طويلاً أخبرْته خلالهُ أنّني منغمِسٌ في كتابة رواية فعلّقَ قائلاً أنّ هذا الأمر يسرُّهُ و سيكونُ سعيداً بإطلاع ناشريه عليْها لو أنّها نالت إعجابهُ بالفعل (أعلمُ الآن أنّ مثل هذا الأمر لا يكونُ جدّيّاً في أغلب الأحوال إذ سبق أن قلت ذات الأمر للعديد من المؤلّفين الشباب، و أرى أنّ الأمر لا ينبغي له أن يُؤخذ على محْمل الجدّ أبداً)، و رأيْتُ أنغوس بعد ذلك بضع مرّات و لم نتبادلْ خلالَها سوى كلماتٍ قليلة.

إقتنصْتُ فرصة أيّام القراءة الثّمينة المُتاحةِ لي في المُتحف البريطانيّ بقراءة مبادئ الوجوديّة، و كنتُ إكتشفْتُ عمل روبرت بريتال (أنثولوجيا كيركيغارد) في مكتبة هولبورن العامّة و لكنّي كنتُ أعلَمُ القليل للغاية بشأن سارتر وّ كامو لذا مضيْتُ في قراءةٍ مُتتابعةٍ سريعةٍ لسلسلة أعمال مُنتخبَة: كتاب هيلموت كون Helmut Kuhn (لقاءٌ مع العدم Encounter with Existentialism)، وَكتاب غيودو روغيرو Guido Ruggiero (الوجوديّة Existentialism) و كان هجوماً كاسحاً على الوجوديّة، وَكتابُ بلاكهام Blackham (ستّة مُفكّرين وُجوديّين Six Existentialist Thinkers)، و كتابُ أيريس مردوخ الصّغير الرّائع عن سارتر (**يُشيرُ ويلسون هنا إلى كتاب " سارتر: العقلانيُّ الرّومانتيكيّ Sartre: Romantic Rationalist " المنشور عام ١٩٥٣، المُترجمة**)، وَ كتاب هايدغر Heidegger (الوجود و العدم Existence and Nothingness)، و كِتابَيْ سارتر (الغثيان Nausea) وَ (عصرُ العقْل The Age of Reason)،،، و كتبْتُ حينها مقالةً عن الوجوديّة لحساب مجلّةٍ تُدعى (Intimate Review) الّتي أصْدرَها صديقٌ لي من سوهو يدعى

(جون ريتي)، و سرعان ما أدركْتُ أنّني كنتُ وجوديّاً على الدّوام من غير أيّة معرفةٍ مسبّقةٍ لي بالأمر فقد كان سارتر وَ هايدغر يستكشِفان ذات المُعضلة الوجوديّة الّتي لطالما كتب عنْها دوستويفسكي وَ إليوت بل و حتّى غراهام غرين: هل أنّ الوجود البشريّ ينطوي على ذلك القدر الهائل الّذي يبدو عليْهِ من القسوة وَ الإفتقادِ إلى المعنى؟، و إنتهى كلٌّ من سارتر و هايدغر إلى أنّ الجواب هو " نعم " بينما كانت لديّ قناعةٌ عميقةٌ و غريزيّةٌ بأنّهما كانا مُخطِئيْن و كنتُ في موقِفي هذا مُتماهِياً مع غراهام غرين الّذي وصفَ كيف لعبَ لعبة روليتٍ روسيّة بمسدّسٍ محشوٍّ و كيف إختبرَ – بعد أن أخطأهُ الموتُ المحقّقُ بمجرّد ضغطة زنادٍ واحدة – دفقةً عارمةً من البهجة و بأنّ الحياة جميلةٌ و باعثةٌ على الدّهشة إلى حدودٍ لانهائيّة، و كنتُ أنا ذاتي قد إختبرْتُ ذات الأمر بعد مُحاولَتي الإنتحار و أنا في السّادسة عشرة، و حتّى سارتر نفسهُ كان علّق مرّة أنّه لم يشعرْ خلال حياته بالحرّيّة مثلما إختبرَها عندما كان في صفوف المقاومة الفرنسيّة و حيثُ كان يعرفُ أنّهُ عُرضَةٌ للإعتقال أو الموْت في أيّة لحظة. إنّ هذا الأمرَ يؤكّدُ بطريقةٍ حاسمة أنّ العائق الأعظم الّذي يُحجّمُ إمكانات الوجود البشريّ هو المستوى الواهِنُ للوعي البشريّ الّذي يغرقُ فيه النّاسُ بعيشٍ بليدٍ يجعلُ منهم كائناتٍ شديدة الهشاشة، و كان نوْمي داخل حقيبةٍ بمنطقةِ هامبستد هيث جعلَني أدركُ إمكانيّة زيادة دفق الحيويّة الّتي بداخلي و ذلك لتحسُّبي الدّائم من إحتمال أن يهزّني شرطيٌّ و أنا غارقٌ في النّوم ليأمرَني بالمغادرة، أو أن يُهاجمَني أحد المُتسكّعين الثّمالى، و كانت النّتيجةُ الحتميّة هو إختباري لحسٍّ فريد من نوعهِ بكوْني أكثر إمتلاءً بالحياة.

* * * * * * * * * *

بدا لي جليّاً أنّ جوي تحمّلت بعضاً من سوء الحظّ الّذي رافقَني تلك الأيّام مع مالكات السّكن: كانت جوي تتشاركُ السّكن آنذاك مع فتاةٍ فرنسيّة لذا لم أكن قادراً على قضاء الكثير من الوقْت معها، لكنّ مالكة السّكن كانت تسمحُ لهما بإستقبالِ زائريهم في غرفةِ الزّائرين، و حصل ذات يومٍ أن هطل المطر بغزارةٍ و إضطررْتُ على النوم فوق أريكةٍ في تلك الغرفة على أملِ أن أغادر مع أوّل ضياء الفجر، و هبطت الفتاة الفرنسية بعد منتصف اللّيل إلى الغرفة و تظاهرت بوقْع المفاجأة الثقيلة عندما علمت بوجود رجلٍ غريب نائم في الغرفة فرفعت شكوىً إلى مالكة المنزل، و إستاءَتْ جوي من سلوك زميلتها الفتاة و عقدت العزْم على مغادرة السّكن بأسرع ما يمكنُ و عثرتْ بالفعل على غرفةٍ عند الطّرف المقابل من شارع فيلوز رود و كانت أكثر قرباً لإحدى محطّات قطار الأنفاق، و كانت جوي في ذلك الوقت تعملُ في مكتبةٍ بمنطقة ستانمور Stanmore و كنتُ معتاداً كلّ صباحٍ أن أركب درّاجتي و أنطلق لتناول القهوة في غرفة جوي قبل ذهابِها إلى العمل ثمّ اتوجّهُ على الفور إلى مكتبة المتحف البريطانيّ، و بعد عدّة زياراتٍ إلى غرفة جوي أنفجرت بوجْهِها مالكة الغرفة و أمرتْها بإخلائها، و تلقّت جوي الأمر بسعادةٍ بالغة لأنّ المرأة كانت عصابيّة تصرخُ على الدّوام بوجْه أطفالِها، و وجدت جوي سكناً لها قريباً من مكان عملها في ستانمور، و رسّخت هذه الحادثةُ رأيي بشأنِ فظاظة مالكات السّكن و سوء سلوكهنّ. كان شهرُ آب يقترِبُ و أردْتُ مغادرة لندن لبعض الوقت و كان هذا يعني ضرورة حصولي على عملٍ يوفّرُ لي بعضَ المال، و كنتُ حينذاك أعتاشُ على بعض المال الّذي أقترضْتُهُ من جوي بعد حصولِها على مُنحةٍ لدراسة علم المكتبات و لكن توجّبَ عليّ إعادة ذلك المال في فترةٍ قصيرة، و علمتُ حينذاك

بوجود وظائف مؤقّتة بمرتّبٍ جيّد في مصنعٍ قريبٍ للألبان على الطّريق الغربيّ قريباً من أوسترلي بارك. كان العملُ في مصنع الألبان رتيباً و شاقّاً للغاية و يبدأ من السابعة صباحاً و يمكنُ أن يتواصلَ حتّى السّابعة مساءً لكَيْ يتسنّى لي جمعُ أعظمُ قدرٍ ممكن من المال، و كان عملي هو أن أرفع قدور اللبن الضّخمة وأضعها على حزامٍ متحرّكٍ طول الوقت، و عثرْتُ على حقلٍ قريب من المصنع لأنام فيه ليلاً، و بدأتُ بتعلّم اللغة اليونانيّة لكي أقلّل من رتابة العمل حيثُ كنتُ أحفظُ بعض المفردات في فترة الإستراحة و تناول القهوة ثمّ كنتُ أراجعُها أثناء العمل فإذا حصل و نسيتُ إحداها كنتُ أنظرُ على الفور في الكتاب المفتوح أمامي، و قابلْتُ حينذاك إمرأةً تدعى (غريس) كانت تعملُ في مطعم الشّركة و تدّعي معرفةً فائقة بأمور الفلك و التنجيم، و رغْم أنّ تدريبي العلميّ كان يدفعُني دوماً للتشكيك في أمثال هذه الأمور لكنّ الحقيقة تقتضي منّي الإعتراف بأنّ غريس أخبرتْني أموراً ماكان احدٌ يعرفُها عنّي سوى والدتي.

عثرْتُ ذات يومٍ – عندما كنتُ أعملُ في مصنع الالبان – عى نسخةٍ من رواية كامو المعنوَنة (اللّامنتمي) في مكتبة تشيسويك Chiswick العامّة و إجتذبَني العنوانُ على الفور إذ كنتُ أظنُّ أنّني الوحيدُ الّذي إستخدم اللامنتمي في ذات السّياق الّذي إستخْدمَهُ كامو، و كانت الروايةُ قصيرة حتّى أنّني قرأتُها في جلسة قراءةٍ مسائيّة متّصلة، و أضفْتُ الكتاب على الفور إلى سلسلة كتُبي عن اللامنتمي الّتي كنتُ راكمْتُها في مكتبتي المنزليّة في ليستر منذُ عام ١٩٥٠.

بعد بضعة أسابيع من العمل في مصنع الألبان جمعْتُ ما يكفيني من المال لتسديد ديْن جوي و الإستمتاع بصُحبتِها في إجازةٍ لمدّة

أسبوع في كورنوال، و من المُثير للغرابة أنّنا نصبْنا خيْمتَنا في حقلٍ يبعدُ أقلّ من نصف ميلٍ عن منزلنا الريفيّ الّذي إشتريْناه في كورنوال لاحقاً، و تمتّعْنا كثيراً في إجازتِنا تلك و إشتريْنا نسخة من كتاب نورواي المسمّى (الطّرُقات السّريعة و الفرعيّة في ديفون وَ كورنوال Highways and Byways in Devon and Cornwall) و راحَ كلّ منّا يقرأُ للآخر و بصوتٍ عالٍ أساطير الجبابرة و العمالقة و العفاريت و الأسطول الإسبانيّ العظيم (الأرمادا Armada). أعترضتْني خلال إجازة كورنوال لحظةُ إستبْصارٍ لا زلتُ أتذكّرها حتّى اليوم: كنّا انا وَ جوي خائفيْن من إحتمالِ أن تكونُ حاملاً، و إنتابَني ذات الشعور السّابق الّذي غمرَني قبل بضع سنواتٍ و رأيْتُ نفسي مُطارَداً لا يهدأُ له بالٌ، و مرّت الأيّام الأولى من الإجازة و هي ثقيلة الوطاة عليْنا رغمَ أنّني كنتُ سعيداً للغاية بوجودِ جوي معي و كنتُ أرى فيها تميمةً للحظّ السّعيد الّذي ينتظرُني لامحالة، و راح عقلي يحدّثُني فيما لو كان شعوري بالسعادة محض خداعٍ ذاتيّ: فكيف سيكون الأمرُ لو ثبت أنّ جوي حاملٌ ؟ عندها لا يكونُ أمامنا سوى العودة الفوريّة إلى لندن و البدء في إجراءات إسقاط الحمل من حمّامات ساخنة و القفز المتوالي من المنضدة، و عندما كنّا في بلدة تايغنماوث إنزوَتْ جوي لنصْف ساعةٍ في دورة المياه، و بعدما خرجَت ذهبْنا للتجوّل على الرّمال بإتّجاه الجّسر المُشيّد على النّهر و أخبرْتُها " أعتقدُ أنّ من الأفضل أن نعود إلى لندن غداً "، و هنا بدا عليْها الإرتباكُ للحظةٍ و أجابت " لندن؟؟ كلّا،، لا حاجة لذلك أبداً،،، فقد جاءتْني منذُ ساعةٍ مضت !!! "
و كان هذا نمطاً نموذجيّاً لسلوك جوي إذ أنّها نسيت إخباري مسألة في غاية الأهميّة بالنسبة لي، و فجأةً بدأتُ أتطلّعُ بإتّجاه إكسماوث و عندها بدا البحرُ أمامي جميلاً إلى حدودٍ أسطوريّة، و وجدْتُ

نفسي أتمتمُ: أهااا، هذا لأنّك وجدْتَ راحةً من بعْد ضيق، ثمّ أعدْتُ النّظر إللى البحر و تمتمْتُ ثانية: لا،، البحرُ جميلٌ بذاته حقّاً !!. ما أدهشَني بكلّ وضوحٍ آنذاك أنّ ما كنتُ أراهُ حقيقةً ماثلةً أمام عينيّ -العمقُ الرّائع للغموض و الجمال و السّحر في البحر أمامي – كان حقيقةً موضوعيّة موجودةً حيثُ هي طول الوقْت، و أنّ المعنى هو مُعطى موضوعيٌّ كما لو أنّ الطّبيعة لا تكفُّ عن إخبارِنا بالحقائق دوماً، و أنّ آليّة الشدّ و الإرتياحِ الّذي يعقبهُ هي فعاليّةٌ أزاحت جانباً القناع عن المشهد الموضوعي الّذي امامي بالضّبط كما تُزاحُ ستارة المسرح كاشفةً عن المشهد الّذي تجري وقائعهُ على الخشبة، و لكن إذا كان الأمرُ يحصلُ بآليّةٍ كهذه ينبغي للمرء حينئذٍ أن يكون قادراً على حثّ نوعٍ من تجربةٍ تماثِلُ النشوة المقترِنة بالرؤية التصوّفيّة و بكلّ بساطةٍ عن طريقِ رؤية الأمور كما هي و من غيْرِ أقنِعةٍ تحجُبُها، و لكن كيف ؟ الجوابُ عن طريقِ تعلُّم إعادة إنتاج العمليّة العقليّة الّتي تكفُلُ إزاحة السّتائر الّتي تحجُبُ عقولَنا عن رؤية الحقيقة الموضوعيّة.

لم تكن بصيرتي في هذا الصّدد شيئاً جديداً عليّ تماماً: إنّها هي ذات الإكتشاف الّذي كان بليك Blake إختبرَهُ من قبلُ عندما قال بأنّ الأشياء تستحقُّ أن ينظَرَ لها كأشياء لانهائيّة متى ما أُزيحت كلّ السّتائر الّتي تحجُبُ مجسّات الإدراك، و عند تلك النقْطة المحدّدة تولّى تدريبي العلميّ تفسير الإشكاليّة بطريقتي الخاصّة، إذ تساءلْتُ: ما طبيعةُ الفعل العقليّ الّذي يمكنُهُ إزاحةُ الحُجب عن الإدراك البشريّ ؟ إنّ الكائنات البشريّة يمتَلكون بحوزتِهم قدراتٍ عظيمةً ترفعهم فوق مستوى الحياة الحيوانيّة، و لا تقتصرُ هذه القدرات على بلوغ تخوم البهجةِ الفائقة عن طريق الشّعر و الموسيقى بل ثمّة آمرٌ آخر: قدرة هذه الكائنات على بلوغ قمّة النشوة الجنسيّة في غياب وجود أيّ موثّر جنسيّ، و ليس

ثمّة كائنٌ غير الإنسان من يستطيعُ الإتيان بهذا الفعل عن طريق تخليق أنماط معقّدة من الإستجابات العقليّة بوساطة فعل الخيال وحده، و بذات الطريقة ليس ثمّة من سببٍ يمنعُ الإنسان من تعلّم كيفيّة إزاحة حُجُب اللامُبالاة و التعوّد البليد الّتي تحجبُ عنه الحقيقة، و هي ببساطة مسألة تعلّم إعادة آليّة إنتاج الفعّاليّة العقليّة الخليقة بكشف الحقيقة الموضوعيّة، و لكن ما السّببُ وراء شعوري بسعادة غامرة حينما تدفعُني نغمةٌ ما أو رائحةٌ ما إلى إستذكار الماضي ؟ لانّني غدوْتُ مُدركاً لثراء الحياة و ما تنطوي عليْه من الإمكانيّات الهائلة للتنوّع و الإختلاف، ثمّ مضيْتُ خارج غرفتي الضيّقة الّتي تتّسِمُ بالذاتيّة الضيّقة، و عندما يصطادُني فخّ تلك الغرفة يكون شعوري أن لاشئ يستحقّ المُحاولة و الفعْل و يكون من شأن أتفه المُضايقات اليوميّة أن تجعلَني أنزلِقُ في قعْر اليأس و القنوط، و حينئذٍ يمكنُ لحادثٍ صغير مثل الحادثة التي ذكرها بروست عندما غمس قطعة بسكويت في فنجان الشّاي (ثمّة تفصيلٌ لهذه الحادثة في فصل الحوار مع الكاتب، المترجمة) أن يُذكّرني بوجود الآخرين و يستحيلُ الحادِثُ في نهاية الأمر مثل ضحكةٍ عظيمة تزيحُ كلّ المشاعر السلبيّة الّتي تدفعُني للإنغلاق و التعايش مع قنوطي، و تغمرُني في إحتكاك مباشرٍ مع شئٍ أكثر جوهريّةً بكثيرٍ من محض ذاتي الّتي لطالما تعاملْتُ معها. أ ليس هذا هو السرّ وراء كلّ الشّعر ؟ أ ليْس هذا هو السّبب الّذي جعل شيللي يشعرُ بالإنبهار أزاء القوّة العظيمة الكامنة في الرّيح الغربيّة ؟

* * * * * * * * * *

بعْدُ أن عدْنا إلى لندن حصلْتُ على عملٍ في مطعم (ليونز كورنر هاوس) بشارع كوفنتري و كان عملي آنذاك بوّاباً للمطبخ، و رأيتُ

العمل ممتعاً بما يكفي فقد كنتُ أحصلُ على طعام مجّانيّ جيّد و بدأ وزني يتراكم، و الذّكرى الوحيدة السيّئة الّتي تجعلني أرتجِفُ متى ماتذكّرْتُها هي ذكرى عجوزٍ لندنيّة برِمة بالحياة و تبدو متوجّعة و متقزّزة طول اليوم، و حصل ذات يومٍ أن رأتْني هذه العجوز الوقحة أتناولُ شيئاً من كيكةٍ بالكريمة فأبلغت عنّي مديرة المطعم على الفور، و مع أنّ المديرة لم تفعل شيئاً أكثر من قليلٍ من التّوبيخ لكنّ إحتقاري للعجوز بلغ بي حدّاً جعلني أتمنّى ضرْبَها و عندها قرّرْتُ ترك العمل في المطعم، و مضيْتُ أفكّرُ كم كانت حياة تلك العجوز كئيبةً و مفتقِدةً للمعنى و أنّها هي من إختارت أن تتّخذ موقفاً سلبيّاً و تبقى ملتصقةً بقيمِها الصغيرة و عندها ترسّخ إدراكي بحقيقة " أنّ الكائنات البشريّة تموتُ داخل زنزانة سجْنٍ تخلقُها ذاتُ تلك الكائنات إلّا إذا إبتغتْ خلاصاً يقومُ على توجيه كل طاقاتها نحوَ خارج ذواتها المُغلقة سعياً وراء هدفٍ غير شخصيٍّ ". مضيْتُ كعادَتي في النّوم داخل حقيبة نومي بمنطقة هامبستد هيث و كنتُ أختارُ دوماً ذات المكان تحت شجرةٍ عند منحدرٍ صغير، و لكن عندما صارَ الجّو أكثر ميلاً للبرودة قرّرْتُ البحث عن غرفة للإيجار، و كانت مشكلتي مع حقيبة النّوم هي أنّها لم تكن تسمحُ بتسريب العرق لذلك كانت تبدو مبلّلة في الصّباح كما لو أنّ مياه الأمطار قد تسرّبت إليْها، و عثْرْتُ في نهاية الأمر على غرفةٍ في منطقة بروكلي Brockley قرب محطّة نيوكروس، و كانت مالكة السّكن سيّدة لندنيّةً بدينة أفضل من سابقاتها إلى حدّ لا تجوزُ معه وضعُها موضع المقارنةِ معهنّ، و أخبرْتُها أنّ جوي زوجتي و أنّها تدرسُ علم المكتبات و لا تستطيعُ قضاء سوى عطلات نهاية الأسبوع معي، و مع أنّها عرفت بأنّني لم أكنْ أقولُ الحقيقةَ لكنّها لم تهتمّ للأمر أبداً.

إختبرْتُ تلك الأيّام طوْراً من الإهتمام بالموضوعات التصوفيّة، و لحسْن حظّي فإنّ مكتبة بروكلي العامّة كانت تحتوي مجموعةً من أفضل كتب التصوّف في لندن و كان معظمُ تلك الكتب محفوظاً في الطابق السفليّ من المكتبة و لم يكن يُسمحُ بإعارتِها خارج المكتبة، و كان ثمّة سؤالٌ أساسيٌّ آنذاك يشغلُ تفكيري أكثر من سؤالٍ سواه: ما الّذي يمكنُ للإنسان المُعاصر أن يفعلَهُ وسْط حضارةٍ مثل حضارَتنا لا تمتلكُ رمزاً حقيقيّاً للقيم الروحانيّة ؟. كان في وسْعِ المرء إبان القرون الوسطى – لو كان ذا مزاجٍ يشابهُ مزاجي – أن ينخرِطَ في حياة زاهدة داخل أروقة أحد الأديرة، و لكنّ الأمر إستلزم منّي عشر سنواتٍ إخرى – و ربّما أكثر – لكي أتعلّم التمييز بين جوهر الدّين و بين طقوسيّاته المُرعِبة، و غدوْتُ متّفقاً مع إليوت في ضرورةِ أن يكون الدّينُ شيئاً يمكنُ للجميع أن يروْهُ و أن يلمسوه تماماً مثل الإنحدار العظيم لبرجِ كاتدرائيّة مهيبة بنوافذه الزّجاجيّة الملوّنة، و تراتيل الرهبان على ضوء الشّموع، و المواكب الضخمة للناس المُرتدين ملابس أرجوانيّة و فضّيّة وسط رائحة البخور المحترق، و لكلّ هذه الأسباب كنتُ ميّالاً بكلّيّتي إلى الكاثوليكيّة و لطالما أخبرْتُ جوي برغبتي في دخول ديْرٍ في أحد الايّام القادمة و لم يكن هذا لتوْقي إلى حياة البتوليّة و الرأس المحلوق بل لمحْض رغبتي في إيجاد طريقٍ لي في الحياة يتوافقُ مع دوافِعي الدّاخليّة: أردْتُ الإفلات من قبضة حضارتِنا الحاضرة الّتي أرغمتْني على الإستسلام لإعتباراتها المادّيّة و كان شعارُها المعلنُ أنّ " الإنسان كائنٌ إجتماعيٌّ " أوّلاً و قبل كلّ شيء آخر.

قبل أعياد الميلاد من تلك السّنة إشتريْتُ آلةً كاتبةً قديمة من أحد أصدقاء بيل هوبكينز في مقابل سبع جنيهات و مضيْتُ على الفور في نسْخ القسم الاوّل من كتابي (طقوسٌ في الظّلام)، و تركْتُ عملي

حينذاك في مطعم ليونز قبيْل أعياد الميلاد عام ١٩٥٤ و مضيْتُ للعمل في مكتب البريد بمنطقة (غراند سانت مارتن) و قضيْتُ أعياد الميلاد و أنا مُنغمِسٌ بالكتابة وَحيداً في غرفتي بعد أن كانت جوي غادرت لرؤية والديْها اللّذيْن كانا ميّاليْن أنذاك للمصالحة معي و راحا يطلبان منّي الزّواج من جوي، و كنتُ في تلك الأيّام أشعرُ بوهَنٍ عظيم ما لمْ أكُنْ أعملُ على كتاب الطّقوس، و حصل ذاتَ يوم – و بعدَ أن تناوَلْتُ غداءً من بيضةٍ و قطعة لحم مُقدّد و طماطم معلّبةً – أن إنغمسْتُ في وضْعِ مخطّطٍ أوّليّ لكتاب " اللّامنتمي " الّذي كنتُ خطّطْتُ لكتابته قبل زواجي من بيتي، و بعْدَ أن قرأتُ كتاب اللامنتمي لِـ (كامو) صرْتُ مفتوناً للغاية بصورة البَطَل السلبيّ غير الفاعل: الشّخص الّذي يكتفي بالتدخين، و بممارسة الحبّ، و التسكّع تحت أشعّة الشّمس فحسبُ و تذكّرْتُ من فوري كريبس Krebs: بطل قصّة همنغواي (منزل الجنديّ Soldier"s Home) الّذي يختبرُ إحساساً باللّامُبالاة المُطلقة بعْدما يعودُ إلى منزله في الغرب الأوسط الأمريكيّ عقب نهاية الحرب العالميّة الأولى، و إستدْعت صورةُ كريبس لديّ بدوْرِها صورةً أخرى هي أوليفر في مسرحيّة غرانفيل باركر (الحياة السّرّيّة The Secret Life) و بدأ آنذاك شئٌ ما يتشكّلُ في عقلي و كتبْتُ في أعلى صفحةٍ من صفحات يوميّاتي " ملاحظاتٌ أوّليّة بشأن فكرة اللّامنتمي في الأدب: ينبغي التّركيز على فكرة أنّ اللّامنتمي هو دليلٌ لنمطٍ خاصّ من الإرتقاء الاخلاقيّ الّذي يبحثُ عن أرقى نماذجه في التقاليد المسيحيّة "، و ما أن فتح المتحفُ البريطانيٌّ أبوابه في السّنة الجّديدة حتّى سارعْتُ بركوب درّاجتي و مضيْتُ لأبدأ الكتابة في كتاب (اللّامنتمي) و كنتُ توّاقاً للغاية لرؤية أنغوس و لكنّه كان في إجازةٍ تمتدُّ لشهْرٍ كامل، و بينما كنتُ في طريقي إلى المتحف البريطانيّ

إستذكرْتُ الكاتبَ (هنري باربوس): فقد كتب في مقدّمة كتابه (في مرْمى النّار Under Fire) أنّ نجاحهُ الرّوائيّ الاوّل كان مع كتاب (الجّحيم Hell) الّذي يحْكي فيه عن رجُلٍ يكتشفُ ثقباً صغيراً في أحد جدران غرفته و يمضي في قضاء كلّ وقته و هو يراقِبُ العالم من خلال ذلك الثّقب، و بدا لي ذلك الرّجل نموذجاً مثاليّاً لفكرة الّلامنتمي، و في الّلحظة الّتي وصلْتُ فيها المتْحف مضيْتُ على الفور إلى المكتبة و طلبْتُ نسخةً من كتاب الجحيم لباربوس و عندما جاءتْني النسخةُ قراتُها في جلسةٍ ممتدّة واحدة من الصّباح و حتّى المساء، و بعد أن غادرْتُ المتحف في حوالي الخامسة مساءً كنتُ أدركُ بكلّ يقين أنّ البداية المُناسبة لكتاب اللامنتمي صارت في حوْزتي.

كانت قد مضتْ سنواتٌ عدّة و أنا أواظبُ على تسجيل يوميّاتي بإنتظامٍ و كنتُ أسجّلُ كلّ ما يحوزُ إنتباهي و أراهُ مهمّاً في الكتب الّتي أقرؤها مُحاولاً إيجاد رابطةْ من نوعٍ ما بين الأعمال المختلفة من أدب اللامنتمين و بين تجاربي الشخصيّة، و كنتُ أحتفظُ بيوميّاتي قريبةً منّي و أنا أكتبُ و إمتلأت اليوميّاتُ بأكداسٍ من ملاحظاتٍ متنوّعة: رامبو، و أكسيل، و راسكولنيكوف، وَ ستيبينوولف، وَ ريلكه، وَ نيتشه، وَ كتاب نيبورNiebhuhr (طبيعةُ الأنسان وَ مصيره Nature and Destiny of Man)، وَ ميستر إيكهارت، وَ راماكريشنا، وَ جورج فوكس، و كانت النسخة الأوّليّة من الطقوس تحتوي إشاراتٍ غامضة إلى كلّ هؤلاء و لكنّي وجدْتُ في نهاية الأمر أنّ من غير المناسب أن تكون روايتي مثقلةً بهذا النّوع من الغموض. ثمّة بصيرةٌ أخرى راودتْني و أنا أمشي بصحبة بيل هوبكينز قريباً من محطّة تشيرينغ كروس لقطار الأنفاق، إذ بينما كنتُ أتحدّثُ إلى بيل بشأن عقدة روايتي (طقوسٌ في الظّلام) أوضحْتُ له أنّ شخوصها

الرئيسيّة الثلاثة تمثّلُ بالضّبط ثلاثة أنماطٍ مختلفةٍ من اللامنتمي: البطل جيرارد سورم Gerard Sorme يُمثّلُ اللامنتمي ذا القدرة العقليّة المنضبطة مثل نيتشه و لكنّه يفتقدُ السّيطرة على جسده أو عواطفه، و الرسّام أوليفر غلاسب Oliver Glasp الّذي كان ذا إنضباطٍ عاطفيّ صارم مثل فان كوخ و لكن يفتقِدُ السّيطرة على عقله أو جسده، و أخيراً القاتلُ أوستن نَنْ Austin Nunne الّذي كان له إنضباطٌ جسديٌّ هائلٌ مثل نيجينسكي و لكن تعوزهُ السّيطرة على عقله و عواطفه، و لو أتيحَ لنا جمعُ هذه الأنماط الّلامنتمية الثلاثة في كائنٍ واحد لكانوا شكّلوا كائناً بشريّاً متكاملاً عوضاً عن ثلاثِ كائناتٍ غير كاملة. كان دوستويفسكي قد إستخدمَ من قبلُ الأخوة كارامازوف في محاولتهِ عرْضَ ذات الموضوعة بطريقةٍ رمزيّة: إيفانُ يمثّلُ العقل، وَ ميتا يمثّلُ الجّسد، و إليوشا يمثّلُ العواطف، و هذا هو السّبب الّذي جعلَ من الأخوة كارامازوف تشغِلُ حيّزاً أساسيّاً في كتاب اللامنتمي.

٩. الإنعطافة

علمْتُ أواخر كانون ثانٍ ١٩٥٥ أنّ مقهىً جديداً فتح أبوابه في منطقة (هاي ماركت Haymarket) و أنّه في حاجة لتوظيف طواقم خدمة، و بعد مراجعتي لإدارة المقهى قُبِلْتُ فعلاً كغاسل صحون و كانت العبارة الإفتتاحيّة في دفتر مذكّراتي و المكتوبة في ٤ شباط من ذلك العام تَبدأ كالتالي: " هذا الصباحُ هو أجمل صباحٍ أعيشه منذ تشرين ثانٍ المنصرم: فقد كنتُ قادراً على المكوث في فَراشي و أنا أقرأ و أتناولُ القهوة و أتمتّعُ بمشاهدة الطبيعة الجميلة عبر النافذة المفتوحة حيث أشعّة الشمس تغمرُ كلّ مكانٍ في غرفتي. العملُ في المقهى خلال أوقات العصر يُناسِبُني تماماً و لم أتعب من العمل بعدُ و لسْتُ في حاجةٍ لإستنفاد طاقتي إذا أخذْتُ نفسي بإنضباط صارم و لم أسمح للوقت بأن يتسلّل من بين يديّ من غير فائدة. يوفّرُ لي المقهى ساندويتشاتٍ أجلبُها معي للمنزل و أتناولُها طول اليوم و هكذا أوفرُ على نفسي عبء شراء الطعام،،،،، "، و ربّما يكونُ من المناسب هنا الإشارةُ إلى أنّ عبارة " أخذ نفسي بإنضباط صارم " إنّما أقصدُ منها صدّ نفسي من الإنزلاق في وهدة الضجر و الملل بصرف النظر عن مدى التعب الّذي أكونُ قد بلغته. كان العمل في المقهى أكثر الأعمال الممتعة الّتي عملْتُ فيها حتّى ذلك الحين فقد كانت تلك هي الفرصة الأولى منذُ تركي المدرسة و الّتي أتيح لي فيها العملُ مع من هم أقراني في العمر و الّذين كانوا في معظمهم طلّاب دراما أو فنون كما كان جوّ المقهى في العموم مُبهِجاً للنفس: إذ كان ثمّة نافورةُ ماءٍ ضخمة

تتوسّطُ المقهى و مصنوعة من طبقاتِ زجاجٍ ملوّن مرتّبةٍ بزوايا تُتيحُ للماء العودة إلى الحوض الّذي يتوسّطُ النافورة، و سُمِح لنا بأن نأكل و نشرب ما نشتهي و بالقدر الّذي نشاء، و لحسْن حظّنا كان من يقومُ على إدارة المقهى إمرأةٌ بوهيميّة كثيرة الحركة و الكلام و تحبّ عملها كثيراً كما كانت تُبدي الكثير من الرغبة في توظيف المعتلّين جسديّاً بدافع مساعدتهم لأنّها كانت تشعر بالكثير من الشفقة تجاههم.

إعتدْتُ أن أقود درّاجتي عصر كلّ يوم من المتحف البريطانيّ صوب المقهى الّذي أعملُ فيه، و بعد وصولي المقهى كنتُ أحملُ درّاجتي و أهبطُ بها في سلّم يقودُني إلى السرداب حيثُ كنتُ أعمل، و بعد بضعة أسابيع من عملي سُمِحَ لي بترك العمل كغاسل صحون و الإنتقال إلى مهنة حسابيّة أقلّ مشقّة، و كان العمل في المقهى عموماً غريباً عليّ كلّياً و مختلفاً عمّا إعتدْتُهُ من قبلُ: فقد وجدْتُ الأجواء في المقهى أكثر تحضّراً و إمتاعاً عمّا إختبرْتُهُ من قبلُ. جعَلَني عملي في المقهى أشعرُ بإسترخاءٍ عميق كنتُ أفتقدُهُ من قبلُ و مضيْتُ أستغلُّ أيّامي في المتحف البريطانيّ و أنا أكتبُ "اللامنتمي" بسرعةٍ هائلة لأنّني كنتُ فكّرتُ في موضوعات الكتاب منذُ سنواتٍ خلت ثمّ كنتُ أواصلُ عملي في المقهى منذ الخامسة و النصف مساءً و حتّى الحادية عشرة و النصف ليلاً. عندما كانت الجموعُ تغادرُ المسرح القريب من المقهى عند العاشرة كانت وتيرةُ العمل تشتدّ فجأة و ينقلِبُ المقهى خليّة نحلٍ مزدحمة و كان يتوجّبُ عليّ توجيهُ نظري بدقّة لكي أديم عمل أربع آلاتٍ لصنع القهوة في ذات الوقت.

عندما إنغمسْتُ في كتابة "اللامنتمي" إنتابَني شعورٌ بدهشةٍ عظيمة: فقد كانت الأفكارُ تتدفّقُ من رأسي كما تتدفّقُ اللافا Lava

المنصهرة من فوهة بركان متفجّر و كنتُ أعلمُ أنّ ما أكتبهُ حسنٌ و مقبولٌ إلى حدّ مُقنعٍ لي و رأيْتُ ذاتي منعكسةً في حياة كلّ من كتبتُ عنه: فان كوخ، نيجنسكي، نيتشه، إي. تي. لورنس،،،،، و كنتُ مهووساً بالكتابة عنْ كُتّابٍ أعتُبِروا حتّى ذلك الحين نصف منسيّين من أمثال: غرانفيل باركر Granville Parker، ليونيد آندرييف Leonid Andreyev، هيرمان هيسّه Herman Hesse،،، و الحقّ أنّ معظم كتب هسّه أعيدت طباعتُها بعد صدور اللامنتمي كما كتِبَ الكثيرُ من الكتب عنه و قد قرأتُ معظم هذه الكتب و للأسف لم أجد في أيٍّ منها ما يشيرُ إلى كتابي و تعليقاتي بشأن هسّه. كانت الثيمةُ الأساسيّة في " اللامنتمي " تحكي عن المُبدعين الّذين يشعُرون بأنّهم مهمّشون في (صراع الفئران) الّذي يَسِمُ الحياة في الحضارة الحديثة، و ثمّة إحساسٌ طاغٍ أنّ فكرة " اللامنتمي " تكمنُ في مقطعٍ محدّد من كتاب لورنس (أعمدة الحكمة السّبعة The Seven Pillars of Wisdom) وَيحكي فيه الرجل عن مشاعره الجيّاشة و هو ينطلقُ نحو الصحراء مع الفجر بصحبة بعض البدو الأشدّاء: ".... إنطلقْنا خارجاً فجْرَ أحد الأيّام الأكثر صحواً و كانت الأجواء كفيلة بإيقاظ الحواس الخامدة و دفعها إلى أعلى مراقيها و هي تغتسلُ في ضوء الشمس بينما كان المثقّفُ المستنفد القوى من تعب فكره الليلة الماضية لا يزالُ يتمطّى بتكاسُلٍ في فراشه، و لِساعةٍ أو ساعتيْن في ذلك الصّباح النديّ كانت الأصواتُ و شذا الروائح و بهجة الألوان في ذلك المكان تطرُقُ عقل كلّ فردٍ منّا على حدة و بصورة مباشرة، و بدت تلك الروائحُ و الألوان مكتفيةً بوجودها و لم يكن ثمّة غضاضةٌ فيما يعتبرُهُ البعضُ مثلبةً في تصميم الطبيعة و ترتيبها البدائيّ الّذي لم تمسسْهُ يدُ بشر في تلك البقعة القصيّة من العالم......"، و قد إختبرْتُ أنا بنفسي في مُراهقتي ذلك النوع

من الصّباحات المُبهجة عندما كنتُ أنطلِقُ بدرّاجتي نحو واروِيك Warwick أو ستراتفورد Stratford أو ماتلوك Matlock،،، و أعرفُ تماماً ما تعنيه تلك المتعة الخالصة: الإحساسُ بانّ كلّ المآسي و الشقاء في العالم ليست شيئاً ذا بالٍ و لا تستحقُّ أن تستحوذ على تفكيرنا و يمكنُ ببساطةٍ غضّ الطرف عنها و الإندفاع في الحياة بتفاؤلٍ و غبطة، و قد سبق للكاتب الألماني غوتفريد بين Gottfried Benn أن وصف هذا الشعور بتعبير (الإدراكُ الأوّلي Primal Perception) حيثُ يبدو معه كلّ شيءٍ جديداً و مشعّاً بحقيقةٍ غير مختبرة من قبلُ و ينتابُنا حينذاك شعورٌ بأنّ مشاكلنا ليست أكثر من ميْل عقولنا في إسقاط أفكارها على العالم تماماً مثلما يكونُ عليْه الحال عندما نمسكُ بورقةٍ بيضاء ناصعةٍ و نعمدُ إلى تلطيخها بأصابعنا الملوّثة و هذه هي الحقيقة بالضبط الّتي أردْتُ الكتابة عنها في اللامنتمي: إنّ حقيقة القتامة و اليأس الّتي نشعرُ بها في حياتنا ستمكثُ بعيدةً عن عقولنا عندما نفهمُ القوى الخفيّة الّتي يمتلكُها العقلُ البشريّ، و هذا هو الأمرُ الّذي جعلَني أعيرُ إنتباهتي إلى حقيقة أنّ اللامنتمي ليس بالضرورة فرداً مُبدعاً بل يمكنُ أن يكون أيّ فردٍ جعل منه غيابُ الفهم الذاتيّ لإمكاناته الدفينة فاقداً للحس التطهيريّ الساحر الّذي تنطوي عليه عمليّة الخلق في أيّ مجالٍ كان، و إذا كان فان كوخ أو نيتشه أمثلةً لُمبدعين إستحالوا شعلةً وهّاجة في سبيل توكيد إمكاناتهم الخلّاقة فإنّ الكثيرين غيرهم من اللامنتمين إكتفوا بإطلاق سحابةٍ سوداء خنَقتْهُم هم مع هؤلاء الذين حولهم.

كنتُ في غايةً الثقة المفرطة بنفسي عندما كتبْتُ اللامنتمي و تُشيرُ عبارة في مذكّراتي آنذاك إلى الكلمات التوكيديّة التالية " هذا الكتابُ سيكون الأرض الخراب Wasteland لعقد الخمسينات، و الكتاب الأهمّ بين جيله من الكتب... ".

وجدْتُ العمل في المقهى مع طلبة الدراما الصّغار الجذّابين ممتعاً للغاية و بدأتّ بممارسة بعض الغزل الخفيف مع الفتيات الصغيرات الفاتنات و لكن بقيت جوي – الّتي كانت لا تزالُ تدرسُ لتكون مسوؤلة مكتبة في إيلينغ Ealing – هي المركز و القلب في كلّ عالمي و إهتماماتي و كانت تأتي للمكوث معي خلال أوقات عطل نهايات الأسبوع فقط، و رغم أنّ المرء متى ما وجد نفسه مُحاطاً بفتياتٍ مُغوِياتٍ يوماً بعد يوم و أسبوعاً بعد أسبوع فإنّ ثمّة فرصة قويّة لكي تتطوّر تلك المُغازلاتُ إلى شكلٍ أكثر حميميّة من العلاقة !! لكن لم أسمح لأيّ من تلك الإغواءات أن تلوّث علاقتي مع جوي. إعتدْتُ حينذاك على العودة مشياً إلى شقّتي المتواضعة صحبة فتاةٍ جميلة و هادئة تدرسُ الفنون و تدعى (مارينا) و كانت تسكنُ في غرفةٍ قرب محطّة فيكتوريا بارك و كانت تُشارِكُها فيها فتاةٌ تدعى (سينثيا)، و حصل و قبلْتُ دعوتهما مرّة أو مرّتيْن لتناول الشاي في غرفتهما و كنتُ حينذاك على درايةٍ كاملة بأنّ النساء و الرجال الأصحّاء يُبدون توقاً قويّاً نحو الجنس بذاته بصرف النظر عن رغبتهم في إدامة علاقاتٍ دائميّة: فقد كانت لديّ آنذاك علاقتي الدائميّة مع جوي و لم يكنْ ممكناً لأيّ شيءٍ آخر أن يحطّم هذه العلاقة أو يسئَ إليها بأيّ شكل. حصل عندما كنتُ أقفُ وراء عدّاد فناجين القهوة أن إلتقيْتُ بالكثير من الفتيات الجذّابات و كانت إحداهنّ فتاة شقراء جميلة في السابعة عشرة من عمرها قدّمت نفسها لي باسم (كارول آن) و رأيتُها فتاةً رائعة الجسد و مُغوية و كانت تدرسُ الدراما في معهد البوليتكنيك الواقع في ريجينت ستريت كأغلب الفتيات اللواتي كنّ يتردّدْن على المقهى و كانت تعملُ أيضاً في محلّ تسجيلاتٍ قريب. زارتْني كارول آن في اليوم التالي لمعرفتي بها في المتحف البريطانيّ و كانت

تلك فرصةً سانحةً لأرِيَها الأجنحة المصريّة و الآشوريّة في المتحف ثمّ جلسْنا لتناول الشاي و تبادلْنا بعض التفاصيل بخصوص حياتنا. كانت كارول آن صريحةً معي على الدّوام و أخبرتْي يوماً أنّها تشعرُ بإنجذابٍ لا تستطيعُ دفعهُ تجاه ممثّلٍ و عندها فهمْتُ أنّها تراني كمخْضٍ بديلٍ للتعويض عن الممثّل ذاك فكانت ردّة فعلي الآنيّة أن إندفعْتُ في الحديث عن جوي و كيف أنّها فسختْ خطبتها المُريحة لتلحقَ بي في لندن، و عندما قدِمتْ كارول آن إلى المقهى في اليوم التالي دعوْتُها إلى لقاء جوي و قدّمتُها لها كمجرّد فتاةٍ قابلْتُها في المقهى، و أخبرتْني كارول آن لاحقاً " كنتُ أشعرُ بغيرةٍ عدوانيّة من جوي قبل أن ألتقيها و لكنّني أرى اليوم لمَ أنت مصمّمٌ على البقاء معها، وَ أريدكَ أن تبقى الحبيب الأوّل لي برغَم كلّ شئ ".

* * * * * * * * * *

مضيْنا أنا و جوي في قضاء أوقات نهايات العطل الأسبوعيّة معاً و كنّا نستعينُ أحياناً بخدمات التوصيل المجّانية لرؤية أماكن محدّدة: كامبردج، ستراتفورد (الّتي كنتُ أعرفها جيّداً منذ أيّام مراهقتي)، تشيتشيستر، آرنديل، بريكون، و حصل أحد الأيّام وبينما كنتُ منغمساً في كتابة الفصل الرابع من " اللامنتمي " أن قرّرنا أنا و جوي الإنطلاق نحو كانتربري و مررْنا خلال الطريق بقريةٍ تدعى تيلبري Tilbury و قضيْنا فيها وقتاً ممتعاً في التنقيب بين أكوام الكتب في محلّ يبيعُ الكتب المستعملة و هناك عثرْتُ على كتابِ أنثولوجيٍّ عن التصوّف الدينيّ بعنوان (سنةٌ من النعمة A Year of Grace) كان محرّره هو الناشر فيكتور غولانز بذاته فإشتريْتُهُ على الفور، و بينما كنّا نتجوّلُ في كاتدرائيّة كانتربري العتيقة خطر ببالي أنّ غولانز

ربّما سيجدُ إهتماماً بموضوعة كتابي " اللامنتمي " فقد كان واضحاً لي أنّ الرجل يتّفقُ مع الثيمة الأساسيّة لكتابي. كانت الخطوةُ التالية في مسعاي لنشر اللامنتمي تتطلّبُ طباعة ما كنتُ كتبته حتّى ذلك الحين بخطّ اليد و لحسن الحظّ تصادف أنّني كنتُ أعملُ آنذاك في عملٍ صباحيّ بالإضافة لعملي المسائيّ في المقهى: فقد جاء صديقي موريس ويللوس Maurice Willows إلى لندن ذات مرّة و وجد عملاً في متابعة المكالمات القادمة لمكتب مقاول بناء و لم يرغب في العمل فعرض عليّ قبوله فقبلْتُه على الفور بعد أن وجدْتُ العرض مناسباً و بخاصّة عندما علمْتُ بوجود آلةٍ كاتبة بجوار الهاتف لذا كان بإمكاني المضيُّ في طباعة اللامنتمي على الآلة الكاتبة، ثمّ سرعان ما إنفجرت النزاعاتُ بيني و بين مسؤولي في العمل الّذي كان لا يتعبُ من تذكيري على الدوام بأنّني أحصلُ على نقودٍ لقاء لا شيء !! كما تعمّد إخفاء الآلة الكاتبة إحدى المرّات في سرداب المبنى الّذي أعملُ فيه، و لم أتمكّن ذات صباحٍ من ضبط أعصابي فقلتُ له " إذهب إلى الجحيم " و كانت النتيجة الحتميّة طردي من العمل و لكن لحسن الحظّ كنتُ آنذاك أكملْتُ طباعة الفصول الأربعة الأولى من كتاب اللامنتمي، فمضيْتُ بلا تردّد في كتابة رسالةٍ طويلة إلى الناشر غولانز أرفقْتُها بملخّصٍ للكتاب مع بعض الصفحات الكاملة المنتخبة منه و جاءَني جوابه مستعجلاً و أبدى فيه رغبته في إرسال النسخة الكاملة من الكتاب إليه و أضافَ أنّ ثمّة إحتمالٌ قويٌّ في أنّه سَينشره.

يمكنني القولُ اليوم أنّني عندما أتفحّصُ كتاب اللامنتمي برؤيةٍ إسترجاعيّة فثمّة إنتقادٌ جدّيّ واحد أستطيعُ تأكيده بشأن الكتاب: الإفراطُ في النزعة الرومانتيكيّة المؤسّسة على المزاج الرافض للعالم بالإضافة إلى النفور المشمئز من الحضارة و ربّما ترسّخت هذه السمات

لديّ آنذاك بفعل سنواتٍ مرهقة من مُكابدتي الطويلة و لكنّ الأمر برمّته يبدو لي اليوم مُغالِياً و راديكاليّاً إلى حدودٍ منفّرة !!. كنتُ في طفولتي متديّناً للغاية و إعتدْتُ أن أصلّي في سرّي و أنا أعبرُ الشارع أو أمشي لمسافاتٍ طويلة و بخاصّة في تلك الأوقات الّتي كانت فيها والدتي مريضةً أو مهمومة قلقة بسبب همّ ما، ثمّ حلّت فترة العدميّة الّتي أعقبت طفولتي ووضعت حدّا لتديّن الطفولة الّذي حرصْتُ عليه و لكن عندما قرأتُ في فترةٍ لاحقة للشعراء المحبّبين إلى روحي: شيللي، كيتس، إيليوت،،،، أدركْتُ أنّ عظماء الشعراء هم متديّنون في دواخلهم بصورة أساسيّة و يروْن أنّ ثمّة قوّة كونيّة سحريّة تقودُ الكون و أنّ هذه القوّة تعملُ لأجل الخير في كلّ الأحوال، و هنا بدا لي أن النزعة الإنسانيّة Humanism – بتأكيدها على مقولة أنّ الإنسان وحيدٌ في هذا الكون – هي محضُ هراء سخيف و أردْتُ من اللامنتمي أن يكون حجّة لتعضيد الحسّ الدينيّ المبشّر بالخير الكونيّ في مُقابل النزعة الإنسانيّة الّتي تقودُ للتخاذل و السوداويّة. يبدو لي اليوم أنّ التمييز الّذي خلقْتهُ بين الدين و النزعة الإنسانيّة هو تمييزٌ خدّاعٌ: فأنا أتعاطفُ إلى أبعد الحدود مع إيليوت و اتّفقُ معه في أنّ "الحضارة لا يمكنُ أن تحيا من غير الدين " و أعلمُ أيضاً أنّي أضيقُ ذرعاً بالنزعة الإنسانيّة المدرسيّة المُتعالية المُصابة بفقر الدم المعرفيّ و الّتي تحكي عنها كاثلين نوت Kathleen Nott في كتابها (ثياب الإمبراطور The Emperor"s Clothes) و الّذي تشنّ فيه هجوماً كاسحاً على إيليوت، و غرين، و المُدافعين عن القيم الدينيّة و لكنّ الحقيقة هي أنّ وجهة النظر الأساسيّة لكتاب اللامنتمي تنبعُ من نزعةٍ إنسانيّة محضة !!: فقد كنتُ على توافقٍ ذهنيّ تامّ مع الدين الحركيّ للقدّيسين (إذا جاز لي إستعارة مفردات الفيلسوف الفرنسيّ بيرغسون Bergson) و هو ببساطةِ الدين الّذي

يبتغي الإتّحاد مع الله بإعتباره القوّة السحريّة المحرّكة للكون من غير أيّة تفاصيل إضافيّة، و لكن من جانب آخر لم أجد في نفسي يوماً ما تعاطُفاً مع الدين الستاتيكيّ الّذي تمثّله المؤسّسات الدينيّة و لم أكن بطبيعتي و مزاجي ميّالاً لأن أنضمّ إلى أيّة جماعةٍ دينيّة كما آذاني كثيراً الموقفُ التشاؤميّ للطبقة الدينيّة المثقّفة: إيليوت، غرين، مارسيل، بيرنانوس، كيركيغارد،،،،،،، و كنتُ في ذات الوقت أتأذّى كثيراً من موقف الماديّة الضحلة الّتي كان ممثّلها الأكبر هو (برتراند راسل) و (أي. جي. آير) و لم اتردّد أبداً في تفضيل الموقف الدينيّ على الموقف الماديّ الهشّ الذي عبّرت عنه النزعة الراسليّة Russellism. كانت هفوتي الكبيرة آنذاك هي إفتراضُ ضرورة أن يكون لي موقفٌ في الإختيار من بين هذين الإتّجاهيْن: فقد كان لي الكثيرُ من المُشتركات مع كيركيغارد كما كان لي العديدُ من المُشتركات مع راسل، و مضيْتُ في سؤال نفسي آنذاك السؤال المهمّ التالي: هل سيكون من شأن توسيع رؤيتي الفلسفيّة بحيثُ تتضمّن الرؤى الدينيّة أن يثبت كونه مسعى أقلّ مشقّة من سعيي لأنسنة الدين ؟ و كان الجوابُ واضحاً تماماً: أن امضي في طريق تعميق نظرتي الفلسفيّة لتحتوي الرؤى الدينيّة، و مرّ بخاطري على الفور موقفُ واحدٍ من أكثر الفلاسفة الذين احبّهم و أعجبُ بهم و هو وايتهيد Whitehead الّذي كان له ذات الموقف، و رفضْتُ آنذاك رؤية كيركيغارد الّتي تقودُ إلى نهايةٍ تشاؤميّة سوداويّة قاتلة و وقفْتُ إلى جانب النزعة البرناردشويّة الإرتقائيّة المدهشة.

كان ثمّة مؤثّرٌ آخر عظيم الأهمّية في كتابة اللامنتمي: إنّه صديقي ستوارت هولرويد الّذي كان أحد مُريدي ألفريد رينولدز: اليهوديّ الهنغاريّ الّذي أجبِرَ على مغادرة ألمانيا أيّام سطوة النازيّة فيها و هاجر إلى إنكلترا، و أخبرَني ستوارت القليل جدّاً عن ألفريد و وصفه بانّه

طيرٌ صغيرٌ هادئٌ، و لكن عندما قابلْتهُ وجدْتهُ شخصاً مفرط الذكاء و إقترحْتُ عليه أن أقرأ يوماً ما مقتطفاتٍ من الأدب المفضّل لي في واحدٍ من اللقاءات الّتي كان يديرُها و وافق الرجل على الفور، و مضيْتُ فعلاً في إختيار تلك الأجزاء من الأدب الّتي تصفُ موقفي الفلسفيّ و رؤيتي الوجوديّة في كون الطبيعة الإنسانيّة تحملُ نزعة تطوّريّة إرتقائيّة أبعد بكثير من تلك المديات المعقْلنة المفترضة، و أنّ هذه النزعة التطوّريّة ستأخذُ منحىً عنفيّاً حتماً ما لم يتمّ التعبيرُ عنها بصورة مناسبة، و كانت المقاطع الّتي إخترْتُ قراءتها في اللقاء تتضمّنُ قراءاتٍ منتخبة من أشدّ النصوص هولاً لأعمال: تي. إي. لورنس، دوستويفسكي، نيتشه، تولستوي، فان كوخ، بليك،،،،، و علمْتُ لاحقاً أنّ ستوارت يجاهدُ في الكتابة بقصد كسب قوته و كان يكتفي بكتابة مقالاتٍ قصيرة لمجلّة شعر مغمورة و كانت زوجته هي من تديمُ حياة عائلتها من خلال مرتّبها البسيط ككاتبة على الآلة الطابعة، و وجدْتُ ستورات يختزِنُ معرفةً عظيمة ممّا ينبغي معرفته عن الشعر و لكنّ خزينه المعرفيّ في ميادين أخرى كان ضئيلاً إلى حدّ مخيف لذا عرضْتُ عليه قراءة أعمال دوستويفسكي، و كتاب ويليام جيمس " أنواع التجربة الدينيّة Varieties of Religious Experience "، و أدبيّات الوجوديّة، و أعمال هسّه، و ريلكه،،، و صار ستوارت متحمّساً للغاية تجاه أعمال ريلكه و بخاصّة عمله (مراثي دوينو Duino Elegies) و طلب إلى مجلّة الشعر الّتي إعتاد نشر أعماله فيها كتابة مقالةٍ يقارِنُ فيها تلك المرثيّات مع عمل إيليوت (الرباعيّات الأربع Four Quartets)، و أمضيْتُ عصر أحد الأيّام مع ستوارت و أنا أضعُ مخطّطاً للأفكار اللازمة لكتابة هذه المقالة و حصل ستوارت في نهاية جلستنا تلك على كمّية ضخمة من المواد حتّى أنّه أقنع المجلّة

بتجزئة المقالة المتّفق عليها إلى ثلاث مقالات: واحدة عن ريلكه، و ثانية عن إيليوت، و الثالثة في المقارنة بين عملي الشاعريّن، و عندما قراتُ المقالات المنشورة لاحقاً شعرْتُ بغيرة عظيمة لرؤية أفكاري مطبوعةً تحت إسمِ آخر غير إسمي، و بعد وقتٍ قليل من نشر تلك المقالات أخبرَني ستوارت أنّه ينوي توسيع فكرة المقالات إلى كتابٍ كامل يختصّ بموضوعة الشعر و الدين و و هذا ما تحقّق لاحقاً و نُشر كتاب ستورات تحت عنوان (الإنبثاقُ من الفوضى Emergence from Chaos) في بريطانيا من قبل الناشر غولانز كما نشرتْه دار نشر هيوتن ميفلين في أمريكا، و كانت رغبتي في نشر كتاب اللامنتمي قبل أن ينشر كتاب ستوارت واحدةً من الأسباب الّتي دفعتْني لكتابة الكتاب بسرعةٍ مذهلة و غير مسبوقةٍ لي حتّى ذلك الحين.

* * * * * * * * * *

توفّيت جدّتي بينما كنتُ مُنغمساً في كتابة اللامنتمي و شعرْتُ بأسفٍ عظيم لفقدانها لأنّها كانت إمرأةً فاضلة كما القدّيسين و كان لها ذات المزاج الهادئ الطيّب الّذي كان لدى جوي، و بعد وقتٍ قصير من وفاة جدّتي وقعت والدتي فريسةً للمرض و كانت ورثت مزاجها الطيّب عن والدتها المتوفّاة و كان ثمّة رابطةٌ وثيقةٌ تشدّني نحو والدتي – على نحوِ تلك الرابطة الّتي شدّت دي. إج. لورنس إلى والدته – مشفوعةً بنفورٍ عميق من والدي الّذي إعتاد الإساءة إلى والدتي و كان يعاملُها على الدوام كانّها خادمةٌ في المنزل ليس إلّا !!. عانت والدتي من ألم ممضّ في معدتها و تأكّد لاحقاً أنّ السبب وراء أوجاعِها هو زائدةٌ دوديّةٌ ملتهبة، و بعدما إنفجرت الزائدة إضطرّ الأطبّاء إلى إجراء جراحة عاجلةٍ لها لعلاج إلتهاب الاغشية البريتونيّة المحيطة بجوْفها

البطنيّ و لم تتكلّل العمليّة بالنجاح و راح الأطبّاءُ يجرون لها العمليّة بعد العمليّة من غير نجاحٍ يذكر، و لمّا كنتُ مرتعِباً من فقدان والدتي قبل نشر اللامنتمي فقد إتّخذتُ قراري بالسفر إلى ليستر و المكوث هناك لرعاية والدتي العليلة و كنتُ آنذاك كتبْتُ نصف اللامنتمي الّذي كان عنواني المقترح لمخطوطته الأوّليّة (عتبةُ الألم The Pain Threshold)، و قبل أن أستقلّ القطار المُغادر إلى ليستر ذهبْتُ إلى مقرّ الناشر غولانز و سألتُ السكرتيرة إن كان بإمكاني إيداعُ ما أنجزْتُهُ من الكتاب لديهم ثمّ أكماله لاحقاً بعد عودتي المرتقبة من ليستر فأخبرتْني السكرتيرة أنّ السيّد غولانز لم ينظر من قبلُ في أيّ كتابٍ قبل أن يكون مكتملاً و في صيغته النهائيّة المنقّحة و المعدّة للنشر و نصحتْني بأخذ الكتاب معي إلى ليستر و العمل على إكماله هناك ثمّ إرساله إليهم و حينها كان لزاماً عليّ أن اخبرها بأنّني قد أمكثُ بضعة شهورٍ في ليستر و رجوْتُها أن تُبقي المخطوطة غير المكتملة عندها فوافقت بعد تردّد. عندما وصلْتُ ليستر ذهبْتُ من فوري لرؤية والدتي الّتي بدت بغاية النحول و الإنهاك و لم يكن لديّ الكثيرُ لأقدّمه لها و لكن لحسن الحظّ تحسّنت حالتُها الصحّيّة بعد العمليّة الخامسة الّتي أجرِيَت لها لكنّها ظلّت تبدو أكبر بما لا يقلّ عن عشر سنواتٍ من أعوامها الثلاثة و الأربعين، و عندما زال الخطر عن والدتي إلى غير رجعةٍ عدْتُ إلى لندن على الفور و كنتُ سعيداً للغاية عندما وجدْتُ رسالةً بإنتظاري من الناشر غولانز يخبرُني فيها أنّه قرأ ما أنجزْته من العمل و إتّخذ قراره النهائيّ بنشر العمل بعد أن يكتمل الكتاب و أضاف في رسالته أنّه يطلبُ رؤيتي بشأن الكتاب، و هنا راح القلق يراودُني عند مباشرتي لكتابة النصف الثاني من الكتاب بشأن إمكانيّتي في الحفاظ على ذات المعيار الذي كتبْتُ به نصفهُ الأوّل، و مالّذي عساه سيحصلُ لو لم ينلْ

ذلك النصفُ إعجاب غولانز ؟ كان الوقتُ آنذاك منتصف حزيران و أراد غولانز مخطوطة الكتاب كاملةً مع منتصف أيلول و كان هذا يعني بالضرورة ثلاثة أشهرٍ من العمل المُتواصل من غير فسحةٍ لإلتقاط الأنفاس، و لم يكن ثمّة متّسعٌ من الوقت أمامي لكتابة النصّ بخطّ اليد ثمّ إستنساخه على الآلة الكاتبة و هنا وجدْتُ أنّ الحلّ ربّما يكمنُ في إملاء النصّ على شخصٍ يجيدُ إستخدام الآلة الكاتبة كما يجيدُ بذات الوقت مبادئ الكتابة الإختزاليّة shorthand ، و حالفَني الحظّ بالعثور على فتاةٍ في المقهى الّذي أعملُ فيه ممّن تتوفّرُ فيها هذه المتطلّبات و أذكرُ عندما رافقتْني إلى غرفتها الواقعة جنوب لندن لعمل بروفةٍ إختباريّة لها على سبيل التجربة: فعندما قلتُ " هذا هو الفصل السابع و سيكون عنوانه (التركيب العظيم)،، أكتبي العنوان بالأحرف الكبيرة و ضعي بعده صفّاً من النقاط "، و من الطبيعيّ أنّني كنتُ أعني صفّاً من النقاط توضعُ تحت العنوان و لكنّ مساعدتي الفتاة أساءت فهم الأمر و كتبت العنوان هكذا (التركيب العظيم.....) و الغريبُ أنّني لم أكلّف نفسي عناء تصحيح الأمر و أبقيْتُ الحال كما هو و لازال عنوان الفصل السابع يظهرُ على هذه الهيئة في كلّ طبعةٍ من طبعات اللامنتمي الكثيرة و بمختلف اللغات، و إندفعْنا للعمل أنا و مساعدتي الفتاة و راح الكتابُ ينسابُ بسهولة فائقة و كنّا ننجزُ ما يقاربُ عشر صفحاتٍ (٢٥٠٠ كلمة) يوميّاً.

بالعودة إلى المتحف البريطانيّ علمْتُ أنّ آنغوس ويلسون Angus Wilson المسؤول عن مكتبة المتحف كان قرأ الجزء الاوّل من مخطوطة (طقوسٌ في الظلام) و راقت له كثيراً، و عندما أخبرْتهُ أنّ الناشر غولانز كان مهتمّاً بنشر الكُتاب إقترح عليّ أن يُلقي ناشرُهُ فريد واربورغ Fred Warburg نظرةً على الكتاب، و عندما عملْتُ بنصيحة أنغوس

بدا واربورغ ضجِراً بعدما ألقى نظرةً أوّليّة على المخطوطة و لكن بعد أربعِ و عشرين ساعة فحسب إتّصل بي ليُخبرَني موافقته على توقيع عقدٍ معي و منح مقدّم ماليّ أوّلي عن الكتاب و لكنّني فضّلتُ عدم إتّخاذ أيّ قرارٍ بشأن النّاشر المستقبليّ للكتاب و راقتني فكرةُ أنّ ماحصل عزّز شعوري بأنّ كتابي الآخر (اللامنتمي) سيكونُ له تأثيرٌ مباشرُ و صادمُ فور نشره، و قبل سنتيْن لاأكثر كنتُ أعدّ العدّة لأنال التقدير و الإعتراف المستحقّيْن مع بلوغي الخمسين و رأيْتُ أنّ من غير المجدي إنتظاري الطويل حتّى ينال كتابي الاوّل التقدير اللازم و من ثمّ الشروع في مهنتي الكتابيّة و رأيْتُ أنّ من الأفضل الشروعُ على الفور في كتابة دزينةٍ من الكتب و الإحتفاظ بها في خزانة دولابي حتّى إذا جاء النجاح و الإعترافُ يكون لي حينها تحت اليد العديد من الكتب الجاهزة للنشر، و لكن مع القبول السريع لكتاب (اللامنتمي) بدا لي زُهدي الرواقيّ القديم غير ضروريّ أبداً. حصل قبل أعياد الميلاد تلك السنة أن عملْتُ بدوامٍ جزئيّ في مقهى آخر بشارع نورثمبرلاند و مضيْتُ في الوقت ذاته أعملُ على مخطوطة (طقوسٌ في الظلام) من جديد، و أعلمَني غولانز حينها أنّه قبِل مخطوطة كتاب اللامنتمي بأكملها مقترحاً تعديل العنوان الأصلي الّذي كان (عتبة الألم) و جعلها (اللامنتمي) و منحني خمساً و عشرين جنيهاً كمقدّمة و وعدني بخمسين جنيهاً أخرى بعد نشر الكتاب. كان غولانز هو منْ دعاني لتناول وجبتي الغالية الأولى في مطعم فاخر و تناولْنا حينها السالمون المدخّن -- الّذي صار وجبتي المفضّلة منذ ذلك الحين – كما كرعْنا الكثير من أحد الأصناف الممتازة من النبيذ الأحمر، و عندما كنّا في طريقنا إلى المطعم توقّف غولانز فجّاة و حدّق فيّ ثمّ سألني " قل لي بحقّ السّماء كيف نجحْتَ في قراءة كلّ تلك الكتب ؟ "، و بعد

عودتي من الغداء في المطعم كتبْتُ على الفور لوالدتي أخبِرُها بشأن ما حصل و أكّدْتُ في رسالَتي على قوْلَ غولانز لي " أظنُّ أنّني أرى فيك رجلاً عبقريّاً ".

دعاني أنغوس ويلسون مرّةً برفقة جوي لتناول الغداء في مطعم بساحة الدلافين Dolphin Square و بدا لنا الأمرُ حينذاك أقرب إلى معجزة: أن نتناول الطعام مع كاتبٍ ذائع الشهرة، و تبادلْنا الحديث معاً بشأن كُتّابٍ كثيرن من أمثال سومرست موم، سي. بي. سنو، و ستيفن سبندر،،، و كان من الغريب أن يطلب آنغوس نصيحتنا بشأن ترك العمل في المتحف البريطانيّ و العمل ككاتبٍ متفرّغ، و لو كنتُ حينذاك أعلمُ عن خفايا الحياة الادبيّة بالقدر الّذي أعلمه اليوم لنصحْتُهُ بلا تردّد بأن يبقى تحت مظلّة الأمان الماليّ الّذي يوفّره له عمله في المتحف !!. ثمّة أمرٌ رائعٌ وجدته في أنغوس و ربّما كان غريباً بعض الشيئ أيضاً: كان آنغوس واحداً من أكثر الناس الّذين قابلتهم في كلّ حياتي ذكاءً و تحضّراً و كياسةً و ربّما لم تُتح لي خلفيّتي العمّاليّة مقابلة الكثير من الأشخاص الاذكياء من أمثال أنغوس، و مع أنّ بعضاً من أصدقائي المُقرّبين – من أمثال بيل هوبكينز – كانوا رفيعي الذكاء لكن لم يكن أيٌّ منهم مهووساً بالقراءة مثلما كنتُ أنا و من هذه الخلفيّة إنبثق شعوري العميق بالراحة و الإسترخاء كلّما كنتُ ألتقي آنغوس: فقد كان رائعاً على الدوام أن أكون قادراً على الكلام بحرّية و تلقائيّة عن أيّ كاتب منذ عهد هوميروس و حتّى سارتر و أنا واثقٌ تمام الثقة أنّ آنغوس يدركُ تماماً ما أقوله، و قد جعلَني آنغوس أشعرُ بمدى سوء الحظّ الّذي لم يتُحْ لي قبل سنواتِ الإلتقاءَ بأشخاصٍ يماثلونه ذكاءٍ وَ تحضّراً، و من المؤسف معرفة أنّ ما تسبّب في تدميره هو عشقه المفرط للحياة الأدبيّة الراقية مع كلّ ما يتعلّقُ بها: محاضرات، رئاسة لجانٍ أدبيّة،

سفرات خارجيّة،،،، و لم تكن روايات آنغوس الّتي تشعّ ذكاءً و ألمعيّة لتحقّق أعلى المبيعات أو تجذب صنّاع الأفلام أو القيّمين على شؤون الميديا، و تحكي مارغريت درابل Margaret Drabble في السيرة الّتي كتبتْها عن حياة آنغوس بأنّ مبيعات أيّة روايةٍ من رواياته قلّما حقّقت رقماً يتجاوزُ الثمانية آلاف نسخة و لم يكن سعر النسخة منها ليتجاوز الجنيهيْن، و إذا علمْنا أنّ الرجل كان يستغرقُ بضع سنواتٍ في كتابة كلّ رواية من رواياته لعرفْنا على الفور أنّه كان يعيشُ حياة ضنكٍ تكادُ تلامسُ خطّ الفقر إلى حدّ دفع الرجل - بغية الاقتصاد في مصروفاته - إلى أن يلتمس الإقامة في فرنسا و قد آذاه هذا الفعلُ كثيراً لأنّه قطع صلاته مع أصدقائه البريطانيّين كما تسبّب له في خفوت جذوة ثقافته الأدبيّة البريطانيّة، و عندما مات عام ١٩٩١ بتأثير إلتهابٍ دماغيٍّ حادٍّ تكفّل الصندوق الأدبيّ الملكيّ بدفع نفقات المستشفى الّتي كان يُعالَجُ فيها.

دُعيت في آذار ١٩٥٦ إلى حضور الحفلة الأدبيّة الأولى لي بمناسبة نشر الرواية الثانية للكاتبة آيريس مردوخ Iris Murdoch و التي كانت بعنوان (الهروبُ من السّاحر The Flight from the Enchanter) و هناك قابلْتُ آيريس الّتي كانت لا تزالُ في أواسط الثلاثينات من عمرها و راقت لي على الفور: إمرأة ذاتُ وجْهٍ دائريّ و على شيءٍ من الخجل المُحبّب و صعقتْني جاذبيّتها الجنسيّة الهائلة، و أذكر أنّني أعلمْتُها في تلك الإحتفاليّة برغبتي في العيش لثلاثمائة سنة كما إقترح شو في (العودة إلى ميتوشالح) و ردّت هي من جانبها بسؤالي عن مدى رغبتي في الإلتحاق بأكسفورد و الحصول على شهادة جامعيّة منها !! و راح ذاك السؤال يتردّدُ على لسانها كلّما إلتقيْتها في المناسبات اللاحقة. إلتقيْتُ أيضاً في الحفلة ذاتها الكاتب (إلياس كانيتي Elias Canetti)

الّذي كان يقطنُ في شقّة عبر الشارع المحاذي لقاعة الإحتفال و رأيتُ فيه رَجلاً ضخم الجثة بوجْهٍ مربّع و شارب كثيف الشعر و كان يتحدّث بلغةٍ إنكليزيّة مشوبة بلكنةٍ ألمانيّة مميّزة.

أرسلَني غولانز مرّة لغرض إلتقاط صورةٍ لي للأغراض الصحفيّة العامّة و كنتُ حينها أرتدي بلوزةً ذات رقبة من النوع الّذي كنتُ أرتديه أثناء عملي في المستشفى الغربيّ Western Hospital ومنذ ذلك الحين صرْتُ مغرماً بهذا النوع من البلوزات و ألتقطْتُ صورةً لي في محلٍّ يقعُ في شارع هارو Harrow Road و رغم أنّها لم تكن بالجودة المرغوبة لكنها كانت تظهرُ دوماً أثناء أيّ مناسبة صحفيّةٍ تخصّني أو عند تناول نشاطاتي العامّة. كانت تلك أيّاماً جميلةً رأيْتُ فيها الكثير من الناس و أمضيْتُ خلالها أيّاماً طويلة و أنا أتحدّثُ إلى صديقي بيل هوبكينز و حضرْتُ بعض أجمل الحفلات في حياتي كما عملْتُ في بعض الأعمال الغريبة عندما كنتُ على حافّة الإفلاس: فقد عملْتُ لبضعة أسابيع في مقهىً يقعُ في نورثمبرلاند، و عملْتُ لبضعة أسابيع أخرى في صنع الأعلام لبعض المنظّمات الطلّابيّة لمناسبة يوم العَلَم Flag Day و لم تكن جوي أقلّ إفلاساً منّي آنذاك فقد أخبرتْني يوماً أنّها ذهبت للعمل و هي تتلوّى جوعاً لأنّها لم تملك ما يكفي من المال لشراء طعام بسيط !! و كانت تعملُ حينها كنادلةٍ مقهى يقعُ في كينغزواي Kingsway. فشلت صداقتي الّتي توقّعتُها آنذاك مع إلياس كانيتي في أن تنمو كما أردْتُ لها: فعندما علم غولانز بأمر لقائي مع كانيتي طلب إليّ الكتابة إليْه و سؤاله إن كان لا يُبدي ممانعة في كتابة مُراجعةٍ لكتاب اللامنتمي بعد أن ينشر، و هكذا مضيْتُ بناءً على رغبة غولانز و كتبْتُ رسالةً إلى كانيتي بهذا الشأن و لكنّني تسلّمْتُ رسالة جوابيّة قاسية اللهجة من زوجته تقولُ

فيها أنّ زوجها لا يراجعُ كتاباً لأحدٍ و بأنّه يرى في طلبي نوعاً من الخطأ الفادح غير المسموح به.

عندما حلّ يوم السبت ٢٦ أيار كان موعد النشر المتوقّع لكتاب اللامنتمي هو الإثنيْن القادم و قرأتُ في واحدةٍ من الصحف المسائيّة ذلك اليوم خبراً يشيرُ إلى أنّ عدد الاوبزرفر القادم سيحتوي مقالةً بعنوان " هل العباقرةُ كائناتٌ لامنتمية ؟ "، و في صباح اليوم التالي هرعْنا أنا و جوي و إشتريْنا الصحيفتيْن الأدبيّتيْن الأكثر شهرةً أدبيّة يوم الأحد: الأوبزرفر و الصنداي تايمز و إنطلقْنا إلى غرفتي و بدأنا بالقراءة هناك: قرأتُ في الأوبزرفر مراجعةً نقديّة لكتاب اللامنتمي كتبَها فيليب توينبي Philip Toynbee وضعَني فيها موضع المقارنة مع سارتر و ختم مراجعته بقوله أنّه يفضّلُ أسلوبي و طريقتي في الكتابة، و في الصنداي تايمز كتب سايريل كونوللي Cyril Conolley مقالةً يُشيدُ فيها بالشاب ذي الأربعة و العشرين عاماً و الّذي أنتج الكتاب الأكثر جودةً بين الكتب الّتي قرأها كونوللي في حياته،،، ثمّ مضى إلى القول " لهذا الشابّ ذكاءٌ بديهيّ سريع و قدرة على التحليل المنطقيّ يمكنه إستخدامها مع حالاتٍ مختلفة من الوعي تستعصي على التحليل،،،" ثمّ خلص إلى القول " ينبغي عليكم أن تُبقوا أعينكم مفتوحةً على السيّد ويلسون و ليكن أملُكم راسخاً في أنّ عقل السيّد ويلسون و حيويّته و آلته الكاتبة ستبقى مُصانة،،،، "، و بينما كنّا أنا و جوي نقرأ هذه التعليقات جاءني أحدهم من سرداب المبنى الّذي نُقيمُ فيه ليهنّأني على المراجعة الّتي قرأها عنّي في صحيفة (إيفنينغ نيوز Evening News) و كان الناقد جون كونيل John Connell كتبَ فيها مراجعةً بعنوان " كاتبٌ كبيرٌ و هو لا يزالُ بعمر الرابعة و العشرين "، و تتالت طلباتُ الحديث معي عبر الهاتف و ظلّ هاتف جاري غير المحظوظ

يرنُّ في طلبي بلا إنقطاعٍ لأسبوعٍ كامل، و في يوم الإثنيْن الّذي نُشِر فيه اللامنتمي تجمّعت لديّ كومةٌ عاليةٌ من الرسائل: فقد أراد كلّ من أعرفُهُ من الأصدقاء أن يكتب تهنئة لي حتّى أنّ مدير مدرستي الثانويّة كتب لي تهنئةً حارّة يقولُ فيها " أصابَني الذعرُ و أنا أقرأ مقالة سيريل كونوللي عنك و الّتي إبتدأها بالسؤال (من هو كولن ويلسون ؟) ". كانت تتملّكني آنذاك رغبةٌ ملحّة في السفر فجر اليوم التالي بالقطار إلى ليستر و و رؤية أحد أحلام يقظتي الطفوليّة و هي تتحقّق: إذ لطالما حلمْتُ و أنا أقضي معظم وقتي عندما كنتُ صبيّاً في تفحّص الكتب بمكتبة ميدلاند التعليميّة Midland Educational Book Store أن أرى غلاف أحد كتبي معروضاً في واجهة المخزن، و لكنّ النجاح المدوّي لكتاب اللامنتمي مع ما ترتّب عليه من إلتزاماتٍ كثيرة في لندن وقف بوجه إتمام زيارتي هذه. كان أسوأ ما حصل آنذاك أنّني دعوْتُ زوجتي السابقة بيتي – الّتي كانت تبحثُ عن شقّة لها آنذاك – إلى لندن و المكوث في غرفتي بينما كنتُ أعدّ العدّة للسفر إلى ليستر يوم الإثنين ٢٨ أيّار و هو ذات اليوم الّذي نُشِر فيه الكتاب، فجاءت بيتي لتجدني وسط دوّامةٍ من النجوميّة و الإطراء لم تكن لتتوقّعهما أبداً إذ كانت طلباتُ المحاورة و الحديث عبر الهاتف لا تنفكّ تنهالُ عليّ و كانت بيتي لا تزال زوجتي و لم نكن تطلّقْنا بصورة قانونيّة و الحقّ أنّها كتبت لي قبل بضعة أسابيع من نشر اللامنتمي لتقول أنّها لا تزالُ تأملُ في مواصلة العيش معاً كزوْجيْن، و عندما رأت معالم النجاح المدوّي لكتابي شعرَتْ أنّ من الإنصاف مُشاركتها لي ببعض ثمرة هذا النجاح و لكنّني كنتُ عشْتُ مع بيتي كزوْجٍ لمدّة ثمانية عشر شهراً فقط بينما كانت علاقتي مع جوي تمتدُّ لسنتيْن و نصف السنة، فهل كانت بيتي تتوقّعُ منّي أن أذهب إلى جوي و أقول لها ببساطة " جوي، أنا آسفٌ،

سأعودُ إلى زوجتي السابقة بيتي !! "، و هكذا ثلم شعوري بالذنب تجاه بيتي من طعم النّجاح المدوّي الّذي تحقّق مع نشر اللامنتمي.

طلبتْ إليّ صحيفة الصنداي تايمز أن أقوم بمُراجعاتٍ منتظمة للكتب فيها لقاء أربعين جنيهاً لكلّ مراجعةٍ و عندما سمعْتُ بعرضها هذا حبسْتُ أنفاسي لأنّ العرض كان مجزياً للغاية فوافقْتُ على الفور بالطبع، كما طلبَت إليّ قناة ال BBC و بعضُ القنوات المستقلّة تسجيل برامج حواريّة معي و كان مُراسلو الصّحف يطرقون بابي بمعدّل أربعةٍ كلّ يوم، و تناولْتُ وجبتي الفاخرة الثانية في مطعمٍ صحبة جيوفري سمث من صحيفة الصنداي تايمز كما إتّصلت بي مجلّة لايف Lifeو طلبت تعريفاً وافياً عنّي مع صورٍ فوتوغرافيّة مناسبة.

حصل بمحض المُصادفة أنّ مسرحيّة جون أوزبورن John Osborne المسمّاة (أنظر وراءك بغضب Look Back in Anger) عُرضت للمرّة الأولى على مسرح القاعة الملكيّة قبل أسبوعٍ من نشر اللامنتمي، و ظهرت مُراجعاتٌ بشأن العملين في ذات الوقت على صفحات الصنداي تايمز كما خصّنا الناقد جي. بي. بريستلي بمقالةٍ مشتركة في صحيفة نيو ستيتسمان New Statesman، و كانت صحيفة التايمز إستخدمت توصيف (الشباب الغاضب Angry Young Men) و سرعان ما تلقّفت الصحافة هذه العبارة و حوّلت هؤلاء الشباب إلى جماعةٍ شبيهةٍ بالطوائف الدينيّة المغلقة و مضت العبارة تتكرّرُ في الصحافة على نحوٍ مزعج طوال الصيف حتّى غدا الجميع متطيّراً منها، و كان السبب المباشر وراء كلّ هذه الضجّة الصخّابة هو أنّ النقّاد لطالما إشتكوا لسنواتٍ من غياب جيلٍ جديد من الكُتّاب المبرزين في أعقاب الحرب العالميّة الثانية و كانوا يُحاججون أنّ العديد من الكتّاب

اللّامعين ظهر بعد الحرب العالميّة الأولى: جويس، إيليوت، باوند، هيمنغراي، فولكنر، دوس باسوس، ويندهام لويس، فيتزجيرالد، ألدوس هكسلي،،،،، و مضى النقّاد إلى القول أنّ نهاية الحرب العالميّة الثانية لم تشهدْ إنفجاراً مماثلاً في الكتّاب النوابغ بإستثناء عددٍ منهم يعدّ على الأصابع: آنغوس ويلسون، كينغزلي أميس، آيريس مردوخ،،، و هكذا عندما نُشرَ عملي و عمل أوزبورن في ذات الأسبوع إلتقطت الصحافةُ الحدث لتُبشّر بولادة الجيل الأدبيّ الموعود الّذي طال إنتظاره !!. كان أوزبورن حالةً شديدة الخصوصيّة: كان ممثّلاً شابّاً متعجّلاً ذا ميلٍ طبيعيّ في إثارة الآخرين و إيقاع الأذى بهم، و كان يكنّ كراهيّة عمياء لوالدته و لم تكن كراهيّته لزوجته الممثّلة لتقلّ عن كراهيّته لوالدته، و كانت له عادةٌ – شبيهة بموهبةٍ طبيعيّة متأصّلة فيه – و هي القدحُ بالآخرين و بخاصّة من المقرّبين منه: فقد أخبرَني إحدى المرّات أنّه يتمنّى أن تضاجع غوريللا مصابةٌ بالسفلس إحدى الفتيات من اللواتي كان يكرههنّ كراهيّة تفوقُ المألوف، و كان أوزبورن على العموم رجلاً مفتقداً للإنضباط و النقد الذاتييْن. عندما دعاني أحد الأصدقاء لمشاهدة مسرحيّة أوزبورن صحبة جوي في الأسبوع اللاحق لنشر اللامنتمي كرهتُها إلى حدّ بعيد: رأيتُ في المسرحيّة خليطاً من إشفاقٍ مرضيّ على الذات مقترن بمزاج سيّئ، و كان متوقّعاً أن يرى فيها النقّاد عملاً فقيراً في هيكليّته و يفتقد الإنضباط المسرحيّ المطلوب و لكن حصل أنّ ناقداً أكسفورديّاً لامعاً يدعى (كينيث تينان Kenneth Tynan) أراد أن يشيّد لنفسه إسماً نقديّاً ذا سطوة في عا لم النقد فراحَ يكتبُ عن المسرحيّة بإعتبارها فرصةً للتعبير عن مقته الشديد للحضارة الرأسماليّة لأنّ الرجل كان من مُحبّي برتولد بريخت Bertold Brecht فإندفع في كيْل عبارات المديح بحقّ مسرحيّة أوزبورن !!، و من جانبٍ

آخر كتبَ أحد نقّاد الجيل الأقدم من تينان – و هو الناقد المسرحيّ لصحيفة التايمز هارولد هوبسون Harold Hobson – نقداً هادئاً مهذّباً و موضوعيّاً بخصوص مسرحيّة أوزبورن و خلص إلى حقيقة أنّها كانت تحكي عن لاشئ !! و لكنّ أثبتت عبارات تينان المفخّمة سطوتها و غلبتها لأنّ أيّ تعبيرٍ عن التحفّظ تجاه المسرحيّة وقتذاك و بأيّ شكلٍ من الأشكال كان سيُفهمُ منه أنّ كاتبه محضُ رجعيّ قديم يبعثُ على الضجر. طلبت صحيفة الديلي إكبريس من الثلاثيّ (جون أوزبورن، كولن ويلسون، و الكاتب المسرحيّ ذي الثمانية عشر عاماً مايكل هاستنغز) كتابة سلسلة مقالاتٍ لها تحت عنوان (الشباب الغاضب) لبيان الأسباب الّتي دعتْهُم إلى الغضب، و الحقيقةُ الصارخة هي أنّني لم أكنْ غاضِباً طيلة حياتي بإستثناء تلك السنوات الّتي كنتُ أعملُ فيها في اعمالٍ غير محبّبة إلى روحي، كما أنّني اليوم صرْتُ كاتباً مْعترفاً به و ليس ثمّة من سببٍ وجيه لغضبه و لكنّ الديلي إكسبريس كانت تدفعُ لكتّابها بسخاءٍ لذا لم أجدْ غضاضةً في الكتابة إليهم و هكذا ساهمْتُ عن غير وعي أو قصديّة مسبّقة في تأسيس أسطورة الشباب الغاضب و لم تكن لُديّ حينذاك فكرةٌ عن حجم الكراهيّة الّتي ساحملُها تجاه هذه الأسطورة لاحقاً.

١٠. صعودٌ و إنكفاء

بعد نشر اللامنتمي بدت الأمور لي رائعة تماماً: شهرة مدوّية بين ليلة و ضحاها، مال، لقاءات تلفزيونيّة بصحبة المشاهير، حفلات أدبيّة، دعوات لإلقاء محاضرات عامّة في المدارس العامّة و الجامعات،،،، و لكن سرعان ما وجدْتُ الامر مربكاً و رتيباً باعثاً على الملل بعد أن إكتشفْتُ أنّ كلّ تلك الأمور بدت و كانّها لم تكن لمناقشة أفكاري الّتي إحتواها كتابي بل لمحضِ أغراض تجاريّة و تسويقيّة، و كانت المشكلة الباعثة على ضجري جليّة للغاية: كنتُ في سنوات يفاعتي و مراهقتي المبكّرة قد قضيْتُ معظم اوقاتي مع الكتب و هي الحالة الّتي تسبّبَتْ في ولعي العظيم بروح الرومانتيكية و آباءها المبجّلين: غوته، بليك، شيللي، هوفمان و آخرين من عصبة الشعراء الّذين أسماهم ييتس (جيل المأساة) و هم – بالإضافة إلى ييتس نفسه بالطبع – إيرنست داوسون، ليونيل جونسون، و جيمس ثومسون.

كانت نقطة الشروع الّتي دفعتْني لكتابة (اللامنتمي) نابعةً من تساؤلي: لماذا قضى معظم عباقرة القرن التاسع عشر إنتحاراً مثل ثوماس لوفيل بيدوس Thomas Lovell Beddoes و فان كوخ، أو إنتهوا في مصحّات عقليّة مثل هولدرلين و نيتشه ؟ كان الجوابُ الذي إقترحْتهُ في اللامنتمي يتمحور حول كون هؤلاء العباقرة قد أوغلوا بعيداً في الذاتيّة و الرومانتيكيّة فوجدوا أنفسهم عاجزين عن التناغم مع المشكلات العاديّة للحياة البشريّة اليوميّة و كانتْ ردّة فعلهم أزاء

هذا العجز هو أنّهم أداروا ظهورهم تجاه هذه الحياة و كرّسوا حياتهم في محاولة الوصول إلى ما كانوا يصفونه " التوق الأبديّ "، و لكن، و للأسف، لم يكن الهروب من ساحة الحياة اليوميّة يمثّلُ حلاًّ منطقياً و معقولاً: فإذا كان هؤلاء العباقرة جادّين في سعيهم نحو شكلٍ مكثّف و مستحدثٍ من الوعي فهل كان ثمّة فائدةٌ متوقّعة أو خيرٌ يرتجى من وراء صبّ اللوم على الحظّ العاثر و من ثمّ الغرق في لجّة اليأس و الهزيمة ؟. كنتُ إختبرْتُ انا ذاتي أمثال هذه المشكلات، فعندما كنتُ في السادسة عشرة من عمري كنتُ تشبّعْتُ حتّى قمّة رأسي بمذهب الرومانتيكيّة و كنتُ لا أملّ من ترديد كلمات ييتس:

..... ما ترنو إليه ملايين الشفاه في هذا العالم

لا بدّ أن يكون أمراً جوهريّاً في مكانٍ ما.....

و ما دفعني إلى محاولة قتل نفسي بالسيانيد من قبلُ كان بسبب قناعتي المؤكّدة أنّ الحياة الواقعيّة بكل عاديّتها الرتيبة ستكبح جموحي في بلوغ " التوق الأبدي " الّذي حكى عنه الرومانتيكيّون، و لكن في اللحظة الّتي قاربَتْ فيها أنبوبة السمّ شفاهي أدركْتُ أنّ قتل نفسي كان حلاًّ في منتهى السخف و أيقنّتُ أنّني أنا و ليس غيري من يتسبّبُ في إحداث المشاكل لنفسي بالسماح لها أن تقبل بالتخاذل و الهزيمة، و عندها إختبرْتُ على نحوٍ مفاجئ ما سبق لبروست أن إختبره و وصفه بقوله " لم أعُدْ أشعر بأنّني أمرؤ عاديّ أو محدود، جاء بمحض صدفة عمياء، و كُتِب له الفناء،،،،، ".

إنّ كوني مؤلّف الكتاب الّذي صار وقتها الأكثر مبيعاً في العالم كان بالتأكيد مبعث نشوة عميقة لي أوّل الامر و كان أفضل بكثير من عملي في مصنع الصوف، و لكن سرعان ما شعرْتُ بذات إنعدام الراحة الّتي

لطالما شعرْتُ بها من قبلُ، و بدلاً من شعوري بالرضا و الإكتفاء الذاتي تحوّلتْ حياتي إلى مادّة محبّبة للنميمة الرائجة في الأعمدة الصحفيّة. حصل بعد نشر اللامنتمي أن حاضرْتُ بكثافة كبيرة و كانت واحدةً من أولى محاضراتي هي تلك الّتي إنعقدت في معهد الفنون المعاصرة في البيكاديللي و كان من بواعث سروري أن أقدّم زوجتي جوي إلى (ستيفن سبندر) الّذي سبق لها أن راتْه آخر مرّة في محاضرة سابقة له في الجمعيّة الأدبيّة في كلّية ترينيتي Trinity (الروح القدس) في جامعة كامبردج، و كان من المثير للغاية الإلتقاء بشخصيّات أدبيّة و ثقافيّة كنت قد قرأتُ لهم من قبلُ: ستيفن سبندر، كريستوفر إيشروود، إديث سيتويل، هربرت ريد، لويس ماكنيس،،، و كذلك برسّامين من أمثال: فرانسيس بيكون، لوسيان فرويد، و إل. إس. لوري،،، و سرعان ما شعرْتُ بالإكتفاء من هذه الحفلات الأدبيّة.

لم تكن شهرتي المفاجئة الّتي هبطت عليّ من غير إنتظارٍ لتخلو من بعض المفاجئات المثيرة: وصلتْني يوماً ما نسخةٌ من سيرة ذاتيّة بعنوان (غروكو Groucho) لمؤلّفها غروكو ماركس، و لمّا كنتُ أعلم أنّ ماركس هذا لم يكن بالرجل الّذي يتجشّم عناء إرسال كتبه إلى أيّ أحد لذا كاتبْتُ ناشري (غولانز) متسائلاً عن السبب وراء إرساله لي هذه النسخة فأجابني أنّه بعد أن نشر السيرة الذاتيّة لغروكو كتب إلى مؤلّفها – جرياً على التقاليد المتّبعة في دور النشر – لمعرفة أسماء الشخصيّات الّتي يودّ المؤلّف لو أنّ الناشر أرسل لهم نسخاً مجّانيّة فأجابه غروكو " وينستون تشرشل، سومرست موم، كولن ويلسون " !!، و هكذا كتبْتُ رسالة إلى غروكو أشكره فيها على إهدائي نسخة من سيرته الذاتيّة و أخبره أنّني في صدد التحضير لكتابة رواية عن جاك السفّاح، و ردّ الرجل برسالة تطفح حيويّة قال في مقطع منها "

لطالما كان جاك السفّاح بطلي المثاليّ الّذي أتطلّعُ إليْه و للأسف فإنّ قدراتي الجسديّة المحدودة هي وحدها ما منعتْني من ترسّم خطاه و السير على دربه،،،، !! ". قابلْتُ مرّة في أروقة الجمعيّة الملكيّة الكاتب المسرحيّ صامويل بيكيت و إستبدّ بي إغراء محاججته حول شعوره بأنّ الحياة عديمة المعنى بالكامل و لكنّي وجدت في شخصيّته الودودة غير العدوانيّة مصدّاً أمام الإغراء الّذي إعتراني، و لكن حصل لاحقاً و حاججْتُ فعلاً كاتباً مسرحيّاً آخر هو يوجين يونسكو حول ذات ثيمة فقدان المعنى في الحياة و الّتي تسِمُ كلّ أعماله و لا زلت أذكرهُ و هو يومئُ إلى المطر المنهمر بغزارة عبر النافذة قائلاً لي " أنظرْ إلى المطر و هو يهطل بغزارة. هل ترى ثمّة معنىً وراء هذا ؟ ".

كانت واحدةً من المشكلات الّتي عانيتُها بعد نشر (للامنتمي) هي الجماهيريّة التافهة الّتي حظيتُ بها رغماً عنّي: ففي مساء أحد الأيّام كنتُ أنا و جوي نحضرُ حفلاً أقامتْه دار نشر فابر و فابر Faber & Faber و لبّيْنا الدعوة على أمل الإلتقاء بِإليوت، و لكن للأسف لم يظهر إليوت في الحفل و قابلْنا عوضاً عنه وليم غولدنغ، و لوري لي، و حصل في طريقِ عودتنا إلى المنزل أن مررْنا بمسرحٍ تتجمهرُ الحشود حوله و عندها طلبنا من السائق التمهّل و السؤال عمّا يجري فقيل لنا أنّ هذه هي ليلة العرض الأولى لمسرحيّة آرثر ميللر (منظرٌ من الجسر A View from the Bridge) و كانت الحشود المكتظّة حول المسرح تطمحُ في إقتناص لمحةٍ لمارلين مونرو، و بعد أن لمحْتُ إسم أنتوني كويل Anthony Quayle على الملصقات الجداريّة (و كنتُ إلتقيْته في حفلاتٍ سابقة) وجدْتُ في نفسي شجاعةً للإقتراب من باب المسرح و المرور بين صفّيْن من رجال الشرطة، و عندما بلغتُ الباب سألت البوّاب " أين أجدُ غرفة تبديل الملابس للسيّد كويل ؟ " فجاءني الجوابُ

على الفور " الغرفة رقم واحد، الممرّ الأوّل من اليسار تحت الممشى الرئيسيّ "، و عندما بلغْنا الغرفة وجدناها مكتظّة بالبشر و إستطعْنا تمييز لورنس أوليفييه و فيفيان لي و العديد من المشاهير الآخرين بضمنهم مارلين مونرو الّتي كانت واقفةً لوحدها أمام مرآةٍ و هي تحاوِلُ إحكام شدّ فستانها الضيّق عاري الكتف و الصدر strapless حول جسدها، و لمّا رأيتُها وحيدة تقدّمْتُ منها و قدّمْتُ نفسي بجرأة – و كنت قرأتُ عنها من قبلُ أنّها قارئة نهمة – ثمّ قدّمْتُ لها جوي زوجتي و بعدها ذهبنا للبحث عن أنتوني كويل فوجدناه و قدّمَنا هو بدوره إلى كلّ من فيفيان لي و لورنس أوليفييه و عندما سألْتُ أوليفييه عن صحّة الخبر الّذي يقول أنّ جون أوزبورن كان يكتبُ مسرحيّةً معدّة له أجاب بالايجاب و طلب إليّ أنا الآخر كتابة مسرحيّةٍ له. كانت لي تبدو ثملةً قليلاً و تُبدي نظراتٍ متغزّلة بمن حولها و عندما وجدْتُني وحيداً معها شعرْتُ بالحرج للطريقة الّتي كانت تحدّقُ بها في عينيّ و عندها تشجّعْتُ فأخبرتها كم كنتُ معجباً بأدائها لدور كليوباترا في مسرحيّة شكسبير المعروفة و الّتي كنتُ شاهدْتُها مؤخّراً فَأجابتْني " تعال لاحقاً لتراني و سنتكلّم طويلاً عن المسرحيّة "، و إكتشفْتُ بعد وقتٍ طويل أنّها كانت في هذا الطور من حياتها بالتحديد قد بدأتْ بإظهار علامات الإدمان الكحوليّ و الشبق الجنسيّ العنيف حتّى أنّها كانت تنامُ احياناً مع سائقي سيّارات الأجرة الذين يقلّونها !!. لم أعد اليوم أذكرُ من تلك الليلة شيئاً آخر بإستثناء أنّ أحد كتّاب الأعمدة الصحفيّة الّتي تبغي الإثارة سألني ما الّذي كنتُ أفعله هناك فأجبْتهُ ببساطة أنّني حضرْتُ حفلةً و كنتُ أتأمّلُ رؤية إليوت فإنتهيْتُ إلى رؤية مارلين مونرو، و في اليوم الثاني ظهر هذا الخبر في أحد الأعمدة الصحفيّة مع تعليقٍ يقول أنّني أعتزِمُ كتابة مسرحيّة معدّة إلى أوليفييه،

و ربّما كان هذا النوع من الجماهيريّة الرخيصة المسفوحة على أعمدة الصحف الفضائحيّة الّتي تبغي الإثارة و التهويل هو ما يساعد في تفهّم موقف النقّاد منّي – و بخاصّة سيريل كونوللي، و فيليب توينبي – الذين رأوا أنّني كنتُ أسرِفُ في خسارة مواهبي الثمينة ككاتبٍ جادّ ذي أصالة واعدةٍ.

* * * * * * * * * *

بدا واضحاً أنّ النجاح المدوّي الّذي حظي به (اللامنتمي) تسبّب في خلقِ موجةٍ من العداء لي و كنتُ على المستوى الشخصيّ أعملُ جاهداً على كبحِ هذه الميول العدوانيّة ضدّي، فمثلاً نشرتْ إحدى الصحف في سياق أحد الحوارات معي عبارةً قلتُ فيها أنّ طموحي الأعظم هو أن أكون كلمةً تتردّد بين جنبات كلّ منزلٍ، و ردّ أحد الصُحفيّن المحلّين " أنت بالفعل كلمة تتردّد أصداؤها بين منازلنا، سيّد ويلسون، و هذه الكلمة هي: مُزَيّف !! "، و تملّكني فضولٌ في معرفة هل أنّ الرجل كان قرأ (اللامنتمي) فكاتبْته في الأمر متسائلاً لَمَ ظنّ بي الزيف، و ردّ الرجل عليّ برسالةٍ طويلة شرح فيها خيباته هو مع مهنة الكتابة و إنتهينا أخيراً أن نكون صديقيْن يتبادلان رسائل ودّية للغاية، و قد تعلّمْتُ من وراء هذه التجربة درساً ثميناً: ليس ثمّة فائدةٌ من وراء الجزع أزاء مظاهر العدوان و التحامُل و تزييف الحقائق التي نُواجَهُ بها احياناً إذ هي في الغالب لا تعني أنّ المشكلة تكمن فينا بل هي تنفيسٌ عن مشاكل دفينةٍ يعانيها أصحابُها و مروّجوها. حصل ذات الشئ مع كاتب آخر يدعى (كوريللي بارنيت) الّذي صار فيما بعدُ مؤرّخاً عسكريّاً لامعاً: فقد شرع الرجل في مهنته الكتابيّة بروايةٍ مدهشةٍ – و إن كانت وحشيّة بعض الشئ – ثمّ راح يكيلُ الهجمات

ضدّي و ضدّ صديقي (بيل هوبكينز) في إحدى الصحف المرموقة فما كان منّي إلّا أن أبتاع نسخة من روايته و أقرأها فوجدتها ممتازة – برغم حسّ القسوة الجامحة فيها – فكاتبتُه لِأخبرهُ برأيي في روايته فأجابني برسالةٍ رقيقة مع دعوة للعشاء، و عندما لمحْته لاوّل مرّة وجدْتهُ رجلاً فاتناً حسن الطلعة و كانت زوجته إمرأة جميلة للغاية و قد أثبتت الأيّام لاحقاً أنّنا كنّا أفضل صديقيْن لبعضنا. كان صديقي بيل هوبكينز على العكس منّي في سلوكه تجاه منتقديه و لم يكن ليؤمن أبداً بسياسة " أدرْ له خدّك الآخر " و كان أن نشأت بينه و بين بارنيت قطيعةٌ مزمنة لم تصلحْها الأيّام، و لطالما راودني شعورٌ أنّ بيل يعيش أجواء القرن التاسع عشر برموزه الكبيرة (من أمثال فكتور هوغو) و الصراع المعلن بين الرومانتيكيّين و الكلاسيكيّين و أظنّ أنّ بيل فشل في إدراك حقيقة الفرق الجوهريّ بين صحافة القرن التاسع عشر الصارمة و نظيرتها في القرن العشرين حيث البحث عن جوانب إثارة الأحاسيس بكل الوسائل الممكنة.

كانت المواقف العدائيّة الّتي قوبلتُ بها بعد نشر اللامنتمي قد وصلت أحياناً آفاقاً غير مسبوقةٍ أو متوقّعة: ففي أحد المساءات إنضممْتُ إلى دعوة عشاء أقامها (مارغوت وارمسلي) مدير الأعمال في مجلّة (إنكاونتر Encounter) المرموقة و كان يجلسُ قبالتي الروائيّ كونستانتين فيتزغيبون، و عندما سألني مارغوت عن رأيي في أعمال (ديلان ثوماسDylan Thomas) أجبتُ بالقول إنّي لا أحبّ معظم أعماله، وفي تلك اللحظة رأيتُ ففيتزغيبون و قد تصاعد الدم في وجهه حتّى غدا قرمزيّاً داكناً ثمّ راح يصيح في وجهي و يدعوني إلى القتال خارج المطعم و هو يصرخ مزمجراً " أيّها الوغد، هل تظنّ نفسك ملكْتَ العالم بسبب تلك الإطراءات البلهاء الّتي صبّها عليك بعض

الأغبياء ؟ "، و دهشْتُ كثيراً عندما سمعت بعد يومين من تلك الليلة أن فيتزغيبون ذاته دلق علبةً من البيرة على رأس صديقٍ لي لانّه دافع عنّي في إحدى حانات سوهو !!.

لعب صديقي بيل هوبكينز دوراً ميكيافيليّاً في حياتي: كان دائم الإطـراء على ذلك الجيل الأقدم من الكُتّاب الجريئين المقاتلين غير الهيّابين أمثال: هوغو، زولا، ويلز، شو و كان رأيه على الدوام أنّ الكاتب ينبغي أن يكون تاثيرٌ مجتمعيّ واضحٌ و كان أكثر ما يزدريه هو فضيلة " الهدوء المتّسم بالوقار " كما كان مثاله الأعلى هو نمط الكاتب – السياسيّ الّذي بشّر به شو في بعض كتاباته. لم يبْدِ بيل – و هو الأمر الّذي أثار دهشتي – أي حسدٍ تجاهي و لكنّ نجاحي خلق فيه نوعاً من الإنضباط و العزيمة الصارمة لكي يضمن له إسماً في عالم النشر و القراءة فبدأ العمل مثل آلةٍ بخاريّة على رواية أسماها (المقدّس و الخراب The Divine and the Decay) الّتي سرعان ما تلقّفها الناشر هوارد صامويل و رئيس تحريره الشاب اللامع توم ماشلر: الشاب العصاميّ الّذي صنع شهرته الإعلاميّة بنفسه، و رأى ماشلر أنّ النجاح العارم الّذي هبط على جماعة (الشباب الغاضب) ينبغي إستغلاله على المستوى التجاريّ فجاءت رواية هوبكينز لتكون بمثابة لقيةٍ سماويّة تساعده في حجز موقع لإسمه في خضمّ دهاليز النشر التجاريّة المربحة و هكذا إنطلق ماشلر في إعداد كتابٍ بعنوان (إعلان Declaration) أراده أن يضمّ سلسلةً من المقالات الّتي كتبها جماعة الشباب الغاضب، و رفض كلّ من كينغزلي اميس و أيريس مردوخ بحكمة و بصيرة المشاركة في الكتاب سواءُ بتدبيج مديح له أو المشاركة بمقالة فيه و هكذا وجد ماشلر نفسه مجبراً على إشراك كلّ منّي، و أوزبورن، و وين، و تيتان، و بيل هوبكينز، و مخرج الأفلام لندساي أندرسون،

و الروائيّة دوريس ليسنغ، و ستيورات هولرويد الّذي كان نشر حديثاً روايته (الإنبثاقُ من الفوضى Emergence from Chaos) الّتي نشرها غولانز ناشر كتبي و كتب في غلافها الخلفيّ أنّها تحمل رسالة شبيهة برسالة كتابي (اللامنتمي) و أنّ كاتبها هولرويد لم يتأثّر بي أبداً و هو الأمر الّذي أرى أنّ غولانز جانبَ الصواب فيه كثيراً، و لكن على أيّة حال حاز كتاب هولرويد قدراً عظيماً من النجاح و الإهتمام و ساهم إلى حدّ بعيد في تعزيز الهوس الجماهيريّ بجماعة الشباب الغاضب، و لكنّ ذات النقّاد الّذين بالغوا في إطراء اللامنتمي شنّوا منذ البدء هجوماً كاسحاً و ظالماً ضدّ هولرويد و كان واضحاً منذ البدء أنّهم عزموا على عدم السماح ببزوغ نجم جديد صاعد يحقّق شهرة و نجوميّة إعلاميّة بين ليلة و ضحاها كما حصل معي، و الحقُّ أنّ كلّاً من ستيوارت و بيل كانا ضحيّتيْن لنجاح اللامنتمي و فشلا للأسف في فهم مسألةٍ على قدرٍ كبير من الأهمّية: إنّ كلّ نجاحٍ جماهيريّ عاصف لا بدّ أن ينتهي يوماً ما بردّة فعلٍ عنيفة معاكسة !!.

كان نجاحي الماليّ بعد نشر اللامنتمي ملحوظاً و لايمكن إغفاله: فقد طبع ناشري غولانز في البدء طبعة أولى من الكتاب بخمسة آلاف نسخةٍ نفذت خلال ايّام معدودات ثمّ تتالت الطبعات حتّى بيع من الكتاب أربعون الف نسخة و أبْدت دار نشر (هوتون ميفلين) الأمريكيّة العملاقة رغبتها في طبع الكتاب و تسويقه في أمريكا و هذا ما حصل بالفعل و نُشر الكتاب في شهر أيلول من عام ١٩٥٦، كما نشرت مجلّة (تايم Time) الأمريكيّة حواراً معي إمتدّ على صفحة كاملة قبل وقت قصير من نشر الطبعة الأمريكيّة و سرعان ما أصبح الكتابُ واحداً من أكثر الكتب مبيعاً و ظهرت صورتي المنشورة على صفحات مجلّة (لايف Life) الذائعة الصيت و أنا مستلقٍ في حقيبة

نومي في هامبستد هيث و أرتدي السترة ذات العنق و أضحت تلك الصورة لاحقاً علامتي المميّزة و صرْتُ أعرَفُ بها منذ ذلك الوقت.

تمكّنْتُ بعد وقتٍ قصير من نشر اللامنتمي من مقابلة إليوت بعد أن علمْتُ أنّه يداوِمُ على الذهاب بإنتظام كلّ أحد إلى كنيسة القدّيس أوغسطين في منطقة (بوّابة الملكة Queen"s Gate) و علمْتُ أيضاً أنّه كان يعمل ناظراً للكنيسة (أي أنّ أحداً لو حصل و تشاجر أو أربك الهدوء في الكنيسة لَكان واجباً على إليوت أن يمسك بمؤخّرة عنقه و يقوده إلى بوّابة الكنيسة ليطرده خارجاً)، و هكذا عزمْنا انا و جوي الذهاب إلى الكنيسة في أقرب يوم أحد للتاكّد من صحّة هذا الكلام، و عندما فعلْنا ما عزمنا عليه وجدنا إليوت حاضراً بالفعل و لمحناه جالِساً على أحد المقاعد الخشبيّة الطويلة في مؤخّرة الكنيسة و كان مرتدِياً بدلة سوداء أنيقة مع قميصٍ يشعّ بياضاً و ذي ياقةٍ مُنشّاة فذهبْنا و جلسْنا قبالته، و مع بدء الموعظة الدينيّة سمعنا صوت تحطّم زجاج جعل كلّ من كان حاضراً يقفِزُ من مكانه ثمّ تعالت الأصواتُ، و هنا وجدْتُ لزاماً عليّ أن أخرج لأرى ما كان يحدث فوجدْتُ العديد من زجاجات الحليب مهشّمةً أمام باب الكنيسة و لمحتُ عدداً من الأطفال الصغار يتراكضون بعيداً، و بعد أن تأكّدْتُ من إبتعادهم عدتُ إلى مقعدي و لمحْتُ نظرة إمتنانٍ ودودة تشعّ من عينيّ إليوت.
ذهبْتُ الأسبوع اللاحق لرؤية إليوت في مكتبه بدار نشر (فابر و فابر) و كنت آنذاك أتعاونُ مع الشاعر (رونالد دنكان) في مسألة إطلاق سراح الشاعر المعروف (عزرا باوند) من السجن الّذي كان محتجزاً فيه بتهمة الخيانة و كنتُ ألتمس الحصول على توقيع إليوت على طلب الإلتماس الداعي لإطلاق سراح باوند، و بدا لي إليوت في مكتبه تماماً كما رايته في الكنيسة رجلاً مهندماً يحرص على إرتداء ما يجعلهُ يبدو

كمدير تنفيذيّ لشركة أعمال كبرى، و عندما بادرْتهُ بالقول " رأيتك الأحد الفائت في الكنيسة " أجابني على الفور " أعلم و أتذكّرك جيداً "، فدهشْتُ و سألته " و كيف هذا ؟ " فردّ عليّ بإقتضاب " و هل يوجد أحمقٌ سواك يحضرُ الكنيسة و هو يرتدي سترةً ذات عنق؟ " !!، و من المثير في هذا السياق أن أروي تلك الحكاية الّتي كنتُ سمعتُها عن (فاليري) زوجة إليوت: ففي إحدى حفلات العشاء التي حضرها إليوت و زوجته قفز كلبٌ صغير على كتفَي فاليري و راح يلعقهما بنهم، و عندما شاهد إليوت هذا إبتسم و إكتفى بالقول " أعلمُ تماماً كيف يشعر هذا الكلب الآن !! ".

إلتقيْتُ في هذه الفترة أيضاً مع الناقد و الروائيّ و العالِم (سي. بي. سنو C. P. Snow) و كنتُ قرأتُ روايته (الرجال الجدد The New Men) الّتي تحكي عن مجموعةٍ من العلماء الكمبردجيين، و وجدْتُ في الرواية واحدة من أكثر الروايات الّتي قرأتها ذكاءً و صنعةً آنذاك. كان سنو قد نشأ في ليستر مثلي فكاتبْته معبّراً عن مدى إعجابي و إفتتاني بأعماله فردّ عليّ برسالةٍ عرض فيها دعوتي لتناول شرابٍ في حانةٍ تقع إلى الجنوب من الهايدبارك، و قضيْتُ معه يوماً جميلاً للغاية: فقد غادرْنا الحانة بعد تناول الشراب و جلسْنا على أحد الأرصفة تحت ظلال شجرة ليمون وارفة و تبادلنا الحديث أوّل الأمر عن ليستر و كنتُ سعيداً بملاحظة أنّ سنو لا يزالُ محتفظاً بآثارٍ عتيقة من لهجة أهل ليستر المميّزة، و كان واضحاً إعجابنا الواحد بالآخر، و عندما حان وقت الوداع قال لي " دعني أمنحْك نصيحة صغيرة يا صديقي: أنت تمتلكُ شخصيّة ودودةً و لطيفة للغاية و لو كنتُ مكانك لخالطْتُ الناس أكثر ممّا أفعل الآن. إحضرْ حفلاتٍ أكثر و سترى أنّ أكثر من نصف هؤلاء الّذين يعادونك اليوم سينهزمون أمام لطفِك و أريحيّتك

"، و كان الرجلُ مصيباً تماماً و لكنّي كنتُ في تلك الأوقات أعاني ممّا أسميْته لاحقاً " أجواءُ لندن المسمومة " و كانت فكرة حضور حفلاتٍ أكثر كفيلة بجعلي أصابُ بقشعريرة حادّة و لكن برغم ذلك أثبتت تلك النصيحة كونها مثاليّة و رائعة من لدُن رجلٍ مثل سنو عُرِف عنه في أروقة (الوايتهول) بأنّه أستاذ لا يبارى في فنّ حلّ المشكلات المستعصية.

* * * * * * * * * *

على الرّغم من أنّني لم أستطِبْ كثيراً النجاح الّذي هبط عليّ لكنّي كنتُ على الأقلّ أستمْتعُ بإمتلاك ما يكفي من المال لأعيش كما أحبّ و كان هذا هو الجزء الأكثر إمتاعاً في الضجّة كلّها، و هكذا إقتنيْتُ كرامو فوناً رخيصاً بعشر باونات و كنتُ معتاداً على المشي من منزلي لخمسة دقائق إلى حيثُ يقع محلّ (Gate Book Shop) ثمّ أمضي في تصفّح عشرات الكتب و الأسطوانات المستعملة فأقتني بعضاً منها ثمّ أكتب شيكاً بعشرين باوناً، و لا زلتُ أذكر الغبطة العارمة الّتي كانت تغمرني و أنا أحمل مشترياتي الثمينة في طريق عودتي إلى المنزل. إشتريْتُ مرّة مجلّدات حديثة من الأنسيكلوبيديا البريطانيّة و مجموعة (دراسة في التأريخ Study of History) لتوينبي، و ماكان يبعث فيّ أكبر قدرٍ من المتعة بالقياس إلى كلّ المتع الأخرى هو شرائي – بعض الأيّام على الاقلّ – للدجاج البارد المطبوخ حديثاً مع كمّيات من الزيتون و الخيار المحبّب مع بعض المقبّلات المشهّية الملفوفة بأوراق نبات الكرمة المعرّشة و لم أكن لأنسى حتماً شراء قنّينةٍ من نبيذ (بورغندي) و هكذا كنتُ أوفّر لِـ (جوي) وجبة غداء أو عشاء جاهزة. كان من الممتع في تلك الأيّام إصطحابُ جوي إلى بعض المطاعم الفاخرة في حيّ سوهو

إو إلى حانة تقع قبالة الهايدبارك حيث يُمكنُ للمرء الجلوس على الشرفة تحت الشمس المشرقة و تناول وجبة ممتازة من الغداء البارد مع البيرة المنعشة، و بعد أن كنتُ لسنواتٍ قد إعتدْتُ أكل الباقلّاء المعلّبة مع الخبز و الجبن و لم أكنْ لأشتكي من ذلك و صدّقْتُ بنزاهة أنّني لمْ أكن بالمرء الّذي يعيرّ كثير إهتمام لما يأكل أكتشفْتُ فجأةً أنّني شخصٌ يمكن له أن يستمتع بالطعام الجيّد متى ما توفّر له كما يفعلُ أيّ ذوّاق مدمنٍ على الأكلات الفاخرة.

حصلتْ جوي على عملٍ لها كمُوظّفةٍ في مكتبة المعهد البحريّ في مدينة سرّي Surrey و كنّا نذهبُ صباح كلّ يوم معاً إلى العمل و كان أهل جوي يظنّون أنّنا كنّا نعيش منفصليْن عن بعضنا.

كان أحد مصادر المتعةِ الهائلة تلك الايّام هو معرفتي بالنبيذ على طريقة الناس الأكثر تحضّراً: تناول النبيذ فيما يشبه الطقس اليوميّ الواجب و محاولة تجربة كلّ الأنواع المتوافرة في السوق، و جرّبْتُ أوّل أيّامي نبيذاً إيطاليّاً ذا حمرةٍ مُشعّة يدعى (Nebiolo d"Asti) ثمّ إعتدْتُ في الأيّام اللاحقة على نبيذ (– Nuits Saint Georges).

أقنعْتُ نفسي تلك الأيّـام أيضاً على الإنصياع لرغبتي في الإنضمام إلى نادٍ و إخترْتُ نادياً يدعى (نادي المتوحّشين Savage Club) و سبق لديلان ثوماس أن طُرِد منه لثمله المتواصل و ظهوره بمظهر غير لائق الهندام، و كان الممثّل المعروف جون إيرفينغ هو من أسّس هذا النادي فعلاً و كان أغلب أعضاء هذا النادي من السفلة الداعرين و الممثّلين و الموسيقيّين و الكتّاب المميّزين، و الحقّ أنّني كنتُ أشعر في ذلك النادي و كانّني في بيتي و لكن لم يعجبْني

فيه إضطراري كلّ مرّة إلى إرتقاء عتباته المرمريّة الكثيرة العدد أو ذهابي للتبوّل في مرحاضه الصغير للغاية.

أذكر إحدى المساءات أنّني إنضممْتُ إلى نقاش حول المسرح الحديث في قاعة المسرح الملكيّ و كان كينيث تينان رئيس الجلسة و أعضاء الحلقة النقاشيّة هم: آرثر ميللر، جون ويتينغ، وولف مانكوفيتش، و كانت مارلين مونرو جالسة تصغي في الصفّ الاماميّ من القاعة. كان مانكوفيتش روائيّاً متخصّصاً في الفكاهات و المراثي و الحكايات الكوكنيّة (كوكني Cockney: **هي إشارة إلى العادات و السمات و اللهجات الخاصّة بسكّان شرقيّ لندن، المترجمة**)، و بعد بضع دقائق من بدء المناقشة راح مانكوفيتش يصفُ – و من غير سابق تمهيد – اللامنتمي بأنّه لايعدو أكثر من " أنثولوجيا من الإقتباسات " و هنا تصاعدت همهماتٌ و ضحكات شجّعت الرجل على المضيّ في ذات خطّ الهجوم الّذي إبتدأه طيلة مناقشات ذلك المساء، و في اليوم اللاحق ظهر تقريرٌ غير مذيّل بأيّ إسم في إحدى صحف المساء اللندنيّة بعنوانٍ يقول " مانكوفيتش تلاعب بويلسون كما يلعب أسدٌ هصورٌ مع فأرة قميئة !! " و دعيتُ في اليوم الّلاحق لظهور التقرير الصحفيّ لحضورِ مناظرةٍ تلفزيونيّة مع مانكوفيتش حول ذات الموضوع و قد لبّيْتُ الدعوة فعلاً و جاءت المناظرة ساخنةً للغاية و لكنّها لم تنزلقْ أبداً إلى مستوى إساءاتٍ غير مهذّبة، و عندما حصل بعد وقتٍ و أتيحت لي الفرصة لسؤال مانكوفيتش عمّن يكون الكاتب وراء ذلك التقرير الصحفيّ إكتسى وجههُ بحمرة داكنة و تنحنح قليلاً ثمّ قال " أنا من فعل هذا ".

طُلِبَ منّي أحد الايّام أن أتحدّث في إحدى الجمعيّات الروحانيّة في فندق (نايتسبردج)، و عندما وصلْتُ الفندق إكتشفْتُ أنّ معظم الحاضرين كُنّ سيّداتٍ كبيرات في السن، و عندما لمحْتُ أحد كتّاب الأعمدة الفضائحيّة في (الديلي إكسبريس) إقترب الرجل منّي و طلب مشاركتي في كاسٍ من الشراب و إنعقدت بيننا سريعاً صداقة حميمة، و بعد أن تحدّثْتُ إلى السيّدات عقب العشاء قلتُ أنّني غدوْتُ مُتعَباً للغاية من وصفي متحدّثاً بالنيابة عن الجيل الأكثر شباباً و انّني لا أرغبُ أن أمثّل أحداً سوى نفسي و أنّ اللامنتمي ليس أكثر من إعلانٍ شخصيّ و أنّني سأشعر حتماً كما يشعُرُ أيُّ مخادعٍ محتال لو أُعتُبِر اللامنتمي توجّهاً جديداً مضاداً للنظام المؤسّساتي القائم، و لدهشتي ظهرت الديلي إكبريس في اليوم التالي بعنوانٍ عريض يقول " كولن ويلسون يعترِفُ أنّه محتال !! " و نقلت الصحيفة على لساني أنّني قلتُ " كُتِب اللامنتمي بنيّة مخادعة بالكامل عن تلك الّتي كان ينويها الكاتب في بدء عمله " و هنا وجدْتُ ناشري غولانز يتحدّث معي عبر الهاتف و هو يغلي غضباً و قال انّه سيلزِمُ الصحيفة على كتابة إعتذار و لكنّ شعوري كان أنّ هذا الإعتذار لن يعوّض خسارتي بعد أن شعر الكثيرون بسعادة عارمة تجتاحهم لرؤية الناس و هي ترمي بكتابي في القمامة على أساس أنّه نتاجُ إحتيال كامل من كاتبٍ تمرّس في التزوير و الخديعة.

عندما نشرت صحيفة (الأوبزرفر) في عيد الميلاد صفحة كاملة مكرّسة للكُتّاب الكبار يحكون فيها عن الكتاب الأفضل و الأكثر إمتاعاً الّذي قرؤوه تلك السنة **(يقصد المؤلّف السنة الّتي نُشِر فيها اللامنتمي و هي سنة ١٩٥٦، المترجمة)** حصل كتاب اللامنتمي

على إشارةٍ واحدة من جانب الكاتب (آرثر كويستلر Arthur Koestler) الّذي قال في سياق تعليقه على كتابي " الفقاعة الملوّنة لهذه السنة: اللامنتمي، الّذي إكتشف فيه كاتبٌ شابّ أنّ عباقرة الناس عُرْضةٌ للشعور السوداويّ الكئيب المقترن بالشقاء و الضجر ".

* * * * * * * * * *

توالتِ الهجماتُ على اللامنتمي و كانت هذه الهجماتُ تعلو نبرتُها كلّما زاد دفق الشهرة و الجماهيريّة الّتي إرتبطت بإسمي، فكان أن طلبَ إليّ صديقي (جون ريتي) كتابة مقالةٍ في مجلّته (Intimate Review) و ألصق إعلاناتٍ تحملُ صورتي و تبشّرُ بمقالتي الموعودة على كلّ جدران قطارات الأنفاق تحت الارضيّة (Underground) و هكذا صرْتُ أرى وجهي يحدّقُ فيّ كلّ مرّة كنتُ أستقلّ فيها واحداً من تلك القطارات، و لكنّ هذا الإجراء دفع بالنقّاد إلى الغلوّ في إنتقاداتهم إلى الحدّ الّذي دفع صديقي المُقرّب (أنغوس ويلسون Angus Wilson) إلى دعوتي للغداء و إخباري أنّ الحملة العدائيّة ضدّي ستمضي بلا هوادة و ستصبحُ هوجاء أكثر من ذي قبلُ و الأنكى من ذلك أنّ أغلب الناس يظنّوني أنا من يعمل من وراء الكواليس بمثابة المايسترو الّذي يديرُ الأوركسترا الّتي تعملُ على نفخ أسمي و جماهيريّتي، و أذكر جيّداً أنّني أخبرتهُ بأنّ خبرتي مع الشؤون الإعلاميّة لم تكن لتفوقَ الخبرة المتوفّرة لكرة قدم – من غير لاعبين – في إحراز الأهداف !!، و رأى الرجل أنّ من الأفضل لي أن أبتعد عن لندن و لو لفترةٍ محدّدةٍ و البقاء هناك قدر ما أستطيع، و صار واضحاً لديّ بعد ستّة شهورٍ من نشر اللامنتمي أنّ الشعور السائد لدى طبقة

الإنتلجنسيا المثقّفة البريطانيّة أنّ اللامنتمي كان هبّة جنون سرعان ما تخبو نارُها و تموتُ كما يطالُ الموت جسداً هرِماً بشكلٍ طبيعيّ و أنّني سأعود بعدها حتماً إلى كهف النسيان و خفوت الذّكر الّذي إنبثقْتُ منه على نحوٍ غير متوقّع، و هنا قرّرْتُ أنّ الوقت حان لمغادرة لندن، و كان مراسلٌ صحفيّ يدعى (هيو هاكستول سمث) عرض أمامي إستخدام غرفتيْن في منزله بمنطقة توتنس Totnes في مقاطعة ديفون Devon و كان هذا يبدو حلّاً معقولاً للغاية و الغريبُ أنّني لم أكن أعرف شيئاً عن السيّد سمث و لم ألتقِ به يوماً و كلّ ما عرفته عنهُ أنّه كان ألّف مقرّرات دراسيّة في مادة الفيزياء، وألحّ صديقي بيل هوبكينز على مرافقتي و المكوث معي لبضعة أسابيع و هذا ما حصل فعلاً و إنطلقْنا جميعاً إلى ديفون في شهر تشرين ثانٍ من ذلك العام. لم يَطِبْ لي البقاء في المنزل مع صديقي بيل بعيداً عن جوي و كتبي و موسيقاي المحبّبة و بعد أسبوعٍ لا أكثر وجدنا انفسنا أنا و بيل و قد عدْنا إلى لندن و لكن لم يكن مكوثُنا هناك من غير فائدة فقد وضعتُ مخطّطاً لكتابٍ قادم لي أسميْتهُ (المصلحون الروحانيّون Spiritual Reformers) و هو العنوان الاصليّ لمخطوطة الكتاب الّذي نُشِر لاحقاً تحت عنوان (الدّين و المُتمرّد) كما كتب بيل هناك فصلاً من كتاب (الإله و الخراب) و عندما أسترجعُ ذاكرتي اليوم أرى أنّ الأفضل لو مكثْتُ خارج لندن فما حصل في بضعة شهور اللاحقة أثبت أنّه الفصل الأكثر إيلاماً و سوءً في كتاب حياتي بأكملها.

كان والدي تلك الأيّام قد غدا عصبيّاً هو الآخر: فمع نشر اللامنتمي و النجاح الّذي حصده الكتاب كان من الطبيعيّ أن يتملّك الزهو والدي إلى حدّ الغرور بعض الأحيان و كان دائم التباهي بالإنجاز المميّز الّذي حقّقه إبنه و لكن بعد بضعة أشهرٍ صار مستاءً للغاية عندما راح

أصدقاؤه في جمعيّة جادّة كولمان Coleman Road Club يمطرونه باسئلةٍ من نوع " ما الّذي حلّ بولدك ؟ و لماذا يعيشُ في جُحْرٍ مثل جرذٍ مُتخفٍّ ؟ " و كان والدي يتعامل بحساسيّة مؤذيةٍ – على العكس منّي – مع كلّ ما كانت تقوله عنّي الصحف.

دعاني الناشرُ غولانز يوماً لمقابلته و عندما ذهبتُ إليه نصحني – بالضبط كما فعل أنغوس ويلسون – بمغادرة لندن و المكوث خارجها لأطولِ وقتٍ ممكن و أخبرني بوضوحٍ أنّ ثمّة إنطباعٌ شائعٌ بأنّني رجلٌ باحثٌ عن الشهرة المجانيّة و أنّ هذا الأمر ستكونُ له تبِعاتهُ المؤذية و سيقود إلى المزيد من المواقف العدائيّة تجاهي و بخاصّة متى ما فكّرتُ في نشر كتابٍ ثانٍ لي و هو الأمر الّذي كنتُ أعتزمه فعلاً. كانت تتملّكني لهفةٌ منذ زمنٍ بعيد للسكن في جزر (هبريدس Hebrides) الّتي كنتُ أرى فيها واحةً رومانتيكيّة رائعة و لكن حصل عندما زرتُها أن إمتلأتُ بخيبة أملٍ لا توصف و ودَدْتُ لو لم أزرْها فقد كانت خانقة الرطوبة و لكنّ صديقاً لي كان يسكنُ في الغرفة المجاورة لغرفتي عرض عليّ وقتَها عرضاً بديلاً عن السكن في جزر الهبريدس: كان الرجلُ شاعراً إسمه لويس إديان Louis Adeane و يعملُ لدى أحد الناشرين اللندنيّين و حصل أن إستبدّ بالرجل الحنين للعودة إلى بلدة كورنوال Cornwall و ذهب فعلاً و إستأجر كوخاً ريفيّاً هناك لقاء أجرٍ أسبوعيّ قدره خمسةٌ و عشرون شلناً و لكن عرض له أمرٌ إستوجب مكوثه في لندن و إبتعادَهُ عن كورنوال لسنتيْن متتاليتيْن لذا قدّم عرضه لي باستئجار كوخه الريفيّ لقاء ثلاثين شلناً في الأسبوع و طلب إليّ بإصرارٍ أن أقبل عرضهُ الّذي سيوفّرُ عليه دفع الايجار الشهريّ و سيجعله يربح خمس شلنات فوق ذلك كلّ أسبوع. ذهبنا أنا و جوي لإلقاء نظرةٍ على ذلك الكوخ الريفيّ أحد أيّام نهاية الأسبوع

أوائل آذار من ذلك العام و نزلنا أوّل الأمر و نحن في طريقنا بنزُلٍ يديره الشاعر و الناقد دي. إس. سافاج D. S. Savage و في صباح اليوم التالي إستاجرنا تاكسياً أخذَنا إلىَ الكوخ الريفيّ و كان علينا أن نمشي لنصف ميل عبر مسارٍ مليئ بمُخلّفات روث البقر. كان ذلك الصباحُ مُشعّاً و رائعاً و ما إنْ رأيتُ الكوخ من بعيد حتّى ادركْتُ أنّ حسن الحظّ كان ينتظرنا: كان الكوخُ قابعاً بسكون على قمّة تلّة يمكنُ رؤية البحر من سفحها الآخر و كان ثمّة جدولُ ماءٍ يمرّ من أمام الكوخ و يُحدِثُ خريراً شبيهاً بصوت إنهمار المطر. كان الكوخُ مبنيّاً على الطراز الإليزابيثيّ و كان يدعى تقليديّاً (الجدران العتيقة Old Walls) في إشارةٍ إلى جدرانه السميكة البالغة قدميْن و المطليّة باللون الأبيض، و لم يكن في الكوخ مصدرٌ للكهرباء و كانت الإضاءةُ الوحيدة المتاحةُ توفّرُها بضعةُ مصابيح نفطيّة و كان الموقد لا يعدو قنّينة صغيرة تعمل على الغاز و كان المرحاضُ في حاجة لتنظيفٍ و شطفٍ بالماء و لكنّ الكوخ بعامّة كان يبدو جذّاباً للغاية حتّى أنّني قلقْتُ من تصوّر خيبة الأمل الّتي سنكونُ عليها لو حاول لويس العدول عن رأيه و العودة للسكن في الكوخ قبل إنقضاء فترة السنتيْن الّتي إتّفقْنا عليها. إتّفقْنا أنا و جوي على إستئجار الكوخ و دفعْنا مبلغ الإيجار مقدّماً و لكن قبل أن ننتقل للسكن فيه كان يتوجّبُ علينا إيجادُ مصدرٍ للكهرباء لأكون قادراً على سماع موسيقاي المُحبّبة إلى روحي و كان هذا بالضرورة يعني نصبَ مولّدةٍ للكهرباء في الكوخ، و كان ينبغي للحصول على الماء الحار إبقاء الموقد شغّالاً في حمّام الكوخ، و كان يمكننا الحصولُ على ماء الشرب من بئرٍ حفرناها في حديقة الكوخ. إشتريْتُ مولّدة كهرباءٍ لقاء مائةٍ من الباونات و ساعدني صديقي مايك ويات Mike Whyatt – الّذي سيثبِتُ لاحقاً أنّه كاتبٌ رائعٌ و شديد الذكاء –

في عمل التمديدات الكهربائيّة، و لم يكنْ ثمّة تلفازٌ في الكوخ و بصراحةٍ لم نكن نرغبُ في واحدٍ طالما لم يكنْ امامنا خياراتٌ كثيرةٌ متاحةٌ في إنتقاء البرامج، و في أوّلِ يومٍ لنا في الكوخ و عندما إستلقيْتُ عصر أحد المساءات مسترخياً في مقعدي أمام موقد النار و أنا أشارِكُ صديقي مايك قنّينةً من النبيذ شعرْتُ أنّني و جوي قد عثرنا أخيراً على فردوْسِنا المفقود.

١١. بعيداً عن لندن و النساء الفاتنات

ربّما كانَ قرارُنا أنا و جوي بالإنتقال إلى السكن في الريف واحداً من أفضل القرارات الّتي إتّخذناها في حياتنا بأكملها، فقد كنتُ أحضُرُ الكثير من الحفلات في لندن و أقابلُ العديد من الفتيات الفاتنات في هذه الحفلات ممّن كانت عيونهنّ تتوهّجُ بنار الرغبة في إقامة علاقةٍ معي و لم أكنْ في الحقيقة بذلك الأخرق الّذي يفوّتُ إستغلال بعضٍ من هذه الفرص المتاحة أمامي إذ كنتُ حينها حسّاساً للغاية تجاه فتنة النساء و غوايتهنّ و مليئاً بدفق الحياة الرومانتيكيّة بذات الوقت، و المؤكّدُ أنّ إستقراري مع جوي في كوخنا الريفيّ طرد كلّ هذه الإمكانيّات و وأدها في مقبرة النسيان. لا بدّ لي هنا القول أنّني منذ المرّة الأولى الّتي لمحتُ فيها جوي أدركْتُ على الفور انّها الفتاةُ الّتي كنتُ أبحثُ عنها و أنّها كانت تجسيداً حيّاً لمثال المرأة الخالدة و الأبديّة الّتي أطمحُ فيها و لكنّي مع هذا وجدْتُ – مثلما فعل شيللي من قبلُ – أنّهُ أمرٌ باعثٌ على اعلى درجات الحسرة و الإشفاق على الذات عندما يتوجّبُ عليك أن توصد بابا أزاء كلّ نساء العالم و تدعهُنّ يمضين في حالهنّ. عالج بعضُ الكتّاب – من أمثال إج. جي. ويلز و برتراند راسل – هذه الإشكاليّة بالمضيّ في إقامة علاقاتٍ نسائيّة متعدّدة و ترك زوجاتهم يتكيّفن مع الأمر بمجهوداتهنّ الخاصّة و بالطريقة الّتي يحببْن، و علمْتُ من أخبار النميمة الشائعة أنّ كلّاً من الناقديْن (فيليب توينبي) و (سيريل كونوللي) و معهم الفيلسوف (أي. جَي. آير) كان يقيمُ نصف دزينةٍ على أقلّ تقديرٍ من العلاقات النسائيّة كلّ حين و كان هذا الأمر سيبدو

مؤلماً للغاية لو حصل معي و سيقيم الدليل على بطلان مروءتي فقد كنتُ أعشق جوي و خطفتُها بعيداً عن أحضان زواجٍ هانئٍ تقليديّ مريح و تسبّبْتُ في إفساد علاقتها بعائلتها و على العموم يمكنُ أن أعترف بحقيقة الألم المبرّح الّذي عانيْته بسبب إبتعادي عن الفتيات الجميلات و كان ألمي شبيهاً بالالم الّذي يعانيه من أضطرّ لبتر ذراعه، و لا بدّ من الإعتراف أنّ تجربة العيش في كورنوال وفّرتْ لي فرصة مثاليّة للإبتعاد عن الوقوع في مصيدة الإغراءات النسائيّة.

كان العيشُ في الريف بالنسبة لي شبيهاً بفانتازيا تحقيق الرغبات المؤجّلة: فقد كنّا نصحو عند كلّ فجرٍ مع صوت خرير المياه في الجدول الّذي يمرّ من أمام كوخنا، و كانت الشمسُ تشرقُ على الطرف الآخر من التلّة، و كان يتوجّبُ عليّ ايضاً بعد كلّ فطور أن أتمشّى بضع كيلومتراتٍ للوصول إلى صندوق بريدي و في إحدى المرّات فتحْتُ مغلّفاً بنّياً يحوي حزمة موضوعاتٍ صحافيّة عنّي فوجدْتُ لدهشتي أنّ كلّ ما كان يكتبُ عنّي بات أكثر عدائيّة من ذي قبلُ و وجدْتُني حينها في حالةٍ غريبة للغاية: فقبل سنةٍ من اليوم لم يكن أحدٌ قد سمع بإسمي ثمّ غدوْتُ نجماً ذا شهرةٍ طاغية و ها أنا – بعد عشرة أشهر من جماهيرّيتي المدوّية – أبدو ماضياً بثبات في درب النسيان مثل جنّية أسطوريّة، فهل أنّ كلّ ما حصل لي كان يعملُ لصالحي ؟ لم يكن ثمّة طريقة محدّدة لمعرفة الجواب الحاسم و لكنّ شيئاً واحداً كنتُ واثقاً منه تمام الثقة: كنّا نُمضي أنا و جوي ربيعاً ساحراً في كوخنا الريفيّ و كنتُ أتمتّع بالهدوء و راحة البال في كورنوال الّتي تبعدُ نحو ٣٠٠ كيلومتراً عن لندن. كانت معظمُ الحانات في كورنوال عتيقة الطراز و صُفّتْ فيها مقاعد خشبيّة طويلة من خشب البلّوط و سرعان ما أبان سكّانها المحلّيون عن روح الالفة و الصداقة الكامنة فيهم و غالباً ما

كنتُ أشاركهم لعبة رشق السهام و كان يمكنُ للمرء الإستمتاعُ بوجبةٍ طازجة من السمك و السلطعون على شواطئ كورنوال البحريّة الّتي يمكن رؤية بلايموث Plymouth منها. إشتريْنا سيّارة لقاء أربعين جنيهاً إسترلينيّاً و في الأسبوع الّلاحق لشراء السيّارة مضيْنا أنا و جوي في زيارة إلى القرى المحيطة بكورنوال و كنّا نكتفي بأكل وجبة السمك و البطاطا التقليديّة – أو فطائر اللحم أحياناً – مع البيرة.

كنتُ أعمل معظم الصباح في كورنوال على مجموعة أعمالي اللاحقة لكتاب اللامنتمي (الّتي أسميتُها المتمرّد أوّل الأمر)، و بعد الظهيرة كنّا نمضي للسباحة أسفل التلّة في البحر أو نختار منطقة على الخريطة و نمضي إليها في السيّارة. كانت حياتُنا في كورنوال تبدو مثل عطلةٍ طويلة ممتعة و عندما كنتُ أعمل في المصانع أو مواقع البناء من قبلُ لم يكنْ ليخطر ببالي أنّ الحياة يمكن لها أن تكون ممتعةً على هذا النحو.

تسبّبت أزمة السويس الّتي إندلعت آنذاك في في نقصٍ وقودي فادح و لكنْ يبدو أنّنا لم نتأثّر بهذه الازمة كثيراً في كورنوال و مضيْتُ في إتقان قيادة السيارة بسرعةٍ ملحوظة حتّى أنّني علّمْتُ صديقي ستوارت هولرويد كيفيّة قيادة السيّارة عندما قدِم لزيارتنا في كوخنا الريفيّ في كورنوال و كان هو بذاته من قاد السيّارة معظم الطريق عندما إصطحبْناه.بمعيّتنا في السيّارة عائدين به إلى لندن، و لكن حصل في طريقِ عودتنا أنّ سيارتنا العتيقة طراز فورد أصابها عطبٌ بالغٌ في منطقة (هامرسمث) و أبلغَنا أحد مصلّحي السيّارات أنّ إصلاح السيّارة سيكلّف أكثر ممّا يمكنُ أن تُباع به السيّارة لذا قرّرنا بيعها كخرْدةٍ و العودة بالقطار إلى كورنوال و هناك إشتريْنا سيّارة جديدة

نوع (فورد أنغليا) بالتقسيط. إعتدْتُ على إرتياد إحدى الحانات في كورنوال و لم تكن لتفوتني ملاحظةُ إمارات الإسترخاء و و السعادة البادية على وجوه المرتادين: إحساسٌ بأنّ الحياة رائعةٌ و ستمضي رائعةً إلى الأبد و كان إحساسي متى ما جلسْتُ و شربْتُ شيئاً في الحانة شبيهاً بإحساسي ليلة عيد الميلاد حيث يستحيلُ العالم عندي حينها مكاناً مسكوناً بالجنّيات الساحرات الطيّبات، كما أدركْتُ حينها لَمَ كان والدي يقضي أجمل أوقاته في الحانة و أدركتُ أيضاً لَمَ كان مَعظم الكتّاب – من رابليه و حتّى تشسترتون – قد رفعوا شأن شاربي الخمرة – المعتدلين منهم و حسب – و أعلوا مقامهم إلى مصاف الأخوّة المتصوّفة.

نُشِر كتابي الثاني – الذي إختار له الناشر غولانز عنوان الدين و المتمرّد – في ٢١ تشرين أوّل ١٩٥٦ و كنتُ منذ البدء أعددْتُ نفسي لقبول مطرقة النقد القاسية الّتي توقّعتها للكتاب رغم أنّ داخلي كان يتوهّجُ بجمرة أمل خابية و أتوقّعُ أنّ معجزةً ما بمقدورها إقناع النقّاد بأنّ لديّ ما يستحقّ الإشادة و الإطراء في كتابي هذا و لكن سرعان ما تبخّر املي وأنطفأت الجذوة الخابية داخلي بعد أن قراتُ نقد فيليب توينبي لكتابي في الأزبزرفر و الّذي يصفُ عملي بانّه حاوية قمامة !! و مضى ناقدٌ آخر هو (رايموند مورتيمر) يقول في الصنداي تايمز بأنّه لم يأنس لعملي الاوّل (اللامنتمي) لذا كان من الطبيعيّ أن يقابل أعمالي اللاحقة للامنتمي بقدر هائل من الفتور و يراها مخيّبة للآمال إلى حدّ بعيد، و لم تكن مواقف النقّاد الآخرين لتختلف كثيراً عن هذا الموقف العدائيّ، و حصل أن كنتُ قرأتُ آنذاك عن بعض النجوم الأدبيّة الّتي قتلها نجاحُها بعد ان ضاقت ذرعاً بالتفكير في النجاح الّذي ينبغي أن يعقب كلّ نجاحٍ أدبيّ و تيقّنْتُ حينها أنّ ثمن نجاحي – الّذي لطالما

حلمت فيه – لو جاء بنهاية بائسةٍ و مأساويّة كهذه فليست لي رغبةٌ في دفعِ ثمنٍ كهذا و فضّلتُ أن أستمتع بخلوتي السحريّة في قراءة كلّ الروايات العالميّة العظيمة الّتي لم أقرأها بعدُ و كذلك سماع الموسيقى الّتي أحبّها و قراءة المؤلّفات الفلسفيّة منذ الصباح الباكر و حتّى وقتٍ متأخّر في اللّيل. و لكن، ما الّذي كنتُ أنتظره بالضبط ؟ الحقّ أنّني كنتُ أرمي إلى قضاء حياتي و أنا اتطلّعُ إلى البحث عن جوابٍ لذلك السؤال الّذي أشغلني و أدهشني طيلة حياتي: كيف يمكنُ أن أحوّل شكل الوعي الّذي أمتلكه بطريقةٍ قصديّة ؟ و هذا هو بالضبط ما وصفه ويلز قي مقدّمة سيرته الذاتيّة عندما قال انّ مشاكل الحياة اليوميّة العابرة تنخرُ المثال المتسامي للحياة الّتي لطالما تطلّع إليها بشغف، و أضاف ويلز " إنّ المثقّف المتفكّر ذا الأصالة ليس بالإنسان العاديّ و لا ينتظرُ إستهلاك حياته بطريقةٍ تقليديّة و يتطلّعُ دوماً إلى حياةٍ فوق إعتياديّة Supernormal " و أدركتُ ذات يومٍ – و أنا أقود السيّارة مع جوي و ولدينا – المترتّبات العمليّة لما كان يقولهُ ويلز: فقد كنتُ أعيشُ في مستويين متمايزين، المستوى الاوّل عندما أقود السيّارة بطريقة مثاليّة و تلقائيّة و أمارس فعالياتي اليوميّة، و المستوى الثاني عندما أكون عاملاً مع الأفكار، و كان ويلز كتب أيضاً في سيرته " ليست لديّ رغبةٌ في العيش ما لم أمضِ في ممارسة ما حسبتهُ دوماً عملي المناسب " و كان واضحاً لي آنذاك أنّ العمل في عالم الأفكار و الفلسفة هو ما يمثّلُ العمل المناسب لي تماماً و هكذا ترسّخت إرادتي للعمل و مضيتُ في إكمال مخطوطتي " طقوسٌ في الظلام " و لكن كان يتوجّبُ عليّ قبلها إلقاء بعض المحاضرات في أوربا: فقبل نشر (الدين و المتمرّد) كنتُ دُعيتُ من جانب المجلس الثقافيّ البريطانيّ لإلقاء بعض المحاضرات في أوسلو و هكذا وجدنا نفسينا أنا و جوي نحزمُ حقائبنا و ركبنا

الطائرة المتوجّهة إلى أوسلو مع نهاية تشرين ثانٍ في ذلك العام و كانت تجربةً ساحرة عندما كنّا نتطلّعُ من نافذة الطائرة إلى سلاسل الجبال المغطّاة بالثلوج، و عندما هبطنا من الطائرة كان البرد يقطعُ الأنفاس و لحسن الحظّ وجدْنا ممثّلاً عن المجلس الثقافي البريطانيّ ينتظرنا و قد أوصلَنا فوراً إلى فندق الكونتننتال الراقيّ الّذي أقمنا فيه للايّام الستّة اللاحقة، و للمرّة الأولى أدركْتُ بكلّ وضوح أنّني ولِدْتُ في البلد الخطأ: فالبريطانيّون كائناتٌ مصمّمةٌ بعقولٍ بديهيّة و إعتياديّة و لا يمكنُ إصلاحها و ربّما حصل هذا لهم – بحسب إستنتاجي – بسبب إنزوائهم في جزيرتهم الصغيرة الآمنة لفترات طويلة إذ لم تتعرض الجزر البريطانيّة للغزو منذ عام ١٠٦٦ لذا لم يكن وارداً في المزاج البريطانيّ إنتاج نسخة إنكليزيّة من دوستويفسكي أو غوته أو حتّى سارتر، و في إنكلترا ليس من المعتاد طرح الأسئلة الّتي كتبْتُ عنها في كتابي (اللامنتمي) و (الدين و المتمرّد): الأسئلة الّتي وصفها (رينهولد نيبور Reinhald Niebuhr)(*) بأنّها تدور حول " طبيعة الإنسان و مصيره الوجوديّ " لذا كان من المثير لي أن أجد نفسي في بلدٍ يتعاملُ مواطنوهُ مع هذه الأسئلة الوجوديّة و أمثالها بقدرٍ عالٍ من الإهتمام و يفردون لها أسبقيّة مميّزة و ربّما ساهم الشتاء الإسكندنافيّ القاتم في إضفاء سمةٍ من الجدّية على مزاج الإسكندنافيّين و لكنّي وجدْتُ هذا المزاج متجانساً و منضبطاً و يتناغمُ تماماً مع طبعي و مزاجي. كان فندقنا الّذي نقيمُ فيه في مقابل المسرح الّذي ينتصبُ أمامه تمثالٌ مهيبٌ لِـ (إبسن) و إكتشفْتُ خلال مناقشاتي مع الصحفيّين أنّ الأدب يُعدُّ موضوعاً باعثاً للدهشة و أنّ الأفكار يمكنُ أن يكون لها تأثيرٌ عظيمٌ – أكثر ممّا نتوقّع – في تشكيل المستقبل، و حصل أن مضيْتُ في إلقاء أوّل محاضرةٍ لي بعد ظهر يوم سبت و كانت صالة المحاضرة واسعة و

جلس الطلّاب الجامعيّون حول موائد أعدّت لهم في القاعة و هم يتناولون البيرة و يستمعون بكلّ إصغاءٍ و إهتمام لما كنتُ أقوله، و خيّل لي أنّ كلّ واحد منهم كان يفهم الإنكليزيّة و يتكلّمها بطلاقة، و عندما أكملْتُ محاضرتي كان ثمّة فاصل راحةٍ إنطلقت فيه فرقةٌ لرباعيّ وتريّ تعزف مقطوعاتٍ لكلّ من (برامز) و (نيلسن).

أردْتُ من وراء محاضرتي الأولى في الأصقاع الإسكندنافيّة مقاربة الحقيقة التالية: لَمَ أنا مسكونٌ بروحٍ تفاؤليّة – قد تبدو سخيفة للبعض – في عصرٍ تغلبُ عليه روح التشاؤم و الخذلان ؟ كانت نقطة الشروع في محاضرتي هو حديثٌ عام عن الوجوديّة السائدة و بخاصّة وجوديّة هايدغر و سارتر و أوضحْتُ لَمَ كانت نظرتهم تجاه الوجود البشريّ تطفحُ بالسلبيّة، و حكيْتُ للحضور بإستفاضة كيف أنّ تجربتي في هذا الميدان تعاكس التوجّه الوجوديّ التشاؤميّ السائد و أنّ هذا لم يكن نتيجةً لمجرّد إمتلاكي مزاج منشرحٍ بصورة طبيعيّة و لكن لأنّني في كلّ مرّة أمضي في نزهةٍ صباحيّة ربيعيّة أو أستمعُ إلى الموسيقى أغدو أكثر وعياً بالمعنى الكامن في حياتنا و هو المعنى الّذي يبدو لصيقاً بالكون و يبدو نتاج ذكاءٍ كونيّ يقبعُ خارجاً عنّا، و أنّ الموسيقى و الشعر و كلّ الفعاليّات المعرفيّة العظيمة الأخرى إنّما تساهمُ في توسيع مساحة النافذة الّتي يطلُّ منها وعيُنا على هذا الذكاء الكونيّ و عندما يحصل هذا يغمرني شعورٌ بامتلاك حسّ أعظم بالمعنى الكامن في حياتنا و قد تصل الأمور معي حدّاً قد أخشى فيه أحياناً فتح نوافذ وعيي الذاتيّ أكثر ممّا فعلْتُ خشيةً أن يجتاحني طوفانٌ يغرقني تماماً، و هذه هي قِصّتي بإختصار الّتي تروي محاولتي المضنية و العنيدة في المضيّ لخلقِ نوعٍ غير متداولٍ من وجوديّة بعيدة عن محدوديّات التشاؤم و اليأس و الخذلان.

أثبتت النتائج المترتّبة على زيارتي إلى أوسلو أنّها كانت مدهشة رغم أنّ العديد من الطلّاب وجدوا صعوبةً هائلة في مشاركتي حسّي التفاؤليّ و بدا لهم العالم مكاناً عصيّاً على العيش المتوافق لأنّهم كانوا ممتلئين بشعور عميق من عدم الرضا، و لكنّ حدسي ما فتأ يخبرني آنذاك أنّني لو قيّض لي المكوثُ لفترةٍ أطول و الإنغماس في سلسلة محاوراتٍ جادّة مثل هذه فربّما كان معظم الحاضرين سيغيّرون قناعاتهم السلبيّة و يشاركونني رؤيتي التفاؤليّة في نهاية الأمر. تشاركْنا جميعاً بعد نهاية المحاضرة في حفلةٍ صاخبةٍ إمتدّت حتّى الثالثة بعد منتصف الليل و أنهكت قوانا تماماً لذا لم يكن غريباً أن أجد نفسي صباح اليوم التالي في الفندق و أنا أُعاني إلتهاباً حادّاً في حنجرتي و أعراض أنفلونزا مؤلمة فلزمت سريري و إقتصرْتُ على تناول شراب الليمون الساخن مع أقراص الأسبرين و قضيْتُ معظم الوقت في قراءة رواية جيمس جونز (من هنا و إلى الأبد From Here To Eternity) الّتي راقتْني إلى أبعد حدّ: فقد كان كاتبها يكتبُ كما يفعل أيّ أستاذٍ متمرّس في حرفته و أردْتُ لكتابي القادم (طقوسٌ في الظلام) أن يكافئ كتاب جونز من حيثُ الصنعة و التأثير، لذا فكّرتُ أن أروي ما أردتُ كتابتهُ في كتابي على هيئة قصّة أو سرديّة بسيطة و نسيان ما كنتُ إعتزمْته أصلاً في محاكاة عمل جيمس جويس (كتاب الموتى المصريّ The Egyptian Book of the Dead)، و رغم معاناتي المريرة من إلتهاب حلقي و خفوت صوتي فقد مضيْتُ فعلاً و ألقيْتُ محاضرة مساء ذلك اليوم في الجمعيّة الأنكلو – نرويجيّة و بعد نهاية المحاضرة غاب صوتي تماماً و تطلّب الأمر منّي البقاء ليوم إضافيّ في السرير في محاولة لإستعادة قواي المنهكة و أثبتت إحدى أنواع البيرة النرويجيّة القويّة المسمّاة (Julol) – الّتي تُطرح في السوق أيّام أعياد الميلاد فقط

- فعّالية ملحوظة في إعادة صوتي إلى حالته الطبيعيّة. تسبّب الضباب الكثيف في مكوثنا ليوم كامل في مطار أوسلو بعدما إعتزمْنا العودة إلى إنكلترا، و تلقّيتُ صباح اليوم التالي و قبل مغادرتنا رسالة تلغرافيّة من بيل هوبكينز يخبرني فيها أنّه في طريقه إلى هامبورغ و كان يطلبُ إليّ الإنضمام إليه هناك فإعتزمنا أنا و جوي على تغيير مسار رحلتنا و الطيران إلى هامبورغ بدلاً عن لندن و أثبت قرارنا هذا لاحقاً أنّه كان خطوة موفّقة: فبعد وصولنا مطار هاميورغ إستأجرتُ تاكسياً أخذنا إلى العنوان الّذي أعطانا إياه بيل و عندما وصلنا دهشنا لرؤية بيل جالساً على عتبة الباب و كان يبدو شاحباً و ضعيفاً و فهمنا منه أنّه لم يأكل منذ أربع و عشرين ساعة الماضية لأنّ ناشر كتابه (الإله و الخراب) كان وعده بعلاوةٍ أسبوعيّة و لكنّ العلاوة لم تصلْه في ألمانيا فأعرناه بعض المال على الفور ثمّ مضينا ثلاثتنا إلى فندق قريب و إنطلقْنا بعدها إلى حانة قريبة من الفندق، و كان طقسُ هامبورغ حينها لا يختلف كثيراً عن مثيله في أوسلو لذا نصحَنا بيل بتناول مشروب قويّ من (الروم) ثمّ تناولْنا وجبة هامبورغيّة رائعة، وأثناء تناولنا الطعام كنّا نصغي جميعاً إلى موسيقى شعبيّة ألمانيّة ملأتْنا بدفقاتٍ من السعادة و التفاؤل و قرّرنا في لحظةٍ مفاجئة أنا و جوي أن نمضي بقيّة الأسابيع الأربعة القادمة مع بيل و أن نغادر جميعاً إلى لندن قبيل أعياد الميلاد لتلك السنة. كانت رواية (الإله و الخراب) لصديقي بيل قد نُشرت حديثاً و كان مقدّراً لها منذ البدء أن تُغضِب النقّاد اليساريين لانّها كانت تحكي عن سياسيّ رتّب لإنفصاله عن أحد الأحزاب اليساريّة و التحوّل نحو الجناح اليمينيّ و مضى لينعزل في جزيرة بعيدة في محاولةٍ لإلتماس العذر لتخاذله عن نُصرة صديقه السياسيّ المقرّب الذي أغتيل لاحقاً و كان من المتوقّع أن يسبّب السلوك الميكيافيللي غير المبرّر لهذا

السياسيّ الكثير من اللّغط و النقد الجارح من قبل النقّاد و قد حصل هذا فعلاً.

أثبتت هامبورغ أنّها مدينةٌ رائعة للغاية و يمكنُ للمرء أن ينعزل فيها و يبتعد عن سماع تعليقات النقّاد القاسية، و كانت المدينة تحفّز المرء على خلق إحساسٍ طبيعيّ بنسيان كلّ المنغّصات الّتي يمكن أن تثلم بهجة الحياة، و هكذا عملْتُ طيلة ثلاثة أسابيع متواصلة مكثتها هناك بكلّ إنضباطٍ و صرامة: كنّا نتناول الفطور ثمّ ننطلق فوراً إلى معارض الكتب و عندما نعود كنّا أنا و بيل نعمل على مسوّدات كتبنا فيما كانت جوي تقضي وقتها في القراءة أو التمتّع بمشاهدة المدينة، و كان يحصلُ أحياناً أن نجد أنفسنا و قد إنغمرْنا في مناقشاتٍ مع الطلبة الذين كنّا نتناول الطعام معهم في مطاعم الطلبة في (Schulterstrasse) و كانت أغلب أحاديثنا تتناول موضوعات السياسة و ألمانيا المقسّمة و لاحظتُ أنّ الكثير من الطلبة كانوا ميّالين إلى الأفكار اليساريّة و يؤيّدون بقوّة دعوةَ ماو الثوريّة في (التقدّم بقوّة إلى الأمام). كان بيل قد سبق له مشاهدة مدينة هامبورغ عقب نهاية الحرب العالميّة الثانية مباشرة أثناء أدائه الخدمة العسكريّة الإلزاميّة و كانت المدينة لا تزال بعدُ حطاماً من أثر غارات الحلفاء الكثيفة و كانت بحيرتها المعروفة المسمّاة (ألستر Alster) لا تزال تحوي قطعاً من اللحم البشريّ المتعفّن لضحايا تلك الحرب المأساويّة. كان بيل قدِم لزيارة هامبورغ ليذكّر نفسه بأجواء الحرب القائمة إذ كان بطل روايته الثانية فرداً سبق له العمل في القوّة الجويّة الملكية البريطانيّة، و كنّا أنا و جوي عقدْنا العزم على المكوث في هامبورغ حتّى رأس السنة الجديدة و لكنْ قبل أسبوعٍ من حلول أعياد الميلاد كان الحنين قد إستبدّ بنا لذا قرّرنا الرجوع إلى لندن على الفور و لم يرغب بيل في مرافقتنا لانّه لم يكن يفضّل ركوب

الطائرات و عاد لاحقاً عبر القطار و حكى لنا فيما بعدُ تفاصيل رحلة عودته القاسية الّتى عانى خلالها كثيراً من البرد و المواقف المزعجة.

لم يكن شئٌ قد تغيّر في كوخنا الريفيّ في كورنوال فيما عدا أن الرطوبة كانت أتلفتْ أغلفة مجلّداتي من الموسوعة البريطانيّة و عملْتُ على إعادة إصلاح الأغلفة بنفسي مستعيناً بما كنت أذكره من تغليف الكتب الّذي كنّا تعلّمناه في المدرسة.

دُعيتُ عام ١٩٥٨ من قبل المجلس الثقافيّ البريطانيّ لإلقاء سلسلةٍ من المحاضرات في الجامعات الألمانيّة، و قرّرنا منذ البدء أنا و جوي أن تعقب المحاضرات رحلةٌ نهريّة عبر الراين و قرّرنا أيضاً إصطحاب والدي و والدتي اللّذين لم يسبق لهما السفر خارج بريطانيا من قبلُ، كما قرّرنا السفر بسيّارتنا لإقتناص المزيد من المتعة في مشاهدة أوربا و كذلك توفيراً للنفقات عبر التخييم عوضاً عن إستئجار الغرف في الفنادق، و الحقّ أنّني كنت متردّداً للغاية في الذهاب لانّني كنت إعتدْتُ الإلتصاق بكوخنا الريفيّ و لم يكن ذلك غريباً عليّ لانّ هذا من السمات المميّزة لأفراد برج السرطان !!، و لكنّ ما حصل فعلاً هو أنّنا إبتعْنا العدّة اللازمة للتخييم و النوم في العراء من لندن و مضيْنا في رحلتنا إلى الربوع الألمانيّة و لازلتُ اذكرُ كيف عبرْنا نهر الراين عند مدينة آخن Achen في طريقنا إلى بون لمقابلة صديقٍ لنا كنّا نعرفه في لندن و يدعى (ألفونس هيلغرز Alphons Hilgers) و في صبيحة اليوم التالي لوصولنا بون غادرنا إلى دوسلدورف و نصبْنا خيمتنا على ضفاف (دوسل Dussel) و بينما كنّا نتناولُ عشاءنا و إذا بعاصفةٍ هوجاء تهبّ فانطلقنا على الفور لمعاينة خيمتنا فإذا بها قد إستوَت مع الأرض و لكن لحسن الحظ لم يتحطّم شئٌ ممّا كان بداخلها. واصلنا

رحلتنا عبر الراين و نحن مسكونون بموسيقى فاغنر و ذكرياته و عندما وصلنا هايدلبرغ قضيْنا ليلةً في أحد الفنادق القريبة من الجسر القديم حيث شربنا الكثير من البيرة و تناولْنا عشاءً ذكّرَنا بأجواء القرن الثامن عشر، و في اليوم التالي كان موعدي مع محاضرتي الأولى، و لانّني لم أعتدْ إستخدام كرّاسة ملاحظات مساعدة لي كعادتي في كلّ محاضراتي فقد كانت بدايتي تبدو بطيئة و متعثّرة بعض الشئ و لكن بعد بضع دقائق إنطلقْتُ كالعادة في محاضرتي كشلّال منهمر، و كان أستاذ الأدب (هاينريش فالز Heinrich Walz) هو من قدّمني في بدء محاضرتي و كان أحد أحبّ الالمان الفاتنين و المتحضّرين قرباً إلى قلبي و إعترف الرجل لي بعد إنتهائي من محاضرتي بأنّ قلبه غاص في صدره خلال الخمسة دقائق الأولى من المحاضرة و كان يتوقّعُ أن تنقلب الأمور كارثة محقّقة و لكنّ الحال مضى كما يرغب و إنشرح صدره بعد أن رآني و أنا أستعيدُ موهبتي في الكلام الّتي كنتُ تمرّنتُ عليها أيّام الهايدبارك الرائعة. ذهلتُ أثناء محاضرتي لرؤية الكثير من الفتيات الألمانيّات المتألّقات و المتأنّقات و هنّ يصغين بإنتباهٍ لما كنتُ أقوله و حسدْتُ فالز كثيراً لانّه إعتاد أن يحاضر بين جمهرةٍ من الفاتنات و تزوّج فعلاً من إحداهنّ و كانت تصغره بنحو ثلاثين عاماً !!. مضيْتُ في إلقاء محاضراتي في نيوشتاد Neustadt بيْن جمهرةٍ من المعلّمين و أطريتُ كثيراً عمل صديقي بيل المنشور حديثاً في ألمانيا ثمّ حاضرْتُ لاحقاً في هايدلبرغ بين جمهورٍ من الفاتنات اللواتي كنّ يتطلّعن إليّ بعيون شبقة و هنا لابدّ من الإعتراف بأنّي وجدْتُ الأمر مربكاً لي و ها أنا أقول بعد اكثر من أربعين سنة انّني لو لم أكن برفقة جوي لكنتُ أضعْتُ الكثير من الوقت الثمين في الإنصياع لنوازعي الجنسيّة المتأجّجة و الّتي لا تُبقي وراءها شيئاً ذا فائدة حتّى لو كان محض خبرة

صغيرة. قضيْنا أحد الأيّام في تناول الغداء مع البروفسور فالز في مطعم يقبعُ على قمّة أحد الجبال المُطلّة على هايدلبرغ و إنتابتْني حينها نشوةً عارمة لمعرفة كم أنّ الحياة تبدو ممتعة إلى حدّ عصيّ على أيّ وصف و كانت هذه فعلاً هي الحياة الّتي رغبتُها قبل نشر اللامنتمي و ليست تلك الحياة – الّتي تعجّ بالإحتفاليّات اللندنيّة المضجرة و أعمدة النميمة الّتي تملأ الصحف البريطانيّة – الّتي أبتليتُ بها بعد نشر كتابي الأوّل. حاضرْتُ أحد الأيّام في مدينة فرايبورغ Freiburg وسط حضور كبير للغاية و كنت أتامّلُ مقابلة هايدغر في جامعتها غير أنّي أُخبِرْتُ أنّه كان تقاعد و إنعزل في معتكفه الجبليّ.

بدأت رحلة عودتنا بالسيّارة يالإنطلاق أوّلاً نحو باريس لزيارة دار نشر غاليمار الباريسيّة الّتي سبق لها أن نشرت النسخة الفرنسيّة من اللامنتمي و وافقتْ على نشر (الدين و المتمرّد) كذلك، و أذكرُ في يوم ١ آب عام ١٩٥٨ عندما ذهبْتُ إلى دار نشر غاليمار لمقابلة (ألبير كامو) الّذي كان يعمل مثل إليوت في حقل النشر لِتعزيز مدخوله الماليّ، و كان كامو آنذاك الكاتب العالميّ الأكثر شهرةً و نجاحاً: فقد كان حصل على جائزة نوبل في السنة السابقة و هو بعمر الرابعة و الأربعين، و كان سبق له العمل في حركة المقاومة الفرنسيّة و كان يحرّر صحيفتها المسمّاة (القتال Combat) لذا عومِل بعد نهاية الحرب العالميّة الثانية بكونه بطلاً فرنسيّاً قوميّاً و حقّقت روايته (الطاعون) الّتي نُشرت عام ١٩٤٧ مبيعاتٍ تجاوزت الربع مليون نسخة في فرنسا وحدها لأنّ الفرنسيّين رأوا في الطاعون كنايةً عن الإحتلال النازيّ لبلادهم، و من الطريف هنا أن أذكر انّ أحد نقّاد الأفلام وصف كامو بانّه مثالٌ على " اللاعدالة الّتي تمشي على قدميْن " لانّه إمتلك القدرة على حيازة كلّ ما يتمنّاه المرء: إغواء النساء، إمتلاك السعادة، الشهرة،،، بالإضافة

إلى تمثّل كلّ الفضائل السامية لذا وجد الجميع أنفسهم عاجزين أزاء هذه اللاعدالة الصارخة !!. كنتُ أتوقّعُ – قبل أن أرى كامو – أنّني سأرى شخصاً يذكّرُني بإليوت، و لكن عندما رايته فعلاً إندهشتُ كثيراً لرؤية رجلٍ يبدو شابّاً للغاية على عكس صورته المنشورة الّتي يبدو فيها جدّياً و صارماً كمن أنهكهُ التفكير في موضوعة العدالة المطلقة و مثيلاتها من المسائل الفلسفيّة الشائكة، و قدّرتُ عمره لدى رؤيته بما لايتجاوز الثلاثين و كانت عيناه البنّيتان تتراقصان بحيويّة و حبورٍ يشي بمزاجه الرائق و لكنّه للأسف لم يكن يتكلّم الإنكليزيّة و لكن فرنسيّته كانت واضحة و سهلة الفهم، و أمضينا معظم الوقت لما بعد الظهر في الحديث عن جملة أمورٍ – من بينها كتبي طبعاً – و أطرى كثيراً على الأفكار الواردة في اللامنتمي و أخبرني بشكلٍ غير متوقّع أنّه ينوي كتابة مقدّمة لكتابي الثاني (الدين و المتمرّد) و لم يكن كامو ليخفي رفضه لأيّ شكلٍ من أشكال التديّن المنظّم و كان السبب وراء رفضه قد صار واضحاً لي بعد أن أخبرني بإنغماره في كتابة رواية بعنوان (الرجل الاوّل The First Man) يحكي فيها عن رجلٍ قرّر التخلّي عن التعليم و الأخلاقيّات و الدين و كيف ينتهي به الأمر في نهاية المَطاف إلى إعادة تشكيل نُظم مثل هذه الّتي رفضها أوّل الأمر !! و بدت لي الرواية كإضافةٍ مثيرةً إلى الثيمة المتداولة عن سياسات التمرّد Politics of Rebel: يشعرُ أيّ كائن ثوريّ متمرّد أنّ المجتمع يرمي إلى تقييده في سترة ضيّقةٍ شديدة الإحكام، و يملأ رأسه بحقائق عديمة المعنى (التعليم) و يجبره على إعارة الإنتباه لرغبات الآخرين (الأخلاقيّات) و من ثمّ التفكّر بِما هو فاعِلٌ بحياته القادمة (الدين) و هنا يبدأ الثوريّ برفض كلّ هذه المُقيّدات و يمضي في العيش طبقاً لما يُمليه عليه الإحساسُ الطبيعيّ بالتناغم و السعي نحو الكمال، و

على أساس هذه الفكرة طرح كامو رؤيته المدهشة في أنّ الأخلاقيّات ليست إختراعاً برجوازيّاً بل هي حالةٌ لصيقةٌ بالعلاقات الإنسانيّة.

أمضيْتُ ساعتيْن ذلك اليوم في المناقشة مع كامو و بعد إنتهاء ملاحظاتي لم يعُدْ لديّ ما أقوله و كان إحساسي العام بعد نهاية اللقاء هو إحباطٌ شاملٌ مشوبٌ بإنعدام الآفاق الذهنيّة و يشبه شعور من إرتطم رأسه بجدارٍ صلب و هو يمضي سريعاً في نفقٍ مسدود !!، و مع أنّني تبادلْتُ لاحقاً بعض الرسائل مع كامو و أهداني هو نسختيْن من أعماله الّتي نُشرتْ بالفرنسيّة غير أنّني لم ألتقِ به مرّة ثانية، و كم أسفْتُ عندما أخبرَني بيل هوبكينز مساء أحد أيام السنة اللاحقة للقائي معه أنّ كامو مات في حادث سيّارة مأساويّ و هو في طريق عودته إلى باريس.

١٢. جون برين وَ رحلةٌ إلى لينينغراد

كانَ الشّاعرُ لويس آدين Louis Adeane – الّذي إستأجرْنا منه كوخهُ الرّيفيّ المسمّى الجّدران العتيقة Old Walls – قد أشارَ منذ البدء بإحتمالِ عودته للسكن في الكوخ عام ١٩٥٩، و في وقتٍ مبكّرٍ من تلك السّنة كتبْنا إليْه لسؤالِه عن موعد عودتهِ بالضّبط و لكنّهُ كانَ أكثر كسلاً من أن يُحمّل نفسه عبءَ الردّ على رسالتنا، و بينما كنتُ أعملُ بدأبٍ في شهر شباط من تلك السّنة على روايَتي (طقوسٌ في الظّلام) مضتْ جوي لوحْدِها تبحثُ عن منزلٍ جديدٍ لنا و عثرتْ بالفعل على إعلانٍ لبيْع منزلٍ في قرية غوران هافن Goran Haven المُجاورة و لكنّ السّعر المطلوب البالغ ٤٩٠٠ جنيهاً بدا مُبالَغاً فيه إلى حدّ كبير بالمُقارنة مع متوسّط السّعر البالغ ٢٥٠٠ جنيهاً للمنازل هناك. كان الطّريقُ إلى المنزل المعروض للبيْعِ بعيداً و موحِلاً و مليئاً بالقذارة، و بعْدَ أن عاينتْ جوي المنزل من الخارج رأت أنّهُ كان أكبرَ بكثيرٍ ممّا نحتاجُ، و بينما كانت على وشك المُغادرة لمَحت شخصاً ينظرُ إليْها عبر النافذة و شعرَتْ حينها أنّ من غير اللّائق المغادرةُ بدون التّعريف بنفسِها لأصحاب المنزل لذا مضتْ و طرقت على الباب فدُعِيَتْ على الفور لتناول قدحٍ من الشّاي. بعدما عادت جوي أخبرتْني أنّ المنزل كان أكبر من قدرتِنا على تحمّل تكاليفِ شراءه كما أنّ مساحته أكبرُ بكثيرٍ ممّا نحتاج، فقلْتُ " جيّد إذن. غرفٌ كثيرةٌ تسعُ كُتُبي و أسطواناتي "، لذا مضيْنا أنا وَ جوي في سيّارتِنا لرؤية المنزل معاً. كان المنزلُ قد شُيّدَ قبل ستّ سنواتٍ من قبَلِ رجُلٍ و إمرأةٍ يُكنّيان بلقب

ديفيس Davis و كانا قدِما من برايتون و هما ينوِيان السّكن في هذه الجنّة الفسيحة الّتي تمتدُّ على مساحةٍ قدرُها إيكران إثنان (الإيكر acre هو الفدّان و يساوي ٤٠٤٧ متراً مربّعاً، المترجمة) و لكن حصلَ أنّ السيّدة ديفيس أصابها حنينٌ قاتلٌ إلى أصدقاءِها القدامى في برايتون لذا قرّر الزّوجان بيْعَ المنزل و العودة إلى برايتون ثانيةً.

كانَ الممرّ الطّويلُ المُؤدّي إلى المنزل مثيراً للإعجاب بكلّ تأكيد و لكنّ المنزلَ بذاته بدا أقلّ إثارةً للإعجاب بالمقارنة مع مدخله المدهش: فقد كان أقرب إلى سقيفةٍ مشيّدةٍ من كتل الكونكريت المجوّفة المطليّة بلوْنٍ أخضر مُعالَجٍ بصبغٍ إسمنتيٍّ مضادّ للماء، و كان ثمّة دفيئةٌ greenhouse (مساحة مزروعة مُغطّاة لحماية النّباتات داخلها من تأثير العَوامل الجوّية القاسية، المترجمة) تمتدُّ لِما يُقارِبُ العشرين ياردة أمام المنزل إلى جانب حديقةٍ خلفيّة كبيرة، أمّا الباقي من الفدّانَيْن فكان أرضاً بريّة لم تمسسْها يدٌ، و أعجبَني غاية الإعجاب إطلالة النّوافذ الأماميّة للمنزل على منظرٍ واسعٍ ممتدّ للبحر، و رأيتُ أنّنا لو تدبّرْنا أمر جمع المبلغ المطلوب فسيكونُ في وسعِنا الحصولُ على هذا المنزل الرّائع. بدتْ لي فكرةً رائعةً لو دعَوْتُ والدي و والدَتي وَ أختي سو Sue للقدومِ و مُشاركتِنا السّكن: كانَ والدي يعشقُ قضاء أيّام العطلِ في منزلنا القديم (الجّدران العتيقة) و لطالما صرّح برغبَته في العيش وسط الأجواء الريفيّة و كنتُ موقناً بقدرته على العناية بالحديقة الشّاسعة و زراعة بعض الطّماطم في الدّفيئة الأماميّة، و كان ثمّة جَناحٌ (شاليةٌ Shalet) مكوّنٌ من غرفتيْن صغيرتيْن في الفناء الخلفيّ للمنزل و إعتاد الثنائيّ ديفيس تأجيرَهُما للزوّار الصيفيّين و رأيتُ أنّ من المناسب لو إعتنى والدي بهذا الشّاليه و إستفاد في الوقت ذاته من مبالغ تأجيره كمصروف جيبٍ له.

إعتاد والدي النّهوضَ كلّ صباحٍ عند السّاعة السّابعة تماماً، ثمّ كان يُشعلُ النّار على الفور في موقدَيْن و ينطلِقُ بعدها لصيْد السّمك و لم يكن يعودُ إلّا عند الحادية عشرة و عندها كان يسألُ عمّن سيأخذه إلى الحانة القريبة في غوران Goran أو في ميفاغيسّي Mevagissey القريبة، و عند الثّانية بعد الظّهر كان ينبغي إعادتُهُ إلى المنزل، و بعدَ أن ينال قيلولته المُعتادة كان يبدأُ التطلّعَ إلى السّاعة بإنتظار العودة إلى الحانة ثانيةً و لطالما حاول والدي إقناعي بالذّهاب معه إلى الحانة و قد فعلْتُ، لكن سرعان ما غدوْتُ ضجراً من هدْرِ أوقاتي المسائيّة الثمينة في شرب البيرة و الإنغماس في اللّعب و بدأتُ ألتمِسُ الأعذار عن مرافقة والدي إلى الحانة، و كان والدي يظلُّ في الحانة طيلة المساء و لم يكن يعودُ إلّا عند العاشرة ليلاً.

كان لَديْنا آنذاك القليلُ من المال و توجّبَ عليْنا رهْنُ العقار لشراء أثاثٍ للمنزل. كان النّاشرُ غولانز وافقَ آنذاك على مخطوطة كتابي (طقوسٌ في الظّلام) و منحَنا مقدّمة أتعابٍ بقيمة ٥٠٠ جنيه، كما طلبْتُ في الوقت ذاته من وكيلي الأمريكيّ إقناعَ ناشر كتبي في أمريكا – شركة هوتن ميفلين Houghton Mifflin – أن تمنحَني مقدّمة قدرُها ٥٠٠٠ دولار و كانت راحتي أعظمَ مِنْ أن توصفَ عندما وافق النّاشرُ الأمريكيّ على طلبي بعد أن كنّا قاربْنا حينذاك الحدّ الأعظم المسموح به للسحْب على المكشوف.

كان رائعاً للغاية أن نرى أنفسَنا في منزلِنا الجّديد: صارَ في مقدورِنا الحصولُ على حمّام دافئ بإستخدام ماء حارّ يأتي من صنبور بدلاً من إشعال النّار تحت مرجلٍ و إنتظار الماء لكي يسخن، و في كلّ مرّة كنتُ أستحمُّ فيها بالماء السّاخن في الحمّام كنتُ أفكّرُ: كم سيطولُ بنا الدّهرُ

و نحنُ نقيمُ في هذا المنزل الرّائع و نقدِرُ في ذات الوقت على تسديد أقساط القرضِ العقاريّ ؟ إذ كان يتوجّبُ علينا تسديدُ قسطيْن في السّنة قيمةُ كلٍّ منهما ١٢٥ جنيه. جعلَ بَرَمُ والدي و إستياؤهُ المتعاظم الأمور أكثر سوءً في المنزل: فبعْدَ إنقضاء فصل الصّيف و غياب الزّوّار الراغبين في تاجير الشّاليه أصرّ والدي أن يقيمَ هو وَ والدتي في ذلك الشّاليه كما أصرَّ أن تطبخ والدتي طعامَهُما و إعتادَ أن يعودَ في أيّ وقتٍ من الحانةِ إلى الشّاليه ليجِدَ طعامهُ جاهزاً، و من الطبيعيّ أنّ والدتي رفضت هذا الأمر و فضّلت أن تمكُثَ بمعيّتِنا و أن تتناولَ طعامّها معنا أيضاً، و في خاتمة المطافِ و بعْدَ أن أقامَ والدي وَ والدتي ستّة أشهرٍ في كورنوال أرادت والدتي العودةَ إلى ليستر و علّقت على رغبتِها تلك بأنّ والدي كان حتماً في طريقه لقتْلِ نفسه لو مضى في قضاء أغلب أوقاته و هو يشربُ في الحانة على تلك الشّاكلة الفظيعة. عادَ والدايَ بالفعل إلى ليستر أواخر تشرين ثانٍ ١٩٥٩ و كنتُ حزيناً لفراقِهما و لكن يجبُ عليّ الإعترافُ بأنّي شعرْتُ براحةٍ كبيرةٍ بعدما صارَ المنزلُ مُتاحاً لعائلَتي وحدها. توجّبَ على والدي بالطّبع أن يعودَ للعمل في أحد المصانع، و مع أنّهُ كان في غاية الإحباط من الايّام الّتي قضاها في كورنوال لكنّ عمله في المصنع لم يكن أقلّ إحباطاً له من كورنوال و لديَّ شعورٌ راسخٌ بأنّ إحباطهُ ذاك هو ما تسبّبَ له بمرض السّرطان في نهاية الأمر.

تعرّضت جوي في ربيع تلك السّنة إلى حادثةٍ جعلتْني أدرِكُ مدى قوّة شعوري نحوها: كنّا في طريقنا عائدين إلى منزلِنا القديم (الحيطان العتيقة) و حالَما وصلْنا نزلت جوي من السّيارة اللاند روفر الّتي كنّا نستقلُّها و مضت لفتْح البوّابة الخارجيّة للمنزل و كان ثمّة بقُربِها عددٌ من الأبقار العائدة من الحلْب، و لمّا كانت جوي مُعتادةً على الأبقار

منذ صغرها لذا راحت تشقُّ طريقها بينها بهدوء و تلقائيّة و فجأةً إندفعت واحدةٌ من تلك الابقار و هاجمت جوي و دفعتْها نحو العارضة الحجريّة المبنيّة على جانب البوّابة، و شاهدْتُ حينذاك كيف طوّحت البقرةُ بِجوي أرضاً و راحت تُحاوِلُ غرسَ قرنِها في جسدها و في تلك اللّحظة قفزتُ من سيّارة اللاندروفر و ركضْتُ بإتّجاه البقرة و أنشبْتُ أظفاري بين أضلاعِها و أنا أصرخُ وَ أصبُّ اللّعنات عليْها فتراجعت البقرةُ إلى الوراء و رفعْتُ جوي – الّتي كانت خفيفةً للغاية – و حملتُها إلى السّيّارة و تبيّنْتُ على الفور أنّ البقرة إقتطعت جزءً من لحمة أنف جوي و راح الدّمُ يسيلُ على وجهِها. أخذْتُ جوي إلى المنزل و طلبتُ الطبيب على الفور، و عندما حضر الطّبيبُ بسرعةٍ و فحصَ جوي أخبرَني أنّها كانت تُعاني من كسْرٍ في أحد أضلاعِها – ثبت لاحقاً أنّهما ضلعان مكسوران – و لم يكن في قدرتهِ فعلُ أيّ شيءٍ سوى أن يضع لأضلاعِها جبيرة جبسيّة (بلاستر Plaster) و الّتي عرفنا لاحقاً أنّها كانت إجراءً أكبر ممّا يستحقّهُ الأمرُ، و توجّبَ على جوي أن تلزم الفراش و لا تجهد نفسها برفْعِ أيّة أثقالٍ كبيرة. عندما كانت جوي مستلقِيةً في فراشِها طيلة فترة النّقاهة و يبدو على أنفِها أثرُ قطعة اللحم المنزوعة أدركْتُ كم كنتُ أحبُّها و قد يبدو هذا الأمرُ غريباً و لكنّ جوي كانت مفرطةً على الدّوام في بُرودتِها العاطفيّة و منسحِبةً عن الآخرين و لم تكنْ ذلك النّوعَ من النساء اللّواتي يُفصِحْنَ عن مشاعرهنّ بقوّة لذا لم أكن أشعرُ أنّني قريبٌ منها بِما يكفي في أيّ يوم من الأيّام، و عندما رأيْتُها على تلك الحالة وجدْتُني أشعرُ برغبةٍ أبويّةٍ في حمايتِها و بدا الأمرُ آنذاك كما لو أنّ حاجزاً حقيقيّاً بيننا قد تلاشى و جعلَني هذا الأمرُ أشعرُ بقُربي العظيمِ نحوها مثلما كنتُ أشعرُ تجاه أخي باري من قبلُ و كما أشعرُ اليوم معَ أولادي جميعاً. من

المثير أنّنا علمْنا لاحقاً أنّ البقرة الّتي آذتْ جوي كانت تُعاني من حمّى الحليب Milk Fever و أنّها ماتت بعد بضعة أيّام من الحادث (حمّى الحليب: إضطرابٌ عضلي يصيبُ البقرات المُرضعات و ينجمُ عن نقص مستوى الكالسيوم في الدم ممّا يتسبّبُ في وهن عضلي خطير قد يفضي في أحيانٍ نادرة إلى الموت، و يترافقُ في العادة مع إنخفاض درجة حرارة الحيوان على عكس المعنى المُضلّل الذي توحي به مفردة حمّى، المُترجمة).

أعلمَتْني جوي في كانون ثانٍ ١٩٦٠ أنّها حاملٌ، و أذكرُ آنذاك أنّني كنتُ أعالجُ شقّاً صغيراً في سَقف المنزل و أستمِعُ في الوقت ذاته إلى السّمفونيّة الرابعة لِـ (تشوستاكوفيتش) الّتي كانت أطلِقت في الأسواق توّاً، وَ بدَتْ ردّةُ فعلي أزاء حمْل جوي أقلَّ إنتشاءً عمّا كان ينبغي لي لأنّني كنتُ أصبحْتُ أباً من قبلُ و لم أبتهجْ كثيراً وقتها إذ لم تمنحْني تلك التجربةُ أيّ قدْرٍ من السّعادة المتوقّعة في مثل هذا الأمر، و لكنّ الأمر كان مختلفاً مع جوي: فمعَ بُلوغِها الثّامنة و العشرينَ شعرتْ أنّ الوقت حان ليكونَ لها طفلٌ.

نُشِرَ كتابي (طقوسٌ في الظّلام) مع أواخر شباط ١٩٦٠ و كتبت عنه إديث سيتويل مراجعةً ممتازةً نُشِرت في الصّنداي تايمز على الرّغم من أنّ أحد ألدّ أعدائي القدماء و هو كارل ميللر شنّ هجوماً على الكتاب في الاوبزرفر و أشار إليّ في احد أجزاء مراجعته العدائيّة بوصْفي " لامُنتمِياً بغيضاً ". نُشِرَ كتاب الطقوس في أمريكا في وقتٍ متزامنٍ مع نشرهِ في بريطانيا و بيع منه عددٌ من النّسخ يُماثلُ عدد نسخِ كتاب اللّامنتمي: أي في حدودِ خمسةٍ و عشرين ألف نسخةً و عندها فقط شعرْتُ أنّ الإحدى عشرة سنةً الّتي قضيْتُها في كتابة

الكتاب كانت تستحِقُّ المُحاولة العنيدة، و أذكرُ أنّ كاتباً صديقاً لي هو (روبرت بتمان Robert Pitman) كانَ يعملُ آنذاك ناقداً للكتب في الصنداي إكسبريس كتب مُراجعةً أطرى فيها كتابي و قال في جزءٍ منها: " لم يحصلْ منذ ديكنز أن تعاملَ روائيٌّ مع موضوعة القتل في عملٍ روائيٍّ بهذا الوسْعِ و هذا القدْر من الجدّيّة "، و كنت أنا قابلْتُ الكاتب بتمان عن طريق الرّوائيّ جون برين John Braine، و لأنّ برين سيلعبُ دوراً محوريّاً فيما سيأتي من احداثٍ لذا ينبغي لي الحديثُ عنه بتفاصيل مُستفيضة.

* * * * * * * * * *

ظهرَ عملُ برين المعنون (الغرفةُ العلويّة Room at the Top) في آذار ١٩٥٩، و ظهرت في الوقت ذاته مراجعةٌ نقديّة للعمل بقلم جون ميتكالف John Metcalfe في الصّنداي تايمز و ختم الكاتبُ مراجعته بالكلمات التالية " تذكّروا هذا الإسم: جون برين. ستسمعون الكثير عنهُ حتماً "، و لكنّ المراجعات الأخرى للكتاب جعلتْني أشعرُ أنّهُ لم يكن ذلك النّوع من الكتب الّتي تَشتهويني: كانَ الكتابُ يحكي عن بطلٍ يدعى (جو لامبتون Joe Lampton) وُصِف بالمرء القاسي القلب الّذي لايتورّعُ عن تمريغ وجوه الآخرين في التّراب من أجل بلوغ غايته في الوُصول إلى القمّة، و بالطّبع لم يكن هذا النّمط من البشر هو من أرغبُ في القراءة عنه، و حصل بعدَ سنةٍ من نشر الكتاب أن إشتريْتُ نسخةً مستعملةً منه و مضت بعدها ستّةُ شهورٍ قبل أن أفتحَ الكتاب و أقرأ ما فيه و لكن ما أن فعلتُ حتّى مضيْتُ في متابعة القراءة حتّى النّهاية. و صعقَتْني الروايةُ و رأيْتُ فيها ما يستحقُّ أن يكون روايةً عظيمة. كان من الواضح لي تماماً أنّ النقّاد فهموا الأمر

على نحوٍ خاطئٍ للغاية إذ لم تكنِ الرّوايةُ تحكي عن مُتسلّقٍ إجتماعيٍّ عديمِ القلب بل عن شابٍّ يافعٍ رومانتيكيٍّ من أهل يوركشاير يحصلُ على عملٍ في مدينةٍ غريبةٍ لها قدرةٌ فائقةٌ على بعث الإكتئاب في روحِهِ أكثر بكثير ممّا فعلتْ مدينتُهُ الأمّ، و يدركُ الشّاب منذ أوّل لحظةٍ لوصولهِ أنّ الحياة ستروقهُ في تلك المدينة و هكذا تخلقُ الرّوايةُ فضاءً مدهشاً من التوقّعات المحتملة الكثيرة لِما يمكنُ أن يحصلَ و هو ذاتُ الأمرِ الّذي يجعلُ من العملِ مُتعةً خالصةً و يدفعُ القارئَ إلى المُضيّ في القراءة بشغف. ينضمُّ جو إلى فرقة دراما محلّيّة و يُعجَبُ بإبنة مالك طاحونة المدينة و يدرِكُ أنْ لا سبيلَ أمامهُ لبُلوغِ قلب فتاتهِ المتعلّمة و المنتمية إلى الطّبقة الوسطى و هكذا يعجبُ القارئُ بِسعْيِ جو الحثيث وراء معشوقتهِ و الظّفرِ بها في نهاية المطاف، و ربّما أعجِبْتُ أنا كثيراً بهذه الرّواية لأنّها ذكّرتْني بسعيي الحثيث ايضاً وراء جوي !!. كانت الرّوايةُ تخلو كليّاً من أيّة نزعةٍ كلبيّة Cynicism مُتوقّعة بل العكسُ هو الصّحيحُ إذ كان فضاءُ الرّواية يُذكّرُ القارئَ بحكايات الجنّيّات السّاحرات و فوق ذلك إنطوت الرّوايةُ على قدرٍ من الأمانة و الشّرف ذكّرَني بأعمال همنغواي، و جعلتْني روايةُ برين أشعرُ بوخْزٍ من فرطِ دهشةٍ لم أختبرْها مع قراءة أيٍّ من روايات الشّباب الغاضب: أميس، وين، سيليتو.

كتبتُ إلى برين أخبرُهُ بمدى إعجابي العظيم بروايته و تلقّيْتُ منهُ جواباً رقيقاً، و في تشرين أوّل ١٩٥٨ إنطلقْنا أنا وَ جوي بسيّارتِنا لِرؤيته في بينغلي Bingley. لم يكنِ الرّجلُ الّذي فتح لنا باب المنزلِ يُشبِهُ همنغواي في أيّ شيء، وَ وصفتهُ في يوميّاتي آنذاك بانّهُ رجلٌ بهيئة بقرة ذي بطنٍ كبيرةٍ و يتحدّثُ بلهجةٍ يوركشايريّة قويّة و كان يؤكّدُ الإنطباع الاوّليّ عنه بأنّهُ دبٌّ بطيءُ التّفكير و لكنّ الرّجل لم يكن

ثقيل الدّم في كلّ الأحوال بل كان ذا مزاج طيّب و أريحيّة مميّزة، أمّا زوجتهُ بات Pat فكانت فتاةً جذّابةً رشيقة القوام ذات بشرةٍ نقيّةٍ آسرةٍ و كانت تعملُ معلّمة مدرسة عندما تزوّجت جون. إصطحبَني جون قبل العشاء في سيّارته الصّغيرة إلى الحانة المحليّة، و لمّا كان الرّجلُ سائقاً مبتدِئاً فقد جعلت قيادتهُ للسيّارة شعرَ رأسي يقفُ و طفق الرّجلُ يعتذِرُ عمّا بدا منهُ كسائقٍ غير ماهرٍ و لم يكن بوسْعي سوى أن أطمئن الرّجل إلى حسْن قيادته و أعزّز ثقته بنفسه، و أتى جون بسلوكٍ غريب لا يليقُ به لكنّهُ فعلهُ بمحبّة: عندما غادرْنا الحانةَ – الّتي كان واضحاً لِي أنّهُ عومِلَ فيها كنجْم محلّيّ – رمى جون مفاتيح السيّارة بين كومةٍ من الأوراق الخريفيّة المُتساقطة من الأشجار و كان ينبغي عليْنا آنذاك أن نجثو على قوائمنا الأربع و نزحف وسط الظّلمة مستعينين بضوء المصابيح الأماميّة للسيّارة بغية إيجاد المفاتيح، و كان عليّ ثانيةً أن أعودَ لإرتكابِ نفس الخطأ في تطمين الرّجل إلى حُسْن قيادته و فجأةً قال لِي " سأقولُ لك شيئاً. سآخذُكَ في جولةٍ قصيرةٍ إلى الأعلى عند حافّة مستنقعِ بور مهمل " و مضيْنا نندفعُ بسرعةٍ في طريقٍ ضيّق وسطَ جدرانٍ حجريّة و كنّا أحياناً نسيرُ و الظّلمةُ الحالكةُ تغمرُنا، و عندما غادرْتُ مقعدي في السيّارة بعد أن عدْنا إلى المنزل كنتُ مُستنفذ القوى و أعصابي مُنهكَةٌ تماماً.

إستمرأَ جون لعبة اليوركشايريّ المُخادع: كان الرّجلُ أساساً شخصيّةً حسّاسةً و خجولة للغاية و علّمَ نفسهُ أن يظهرَ للعالم بوجْهٍ غير هيّابٍ عن طريق دعس القانون و الأعراف المتّبعة و التّطويح بها أرضاً، فكانَ يصرخُ مثلاً " ترومان قاتلٌ دمويٌّ ! " عند الحديث بشأن القنبلة الذرّيّة و وجهُهُ يشعُّ بحُمرةٍ عدائيّة و هو جالسٌ قبالة المنضدة، وَكما هو مُتوقّعٌ لم يجدِ الرّجلُ من يُعارضهُ لأنّ الجميع كانوا يشعرونَ

أنّ رجُلاً مثله له تلك القناعاتُ الرّاسِخةُ يستحقُّ الإحترام كلّه و هو ما حدسْتُ منذ البدء أنّهُ جزءٌ من تلك اللّعبة التي إستطابَها جون و طربت نفسهُ لها أيّما طرب. عندما كنّا أنا و جوي نذهبُ إلى فراشِنا مساءً كان جوي يغمزُ لنا قائلاً " بالمناسبة، ليس ثمّة جنسٌ مسموحٌ به هنا. نحاولُ على الدّوام أن نُديرَ منزلاً مُحترِماً في هذا المكان "، و في اليوم التّالي لوصولِنا عندما أخذَنا جون بالسيّارة في جولةٍ حول المنطقة القريبة من المنزل راح يحكي لنا كيف كتبَ روايته " الغرفة العلويّة ": كان جون مُنضمّاً قبل بضع سنواتٍ إلى جمعيّة دراميّة ناشئةٍ و حصل أثناءَها أن قابلَ فتاةً شابّة تصلحُ أن تكون موديلاً على نمط سوزان براندون Susan Brandon (**ممثّلة سينمائيّة و مسرحيّة وَ إذاعيّة بريطانيّة ولِدت عام ١٩٤٦، وَ آخرُ أدوارِها السينمائيّة المميّزة هو ظهورُها في فلم السيّدة الحديديّة Iron Lady عام ٢٠١٢، المترجمة**) و لم يكن في وسْع جون التّصديق أنّ الفتاة معجبةٌ به و تجدهُ رجلاً جذّاباً عندما صارحتْهُ بالأمر، و كانت الفتاةُ شخصيّة مازوخيّة إستطابت ممارسة الحبّ مع جون و تلذّذت بالألم المقترن به و دفعَ السّلوكُ الأنثويُّ المازوخيُّ للفتاة جون إلى الشّعور بأنتشاء فائقٍ لِسطْوتهِ الذكوريّة أزاء التّجسيد الأنثويّ السّاحر الّذي مثّلتْهُ تلك الفتاة الشابّة و باتَ يرى في نفسه رغبةً جامحةً لأن يكون أكثر بكثيرٍ من مَحْضِ كُتبيٍّ librarian يعملُ في مكتبةٍ مُنزوية، و حصلَ أن نُشِرَ بعضٌ من مقالاته في صحف مثل (تريبيون) وَ (نيو ستيتسمان) و هكذا قرّرَ الذّهاب إلى لندن ليكونَ كاتباً مبرّزاً و لكن سرعانَ ما نفدت مدّخراتهُ الضّئيلةُ البالغةُ ١٥٠ جنيهاً و لم يكن ما يحصلُ عليْهِ من أجرٍ بسيطٍ لقاءَ ما ينشرهُ في النيوستيتسمان يكفي للتكفّل بدفْع إيجار سكنه، ثمّ حصلَ له أمرٌ خطيرٌ: تطوّرَ لديْهِ إلتهابٌ حادٌ في الحنجرة إلى داء سلّ رئويّ و أُعيدَ جون عنوةً في قطارٍ إلى

يوركشاير و أودِعَ مصحّةً، و خلال الثمانية عشر شهراً الّتي قضاها في تلك المصحّة أنهتِ الفتاةُ الّتي أحبّها علاقتها معهُ و تزوّجت رجُلاً يُماثِلُها في المستوى الطبقيّ و كان مُتوقّعاً لهذا الفعل أن يُحطِّمَ جون لذا راح يبتغي النِّسيان و السّلوى من خلالِ الإنغماسِ في كتابةِ رواية " الغرفة العلويّة ". حقّقتِ الرّوايةُ نجاحاً تجاريّاً هائلاً و حُوّلت إلى واحدٍ من أفضل الأفلام السّينمائيّة البريطانيّة الّتي أنتِجتْ في الخمسينات (من القرن العشرين) و لكن لسوء حظّ جون فإنّ حقوق إنتاج الفلم بيعت قبل نشر الرّواية لقاءَ خمسة آلاف جنيه فحسبُ !! و كانت طبعةُ بنغوين ذات الغلاف الورقيّ للرواية Penguin Paperback قد حقّقت مبيعاتٍ متصاعدةً للرواية ناهزت تخوم المليون نسخة و لكن لأنّ جون كان يحصلُ على بيني واحد Penny لقاءَ كلّ نسخةٍ مُباعةٍ فإنّ أتعابه الأدبيّة لم تتجاوز الخمسة آلاف جنيه، و عندما دُعِيَ جون مرّةً لمقابلةِ طاقم العمل في الفلم تكلّم مع الحُضورِ قائلاً " هل تدرِكون جميعكم أنّكم لستُم سوى شَظايا لِخيالي أنا ؟ ".

في السّنة اللّاحقة لإنتقالِنا أنا وَ جوي إلى منزلِنا الجَديد في غوران هافن جاء جون وَ زوجته بات لقضاءِ بعض الوقْتِ معَنا و كان يُرافقُهم إبنهم الصّغير أنتوني (أصرّ جون أن يدعوَ إبنه أنثوني بدلَ أنتوني). كانَ من المُثيرِ معرفتي أنّ أحد الكُتّاب المُحبّبين إلى قلبِ جون هو جون أوهارا John O”Hara الّذي يُشارِكُ جون هوسَهُ في الكتابةِ عن موضوعة الفروقات الإجتماعيّة و الرّموز الطبقيّة مثل: السيّارات الفخمة غالية الثّمن، وَ الفتيات اللّواتي لوّحت شمسُ الريفيرا بشرتهنّ، و كنتُ أظنَ أنّ طموحَ جون يتّجِهُ ليكون هو أوهارا البريطانيّ: كان يبحثُ بدقّةٍ عظيمةٍ في الخلفيّات الإجتماعيّة و التأريخيّة لِشخصيّات رواياته ممّا مكّنهُ في النّهاية من كتابةِ رواياتٍ ذات طابع وثائقيّ باهر، و عندما

إلتقيْناهُ أوّل مرّة أخبرَني جون أنّ مشروعهُ التّالي هو كتابةُ روايةٍ حول برادفورد Bradford و عن جيلٍ كاملٍ من الشّباب اليافعين الّذين قُتِلوا في الحرب العالميّة الأولى، و لكنّ جون لم يمتلك – كما أرى – تلك الموهبة الّتي تُتيحُ له تحقيق طُموحهِ هذا: لم يكنْ مثلاً يمتلكُ موهبة جَيْ. بي. بريستلي J. B. Priestly الّذي كان جون يكنُّ له إعجاباً عظيماً مثل أوهارا، و كان جون يفتقِدُ – على وجْه التّحديد –المقدرةَ على خلْقِ شخصيّاتٍ تخييليّة أكبر من محضِ الشخصيّات الحقيقيّة الّتي إلتقاها في حياته و لهذا السّبب كانتْ أعمالهُ أقربَ بالضّرورة إلى أن تكونَ حكاياتٍ شخصيّة تطغى عليّها سمةُ السّيرة الّذاتيّة.

* * * * * * * * * *

إقترحَ بوب بتمان أن ننضمّ أنا وَ جوي إليْهِ في رحلةٍ إلى لينينغراد: كان ثمّة قارِبٌ روسيٌّ يدعى (Bore II) يتهيّأُ لمغادرة تيلبري Tilbury البريطانيّة، و بعْدَ مغادرتنا وجدْنا القارب بطيئاً بدرجةٍ ملحوظة حتّى أنّ جوي – الّتي كانَ مضى على حمْلِها سبعةُ أشهرٍ و نصف – وافقت على الإنضمام إلى بقيّة المجموعة خلال الحفلات المُقامة على ظهر القارب، و كانَ يحضرُ الحفلات في العادة كلٌّ من بوب و زوجته بات و إبنهُما جوناثان البالغُ عشر سنواتٍ إلى جانب جون برين بالطبع و كان هذا يوم ٦ تمّوز ١٩٦٠. لم أكنْ رأيتُ جون لفترةٍ من الوقت و لكنّ بوب أخبرَني انّهُ كان يشربُ بإفراطٍ، و كان جون آنذاك كتبَ روايةً ثانيةً بعنوان (The Vodi) الّتي إستكملَ فيها رواية حكاية الحبّ غير السّعيدة الّتي كانت سبَباً في كتابة روايته الأولى (الغرفة العلويّة)، و يروي جون في روايته الجديدة عن بطلٍ نزيلٍ في دار تمريضٍ يُعاني مرض السلّ و يملؤهُ الظنّ بأنّ الفتاة المخطوبة لهُ غدتْ متعبةً من حالته

الصحّية، و إختارَ جون لروايتهِ عنوان (The Vodi) في إشارةٍ إلى تلك المخلوقات الكريهة الصّغيرة الّتي تقتصِرُ وظيفتُها على رؤية أخيار الناسِ و هم يفشلون و أشرارهمْ و هم ينجحون في مساعيهم، و يمضي البطلُ في نسج حكايةٍ فنتازيّة يرى فيها أنّ تلك الكائناتِ مسؤولةٌ تماماً عن كلّ سوءات الحظّ الّتي لازمتْهُ في حياته. لم تكنْ رواية جون الثانية جيّدة بأيّ شكلٍ من الأشكال و بينما كنتُ أقرؤُها كان قلبي يتصدّ عُ و عجبْتُ غاية العجبِ كيفَ أقنعَ مؤلّف رواية (الغرفة العلويّة) المدهشة نفسهُ بأنّ تلك القمامة الكئيبة المُسمّاة (The Vodi) كانت تستحقُّ عناء كتابتِها، و جاءت المُراجعاتُ – كما هوَ مُتوقّعٌ – غير مشجّعة و كانت مبيعاتُ الرّواية بائسةً للغاية لذا لم يكن غريباً أنّ جون راحَ يفرِطُ في الشّراب، و لكن عندما إلتقيْناهُ في تيلبري و نحنُ نتهيّأ للصعود إلى القارب الروسيّ المغادر إلى لينينغراد بدا لي جون مُبتهِجاً إلى حدّ معقولٍ، و أخبرَنا أنّ طبيبهُ – الّذي كان صديقهُ الحميم كذلك – حذّرهُ بأنّ كبدهُ تالفٌ لامحالة ما لم يتوقّفْ عن الشّرب تماماً.

كانَ القارب الروسيّ مُشبعاً برائحة الدّهان الجديد و كذلك برائحة الصّابون الورديّ الّلاذعة في غرف التواليت، و كانَ قبالة السلّم المُتحرّك في القارب رسمٌ كارتونيٌّ يصوّرُ صاروخاً منطلقاً إلى القمر بعد أن كان الرّوسُ تقدّموا الجميعَ في سباق الفضاء. وجدْتُ أنا وَ بوب طريقَنا إلى البار و طلبْنا الفودكا الّتي كانت رخيصةً للغاية و وجدْتُ طعمها و رائحتها يختلِفانِ تماماً عمّا إعتدّنا عليه في إنكلترا، و لكن بعد رشفةٍ أو رشفتيْن من تلك الفودكا يصبِحُ المرءُ مُعتاداً عليها و لايعودُ ينتبِهُ إلّا إلى وهجها الحارّ في أحشاءه. عندما إنضمَّ إلينا جون في البار إكتفى بشرب عصير الّليمون و راحَ يعِظُ فينا و يُطري أخلاقيّات التقشّفِ و الزّهد و كعادتهِ عندما يكونُ رصيناً فإنّ

جون يستحيلُ كائناً جدّياً وَ صارماً و راحَ يُحدّثُنا عن عزمهِ كتابة روايةٍ مكمّلةٍ لروايتهِ الأولى (الغرفة العلويّة) و لكن لم يكنْ في ذهن الرّجل أيّة حبكةٍ محدّدةٍ بخصوص الرواية الجديدة. كان عشاؤُنا مُشبِعاً و لذيذاً: كرنب أحمر، بطاطا، لحمٌ مُنضّجٌ جيّداً إلى جانب حلوى الزلابية، و طلبْنا نبيذاً أحمر مع العشاء كالعادة.

كان البحرُ هائجاً في الليلةِ الّتي إنطلقْنا فيها إلى لينينغراد، و كانَت الأمواجُ تتقاذَفُ قاربَنا بجنونٍ إلى الأعلى و الأسفل، و عند الفُطورِ في اليوم التّالي كنتُ أنا وَ جوي وحدنا تقريباً في غرفة الطّعام، و لازالت جوي تذكرُ أنّهم قدّموا لنا عصيدةً يطفو على سطحها طبقةٌ من الزبدة. كانت مشكلتي أنّ السّفر مثّل لي على الدّوام فعاليّة تملؤني ضجراً: عندما كنّا ننزلُ إلى البرّ أثناء رحلتنا و نجدُ أنفسنا وسط مدينةٍ مثل كوبنهاغن أو ستوكهولم كنتُ أهرعُ راكضاً إلى أقربِ محلٍّ لبيْعِ الكتب و كانت كلّ المحلّات تملكُ قائمةً ممتازةً من الكتب ذات الأغلفة الورقيّة و بالطبعات الأمريكيّة، و حصلَ مثلاً أنّني قرأتُ للكاتب فريدريش دورينمات أوّلَ مرّة في ستوكهولم بعدما إقتنيْتُ روايتهُ (التعهّد The Pledge) و وثقْتُ بعد قراءتِها أنّ الرجل كان واحداً من أفضل الكُتّاب بين مُجايليه، و في ختامِ الأمر لم أعُد أكترِثُ كثيراً لرؤية المدن الأجنبيّة تباعاً خلال رحلتِنا إلى حدّ أنّ ركّاب القارب الروسيّ مضوا في إكمالِ إحدى الحفلات على السّاحل في مدينة غدانسك البولنديّة بينما فضّلْتُ أنا البقاء على ظهر القارب لأقرأ في كتابٍ بعنوان (أفضلُ روايات الخيال العلميّ Best SF) سبقَ أن نشرتْهُ دار فابر.

أخذَ جون عهداً على نفسهِ بالإمتناعِ عن شُربِ المِسكراتِ، و لكن

عند وصولنا ستوكهو لم توقّفنا عند إحدى الكافيهات فيها و طلبْنا شيئاً من شرابِ مسكرٍ محلّيّ و كان الوقتُ آنذاك منتصف الصّباح، و سمحَ جون لنفسه بتناولِ كأسٍ واحد و لكن بعد أن إنتهى من شربِ كأسه مضى في شرْبِ كأس ثانٍ و ثالث،،، و هنا أدركْتُ أنّ جون كان مدمناً كُحوليّاً إذ مضى في الشّرب حتّى لم يعُد في مقدورهِ الوُقوفُ على قدميْه، و بعدَما عدْنا إلى ظهْرالقارب لتناول الغداء شربَ جون شيئاً من الفودكا أيضاً و لم يكتفِ بهذا: فبعد أن إنتهيْنا من تناول الغداء جاءَني جون إلى غرفتي و طلبَ شيئاً يشربُهُ و كان قد رآني و أنا أشتري قنيّنة براندي في الصّباح، و لم يُغادر جون غرفتي إلّا بعد أن أتى على القنّينة بأكملِها !! ثمّ مضى و لم يحضر العشاء في تلك الليلة. كانت النّتيجةُ المتوقّعة بعد ذلك أنذ جون صار طوال الجزء المتبقّي من الرّحلة رجلاً صخّاباً و ميّالاً لإعلاء شأن قدراته الذّاتيّة و عاد ليكون ذلك الثّمل الّذي عهدْتُهُ في نوتينغ هيل Notting Hill حيثُ إعتاد كسر القوانين السّائدة و الحديث عن نفسه بهوَسٍ محبّب، ومتى ماكان جون يثملُ كانت لهجته اليوركشايريّة تزدادُ قوّةً و وُضوحاً و كان يعجَبُ حينها بترديد عبارة " الآن إستمعْ لي جيّداً،،،، " و هو يضربُ المنضدة أمامه بقبضته و غالباً ما يكون في حالته هذه مهووساً برغبة جامحةٍ في إظهار سعة معرفته بكلّ شيئ و بخاصّة المقتنياتُ المادّيّة، و تزخرُ رواياته (الغرفة العلويّة) بالكثير من الملاحظات الحادّة لِرُموز الثّروة: السيّارات غالية الثمن، ساعات الرولكس، أطقم بدلات سافيل رو Saville row،،،.

عندما بلغْنا في رحلتِنا البحريّة مدينة هلسنكي إتّصلْتُ على الفور بِناشري الفنلنديّ الّذي دَعانا إلى مطعم ذي إطلالةٍ ساحرة على الميناء و تناولْنا فيه وجبةً ممتازةً من لحم الغزالِ الّذي يستوطنُ منطقة التندرا

القرية من المنطقة القطبيّة، و في هلسنكي إستبدلْنا القاربَ الروسيَّ بسفينةٍ فنلنديّة ثمَّ إنطلقْنا إلى لينينغراد مع غروب الشّمس و تركْنا وراءَنا السّماء الحمراء و هي تغطّي تلك الجُزر الصّغيرة و كان المنظرُ يأخذ بالألباب، و في الوقت الّذي كانت السّفينةُ تنعطِفُ فيه غرباً بإتّجاه لينينغراد مضيْنا إلى داخل السّفينة نحو غرفة الطّعام حيثُ وجدْنا بوفيه عشاءٍ – مثل وليمةٍ ملكيّةٍ – ينتظرُنا: أطباقٌ فاخرة متعدّدة من سمك السّالمون المُدخّن، سمك أنقليس eel مُدخّن، سمك التروتة Trout، أفخاذ لحم كبيرة، حساءٌ مطبوخٌ بلحم السمّان، هليون و سمك مُملّح مُخلّل مع الكريمة، و كان ثمّة إمكانيّة لشراء النبيذ الفاخر كذلك.

في لينينغراد إستخْدمْنا القاربَ كَفُندقٍ عائمٍ كنّا نأوي إليْه كلّ مساء: كانت المسافةُ من المرافئ إلى المدينة تستغرِقُنا نصفَ ساعةٍ من المشي إذ لم يكن ثمّة تاكسياتٌ هناك، و لكنّ أكثر ما لفتَ نظري و أدهشَني هو رؤيةُ أطباق الكافيار caviar المعروضة للبيْع على مناضدَ معدنيّة خضراء اللّون في ميدان السّلام، و كانت أطباقُ الكافيار رخيصةً إلى حدّ غير معقول: كومةٌ كبيرةٌ من الكافيار بحجم مخروط أيس كريم كبير لقاء بضعِ روبلات فحسبُ. إستطعْنا انا وَ جوي أن نجدَ طريقَنا أحد الأيّام في لينينغراد إلى قصر الأمير فيلكس يوسوبوف Prince Felix Yusupov و مضيْنا بعدها إلى ساحة المدينة حيثُ أعدِمَ راسبوتين رمْياً بالرّصاص. دُعينا في آخر ليلةٍ قضيْناها في لينينغراد إلى حفْلِ إستقبالٍ في فندقِ أستوريا (و هو الفندق الرئيسيُّ في المدينة) و هناك تمَّ تقديمُنا إلى طائفة الكُتّاب و الأدباء الروس، و كانت رواية جون " الغرفةُ العلويّة " نشِرَتْ في روسيا و لاقت نجاحاً هائلاً حتّى أنّ الرّجل غدا نجماً ادبيّاً ساطعاً هناك.

إستمْتعَ جون برين بلعْبِ دوْر النّجم الأدبيّ في لينينغراد و راحَ يُنفِقُ روبلاته بلا حسابٍ و في نهاية الأمر دُعِيَ للذهاب إلى موسكو كضيْفٍ على إتّحاد الكُتّاب السوفييت بينما مضيْنا نحنُ الباقين في طريقِ العودة إلى إنكلترا و رافقَنا - بدلاً عن جون برين - في طريق العودة الكاتبُ جون وين John Wain: الرّجلُ الّذي وصفْتهُ يوماً بأنّهُ يفتقِدُ إلى أيّة لمسَةٍ من السّحر أو الجاذبيّة إذ كان يبدو مدفوعاً على الدّوام بممارسة نوعٍ من السّطوة على الآخرين، و ربّما كان ساهم ذيوعُ شهرة روايات كنغزلي أميس في مُفاقمة نزوعه السّلطويّ هذا لانّهُ كان يرى أنّ رواياتهِ أفضلُ و أكثرُ أهميّة بكثير من روايات كينغزلي أميس - و هو رأيٌ أميلُ أنا بدوْري إليْه - و لكنّ روايات وين كانت على الدّوام مشحونةً بنكهةٍ مُرّة غير محبّبة و يطغي عليْها النزعة الذّاتيّة و الأنانيّة. لم يكن لدى وين أيُّ شكٍّ في عبقريّته و أذكرُ كيف كان يؤكّدُ دوماً على عبقريّته بعباراتٍ من النوع الّذي يبدأُ هكذا " عندما أحوزُ جائزة نوبل،،،،،،، "، وَ بعد بضع سنواتٍ سمعْتُ أنّهُ إعتكفَ في ويلز لكتابةِ روايةٍ ضخمة و مميّزة، و عندما نشرَت تلك الرواية عام ١٩٧٠ تحت عنوان (شتاءٌ في التّلال A Winter in the Hills) تردّدْتُ كثيراً في قراءَتِها، و عندما فعلْتُ و قرأتُ خمسين صفحةً منها طوّحْتُ بها بعيداً إذ كانت كالعادة مشحونةً بنكهةٍ شديدة المرارة و يغلبُ عليْها الهَوَسُ الذاتيّ وَ الإنشغالاتُ الشخصيّة الضيّقة و رؤية النساء كمحَضِ أشياء ينبغي إمتلاكُها و تحقيق الظّفر عليْها.

بدا التّدهورُ في حالة برين واضحاً بعد عودته من روسيا: فعندما وصل المنزل ذهب من فوره إلى رفّ المشروبات و مضى يحتسي الكُحول حتّى أنّ زوجة والد بات التي كانت تزورُ بات لبضعة أيّام إمتعضت كثيراً من سلوك جون و طلبت حضور الشّرطة !!. في عام

١٩٨٦ أعلمتْني فتاةٌ أعرفُها عبر الهاتف أنّ جون يرقدُ في المستشفى و هو يعاني من قرحةٍ معديّة نازفة، و عندما إتّصلْتُ بالمُستشفى للسؤال عن حالته رفض المستشفى تزويدي بأيّة معلوماتٍ عنه طالما لم أكُن من أقربائه، و بعد فترة قصيرة ذهبْنا انا وَ جوي في زيارةٍ إلى اليابان حيث دُعيتُ لإلقاء بعض المحاضراتِ هناك، و عندما كنّا جالسين يوماً ما نتناولُ الطّعامَ في أحد مطاعم طوكيو أعلمَني وكيلي الأدبيُّ أنّ برين توفّيَ ذلك اليوم، و رأيتُ في موت برين على تلك الشّاكلة و في تلك الظّروف سخريّة مريرةً منّي: أنْ أكون بعيداً للغاية عن بلدي الّذي توفّى فيه واحدٌ من أعزّ أصدقائي القّدامى، و تمنّيْتُ آنذاك لو أتيحت لي فرصةٌ أخيرةٌ لإلقاء نظرة الوداع عليْه و بدا لي أنّ وقتاً طويلاً قد مضى منذ أن قرأتُ روايته الرائعة (الغرفة العلويّة) و كيفَ شعرْتُ حينها بقوّة أنّ هذا الكاتبَ يمكنُ أن يُثبِتَ قدرتهُ في أن يكون هيمنغواي ثانياً و بجدارة مستحقّة.

لطالما ساءلْتُ نفسي: ما الخطْبُ الّذي حصلَ مع جون برين بإعتِباره كاتباً ؟ أظنُّ أنّ الجواب يتماثلُ مع ماحصلَ لهمنغواي أيضاً: خلقَ الإثنان نوعاً من الشّخصيّة المُموّهة الّتي تُخالِفُ كلّيّاً حياتَها الواقعيّة، و تفاقمت المشكلةُ مع جون لأنّهُ كان شخصاً مُفرِطاً في خجلِهِ وَ حسّاسيّته إلى حدّ جعلهُ يميلُ إلى التقليلِ من شأن قيمته الذّاتيّة، و أظنّهُ كان يرى في نفسه شبيهاً بملك الضفادع في الحكاية الخياليّة المعروفة: فلا امرأة تنجذِبُ إليْه، و لا رجلَ يفتَنُ به !!. كان ينبغي في كلّ الأحوال النّظرُ إلى جون برين كشخصٍ حسّاسٍ ذي ذهنيّة متوقّدة و حاضر على الدّوام لإبداء الإسناد و الدّعم للآخرين و كان هذا جزءً من اللّعبة الّتي أراد جون إستمرارَها حتّى النّهاية و لكنّ تلك اللّعبة قلّما تستطيعُ المُطاولةَ مع كاتبٍ يبتغي أن يكونَ جادّاً و مميّزاً إلى

حدودٍ معقولة. أخبرَني جون يوماً أنّ النّصيحة الأكثر أهمّيّةً في حياته كانت تلك الّتي تلقّاها من والده الّذي نصحهُ بأن يقتصرَ في كتاباته على الأمور الّتي يعلمُها جيّداً و خبرَها عن قرْبٍ في حياته فحسبُ و عملَ جون بنصيحةِ والده و دفعَ لقاء ذلك ثمناً باهضاً إذ كانت كتاباتهُ تتزايدُ مع الوقت في ضيق مدى رُؤيتِها حتّى إختنقتْ موهبة جون الأدبيّة في نهاية الأمر، و أستطيعُ اليوم أن أؤكّد حقيقةً راسخةً لديّ: إنّ إنقسام الذّات لا يفترضُ فيه أن يَكون عاهةً مُميتةً و لكنّي موقنٌ أنّ جون برين ماتَ بسببهِ.

١٣. من كورنوال إلى أمريكا

عندما وُلِدت طفلتي الأولى سالي Sally فُتِنْتُ بها منذ الوهلة الأولى فقد كانت غايةً في الجمال و مفعمةً بالحيويّة، و في اليوم الّذي إنطلقْتُ فيه لإعادة جوي و سالي – المولودة حديثاً – من مستشفى ريدروث Redruth إلى المنزل إتّصلت بي صحيفة الديلي ميل و طلبت إليّ إذناً بتصويري مع سالي، و عندما أخبرْتُ جوي بهذا إنفجرَت بوجهي لأنّها كانت متوتّرة على الدوام من الصحافة و ألاعيبها الماكرة و لكن حصل عندما وصلنا المنزل عائدين من المستشفى أن إنبهرت جوي بنظافة المنزل و حُسن ترتيبه و بالشمس الدافئة الّتي تتخلّل النوافذ لذا هدأت و إستعادت مزاجها الرائق عندما وصل مندوب الصحيفة مع مصوّر، و مع أنّ جوي رفضت أن تظهر في الصورة فقد وافقتْ على تصويري مع سالي و هذا ما حصل بالفعل و ظهرت صورتي و أنا حاملٌ لطفلتي سالي بين يديّ في اليوم التالي في صحيفة الديلي ميل مع عنوانٍ عريض يقول " أحد أفراد الشباب الغاضب يحتضِن طفلته الوادعة المُسالمة !! ".

وجدْتُ الأبوّة تجربة ساحرة: فعندما أخبرتْني جوي أنّها حامل لم أكن واثقاً من سعادتي آنذاك ربّما لأنّني سبق أن جرّبْتُ الأبوّة بعد أن وِلِد لي رودريك من زيجة سابقة و أنا لمّا أزل صغيراً للغاية و لم أتجاوز التاسعة عشرة بعدُ، و لكنّ الأمر مع سالي كان مختلفاً كلّيةً فقد هِمْتُ بها حبّاً منذ اللحظة الّتي قدمت فيها إلى هذا العالم و كنتُ في البدء

ميّالاً إلى الإعتقاد بأنّ شعور الأبوّة الساحر هذا الّذي حلّ فيّ كان بسبب كونِ ساللي فتاةً و لكن ثبت لي بطلان إعتقادي هذا بعد أن أنجبتْ لي جوي ولدين ذكريْن فيما بعدُ و أحببتهُما مثلما فعلْتُ مع ساللي بالضبط، و أرى اليوم بما لا يقبل أيّ شكّ بانّني خُلِقْتُ للحياة العائليّة الدافئة لا محض العلاقات العابرة و العبثيّة. تساءل شو مرّة "هل ثمّة أبٌ في العا لم يمتلكُ قلباً رؤوماً مثل قلب أمّ ؟" و للأسف لم يحصل شو على الفرصة المناسبة لإختبار هذا السؤال بنفسه و لكن بقدر ما يتعلّق الأمرُ بي أستطيعُ القول بثقة: نعم، فأنا شخصٌ حنونٌ على نحوٍ غير طبيعيّ و أحياناً أكادُ أجنّ عندما أشعرُ بحاجتي لإحتضان أحدٍ ممّن أحبّ.

حصل ذات يومٍ ربيعيّ من عام ١٩٦١ أن إتّصل بي شاعرٌ أمريكيّ يدعى (جون برينين John Brinnin) عبر الهاتف و أخبرني أنّه قدم إلى كورنوال لقضاء عطلةٍ فيها فدعوتُه لتناول شرابٍ معي في منزلي الريفيّ. كان برينين هذا هو من رتّب لجولة ديلان ثوماس في أمريكا من قبلُ، و عندما عرضْتُ عليه في سياق حديثنا إمكانيّة ترتيب جولةٍ مماثلةٍ لي هناك إقترح برينين أنّ الطريقة الفضلى هي بالإتّصال مع معهد الفنون المعاصرة ICA في واشنطن العاصمة، و مع أنّني أعلم أنّ أمريكا قتلت ديلان ثوماس – الأصحّ أنّه قتل نفسه – بسبب إدمانه المفرط على الكحوليّات، و أنّ كاتباً آخر هو نيغلي فارسون Negley Farson عندما ذهب إلى أمريكا عام ١٩٣٧ ظلّ حبيساً في شقّته النيويوركيّة و هو ثملٌ طول الوقت، لكنّني لم أخش التجربة المقبلة: فرغم ولعي بالنبيذ لكنّي لا أميل إلى إدمان الكحول لذا لم تكن السوابق المؤلمة الّتي قرأت عنها بالمخيفة لي. تلقّيْتُ ردّاً من معهد الفنون المعاصرة يخبرُني أنّ ممّا يبعث على السعادة أن تُرتّب جولةٌ أمريكيّة لي و هكذا حزمْتُ

حقائبي و إنطلقْتُ نحو الربوع الأمريكيّة في أيلول ١٩٦١ و علمْتُ بعد وصولي أنّ (غراهام غرين) كان مُقيماً في ذات الفندق الّذي نزلْتُ فيه، و كان ممّا يدعو إلى الشفقة أن لا أستغلّ هذه الفرصة المتاحة أمامي في لقاء واحدٍ من أهمّ الكُتّاب المُعاصرين. كانت مشاعري تجاه غرين متباينةً حتّى في تلك الايّام عندما قادني ولعي في التصوّف المسيحيّ إلى التعاطف مع الكاثوليكيّة و لم يعجبْني طوال حياتي ذلك الموقف المثقلُ بالنزعة التشاؤميّة الميلودراميّة كمحاولةٍ لإقناع القارئ بالسوداويّة الطاغية في العالم و الّتي ليس من إستجابةٍ مناسبةٍ لها سوى الإلتجاء إلى الكنيسة الكاثوليكيّة !!، و لكن من ناحيةٍ أخرى أعجبتْني رؤية غرين المدهشة الّتي عرضها في روايته (السلطة و المجد The Power and the Glory) عن "الكاهن المولع بالويسكي و الّذي يواجه فرقة الإعدام و هو يعلم أنّ من السهل للغاية أن تكون قدّيساً بدلَ أن تكون آثماً ". كتبْتُ ملاحظةً إلى غرين و طلبْتُ من موظّف الإستعلامات في الفندق أن يضعها في صندوق بريده، و بعد بضع ساعاتٍ عندما عدْتُ إلى غرفتي في الفندق بعد تناول عشاء (الستيك) في أحد مطاعم برودواي رنّ هاتفي وإذا بصوتٍ يقول " هذا هو غراهام غرين. هل تشعرُ برغبةٍ في القدوم لغرفتي و مشاركتي مشروباً ؟ "، و بينما كنتُ في المصعد و أنا في طريقي إلى غرفة غرين تذكّرتُ أنّني قلتُ بضعة أشياء غير محبّبة بحقّ غرين في كتابي الّذي كنتُ أكملته للتوّ " أن نقوى على الحلم The Power to Dream " و عندما كنتُ أوشكُ على دخول جناحه الفندقي الواسع بادرْتُهُ بالقول " أنظر، ربّما يكون من الأفضل إخبارك منذ البدء أنّني سجّلتُ عنك بعض الملاحظات النقديّة القاسية في كتابي الأخير و سيكون من دواعي بهجتي أن أرسل لك مسوّدته النهائيّة لتُضمّنه أيّ تعليقاتٍ ترغب فيها " فهزّ غرين راسه و

أجاب على الفور " لا داعي لشيٍ من هذا. إرسل لي نسخة من كتابك بعد نشره و حسب ". أمضيْتُ ساعةً و نصف الساعة في حوارٍ ممتع مع غرين الّذي لم يُبْدِ أيّ إسترخاء أو حميميّة مثل تلك الّتي أبداها تشارلس سنو من قبلُ، و أذكرُ أنّ أهمّ ما قاله الرجل كان ملاحظةً عن المحلّات الّتي تبيعُ التذكارات الكارثيّة المُروّعة و هو الأمر الّذي ذكّرني على الفور بمقطعٍ في روايته (دروب شريعة الغاب Lawless Roads) الّتي يحكي فيهاً عن فتاةٍ و فتىً مراهقيْن ينتحران معاً بوضعِ رأسيهما على سكّة الحديد و هذا ما أجده واحداً من الرموز المؤثّرة في تصوّر غرين للحقيقة. بعدما عدْتُ إلى غرفتي بقيْتُ صاحياً حتّى الصباح بسبب حرارة الجوّ و الصخب المروريّ في نيويورك المزدحمة و مضيْتُ أفكّرُ كم كان غرين نسخةً مطابقة لما توقّعته: فلطالما شعرْتُ أنّ القتامة و السوداويّة الّتي تطفحُ بهما رواياته تعكسُ نظرته الدونيّة في تقدير ذاته و تلك هي تماماً السّمة الغالبة بين كلّ اللامنتمين و كان سبق لي أنا ذاتي أن إختبرْتُ هذا الشعور الكالح عندما كنتُ في الرابعة عشرة و إعتزمْتُ في وقتٍ ما " أن أعيد للربّ تذكرة دخولي إلى هذا العالم " و لكنّ سنواتٍ من المكابدة الشاقّة و الإنضباط السلوكيّ صلّبت عودي وعلّمتني أنّ فكرة " كره الحياة " الشائعة بين الرومانتيكيّين لم تكن أبداً بالحلّ المناسب أو المقبول، و على العموم لم أكن أصدّقُ كثيراً تشاؤميّة غرين و كانت قناعتي الثابتة انّه إستخدم هذه النزعة التشاؤميّة في بناء عالم تبدو قتامته مزيّفة تماماً و لطالما ذكّرتْني قتامة أجواءه الروائيّة في عمليْه (صخرة برايتون) و (السلطة و المجد) بالتعليق الّذي أبداه تولستوي بخصوص أعمال الكاتب ليونيد أندرييف عندما ذكر بشأنه " يجعلُني هذا الرجل أصرخ دوماً بووووووو و لكنه لا يخيفني أبداً !! "، و أظنّ أنّ غرين كان يستطيبُ الحياة، و بخاصّة الجنس، و يمكن

هنا أن نتذكّر كيف ساهم غرين في إطلاق شهرة (لوليتا) لِنابوكوف عام ١٩٥٦ عندما أبدى ملاحظةً إعتبر فيها الرواية واحدةً من أفضل روايات ذلك العام، و يمكنُ إبداءُ ملاحظةٍ أخرى مدهشة حول غرين و هي أنّه لم يرغب في حياته أن يكون رجلاً متزوّجاً و مسؤولاً عن عائلةٍ بقدر ما كان يطمحُ في مراكمة الحريم في مخدعه و ربّما هذا هو سبب الفكرة السائدة عنه بكونه رجلاً لا يتعب من الجري وراء علاقاتٍ نسائيّة جديدة طول الوقت. عندما نُشر كتابي (أن نقوى على الحلم) السنة اللاحقة للقائي به أوفيتُ بوعدي و ارسلْتُ نسخة له و لكنّي لم أتلقّ في المقابل ردّاً منه كما توقّعتُ.

* * * * * * * * * *

كنتُ أتطلّعُ إلى جولتي الأمريكيّة منذ وقتٍ طويل، و أثبتتْ هذه الجولة أنّها كانت حيويّة و لكنْ شاقّة للغاية في الوقت ذاته حتّى أنّني شعرْتُ بإنهاك شاملٍ قبل وقت طويل من خاتمتها و لم يكن ثمّة داعٍ للشكوى: فقد أحببْتُ مدينة نيويورك، و محاوراتي مع كُتّاب الأعمدةَ الصحفيّة، و بات واضحاً لي أنّني كنتُ معروفاً على نحوٍ مقبول، و أذكر لليوم عندما إستخدمْتُ المراحيض العامّة في قرية غرينتش سألني أحد السيّاح الأجانب و هو يحملق فيّ " ألسْت أنت كولن ويلسون ؟ ". بعد بضعة ايّام من وصولي نيويورك أخذْتُ القطار الليليّ إلى واشنطن العاصمة لإرتباطي مع برنامج إذاعيّ صباحيّ يذاعُ مبكّراً هناك و دهشتُ لرؤية المدينة و هي تغرقُ في الألوان الخريفيّة و كانت السناجبُ الصغيرة تعلو و تهبط بين الأشجار الّتي تمتدّ خارج فندق برايتون الّذي نزلْتُ فيه، و لم أضع الكثير من الوقت في السؤال عن أقرب محلّ لبيع التسجيلات الموسيقيّة الّذي إقتنيْتُ منه أحدث

أسطوانات السمفونيّات الّتي لم تكن قد وصلت السوق البريطانيّة بعدُ و بخاصّة أعمال (بروكنر) و (ماهلر).

مضيْتُ في إلقاء محاضراتي المُعدّة لبعض الكلّيات و الجامعات الأمريكيّة الواقعة قريباً من العاصمة واشنطن، و كان اللامنتمي حقّق مبيعاتٍ ممتازة و صار يعتبرُ كواحدٍ من أفضل الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة و أبدى الطلبة كلّ مظاهر الإستقبال الحار و الإحتفاء اللازم بي لأنّ معظمهم رأى في نفسه مثالاً للّامنتمي و المتمرّد المثاليّ، و كعادتي مضيْتُ في محاضراتي بلا هوادة و بلا أيّة ورقة ملاحظاتٍ مسبّقة و سرعان ما كنتُ أجد نفسي كلّ مرّة شبيهاً بنسخةٍ أدبيّة من (ألفيس بريسلي) و يحيُطني المعجبون الممتلئون حماسةً و دهشة. كان البروفسور المسؤول عن تقديمي في كلّ ماضرة ألقيْتها في أمريكا يبدأ كلامه بالتأكيد على حقيقة أنّني تركتُ الدراسة عند المرحلة الثانويّة و مع هذا فإنّ كتبي باتت تنشرُ في العالم بأكثر من عشرين لغةً، و لم أكنْ أحبّذُ هذه الإطراءات المبالِغة لأنّني أعلمُ تماماً مدى حبّ الشعب الامريكيّ لقصص النجاح و لا يعنيه أيّ أمر آخر و مع هذا إتّخذتُ كلّ الإحتياطات اللازمة لكي لا أجعل نفسي تشعر برضا عن الذات مبالغٍ فيه: إذ لطالما شعرْتُ أنّ مهنتي الأساسيّة في الحياة هي الكتابة و لا شيء سواها، و مع أنّ إحاطتي بعددٍ كبير من المُعجبين كان مقدّراً له أن يخلق بداخلي شعوراً هائلاً بالدفء و التعاطف مع ما حقّقته غير أنّ الكتابة الجيّدة تستلزِمُ دوماً بيئةً بعيدة عن السخونة العاطفيّة بصورةٍ أساسيّة بالإضافة إلى أنّني لم أحبّ يوماً أن أعاملَ كـ " غورو " فقد كان شيءٌ قليلٌ من هذا كفيلاً بجعلي أغطس في مستنقعٍ من الحرج و الخجل. حصل يوماً أن قرّرت أثناء جولتي الأمريكيّة وسط زحمة الجولات و المحاضرات – و لكي أشعر ببعض الخصوصيّة – أن أخصّص بعض

الوقت لمتعتي الذاتيّة فحضرْتُ واحدةً من محاضرات اللاهوتيّ البروتستانتيّ (بول تيليتش Paul Tillich) في جامعة جورج تاون و كنت على الدوام معجباً بأعمال هذا اللاهوتي المميّز و بخاصّة في موضوعة تركيزه على الجانب الإنسانيّ الوجوديّ من التجربة الدينيّة، و عندما حضرْتُ قاعة المحاضرة وجدتُها تغصّ بالحُضور و لكن لم أفهم ابداً لِمَ كان تيليتش مُحاضِراً متواضعاً للغاية و يجد مشقّة بيّنة في التعبير عنَ نفسه و أفكاره بلغةٍ إنكليزيّة تجريديّة ألمانيّة النبرة !! و لكنّ دهشتي تلاشت بعد أن علمْتُ بمدى إحتفاء الأمريكان بالمشاهير كيفما كانوا و توقهم المجنون لمجرّد إختلاس نظرةٍ لهم و لم يكونوا يأبهون كثيراً إن كانوا يفهمون ما يقوله هؤلاء المشاهير !!، و لم يكنْ بإمكاني معرفة سرّ تطلّع الناس إلى احاديث الرجل إلّا بعد وفاته عام ١٩٦٥ عندما أوضحت زوجته (حنّة Hannah) أنّه كان مهووساً جنسيّاً و أنّ هذا هو ما أغوى طالباته به، و أضافت زوجته أنّها رأته غير مرّة يقرأ مجلّاتٍ إباحيّة كان معتاداً على إخفائها داخل كتابه المقدّس !!.

عندما ذهبْتُ إلى ريتشموند Richmond بولاية فيرجينيا حللْتُ في فندق جيفرسون الّذي أعجبني فيه طرازه القديم الّذي يمتدّ ربّما إلى أيّام جيفرسون ذاته، و عندما وصلْتُ الفندق في الخامسة و النصف مساءً تناولْتُ المارتينيّ في حانة الفندق ثمّ ذهبتُ إلى قاعة العشاء و أختير لي مقعدٌ على بالكونة دائريّة تطلّ على الشارع، و أشعل نادل أسود اللون بملامح عتيقة شمعتيْن أمامي بقدّاحته الفضّية ثمّ مضيْتُ في طلب عشائي: دزينة من المحار الشهيّ الّذي إعتدْتُ عليه في لندن مع لحم الديك الروميّ و نصف قنّينة من نبيذ البورغندي الفاخر، و بينما كنتُ أصغي إلى الموسيقى الهادئة و أنا

نصفُ ثمل راودَني شعورٌ بانّني أمثّلُ في مسرحيّة أو فلمٍ عن حياتي الخاصّة.

إنطلقْتُ أحد الايّام في رحلةٍ إلى لوس أنجيليس لإلقاء محاضرة في كلية لونغ بيتش Long Beach College و كنتُ أتطلّعُ لمقابلة كلّ من كريستوفر إيشروود Christopher Isherwood و آلدوس هكسلي Aldous Huxley. أحببتُ كريس – هكذا كان الجميع ينادي كريستوفر إيشروود – منذ اللحظة الأولى الّتي رأيته فيها و أدمْتُ التواصل معه، و كان يقيمُ في سانتا مونيكا و يبدو حسن الطلعة مع طلّة صبيانيّة يبدو معها أصغر بعشرين عاماً من أعوامه الثلاثة و الخمسين الحقيقيّة، و بعكس ستيفن سبندر الّذي كان صديقاً حميماً لكلَيْنا و الّذي كان المرءُ يلحظُ فيه بقايا من خجلٍ و تردّد قديمَيْن فإنّ كريس كان يبدو شخصيّة جماهيريّة واثقة بنفسها مع موهبةٍ طبيعيّة في خلق التعاطف و المودّة معه و لم أحسبْهُ يوماً عضواً في جيل الكتّاب القدماء – مثل سبندر أو أودن – بل رأيتهُ على الدوام واحداً من مُعاصرينا الشباب. كنتُ متشوّقاً لرؤية كريس عند وصولي أمريكا و كتبْتُ إليه أخبره بأنّني قادِمٌ إلى لوس أنجيليس، و في كلّية لونغ بيتش إنعقدت صداقةٌ متينةٌ بيني و بين أستاذٍ محاضر في قسم اللغة الإنكليزيّة يدعى (هيو سمث Hugh Smith) كان يعشقُ مثلي الجاز الحديث، و في يومي الثاني في لونغ بيتش أخبرَني هيو أنّ كريستوفر إيشروود حاول الحديث معي عبر الهاتف و طلب أن أتكلّم إليه لاحقاً حالما أفرغ من أعبائي، و عندما كلّمته لاحقاً بعد فراغي من المُحاضرة إتفقْنا على زيارته بعد ظهر ذات اليوم في منزله بِسانتا مونيكا، و الغريبُ أنّني تلقّيْتُ بعد نصفِ ساعةٍ من حديثي مع كريس رسالةً من (هنري ميللر) يخبرُني فيها أنّه يودّ رؤيتي و يبدي أستعداده الكامل للقدوم إلى

لونغ بيتش، و عندما علمْتُ أنّ ميللر يسكنُ ليس بعيداً كثيراً عن سانتا مونيكا أرسلْتُ له رسالةً تلغرافيّة أخبرُهُ فيها أنّ من الأفضل ربّما لو إستطاع الإنضمام إليّ و كريستوفر في سانتا مونيكا و بهذا يكون قد وفّر على نفسه عناء سفرةٍ مرهقة. إنطلقْتُ مع هيو بإتّجاه سانتا مونيكا و كان هو من يقود السيّارة، و ما أن وصلنا مدخل منزل كريس حتى قابلَنا بالقول " تلقّيْتُ للتوّ مكالمة هاتفيّة من المزعج الرهيب هنري ميللر. هو قادمٌ بعد قليل "، و عندما سألت كريس " أ لا تحبّهُ ؟ " أجابني " لم ألتقِ به من قبلُ و لكنّي لا أُطيقُ كتبه !! ". كان كتاب هنري ميللر (مدار السرطان) قد نُشِر للتوّ في أمريكا بعد عقديْن من منعه عن النشر و سرعان ما أصبح من أفضل الكتب مبيعاً في السوق الأمريكيّة و كنتُ قرأته من قبلُ عندما كنتُ أتسكّع في باريس كما قرأت لاحقاً كتابه المتمّم الآخر (مدار الجدي) و أدركْتُ حينها أنّ ميللر لم يكن من طائفة الكُتّاب الّذين يمكن أن يحفّزوا ذائقتي الأدبيّة: كان شعوري أنّ ميللر يوغِلُ في جعل الجنس موضوعاً عنيفاً و خشناً مُنفّراً لذا لم يكن صعباً أن أتفهّم سبب نفور كريس منه.

عندما رأيتُ هنري ميللر لأوّل مرّة بدا أقصر ممّا توقّعتُ و لكنّه – فيما عدا قِصَره – كان يبدو متطابقاً تقريباً مع ما كان يبدو عليه في صوره الفوتوغرافيّة المنشورة برأسه الاصلع و شفتيْه الشبقتيْن و وجهه الشبيه بوجْه الزهّاد و المتنسّكين و الّذي لا يختلف كثيراً عن وجه هنري فورد، و كان يتحدّثُ بلهجة أهل حيّ بروكلين النيويوركيّ. قدم ميللر إلى سانتا مونيكا برفقة إبنه توني و ما أن رأيناه مع إبنه حتّى تصافحْنا جميعاً ثمّ جلسنا نتبادل احاديث عامّة و رغم إحساسي أنّ النقاش إتّخذ منحىً يفتقدُ إلى البهجة و الحيويّة لكنّ ميللر كان يمتلكُ جاذبيّة طبيعيّة غير متكلّفة و نقداً ودوداً غير عدائيّ و لم يكن يستخدم

أيّاً من العدّة النقديّة القتاليّة المعهودة في بريطانيا !!. أمضينا معظم الوقت في الحديث عن الكتابة عندما إنطلقْنا بسيّارة كريس إلى منزل آلدوس هكسلي و كان من جملة الأشياء الّتي أخبرني إياها ميللر أنّه و للمرّة الأولى في حياته لم يعُدْ قلقاً بِشأن المال منذ أن حقّق مدار السرطان أعلى المبيعات، و لكنّه أردف أنّه لم يرَ بعينيْه ذلك المبلغ الطائل من المال الّذي يفترضُ أن يحقّقه كتابٌ هو الأكثر مبيعاً و أضاف أنّ النقود الّتي حصل عليها لم تكن لتكافِئ كفاح ستّين عاماً قضاها مُفلساً !! و حصل أن قرأت في سيرةٍ لاحقةٍ عنه أنّه أنفق معظم النقود الّتي حصل عليها من كتبه بسرعة فائقة ليجد نفسه مفلساً أيضاً كما كان من قبلُ.

كان هكسلي يُقيمُ في منزلٍ مستأجر على تلّة خلف هوليوود بعد أن إلتهمت النيران منزله السابق أثناء عاصفة ناريّة ضربت المنطقة في السنة السابقة و تسبّبت في إحتراق معظم كتبه و مخطوطاته، و أخبِرْتُ لاحقاً أنّ الرجل كان يهيم مع خيالاته الفنتازيّة – بتأثير عقار LSD الّذي كان مدمِناً عليه – فكان أن رأى في السنة النيران الّتي كانت تلتهم منزله لوحة بانوراميّة فائقة الجمال لذا لم يبذلْ أيّ جهدٍ في إنقاذ أيّ شيء من ممتلكاته و مخطوطاته الثمينة !!، و كان سبق لي أن إلتقيْتُ هكسلي قبل بضع سنواتٍ في لندن و دعاني حينها على الغداء في ناديه المفضّل: النادي الثقافيّ Athenaeum، و كان حينها هكسلي رجلاً طويلاً للغاية و فاقداً للبصر تقريباً و كان يتحدّثُ بصوتٍ خفيض و ببطئ ملحوظ و أذكرُ حينها أنّني قلتُ له عندما وقفْتُ إلى جانبه أمام المبولة في المرحاض " لم أكن لأتصوّر يوماً أنّني سأقفُ لأتبوّل و إلى جانبي يقف آلدوس هكسلي ليتبوّل هو الآخر !! " فأجابني على الفور " نعم أعرف شعورك و سبق لي أن إختبرْته عندما وقفْتُ لأتبوّل بجانب الملك جورج الخامس !! ". ربّما يكون من المُثير هنا ذكرُ واحدةٍ

من السّمات المميّزة لِـ (هكسلي): لم يعرف الرّجل طوال حياته كيف يُنهي مكالمةً هاتفيّة، و ربّما ظنّ الكثيرون أنّه كان مسكوناً بفكرةٍ إستحواذيّة تدفعه للحديث المتواصل عبر الهاتف و لم يكونوا يدركون أنّه لم يعرف كيف يقول " مع السلامة "، و قد إختبرْتُ هذه السمة فيه عندما تحدّث من لندن مع أخيه في أمريكا لمدّة نصف ساعة – و هي فترة طويلة للغاية و مكلفة كثيراً تلك الايّام –، وَ كان الرجل مثالاً في الرقّة و الطيبة حتّى أنّ الكثيرين رأوا فيه قدّيساً !!. أثبتتْ هواجسُنا بشأن إصطحاب ميللر معنا لمقابلة هكسلي أنّها كانت غير ضروريّة و مُبالغاً بها كثيراً و عرفْنا لاحقاً أنّ الرجليْن سبق لهما ان إلتقَيا من قبلُ و كانا يبدُوان سعيديْن للإلتقاء ثانيةً و كان من المدهش للغاية رؤيتُهما معاً: كان ميللر في السبعين من عمره في حين كان هكسلي يصغرُهُ بثلاث سنواتٍ و هو من كان يبدو عجوزاً فيما بدا ميللر في حدود الخمسين من عمره حسب. ظهر هكسلي كبروفسورٍ عتيقِ الطراز يُحاضِرُ بين مجموعةٍ من الطلبة و يتمشّى بينهم بأكتافٍ متهدّلة بينما كان ميللر كتلة متفجّرة من حماسة طافحة و لم يكن لِيُعيرَ كثير إهتمامٍ للكرامة و الوقار و كان يتقافزُ بين الحضور مثل قطّة منزليّة مدلّلة !! و هكذا خلق هكسلي و ميللر من نفسيْهما ثنائيّاً غريباً: هكسلي الّذي يتحدّثُ أحياناً باللاتينيّة أو يقتبِسُ عباراتٍ فرنسيّة، و ميللر الّذي يصغي كتلميذ مدرسة و يصيح احياناً " أكيد ! ". كان لديّ الكثيرُ لأتحدّث بشأنه مع هكسلي لذا وجدْتُني بعد فترة من بداية جلستنا و قد إحتكرْتُ الحديث معه كليّاً، و لأنّ الوقت المتاح لي لم يكن ليتجاوز الساعة فقد كان عليّ أن أعرض أفكاري بشأن " الوجوديّة الجديدة " بالإختصار الّذي كان في حدود إستطاعتي و بدا عليّ كأنّني أتكلّمُ بطريقة تلقائيّة كآلةٍ ملقّنة و لكنّ هكسلي لم يبدُ عليه كبير إهتمامٍ بما

كنتُ أقوله و صُدِمتُ لرؤيته غير عابئٍ – كما بدا – بإقلاق عقله مع الوجوديّة الجديدة و التخلّي و لو لبرهةٍ عن التفكير في مشكلات المجتمع السكّاني العالمي الّتي كان منغمساً فيها عندما ذهبنا للقاءه. لم يتسنّ لي رؤية هكسلي ثانيةً و توفّى الرجل في ٢٢ تشرين ثانٍ ١٩٦٣ متأثّراً بسرطان الفم و مضت وفاته من غير أن تُثير كثير إهتمامٍ بعد أن تصادفت مع ذات اليوم الّذي أغتيل فيه الرئيس كينيدي.

* * * * * * * * * *

إستنفذت جولتي الأمريكيّة طاقتي تماماً، و بعد أن حاضرْتُ في الكلّية المعمدانيّة Baptist College في مدينة وينستون سالم Winston Salem وجدْتُ أنّ لديّ يوم عطلةٍ من غير محاضراتٍ لذا قرّرتُ قضاءه بإلتزام الراحة التامّة في سريري و مضيْتُ في قراءة رواية دورينمات (الطريد The Quarry) و هي إحدى روايات سلسلته المسمّاة (القاضي و جلاده The Judge and His Hangman) و مع أنّني قضيْتُ معظم اليوم في الإسترخاء و القراءة لكنّ شعوراً إنتابني بانّني غدوْتُ أكثر تعباً من ذي قبلُ و تأكّدت هواجسي في أنّ الإسترخاء المُجرّد ليس بالوسيلة المثلى في إستعادة الطاقة المُستنزفة، و أنّ الإنغماس الشّغوف في عمل ما نحبّ بمتعةٍ و حماسةٍ هو الطريقة الصائبة في إدامة زخم طاقتنا الحيويّة.

حصل أثناء ترتيبي للعودة إلى بريطانيا أنّ محاسب معهد الفنون المعاصرة أخبرَني بعد دراسة جدول إيراداتي من جولتي الأمريكيّة أنّني مدينٌ بعدّة مئاتٍ من الدولارات إلى دائرة الضرائب لذا توجّب عليّ كتابةُ شيكٍ بالمبلغ المطلوب و تسليمه للمحاسب ثم المضيّ معه في

تاكسي إلى دائرة الضرائب لغرض وضع تأشيرتهم على جوازي ليكون بمقدوري مغادرة الأراضي الأمريكيّة بطريقةٍ قانونيّة، و كم كانت دهشتي عظيمة عندما إكتشفْتُ أنّني سأغادر أمريكا و أنا مُفلِسٌ تقريباً بالضبط كحالتي عندما وطأْتُها قدماي لاوّل مرّة !! و في تلك اللحظة وحدها أدركْتُ ما كان يعنيه ستيفن سبندر عندما قال أنّ ديلان توماس كان الشاعر الاوّل الذّي يُقتَلُ على يدَي رجل ضرائب !!.

١٤. أفق جديد في الوعي البشريّ

بعد عودتي من رحلتي الأمريكيّة الأولى أدركْتُ كم إستنفذت العشرة أسابيع الّتي قضيتها في أمريكا من طاقتي و قدرتي على العمل و تطلّب الأمرُ منّي شهريْن كامليْن لأستعيد نشاطي الإعتياديّ كسابق عهده، و اظنُّ أنّ السبب واضِحٌ كفاية: إنّ إلقاء المحاضرات و الإلتقاء مع الناس لم يكونا أبداً بالفعاليّتيْن الّتي يمكن لهما أن تحوزا إهتمامي بقدر التفكير و الكتابة لذا فإنّ الضجر و فقدان الطاقة الحيويّة الداخليّة قادت حتماً إلى تسريبٍ مستمرٍ لنشاطي الحيويّ، و لكن برغم كلّ هذا كان لرحلتي الامريكيّة الأولى نتيجة واحدة في غاية الأهمّية و هي أنّها منحتْني بعضاً من أهمّ الرؤى الكاشفة لأنّ إعادة سرد أفكاري مرّاتٍ و مرّات في المحافل الجامعيّة و الإجتماعيّة جعلتْني أدركُ تماماً ما الّذي كنتُ أبغي قوله بوضوح تامّ، و كنت أبتغي فعلاً إحداث قفزة نوعيّة في التطوّر البشريّ و لمْ يكنْ هذا بالأمر الجديد عليّ: فقد راودتْني هذه الفكرة مُبكّراً أحد أيّام عام ١٩٦٠ عندما كنتُ ألقي محاضرةً في جمعيّة شو اللّندنيّة و وجدتني في نهاية المحاضرة أقول أنّ الكائن البشريّ يقفُ اليوم على عتبة خطوةٍ تطوّريّة إرتقائيّة مهمّة نحو طوْرٍ جديد في التطوّر البشريّ، و لطالما فكّرْتُ لاحقاً هل أنّ ما قلتُهُ كنت أعنيه حقّاً أم أنّهُ قيل بدفعٍ من الدهشة اللحظويّة الّتي إنتابتْني في سياقِ محاضرتي، و عندما أستعيدُ الأمور بطريقة إسترجاعيّة مُتروّيةٍ بعد سنوات أرى أنّ واحداً من أهمّ العوامل الّتي قادتْ إلى قناعتي تلك تعود إلى العمل الثوريّ الّذي أنجزه عالم النفس الأمريكيّ أبراهام ماسلو.

قبل أربع سنواتٍ من نشر الطبعة الأمريكيّة لكتابي (عصر الهزيمة)- الّذي نُشِر في أمريكا تحت عنوان مكانة الإنسان The Stature of Man - كنتُ تلقّيْتُ رسالة من ماسلو الّذي كان حينها أستاذاً في جامعة برانديس الأمريكيّة يخبِرني فيها أنّه سُرّ سروراً عظيماً بالنبرة التفاؤليّة الّتي تسِمُ كتابي هذا و كذلك للطريقة الّتي أوضحْتُ فيها بدقّة مكمن روح التخاذل و الهزيمة الّتي تنخر في مفاصل ثقافتنا المعاصرة. كان ماسلو آنذاك قد طوّر شكوكاً قويّة تجاه السايكولوجيا الفرويديّة و هو ذات الشعور القويّ الّذي لازمني لسنوات: بدت لي النظرة الفرويديّة في ردّ دوافعنا البشريّة الأعمق إلى الغريزة الجنسيّة غير ملائمةٍ و تطرد من سياقها بعضاً من أهمّ الشخوص المعترف بعبقريّتها الطاغية مثل ليوناردو دافنشي و برنارد شو، و كان سبق لي أن دخلتُ في مجادلةٍ صحفيّة ساخنة حول هذا الموضوع مع لوسيان (حفيد فرويد) بعد أن كتبْتُ مقالة صحفيّة أنتقدْتُ فيها بشدّة الهوس الفرويديّ بالغريزة الجنسيّة، و من طرائف الأمر أنّ لوسيان ردّ عليّ قائلاً بأنّني أنا منْ ينبغي أن يُنتقد لهوسه الجنسيّ المعلن الّذي تشي به كتاباتي !!.

كانت واحدةً من أهمّ الرؤى الّتي شحذت بصيرة ماسلو في رؤيته السايكولوجيّة المعاكسة للرؤية الفرويديّة هي دراسته لسايكولوجيا القِرَدة في حديقة حيوانات برونكس: أُعطيت القردة بعض الأحجيات لحلّها و متى ماكانت تنجحُ في مسعاها كانت تكافئُ بوجبةٍ من الموز و هنا حاول ماسلو الإستعاضة عن الموز الطبيعيّ بموز منحوتٍ من الخشب و لدهشته فإنّ القردة مضت في حلّ الأحجيات بنفس كفاءتها السابقة، و أخيراً فكّر ماسلو في حجب الموز تماماً عن القردة و مع هذا لم تبْدِ شيئاً من معالم التراجع في القدرة على حلّ

الأحجيات و هو الأمر الّذي كان يتعارضُ تماماً آنذاك مع نظريّة الدوافع السايكولوجيّة السائدة الّتي كانت واحدة من أهمّ الدعامات المؤسّسة للسايكولوجيا الكلاسيكيّة: فنحنُ نعرفُ أنّ البشر قد يرغبون حلّ أحجياتٍ من نوع الكلمات المتقاطعة مثلاً نشداناً للمتعة الخالصة، و لكنّ القردة كان يفترضُ فيها السعي وراء الطعام و حسبُ !! و يبدو أنّ قردة ماسلو أظهرت سلوكاً شبيهاً بالسلوك البشريّ عندما بدأت في حلّ الأحجيات طلباً للإستمتاع، و هنا مضى ماسلو في التساؤل: هل يمكن أن يكون وراء هذا الأمر حقيقةٌ أساسيّة تخصّ تطوّر الكائنات البشريّة: حقيقة التوق الذاتيّ للتعلّم ؟. ما أدهشني كثيراً في عمل ماسلو هي ملاحظتهُ الّتي أبداها مرّة و قال فيها أنّه سأم – كسايكولوجيّ – دراسة البشر المرضى لانّهم لم يكونوا يتحدّثون في شيءٍ سوى مرضهم، لذا راح ماسلو – و على غير النحو المتوقّع – يبحثُ عن أفضل البشر و اكثرهم لياقةً و صحّة نفسيّة و جسديّة ليضعهم موضع دراسته بدل المرضى و تمكّن في وقتٍ قياسيّ من بلوغِ إكتشافٍ مدهشٍ للغاية: كلّ الناس الأصحّاء يتشاركون في مسألة إختبارهم لبُرهاتٍ من السعادة العجائبيّة المفاجئة و لو انّهم يختلفون في مدى كلّ من تواترها و شدّتها، و اطلق ماسلو على هذه اللحظات المدهشة وصف (تجارب الذروة Peak Experiences، التي تختصر بالأحرف PEs) و ما ينبغي التاكيدُ عليه هنا أنّ تجارب الذروة هذه ليست بالضرورة ذات طبيعة تصوّفية بالمعنى الدينيّ للكلمة بل ينبغي النظر إليها في إطار حيويّة و متعةٍ يغمران الفرد و حسبُ بعيداً عن أيّة إيحاءات دينيّة. كتب ماسلو عن حالة أمّ صغيرة كانت تعدّ الإفطار لزوجها و أولادها و فجأة لمحتْ خيطاً من نور الشمس يتسلّلُ من النافذة و يتخلّلُها بالكامل و إذا بطفحٍ من السعادة الكاملة و غير المُختبرة من قبلُ يرفعُها إلى مصاف

تجربة ذروة مذهلة، كما كتب ماسلو في موضعٍ آخر عن حالة جنديّ أمريكيّ من المارينز وجد نفسهُ وحيداً في جزيرة باسيفيّكيّةٍ نائية و من غير أن يرى إمرأة لسنواتٍ ثمّ حصل عندما عاد ثانيةً إلى قاعدته البحريّة و رأى ممرّضةً أن إنتابتْهُ تجربة ذروة لم يختبرْها من قبلُ و الأمر المهمُ هنا أنّ تجربته قدِحتْ لا لانّه إختبر إثارة جنسيّة كان يفتقدها من قبلُ بل لكونهِ شعر للمرّة الأولى كم أنّ النساء يختلفْنَ عن الرجال: فالعادات المتواترة تجعلُنا ننظرُ إلى الرجال و النساء كمحْضِ نوعيْن للوجود البشريّ البيولوجيّ بينما هم في واقع الحال نوعان متمايزان عن بعضهما مثلما تختلف الأحصنةُ عن الأبقار !!.

أدهشتْني أفكار ماسلو عميقاً و إلى أبعد الحدود، و جوهرُ كتابي (الّلامنتمي) كان في الأصل عن شعراء و فنّانين أختبروا برهاتِ ذروةٍ غير إعتياديّة في حيواتهم و كانت معضلة هؤلاء و إشكاليّتهم العظمى في الوقت ذاته أن تجارب ذروتهم لم تكن لتتوافق مع النمط الحياتيّ الإعتياديّ اليوميّ للعيش البشريّ المقترن بالضّجر الّذي يسِمُ الحياة اليوميّة، و هكذا لم يبْقَ أمامهم من آليّة دفاعيّة سوى الإنكفاء نحو عالمٍ كئيب متمحورٍ على الذاتيّة الخالصة، و ما أدرِكُهُ اليوم بكلّ وضوحٍ أن ليس ثمّة فائدةٌ متوقّعة من التقهقر في الحياة و أنّ من المهمّ للغايةَ أن نكون أقوياء بما يكفي لنتعامل مع حياتنا كيفما كانت: تذكّرْتُ هنا كيف كنتُ أعودُ للمنزل بعد إنتهاء عملي في مصنع الصوف و أنا في قمّة الإعياء و الإكتئاب حيث كنت أسارعُ إلى الإرتماء في سريري و أنغمسُ في قراءة الشعر، و بعد غمرِ نفسي في حمأم من التجهّم الكئيب أندفعُ في قراءة أعمال مختارة لكلّ من بو، إليوت، ثومسن ثمّ أقفز إلى قراءة شيلي و ميلتون حتّى أجد نفسي و قد إنتهيْتُ من قراءاتي تلك و انا أتفجّرُ سعادةً و حيويّة، و هنا بدأتُ أدرك كيف يمكِنُ للفكر الخالص

المجرّد من أيّة معونة خارجيّة إضافيّة أن يطرد الشعور السلبيّ المفضيّ إلى التعاسة و الشعور بالإكتئاب. بدأتُ بقراءة ماسلو بصورة معمّقة و أدركْتُ أنّه كان يلمّحُ من وراء كتاباته إلى إمكانيّة مستحدثةٍ بالكامل للإرتقاء البشريّ الخلّاق و بخاصّة في الجزئيّة الخاصّة بالمعرفة الحدسيّة بأنّ الكائنات البشريّة تمتلك قدرة السيطرة الكاملة على مشاعرها بوساطة الفكر وحده و لا شيء سواه: يحصل مثلاً أن ننهض صباح أحد الأيّام الماطرة و نتذكّر أنّ علينا دفع فاتورة ثقيلة يتوجّبُ سدادُها فنغرق في سحابة من التجهّم و الإمتعاض اللّذيْن يلتصقان بنا بالضبط كما يلتصقُ السخامُ بالزجاجة الأماميّة للسيارة و نتناسى أنّ في عقولنا ما يكافِئُ عمل ماسحات الزجاج في السيّارة، و هنا أعود للتأكيد بكلّ وضوح و حسْم أنّ من الغباوة السماحُ للمشاعر السلبيّة أن تحكم قبضتها علينا بعدَ أن نهمل النظر في القدرات العظيمة الّتي نحوزُها في مواجهة السلبيّة و الإنكفاء، و بدا الإستنتاج المنطقيّ من وراء كلّ هذا أنّنا جميعاً نمتلكُ طبقة دفينة من السعادة مركونةً في قاع عقلِنا البشريّ و أنّ المشكلة الوجوديّة المزمنة تكمنُ في كيفيّة إختراق هذه الطبقة بعد تهشيم حواجز السأم و الضجر و عندها نشعرُ كم نحنُ محظوظون لانّنا أحياءً – في أقلّ تقدير – و سينتابُنا ذات الشعور الّذي غمر دوستويفسكي و هو واقفٌ أمام فرقة الإعدام (**يشيرُ ويلسون هنا إلى فقرة في الفصل الثاني من سيرته تخصّ دوستويفسكي، المترجمة**)، و في هذا السياق كتب (هانز كيلْلر Hans Keller) مدير الإخراج السابق في وحدة الموسيقى التابعة لِـ BBC أنّه عندما كان مقيماً في ألمانيا النازيّة في الثلاثينات (من القرن الماضي) و رأى إخلاء رفاقه اليهود إلى معسكرات الإعتقال الرهيبة غمرتْهُ فكرة واحدة تقول: لو إستطعْتُ الهرب خارج ألمانيا فلن يمرَ عليّ يومٌ لا أكون فيه سعيداً للبقيّة الباقية من حياتي !!.

تمكّنتُ في وقت مبكّر التميز بين نوعين من تجارب الذروة: النوع الاوّل هو أكثر الأشكال بساطةً و لم يكنْ ليتعدّى حالة " الشعور الجيّد " المماثل لحالة زجاج السيارة الأماميّ بعد أن تزيل عنه ماسحات الزجاج كتل الطين و السخام العالقة فيه، و هنا تزول كلّ المشاعر السلبيّة من الحالة البشريّة و ينتابنا إحساسٌ قويّ بحقيقة المستقبل الّذي ينتظرنا، أمّا النوع الثاني فهو ما يحملُ حسّاً دقيقاً بالمعنى المرتبط بالحياة البشريّة، و بخاصّة حياتي أنا، فقد نشأتْ لديّ يقينيّة مطلقةٌ أنّني لا أمتلِكُ – و بغضّ النظر عن كلّ الإشكالات العمليّة – عذراً معقولاً و مبرّراً كفاية لأيّة حالةٍ من حالات الشكّ و القلق، و تملّكني شعورٌ قويّ بانّ قوّة خارجة عنّي كانت مسؤولةً عن قيادة حياتي نحو آفاقٍ أرحب. كان واضحاً لي أنّ ثمّة مستوىً ثالثٌ من تجربة الذروة: مستوىً يختبر فيه المرءُ نمطاً من المعنى الّذي يبدو مرئيّاً و ذا قدرةٍ طاغية تجترحُ نوعاً من الشعور أنّ العالم الخارجيّ – و كلّ موجوداته – تتواصلُ معك بوضوحٍ كما لو أنّ أحدهم يتحدّثُ في أذنيْك و هذا هو ذات الشعور الّذي غمر آلدوس هكسلي Aldous Huxley تحت تاثير المسكالين برغمِ أنّ تجربتي أنا ذاتي مع المسكالين تختلف نوعيّاً عمّا إختبره هكسلي و سأصفها لاحقاً في موضع آخر من سيرتي هذه. لاحظ هكسلي أن حواسنا تعملُ كمرشّحاتٍ مُصمّمة لحجز المؤثّرات بعيدة عن النفاذ إلينا و أنّ في إمكاننا تعديل عمل هذه المرشّحات بالضبط مثلما نفتح الستائر في يومٍ قائظ، و بالنسبة لي فإنّ القدرة على تمثّل تجربة الذروة من النوع الثالث كانت شبيهةً بالوقوف على قمّة إيفيرست في وقتٍ لم تكن فيه قد إختبرْتَ من قبلُ الوقوف على قمّة أعلى من تلّة صغيرة !!.

كان ماسلو بلا منازعٍ السايكولوجيّ الاوّل الّذي أدرك أنّ أهمّ ما

يسِمُ الكائنات البشريّة هو إمتلاكها للإرادة الحرّة Free Will : فالمرءُ يشعرُ بانّه كائن ميكانيكيّ متى ما توجّب عليه فعلُ أمر بطريقة تراتبيّة باعثة على الضجر و لكن يحصل في اللحظة الّتي تقرّرُ فيها إرادتي أن أفعل ما أشاءُ أن أحوز طاقة فعّالة لها القدرة على الفعل و الإنجاز الخلّاقيْن، و من اللافت للنظر أنّ التراث الفلسفيّ الفرنسيّ لا زال أميناً على تقاليده الفلسفيّة الديكارتيّة الّتي ترى في الإنسان نوعاً من آلةٍ و لا يبدو أنّ الأمر تغيّر كثيراً مع الفلاسفة الفرنسيّين المحدثين: ديريدا، بودريارد، ليوتار، دولوز،،،،،،.

* * * * * * * * * *

بعدَ أن عدْتُ من أمريكا شرعْتُ في دراسة مسألة على قدرٍ عالٍ من الحيويّة و الأهمّية: مسألة الخمسة في المائة أو (واحد من عشرين) و الّتي تعني بالتحديد أنّ خمسةً بالمائة فقط من كلّ جماعة حيوانيّة – بضمنها الكائناتُ البشريّة – تُبدي صفاتٍ قياديّة مهيمنة Dominance و كنتُ علمتُ بهذه الحقيقة لاوّل مرّة بعد أن قرأتُ كتاباً يدعى (النشوء الإفريقيّ African Genesis) كتبه المسرحيّ و كاتب نصوص الأفلام الأمريكيّ (روبرت أردري Robert Ardrey) و كنتُ في الأساس إبتعْتُ الكتاب لتقرأهُ زوجتي جوي الّتي تحبّ القراءة في هذه الأمور و أضرابها و لكن حصل لصدفةٍ ما أن قراتُ الكتاب انا أيضاً و ترك الكتاب في نفسي دهشة عارمة: حاجج أردري في كتابه هذا أنّ الكائنات البشريّة الّتي نشأت في السفانا الإفريقيّة قبل مليونيْن من السنين تعلّمت المشي منتصبة القامة لكي تدع أذرعها الأماميّة حرّةً في إستخدام الأسلجة المتاحة لها، و لم أكنْ انا حينها مهتمّاً بهذه المسألة المحدّدة قدر إهتمامي بالقفزات التطوّرية الّتي لازمت الوجود

البشريّ، فما كان منّي إلّا أن أكاتب أردري معلّقاً على بعض آرائه و ردّ هو عليّ و سرعان ما وجدنا نفسينا ننغمسُ في مكاتباتٍ منتظمة و لن أنسى ذلك اليوم الّذي قدم فيه أردري إلى إنكلترا و تجشّم عناء سفر مرهقٍ إلى كورنوال ليراني، و تبادلْنا حينها احاديث غاية في المتعة: أخبرَني أردري أنّ مسألة (الخمسة في المائة) المهيمِنة أكتشفتْ أوّل مرّة خلال الحرب الكوريّة: فقد أخبر السجّانون الأسرى الأمريكان أن ليس ثمّة مهربٌ من الأسر، و كان آسروهم إستفادوا من التجربة الصينيّة مع الأسرى إذ سبق للصينيين أن درسوا ظروف أسراهم بدقّة شديدة و كانوا يحدّدون الأسرى الّذين يُبدون صفاتٍ قياديّة مهيمنة و يضعونهم في سجونٍ خاصّة مشدّدة الحراسة، و لدهشة الصينيّين وجدوا أنّ الأسرى المتبقّين إستحالوا كائناتٍ عاجزة فاقدة الإرادة بالكامل حتّى انّهم لم يكونوا بحاجةٍ إلى وضع أيّة حراسةٍ عليهم بعد أن عزلوهم عن " مثيري المشاكل " كما كانوا يسمّون الأسرى ذوي السمات القياديّة المهيمنة، و الغريبُ في الأمر أنّ نسبة مثيري المشاكل هؤلاء كانت بالضبط خمسةً في المائة في كلّ معتقلات الأسرى !!، و سبق لبرناردشو أن أدرك هذه الحقيقة الغريبة في مطلع القرن العشرين، فقد سأل شو المستكشفَ ذا الشهرة العالميّة (إج. إم. ستانلي .H. M Stanley) " لو حصل و كنت مريضاً فكم عدد الّذين يمكنك تسليمهم قيادة البعثة من بعدك ؟ " أجاب ستانلي " واحدٌ من بين كلّ عشرين، أي خمسة في المائة ".

كان ماسلو على درايةٍ كافية بمسألة الخمسة في المائة هذه و كان عزم يوماً – لكونه سايكولوجيّاً تجريبيّاً – على إجراء دراسةٍ تجريبيّة عن سمات القيادة و النزوع نحو الهيمنة بين النساء و كان إختار النساء بدل الرجال لانّه رأى فيهنّ قدرة اكبر على الإفصاح النزيه بالمقارنة مع

الرجال الّذين غالباً ما يميلون إلى تضخيم أمورٍ بعينها بقصد الإنسياق وراء التفخيم الذاتي و القدرات الشخصيّة المتعاظمة، و إكتشف ماسلو بسرعة ملحوظة أنّ النساء يندرجْنَ في ثلاث مجموعاتٍ من حيث سماتهُنّ القياديّة: عالية، متوسّطة، و أخيراً منخفضة، فالنساء اللواتي يبدين سماتٍ قياديّة مهيمنة صارخة - و هنّ حتماً بنسبة الخمسة في المائة العتيدة - لهنّ سلوك جنسيّ يتّسم بالعنف و العدوانيّة و يتودّدْن إلى ذكور يبدون ذات السمات القيادية المهيمنة،أمّا النساء اللواتي يبدين سماتٍ قياديّة متوسّطة فهنّ النسبة الغالبة بين النساء و يكُنّ في الغالب رومانتيكيّاتٍ و يحببْن إهداءهنّ زهوراً و مرافقة رجلٍ يذهب معهنّ لتناول الطعام في المطاعم و لا يرغبْن في شيء أكثر من منزلٍ دافئٍ و زوجٍ و اطفالٍ و كلّ المزايا الأخرى الّتي تتيحُها زيجةٌ مستقرّة، أمّا النساء ذوات السمات المهيمنة الواطئة فهنّ يخفْن الرجال و يحببْن من يكتفي بإبداء رغبته في الحديث معهنّ من بعيد و بمحض إيماءة من غير كلام !!. توصّل ماسلو إلى أمرٍ آخر جديرٍ بملاحظة مدقّقة: كلّ النساء كنّ يرغبْن في رجلٍ يبدي هيمنة أكثر من هيمنتهنّ و لكن ليس إلى حدود مفرطة تتجاوزهنّ كثيراً، و أنّ العلاقات بين النساء و الرجال من النوع الّذي تكون فيه الهيمنة معقودة للمرأة قلّما كانت علاقات سعيدة و مشبعة و باعثة على الرضا و الإكتفاء العاطفيّ، و انّ كلّاً من الرجل و المرأة يبحثُ عن شريك ينتمي لذات مجموعته من حيث سمات القيادة و الهيمنة. زوّدتْني معرفتي بموضوعة الهيمنة في الحياة البشريّة ببصيرةٍ مدهشةٍ أقرب إلى الرؤيا و أدركْتُ على الفور أنّها كانت في القلب من الإشكاليّة الّتي يعانيها اللامنتمون الذين لطالما قلْتُ أنّهم لم يدّعوا يوماً ما أبداً أنّهم عباقرةٌ محبطون كما يقول بطل باربوس "لسْتُ شيئاً البتّة و لا أستحقُّ أن أحظى بشيءٍ" بل أنّ جلّ الأمر

يكمن في مشكلتهم الأساسيّة: كونهم ينتمون إلى فئة الخمسة في المائة المهيمنة و أنّ سطوتهم الفكريّة الطبيعيّة هي بالضبط ما جعلتْ منهم كائناتٍ يصعبُ إرضاؤها و إشباعُها، فقبل أن يصبح هنري إيرفنغ ممثّلاً عظيماً كان يعمل كاتباً في بنك و لكم أن تتصوّروا ما الّذي كان الحال الّذي سينتهي إليْه إيرفنغ لو حصل و لم يصبح ممثّلاً مرموقاً و كيف كان سيشعرُ حينها ؟. من المؤكّد أنّ أيّ فردٍ ذي سماتٍ قياديّة مهيمنة طاغية سيجد نفسه في وضعيّة محبطة و يائسة ما لم يوضع في المكان المناسب لسماته هذه، و قبل قرنيْن أو ثلاثة من اليوم كان الأمرُ أكثر يسراً مع هؤلاء ليجدوا مواقعهم المجتمعيّة المناسبة لكون الحياة آنذاك كانت أقلّ تنافسيّةً من اليوم و لكنّ الأمر بات حتماً أكثر تعقيداً إلى حدٍّ يستعصي على المقارنة مع حالة عالمنا المكتظّ بالسكّان حيث يتواجد اليوم الملايين من ذوي الأفكار المهيمنة وسط بيئة شديدة التنافسيّة، و الإشكاليّة الأكثر خطورةً هنا هي أنّ هؤلاء الخمسة بالمائة من ذوي الفكر المهيمن عندما لا يجدون متنفّساً يسمح بإظهار مواهبهم الثمينة و ممارسة أدوارهم القياديّة فإنّهم يتحوّلون إلى مجتمعٍ لأفرادٍ غارقين في الإجرام و القسوة و العدوانيّة و ربّما هذا هو السببُ الذي يوضِحُ كون أغلب عتاة المجرمين قد نشأوا وسط بيئاتٍ مجدبةٍ و فقيرة خنقت طاقاتهم و كبّلت قدراتهم القياديّة، و لكن برغم كلّ هذا يمكن لافراد الخمسة في المائة أن يتطوّروا و يرتقوا ليكونوا ملوكاً حقيقيّين من حيث المهارة و الصنعة و الحذق لا ملوكاً في الجريمة و حسب. ثمّة ملاحظةٌ أخرى أريد تثبيتها هنا: معظمُ افراد مجتمع الخمسة في المائة يحتاجون أفراداً آخرين للتعبير عن قدراتهم المهيمنة، فالممثّل يحتاجُ حضوراً جماهيريّاً، و السياسيّ يحتاج ناخبين و لكن مع هذا تبقى فئةٌ قليلة من هذه الجماعة ممّن لا يحتاجون معونةً من آخرين، و يتملّكُ

هؤلاء شعورٌ صارمٌ بأنّ الحاجة إلى خلق أعمال مميّزة في حقل الفنّ أو الأدب او الفلسفة أو أيّ ميدان آخر لهو أهمّ بكثير من أن ينالوا ما يستحقّون من التقدير و الإعتراف المستوجبيْن و هؤلاء يمثّلون ما عناه ويلز بفئة " العاملون المثقّفون ذوو الأصالة الذهنيّة المتفرّدة "، و لكن تبقى أيضاً بعض الحقائق - المدهشة و الممتعة أحياناً - عصيّة على معرفتنا فيما يخصّ بعض جوانب السلوك بين افراد هذه الفئة: فقد أبانت بحوث حديثة أنّ ألبرت إينشتين كان يكنّ دوافع جنسيّة قويّة تجاه النساء الخارقات النظافة، و أنّ ريتشارد فاينمان Richard Feynman - الفيزيائيّ النظريّ العظيم و أحد مطوّري النظريّة الكمّية الحديثة - كان لا يتعبُ أبداً من إغواء تلميذاته و حتّى زوجات تلاميذه في الجامعة، و إعتاد جون فون نيومان John von Neumann - الأب المؤسس لفكرة الحاسبات الحديثة - متى مادخل غرفة بمعيّة فتاة جميلة أنْ يرميَ القلم من بين يديْه لينتظر انحناءة الفتاة إلى الأسفل حتّى يختلس نظرة إلى ما تحت ثوبها،،،،،، لم يكن هؤلاء و أضرابهم في حاجةٍ إلى الآخرين لإظهار و إطلاق عبقريّاتهم الخلّاقة بل أنّ ما دفعهم هو محض هاجس تطوّري بإتّجاه الإرتقاء الخالص نحو الإنجاز و قد وصف شو هؤلاء بأنّهم " يخلقون عقولاً جديدة مثلما تخلق النساء رجالاً جدداً ".

* * * * * * * * * *

بعد بضعة عقودٍ من معرفتي بتجارب ماسلو علمْتُ أنّ شخصاً موهوباً يدعى (سيد بانكس Syd Banks) دهِش هو الآخر بعد معرفته بالإِشكاليّات الملازمة لحياة اللامنتمين و الّتي كتبْتُ عنها في كتابي، و كانت للرجل رؤاه و إستبصاراته المهمّة الّتي خدمت

لاحقاً كاساسٍ بنى عليه عالم النفس الأمريكيّ (جورج برانسكي George Pransky) رؤيته السايكولوجيّة. لم يكن بانكس بالرجل الأكاديميّ أو عالم النفس بل كان رجلاً بسيطاً من الطبقة العاملة و أقام رؤيته السايكولوجيّة بوخيٍ من بصيرته الخالصة الّتي علّمتْهُ أنّ مشاكلنا النفسيّة تنشأ من أفكارنا و أنّ بإمكاننا بكلّ بساطة طرد هذه المشاكل بتغيير أفكارنا ذاتها في المقام الاوّل و إذا ما جاز له أن يستخدم مفردات ماسلو فربّما كان بانكس سيقول " المتشائمون لا يختبرون تجارب ذروة في حياتهم بسبب تشاؤمهم ذاته و أنّ المتفائلين يختبرون الكثير منها بسببٍ من تفاؤلهم ذاته ايضاً ". راح بانكس يحاضر عن بصيرته هذه في حلقات دراسيّة و نقاشاتٍ معمّقة في أروقة الجامعات و كان يحضرها العديد من السايكولوجيين و رجال الاعمال و الأطبّاء و تصادف ذات يومٍ أنّ سايكولوجيّاً يدعى (جورج برانسكي) - الذي شاطر ماسلو عدم قناعته بالسايكولوجيا الفرويديّة المهيمنة وقتذاك - حضر سمناراً عقِد في أحد أيّام نهاية الأسبوع و لم يتمكّن من إستيعاب فكرة أنّ المشاكل النفسيّة تنبعُ من ذات افكارنا المهيمنة و لكنّه لاحظ أنّ كلّ من كان حاضراً بدا ممتلئاً بالطاقة و الحماسة و الحيويّة الإيجابيّة و مسيطراً على شؤون حياته اليوميّة، و بعد أن مضى الرجل في تفهّم ما كان يقولهُ بانكس بدأ بإختبار دفقٍ من الطاقة و الحيويّة مثل الآخرين من الحاضرين و هنا قرّر إختبار هذه الطريقة على عيّنة من مرضاه فوجدها تعملُ بطريقةٍ رائعة فإندفع في التأسيس المنضبط لسايكولوجيا كاملة تقوم على مفهوم تجارب الذروة المدهشة و الّتي يمكن عدّها تطبيقاً عمليّاً لظاهرة (القصديّة intentionality) الّتي قال بها هوسرل مطبّقةً في الحقل السايكولوجيّ: هي بالضبط إدراكُ أنّ عقولنا هي ما تملي علينا

مشاعرنا و إستجاباتنا و أنّنا نحن – الكائنات البشريّة – من يخلق تعاساتنا و أفراحنا و ليس غير عقولنا ما يمكنهُ فعلُ هذا.

إبتغى غوردجييف Gurdjieff الوصول إلى تخوم نمطٍ من السيطرة على الوعي البشريّ لدى مُريديه و يمكن القراءة عن مسعاه هذا في حكايةٍ قصيرة رواها (جَي. بي. بينيت J. B. Bennett) في سيرته الذاتيّة المعنونة (شاهد Witness) نشرها عام ١٩٧٤: في صيف عام ١٩٢٣ ذهب بينيت للمكوث في مدينة فونتينبلو Fontainebleau حيث أقام غوردجييف معهده للإرتقاء المتناغم للإنسان، و كان كلّ مَنْ في المعهد مطلوباً منه العمل الشاق وفقاً لتوجيهات غوردجييف كبناء جدرانٍ عالية أو حفر جداول و قنوات مائيّة في المزارع و كانت كلّ الأعمال تتطلّبُ القيام بحركات شاقّة، و حصل في أحد الصباحات أن وجد بينيت نفسه و هو يرتجِفُ في الفراش من أثر الحمّى، و بينما كان يتمْتمُ مع نفسه " سوف أبقى اليوم حتماً مستلقياً بلا عمل في فراشي " وجد نفسه مدفوعاً للنهوض و كانّ قوّة علويّة ساعدتْهُ على تماسك جسده، و برغْم آلام الزحار الأميبي (الدوسنتاريا Dysentry) الّتي كان يعاني منها فإنّه إشترك في العمل مع المجموعة الّتي كان يقودُها غوردجييف بنفسه و كان مطلوباً من هذه المجموعة إنجازُ أشقّ الاعمال و أكثرها تعقيداً و إستنفاذاً للقدرة البشريّة، و بينما كان الواحد يتساقطُ بعد الآخر أصرّ بينيت على المضيّ في العمل حتّى لو تسبّب في قتل نفسه، و يمضي في وصف حاله آنذاك فيقولُ في سيرته الذاتيّة " فجأةً وجدْتُ نفسي ممتلئاً بفيْضٍ من طاقةٍ عظمى و بدا جسمي كما لو انّه إستحال ضوءً و تلاشى كلّ شعوري السابق بالألم و الشقاء "، و لشدّة هذه الطاقة الّتي غمرتْهُ مضى بينيت بعد الظهر – و كان يوماً شديد القيظ – في العمل الشاق لساعةٍ كاملة

و لم يكن ليتمكّن في الظروف الإعتياديّة من القيام بذلك اللون من العمل الشاق لأكثر من دقائق معدودات، و يعلّقِ بينيت بخصوص هذه الظاهرة قائلاً في ذات سيرته الذاتيّة " كان جسدي الواهن المتمرّد الّذي يعاني المرض قد صار قويّاً مطواعاً "، و هنا يعيد بينيت تثبيت الملاحظة الّتي سبق أن أوردها (أوسبينسكي)(*) و الّتي قال فيها " يستطيعُ المرءُ أن يكون غاضباً أو سعيداً بإرادته و لكنّنا متى ما أردنا أن نتفهّم طبيعة المحدوديّات الّتي تحكم وجودنا العقليّ فعلينا أن نجرّب الإندهاش و ما يجود به علينا من إمكانيّاتٍ لم نكن لنعرف عنها شيئاً من قبلُ ".

* بيتر دي. أوسبينسكي Peter D. Ouspensky: رياضياتيّ روسيّ ولد عام ١٨٧٨، و توفّى عام ١٩٤٧. يعرَفُ عنه إهتمامه بأعمال غوردجييف و تبشيره بأهمّيتها و الكتابة عنها و قد إلتقى الإثنان لاوّل مرّة في موسكو عام ١٩١٥. نشر العديد من الكتب كما ألّف كولن ويلسون كتاباً كاملاً عنه يحكي فيه قصّة حياته تحت عنوان (الحياة الغريبة لأوسبينسكي The Strange Life of P. D. Ouspensky). (المترجمة)

١٥. سيرةٌ وَ كتبٌ قذرة و مِسكالين

كانت السّنوات الممتدّة بين عودتي من أمريكا أواخر عام ١٩٦١ و رِحلتي الثّانية إليْها في كانون ثانٍ ١٩٦٦ فترةَ كدَحٍ متواصلٍ بلا إنقطاع: كنّا نعيشُ كلّ الوقت على الأموال المسحوبة على المكشوف overdraft (**الأموال الّتي يمنحُها البنكُ لزبونٍ ما في غيابِ وجود غطاءٍ ماليّ كافٍ في رصيد الزّبون، المُترجمة**) و كنتُ أعملُ بدأبٍ طيلة الوقت لكي لا يحجبَ عنّي مدير البنك الّذي أتعاملُ معه التسهيلات الماليّة الّتي منحَها لي، و إذا ما غضضْنا الطّرف عن مسألة الشّحّة الماليّة الّتي كنتُ أعانيها آنذاك فلَمْ يكنْ ثمّة سببٌ جدّيٌّ يدعوني لإبداء إمارات التذمّر و الشّكوى: كنتُ أعشقُ عائلتي و أَعيشُ في مسكنٍ جذّابٍ ذي إطلالةٍ رائعةٍ على البحر، و كان يمكنُني على الدّوام قضاءُ معظم وقت الصّباح في العمل ثمّ الذهابُ إلى ساحل البحْر لأحصل على قسْطٍ من السّباحة، أو أتمتّعَ بحمّامٍ شمسيٍّ، ثمّ أعودُ بعدها لفتْحِ قنّينة نبيذ و تناول شيءٍ منْها، و عندما كنتُ أرى زيجاتٍ كثيرة للعديدِ من الكتّاب تتهاوى كان يقيني يزدادُ رسوخاً بأنّ لقائي و زواجي من جوي كانا ضربة الحظّ العظمى الّتي حظيتُ بها في كلّ حياتي بعد أن جعلتْني جوي – بِطبيعتِها المُسالمة المُتسامحة وَ لينِ عريكتِها على الدّوام – أشعرُ برغبةٍ جامحةٍ في إبداء مظاهر الحماية تجاهها و تجاه إبنتنا سالي وَ ولديْنا الآخريْن في وقتٍ لاحق. كانت لديْنا تلك الايّام أسطوانةٌ عن الأرانب فلوبسي The Tale of The Flopsy (**حكاية الأرانب فلوبسي** Bunnies **كتابٌ مصوّرٌ في أدب الأطفال كتبتْهُ و أنجزَتْ رسوماتِهِ بياتريكس**

بوتر Beatrix Potter صدَرَ منه جزءان و توقّف إصدارُهُ عام ١٩٠٩، المُترجمة)، و كان ثمّة أغنيةٌ في الأسطوانة تقولُ:

نحنُ عائلةٌ سعيدة

نعم عائلة سعيدة

و نعيشُ جنب جذْع شجرةٍ عظيمةٍ من خشب التنّوب

و لم يكنْ بإمكاني سماعُ هذه الأغنية دون المُضيّ في توكيد الحقيقة التالية: نعم، نحنُ عائلةٌ سعيدة، لذا لم أكن أخسرُ الكثير من الوقت في التّفكير غير المُجدي للحصول على إجابةٍ مقنعة لهذا السؤال: " لِمَ نحنُ مُفلِسون إلى هذه الدّرجة المُريعة ؟ " مع أنّني كنتُ أعتبِرُ هذا الأمر أحياناً لعبةً مقصودةً من القدَر يُلجِمُ بها ميْلي الطّبيعيّ إلى الكسل و الرّخاوة، لذا لم أكن أرى في سحْب المال على المكشوف أمراً يعني الكثير طالما كان بإمكاني المُضيُّ في الحياة مُحاطاً بمحبّة عائلتي، و كانت عرّافةٌ أخبرتْني ذات يوم عند ركيزة عمود بلاكبول Blackpool Pier و هي تحدّقُ في باطن كَفّي " لن تكون غنيّاً يوماً ما، و لكنْ في ذات الوقْت لن ينقُصكَ من المال ما يكفي للإيفاء بمُتطلّبات معيشتك " و أظنُّ أنّ هذه العرّافة كانت مُصيبةً إلى حدّ بعيد.

كتبَ لي النّاشرُ غولانز أحد الأيّام ليقولَ أنّ الطّريقة الوحيدة المُتاحة أمامي لنزْعِ أسلحة نقّادي اللّدودين و تفريغ شحنة عدائيّتهم الصّارخة تجاهي هي الإنصِرافُ عن الكتابة لبضْعِ سنواتٍ و إيجاد عملٍ لي بعيداً عن الكتابة – وظيفة في دار نشر أو ربّما وظيفة أكاديميّة – ثمّ أضاف غولانز أنّ من الأفضل لي أن أعتادَ على العيْش بموردٍ ماليّ أقلّ من السّابق، و كانت إقتراحاتُ غولانز هذه كفيلةً بجعْلِ قلبي يُصابُ بوهنٍ قاتل: فقد أمْضيْتُ الكثيرَ من السّنوات السّابقات من حياتي و

أنا أعملُ في أعمالٍ لا أُطيقُها، و عقدْتُ العزم على أن لا أعودَ عبداً أجيراً مهما كلّفَني الأمرُ من مشقّة، و عندما مضيْتُ في قراءة رسالة غولانز ثانيةً تفاقمت حالتي الإكتئابيّة و لكن حالما سمعْتُ ضحْكة سالي قادمةً من غرفة النّوم تلاشى كلّ السّواد أمام عينيَّ و أدركْتُ أن لاشئَ يستطيعُ أن يعوقّني و يدفعني إلى هاوية الإكتئاب العميق طالما كانت زوجتي و إبنتي تغمرانِ حياتي بالبهْجة. كان الإحساسُ بالحرّية البَرَكة العُظمى الّتي عرفتُها في حياتي و كانت دوْماً تغمرُني بشعورٍ مُفعم بالدعة و الإسترخاء، و لازلتُ حتّى اليوم أستذكرُ كيف كنتُ أقودُ السيّارة من لندن بصحبة جوي و توقّفْنا قريباً من موقع ستونهنج Stonehenge لتناولِ شطيرةٍ و قدحٍ من البيرة (لم تكن الحاناتُ تلك الأيّام تبيعُ النبيذ بالأقداح)، و عندما جلسْنا خارج الحانة أمام منضدةٍ خشبيّة تحت أشعّة الشّمس أدركْتُ كم كنتُ محظوظاً إذ أرى نفسي جالساً هنا عوضاً عن العمل الرّتيب في مصنعٍ أو في وظيفةٍ مكتبيّة، و لّما كنتُ أتوقّعُ منذُ بواكيري أنّني سأقضي كلّ حياتي القادمة في العمل أجيراً لدى الآخرين لذا كانت مسألة شحّة المال لديّ أمراً بديهيّاً و لا يُعكّرُ صفوَ حياتي.

من الطبيعيّ للغاية أنّني أنفقْتُ الكثير على إقتناء الكتب و الأسطوانات: ففي عام ١٩٦١ كان في حوْزتي خمسة آلاف كتاب و ألف و خمسمائة أسطوانة، و في عام ١٩٦٣ صار لديّ عشرة آلاف كتاب و أربعة آلاف أسطوانة، أمّا اليوم فقد إرتفع العدد إلى ما يُقارِبُ الخمسة و العشرين ألف كتاب و ما يماثِله في عدد الأسطوانات و ربّما كانت هذه الحقيقةُ توضّحُ بما لا يقبلُ أيّ شكّ لِمَ لَمْ نكن ندّخِرُ أيّ مالٍ ؟!! و هو ما يوضّحُ أيضاً لِمَ توجّبَ عليّ الكتَابةُ بلا إنْقطاع: فقد كتبتُ رواية بفترةٍ قياسيّة عام ١٩٦٠ و نشرتْ لاحقاً بعنوان (ضياعٌ

في سوهو) و هو العملُ الّذي إبتدأتُ معهُ تعاوُناً مُثمِراً مُشتركاً وَ ممتدّاً مع أحد أصدقائي القُدامى أيّام فترة التسكّع الفوضويّة في سوهو، و كان الرّجلُ يدعى (تشارلس بيلتشير Charles Belchier) و كان مُمثّلاً حسن الطّلعة و ذا صوْتٍ قادرٍ على غواية النساء. لم نكن أنا و تشارلس صديقيْن حميميْن لانّهُ كانَ لا يُبدي – كحال معظم المُمثّلين – أيّ إهتمامٍ بالأفكار لذا كان بيننا القليل للغاية من المُشترَكات، و لكن بعد نشرِ اللامنتمي أعاد تشارلس إتّصاله بي و كان يأتي للمكوث في منزلنا بعض الأحيان، و طلب إليّ ذات مرّة مساعدته في إيجاد ناشرٍ لسيرته الذاتيّة غير المُكتملة الّتي إختار لها عنوان (الجانبُ الآخر من المدينة The Other Side of Town)، و بعْد أن قرأتُ سيرته وجدْتُها غير مُناسبةٍ للنشر في شكلها الأصليّ: كانت قصيرةً للغاية و لا تقومُ على سياقٍ تطوّريّ للأحداث، و لكن برغْم ذلك فقد راقتني أجزاؤها المتفرّقة كثيراً كما في ذلك المقطع الذي يصفُ فيه تشارلس " كيف راحِ يتمشّى عند التّاسعة في أحد الصّباحات المُمطرة بعد أن كان قضى الّليل بأكمله و هو يمارِسُ الحبّ مع فتاةٍ على أرضيّة شقّته، ثمّ راح يراقبُ النّاس صباحاً و هم يُسرِعون الخطى بإتّجاه أعمالهم، و عندها شعرَ بنوعٍ من التفوّق البهيج لإختِباره حقيقة أنّه كان حرّاً و أنّ بإمكانه قضاءَ أيّامه كيفما شاء، ثمّ سرقَ تشارلس قنّينة حليب موضوعةً أمام عتبة أحد الأبواب وَشربَها بدلاً عن تناول الفطور، ثمّ راحَ بعْدَها يبحثُ عن نقودٍ تكفيهِ لشراء غداءٍ له،،،،، ". حاولْتُ و لأسبوعٍ كامل إعادة كتابة سيرة تشارلس الذّاتيّة كعملٍ روائيّ و أدركْتُ لاحقاً أنّ من المستحيل كتابة العمل إلّا إذا عاينْتُ العمل بعيْنيّ لا بعينيْ تشارلس، و عندما فعلْتُ هذا إستحالت السيرةُ حكايةً عن شابّ يعيشُ في أحدِ الأحياء الّلندنيّة – كانت معالِمُ حياته بالطبع

تماثلُ معالمَ حياتي - ثمّ راح يعملُ حفّاراً في محاولةٍ لإجتناب العمل الوظيفيّ المكتبيّ الّذي يمقته للغاية، و بعدها يذهبُ الشّاب إلى لندن في محاولةِ الحصول على حياةٍ أكثر إثارةً للإهتمام و هناك يلتقي مُمثّلاً أنيقاً يتكلّمُ بلغةٍ هادئة مُنسابةٍ و يُقيمُ أودَ حياته بتمثيل حيوات النّاس في حانات سوهو أمام المتسكّعين كما كان يقومُ أحياناً بأداء أدوارٍ لتسلية الطّوابير المسرحيّة، ثمّ قرّرْتُ توسيع فكرة العُقدة الأصليّة لعمل تشارلس بإضافة شيء من مسرحيّتي (برعم الزّهرة المعدنيّة) و لكنّي وجدْتُ نفسي و قد غاب عنها الإلهامُ المطلوب بعد إضافة حوالي عشرة آلاف كلمةٍ إلى نصّ تشارلس الأصليّ و صار من الصّعب المضيّ في الكتابة و قرّرْتُ في نهاية المطاف إرسال مخطوطة العمل إلى النّاشر غولانز طلباً لمشورته و سؤاله عمّا يراهُ مُناسباً من أمر المخطوطة، و كم كانت دهشتي - وَ دهشةُ تشارلس معي - عظيمةً عندما قرّر غولانز نشرَ العمل كما هو من غيْرِ أن يُبدِيَ أيّ إهتمامٍ بإختيار نهايةٍ مناسبةٍ للعمل، و أعطيْتُ تشارلس ثلث مبلغ مقدّمة الأتعاب الّتي حصلْتُ عليْها من غولانز و نُشِرتْ رواية (ضياعٌ في سوهو) في أيلول ١٩٦١ و نالت مُراجعاتٌ جيّدة من قبل النقّاد لأنّها بدت كتاباً صغيراً متواضع الحجم، أمّا بقيّة حكايتي مع تشارلس فقد كانت أمراً لا زال يملؤني حزناً: كتب إليّ تشارلس في صيف عام ١٩٦٨ من مكان إقامته في إحدى الجزر المتوسّطيّة يُخبِرُني أنّهُ عثر على الطّريقة المُثلى لِعيش الحياة بتمشيط ساحل البحر مشياً على الأقدام، و إقتناصِ غفوةٍ تحت أشعّة الشّمس، و تدخين المكيّفات العقليّة، و بعْدَ ستّة شُهورٍ لاحقة لا أكثر ناولتْني صديقةٌ لتشارلس قصاصةُ مقتطعةٌ من صحيفة الديلي إكسبريس الصّادرة في ٦ كانون أوّل ١٩٦٨ و كُتِبَ فيها: " أقدمَ رجلٌ إنكليزيٌّ يبلغُ الثّالثة و الأربعين اليوم على الإنتحارِ في زنزانة

سجنه بمنطقة هيلبرون بعد أن كانت شرطة ألمانيا الغربيّة قد إعتقلتْهُ لمتاجرته بمخدّراتٍ خطرة. ثبت أنّ الرّجل كان يدعى (تشارلس بيلتشير) و لم يكنْ له عنوانٌ ثابت، و كان أعتُقِلَ مع زميليْن له بعد القبْضِ عليهم مُتلبّسين بجريمة بيعِ حشيشةٍ تُقدّرُ قيمتُها بألفٍ و خمسمائة جنيه إسترلينيّ في السّوق السّوداء،،،،، ". كان واضحاً أنّ تشارلس شنقَ نفسهُ، و لكنَّ صديقته كانت مقتنعةً تماماً أنّه لقي حتْفهُ بِترتيبٍ من مُروّجي مخدّراتٍ تحسّبوا لإمكانيّة أن يُدلي تشارلس باعترافاتٍ تمسّهم، و من جانبي وجدْتُ هذه القناعة معقولةً لأنّني أعرفُ كم كان تشارلس عاشقاً للحياة و مفتوناً بها إلى حدودٍ تمنعُهُ من الإقدامِ على قتْل نفسه.

* * * * * * * * * *

شهدُ عام ١٩٦٢ نشرَ الكتاب الأوّل عنّي و كان بعنوان (عالَمُ كولن ويلسون The World of Colin Wilson) للمؤلّف سيدني كامبيون Sidney Campion الّذي كان مثلي أحد مُواطِني ليستر و لطالما رأيْتُ فيه صورة البطل و النّموذج الّذي يصْلحُ للإقتداء بمثاله. عندما كنتُ في الثّانية عشرة عاد والدي أحد الأيّام من العمل إلى المنزل حامِلاً معهُ كتاباً بعنوان (نحْو الجّبال Towards the Mountains) لِمؤلّفه سيدني كامبيون الّذي وصفَ في الكتاب ولادتَهُ في حيٍّ فقير و من ثمّ عمله كبائع صحف منذُ أن كان في الحادية عشرة، و روى في الكتاب ذاته كيف إنْخرطَ في مُناقشةٍ مُستفيضة مع أحد سياسيّ حزب العمّال: رامزي ماكدونالد Ramsay MacDonald الّذي قدّر إمكانيّات كامبيون المُتميّزة و ساعدهُ في الحُصول على عملٍ في صحيفةٍ محلّيّة. كان كامبيون يتلظّى تحت سياط طموحه المتوقّد و عزمَ أن يكون رجُلاً

عظيماً و رئيساً لوزراء إنكلترا، و مع أنّه لم ينجح في تحقيق طُموحاته السّياسيّة لكنّه إرتقى بالفعل ليصبح مُحامياً في المحكمة العلْيا و موظّفاً مدنيّاً من الطّبقة الرّفيعة كما مُنحَ وسام رتبة الإمبراطوريّة البريطانيّة بمرتبة ضابط OBE إلى جانب وسام الحرّية لمدينة ليستر الّذي نالهُ خلال مأدبةٍ أقيمت في قاعة المدينة. بَدَتْ حكاية السيّد كامبيون مثيرةً لي و رأيْتُ فيها نوعاً راقياً من الإصرار على تحقيق الذّات و كذلك فعلت والدتي: فقد قرأت في كتاب سيدني الّذي جلبهُ والدي كيف أنّهُ إقتنى نسخةً من كتاب عشيق السيّدة تشاترلي Lady Chatterley"s Lover بعد نشْرِها لأوّل مرّة و لمْ يكتفِ بقراءتها بل كتب دفاعاً شغوفاً عنْها و هو الأمرُ الّذي دفع بوالِدَتي على الفور إلى إستعارة رواية (أبناءٌ و عشّاق Sons and Lovers) من المكتبة المحلّيّة و صارت واحدةً من مُعجبي لورنس المُكرّسين، و قرأتُ أنا بدوْري أعمال لورنس و أعجِبْتُ بها و لكن لم أرَ فيه ما يمكنُ أن يرتقي إلى نصفِ قامة سيدني كامبيون.

بعد حوالي الشّهر من نشر اللامنتمي رنّ هاتفي و عرّف الرجل المتّصلُ نفسه بأنّه سيدني كامبيون، و علمْتُ منه أنّ الرّجل الّذي كان يوماً ما جمْرةَ ليستر المتوهّجة غدا رجُلاً متقاعداً في ويمبلدون يمارِسُ هوايته في النّحت، و طلبَ إليّ أن أمنحه بعض الوقْت لعمل تمثال نصفيّ لي و كان من الطّبيعيّ للغاية أن أعلن موافقتي على الفور و كتبْتُ لوالدتي أخبرُها بأنّ سيدني كامبيون العظيم يبتغي عمل تمثالٍ نصفيّ لي و أظنّ أنّ تلك كانت المرّة الأولى الّتي أدركَتْ فيها والدتي أنّ ولدها حقّق شيئاً يستحقّ الإشادة و التقدير. مضيْتُ أحد الايّام إلى ويمبلدون مُستخدِماً قطار الانفاق و دُهشْتُ كثيراً عندما وجدْتُ الكاتب الليستريّ العظيم يعيشُ في شبه عُزلةٍ و بدا لي سيدني رجلاً

عطوفاً متسامِحاً ثقيل السّمع و كان لا يزالُ يتحدّثُ بلكْنة ليستريّة أصيلة (كنتُ أنا قد تركْتُ هذه اللّهجة منذ سنواتٍ). قدّمَني سيدني إلى زوجته كلير Clare الّتي وجدْتُها سيّدة ممتلئةً ذات شعرٍ أشيب و في الستّينات من عمرها، و تطلّب الأمرُ منّي وقتاً ليس بالقليل لكي أقارن بين صورتها و صورة تلك السيّدة الّتي حكى عنها سيدني في الجزء الاوّل من سيرته الذّاتيّة (ضياءُ الشّمس على سفوح التّلال Sunlight on the Foothills) حيثُ أسَرَني وصفُ سيدني لها و أهاجَ فيّ فنتازيّاتي الطفوليّة و بخاصّة إشتياقهُ المُبرّح لها في الأيّام المبكّرة من زواجهما إلى حدّ أنّهُ كان يفتَعِلُ الأعذار الواهية للتملّصِ من العمل و الذّهاب مُسرعاً إلى أحضان زوجته. بدا أنّ سيدني أعجِبَ بي إلى حدّ بعيد و لم أتعب طويلاً لمعرفة السبب وراء إعجابه هذا: كان سيدني مسكوناً بفكرة أنّهُ لم يحقّقْ أبداً حُلْمَ حَياتِهِ في أرتقاء القمّة الّتي كان يحلُمُ بها و بُلوغ مراتب الشّهرة الّتي يبتغيها في حين حقّقْتُ أنا هذا بنشرِ كتابٍ واحدٍ فحسب، و عندما كنّا جالسيْن في المشغل الخاصّ به أسرّني في جلستنا الأولى برغبتهِ في كتابة كتابٍ إضافيّ واحدٍ فحسب: سيرتي أنا، و صعقتْني هذه الفكرةُ وَ بَدَتْ لي سخيفة لانّني كنتُ آنذاك في الخامسة و العشرين و لكن بدا واضحاً أنّ سيدني كان يميلُ بكلّ جوارحه نحو تعليق إديث سيتويل Edith Sitwell الّذي قالت فيه أنّني سأغدو " كاتباً عظيماً بحقّ " و كان الرّجلُ يطمحُ أن ينال صفة المُوثّق الأوّل لسيرتي. إنطلق سيدني بالفعل سريعاً إلى ليستر لمقابلة والدَتي وَ والدي و عاد بحقيبةٍ ملأى برسائلي (أغرِمَ سيدني كذلك بوالدتي و مالَ إليْها كثيراً و لا أظنّ أنّ سيدني سيكونُ شيئاً يُعتدُّ به ما لم يكن عاشقاً من صميم قلبه). عندما وصلتْني النّسخة الأولى من مخطوطة سيدني لِسيرتي المُقترحة و المكتوبة بالآلة الكاتبة تملّكَني

الرّعب: كتبَ سيدني سيرتي كما لو كنتُ مَحْض إستمراريّةٍ بُطوليّة لقصّته الشّخصيّة، و كان ثمّة جملةٌ في المسوّدة تصِفُ كيف كان المُراهقُ كولن ويلسون مُعتاداً على رُكوبِ درّاجته و التنزّه بين أزقّة ليسترشاير " وَ شعرهُ الأشقر يتطايرُ في الهواء، و عيونهُ الزّرقاء الجّميلة تقدحُ بشرارة الجّنون،،، "، و كان سيدني قد خصّص فصلاً كاملاً من السّيرة لِمُلخّصاتٍ من يوميّاتي الّتي سجّلتُها بين السّابعة عشرة و الحادية و العشرين من عمري و إختار منها – و بدافعٍ من رُؤيته الغريزيّة – كلّ موضعٍ مثقلٍ برومانتيكيّة المُراهقة المشبوبة. كان ثمّة مشكلةٌ أخرى: لم يكنْ سيدني ذلك الطّراز الرّفيع من المُثقّفين ذوي القدرات الذّهنيّة المُتفوّقة و كانت الوجوديّة و بكلّ صراحةٍ تفوقُ مدى إمكاناته، و كان الكُتّاب المفضّلون لديْه هم توماس هاردي، وَ دي. إج. لورنس و لم يكن سارتر في متناول قدراته لذا بدت تعليقاتهُ على كتُبي شبيهةً بمقالةٍ من الدّرجة السّادسة، و لم يكن أمامي ما أفعلهُ سوى أمرٍ واحدٍ فحسْبُ: التفرّغُ لإعادة كتابة العمل كاملاً و هو الأمرُ الّذي فعلْتهُ على مدى شهورٍ من العمل الشّاقّ. لم يكن أمراً باعثاً للإستغراب أنّ كِتابَ سيرتي هذا أعيدَ من قبل كلّ النّاشرين الّذين عرِضَ عليْهم، و لكن حصل و قرأتُ يوماً ما إعلاناً نشرَهُ سيدني في صحيفة التّايمز يقولُ فيه أنّهُ كتبَ سيرةً عنّي و أنّ النّاشر فريدريك موللر Frederick Muller وافقَ على نشر الكتاب، و عندما ظهرت السيّرةُ في كتابٍ مطبوع عرفْتُ أنّ سيدني أعاد نشر بعض العبارات الّتي لم أكن ارغبُ فيها و الّتي كنتُ أشّرْتُها بلونٍ أرجوانيّ و لكن لحسْنِ الحظّ لم يكن من بين تلك العبارات تلك العبارةُ الّتي تصفُ " شعري الأشقر و هو يتطايرُ في الهواء،،، "، و كما هو مُتوقّعُ فقد نالت هذه السّيرةُ مُراجَعاتٍ شديدة القسوة: فقد قارن أحدُ الكتّاب سيدني بكلْبٍ يرفعُ خلفيّتهُ تجاه

كلّ عمود إضاءة، و يمكنُ إجمالُ القولِ بإختصار إذا كانت لي ثمّة شئٌ من شهرةٍ عام ١٩٦٢ فإنّ كتاب (عالم كولن ويلسون) لم يفعلْ بالتأكيد ما يرتقي بتلك الشّهرة إلّا في حدودٍ بالغة الضّآلة.

* * * * * * * * *

بعْدَ ثلاثة أشهرٍ أعْقبتْ عوْدتي من رِحْلتي الأمريكيّة أنجزْتُ كتابةَ كتابيْن: (أصولُ الدّافع الجنسيّ) وَ النّسخة الأولى مِن (ما بعْد اللّامنتمي) و كنتُ آنذاك أعملُ في سرعةٍ بالغة لأنّ عقلي كان يغلي بالأفكار، و كان كتابي عن الجّنس يُداعِبُ عقلي منذُ زمنٍ بعيد و لكنّي تقاعسْتُ في كتابته لِخشْيَتي أن يرْكُنهُ النّاشرُ غولانز جانِباً مثلما فعلَ مع كتابي الآخر (إنسيكلوبيديا القتل Encyclopedia of Murder) و لكن لحُسْن الحظّ فإنّ النّاشرين آرثر باركر Arthur Barker اللّذين كانوا فرعاً من شركة وايدينفيلد نيكولسون Weidenfeld Nicolson قبلوا بنشْرِ الكِتابيْن معاً.

كانت المسائلُ الإشكاليّة المتعلّقةُ بالجنس أمراً مُثيراً لي على الدّوام و تبدو الأسبابُ وراء ذلك بيّنة في الصّفحة الأولى من كتاب اللامنتمي: فعندما ينظرُ بَطَلُ (هنري باربوس) إلى النّساء في أعلى عربة التّرام و فساتينهُنّ تتطايرُ مع النّسيم يُدركُ حينها " إنّ ما أبتغيه ليس إمرأةً بعيْنِها،،، بل كلّ النّساء " و يمكنُ لأيِّ رجُلٍ أن يُدركَ ماكانَ بطلُ باربوس يعنيه بقوْلهِ ذاك، و مع ذلك فعندما يُرافِقُ ذاتُ البطل بائعة هوىً إلى غرْفته و يُطارِحُها الجّنس يدرِكُ " إنّ الفِعْل الجنسيّ الخالِص هو محْضُ حيلةٍ لتوْكيد ثقته بذكورتِهِ الفحوليّة "، و كان أوّلُ مَنْ عَرَضَ هذه المسألةَ بكلّ وُضوحٍ أمامي هو الشّاعر الجّنوب إفريقيّ فيليب دي

بروين Philip De Bruyn الّذي كان أرسلَ لي مرّةً نسخةً مخطوطةً من سيرته الذّاتيّة الّتي إختارَ لها عنوان (أوصَنّا وَثَنيٌّ A Pagan"s Hosanna) **(أوصَنّا: مفردَةٌ وردتْ مرّتيْن في مزامير داوُد و يُقابلُها بالعِبْريّة (هوشعْنا) و تعْني خَلّصْنا، و لا يُخاطَبُ بها في العادة سوى الربّ، المُترجمة)**، و راح الرّجلُ يمضي معظم أوقاته في جولاتٍ حول العالم: سان فرانسيسكو، هونك كونك، جوهانسبرغ،،،، و كان يبْتغي البحْثَ عن مفهومٍ مُراوِغٍ للحرّيّة. كان فيليب يشعُرُ تماماً - مثلما فعلَ تشارلس بيلتشير بالضّبطِ - بأنّ الإلتصاقَ بعملٍ ما و الرّكود في مكانٍ واحد طريقةٌ غيْرُ مُرْضيةٍ لِعيْش الحياة لذا انْفقَ الكثيرَ من السّنوات كمُتشرّدٍ كما كنتُ خطّطْتُ أنا لشكْلِ حياتي القادمة عندما كنْتُ في سنواتِ مُراهقَتي.

أدهشَني كثيراً سعْيُ فيليب نحو مثالٍ جنسيّ علويّ، و يصفُ الرّجلُ في كتابه كيف كان مضطجِعاً على السّاحل الخالي من البشر أحد الأيّام عندما رأى فتاةً جميلةً و هي تخلعُ ملابسها و ترتدي البيكيني (ملابس السّباحة) و راح عندها الرّجلُ يتظاهرُ بالنّعاس و بدا كمن غرقَ في إغفاءةٍ مُريحة و لكنّهُ كان يكتوي بنار الشّهوة المُتأجّجة في داخله: فما كان يبتغيه فيليب هو إمتلاكُ هذه الفتاة بلا ترتيباتٍ مسبّقة و لكنّهُ كان يعلمُ أنْ ليس بمقدورهِ فعلُ هذا الأمر إلّا إذا إغتصبَها و لم يكن الإغتصابُ سيُرضيه في نهاية الأمر، لذا لم يكن أمامه سوى إحترام السّياقات الإجتماعيّة: مشاركَتُها الحديثَ، دعوتُها إلى وجبة طعامٍ في مطعم، ثمّ ينتهي الأمرُ بالزّواج منها في ختام الأمر، و قد رأيتُ زوجتهُ بالفعل لاحقاً عندما جاءت برفقةِ زوجِها و مكث الإثنان عندنا لبعض الوقت و كانت إمرأة جميلة و أظنُّ أنّ فيلب كان محظوظاً بها لأنّهُ كان رجُلاً بديناً أصلع الرأس، و علمْتُ لاحقاً ماكان

يجولُ بخاطره: لم يختبر الرّجلُ طريقةً مُشبِعةً و مُرضِيةً لِتوْقه الجنسيّ لتلك الفتاة الّتي رآها أوّل مرّة و هي تخلعُ ملابسها و ترتدي البيكيني.

إبتغيْتُ في كتابي (أصولُ الدّافع الجنسيّ) الكتابةَ عن الموضوعة التّالية بالتحديد: مُحاولةُ كشفِ النّقاب عمّا " تتطلّعُ إليْه ملايينُ الشّفاه في العالم " من خلال الجنس، و كان واضحاً لي تماماً أنّ الجّنس يمكنُ أن يأخذَنا بعيداً في الإتّجاه الخاطئ، و من اللافت للنظر أنّ مُعظم القتَلة الجنسيّين إبتداءً من جاك السفّاح و حتّى خنّاق بوستن (الّذي كانَ لا يزالُ طليقاً أوائل الستّينات) كانوا مَسوقين بذات الدّافع الّلامنطقيّ: إعتِبارُ الجّنس العاديّ - بكلّ ما يُحيطُهُ من ترتيباتٍ إجتماعيّة -غيرَ قادرٍ على منْح الإحساس بالشّبع و الرّضا، و هو الأمرُ الّذي يوضّحُ أيضاً لَمَ كتبْتُ كثيراً في موضوعة الجّريمة الجنسيّة و هو أمْرٌ لم أفعلْهُ - كما إفترَضَ مراجِعو الكتب العدائيّون - بدفع من رغبتي في كتابة الأدب المكشوف الّذي يرتقي لمرتبة الأدبيّات البورنوغرافيّة بل لأنّني وجدْتُ في الأمر إستكمالاً للثيمة الأساسيّة في كتاب الّلامُنتمي. عندما كنتُ مُنغمِساً في كتابة (أصولُ الدّافع الجنسيّ) تسلّمْتُ رسالةً من موريس غيوردياس Maurice Giordias: النّاشر الباريسيّ الّذي تخصّص في نشر الأدب المكشوف، و لازلْتُ أذْكُرُ أثناء إقامتي في باريس عام ١٩٥٣ كيفَ كان الكثيرُ من الكُتّاب البريطانيّين - مثل ألكساندر تروتشي Alexander Trocchi، وَ كريستوفر لوغ Christopher Logue - يعتاشون على كتابة الكتب الموصوفة بِـ (الكتب القذرة) للناشر غيورديياس الّذي إقترح عليّ في رسالته كتابة واحدٍ من الكتب القذرة لدار نشره المسمّاة أولمبيا Olympia، و راقتْ لي فكرة غيوردياس للغاية: ففي عام ١٩٦٢ كانت الشّرطة البريطانيّة لاتزالُ تُصادِرُ أيّ كتابٍ يمكنُ النّظرُ إليْهِ بكوْنه غيْرَ حائزٍ على مايكفي

من الكياسة و اللّياقات المُحترمة و أعجبتني فكرة الكتابة عن الأمور الجنسيّة بصراحةٍ، و في عالم اليوم الّذي تسودهُ الأدبيّات المتخمةُ بالصّراحةُ الجنسيّة لا يمكنُنا توقّعُ أن يندهش أيّ أحدٍ رافعاً حاجبيْه عندَ قراءتهِ أيّ أدبيّاتٍ مكشوفةٍ و لكن في عام ١٩٦٢ فإنّ تلميحاً جنسيّاً خجولاً كان يُعدُّ فعْلاً مُنطوِياً على الفحشاء و كانت تلك الأمورُ تجري في الفترة السّابقة لنشْر رواية (شكوى بورتنوي Portnoy"s Complaint) الّتي حطّمت تابو العادة السرّيّة (**شكوى بورتنوي: رواية نشرَها فيلب روث Philip Roth عام ١٩٦٩ و جعلت منهُ نجماً أدبيّاً في ميدان الرّواية الأمريكيّة، وَيحْكي فيها عن عازبٍ يهوديّ شبق يختبِرُ ضغوطاتٍ جنسيّة هائلة وسط بيئةٍ متزمّتة مثقلة بالطّقوسيّات الأصوليّة الصّارمة، و حُوّلت حكاية الرّواية إلى فلمٍ أنتِج عام ١٩٧٢، المترجمة**). إنصرفْتُ لاحقاً لكتابةِ جزء متمّم لرواية (طقوس في الظّلام) و خلعْتُ على ذلك الجزء عنوان (الرّجل الّذي لاظلّ لهُ The Man Without a Shadow) و هو عنوانٌ يُشيرُ على الفور إلى رواية بيتر شليمل Peter Schlemihl، و كانت روايتي هذه مصْدر متعةٍ عظيمةٍ لي لأنّها أتاحت فرصة الحديث عن حياتي الجنسيّة الشخصيّة بطريقةٍ لاتخلو – بالطّبع – من سمةٍ روائيّة تخييليّة إذ لطالما أردْتُ الحديث عن المتناقضات الإشكاليّة الّتي ينطوي عليْها الفعلُ الجنسيّ: يصفُ بطلُ روايتي مثلاً كيف كان عازماً على قضاء ليْلةٍ مع صديقته، و عندما يمضي إليْها يتوقّفُ عند أحد المحلّات لِيبتاعَ لها جوْرباً ثمّ عندما راح يطوفُ في أرجاء المحلّ رأى إمرأةً واقفةً في غرفة تبديل الملابس و قد نسيت إسدال السّتارة و كانت وضعتْ فستاناً فوق رأسها و إنهمكت في محاولة إرتداءه و تجريبِ قياسه، و هنا يختبِرُ البطلُ طوفاناً من الرّغبة الجنسيّة يشتعِلُ في جسده وَ يجعلُهُ يشهقُ طلباً للهواء و لكنّهُ حالما يُغادِرُ المحلّ يدرِكُ سخفَ إهتياجه الجنسيّ:

إذْ لم تكن تلك المرأةُ الّتي أشعلتْ رغبته سوى إمرأةٍ عاديّة في متوسّط العمْر و مع ذلك أثارت فيه ذلك الطّوفان العارم من الرّغبة الجنسيّة الّتي لم يعْهد لها مثيلاً مع فتاتهِ الّتي تتفجّرُ أنوثةً و الّتي لطالما رآها عاريةً، و كانت ذاتُ هذه التجربة قد حصلت معي بالفعل عندما كنتُ أبتغي قضاء ليلةٍ مع بيتي و بقيتُ أحترِقُ شوقاً للكتابة عنها يوماً ما.

عندما أخبرْتُ ناشري البريطانيّ جيم رينولدز من دار نشرآرثر بيكر المحدودة برغْبتي في نشْر كتابٍ ينتمي إلى فئة الأدب المكشوف لحساب النّاشر الباريسيّ غيورودياس طلبَ إليّ السّماح له برؤية مخطوطة العمل، و لدهشتي الكبيرة أخبرَني الرّجلُ لاحقاً أنّهُ لايرى سبباً وَجيهاً يمنعُ نشر الكتاب في إنكلترا، و ملأتْني غبطة عظيمةً و بخاصّة أنّ النّاشر البريطانيّ سيدفعُ لي مقدّمة أتعابٍ أكبر بكثيرٍ ممّا كان سيفعلُ النّاشرُ الباريسيّ المعروفُ بتقتيره الشّديد مع المؤلّفين الّذين يتعاملون معه. فضّل النّاشرُ الأمريكيُّ الّذي قبلَ روايتي (الرّجل الّذي لا ظلّ له) على نشْرِها تحت عنوان (المذكّرات الجنسيّة لِجيرارد سورم The Sex Diary of Gerard Sorme) و لسوء الحظّ فقد نشِرت قبل صُدور الطّبعة الأمريكيّة من كتابي (أصول الدّافع الجنسيّ) و كانت النتيجةُ المحتومةُ أن نُشِرَ العملان في الشّهر ذاته و ظهرت مُراجعاتهُما في الصّحف معاً و في النّهاية قتلَ الواحِدُ منهما الآخر !!. حصل بعْد نشر رواية (شكوى بورتنوي) لفيليب روث أن تلاشت كلّ الكوابح و تنافستْ دور النّشر مع بعضِها في مُحاولة إستثارة أيّ شكلٍ ممكن من اشكال الإضطهاد ضدّها تبعاً للإجراءات المُتبعة آنذاك بموجب قانون المطبوعات المُخلّة بالأخلاقيّات Obscene Publications Act و كانت النّتيجةُ أن حصدت دور النّشر ثروةً طائلةً من وراء نشر هذه الأعمال، و إتّصلَ بي صديقي فيليب دي بروين ليخبِرني برغبته في كتابة كتابٍ يترسّمُ فيه خطى كتابي (المذكّرات

الجنسيّة لِجيرارد سورم) و أرسل لي مُلخّص فكرة روايته: فتاةٌ تُراهِنُ رجلاً أنّهُ لن يُخبرَها يوماً ما كلّ الحقيقة الكاملة فيما يخصُّ حياته الجنسيّة، و أظنُّ انّ فيليب فاز بالرّهان إذ وجدْتُ في كتابه واحداً من أكثر الإعترافات الجنسيّة صراحةً من بين كتب الإعترافات الّتي قرأتُها طيلة حياتي، و طلبَ إليّ فيليب أن أساعدهُ في إيجاد ناشرٍ لعمله، و كتبْتُ أنا بدوْري مقدّمةً للعملوَ طلبْتُ إلى سكرتيرَتي قراءة العمل و بيانَ رأيِها بشأنِ صلاحيّة نشره فأخبرتْني لاحقاً أنّها رأت في العمل قدراً لايُحتمَلُ من الفُحشِ و أضافت أنّها لاترى إمكانيّةً في أن يُقدِمَ ناشرٌ ما على المُغامرة بِنشْر مثل هذه الأعمال، وَ وافقَها وكيلي الأمريكيّ الرأيَ، و عندما أعيدُ اليوم قراءة المقدّمة الّتي كتبْتُها للعمل أدركُ موضع الخطلِ في هذه الرّواية: الهوَسُ الجنسيُّ المحمومُ الّذي لايهدأُ من فصلٍ إلى فصلٍ و على نحوٍ يجعلُ القارئَ غاطِساً في القذارة كما لو كان يتمرّغُ في حظيرة خنازير. ساعدتْني قراءةُ رواية فيليب على أن أغدوَ أكثر إدراكاً لطبيعة الإشكاليّة الأساسيّة الّتي تتعلّقُ بالجنسانيّة البشريّة: لَم يجدُ معظمُنا في الجَنس الفعّاليّة الأكثر إمتاعاً في العا لم ؟ يبدو واضحاً تماماً أنّ الفعاليّة الجنسيّة تستحثُّ لدينا حالةً من الإهتمام القصديّ المُوجّه focused attention الّذي يدفعُ بنا خارج السّلطة المُهيْمنة للروبوت الّذي بداخلِنا، و لكنّ فيليب أخطأ في ظنّه أنّنا كُلّما إنغمسْنا في الجّنس أكثر سنختبرُ حينها حرّيّةً أعظم من ذي قبلُ، و هذا أمرٌ خاطئٌ بكلّ بساطةٍ: فما لم يقترنِ الأداءُ الجنسيُّ بتركيزٍ مُكرّسٍ و شاملٍ فسيغْدو فعّاليّة غير مُثيرة – تماماً كما لو كنّا ناكلُ بيضةً و قطعةَ لحم – إذ سرعانَ ما ينحدِرُ العقلُ عندها إلى حالةٍ مُعتادةٍ من إنعدام النّشاطِ كما لوْ كُنّا نياماً.

* * * * * * * * * *

وصفَ آلدوس هكسلي مرّة تجربته الشّخصيّة مع عقار المسكالين Mescaline (**لمسكالين: أحدُ المُكيفات العقليّة الّتي يقترِنُ تعاطيها بالهلوسات و تشويهٍ في التُعامل مع الواقع، و يشابهُ إلى حدّ بعيد عقار LSD، و شاع تعاطي العقارَيْن إبان ثورات الشّباب في ستينات القرن العشرين، المترجمة**)، و عندما كنتُ أكتبُ فصلاً عن تجربةِ سارتر مع ذات العقار و كيف إنتابتْهُ هلوساتٌ سمعيّةٌ خيّلَ لهُ معها و كأنّ وحشاً يطاردهُ مضيْتُ على الفور في المقارنة بين التجربة السارتريّة المُخيفة مع العقار مع تجربة هكسلي القريبة من تخوم التّجربة التصوّفيّة. عندما إلتقيْتُ هكسلي أوّل مرّة في قاعة النّادي الثقافيّ Athenaeum إقترحَ عليّ تجربة المسكالين، و بعْد ثلاث سنواتٍ من ذلك الّلقاء قرّرْتُ وضْع إقتراح هكسلي موضع التّجربة الفعليّة: لم يكن المسكالين تلك الأيّام مادّةً محظورةً و لم أكنْ أعرفُ كيف أحصلُ على شيءٍ منهُ، و إستعنْتُ بصديقي السايكولوجيّ جون كوملي John Comley الّذي كتب لي وصفةً تحتوي على غرامٍ واحد من كبريتات المسكالين كما دلّني أين أعثرُ عليْه، و بعْد أسبوعٍ واحد وصلَني عبر البريد كمّيةٌ صغيرةٌ من مسحوقٍ أبيض في أنبوبةٍ مُغلقة بإحكامٍ و كلّفني الأمرُ حوالي الخمس جنيهاتٍ، و عقدْتُ العزم على تجرِبة المسكالين في اليوم التّالي، و في المساء السّابق لتناوُلي العقار أعدْتُ قراءة كتاب هكسلي (أبوابُ الإدراك The Doors of Perception) و ملأني بعدها إحساسٌ يقينيٌّ أنّ تجربتي مع المسكالين ستكون عديمة الجَدوى معي لأنّ تجارب الذّروة عندي كانت محض بُرهاتٍ من المزاج المُقترن بالتّفاؤل العميق ينتابُني خلالَها شعورٌ بأنّ الجواب الأساسيّ لمعضلة الوجود البشريّ تكمنُ في الإرادة و التّصميم الّذي لا يلين، و لكن مع ذلك بدا لي من السّخفِ أن أدفع ثمن غرامٍ كامل من المسكالين ثمّ لا أجرّبهُ، لذا تناولْتُ حوالي ربْع غرامٍ من

المسكالين المُذاب في الماء عندَ الساعة التاسعة و النصف من صباح يوم ١٨ تمّوز ١٩٦٣، و بعْد ساعةٍ من الزّمن بدا لي أن لاشئَ حصل معي لذا مضيْتُ وَ تناولْتُ ربع غرامٍ إضافيّ و لم يحصل شئٌ أيضاً بإستثناء أنّني بدأتُ أختبِرُ إحساساً بالسّخونة و معاناة القهْر و الظلم، و توقّفْتُ حينها عن تبادل الحديث مع صديقةٍ لي كانت تشعرُ بصداعٍ ناجمٍ عن مخلّفات ثمالة اليوم السّابق و كنتُ أنا ذاتي أختبرُ ذات الشعور أيضاً، و عندما عدْتُ إلى المنزل بدا العالَمُ لي مكاناً بعيداً للغاية، وَ حالما وصلْتُ المنزل أفرغْتُ مافي جوفي بعد أن أدخلْتُ إصبعي داخل حلْقي و أحسسْتُ حينها بطعم المسكالين الفظيع عندما كان يتدفّقُ من معدتي نحو فمي، و جلسْتُ – وَ العرقُ يغطّي جبهتي – أصبُّ اللعنات على ذلك الفعْل الأخرق الّذي بدوْتُ معه كَمَن تعاطى سُمّاً ثمّ تناولْتُ قدحاً من الماء و إضطجعْتُ في سريري، و بعْد ساعةٍ من الإضطجاع في السّرير بجسدٍ هدّت قواهُ الحمّى أطلّت جوي للسؤال عنّي فاخبرْتُها بانّني مريضٌ و كنتُ حينها أصارعُ بلا هوادة لكبْح إحساسي بِرُعبٍ قاتل و لكنّي كنتُ أحاوِلُ إقناع نفسي بأنْ لم يسبق أن نال الأذى من أحدٍ تناول المسكالين قبلي و مع هذا لم يكن أمرُ بقائي هادئاً بالمهمّة اليسيرة أبداً و بخاصّة بعد أن بدأت الغرفةُ تزدادُ إنكماشاً أمام عينيّ و صارت أكثر سخونةً بما لا يُحتمَلُ، و بعد إغفاءةٍ قصيرة فتحْتُ عينيّ وَ وجدْتُ حالي بوضْعٍ أفضل عمّا سبق و يمكُنني الآن أن أروي شيئاً عمّا كان يجولُ بداخليَ: كان البابُ المطليُّ يتوهّجُ بلمعانٍ برّاق على هيئة أجسامٍ منشوريّة منتظمة و كان هذا هو التأثير البصريّ الوحيد الّذي إختبرْتهُ و لم أحْظَ بفرصةٍ أن أرى الأشياء الّتي أمامي و هي تبدو حقيقيّة أكثر ممّا تبدو عليْه في الواقع و على النحو الّذي كتب عنهُ هكسلي (كتب هكسلي في أحد المواضع أنّ كرسيّاً

ذا مَسندين و مُزيّناً بشرائط حمراء و خضراء بدا كما لو كان مصنوعاً من نارٍ حمراء و خضراء)، ثمّ شعرْتُ بإنهاكٍ عظيم و صرْتُ غير قادرٍ على التحكّم بزمام أمري و غمرّني تيّارٌ من اللّذة الايروتيكيّة المدهشة و البريئة (حاولْتُ على سبيل التجربة مُطارحة جوي الغرام و لكنّي فشلْتُ بإستثناء فترةٍ غاية في القِصر و كنتُ أبدو كمَن أفرط في الثّمل) و أدركْتُ حينها لمَ كانت مارلين مونرو مُغوِيةً للرجال إلى ذلك الحدّ العجيب الذي لايُقاوَم: كانت مارلين تفرُضُ سطوة إغواءها بإستخدام مزيج من الايروتيكيّة و البراءة في الوقت ذاته، و كنتُ أنذاك أفورُ بالحنان كإمرأةٍ تُرضِعُ طفلها.

شعرْتُ بذنْبٍ لا يغتفرُ أزاء تجربتي مع المسكالين: كنتُ آنذاك زوجاً وَ أباً و كان ينبغي لِي حمايةُ جوي وَ سالي و لم يكنْ في مقدوري و بكلّ بساطةٍ أن أمضي في الإسترخاء مع تجارب المسكالين و كان يتوجّبُ على الدّوام الإحتفاظُ بقدراتي الذهنيّة و دهائي العمليّ. رافقني شعورٌ ممتدّ حينذاك كمن غطس في بحْرٍ من الحبّ الكونيّ و كان هذا الشّعورُ موهناً لقواي الجسديّة، و رأيْتُ نفسي مضطجعاً في سريرٍ يطفو على بحرٍ يتموّجُ برقّة و كان المشهدُ مقترناً بشعوري كما يشعرُ منْ كان كلبهُ يضعُ قوائمهُ على كتفهِ و يلعقُ وجههُ بلسانه في الوقت الّذي يريد فيه صاحبهُ أن يبقيه بعيداً عنه، ثمّ حلّ الطّورُ الأكثرُ سوءً في كلّ التّجربة: تذكّرْتُ مشهداً في الجّبل السحريّ (يشيرُ الكاتِبُ طبعاً إلى رواية ثوماس مان، المترجمة) عندما يغطّ هانز كاستوريا في النّوم وسط الثلج و يمضي في الحلْم بجزيرةٍ جميلة كمثْلِ واحدةٍ من تلك الجزر الّتي تتألّقُ في لوحات كلود لورين Claude Lorrain المتوهّجة (كلود لورين: رسّام وَ مصمّم وَ و نحّات فرنسي عاش في القرن السّابع عشر إبان الفترة الباروكيّة و قضى معظم حياته في إيطاليا، يعود تقديره أساساً إلى

براعته الفائقة في رسم المناظر الطبيعيّة، المترجمة)، و من ثمّ تؤولُ الرؤية إلى عجوزيْن شمطاويْن قبيحتيْن و هما تمزّقان جسد طفلٍ رضيع، و مضيْتُ أتساءلُ: المُكيّفاتُ العقليّة كلّها لها نتائجُ آنيّة مُريحةٌ و مرغوبٌ بها و لكن هل يمكنُ لي أن أوقِفَ تأثيرَها متى ما أردْتُ ؟ كان الايقاعُ اللّذيذ الّذي إمتدَّ من رأسي و غمرَ جسدي باكمله قد جعلَني أشعرُ كما شعرت جوي عندما كانت تَلِدُ سالي: الحاجةُ إلى الدّفع، و عانيْتُ في نهاية الأمر حالةً مُريعَةً من الإنهاك العصبيّ و كانت حالتي آنذاك كمثْلِ ذاك الّذي يقفُ وسْط مركزٍ لتبادُل المُحادثات الهاتفيّة حيثُ المُكالماتُ تنهالُ عليْه بلا توقّفٍ من كلّ أنحاء العالم و بدا الامرُ لي كما لو كنتُ أتلقّى مُحادثاتٍ تيليباثيّة telephathic لا تنتهي و بلغَ بي الأمرُ حدّاً تصوّرْتُ معه أنّ جزءَ من كورنوال قد مسّهُ السّحرُ. معَ حُلولِ منتصف اليوْم أخبرتْني جوي أنّها ستصطحِبُ سالي إلى حفلةٍ في منزل الكاهن و قرّرْتُ الذّهاب معهُما في محاولةٍ لتخفيف آثار المسكالين المتبقّية، و أخذت تلك الآثارُ بالتلاشي فعلاً و هو ماكان مدعاةً لراحتي، و أثار إنتباهي في حديقةِ منزل الكاهن أنّ شذى الازهار بات أكثر تركيزاً عمّا أعرفهُ بالإضافة إلى أنّني و بعد أن شربْتُ بعض الماء أحسسْتُ بقوامِهِ ثخيناً في فمي كَقِوام الغليسيرين، وَ عندما خلدْتُ إلى النوم ذلك المساء كان إيقاعي الجسديّ الطبيعيّ قد عاد إلى حالته الإعتياديّة و لكن حصل في بضعة الأسابيع اللّاحقة أن عاودَني تأثيرُ المسكالين بهيئة ومضاتٍ (فلاشاتٍ flashes) تدعو للبهجة كما لو أنّ باباً في مدينة الملاهي فُتح و إنسابت من وراءه موسيقى رائعة.

عندما أنظرُ اليوم إلى تجربتي مع تعاطي المسكالين أرى أنّني كنتُ مُصيباً بشأن قناعتي المُسبّقة بعدم جدوى تلك التجربة: كنتُ في الأساس مقتنعاً بالفكرة القائمة على أنّ الكون مكانٌ طيّبٌ للعيش

لذا فإنّ غرقي بطوَفان الأفكار الّتي يمنحُها المسكالين لم يكن بالأمر الضروريّ على الإطلاق.

كان هكسلي أشار من قبلُ إلى نظريّة بيرغسون Bergson الّتي ترى أنّ حواسنا مُصمّمةٌ على أساس حجْب معظم التأثيرات الحسّيّة خارجاً عنّا بدل إدخالِها كما تفعلُ المُرشّحات filters، و من الواضح أنّ المسكالين يعملُ على كبح فعاليّة هذه المرشّحات: فعندما أنغمرُ في فعاليّة عقليّة ما يعملُ عندها عقلي مثل شعاعٍ ضوئيٍّ على إلتقاط الأفكار، و عندما أكونُ في حالةِ بهجةٍ أو إنتعاشٍ يزدادُ ضيقُ حزمة شعاع الضوء العقليّ حتّى ليغدو مثل شعاعٍ ليزريّ، و ما يحصلُ مع تجربة المسكالين أنّ هذا العقار يعملُ على توسيع مدى الشّعاع العقليّ تماماً مثلما نتلاعبُ بشدّة إضاءة مصابيح الإضاءة القويّة (التورجات Torches) عن طريق تغييرِ إزاحة عدساتِها. يمكِننا إستخدامُ مناظرةٍ ثانية: يمكنُ تشبيهُ عقلي بمذياعٍ يعملُ بنظام تردّديٍّ عالٍ للغاية VHF لذا يمكنُني ضبْطُ تردّد مذياعي لإلتقاط موجة الإذاعة المطلوبة، و يعملُ المسكالين على تحطيم عمليّة التنغيم tuning هذه بطريقةٍ تؤدّي بعقلي إلى إلتقاط نصف دزينةٍ من الإذاعات في الوقت ذاته (التنغيم: **عمليّة مُطابقة تردّد جهاز الإستلام الإذاعيّ مع تردّد الإذاعة المطلوب إستلامُ بثّها، المترجمة**). يمكنُني أن أفهم اليوم لمَ كانت التجربة السارتريّة مع المسكالين سيّئةً بينما كانت تجربة هكسلي باعثةً على الرّضا: يكبحُ المسكالين تأثير المرشّحات و لايعودُ حينها ثمّة ما يعوقُنا عن الواقع بكلّ مؤثّراته و يكونُ حالُنا حينئذٍ كمَن يستيقِظُ في عربة قطارٍ فجأةً ليَجِد نفسهُ وجهاً لوجْهٍ قبالة رجلٍ غريب، و تكون النتيجةُ صادمة بالتأكيد، فإذا كان المرءُ – مثل سارتر – مسكوناً بحسّ عدم الثّقة في الكون فستكون إستجابتهُ حتماً شيئاً مثل الصّراخ المخيف، أمّا لو كان

المرءُ ممتلِئاً ثقةً في الكون – مثل هكسلي – فستكون إستجابته دهشةً و غبطة، و من المؤكّد أنّ تجربتي مع المسكالين جعلتْني أدركُ مدى عظم ثقتي في الكون.

١٦. على الطريق

عندما غادرْتُ إلى أمريكا ثانيةً في بواكير كانون ثانٍ عام ١٩٦٦ كنتُ مكتئباً إلى أبعد الحدود: كانت فكرة تركي لكلٍّ من جوي و أطفالي (سالّي و إبننا المولود حديثاً جون ديمون) كفيلةً بجعلِ قلبي يغطسُ بين أضلاعي، و عندما ودّعتهم كنتُ شربْتُ في الليلة السابقة الكثير من الشراب و ركبْتُ القطار المتوجّه إلى لندن و أنا أعاني من التبعات المؤلمة للإفراط في السّكْر. كان الجوّ أكثر دفئاً آنذاك ممّا يمكنُ توقّعهُ لهذه الأوقات من السنة، و كانت التدفئة داخل عربات القطار شغّالةً فمضيْتُ ألتمس بعض الهواء المنعش قريباً من نافذة القطار المفتوحة بجانب مقعدي، و بعد تسعين دقيقةً من بدء الرحلة مررْنا بمنطقة تيغنوورث Teignworth وَتذكّرْتُ حينها – مثلما كنتُ أفعل كلّ مرّة – أنّ جوي كانت أخبرتّني خلال إحدى العُطل عام ١٩٥٤ أنّها كانت حاملاً و حصل لاحقاً أثناء مرورنا آنذاك بمنطقة تيغنوورث أنْ عادت جوي و أخبرتّني أنّ دورتها الشهريّة عادت فكان هذا مبعث راحةٍ عظيمة لي وقتها. أمضيْتُ رحلتي الممتدّة من تيغنوورث إلى لندن و قد غادرَني كلّ إحساسٍ سابق بالتعب و الإرهاق و كنت متيقّظاً تماماً و حواسي مستنفرة و كأنّني أستطيعُ عبّ الحيويّة من مستودعاتٍ لانهائيّة !!، و قرّرت حينها التوقّف عن شرب الكحول لبضعة أسابيع: فقد كان مهمّاً لي آنذاك الإحتفاظُ بحسّ الوضوح العقليّ لأطول ما يمكنني من الوقت. بعد بضع ساعاتٍ من وصولي لندن أدركْتُ طائرتي المتّجهة إلى نيويورك والّتي حطّت لاحقاً في

مطار (آيدلوايلد Idlewild) المغطّى بالصقيع (سمّي المطار لاحقاً باسم جون كينيدي)، و بعدها إستأجرْتُ تاكسياً إلى محطّة القطارات المركزيّة Grand Central Station و منها أخذتُ القطار المتّجه إلى (Hastings on Hudson) حيث كان بإمكاني الإلتقاءُ هناك مع رياضيّاتيّ يدعى (مارتن غاردنر Martin Gardner) الّذي كان إعتاد كتابة عمودٍ للتسليات و الأحجيات الرياضيّاتيّة لمجلّة (الأمريكي العلميّ Scientific American) المرموقة و ذات الشهرة العالميّة و كنتُ كتبْتُ إلى الرجل من قبلُ عن مسألةٍ رياضيّاتيّة هندسيّة تتعلّقُ بوضْع مثلّثٍ داخل دائرة و تبادلْنا عدّة رسائل حول الموضوع، و سبق أن قرأتُ كتاب الرجل المُعنون (بِدعٌ و مُغالطاتٌ بإسم العلم Fads and Fallacies in the Name of Science) و هالني الموقف العدائيّ الّذي يقفه الرجل تجاه شخوصٍ من أمثال (فيلهلم رايخ Wilhelm Reich)(*) و آخرين من الّذين كانت لهم مواقف تشكيكيّة أزاء النزعة العلميّة الأرثوذكسيّة و مُواضعاتها السّائدة، و أرى أنّ من المناسب هنا الإعترافُ بأنّ شكوكاً قويّة كانت تراودني بخصوص الرجل و شخصيّته الّتي توقّعتها غير متسامحةٍ – كما كُتُبِهِ – و لكنّني على العكس قابلْتُ شخصاً يطفح حيويّة و مودّة و كان أقرب إلى شخصيّة متصوّف من هؤلاء الذين لطالما قرأتُ عنهم و أحببتهم. تلقّيْتُ رسالة – عندما كنتُ أتبادل الحديث مع غاردنر – من مُنظّم رحلتي الأمريكيّة يخبِرُني فيها أنّني سأحصل على سبعة آلاف و خمسمائة دولار في العشرة أسابيع الّتي ستدومُ خلالها رحلتي و كان هذا المبلغ من المال مُناسِباً لي للغاية لأنّني كنتُ في العادة أقبلُ بخمسة آلاف دولار كمقدّمة لأيّ كتابٍ من كتبي بالإضافة إلى حقيقة أنّني تركتُ جوي في كورنوال و هي مُثقلةٌ بأكوامٍ من الديون الواجبة التسديد.

كانت جامعة برجووتر Bridgewater هي المحطّة الأولى في جولتي و وصلتها ذات يوم صقيعيّ الأجواء و كانت الرياح المثلجة جعلت من وجهي يبدو كقطعة مطاطيّة ميّتة، و راقتْني المدينة الأمريكيّة الهادئة بشوارعها الفسيحة و منازلها ذات السطوح العريضة. بدأتُ محاضرتي في جامعة المدينة عند الساعة العاشرة و النصف صباحاً وسط حُضورٍ متوثّب الحماسة للإصغاء و التفاعل مع كلماتي و بلغت الحماسةُ بالحضور حدّاً دفعني إلى التفكير بجدّية في كسب معيشتي عن طريق العمل كمُحاضرٍ جامعيّ و فكّرتُ في الأمر مليّاً و أنا في طريقي إلى إلقاء محاضرتي الثانية في كلّية نيو هامبتن New Hampton في ولاية نيوهامبشاير و لقيتُ هناك ضيافةً رائعة: أذكر مرّة عندما طلبْتُ إرشادي إلى محلّ حلاقةٍ لقصّ شعري راحت إحدى زوجات أساتذة الكلّية و أبدت رغبتها على الفور بحلاقة شعري في بيتها، و بينما كنتُ جالساً على مقعدٍ و فوطةُ الحلاقةِ تحيط برقبتي عمدْتُ إلى إبداء تعليقٍ بشأن سلسلةٍ من كتب (سي. إس. لويس C. S. Lewis)(**) الّتي لمحْتُها على أحد رفوف الكتب و هنا راحت السيّدة الّتي كانت تحلق شعري برواية حكايةٍ لي عن هذا الرجل فقالت أنّ صديقتها الأقرب إلى روحِها و تدعى (جوي ديفيدمان) حصل لها أن تطلّقت عام ١٩٥٢ بعد زيجةٍ مرتبكة، و أخبرت صديقتها زوجة البروفسور أنّها ستذهبُ إلى بريطانيا و تتزوّج من سي. إس. لويس، و عندما سألتها صديقتها " و متى طلب لويس يدك للزواج ؟ " أجابت بثقة مطلقة " هو لم يفعل للآن، و لكنّه سيفعلُ حتماً !! "، و حصل فعلاً أن ذهبت جوي إلى بريطانيا و إلتقتْ لويس العازب و الكاره للنساء – كما هو شائعٌ عنه – في جامعة أكسفورد و تزوّجت منه كما عزمت !!، و عندما كتبْتُ إلى جوي (أقصد زوجتي هنا بالطبع)

أخبرها بشأن هذه الحكاية أرفقتُها بتعليقٍ قلْتُ فيه أنّ هذه الحكاية تُرينا كم أنّ المرأة العازمة على فعلِ شئٍ ما تستطيعُ فعله حتماً متى ما عقدت النيّة بشكل حاسم و نهائيّ على إنجاز الأمر !!. أخبرتّني زوجة الأستاذ الجامعيّ أثناء الحلاقة أنّني كنتُ بديناً أكثر من اللازم و هي ذات الفكرة الّتي كانت تشغلني من قبل في كورنوال، و أذكر عندما توقّفتُ عن المُضيّ في الطول كان وزني آنذاك ١٥٤ باونداً و كنت آنذاك بطول ستّة أقدامٍ و ذا وجْهٍ نحيف تبدو منه عظام وجنتيّ بارزةً و كانت جوي سبق و أن أخبرتْني بمدى إفتتانها بعظام وجنتيّ البارزة و التي جعلت من وجهي يبدو سلافيّ التقاطيع، و بعد نشر اللامنتمي ظلّ وزني كما هو رغم التحسّن الكبير الّذي طرأ على نوعيّة غذائي و تناولي الكثير من النبيذ يوميّاً، ثمّ راح وزني يزداد بصورة تدريجيّة – و لكن لا تخفى على الأبصار – حتى بلغ ١٨٢ باونداً و رغم أنّني كنت أتضايق طيلة حياتي من الخصر الممتلئ لكنّ طولي الملحوظ كان يُخفي بدانتي و يمنع ظهوري كما لو كنتُ كرةً مستديرة.

حصل مرّة في كلّية نيو هامبتن أن مررْتُ بتجربةٍ فريدةٍ أثبتت أنّها كانت نقطةً مفصليّة في حياتي: فبعْد أن أنهيْتُ إحدى مُحاضراتي و دُعيتُ إلى حفلِ عصر أحد الايّام في منزل أحد أساتذة الكلّية تعرّفْتُ برجلٍ نحيف ذي شعرٍ رمليّ اللون و يحكي بلهجةٍ جنوبيّة واضحةٍ و كان ذا شخصيّة لامعة تُلقي بسحرها أينما حلّ إلى حدّ أنّك لن تخطئ وجوده حتّى لو كان محشوراً في قاعة صغيرة مكتظّة بالحضور !! و كان الرجل كاتباً يدعى (كالدر ويلينغهام Calder Willingham) و أثبت بكلّ جدارة كونه الكاتب الأكثر شهرةً في المنطقة، و كانت شهرته الروائيّة ذاعت بعد نشره روايته الأولى (إنهِ حياتك كرجُل End as a Man) عام ١٩٤٧ و هو لمّا يتجاوز الخامسة و العشرين و كانت

رواية نورمان ميللر (العاريّ و الموتى Naked and the Dead) قد نُشرت ذات العام و سرعان ما صار الإثنان نجميْن لامعيّن في سماء الرواية. مضى كالدر بعد نشر روايته الأولى في كتابة نصوص أفلامٍ حاز بعضها شهرة عالميّة مدوّية (مثل الخرّيج The Graduate، و الرجل الكبير الصغير Little Big Man) و لكن حصل عام ١٩٦٢ أن رأى الكثير من النقّاد في روايته (النار الأزليّة Eternal Fire) عملاً فاحشاً تعوزه الكياسة الأدبيّة. عندما أخذني كالدر بعد إنتهاء الحفلة بسيّارته إلى حيث كنتُ أقيمُ لمحه مسؤول الضّيافة فأخبرني أن كالدر كان سبق له أن غضّ الطّرف عن وظيفةٍ ككاتبٍ قيد الإقامة في إحدى كلّيات الفتيات، و هكذا عزمْتُ في اليوم التالي على إخبار كالدر بأنّني كنتُ أبحثُ عن عملٍ لي ككاتب قيد الإقامة في إحدى الكلّيات الأمريكيّة، و لم يتأخر الرجل كثيراً فبادر فور سماعه طلبي إلى رفع سمّاعة الهاتف و الإتّصال بإدارة كلّية هولينز Hollins College في ولاية فيرجينيا قائلاً " ثمّة كاتبٌ بريطانيٌ يدعى كولن ويلسون و هو جالسٌ معي الآن. هل لا زال عرضُ العمل ككاتبٍ قيد الإقامة مُتاحاً ؟ " و بعد برهةٍ وضع الرجل يده على سمّاعة الهاتف و سألني " هل أنت من كتب رواية شراب الشوكران و ما بعده Hemlock and After ؟ " و تظاهر الرجل بإنتظاره لسماع إجابتي الّتي لم يُبدِ كبير إهتمامٍ بها ثم رفع يده عن الهاتف و راح يقول بنبرةٍ مؤكّدة " نعم هو من فعلَ !! " ثم ناولني الهاتف قائلاً " تكلّم معهم بنفسك ". سألني البروفسور الّذي كان على الجانب الآخر من الهاتف:

* هل أنت متزوّج ؟

– نعم

*** هل تتوقّعُ نشر عملٍ ما لك السنة القادمة ؟**

– لديّ أربعةُ كتبٍ قيد العمل الآن.

*** حسنٌ للغاية. هل تستطيعُ البدء مع أوّل أيلول ؟ نحن ندفعُ إثني عشر ألف دولار للسنة الواحدة مُضافاً لها مصاريف السفر لك و لعائلتك و ستحصل على سكنٍ مجّانيّ داخل الحرم الجامعيّ.**

صافحْتُ كالدر بحرارةٍ و مضيْتُ إلى محاضرة الساعة الحادية عشرة المقرّرة لي في جدول محاضراتي الجامعيّة، و بعد الغداء أرسلْتُ رسالة تلغرافيّة إلى جوي أخبِرُها بحقيقة ماحصل و بوجوب إلتحاقها بي مع الأولاد في أمريكا قبل وقت مناسبٍ من بدء السنة الجامعيّة في أيلول القادم، و في مساء اليوم ذاته ذهبتُ أتجوّلُ في ريف منطقة نيو إنغلاند و أنا أتفجّرُ نشوةً و ذهولاً و فكّرتُ كم سيكونُ رائعاً لو جاءت جوي و الأطفال للمكوث معي في أمريكا بعد تلك السنوات الخمس المتّصلة الّتي كنتُ أعملُ فيها مثل المطحنة و من غير فسحة راحة أو إستجمام، و بدا لي أنّ الحياة باتت تفتحُ أذرُعها لنا و تحتضنُنا بحبّ و مودّة. إقتنيْتُ نسخةً من رواية كالدر (النار الأزليّة) في أقربِ فرصةٍ أتيحت لي وَ أثبت الكتابُ بما لا يقبلُ الشكّ انّه كان فاحشاً و مقزّزاً للغاية، و عندما أخبرْتُ رئيسي في كلّية هولينز لاحقاً " ما الّذي كنتم تنتظرونه من وراء الطلب إلى كالدر بالمكوث في كلّيّتكم ككاتبٍ قيد الإقامة ؟ أحسبُ انّ نصف الآباء – على أقلّ تقدير – كانوا سيتخلّوْن حتماً عن بناتهم !! "، فما كان من الرجل إلّا أن يردّ قائلاً " أووه، ليس الامر هكذا يا عزيزي، فالآباءُ لا يقرؤون !! ".

* * * * * * * * * *

غادرْتُ نيو هامبتن و أنا في حالةٍ متدفّقة من الزهو، و عندما كنتُ أتطلّعُ من نافذة السيّارة إلى التضاريس المكسوّة بالصقيع بدا كلّ شيءٍ لي فائق الجمال، و مررْتُ بلوحة معدنيّة تُشيرُ إلى دانبري Danbury حيث ولدَ المؤلّف الموسيقيّ الأمريكيّ الأقربُ إلى روحي (تشارلز إيفسCharles Eves) ثمّ لمحْتُ بعد وقتٍ قصيرٍ لوحة ثانية تشيرُ إلى مدينة كونكورد Concord الّتي إرتبطت على الدوام بإسم الكاتب ثورو Thoreau الّذي مثّل كتابه المهمّ والدن Walden نوعاً من إنجيلٍ مقدّس لي خلال سنوات مراهقتي، و داهمني شعورٌ أنّ الرجليْن لا يزالان حيّين و بإمكاني الذهابُ و الإلتقاء بهم. إختبرْتُ مثل هذه الحالة بعد أسبوعيْن تماماً – في الثلاثين من كانون ثانٍ – و أنا في طريقي إلى واشنطن لمقابلة دان دانزيغر Dan Danziger حيث كان الصقيع قد شكّل طبقة سميكة أيضاً و ذكّرني بالأجواء الّتي إختبرْتها في نيو هامبتن من قبلُ و غمرَني ذات الإحساس بِـ (حقيقة الماضي Reality of the Past): فنحنُ قلّما نعلمُ أنّ الماضي حقيقيّ مثل الحاضر تماماً و نتعامل في العادة بما يوحي و كأنّنا لا نصدّق بِهذا الماضي و سبق للكاتب تشيسترتون أنْ وصف هذه الحالة بقوله " قد تقولُ شكراً لمنْ يناولك الملح على طاولة الطعام و أنت لا تعني ذلك،، و قد تقولُ أنّ الأرض كرويّة و أنت لا تعني ذلك !! " و لكن ثمّة لحظات فجائيّة تمرّ بنا و يبدو أنّ عقولنا عندها تنهضُ من سباتها الطويل و عندها فقط نقولُ ما نعني قوله فعلاً، و كان عالم النفس بيير جانيت Pierre Janet سمّى هذه الحالة (وظيفة الحقيقة Reality Function): حيث يمارس فيها العقل البشريّ – و من خلال جزء من الدماغ –فعاليّة تمنحك شعوراً بانّك في أتمّ حالات يقظتك و تلامس تخوم الحقيقة بيديْك و لا تكتفي بالنظر إليها من بعيد و عندها يبدو العالم و كأنّه حقيقة

ساحرة لم نختبرْها من قبلُ و تجتاحُك برهات التوهجّ البروستيّة (إشارة إلى الكاتب مارسيل بروست، المترجمة) و عندها تكفُّ عن إعتبار ذاتك كائناً بائساً شقيّاً خُلِقَ في لحظة صدفة عبثيّة و ينتظر الفناء المحتّم، و مضيْتُ في نحت مفردةٍ لهذه الملَكة العقليّة و أسميتُها فعلاً (الملَكة X، Faculty X) الّتي ستحتلّ مركز الثقل في معظم كتاباتي اللاحقة.

بعد أسبوعٍ من لقائي (كالدر ويلينغهام) مكثْتُ في منطقة (مرتفعات بروكلين Brooklyn Heights) مع أحد رجال الدين يدعى (الأب بيل غلينيسك Reverend Bill Glenesk) الذي سبق له الإتّصالُ معي عندما كان في لندن و دعاني للمكوث معه لبضعة ايّام متى ما سنحت لي الفرصة لزيارة نيويورك، و رأيتُ في بيل على الدوام مثال رجل الدين الأكثر فتنةً و حيويّة بين كلّ رجال الدين الّذين قابلتهم في حياتي و أظنّ أن الرجل إختارالسلك الكهنوتيّ بسبب الإمكانيّات الأدائيّة التمثيليّة و المسرحيّة الّتي تقتضيها الوظيفة الوعظيّة في الخدمة الكنسيّة، و كان الرجل يعشقُ المسرح و الباليه و وجدْتُ جدران منزله تغصّ بصُورٍ موقّعة من قبلِ أعاظم المسرحيّين و راقصي الباليه العالميّين. إعتاد بيل على الوعظ و كأنّه يؤدّي دوراً مسرحيّاً كما إعتاد على صفق الصنّاجات مع بعضها بنفسه أثناء تلاوة الترانيم الكنسيّة، و لم يسلم الرجل من بعض الشكاوى المرفوعة ضدّه إلى رئيسه الروحيّ الأعلى بسبب طبيعته المرِحة الودودة و غير المتحفّظة لكنّ محبّة الناس له أجهضت كلّ محاولةٍ لإستبداله. أذكر مرّة أنّني حضرْتُ قراءة شعريّة للشاعر روبرت فروست Robert Frost في الكنيسة الّتي يخدم فيها بيل و كانت القصائد تُتلى من قبَل ممثّليْن إثنيْن و إشتركْتُ في المناقشات اللاحقة الّتي أعقبت القراءات. كان بيل

صديقاً لنورمان ميلر Norman Mailer الّذي كان يسكنُ قريباً منه في منطقة جسر بروكلين Brooklyn Bridge و عندما أبديْتُ رغبتي أمام بيل بلقاء ميلر أعطاني الرجل رقم هاتفه على الفور. كان لميلر صوتٌ أجشّ تشوبه لهجة أهل بروكلين و تصوّرته عبر الهاتف واحداً من القائمين على حفظ النظام في النوادي الليليّة و لكنّه رغم كلّ هذا بدا ودوداً و دعاني إلى تناول الغداء معه. كانت شقّة ميلر تقعُ على ارتفاع عدّة طوابق في واحدةٍ من بنايات بروكلين العتيقة و كانت لها إطلالةٌ ساحرةٌ على النهر و كان ثمّة عددٌ من مراجعات كتب ميلر المؤطّرة معلّقة على جدران شقّته و لم تكن تلك المراجعاتُ ودّية – كما سيتصوّر البعض فوراً – بل كانت تضمّ أكثر المراجعات عدائيّة و الّتي قيلت بحقّ ميلر !!، و كانت أشدّ التعليقات و أكثرها قساوةً تلك الّتي كتبتْ بحقّ روايته الأخيرة (حلم أمريكيّ An American Dream). كان لميلر حضورٌ فيزيائيّ يوحي بمظهر اللاهثين وراء الجوائز و كان الرجل يشعر – مثل همنغواي – برغبةٍ عارمة في ضرب منتقديه و كانت رواياته تحكي عن نزعة توكيد الذات الطاغية لديه و لكنّ الرجل صعقني على العموم بذكائه و حسّاسيّته. بدت لي زوجة ميلر الأخيرة، بيفيرلي، أطول من زوجها و ذات شعرٍ أشقر طويل جذّاب و تناولنا بفضلها غداءً ممتازاً، و عندما عرض عليّ ميلر شرب الفودكا أوضحْتُ له أنّني لم أعد أشرب و طلبت عوضاً عن الشرب عصير الطماطم أمّا هو فتناول مشروباً قويّاً بالإضافة إلى جرعاتٍ قويّة متتالية من الفودكا !! ثمّ أراني الرجل موديلاً ضخماً لمدينةٍ مستقبليّة بناها بإستخدام قطع الليغو البلاستيكيّة و بدتْ ككاتدرائيّة سرياليّة. تحدّثْنا عن الكتابة أيضاً و لا أقصد هنا الجانب الإبداعيّ و الأدبيّ بل تحدّثْنا عن الأتعاب و المقدّمات الماليّة الممنوحة من قبل الناشرين

للكُتّاب و ذلك هو ما يتحدّثُ عنه الكُتّاب في العادة عندما يجتمعون مع بعضهم !!. أخبرَني ميلر أنّه إستلم مقدّمة قدرها ١٢٥ ألف دولار عن كتابه (حلم أمريكيّ) و علمْتُ منه أنّ ناشره هو سكوت ميريديث Scott Meredith و أوصاني ميلر بلقائه و كنت حقّاً متلهّفاً لذلك اللقاء و لكلّ ما يمكن أن يزيد من مداخيلي الماليّة و أنا في أمريكا. تحدّثتُ مع ميلر أيضاً عن إلقاء المحاضرات و أبدى الرجل ملاحظة ظريفة لا زلتُ أذكرها و اقتبسها في معظم أحاديثي: فقد قال أنّ ما يحصل أثناء المحاضرات في العادة هو أن يسأل أحدهم سؤالاً بقيمة بنسيْن و لكنّ جوابه يتطلّب عشر دولارات !! و أورد امثلة على تلك الأسئلة: " ما الذي تراه مسؤوليّاتنا الإجتماعيّة الواجبة ؟ " أو " ما الّذي تظنّ في الدين ؟ "، و بعد إنتهاء غدائي مع ميلر سألني إن كنتُ راغباً في مرافقته إلى حفل زفافٍ و لسوء حظّي فعلْتُ و رافقته و وجدتُ حفل الزفاف باعثاً على الملل و الضيق إذ توجّب علينا أن ننحشر في قاعة صغيرة للغاية، و فعلْتُ كلّ ما أستطيع للإنصراف في أقرب فرصةٍ سنحت أمامي، و في وقتٍ لاحقٍ قرأت في الكتاب الّذي كتبتْه زوجة ميلر الثانية (آديل Adele) و المعنْون (الحفلة الأخيرة The Last Party) أنّ ميلر كان مدمناً على حضور الحفلات و حصل ذات مرّة أن حضر ثماني حفلاتٍ في المساء ذاته !!.

أخبرَني ميلر أنّ أودن Auden يسكن نيويورك، و لم أكن إلتقيْتُ الرجل من قبل لذا مضيْتُ إلى الإتّصال به هاتفيّاً غم أنّ ميلر نبّهني منذ البدء أنّني ربّما لن أعجب كثيراً بشخصيّة أودن " الباردة و البعيدة عن الألفة " و ظننْتُ بادئ الأمر أنّ تلك المسألة لا تعدو كوْن أودن بريطانيّاً نموذجيّاً يفتقد دفء الروح الأمريكيّة. عندما هاتفْتُ أودن لاحقاً ردّ الرجل على الهاتف بنفسه و دعاني إلى الغداء في شقّته،

و الحقّ أنّني كنتُ على الدوام متردّداً و منقسماً بشأن شعر أودن و رأيت فيه الوريث الشرعيّ المستحقّ إرتداء عباءة إليوت رغم أنّ الإثنيْن يشتركان في القليل جداً من العادات المميّزة لهما و كنت أرى أنّ شعر أودن – برغم عظمته – أخفّ وزناً و تأثيراً من شعر إليوت و ربما عزوْتُ السبب أحياناً إلى المثليّة الجنسيّة الّتي كان يعانيها الرجل و الّتي رأى فيها مثلبة لا يمكن غفرانها بسهولة و أمراً باعثاً على الخجل بالضبط مثلما يفعل بعض طلبة المدارس عندما يدخّنون خفيةً و هم متوارون خلف أبواب دورات المياه المغلقة !!.

كان أودن يسكنُ قريباً من ساحة واشنطن في شقّة مطلّة على الشارع، و كان هو من فتح لي باب شقّته عندما ذهبْتُ للقاءه و رأيْتُ على وجهه ذات الخطوط و التجاعيد الّتي سبق لي رؤيتها على صورته المنشورة في غلاف صحيفة الصنداي تايمز بعدما أصبح أستاذاً للشعر في جامعة أكسفورد البريطانيّة العريقة. وجدتُ الشقّة شبه فارغة و تبعث على الكآبة و يسودها السكون شبه التام، و بعد أن تناولْنا كأساً من المارتيني مضينا في الحديث بينما كان الرجل منهمكاً في إعداد الغداء و هنا اكتشفْتُ بنفسي ما كان يعنيه ميلر بشخصيّة أودن " الباردة و البعيدة عن الألفة ": كان أودن يتحدّثُ بلغة طلبة المدارس التقليديّة بإستثناء لفظه للحرف (a) على الطريقة الأمريكيّة في إدغام الحروف، و مكثْتُ حائراً في التنقيب عن سبب فقدانه الواضح للحميميّة و الألفة: هل يعود ذلك إلى خجل طفوليّ ذي طبيعة متأصّلة في نفسه أم لانّني لم أبْدِ أمامه أيّة ميول جنسيّة مثليّة ؟ و لكنّ ما كنتُ واثقاً فيه هو أنّ صديقيّ المقرّبيْن (ستيفن سبندر) و (كريستوفر إيشروود) كانا مثليّين و مع هذا فقد كانا يُبدِيان معي حميميّة غامرة. شربْتُ كأساً من البيرة مع الغداء، و عند موضعٍ ما في حديثنا سألني أودن عمّا أراه

بشأن تولكين Tolkein فأجبته بالقول أنّني أرى في عمله (سيّد الخواتم The Lord of the Rings) واحداً من أعظم الأعمال الروائيّة للقرن العشرين و سبق لي أن قراتُها مرّتيْن من قبلُ، و هنا تغيّرت لهجة أودن الباردة و صارت أكثر دفئاً و حميميّة ثمّ أمضيْنا معظم وقت الغداء و نحن نتحدّث عن تولكين الّذي كان أودن على معرفةٍ مسبّقة به، و ربّما شعر أودن في قرارة نفسه أنّ منْ يتحدّثُ عن تولكين بمحبّة و إطراء لابدّ أن يكون في جوهره رومانتيكيّاً أصيلاً. تأكّدتُ لاحقاً أنّ السبب وراء برودة شخصيّة أودن هو خجله المتأصّل: فقد إلتقيْته ثانية – و كانت تلك هي المرّة الأخيرة الّتي ألتقيه فيها – في مهرجان تشيلتنهام الأدبيّ الّذي كنت عضواً في أحد لجانه المسؤولة عن التمويل، و كان مخطّطاً ضمن جدول الإحتفاليّة الأدبيّة أن يلقي أودن محاضرةً حول الدين، و عندما ذهبْتُ إلى المطعم الملحق (كانتين) بموقع الإحتفال لتناول شيءٍ ما قبل ساعةٍ من بدء الإحتفاليّة الأدبيّة لمحْتُ أودن يأكل وحيداً و عندما طلبْتُ إليْه أن أشاركه المائدة مضيْنا نأكل سويّة، و حصل في سياق حديثنا أن سألْتُ أودن عن تولكين فَعلمْتُ منه أنّ الرجل يرقد مريضاً في منزله و أنّه ينوي زيارته، و بعد بدء الإحتفاليّة مضى أودن في محاضرته و كانت فعلاً واحدةً من أسوأ المحاضرات الّتي حضرتُها في حياتي من حيث طريقة الإلقاء: فقد ألقاها أودن بصوتٍ عالٍ و كان يبدو أنّه يرى النص الّذي أمامه لاوّل مرّة، و لكن بعيداً عن طريقة الإلقاء فإنّ محتوى المحاضرة بذاته كان ممتعاً للغاية.

كان أودن – مثله مثال إليوت – يرى في الدين حاجةً أساسيّة للإنسان و أنّ فقدان الإهتمام الذهنيّ المعاصر فيما يخصّ الدين والّذي نلحظُهُ في أيّامنا الحاضرة إنّما يعكسُ تدهوراً خطيراً في منظومة معاييرنا، وَ أعجبْتُ للغاية بنظرته تجاه الدين و رأيْتُ فيها توافقاً واضحاً مع ذات

نظرتي الّتي كنتُ عرضْتُها في كتابي (الدين و المتمرّد). كتبْتُ لأودن في وقتٍ لاحق رسالة بشأن إمكانيّة تسليم رسالةٍ منّي لتولكين كنتُ كتبتُها بكلّ شغفٍ و وعدني الرجل بانّه سيفعل متى ما ذهب لزيارة تولكين، و لكن بعد بضعة أسابيع علمْتُ عبر المذياع عصر أحد الايّام المبكّرة من بداية أيلول ١٩٧٣ بوفاة تولكين ثمّ – للأسف – توفّي أودن هو الآخر بعد بضعة أسابيع من وفاة تولكين و هو بعمر السادسة و الستّين.

* * * * * * * * * *

حصل في اليوم السابق لتناولي الغداء مع أودن أن أتيحت لي فرصةٌ نادرةٌ للوعظ في كنيسة بيل غلينيسك، و وصفْتُ الحال في رسالةٍ إلى جوي كتبْتُ في مقطعٍ منها " كانت وعظتي نجاحاً هائلاً و إنطلق الحضورُ في تصفيق حادٍّ بينما مضيْتُ للجلوس في مقعدي بعد إنتهاء الموعظة و كان ذلك حالة غير مسبوقة في أيّة كنيسة و بخاصّة أنّني كنتُ أرى في المسيحيّة على الدوام هدراً في الوقت "، و بعد إنتهاء موعظتي كان ثمّة وقتٌ للمناقشة إمتدّ لساعتيْن إستمتع فيها الحضورُ بتناول القهوة. كنتُ أقرأ آنذاك رواية ترومان كابوت (بدمٍ بارد In Cold Blood) الّتي حقّقت الرقم الأكثر مبيعاً و سبّبت لي خيبة أملٍ عظيمة: كنت في بداية قراءتي للرواية أتطلّعُ إلى روايةٍ شبيهة بِـ (الجريمة و العقاب) و في نهاية المطاف بانت لي الرواية مفتقدةً لأيّ عنصر من عناصر الإثارة بإستثناء صفحةٍ وحيدة نقرأ فيها أنّ القاتل الأذكى من بين القاتليْن يُبدي إهتماماً فائقاً بالفلسفة بينما كان ينتظر الإعدام !!، و سألتُ حينها نورمان ميلر عمّا يراه في رواية كابوت فقال أنّه يراها رواية ممتازة للغاية، و عندها أعلمْته بعدم موافقتي رأيه و أن اللغة النثريّة

للرواية كانت شيئاً غير مميّزٍ قام على الفور بسحب نسخة من الرواية من بين كتبه و مضى في قراءة مقطعٍ فيها و عندما جاء على ذكر عبارة " الزجاج المشعّ باللون البنفسجيّ " للمرآة علّق عليها قائلاً إنّها تعكس قدرة ممتازة على الملاحظة، و عقّبتُ حينها و قلت أنّ هذه ملاحظة يمكن أن يأتي بها أيّ مبتدئٍ في الكتابة و هنا إنفجر ميلر بالضحك و شاركني هذه الملاحظة، و الحقّ أنّني اليوم أحبّ هذه الرواية كثيراً و أرى فيها غير ما كنتُ أراهُ من قبلُ.

أمضيْتُ نهاية الأسبوع اللاحق في واشنطن حيث كان يتوجّبُ عليّ إلقاء محاضرةٍ في مكتبة الكونغرس الأمريكيّ، و أقمْتُ حينها في منزل سيّدة تدعى (ماريون ليتر Marion Leiter) كان سبق لي أن إلتقيْتُها في نيويورك على دعوة عشاء أقامها (آلان برايس جونز Alan Pryce Jones): محرّر ملحق التايمز الأدبيّ. وجدْتُ ماريون جذّابة و في الأربعينات من عمرها و أخبرتْني خلال العشاء أنّ بإمكاني المكوث في منزلها متى ما قدمتُ إلى واشنطن و راقتْني الفكرة كثيراً لأنّها كانت ستوفّرُ لي الكثير من فواتير الفنادق كما ستمكّنني أيضاً من إرسال المزيد من المال إلى جوي، لذا وافقتُ على دعوتها من غير تردّد مع إبداء الإمتنان الواجب. عندما أخبرْتُ صديقي (دان دانزيغر) لاحقاً بأمر إقامتي في منزل ماريون بدا الرجل مندهشاً تماماً و أخبرَني أنّ هذه السيّدة واحدةٌ من السيّدات المضيافات الأكثر كرماً و شهرة في واشنطن و كانت تجمعُها علاقة صداقةٍ وثيقة مع الرئيس كينيدي و كان زوجها يعمل في ال CIA و كانت تجمعه صداقة مع الكاتب البريطانيّ (يان فليمينغ Ian Fleming) الّذي جعل منه الشخصيّة الأمريكيّة المناظرة لجيمس بوند البريطانيّ و أعطاها إسم (فيلكس ليتر) في الرواية، و كان سبق لزوج (ماريون) أن عرّف الرئيس كينيدي على

سلسلة روايات بوند و أبدى الرئيس ملاحظات طيّبة للغاية بشأنها و هو الأمر الّذي ساعد على جعلها الأفضل مبيعاً في أمريكا، و لم يكن فليمينغ لينسى ردّ الجميل إلى الرئيس فجعل بوند يقرأ في إحدى روايات السلسلة مقاطع من سيرة الرئيس كينيدي المعنونة (لمحاتٌ في الشجاعة Profiles in Courage). عندما وصلْتُ واشنطن قادماً من نيويورك ذهبتُ من فوري إلى منزل ماريون و وجدْته منزلاً عاديّاً للغاية و بعيداً عن الضخامة و الفخامة الّتي توقّعتها و لكنّه كان في منتهى الجمال و الأناقة و غاصّاً بقطع الأنتيكات Antiques و شعرتُ بذاتي تائهاً في المكان الّذي كان يقوم على الخدمة فيه عددٌ من الخدّام السود و كنتُ على الدوام أخشى الإرتطام بفاسات المينغ التي تملأ المكان. إلتقيتُ بعد بضعة أيّام بستيفن سبندر الّذي كان يدرّسُ في جامعة جورج تاون القريبة من منزل ماريون و كان سبق لي أن إلتقيْته للمرّة الأولى قبل عشر سنواتٍ، و جعلني لقاؤه في جامعة جورج تاون أدركُ كم غدوْتُ أكثر ثقة بالنفس عمّا كنته في السابق، و عندما أخبرْتُ ماريون بنبأ إلتقائي مع ستيفن طلبت إليّ على الفور دعوته عصر اليوم التالي إلى حفلة عشاءٍ كانت تنوي إقامتها و هكذا حصل و جلسْنا جميعاً حول المائدة في غرفة الطعام البالغة الجمال، و كان يبدو أنّ معظم الحاضرين كانت لهم روابط و إهتماماتٌ سياسيّة تجمعهم ببعضٍ لذا فضّلْنا أنا و ستيفن – الّذي جلس بجانبي – أن نتحدّث في موضوعات أدبيّة و حكيتُ له عن لقائي مع أودن فعلّق قائلاً أنّه يرى فيما يكتب أودن مثالاً للكتابة الجميلة و الأنيقة غير أنّ أودن لم يعد أمامه الكثير ليقوله !!. أذكر في موضعٍ ما من حديثنا أنّنا تحدّثنا عن إغتيال كينيدي و وضعْتُ موضوعة الإغتيال في إطار لعبةٍ كان مقدّراً لواحدٍ من إثنيْن أن يخسر فيها: أوزوالد كمستخدم سلاح ناريّ

لا يُجيدُ التصويب أو كينيدي كصاحب حظّ سيئ و للأسف خسر كينيدي اللعبة، و بينما كنتُ أدلي بملاحظتي هذه ساد هدوء غريب الحضور و بدا أنّهم أصغوا جميعاً لما قلتُهُ و شعرتُ حينها بشيءٍ من الحرج: إذ لطالما أُعتُبر كينيدي أيقونة أمريكيّة و لكن كان الوقت قد فات لسحب عبارتي، و بعد أن مضى الحوار حول كينيدي شعرتُ أنّ من المناسب طرح سؤالٍ لطالما عجزتُ عن إيجاد جواب مناسب له: هل صحيحٌ ما يقالُ بشأن كينيدي في كونه زير نساء شبقاً و كان يطارحُ الغرام دزينة من النساء في ذات الوقت ؟ و هنا يبدو أنّني مضيْتُ بعيداً و طرحتُ السؤال الخاطئ و غير المناسب تماماً إذ إنبرى الجميعُ في التحديق بي تعبيراً عن إستنكارهم البيّن لما تساءلتُ بشأنه و مؤكّدين خطل الأقوال التي تشيعُ فكرة " شبقيّة " كينيدي و لهاثه وراء النساء. لم تُبْدِ ماريون ايّة نوازع بالضدّ منّي برغم كلّ ما حصل على مائدة العشاء و أذكر كيف كانت تقولُ على الدوام للسائق الأسود الّذي كان يقلّني إلى محاضراتي " ها أنت ترى، روبرت، أنّ السيّد ويلسون لم يتلقّ تعليماً أكثر ممّا تلقّيتَه أنت و لكنّه مع ذلك يحاضِرُ في مكتبة الكونغرس !! ".

كانت محاضراتي الّتي ألقيها ذلك الوقت مقدّراً لها أن تصلّب عودي و تجعلني أكثر ثقة بنفسي و إمكانيّاتي و الأهمّ من كلّ هذا رأيتُ في هذه المحاضرات حلاّ لمشاكلي الماليّة المُتعبة: فما كان يقلقني على الدوام هو إضطراري لكتابة العديد من الكتب في وقت واحد لإدامة متطلّبات حياة عائلتي و الايفاء بها على نحوٍ مقبول، و كان صديقي روبرت أردري قال لي مرّة " أيّها الأخ، إنتبه، فأنت تكتب كثيراً للغاية !! " و لم أكن اخشى آنذاك أن أتحوّل إلى كاتبٍ مبتذل إذ لا أذكر أنّني كتبتُ كتاباً يوماً طلباً للمال و حسب و لكن إذا كان في إستطاعتي

جنيُ عشرين ألف دولار في السنة من وراء إلقاء المحاضرات وحدها فإنّ هذا الأمر كفيلٌ بأن يوفّر لي فرصةً لأن أكتب كتاباً واحداً كلّ سنتيْن بدلاً من كتابة كتابيْن في السنة الواحدة !!. أبدى أحد الطلبة في كليّة هيرام Hiram College في مدينة أوهايو ملاحظة أخبر فيها أستاذه المسؤول عن تنظيم محاضراتي " لو كان جميع البروفسورات جيديّن كما السيّد كولن ويلسون لسجّل الجمهور الحاضر في محاضراتهم ارقاماً قياسيّة على الدوام "، و أذكر مرّة كيف إستمرّ الحضور بالتزايد في محاضرةٍ لي بمدينة أكسفورد في ولاية أوهايو حتّى لم يعد ثمّة متّسعٌ لأيّ فرد و كان هذا الأمر مبعث بهجتي و بخاصّة بعد أن قرأتُ خبراً في إحدى الصحف المحلّية يفيدُ بأنّ دعوى قضائيّة رُفعت ضدّي في إحدى محاكم بوسطن تحت إدّعاء أنّ كتابي (المذكّرات الجنسيّة لجيراد سورم The Sex Diary of Gerard Sorme) عملٌ فاحشٌ إلى حدود غير مقبولة، و لكنّ القاضي ردّ الدعوى قائلاً أنّ عملي لم يكن أكثر فحشاً من أعمال ميلر أو رواية السيدة تشاترلي و لكن من جانب آخر أضاف القاضي أنّه لم يكن ليصدّق كيف أنّ مؤلّف هذا الهراء الخاوي كان عُدّ يوماً ما أحد عباقرة الكتّاب الإنكليز من قبل بعض النقّاد، و حسبتُ هذا واحداً من التبعات المؤذية المترتّبة على الإفراط في الكتابة.

أثبتت زيارةٌ لي إلى كلّية هولينز – الّتي ستكون ملاذي للسنة القادمة – أنّها ستخفّف من عبء الحياة المجهدة الّتي كنتُ أعيشها في بريطانيا من قبلُ: كان الحرم الجامعيّ رائع الجمال و المساحاتُ الخضراء فسيحة إلى جانب أنّ رئيسي في العمل كان شخصيّة جذّابة للغاية و أبدى كرماً هائلاً عندما أخبرَني أنّ الكلّية ستتكفّل بكلّ مصاريف نقل أيّة أمتعةٍ أرغبُ فيها من إنكلترا إلى أمريكا حيث أقيم. كان الكاتب المقيمُ في الكلّية قبلي شاعراً يدعى (ويليام جاي سمث) و كان قبله

الكاتب (وليم غولدنغ William Golding) الّذي تمتدّ معرفتي به إلى عام ١٩٥٦ عندما نشر روايته الذائعة الصيت (إله الذباب Lord of the Flies) و بينما كان مقيماً في كلّية هولينز كتب رواية ثانية عنوانها (البرج The Spire) و إعتاد الامريكان إعتبار الرجل كاتباً عظيماً و كنتَ ترى كتبه في كلّ مكانٍ حتّى في اكشاك بيع الكتب في المطارات، و على الصعيد الشخصيّ لم أرغب في روايات غولدنغ و وجدتُها قاتمةً تماماً – مثل أعمال غراهام غرين – و تقودُ إلى الإستنتاج المؤكّد بأنّ الكائنات البشريّة عاجزةٌ عجزاً مستديماً و واقعةٌ في فخّ الخطيئة المؤبّدة الّتي لا فكاك منها، و عندما صار غولدنغ بعد بضعة عقودٍ جاراً لي في كورنوال دعوته على الغداء بضع مرّات و لم يكن من المناسب آنذاك أن أبدي للرجل ملاحظاتي النقديّة الحادّة مدفوعاً بإعتبارات البروتوكول الذي يستلزم قدراً من الكياسة و الضيافة الواجبتيْن تجاه الضيوف.

بدت كلّية هولينز مكاناً مثاليّاً لقضاء سنةٍ فيها و لكنّني كنتُ في غاية القلق من إحتمال أن يكتشف المسؤولون في الكلّية حقيقة أنّني لم أكن متزوّجاً من جوي بطريقةٍ رسميّة لأنّ زوجتي السابقة بيتي Betty رفضت على الدوام تزويدي بأوراق طلاقها منّي، و لكنّ جوي تداركت الأمر بذكاء عندما طلبت من دائرة الجوازات منحها جوازاً جديداً بإسم السيدة ويلسون و لحسن الحظّ وافقت الدائرة على طلبها بعد تردّد، و كنت عقدْتُ العزم بعد إنضمامي لكلّية هولينز على الإحتفاظ بمستوىً عالٍ من الدافع و الغاية و أن لا أسمح للضجر و الملل الملازميْن لمطحنة الحياة اليوميّة بالزحف على عقلي و إستنفاد طاقتي الحيويّة كما حصل معي في رحلتي الأمريكيّة الأولى، و كان ثمّة مواقف ممتعة في رحلتي الثانية: فقد أمضيْتُ بعض الوقت في سان

فرانسيسكو محاضراً في الكلّية الباسيفيكيّة Pacific College حيث أمكنني تجديد جوانب من علاقتي مع الشاعر كينيث ريكسروث Kenneth Rexroth الّذي كنتُ إلتقيْته أواخر عام ١٩٥٩ عندما سكن في ميفاغيسي Mivagissey قريباً من من كورنوال رفقة زوجته و بناته الثلاث، و عندما إلتقيْته ثانية في سان فرانسيسكو كان يعملُ في محطّة إذاعيّة هناك و سجّلتُ فعلاً محاورة إذاعيّة معه. كان ريكسروث في الخمسينات من عمره آنذاك و كان على الدوام فوضويّاً متمرّداً و يُعرَفُ عنه أنّه هاجم السيناتور ماكارثي بضراوةٍ لا هوادة فيها في برامجه الإذاعيّة، و بعد حياةٍ غير واضحة المعالم كشاعرٍ و كاتب مقالاتٍ أدبيّة كان يطيبُ لريكسروث وصفه بالأب المؤسّس لحركة جيل التمرّد المعروف عالميّاً (جيل البيت Beat Generation)، و سرعان ما صار ريكسروث يُعامَلُ كَـ (غورو) لجماعةٍ من الشعراء السان فرانسيسكوويين: آلين غينسبرغ Allen Ginsberg، مايكل ماكلور Michael McClure، فيليب والين Philip Whalen، غاري سنايدر Gary Snyder،،،. أعلِنتْ حركة جيل البيت في واحدةٍ من القراءات الشعريّة الّتي نظّمها ريكسروث عام ١٩٥٥ و ليس من قبيل المبالغة في شئٍ القولُ أنّ الرجل هو الّذي جعل من سان فرانسيسكو مركزاً أدبيّاً ذائع الصيت على الخارطة الأدبيّة العالميّة، وَ لم يكن ريكسروث متحمّساً لطريقة جيل البيت في الحياة و كانت له إنتقاداتٌ لاذعة بحقّ كيرواك Kerouac و لطالما رأى في هذا الجيل طائفةً متمحورةً حول ذاتها و لا تلقي بالاً للآخرين.

حصل مرّة أن حاضرْتُ في جامعة جنوب فلوريدا في تامبا، و قبل بدء المحاضرة أخبرَني البروفسور المسؤول عن تنظيم محاضرتي أنّ كيرواك يقيمُ مع والدته في منطقة قريبة من الجامعة و قد طلب رؤيتي،

و بعد إنتهاء المحاضرة إقترب منّي رجلٌ يدعى كليف و قال لي أنّه و كيرواك كانا عقدا العزم على الحضور مبكّراً لسماع محاضرتي و لكن حصل أنّ كيرواك توقّف عند كلّ حانةٍ لتناول مشروبٍ على طول الطريق من منزله و حتّى الجامعة و البالغ ثلاثين ميلاً لذا كان كيرواك مع وصولهما للجامعة قد غدا ثملاً للغاية و تطلّب الأمر إرجاعه إلى المنزل على الفور، و تكرّر ذات الأمر في اليوم التالي عندما مضيْتُ لإلقاء محاضرةٍ في كليّة للبنات، و عندما سألْتُ كليف أيّ نوعٍ من البشر هو كيرواك ؟ أجابني أنّه أمروٌ غايةٌ في الرقّة و اللطافة و حسن المعشر و أنّه يتبعُ نظريّة تقولُ بضرورة أن نحبّ الآخرين لذا كان يُمضي الكثير من الوقت في الحانات حيثُ يمكنهُ الحديثُ مع الأغراب و هو غارقٌ في الثمالة. كانت النتيجة المحتّمة لنمط الحياة الّذي إتّبعه كيرواك أن فقد كلّ سيطرةٍ على حياته و تسبّب له النجاح المدوّي لروايته الأولى (على الطريق On the Road) في تدمير حياته بالكامل و توفّى الرجل بعد ثلاث سنواتٍ من نشر روايته تلك و هو في السابعة و الثلاثين فحسب !!.

كان مبعث راحةٍ عظمى لي عندما وضعتُ قدميّ في الطائرة الّتي أقلّتني عائداً إلى مطار هيثرو في لندن بعد نهاية جولتي، و على الرغم من أنّ أغلب مدخولي الماليّ من تلك الجولة كنت إستخدمْته لتسديد فواتير القوائم المتراكمة علينا في كورنوال لكنّ شعوراً يملؤني سعادةً كان يجتاحُني كلّما تذكّرتُ حقيقة أنّ عاماً كاملاً ينتظرُني عمّا قريبٍ في أمريكا وَسَأتقاضى لقاءهُ مرتّبَ أستاذٍ جامعيّ.

١٧. كاتبٌ مقيمٌ في كلّية أمريكيّة

وصلْتُ منزلي في كورنوال عائداً من أمريكا بعد بضع ساعاتٍ من وصول جوي للمنزل عقْب رجوعها من زيارة والديْها في سانت ألبانز St. Albans و بدا والداها آنذاك في حالة مصالحة كاملةٍ معي و بخاصّة بعد أن أصبحْتُ أباً و مالكاً لمنزل مستقلّ، و مع أنّني كنتُ متعباً للغاية فقد عقدْتُ العزم على إصطحاب جوي في زيارةٍ مستحقّة إلى إيرلندا بعد أن تلقّيْتُ دعوة لإلقاء محاضرةٍ في ذات الكلّية التي كانت جوي تدرسُ فيها من قبلُ و هي كلّيّة ترينيتي Trinity College المرموقة في دبلن، و عندما أرادت جوي إصطحاب إبننا ديمون في كرسيه المدؤلب إلى داخل الكلّية قيل لها أنّ الأطفال ممنوعون – بحسب التعليمات المتّبعة منذ عقود – من دخول الكلّية و عجبْتُ لعدم معرفة جوي بهذه الملاحظة طيلة سنوات دراستها في هذه الكليّة من قبل. مضيْتُ في محاضرتي بتلقائيّة و بعد أن ألقيْتُ نصفها تقريباً فوجئتُ بإنطفاء الأضواء كلّياً و لكن لحسْن الحظ فإنّ ثلاثة أشهرٍ من المحاضرات المتواصلة في أمريكا علّمتْني كيف أمضي في إلقاء محاضراتي بغضّ النظر عن أيّ مؤثّر خارجي غير متوقّع، و بعد أن عادت الأضواء عقب ربعِ ساعةٍ من إنطفائها سمعْتُ همهمة إرتياح بين الطلبة و لكن لم يؤثّر هذا على سير محاضرتي في شيء. جعلتْني تجربة إنقطاع الكهرباء في كلّية ترينيتي أفكّر ثانيةً في روايةٍ جاسوسيّة كنتُ انوي كتابتها منذ عام ١٩٦٣ بعد أن قرأتُ كتاباً عن الحرمان الحسّي عنوانه (داخل الغرفة السوداء Inside the Black

Room) كتبَها جاك فنسنت Jack Vincent و تدور حول فكرة أنّ الغرفة السوداء – و هي غرفة مصبوغة بالأسود و و يسودها صمتٌ مطبق تماماً – يمكنُ أن تكون وسيلة مثاليّة لجلب الهدوء و الإسترخاء لعقول و أجساد الطلبة الّذين أفرطوا في الدراسة قبل الامتحانات، و كان يبدو للوهلة الأولى أنّ هؤلاء الطلبة يمكنُ لهم أن يناموا لخمس عشرة ساعةً متواصلة ثم يستفيقوا بعدها و هم في منتهى الحيويّة و النشاط و يمكن لهم حينها إستذكارُ ما درسوه خلال الأسابيع المنصرمة و لكنّ بقاءهم الممتدّ في الغرفة السوداء كان سيتسبّبُ بعد وقتٍ ما في سيادة أجواء الضجر و الملل و من ثمّ يستحيلون كائناتٍ عاجزة و يائسة ثمّ تبدأ أعراض الهلوَسَة بالظهور و ينتهي الأمر في دوّامة خطيرة من الإكتئاب و الإنهيار العقليّ المحتّم. كان ثمّة شائعةٌ تقولُ أنّ الصينيّين إستخدموا تكنيك الغرفة السوداء في غسل عقول بعض الأسرى الأمريكان خلال الحرب الكوريّة و نجحوا في تحويلهم إلى الآيديولوجيّة الشيوعيّة !! لذا مضيْتُ في محاولة إستخدام هذه الأفكار كاساسٍ في روايتي الجديدة، وَ كانت فكرة الرواية بالأساس محاولةً للإجابة على السؤال التالي: كيف يمكنُ أن ندرّب جاسوساً على بناء مقاومةٍ هائلةٍ تجاه محاولات الحرمان الحسّي الشامل الّتي يمكن أن يخضع لها ؟ فكما نعلمُ جميعاً ليس من الصعوبة في شيٍ تدريبُ أحدٍ ما على التحدّيات الهائلة الصعوبة لأنّ قوّات الكوماندوز تفعلُ هذا دوماً، و لكنّ الأمر الأكثر صعوبة بمراحل عظيمة هو العكس تماماً: كيف ندرّبُ أحداً ما على التعامل مع بيئةٍ ينعدِمُ فيها كليّاً أيّ تحدٍّ مهما كان صغيراً ؟ و كانت فكرتي أنّ من ينجحُ في هذا المسعى سيكون بالتأكيد قد وضع يده على السرّ الّذي يمكنُ معه تحويلُ البشر إلى آلهة !! و أنّ الجاسوس الذي سيهزمُ التأثيرات المخيفة للغرفة السوداء سيكونُ

نوعاً من الإنسان الخارق بالتأكيد. بدأتُ في ربيع عام ١٩٦٦ بكتابة مسوّدتي الأولى من الرواية الّتي أردّتُ لها أن تظهر تحت عنوان (الغرفة السوداء The Black Room) و كنتُ إخترْتُ لها عنواناً أوّليّاً هو (ليلٌ من غير عيون Night without Eyes) و مع أنّي بدأتُ العمل على الرواية عندما كنتُ أحاضر في كلّية هولينز غير أنّها لم تنشر إلّا بعد ثلاث سنوات من ذلك الوقت.

بدأت جوي في أواخر آب ١٩٦٦ بحزم أمتعتنا إستعداداً للسفر إلى فرجينيا الأمريكيّة و لم نكنْ متأسّفين على المغادرة بعد أن صار أمراً معتاداً أن يمتلئ كوخنا الريفيّ بالكثير من الضيوف طيلة شهرَي تموز و آب و كان هذا واحداً من عواقب السكن قرب البحر، و في أحد الأيّام الحارّة الباكرة من أيلول غادرنا كورنوال بعد أن تركْنا منزلنا تحت رعاية إثنيْن من جيراننا، و كانت وجهتُنا الأولى هي لندن الّتي وصلناها بقطارٍ يدعى (الريفييرا) و نزلْنا في فندق غريت ويسترن Great Western الواسع في محطّة قطارات بادينغتون و كان هذا الفندق معروفاً عنه أنّه الفندق الأضخم في بريطانيا بأكملها منذ أن أنشئ عام ١٨٥٤ و كان يضمّ أكثر من مائة غرفة نوم، و بعد أربعٍ و عشرين ساعة وجدْنا أنفسنا في نيويورك الّتي كانت حارّة الأجواء تماماً مثل لندن، و أخذْنا تاكسياً إلى فندق سانت جورج في بروكلين الّذي تفاجئنا بكون تكييف الهواء فيه لم يكن ليتّبع المواصفات القياسيّة العالميّة المعتمدة و مع هذا أحببْتُ الإقامة في بروكلين لكي أجعل جوي و سالي يستمتعان لأطول وقتٍ ممكن بمدينة نيويورك من خلال إطلالاتٍ رائعة للمدينة من جسر بروكلين و كثيراً ما مررْنا على هذا الجسر الجميل و نحن ندفع الصغير ديمون في عربتِه، و رغم حرارة الجوّ غير المعتادة لنا في نيويورك فقد أحببْتُ المدينة لانّني كنتُ

صحبَة عائلتي بالإضافة لحقيقة أنّ هذه الفرصة هي المرّة الوحيدة الّتي إستشعرتُ فيها طعم نجاحي ككاتب: فبعد نشر اللامنتمي في عام ١٩٥٦ مضت الأمور في عُجالة لم تُتِحْ لي أيّة فرصةٍ لتذوّق طعم النجاح حتّى إنقلب التيّار بالضد منّي و صرْتُ أهاجَمُ من الجميع، و عندما كنّا نُقيمُ في كورنوال كانت لنا همومنا الماليّة المستمرّة و المستعصِية الّتي نغّصت علينا حياتنا بالإضافة لكثرة زائرينا الّذين كانوا يحرموننا أيّة فرصةٍ جدّية للهدوء و الإسترخاء، و في كلّ مرّة كنّا نتمشّى فيها أنا و عائلتي على جسر بروكلين كنتُ اتحسّسُ طعم الحياة الموعودة الّتي لطالما حلمْتُ بها في أمريكا.

بعد يوميْن من قدومنا إلى نيويورك وجدْنا انفسنا في كلّية هولينز للبنات الّتي خصّصت لنا منزلاً فسيحاً رائع الجمال يقعُ في المُجمّع السكني على سفح تلّةٍ تطلّ على الأبنية الجامعيّة الّتي كانت تبدو من نوافذ منزلنا في أناقة علبة الشوكولاتة و كانت مشيّدةً على طراز العمارة الكولونياليّة الشائعة جنوب الولايات المتّحدة. سمحتْ إدارة القسم الّذي كنتُ أدرّسُ فيه إختيار ما أشاء من المقرّرات الدراسيّة لتدريسها للبنات فإخترْتُ مقرّريْن دراسيّين: الاوّل يتناولُ أفكار كارل ماركس، و خصّصْتُ الثاني لتوفير خلفيّة رصينة للبنات في موضوع الفلسفة.

تسبّبت لي معضلة تراكم أسطوانات الغراموفون في بلوغي لواحدةٍ من ومضات الرؤية المذهلة: ففي السوبرماركت المحلّي كانت أسطوانات الغراموفون تُباعُ في اغلفةٍ ورقيّة و كنتُ أنا على الدوام أفضّلُ الأغلفة المصنوعة من البوليثين Polythene لأنّ الأغلفة الورقيّة كانت تجذبُ ذرّات الغبار مثلما تفعلُ المكنسة الكهربائيّة، لذا طلبْتُ

بحدود المائة من أغلفة البوليثين من أحد المحلّات في فيلاديلفيا و بعدما وصلتْني هذه الاغلفة إرتميْتُ على نسيج الكاربت الّذي يغطّي أرضيّة إحدى الغرف في منزلنا و مضيْتُ في نزع الأسطوانات من الأغلفة الورقيّة و من ثمّ تنظيفها بقطعة من الإسفنج و تثبيتها في أغلفة البوليثين الجديدة، و ربّما لو أتيحت الفرصة للبعض و رآني أقوم بذلك العمل الرتيب لظنّوا أنّني أؤدّي العملَ الأكثر سوءً و إثارةً للضجر في العالم و بخاصّة أنّ لديّ كراهيّة متأصّلة تجاه الأفعال الرتيبة و التكراريّة، و مضيْتُ في التساؤل آنذاك: لِمَ كنتُ أشعرُ بالزهو و السعادة و أنا أؤدّي ذلك العمل الرتيب لساعاتٍ طوال ؟. يضعُ الكاتب العبقريّ هيرمان هسّه Herman Hesse إصبعه على موضع الإجابة عندما يشيرُ في موضعٍ ما من روايته (رحلة إلى الشرق Journey to the East) إلى حقيقةٍ " إنّ الوقت الطويل المخصّص للتفاصيل الدقيقة يملؤنا إثارةً و قدرة على المُطاولة "، و لكن لماذا ؟ لطالما صعقتْني هذه النوعيّة من الأسئلة الّتي يمكنها أن تقودني إلى قلب معضلة الوجود البشريّ، و الجوابُ بإختصار و ببساطةٍ عميقة هو: إنّه لأمرٌ واضحٌ تماماً أنّنا عندما ننغمِسُ بعُمقٍ في أيّ عملٍ نحبّه و نُفتنُ به فإنّ تيّار وعينا يصبِحُ أكثر حدّة و تركيزاً و تصويباً بإتّجاه بؤرةٍ محدّدة و بما يُعظّمُ شدّة وعينا عمّا إختبرْناه من قبل.

* * * * * * * * * *

لَمْ تستطِعْ الأيّام الخريفيّة الهادئة الّتي يسودها جمال الأوراق الحمراء المتناثرة على طرقات المدينة أن تحجب عن ناظريّ الجانب الأكثر ظُلمةً في هذه الجنّة الأرضيّة الّتي رمتْني الأقدار السعيدة بين أحضانها: فعندما كنتُ أذهبُ بإبنتي سالي صباح كلّ يومٍ إلى المدرسة

في سيّارتنا إعتدْتُ سماع الأخبار عبر مذياع السيّارة و لم يكن ليمرّ صباحٌ من دون أن أسمع خبر سرقة محطّة بنزين أو مخزن أدوية في مدينة (روروكي) الصغيرة القريبة و الّتي لم يكن سكانها ليتجاوزون المائة الف نسمة، و وُجِدت جثّة إمرأة قتيلةٍ أحد الايّام في حقلٍ قريبٍ من كلّية هولينز و كان القاتل قد أحدث شقّاً طوليّاً في جسدها ثمّ قام بحشوه بخرقٍ بالية مشبّعة بالبارافين و أضرم فيه النار، و كانت هذه الحادثة البشعة هي الثالثة في تعداد جرائم القتل البشعة المماثلة التي تُرتكَبُ في ذات المنطقة خلال عاميْن، وَ حصل مرّة في حادثةٍ أخرى أن دلف شابّان إلى محلّ لبيع الآيس كريم قريبٍ من كلّيتنا و إقتادا فتاتيْن تعملان فيه إلى غرفة خلفيّة ثمّ أطلقا عليهما النّار لتموتا في الحال. وجدْتُ هذه الأفعال الإجراميّة المقترنة بالعنف المفرط عصيّة على الفهم حتّى حصل ذات يومٍ أن قادتْني خُطاي إلى قريةٍ تقعُ خلف الحرم الجامعيّ و يسكنها السوّد من الّذين كانوا يعملون في أعمالٍ خدميّة داخل الكلّية، و كان ثمّة مدرسةٌ فيها و لكنّ نوافذها كانت مهشّمة الزجاج تماماً و و وجدْتُ المنازل عبارة عن صفوفٍ من علبٍ خشبيّة متداعية حتّى أنّني رأيْتُ أحد هذه المنازل و هو يميلُ بزاوية ٤٥ درجة !! و كانت رائحةٌ نتنة فظيعةٌ تعمّ المكان و ربّما كان السبب أنّ بعض المنازل إعتادت تربية بعض الخنازير في باحاتها الخلفيّة، و رأيتّ المدينة مليئةً بقطع الزجاج المكسور والألواح المعدنيّة الصدئة و الأحذية العتيقة و الحيوانات النافقة المتفسّخة حتّى أنّني رأيتُ فأرة حاملاً كبيرة الحجم منتفخة و ميّتة بين تلك الحيوانات، و أخبرتْني زوجة أحد الأساتذة الّذين يدرّسون في الكلّية – و كانت مديرةً لمدرسة المدينة البائسة هذه – أنّ البيوت كانت تفتقد إلى الأثاث المناسب بصورة مأساويّة، و لكنّ الشئ الغريب الّذي رأيته هناك أنّ بعض المنازل كانت تخرجُ

منها هوائيّات تلفاز ممّا يؤكّد إمتلاك أصحابها لأجهزة تلفاز داخل منازلهم بل و وصل الأمر أن وجدْتُ سيّارة كاديللاك صفراء اللون واقفةً أمام أحد المنازل !!. بعد أن عدْتُ من جولتي في تلك المدينة المجاورة لكلّيّتنا رأيْتُ حوالي المائة من فتيات الكلّية و هنّ متمدّداتٌ على التلّة أسفل منزلنا و مرتدياتٌ للبيكيني الزاهي و مستمتعاتٌ غاية المتعة بدفء الشمس المشرقة و سرعان ما عقدْتُ مقارنة بين مظاهر البؤس الّتي رأيتها في المدينة المجاورة و بين حالة الترف او المتعة الّتي أعاينها أمامي و أدركْتُ حينها السبب الكامن وراء إرتفاع معدّلات الجريمة المحلّية في مقاطعتنا.

حصلت لي مرّة أثناء مكوثي في الكلّية حادثةٌ أكّدت قناعتي الراسخة في القدرات الهائلة الّتي يحوزُها العقل اللاواعي: مضيْتُ صباح أحد الأيّام لأحاضر في كلّية لوس أنجيليس و إتّفقنا أنا و جوي على أن نتقابل لاحقاً في منطقة ديزني لاند، و بعد أن إنتهت محاضرتي و مضيْتُ إلى ديزني لاند تفاجئْتُ أنّ المنطقة تضمّ عشرات الايكرات من المساحة و كان من المؤكّد أنّني سامضي اليوم بأكمله في البحث عن جوي من غير جدوى و لكنّ ما حصل فعلاً هو أنّني كنتُ في أقصى حالات الإنتشاء بعد أنْ قدّمتُ محاضرة ممتازة بصورة إستثنائيّة و كانَ يملؤني إحساسٌ متعاظم من الثقة الداخليّة و هكذا إسترخيْتُ تماماً و سمحْتُ لاقدامي أن تقودني إلى حيثُ عائلتي، و بعد أن تمشّيْتُ بضع مئاتٍ من الياردات إنعطفْتُ بإتّجاه محلّ لبيع الطعام المكسيكيّ و هناك وجدْتُ جوي و الأولاد معها !! و قد أكّدت هذه الحادثة فكرة كانت مترسّخةً لديّ لوقت طويل: تمتلك الكائناتُ البشريّة نوعاً من حاسّة سادسة تعملُ بطريقة مذهلة عندما نشعرُ بإسترخاء و تفاؤلٍ عميقيْن.

كانت واحدة من أهمّ الاحداث اللصيقة بالذاكرة أثناء سنتي الّتي قضيْتُها في كلّية هولينز هو سفرةٌ ذهبْتُ فيها إلى جامعة برانديس للقاء عالم النفس الذائع الصيت أبراهام ماسلو الّذي كان يشغلُ منصب رئيس قسم علم النفس في الجامعة، و ذهبتُ وحيداً في رحلتي تلك لأنّ جوي فضّلت البقاء مع الأولاد في المنزل، و إنطلقتُ في تاريخ لا زلتُ أذكره جيّداً: ١ تشرين ثانٍ ١٩٦٦، و إلتقيْتُ بمحض مصادفة رائعة في مطار بوسطن بشخصٍ كان يعمل آنذاك مساعداً لأبراهام ماسلو فأمضيْنا رحلتنا إلى جامعة برانديس معاً و نحن نتحدّث طول الوقت عن الفلسفة و السايكولوجيا. كنتُ رأيتُ من قبلُ بضعة صورٍ فوتوغرافيّة لِـ (آبي Abe) – هذا هو الإسم المتداول لأبراهام – بشاربه الصغير و شعره الممشّط بعناية و المدفوع إلى الخلف بالكامل و الغريبُ في الأمر أنّ صور آبي لم تكن لتوفّر أيّ إنطباعٍ عن خصلته الأكثر وضوحاً من بين كلّ خصاله الأخرى: دفؤه و رقّته و كياسة شخصيّته، و لديّ شعورٌ راسخٌ اليوم أنّ هذا الرجل كان واحداً من بين قليلين للغاية من البشر عرفتهم في حياتي كلّها ممّن يمكن أن أصفهم بكلّ ثقة بانّهم طيّبون للغاية و إلى حدود قلّما تجدُ نظيراً لها. تمثّلُ حياة ماسلو واحدةً من أهمّ الحكايات الّتي ينبغي أن تُروى: ولِد ماسلو في شقّة بائسة تقع في أحد نواحي بروكلين الفقيرة و كان أبوه مهاجراً يهوديّاً قدم من كييف و عمل في صناعة البَراميل ثمّ شيئاً فشيئاً تحسّنت ظروف عمله و إستطاع إمتلاك منزلٍ بمواصفات منازل الطبقة المتوسّطة، أمّا بالنسبة لوالدته فقد أخبرَني الرجل لاحقاً بأنّ والدته يمكن وصفُها بانّها " المرأة المولّدةُ للشيزوفرينيا ": إذ كانت لها قدرة فائقة على تحويل الناس إلى مجانين لانّها كانت إمرأة مكتئبةً كارهة لنفسها و هذا هو السبب الّذي جعل من اخ آبي الأكبر يقومُ على تربيته و كان حقّاً إمرءً بالغ الطيبة

و الإنسانيّة. كان ماسلو شخصاً بالغ الخجل و تعرّض إلى حملاتٍ سخرية شنيعةٍ من قبل الأطفال الإيطاليّين و الإيرلنديّين وهو ما جعله فرداً مُنكفئاً على نفسه و ميّالاً للقراءة المتواصلة لساعاتٍ طويلة و صارت مكتبة نيويورك العامّة بمثابة جامعته المحبوبة إلى قلبه، و مضى ماسلو في إثبات لمعانه و كفاءته كطالبٍ و لكنّه لم يكن سعيداً عندما إلتحق بكلّية مدينة نيويورك NYCC لدراسة القانون بناءً على رغبة والده لأنّهُ كان يمقتُ دراسة القانون إلى أبعد الحدود و حصل ذات يومٍ أن ترك كتبه ببساطةٍ في الكلّية و غادرها و لم يعد لدراسة القانون بعد ذلك أبداً و ظلّ طوال حياته مُخلصاً لما يحبّ: فقد أدرك آنذاك أنّه متى ما حاول توجيه عقله إلى أمرٍ يتسبّبُ في إحباطه و إصابته بالضجر فإنّ عقله سينتهي إلى فراغ كامل موحش و ستكون النتيجة المؤكّدة فشلاً خالصاً. كان ماسلو يُعاني مشكلة أخرى: فقد أحبّ إبنة عمّه بيرثا و لم يكن يمتلك شجاعة البوح لها بحبّه و لكنّ أخته دفعتْه ذات يوم و على حين غفلةٍ منه إلى أحضان بيرثا، ثمّ يمضي الرجل في وصف ما حصل لاحقاً بكلماته هو: " قبّلْتُ بيرثا، و لم يحصل شيء مكروه لأحد: إذ لم تسقط السماءُ من علياءها، و بدا أن بيرثا إستأنست بقبلتي و تلذّذت بها و كان هذا مفتتح عهدٍ جديد رائعٍ لكلينا " و كان من نتيجة هذا البوح أن تعزّزت ثقة الرجل بنفسه من جديد فمضى يدرسُ الفلسفة في الجامعة، و يرتادُ حفلات الكونشرتو و السمفونيّات، كما صار إشتراكيّ النزعة. تزوّج ماسلو من بيرثا مع أعياد الميلاد عام ١٩٢٨ و قرّر الإثنان الدراسة معاً في جامعة ويسكونسن و هناك نمت إهتماماتُ ماسلو بالسايكولوجيا و بخاصّة دراسة النزعة السلوكيّة Behaviourism بالإضافة إلى دراسة سلوك القطط و الكلاب، و بعد أن تخرّج الرجل من الجامعة وجد وظيفةً له في كلّية بروكلين

و ظلّ يدرّسُ فيها لمدّة أربعة عشر عاماً متّصلة حيثُ عمل أغلب وقته على دراسة أحوال الأطفال المنبوذين غير المرغوب فيهم و القادمين من مستوياتٍ إجتماعيّة واطئة و بعث فيه هذا العملُ إحساساً عالياً بالرضى عن النفس، و سأل الرجل بيرثا يوماً إن كانت ترغبُ في أن يجد له وظيفةً ذات مردودٍ ماليّ أعلى فأجابتْهُ بحسم: لا، إفعلْ ما تحبّ فعله و حسبُ و دعْكَ من كلّ الأمور الأخرى، و يعلّقُ ماسلو أنّ الأمور مضت منذ ذلك الحين في الإتّجاه الصحيح دوماً.

بدأت شهرةُ ماسلو كسايكولوجيٍّ لامعٍ تلقى التقدير المستحقّ و بدأت في ذات الوقت إهتماماته بالمديات الغير مسبوقة الّتي يمكنُ للوجود الإنسانيّ بلوغُها و صارت تلقى تعاطُفاً و إهتماماً هائلَيْن من قبل المجتمع السايكولوجيّ الّذي كان حتّى ذلك الحين مُنقاداً بالرؤية الفرويديّة الإستحواذيّة و تحت هيمنة فكرة العُصاب الجنسيّ العتيدة. كان ماسلو منذ بواكير حياته أقرب إلى (ألفريد آدلر) الّذي كتب كثيراً عن أهمّية الدور الحاسم لمشاعر الدونيّة في تشكيل العُصاب حتّى أنّه إخترع عبارة (التركيب المعقّد للدونيّة Inferiority Complex)، و رغم أنّ ماسلو مضى في إعتبار فرويد الأعظم بين علماء النفس غير انّ شعوراً طاغياً راودَني بأنّه فعل هذا لعدم رغبته في إستثارة المؤسّسة الفرويديّة الراسخة البنيان. كوفئ عمل ماسلو عام ١٩٥١ بمنحه وظيفة جامعيّة كَتدريسيّ في جامعة براندیس Brandies و بعد خمسة عشر عاماً حصل أن أمضيْتُ ثلاثة أيّام هناك مع ماسلو و جعلَني دفؤه و كياستهُ أدركُ السبب وراء نفوره من السايكولوجيا الفرويديّة: فقد كان خجله المبكّر و تعطّشهُ إلى الحنان و التعاطف يعنيان بالتأكيد أنّ أيّة سايكولوجيا يرغبُ فيها لا بدّ أن تحوي حيّزاً مناسباً للحبّ و التفاؤل و الإبداع و هو الأمر الذي كانت تفتقده السايكولوجيا الفرويديّة .

بكلّ وضوح، و بدا لي من اللحظة الأولى أنّ الرجل فضّل آدلر على فرويد بسبب شعوره بالدونيّة الّتي رافقت نشأته و بلوغه و هو ذات السبب الّذي جعل منه إنساناً محبّاً و عطوفاً و يشعُرُ بكثيرٍ من الإشفاق تجاه الكائنات البشريّة. عندما إقترح عليّ ناشري الأمريكيّ أن أكتب كتاباً عن ماسلو وافقْتُ من فوري و أبدى الرجل تعاوناً عظيماً معي فأرسل لي الكثير من التسجيلات و المواد غير المنشورة له في الأدبيّات العالميّة و كنتُ أعمل بكلّ جدّية على الكتاب عندما تلقّيْتُ رسالةً من سكرتيرته تعلمُني فيها بوفاته في ٨ حزيران ١٩٧٢.

كان ثمّة أخبارٌ طيّبةٌ تنتظرُني مطلع السنة الجديدة عام ١٩٦٧: ظهرت روايتي (القفص الزجاجيّ) في إنكلترا و لاقت نجاحاً نقديّاً مقبولاً ثمّ نُشِر بعدها بوقتٍ قصير كتابي الآخر (طفيليّات العقل) و لاقت هي الأخرى نجاحاً أكبر ممّا توقّعه ناشري و بدا أن سنوات العداء الّتي خلقتْها هستيريا (الشباب الغاضب) قد آلَتْ إلى إنتهاء. حقّق عملي (مدخل إلى الوجوديّة الجديدة) – الّذي نشر في أمريكا بعد بضعة أشهر من نشر الكتابين الاوّليْن – مبيعاتٍ ممتازة و بخاصّة بين طلبة الجامعات و ربّما ساهمت محاضراتي الّتي ألقيْتُها خلال جولاتي بين الكلّيات و الجامعات الأمريكيّة في تحقيق هذا الإنجاز و لكن في كلّ الأحوال كان من الممتع للغاية أن ترى النقّاد و قد توقّفوا عن مناوشاتهم المُؤذية معك.

بعد ستّة أشهرٍ من المكوث في كلّية هولينز بدأتُ أشعرُ أنّ هذه هي الحياة المثاليّة الخليقةُ بكاتبٍ: لا هموم ماليّة تنغّصُ حياته، وَالكثيرُ من المتعة و أوقات الفراغ المتاحة، و سفراتٌ دوريّة لإلقاء مُحاضراتٍ في أماكن أخرى من البلد، و بدأتُ أفكّرُ بجدّية في الإنضمام إلى

السلك التدريسيّ للكلّية بصفة أستاذٍ دائميّ ولكن راحت في ذات الوقت أفكارٌ أخرى تُراودُني: كانت الإشكاليّة آنذاك أنّ مكاناً مثل هولينز كان بالغ الراحة و الصّغر و بدا أنّ كلّ فرد في هولينز يعلم أدقّ التفاصيل عن حياة أيّ فردٍ آخر لذا تصوّرتُ أنّ المكوث في جامعةٍ أكبر من كلّية صغيرة مثل هولينز قد يكون حلّاً مناسباً لي و هكذا مضيْتُ و كاتبْتُ قسم اللغة الإنكليزيّة بجامعة واشنطن في سياتل لسؤالهم عن حاجتهم إلى كاتبٍ مُقيم إذ سبق لي أن إلتقيْتُ قبل سنتيْن خلت مع أحد أساتذة جامعة واشنطن في حفلةٍ بلندن وكان هو من إقترح عليّ فكرة العمل ككاتبٍ مقيم عندهم، و جاءني جواب الجامعة مُوافقاً و مرحّباً بإنضمامي للجامعة مع بداية السنة الأكاديميّة المقبلة، و سُعدْتُ للغاية بفكرة عدم إقتناعي بالمكوث طويلاً في كلّية هولينز: فكلّ الكتّاب يتوقون دوماً إلى حياةٍ مؤمّنةٍ من الناحية الماليّة و لكنّي أدركْتُ منذ وقتٍ مبكّر أنّ الكثير من الأمان يمكنُ أن يخلق نوعاً من الخدر الشبيه بالتنويم المغناطيسيّ و هو الأمرُ الّذي يقودُ في نهاية المطاف إلى التراخي عن المُضيّ في طريق التصميم و إنجاز الأهداف، و جعَلني إدراكي هذا أشعرُ كم أنا مدينٌ لملاكي الحارس الّذي حرص دوماً على وضعي في حالةٍ من الإفلاس المزمن !!.

* * * * * * * * * *

إنتهت السنة الدراسيّة سريعاً في كلّية هولينز و بدأت الفتياتُ بمغادرة الكلّية مع منتصف أيّار لقضاء العطلة الصيفيّة الطويلة، و مضيْنا أنا و جوي في حزم أمتعتِنا و كان يتوجّبُ عليْنا أن نحدّد ايّاً منها نبقيه في أمريكا و أيّاً منها نرسلها إلى إنكلترا، و لحسن الحظّ كنتُ قابلْتُ صديقاً لي في جولتي الأمريكيّة الأولى و هو أستاذ فلسفة يدعى (بات

ميرفي) و قد عرض علينا بكلّ كرم وضع بعض أمتعتنا في سرداب منزله و هكذا توجّب أستئجار ناقلة (تريلر Trailer) ضخمة لنقل أمتعتنا إلى نيويورك، و بعد قضاء يومين ممتعين مع عائلة صديقي بات و تناول أشهى أطباق السمك في مطاعم لونغ آيلاند مضينا انا و جوي و الأولاد إلى مطار إيدلوايلد و مع نهاية حزيران كنّا جميعاً في منزلنا الريفيّ الجميل في كورنوال.

١٨. سياتل

عُدنا إلى إنكلترا بعد إنقضاء سنتي التدريسيّة في كلّيّة هولينز الأمريكيّة و واجهْنا على الفور واحدةً من أشد الأزمات الماليّة الدوريّة الّتي تضرب الإقتصاد البريطانيّ بين حين و حين، و وجدْتُ رسالةً تنتظرُني من مدير البنك الّذي أتعاملُ معه يُطالِبُني فيها بأن أقلّل من قيمة المبلغ المسحوب على المكشوف و البالغ ألفَي جنيه، و عندما أعود بذاكرتي اليوم إلى أوقات الأزمات الماليّة الّتي رافقت ستّينات القرن الماضي ينتابُني العجبُ لسلوكي البالغ البرودة و الّذي واجهْتُ به تلك الأزمات و كأنّها أمورٌ عرضيّة متوقّعة و ربّما يمكنني فهم السبب وراء ذلك: فقد عشْتُ طفولتي في منزلٍ يعتاشُ على دخلٍ أسبوعيّ لا يتجاوزُ ثلاث جنيهاتٍ و عملْتُ بعد ذلك لسنواتٍ طوالٍ في مصانع و مكاتب لم توفّرْ لي دخلاً يزيدُ عن تلك الثلاث جنيهات إلّا أكثر بقليل و ها أنا الآن أعيشُ مع عائلتي في بحبوحة معقولةٍ من رفاهة العيش و كُنّا على الدوام نجدُ بحوزتنا من النقود ما يكفي لدفع تكاليف السفر و شراء النبيذ الجيّد و الطعام الشهيّ و الكتب الّتي لطالما أحببْتُ قراءتها، لذا كان من الطبيعيّ حتّى لو كتب مدير البنك لي ليذكّرني بضرورة تقليص نفقاتي أن أعتبر ذلك إشارة محبّبة و علامةً على إنتقالي إلى فئة الطبقة المتوسّطة و لم أكن أرى في الموضوع برمّته أكثر من هذا، ولكن من جانبٍ آخر كان الوقتُ الوحيد الّذي ربّما راودَني فيه مخاوف و قلقٌ بشأن أوضاعنا الماليّة هو منتصفُ الليل عندما كنتُ أنهضُ من نومي على غفلةٍ ثمّ أغوصُ في تفكير عميق بشأن ديوننا المتراكمة و ما

الّذي عساهُ سيحصلُ لي و لعائلتي لو نفد خزيني من الأفكار الصالحة لكتابة كتبٍ جيّدة ؟!! و كان يطوفُ برأسيُ حينها إقتباسٌ إعتاد أحد أصدقائي المولعين بالشرب ترديده بشأن " الكاتب الّذي يرى موت أعماله قبل أن يموت هو بذاته " و كنتُ أمضي في التساؤل المُنهِك للأعصاب: ما الّذي سيحصلُ لو حصل و نُسِيَ ذكري و أعمالي و أنا لّما أتجاوز الخمسين بعدُ؟ ما الّذي سيحصل لزوجتي جوي و الأولاد ؟ و لحسن حظّي كانتْ أفكارٌ قاتمةٌ مثل هذه تتلاشى عند فتح عيوني مع إطلالة كلّ صباحٍ جديد، و كان ثمّة أخبارٌ مُبشّرةٌ في صيف ١٩٦٧ تفيدُ بأنّ هوليوود مهتمّة بشراء حقوق روايتي (القفص الزجاجيّ) و كانت هذه الرواية حقّقت عند نشرِها مبيعاتٍ تقدّرُ بعشرة آلاف نسخة في إنكلترا و مثل هذا العدد في أمريكا، و تناهت إلى اسماعي بعد عودتي من كلّيّة هولينز أنّ المخرج الهولييوودي (جون شليسنجر) ينوي تحويل الرواية إلى فلم من إنتاج شركة باراماونت Paramount العالميّة و كان هذا يعني حُصولي على عشرة آلاف جنيْه يدفَعُ نصفُها عند توقيع العقد مباشرة و يدفعُ نصفها الآخر بعد سنة و كان هذا العرضُ مُرضياً لي لانّني لم أكن أجني أكثر من خمسة آلاف جنيه في السنة وقتذاك.

غادرْنا كورنوال أواخر آب ١٩٦٧ و وجدْنا الطقس سيّئاً للغاية في نيويورك حتّى أنّ طائرتنا لم تستطع الهبوط هناك فتمّ تحويل مسار الرحلة و الهبوط في مدينة هارتفورد بولاية كونيكتيكت، و بدا الأمرُ كما لو كان بشارةً سعيدةً غير متوقّعة و تشي بفألٍ طيّب: إذْ كنّا أعرْنا سيّارتنا في أمريكا قبل مغادرتها في المرّة السابقة إلى أصدقاء يقطنون مدينة هارتفورد و وفّرت علينا الطائرة مشاق رحلةٍ متعبةٍ لإستعادة السيّارة. ذهبْتُ على الفور لرؤية وكيلي الأدبيّ في نيويورك و إستلام

شيكٍ عن عملي (القفص الزجاجيّ) بقيمة خمسة عشر الف دولار محسوماً منها نسبة ١٠٪ كأتعاب و عمولة، و حوّلتُ نصف المبلغ المتبقّي إلى إنكلترا لتسديد جزءٍ من دينِنا المستحقّ للبنك و كان من شأن المبلغ الباقي معنا أن يجعلَنا نشعر بإسترخاء معقول و نحن نتهيّأ للسفر إلى سياتل بولاية واشنطن. إستغرقت السفرةُ من الساحل الشرقيّ للولايات المتّحدة إلى ساحلها الغربيّ ثلاثة أسابيع بمعدّل بلغ مائتي ميلٍ في اليوم، و جعلتْني هذه السفرةُ أدرِكُ لِمَ كان كيرواك مسكوناً بحالةٍ من الوجد الصوفيّ تجاه المساحات الشاسعة المفتوحة في أمريكا: فقد كانت هذه المساحات الشاسعة تولّدُ إحساساً بالرهبة و الخشوع في نفس الإنسان أزاء الطبيعة، إذ ما إن تغادرُ تلك المدن الصّناعيّة (مثل بافالو Buffalo) حتّى ينفتح الفضاء أمامك على مساحاتٍ لانهائيّة تمتدّ حتّى السواحل الباسيفيكيّة. في اليوم التالي لوُصولنا سياتل و بعد ثلاثة أسابيع من السفر المتواصل بالسيّارة حللْنا في منزلٍ صغير متواضع يبعدُ ميلين إثنيْن عن الجامعة و لم يكن يمتلكُ جاذبيّة منزلنا في هولينز و كانت أثاثه بسيطة وَغاية في التواضع، و ذهبَتْ جوي لاوّل مرّة للتسوّق في سياتل لغرض إعداد وجبة العشاء و عادت لنا بسمكٍ يدعى (الملتهم الأحمر Red Snapper) و الّذي أثبت فعلاً أنّه لم يكن ليقلّ جودةً عن الأسماك الّتي تناولناها في كورنوال. كان مديري الجديد في قسم اللغة الإنكليزيّة بِجامعة سياتل رجلاً ودوداً و متعاوناً يدعى (روبرت هيلمان) و لم يختلف كثيراً في خصاله الطيّبة عن (لويس روبن) مديري في كلّية هولينز، و أخبرَني روبرت أنّني سأدرّسُ أربع محاضراتٍ صباحيّة و محاضرتيْن مسائيّتيْن كلّ أسبوع، و مع أنّ جدولي التدريسيّ في سياتل كان مثقلاً بأعباء تدريسيّة أكثر من كلّية هولينز و لكن لم أجد أيّ مسوّغٍ للشكوى لأنّني كنتُ منشغلاً آنذاك

في كتابة كتابٍ عن شو و كان طبيعيّاً إستخدامُ هذا الكتاب كمقرّرٍ تدريسيّ في الدراسات الصباحيّة، كما أمكنني أيضاً تدريس مقرّرٍ في الفلسفة الوجوديّة إلى جانب أفكاري الخاصّة في المحاضرات المسائيّة، و مضت الأمورُ بهدوء و سلاسةٍ و أثبتت محاضراتي نجاحها المميّز إذ تضاعف عدد الحُضور خلال أسبوعٍ من بدء تلك المُحاضرات.

بعد يومٍ أو إثنيْن من وصولنا سياتل دُعينا إلى حفلةٍ أقامها قسم اللغة الإنكليزيّة ترحيباً بي و وداعاً للكاتب المقيم الّذي سبقني و كان شاعراً ويلزيّاً يدعى فيرنون واتكينز Vernon Watkins الّذي كان صديقاً لِـ (ديلان توماس)، و للأسف أخبرني رئيسُ قسمي أنّ فيرنون توفّى بعد بضعةِ أيّام بسبب نوبةٍ قلبيّة عندما كان يلعبُ التنس مع زوجته، و هنا قرّرتُ إتّخاذ وفاة واتكينز كتحذيرٍ صارمٍ لي و بدأتُ تنفيذ حميةٍ غذائيّة قاسيةٍ لتخفيف وزني. شجّعتْني جامعة واشنطن – كما فعلت كلّية هولينز من قبلها – على زيارة الكلّيات و الجامعات الأخرى و هكذا أمضيْنا أسبوعاً ممتعاً ألقيْتُ فيه محاضراتٍ في سان فرانسيسكو و مكثْتُ حينها في فندقٍ رخيص و قابلْتُ بعضاً من أصدقائي مثل: كينيث ريكسروث، لورنس فيرلينغيتي، و غيرهم من الذين إنعقدتْ بيني و بينهم أواصرُ صداقةٍ متينة خلال زيارتي السابقة لأمريكا، و ذهبْتُ وحيداً في جولتي هذه رغم أنّ جوي كانت ترغبُ كثيراً في مُرافقتي و لكن بدا من غير المُجدي صرفُ الأتعاب الّتي يمكن أن أحصل عليها من وراء مُحاضراتي في تسديد فواتير الفنادق. أمضيْنا أنا و جوي بعض الوقت في مدينة فانكوفر الكنديّة الّتي لم يكن الوصولُ إليها ليستغرق أكثر من سفرةٍ لبضع ساعاتٍ في السيّارة عبر الحدود الأمريكيّة – الكنديّة، و كان في المدينة جامعتان آنذاك: جامعة سيمون فريزر، و جامعة بريتيش كولومبيا و قد دعتْني الإثنتان لإلقاء محاضراتٍ

فيها، و كان ثمّة فرقٌ جوهريّ بين تدريس الطلبة متوسّطي العمر من النساء و الرجال و بين تدريس الطلبة الصغار مثل الفتيات اللواتي درّستهنّ في كلّية هولينز: فالصغارُ يدرسون لأنّ والديْهم هم من يسدّدون تكاليف دراستهم و يتكفّلون بمصاريفهم الجامعيّة و حسب، أمّا الطلبة الأكبرُ عمراً من النساء و الرجال فيدفعُهم تعطّشٌ عارمٌ إلى التعلّم و المعرفة و تستحوذُ عليهم فكرة أنّ نصف أعمارهم إنقضتْ هباءً و يرغبون في البحث عن معنىً لحياتهم المتبقّية قبل فوات الأوان، و كان عالم النفس (يونغ) لاحظ من قبلُ أنّ معظم مرضاه المتوسّطي العمر كانوا يعانون من اللاجدوى و غياب المعنى في حياتهم.

* * * * * * * * * *

بعد إنتهاء جولة إلقاء المُحاضرات في مدينة فانكوفر الكنديّة قرّرْنا أنا و جوي قضاء عطلةٍ في إنكلترا و عقدْنا العزم على السفر بحراً على ظهر سفينةٍ تدعى (تشوسان Chusan) فقد رأيْنا في السفر عبر البحر أكثر طرق السّفر راحةً، و لا زلْتُ أتذكّرُ المتعة الطاغية الّتي غمرتْني و نحنُ نغادرُ ميناء سياتل بإتّجاه مضيق بنما و من ثمّ المحيط الأطلسيّ و كان ذاتُ الشّعور غمرني قبلَ تسع سنواتٍ عندما أبحرْنا مُغادرين هلسنكي و ألقيْتُ حينها نظرة أخيرةً على الجزر المغمورة بضوء الشمس المتوهّجة، و قد أسميْتُ هذا الشّعور " الوعي الممتع المرتبط بالعطلة ". عندما وصلت سفينتُنا سواحل لونغ بيتش في كاليفورنيا صعدت فتاةٌ أمريكيّة غريبة الأطوار تُدعى (كاثي) على ظهر السفينة و إنضمّت إليْنا في تناول الشراب: كانت كاثي فتاةً مُصابة بإضطراباتٍ شيزوفرينيّة و إعتادت بعد نشر اللامنتمي كتابة رسائل إليّ تستخدِمُ فيها ألواناً متعدّدة و كانت السطورُ زاحفةً الواحد فوق الآخر، و سبق

لِكاثي أن زارتْنا في كلّية هولينز من قبلُ بصحبة شخصٍ يبدو عمرهُ بقدر ضعف عمرها و بدا عليها بقايا جمالٍ ذابلٍ ذوى بتأثير التبعات المؤذية لإضطرابها العقليّ. كان سلوكُ كاثي يعكسُ إنطباعاً بأنّها مولعةٌ بي إلى حدّ أنّني بتُّ أستحوِذُ على قلبها و عقلها ربّما بسبب أنّها تفاعلت مع حسّي التفاؤليّ و بان عليها الإنشراحُ و السعادةُ، و كانت ترى فيّ على الدوام علاجاً لمشاكلها العقليّة الخطيرة، و من جانبٍ آخر جعلتْني كاثي أدركُ أنّني لو ضاقت بي سبلُ العيش يوماً ما فيمكنُ لي في أسوأ الإحتمالات تحصيلُ معيشتي من وراء العمل كطبيبٍ نفسيّ !!، و عندما غادرت كاثي ظهر السفينة بعد أن أفاقت من ثمالتها إحتضنتْني و قبّلتْني بقوّة و تصرّفت كما لو أنّ جوي لم تكن موجودةً معي !!. أحبّ الأطفالُ الرحلة البحريّة و بخاصّة العومَ في المسبح المفتوح على الهواء الطلق في ظهر السفينة و كانوا يستمتعون غاية الإستمتاع عندما يكون البحر هائجاً إذ كانوا يصعدون و يهبطون في ماء المسبح كقطع فلّين بينما كنتُ أنا و جوي نراقبهم و نحن جالسان على مقاعدنا في ظهر السفينة. كان السّفر قبل أربعين سنة و للمسافات الطويلة يمضي على هذا النحو و لطالما رأيْتُ في الرحلات البحريّة الطريقة الأكثر تحضّراً و رقيّاً في السفر عوضاً عن قضاء تسع ساعاتٍ متّصلة و أنت مربوطٌ إلى مقعد طائرة !!. بعد وصولِنا ميناء كينغستون Kingston في جامايكا مضيْنا لشرب بعض المشروبات في حانةٍ وسط البلد و عند عودتنا إلى ظهر السفينة مررْنا ببعض البيوت العتيقة المصنوعة من طبقات الحديد المضلّع الصدئ و راح سكّانها السود يصرُخون في وجوهنا " أيّها البيض،،، عودوا لبلدكم !! " و هو المشهد الّذي ذكّرني على الفور بما رأيتُه في هولينز من قبل و تعزّزت لديّ فكرة أنّ العالم مُقسّمٌ بطريقةٍ قاسية و إعتباطيّة بين مدقعي الفقر

و ميسوري الحال الّذين كان بمكننا آنذاك أن نُعدّ أنفسنا منضوين في فئتهم. كان نيل – الأخ الأصغر لزوجتي جوي – ينتظرُ وصولنا في ساوثهامبتون بعد أربعة أسابيع من صعودنا ظهر السفينة تشوسان و كان يقودُ سيّارة جاكوار مستعملة أوصتْهُ جوي بشراءها لنا فركبناها على الفور و مضيْنا بها عائدين إلى منزلنا في كورنوال.

عند عوْدتنا إلى كورنوال و جدْنا منزلنا و قد تغيّرت هيئته بالكامل: كان بنّاءٌ محلّيٌّ يدعى السيّد تشارلز – و يعمل سائق تاكسي أيضاً – عرض عليْنا توسيع المنزل و إضافة بعض البناء إليه و نحن في أمريكا، و كان المطبخ في منزلنا بالفعل صغيراً للغاية إلى حدّ بات فيه مصدراً لشكوى جوي المستمرّة فأعطيْنا إشارة الموافقة للسيد تشارلز الّذي مضى في عمله و صار المطبخ بحدود ثلاثة أضعاف مساحته الأصليّة كما شيّدت غرفة إضافيّة للأولاد يمكن لهم فيها ممارسة لهوهم و لعبهم و مشاهدة التلفاز خلال المساء، و كان السيد تشارلز متفائلاً للغاية وَقدّر تكلفة التوسيعات بما لا يتجاوزُ الألف جنيه في أسوأ الظروف و حرصنا على إرسال المبلغ إليه من أمريكا، و لكن ظهر مع ختام العمل أن حسابات الرجل كانت ممعنة في تفاؤلها و تكلّفنا ثلاثة أضعاف المبلغ الأصليّ الّذي إتّفقنا عليه.

لم يكن ممكناً بعد وصولنا إلى كورنوال المضيّ في إعتمادي على مبلغ الألف دولار تقريباً الّتي كنتُ أجنيها كمعدّلٍ شهريّ من وراء إلقاء المحاضرات و كان عليّ أن أشمّر عن ساعديّ و أركن إلى قلمي و ما يجود به كما إعتدْتُ من قبل سفري إلى أمريكا، و راودني القلقُ من أيّ إتّصال قد يأتيني من مدير البنك يخبرُني فيه بعدم جواز المضيّ في السحب على المكشوف من حسابي البنكيّ و لكن حصل العكس

تماماً: فقد إتّصل بي مدير البنك و أعلمَني أنّ لديّ رصيداً في البنك بقيمة سبعمائة جنيه و كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي لم أكن فيها مديناً للبنك بأيّ مبلغ خلال عشر سنوات !!، و تعزّزت سعادتُنا بعد بضعة أسابيع عندما إستلمْنا شيكاً بقيمة خمسة آلاف جنيه من شركة باراماونت عن المبلغ المتبقّي من حقوق روايتي (القفص الزجاجيّ).
مضيْتُ في العمل على كتابي الّذي بدأته عندما كنتُ في سياتل و أسميْتهُ (رواية الزمان The Time Novel) و لكنّه نُشِر لاحقاً تحت عنوان (حجر الفيلسوف The Philosopher"s Stone) و أنهيْتُ العمل عليه في شهر تمّوز ثمّ مضيْتُ على الفور في كتابة نسخة نهائيّة من كتابي عن برنارد شو و إستمرّ العمل عليه حتّى تشرين أوّل، و بعدها بدأتُ من فوري على العمل في تأريخ الجريمة و صارت مسوّدتي تلك بمثابة بروفة أوليّة لعملي اللاحق (التأريخ الإجرامي للجنس البشريّ A Criminal History of Mankind) و عندما أعود إلى مذكّراتي اليوم أقرأ فيها أنّني بدأتُ العمل على هذا الكتاب في اليوم اللاحق بالضبط لإنتهاء عملي على كتاب برناردشو في منتصف تشرين أوّل و أنهيْتُ العمل فيه قبل أسبوعٍ من أعياد الميلاد: كنتُ آنذاك كما يبدو قد تحوّلتُ إلى ماكنةِ كتابة. بدأتُ بعد ذلك بكتابة كتابٍ إخترْتُ له عنواناً أصليّاً هو (الشعر و الزن Poetry and Zen) و قدّمته كهديّة و عربون إعتذارٍ عن خطأٍ أرتكبْته بحقّ صديقي (لورنس فيرلينغيتي) و كنتُ بدأتُ العمل عليه قبل أسبوعٍ من أعياد الميلاد و أنهيْته يوم ٣ كانون ثانٍ ١٩٦٩، و بدأتُ بعدها و على الفور بالعمل على نسخةٍ جديدة من كتابي (الغرفة السوداء) و لكنّ الإحباط الّذي أصابني بعد أسبوعيْن من بدء العمل جعلني أعدلُ عن المضيّ فيه و فكّرتُ بكتابة جزءٍ ثالث من سلسلة رواياتي عن جيرارد سورم Gerard Sorme

و كان دافعي وراء هذا هو مقالةٌ كنتُ قرأتها في الديلي تلغراف و تحدّثت عن حجم الخلاعة التي كانت تسود الأعمال الأدبيّة آنذاك و ورد إسمي في سياق الحديث عنّي كمثالٍ لكاتبٍ جادّ يطمحُ في إضافة بعض التوابل الخلاعيّة إلى أعماله بقصد تحقيقها لمبيعاتٍ أعلى ، و آلمني هذا الكلام كثيراً و رأيتُ فيه إفتئاتاً و بهتاناً بحقّي: ففي أحدث أعمالي (طفيليّات العقل) و (حجر الفيلسوف) لم تكن ثمّة إشارة – و لو صغيرة حتّى – إلى الجنس على الإطلاق و لكن جعلتْني مقالة الديلي تلغراف من جانب آخر أعمِلُ تفكيري بهدوء و تمحيص و تذكّرتُ أنّني عندما كنتُ في هولينز إبتعْتُ كتاباً بعنوان (حياتي السرّية My Secret Life) و هو في الأصل مذكّراتٌ منسوبةٌ لرجلٍ نبيلٍ فكتوريٍّ مجهول الإسم و دهشتُ وقتها لأنّ الرجل بدا و كأنّ عقله لم يكن ليفكّر بشيءٍ سوى البحث عن الجنس و لكنّ الموضوعة المثيرة في الكتاب بأكمله هي أنّ الكاتب إعتقد برسوخٍ أنّ الرغبة الجنسيّة المتّقدة يمكن لها أن تقوده يوماً إلى تخوم البصيرة الصوفيّة، و هكذا وضعْتُ مخطّطاً لروايةٍ جديدة بعنوان (قدّيس الجنس The Saint of Sex) التي رأيتُ فيها نسخةً محدّثة من رواية (حياةُ آثم عظيم The Life of a Great Sinner): الرواية التي كان دوستويفسكي خطّط لكتابتها و لم يحالفه الحظّ في نشرها. لعبت قصص خورخي لويس بورخس هي الأخرى دوراً مميّزاً في التأثير على طبيعة كتابي الموعود القادم و بخاصّة قصّة بورخس التي تحكي عن محاولة خلق إنسيكلوبيديا لعالمٍ جديد يختلفُ تماماً في لغته و أفكاره و أنماطه الذهنية و المعرفيّة عن تلك المتداولة في عالمنا، و سبق لي أن اهديْتُ بورخس نسخةً من كتابي (حجر الفيلسوف) و إستلمْتُ لاحقاً رسالةً رقيقة من والدته تقولُ فيها أنّ ولدها كان شبه أعمى بالكامل و لم يستطع الردّ بنفسه

على رسالتي و بعث تحياته الحارّة لي، و هكذا نشأت من هذه الخلطة الغريبة من الأفكار فكرةُ كتابي الجديد (إله التيه The God of the Labyrinth) الذي جعلْتُ من عنوانه تلويحة تحيّة و إطراءٍ لبورخيس و أعماله. تسبّب تأخير نشر كتابي (إله التيه) في فرض ضغوطٍ قاسيةٍ على مدخولي المالي و كان مطلوباً منّي آنذاك إتّخاذ خطوة عمليّة لتدارك ضائقتنا الماليّة و جاء العون بالفعل و على نحوٍ غير متوقّعٍ منّي: كتبَ إليّ صديقٌ أمريكيّ آنذاك يدعى (ميلين براند Millen Brand) – و يعمل محرّراً في دار نشر كراون Crown – رسالةً يسألُني فيها التفكير بكتابة نسخةٍ مبكّرة من سيرتي الذاتيّة الّتي أسميتُها لاحقاً (رحلةٌ نحو بدايةٍ ما Voyage to a Beginning) و كان سبق لصديقي ميلين أن كتب روايةً سايكولوجيّة مرموقة عنوانُها (النومُ الوحشيّ Savage Sleep) بنى فكرتها على عمل الدكتور جون روزن John Rosen: السايكولوجيّ الفرويديّ الّذي طوّر تقنيّاتٍ لعلاج المرضى الذهانيّين الّذين كانت المستشفياتُ ترفضُ إستقبالهم أو تقديم أيّ علاجٍ لهم، و كنتُ قرأتُ هذه الرواية بعد فراغي من كتابة (إله التيه) و رأيْتُ حينها أنّ الوقت حان لولوجي عالم الرواية السايكولوجيّة و قرّرْتُ البدء في كتابة روايةٍ تحكي عن التطوّر السايكولوجيّ لقاتلٍ جنسيّ، و تشير يوميّاتي أنّني بدأتُ العمل يوم ٢ أيّار ١٩٦٩ في كتابة هذه الرواية الّتي إخترْتُ لها عنواناً أوّليّاً هو (لينغارد Lingard) و عملْتُ عليها بمعدّل ثلاثة آلاف كلمة في اليوم و أنهيْتُ كتابتها بعد أربعة أسابيع بالضبط، و حصل أنّ ناشري البريطانيّ أصرّ على حذف بعض الفقرات بالإضافة إلى صفحتيّن كاملتيْن من النص الأصليّ كما غيّر العنوان إلى (القاتل The Killer) في حين نشرَ الكتابُ ذاته كاملاً في أمريكا و من غير حذف أي فقرةٍ و بذات العنوان الأصليّ للكتاب.

وجدْتُ نفسي بعد سنةٍ أعقبت عودتي من سياتل في أمريكا و قد كتبْتُ ستّة كتب: حجر الفيلسوف، برنارد شو، كتيّب تاريخ القتل، الشعر و الزن (الّذي نُشر لاحقاً تحت عنوان: الشعر و التصوّف)، إله التيه، القاتل،،، و بدا أمراً سخيفاً للغاية المضيّ في العمل على تلك الوتيرة المرهقة لا لشيءٍ إلّا لمجرّد كسب العيش لذا فكّرتُ بجدّية في إمكانيّاتٍ أخرى لكسب المال، و كمثالٍ على ذلك ساورتْني فكرة الكتابة لهيئة الإذاعة البريطانيّة BBC لإقناعها بإنتاج وثائقيّ يحكي عن تاريخ الجريمة و يتبع ذات السياق الّذي إتّبعه الوثائقيّان السابقان: الحضارة Civilization لِـ (كينيث كلارك)، و إرتقاء الإنسان The Ascent of Man لِـ (جاكوب برونوفسكي) و بدا لي هذا حلّاً ممتازاً و لكن فكّرتُ في ذات الوقت بإمكانيّة أفضل بكثير: العملُ في وظيفةٍ أكاديميّة دائميّة في أمريكا الّتي تضمّ العديدَ من الكلّيات و الجامعات الّتي أبدتْ رغبةً في الأستفادة من إمكانيّاتي التدريسيّة و لكنّ المشكلة كانت عدم رغبتي في مُغادرة منزلي في كورنوال و الذهاب إلى بلدٍ ثانٍ غير بريطانيا و فضّلْتُ على الدوام البقاء وسط كتبي و أسطواناتي الموسيقيّة و كذلك مراقبة أطفالي و هم يكبرون في أجواء الريف البريطانيّ، و لكنّ المستقبل كان يخبّئُ لي ما لم يكنْ في الحسبان: ففي السنة الّتي عدْنا فيها من أمريكا كتب إليّ الناشر الأمريكيّ (سكوت ميريديث) بإقتراح كتابة كتابٍ عن موضوعة (الغامض و السحريّ و المستعصيّ على الفهم البشريّ The Occult) الّتي كنتُ أشعرُ تجاهها بقليلٍ من الإهتمام، و أثبتَ إقتراحُ ميريديث بصورة مؤكّدةٍ كونهُ نقطة تحوّلٍ حاسمة إلى أبعد الحدود في تأريخ حياتي بأكملها.

١٩. أيّامٌ في مايوركا المتوسّطية

كانت حكاياتُ الأشباح تمثّلُ مصدر متعةٍ لي لاحدود لها على إمتداد سنوات حياتي و لطالما حكت لي إحدى جدّاتي الكثير منها و كانت هي بذاتها ذات إهتمام عظيم بالروحانيّات، لذا كانَ متوقّعاً أن أنشأ و أنا مقتنعٌ بالأمور الروحانيّة و أذكرُ أنّني قبلْتُ فكرة الحياة بعدَ الموت و أنا لم أتجاوز السادسة من عمري بعدُ. في الأيّام المبكّرة من الحرب العالميّة الثانية نشرت صحيفة (Sunday People) سلسلةً كان يداومُ على كتابتها آنذاك مارشال الجوّ (دودنك Dowding) و حكى فيها عن تجارب مابعد الموت الّتي إختبرها أحد العاملين في القوّة الجوّية و كما رواها وسيطٌ روحانيّ، و كان عامل القوّة الجوّية الميّت وصف العالم الآخر بكونه لا يختلفُ كثيراً عن عالمنا المعهود بإستثناء غياب كلّ موجبات القلق و إنعدام الراحة فيه، و أذكرُ أنّني قرأتُ السلسلة حينها كاملةً بشغفٍ و تشوّق عظيمين. إحتوت مكتبتُنا المحلّيةُ في ليستر و المسمّاة القديس بارناباس St. Barnabas قسماً ممتازاً يختصّ بالبحوث الروحانيّة و قرأتُ كلّ ما طالتْهُ يداي فيها و بخاصّة أعمال الكاتب هاري برايس Harry Price : المنزل الأكثر سكنى بالأشباح في إنكلترا The Most Haunted House in England، إعترافات صائد أشباح Confessions of a Ghost Hunter، روحٌ شرّيرة فوق إنكلترا Poltergeist over England،،، و لكن حصل وأنا بعمر العاشرة أن تملّكني شغفٌ آخر طغى على إهتماماتي الروحانيّة: العلم، و كان ميلي إلى العلم أمراً شبيهاً بالتحوّل الدينيّ و وفّر لي هذا التحوّل

إنعتاقاً من ضغوطٍ خانقة كنتُ أعانيها و أنا أكبر وسط بيئةٍ عمّاليّة و دفعني نحو آفاقٍ رحبة يملؤها شغفُ معرفة النجوم و الكواكب و الفيزياء الذرّية، و عندها بدأتُ أرى في الإهتمامات الروحانيّة أمراً سخيفاً و غير ذي صلةٍ بالمعرفة العلميّة الرصينة و بتُّ أرى في الحياة بعد الموت محض تعبيرٍ ساذج عن تفكيرٍ رغائبيّ Wishful Thinking، و بعد أن تبخّر إهتمامي بالعلم و أنا في السادسة عشرة بدأت أحلام الكتابة تُراوِدُ مخيّلتي ومنذ ذلك الحين عقدْتُ العزم أن أكون كاتباً و أن أنظر بإشمئزاز تجاه كلّ ما يمتّ بصلةٍ لعالم الروحانيّات و الظواهر الفائقة للطبيعة على الرغم من أنّ معضلة الحياة البشريّة و الوجود الإنسانيّ ظلّت على الدوام ميداناً لتساؤلاتي و شكوكي الّتي لا تنتهي و لكنّني شعرْتُ على الدوام أنّ الإجابة المناسبة لهذا النوع من التساؤلات لن تكون منطقيّة على نحوٍ مقبول متى ما جنحت عن جادّة العلم الصرف و المعرفة العقلانيّة المنضبطة و إندفعت صوب العوالم الروحانيّة، و عندما سافرْتُ إلى أمريكا خلال الستّينات كنتُ أبتاعُ معظم الوقت كتباً حديثة عن الأشباح و بعث الموتى و الصحون الطائرة و القارات المفقودة من اكشاك بيع الكتب في المطارات و ذلك بغية التمتّع بقراءتها أثناء الرحلات الجوّية الطويلة.

عندما عرض عليّ الناشر الأمريكيّ (سكوت ميريديث) إقتراحاً بكتابة موسوعة (السحريّ و الغامض The Occult) لحساب شركة راندوم هاوس Random House شعرْتُ بادئ الأمر بإمتعاضٍ عظيم برغم الإنفجار الكبير حينها في نشر هذا النوع من الأدبيّات في الستّينات و الّذي بدأ مع نشر (صباح السَّحَرة The Morning of the Magicians) للكاتب لويس باولس Louis Pauwels وَ جاك بيرغير Jacques Bergier الّذي سرعان ما حقّق أفضل المبيعات بين الكتب،

و بعدما بدأتُ بقراءة الكتاب وجدْته خليطاً من الصحون الطائرة، و قارة أتلانتس المفقودة، و الخيمياء، و كُتّاب من أمثال آلستر كرولي Aleister Crowley وَ إج. بي. لوفكرافت H. P. Lovecraft، و تخمينات بأنّ هتلر كان عضواً في عصبة أخويّة غامضة،،، و بدا لي الكتاب محشوّاً بأمور غير منطقيّة إلى حدّ لم يمكنني معه من إكمال قراءته. حصل أن كنتُ في ضائقةٍ ماليّة حادّة عندما عرض عليّ الناشر ميريديث أمر كتابة موسوعة (السحريّ و الغامض) لذا لم أرغب في تحميل الأمور فوق ما تحتمل و رأيْتُ أنّ من غير الملائم تفويت فرصةٍ كهذه و بخاصّة أن دار نشر راندوم عرضت عليّ مبلغ ٤٠٠٠ دولار أمريكيّ كما وجد وكيلي الأدبيّ البريطانيّ ناشراً بريطانيّاً هو دار نشر هوتشيسون Hutchison الّتي أبدت إستعدادها لنشر الكتاب في بريطانيا.

حصل صيف عام ١٩٦٨ أنّ كاتباً يدعى (روبـرت دي ماريا Robert De Maria) – الّذي كان على معرفة بصديقي بات ميرفي – قدم لزيارتنا في كورنوال و كنّا إلتقيْناه من قبل في لونغ آيلاند، و أخبَرَنا أنّ ثمّة قسم جديد أستحدِث لتدريس الكتابة الابداعيّة في كلّية دولنغ Dowling College في جزيرة مايوركا و وجّه لي دعوةً لقضاء ثلاثة أشهرٍ هناك بصفة كاتبٍ مقيم. إستطابت نفسي فكرة قضاء فترة تدريسيّة هي بمثابة عطلة طويلة في إحدى الجزر المتوسّطية و بخاصّة أنّني كنتُ منهكاً بعد كتابة ستّة كتبٍ دونما راحةٍ لذا قبلْتُ العرض على الفور، و كان ثمّة دافعٌ آخر لي لقبول العرض: علمْتُ أنّ الكلّية كانت قائمةً وسط قريةٍ تدعى (ديا Deya) حيث كان يُقيمُ الكاتب روبرت غريفس Robert Graves الّذي أعجبْتُ بكتابه (الآلهة البيضاء The White Goddess) و بخاصّة الموضع الّذي حاجج

فيه أنّ العبادة السحريّة للقمر تمّ إستبدالها بالعبادة الذهنيّة للشمس و أنّ العبادة الأخيرة هي الّتي شكّلت لاحقاً الجذور العقلانيّة للعلم الحديث، و كنتُ توّاقاً للغاية لسؤال غريفس عن رأيه في كتابتي لكتابٍ يتناولُ الظواهر السحريّة و الغامضة و المستعصية على الفهم البشريّ الإعتياديّ.

غادرْنا كورنوال جميعاً في أيلول ١٩٦٨ بإتّجاه جزيرة مايوركا و أصرّت سكرتيرتي الّتي تعمل مَعي بدوامٍ جزئيّ على مرافقتنا مع بناتها الثلاث لأنّها كانت تشكو آنئذٍ من مشاكل زوجيّة مرهقة و رأت أنّ الإبتعاد عن بيتها لثلاثة أشهر ربّما سيكون الحلّ الأمثل لتلك المشاكل. عند وصولنا مايوركا مُنِحنا منزلاً يقعُ منتصف الطريق إلى أعلى تلّة تدعى (فينا فيغا Vina Viega)، و كان للمنزل ساحةٌ أماميّة مرصوفةٌ بالحجارة و حديقة في باحته الخلفيّة و كنّا نحصلُ على مياه الشرب من بئرٍ تخزنُ فيه مياه الامطار المنسابة إليه من سقف البيت، و في ليلتنا الأولى صحوْنا منتصف الليل على أصواتٍ قويّة فوق رؤوسنا كما لو كان هناك من يلعبُ كرة قدم على سطح المنزل و علمْنا لاحقاً أنّ الصوت كان لفئران إعتادت النبش بعد منتصف الليل، و بقينا تلك الليلة يقظين حتّى غاب الصوت بعد أن تعبت الفئران من النبش !!، و في صباح اليوم التالي قيل لنا أنّ تلك الفئران كانت من ذلك النّوع الّذي يَعتاشُ على بقايا الفاكهة و ليس من ضررٍ وراءها و عرفتُ سببَ تكاثرِها: فقد كان ثمّة خندق يقع قرب القرية و إعتاد الناسّ رمي فضلات الفاكهة فيه ممّا شكّل مرتعاً خصباً لتكاثرالفئران فيه، و عند حلول الشتاء و موسم الأمطار كانت مياه المطر تملأ الخندق و تجرف بقايا الطعام نحو البحر و كانت الفئران تختفي مع تلك المياه، و هكذا إعتدْنا سماع أصوات الفئران في الأيّام اللاحقة و تعلّمنا كيف ننامُ

من غير أن نلقي بالاً لأصواتها. كان يقبعُ أسفل التلّة الّتي يقع منزلنا على سفحها و على مبعدة بضع مئاتٍ من الياردات عن الباب الأماميّ للمنزل حانةٌ و مطعمٌ تباعُ فيها أنواعٌ ممتازة من النبيذ الأحمر و الأبيض و الّتي كان الكأس منها يكلّفُ بقدر ما يكلّفُ كأس عصير الليمون في إنكلترا، و كان الطعامُ رخيصاً و شهيّاً و هنا عرفتُ لَمَ كان الكاتب روبرت غريفس يعيشُ في هذه القرية الساحرة. أمضيْتُ الايّام الأولى من إقامتي في القرية و أنا أعملُ في غرفة النوم الّتي كانت أفضل إضاءةً من باقي الأمكنة في المنزل، و مضيْتُ في تنقيح روايتي (القاتل) و توسيع كتابي (الشعر و التصوّف) بإضافة بعض الفصول إليه عن ييتس، و روبرت برووك، و كازانتزاكيس. لم أكن قابلْتُ غريفس من قبلُ و حصل فعلاً و قابلْته في حفلةٍ بمنزل إبنه و تبادلْنا بضع كلماتٍ و أخبرْته أنّني سأقدّمُ له كتابي المنشور عن شو هديّةً وَ سأوصلها بنفسي إلى منزله الّذي يقع خارج حدود القرية، و رأيْتُ في الرجل شخصاً فارع الطول بشعرٍ رماديّ و أنفٍ مكسور و كانت تبدو عليّه بوضوح لا تخطوْه العين ملامح الطبقة الإنكليزيّة الأرستقراطيّة الّتي نالت تعليماً أكسفورديّاً راقياً. مضيْتُ في اليوم الّذي أعقب الحفلة مباشرة و مشيْتُ بإتّجاه منزل غريفس و قابلتُ زوجته بيريل Beryl: المرأة الجذّابة الفاتنة الّتي أخبرتْني أنّ زوجها كان يتنزّهُ على طول الساحل، فوقّعتُ نسخة الكتاب الّذي أخذْته معي و تركْته معها و عدْتُ إلى المنزل، و لم أكن أدري بصراحة إلى أيّ حدّ كنتُ راغباً في رؤية غريفس و التحدّث معه: فقد سبق لي قراءة سلسلة كتبه المعنونة كلوديوس Claudius و رواية يسوع الملك King Jesus و كنتُ أعلمُ أنّ غريفس يرى في نفسه شاعراً رغم أنّ نفسي لم تلقَ أي إستساغة لشعره على الإطلاق لانّه بدا لي مفتقراً إلى الموسيقى بصورة فظيعة كما أنّني لن أنسى أنّ الرجل

كان إنتقد ييتس بقسوة مفرطة خلال محاضراته عن الشعر في جامعة أكسفورد و كنتُ أنا من جانبي أرى في ييتس الشاعر الأفضل في القرن العشرين لذا لم يكن ثمّة مشتركاتٌ بيني و بين غريفس تشجّعني على الحديث معه. تسلّمْتُ صباح اليوم التالي ملاحظةً من بيريل تطلب فيها مشاركتي زوجها غريفس كأساً من الشراب في منزلهم و ربّما السباحة لاحقاً معه في الساحل القريب من المنزل، و ذهبْتُ مشياً في الساعة الثالثة عصراً نحو منزل غريفس و وجدْتُ الرجل وحيداً فأخذني في جولةٍ سريعةٍ للتمتّع بحديقة منزلهم، و عندما سالته عن تي. إي. لورنس – الّذي كان يعرفه عن قربٍ – بانت إمارات الإنزعاج على وجه الرجل و أهمل سؤالي تماماً و بدا كما لو كان يريد القول: و هل تتوقعُ منّي البوْح بتفاصيل مخفيّة عن حياة صديقٍ مقرّب لي لشخصٍ يبدو لي غريباً تماماً ؟. أدلى غريفس أثناء واحدةٍ من جولاتِنا المشتركة اللاحقة بملاحظةٍ ظلّت عالقة في ذهني: الشّعر الحقيقيّ يُكتبُ في البعد الخامس، و جاهدْتُ طويلاً في معرفة مقصده حتّى أدركْتُ أخيراً أنه يعني (الحرّية)، كما أخبرني بملاحظةٍ أخرى بخصوص القوى الغامضة و هي أنّ الكثير من الشباب يستعينون بنوعٍ من الشعائر و الطقوسيّات لإغواء النساء و لاقت فكرته هذه هوىً في نفسي فقد كنتُ أعلم منذ زمن بعيد أنّ محترفي غواية النساء المتمرّسين يستعينون بشيءٍ هو أقربُ إلى التنويم التيليباثي لجذب نظر من يبتغون غوايتها من النساء و حدسْتُ على الفور ماكان غريفس يعنيه بملاحظته تلك: إنّك لو إنجذبْت إلى فتاةٍ ما و ركّزْت طاقتك العقليّة بصورةٍ قصديّة في حفز غوايتها فستتحقّقُ الغوايةُ حتماً كما لو أنّك أعطيْت الإذن لقوّة سحريّة بأن تنهض من سُباتها و تفعل فعلها السحريّ في تلك الفتاة. كان غريفس – كعادة جميع الرومانتيكيّين

– مفتوناً بالنساء و رأى فيهنّ " ربّات الإلهام " و تجسيداً للبضمة الأنثويّة الخالدة في العالم، و كان في القرية فتاة مراهقة بشعرٍ أسود و كانت إبنةَ أحد الأمريكان الأثرياء الّذين إعتاد الكثير منهم السكن في قرية ديا، و علمْتُ أنّ تلك الفتاة كانت " ربّة الإلهام " للشاعر غريفس و كانت تحضر محاضراتي على نحوٍ منتظم و بدت لي فتاة حلوة أربكَها هيام الشاعر الأكبر عمراً بها، و من جانبها لم ترغب أبداً أن تكون ربّة الإلهام لأحد. كان غريفس في الثامنة و الأربعين حينذاك و إعتاد القول كلّ ليلة و قبل خلوده إلى النوم أنّه ليس واثقاً إنْ كان سيصحو حيّاً في صباح اليوم التالي و لكن يبدو أنّ ظنّه خاب بعد أن عاش حتّى بلغ التسعين !!. عندما تناولْتُ العشاء ذات مرّة مع روبرت و زوجته بيريل أخبرَني أنّه مقتنعٌ تماماً أنّ الجبال المحيطة بقرية ديا الّتي نسكنُها لها بعض الخواص المغناطيسيّة الّتي لها تأثير إيجابيّ هائلٌ على بعض الناس الّذين يرغبون بالإقامة الدائمة في القرية و لها من جانب آخر تأثير سلبيّ – بذات قدر التأثير الإيجابيّ – على أولئك الّذين يرغبون بمغادرة القرية بسرعة، و كان هذا الكلام غريباً عليّ حينها إذ لم أكن قد سمعْتُ بعدُ بالحزام المغناطيسيّ و القوى الناشئة عنه و الّتي تحيطُ بالأرض. تحدّثْتُ إلى غريفس في إحدى جَولاتنا العصريّة معاً و إلتمسْتُ رأيه بشأن كتابي القادم عن القوى الغامضة فأجابني بكلمةٍ واحدة " لا تفعلْ !! "، و الحقيقة أنّ رؤى غريفس بشأن هذه الظواهر الّتي حكى عنها في كتابه " الآلهة البيضاء " لعبت دوراً أساسيّاً للغاية في تشكيل أفكاري عن الموضوع بأكمله و بخاصّة تمييزه الدقيق بين المعرفة الشمسيّة الّتي تمثّلُ برأيه المعرفة العقلانيّة و أساس العلم و بين المعرفة القمريّة الّتي هي نوعٌ من المعرفة الحدسيّة – الغرائزيّة و تمثّل الأساس الّذي يقوم عليه الشّعر و التصوّف، و بيّن غريفس في كتابه

ذاته أنّ عبادة الآلهة القمريّة الأم هي الدين الأصلي للجنس البشريّ و لكنّها تآكلتْ شيئاً فشيئاً بسبب طغيان عبادة العقلانيّة البراغماتيّة لإله الشمس: أبوللو، و أنّ هذه المعرفة المعقْلنة هي الّتي قطعت جذور الإنسان الّتي تشدّه إلى قواه الحدسيّة و الغرائزيّة الثمينة و عزلتْهُ عنها، و بدا واضحاً لي آنذاك أنّ الجنس البشريّ متى ما أراد إعادة الولوج إلى ذلك الجزء القمريّ المُغيّب من وجوده الإنسانيّ فسنكون حينئذٍ على عتبة خلْق نوعٍ جديد من العلم مؤسّسٍ على الحدس بدل المنطق المُعقْلن و يمكنُ إجمالُ هذه الرؤية في العبارة الّتي تحمل شحنة نبوئيّة و الّتي تقول " السّحرُ هو علم المستقبل "، و حصل بعد هذا اللقاء و بينما كنتُ أمضي أيّامي في ربوع قرية ديا المايوركيّة الخلّابة أن تعلّمتُ كيف أتذوّقُ شعر غريفس و صرْتُ أرى فيه شعر رجُلٍ إعتاد الإنضباط الصارم و لم يكن يرى في الشعر محض أكسسوارٍ إضافيّ يرتديه فوق ملابسه كما إعتاد أن يفعل معظم الشّعراء.

مع أنّ غريفس كان الكاتب الأكثر تأثيراً فيّ من الكُتّاب الّذين تعاملْتُ معهم أثناء إقامتي في قرية ديا المايوركيّة لكن، كان ثمّة كُتّابٌ آخرون لا زلْتُ أذكرهم منهم البروفسور الأمريكيّ جورج كوكروفت George Cockroft الّذي حكى لي يوماً عن عُقدة إحدى الروايات الّتي كان يعملُ عليها بينما كنّا نسيرُ أنا و هو بإتّجاه دائرة البريد الواقعة على أطراف المدينة، و كانت الرواية تحكي عن شخصٍ يعجزُ عن إتّخاذ القرارات المناسبة في حياته فيلجأُ إلى رمي النرد لمعرفة أيّ قرارٍ يتّخذ !!، و حصل بعد بضعِ سنواتٍ أن أرسل لي أحد الناشرين نسخةً من روايَة بعنوان (رجل النرد The Dice Man) لغرض تقييمها فعرفْتُ حينها أنّ جورج نجح أخيراً في نشر روايته الموعودة، و حقّقت الرواية أعلى المبيعات كما حُوّلَتْ إلى فلم. أحببْتُ جورج رغم أنّه بدا لي على

الصيغة النمطيّة الّتي يبدو عليْها أيّ بروفسور جامعيّ: ليبراليّ، مثقّف بصورة غائمة المعالم و يبدو إنعدام ثقته بنفسه سمة طاغية في شخصيّته أكثر ممّا عداها من السّمات، و بينما كنتُ أحاضِرُ في صفوفه الدّراسيّة أو كنّا نشربُ النبيذ معاً بدا لي أنّ أفكاري – فضلاً عن شخصيّتي – مقلِقةٌ له بعض الشيئ: فقد رأى في هوَسي المُفرط بالتطوّر البشريّ و إرتقاء الوعي مسألةً خطيرةً و مُهدِّمة و لا يجدرُ بأيّ ليبراليّ أمريكيّ محترم التفكيرُ بها. دعاني مرّة جورج بصحبة جوي لتناول الطعام في منزله، و عندما وصلْنا المنزل شاهدْنا حوالي عشرين فرْداً من الحُضور و هم جالِسون على أرضيّة غرفة واسعة و يشربون النبيذ، و عندما إنتهيْنا من تناول الطّعام طلب جورج من الجميع أن يصمت ثمّ راح يقول " دعوْتكم جميعاً للحضور هذا المساء لأنّني أريد الحديث عن أفكار السيّد كولن ويلسون و بيان مدى خطورتها و خُطلانِها " و هنا إجتاحَني الغضبُ لسماعِ هذه الأقوال، ثمّ راح جورج يتحدّثُ عن النكهة الفاشستيّة الّتي تتقنّعُ بها أفكاري المنشورةُ و الّتي تحضُّ من طرفٍ خفيّ على النزعة النازيّة و نكران الحسّ الإنسانيّ الطبيعيّ و هنا كان لزاماً عليّ أن أقف وسط الجّميع لأغادر القاعة و لكنّني وجدْتُ أنّ هذا الفعل سيُحسَبُ في صالح جورج لذا قمعْتُ رغبتي بالخروج و مضيْتُ أواصلُ الإستماع بهدوء، و كما توقّعْتُ فقد إنتهت رغبة جورج في تشكيل أفكارٍ مضادّة عنّي إلى محْضِ تعميماتٍ غامضة غير محدّدة و بعدما إنتهى من كلامه مضيْتُ في توضيح موقفي و بيان عجز السيّد جورج في بناء أيّة حجّة منطقيّة متماسكة تدعمُ ما كان يبتغي قوله، و علّمتْني هذه الحادثةُ ضرورة أن يمتلك المرءُ إنضباطاً صارماً و أن لا يسمح لقلّة الصّبر بِأن تقوده حيثما تشاء.

كان العديدُ من الكتّاب الآخرين يتواجدون في كلّية دولنغ مثل

الشّاعرة ديان واكوفسكي Diane Wakovsky و الروائيّ أنتوني بيرغس Anthony Burgess. لم أكن إلتقيْتُ بالروائيّ بيرغس من قبلُ و لم أكن قرأتُ أيّاً من رواياته و لكنّ جلسةً واحدةً في المقهى و نحن نتشاركُ قنّينة نبيذ أبانت لي أنّه شخصيّة مُحبّبة و قريبة من قلبي: مفرط الإحساس، وَقارئ نهم و هائل الذّكاء، و فوق كلّ هذا عازف موسيقيّ و مؤلّف قطع موسيقيّة حتّى أنّه سبق و قام بتحويل عمل جويس (يوليسيس) إلى أوبرا هائلة. عندما حضرْتُ عصر أحد الأيام محاضرة بيرغس الأولى كنتُ في غاية التّوق لمعرفة رؤاه حول الأدب و اللغة و كنتُ أعرف عنه عشقه للكاتب جويس مثلما أعشقه أنا لذا كنتُ توّاقاً لسماع ما سيقوله في تلك المحاضرة و لكنّ ما حصل فعلاً هو أن المُحاضرة إستحالت درساً أكاديميّا في بيان العلاقة المتأصّلة و الّتي لافكاك منها بين اللغة و الأدب ثمّ مضى بيرغس أبعد من هذا و راح يطنبُ في الحديث عن الفروق بين أنواع المقاطع الصوتيّة (الفونيمات Phonemes) إلى الحدّ الّذي دفع بالحُضور إلى الإنزلاق نحو الملل. أحببْتُ أنتوني و لكنّي وجدّته مصرّاً على لعب دور العبقريّ التعدّد المواهب: بروفسور جامعيّ، عازف موسيقيّ، عالم لغويّات بالإضافة إلى رغبته كلّ حين في إدهاشنا بموسوعيّة معرفته، وَ عندما عدْنا إلى إنكلترا مع نهاية تشرين أوّل قرّرْتُ أن أقرأ بعضاً من روايات بيرغس فوجدْتُ فيها نوعاً من اللَّعَب اللغويّة مع ميلٍ طاغٍ نحو اللغة الرنّانة المُفخّمة و هي ذات الحالة الّتي شخّصها صديقٌ لي – في سياق مديحه لرواية بيرغس المعنْونة " القدرات الدنيويّة Earthly Powers " – إذ قال لي حينها أنّه كان يضطرُّ معظم الوقت إلى قطع قراءته و البحث عن معنى مفردةٍ ما في القاموس، و كان يبدو لي أنّ كينغزلي أميس إختبرَ ذات شُعوري عندما حاول قراءة روايات بيرغس، و كتب أميس

في سيرته الذاتيّة أنّ بيرغس كتب مراجعاتٍ ممتازة يُطري فيها أعمال أميس و لكنّ أميس ذاته وجد عنتاً في كتابة أمورٍ مماثلة بحقّ بيرغس و يضيفُ أنّهُ حاول و بجهْدٍ خارق قراءة بعضٍ من روايات بيرغس و لكنّه فشل بعد أن وجد رواياته عصيّة على القراءة.

بعد يومين من كتابة نسخةٍ منقّحة من رواية (الغرفة السوداء) باشرْتُ بكتابة كتابي عن السحريّ و الغامض في ١٧ نيسان ١٩٧٠ و خطّطْتُ مبدئيّاً ليكون الكتابُ في حدود ١٥٠٠٠٠ كلمة و لكنّني إنتهيْتُ إلى كتابة ربعِ مليون كلمة، و إستلمْتُ المَخطوطة النهائيّة المصحّحة للكتاب من الناشر هودر Hooder في ٢٦ أيّار ١٩٧١ مع ولادة إبني الأصغر روان Rowan و أهديْتُ الكتاب إلى روبرت غريفس و نُشِر في ٤ تشرين أوّل ١٩٧١ و نال – على غيرِ توقّعي – مراجعاتٍ ممتازة من قِبل ذات النقّاد الّذين هاجموا أعمالي اللاحقة لكتاب اللامنتمي و كان يبدو من نكهة كتاباتهم و كأنّهم يُبدون إعتذارَهم الضمنيّ عن مُغالاتهم الجارحة في نقدي: فقد إبتدأ فيليب توينبي مراجعته لكتابي الجديد بالعبارة التالية " نال السيّد كولن ويلسون الكثير من الأذى على يد النقّاد و لكن مالايمكنُ نكرانه هو قدرته الراسخة، و ثباتهُ، و شغفهُ غير القابل للإنكسار،،، " و هكذا بدا لي بعد ستّة عشر عاماً أنّني صرْتُ إسماً من الأسماء الأدبيّة المتداولة في عالم الأدب، و لا زلتُ أذكرُ كيف هزّ والدي رأسه لدى سماعه بعنوان كتابي (السحريّ و الغامض) مؤكّداً قناعته الراسخة بنجاح الكتاب و كانت تلك حالة غير مسبوقة لم يفعلْها والدي من قبلُ و ملأني رأيه سعادةً عارمةً و بخاصّة أنّ صحّته شهدت تدهوراً ثابتاً منذ عام ١٩٧١: فقد كان يُمضي أغلب وقته في مراجعة المستشفيات و إجراء عمليّات جراحيّة لمعدته حتّى توفّي في شهر آب عام ١٩٧٥، و

لازمَني شعورٌ لا فكاك منه بأنّني أنا من تسبّبْتُ في إنهيار صحّته بعد أن دعوْتهُ مع والدتي للمكوث معنا في كورنوال في شهر تشرين أوّل ١٩٥٧ و كان واضحاً لي منذ ذلك الحين أنّ تحرّره من عبئ العمل الجسديّ هو ما تسبّب في إنهيار صحّته و تحوّله إلى إنسانٍ مدمنٍ على الكحول الّذي صار مُتاحاً له أسهل بكثير من ذي قبل، كما كره بذات الوقت عودته القسريّة إلى ليستر و العمل في مصنع الأحذية و من هنا بدأت معالم إنهياره النفسيّ و الجسديّ. ظلّت والدتي مخلصةً لوالدي و رافقتْه حتّى نهايته و أخبرتْني لاحقاً أنّ كلماته الأخيرة قبل دقائق من وفاته كانت "عشْتُ حياةً جيّدة" و قد أصابني الذهولُ حقّاً لسماع قول والدي و هو الّذي أمضى معظم شبابه في العمل على منصّةٍ في مصنع أحذية !! و لطالما تساءلْتُ بعدها: هل إختبَر والدي قبل دقائق من وفاته ذلك الشعور بالبهجة المنعشة – الّتي إختبرَها إيفان أيليتش بطل تولستوي – و المقترنة بالثقة المغالية بأنْ ليس ثمّة في الحياة ما يمكنُ أن ندعوَه الموت ؟، و من المؤكّد أنّ معرفتي بأنّ والدي إختبرَ هذا الشعور قبل وفاته سيكون مبعث راحةٍ عظمى لي في كلّ الأحوال.

٢٠. الإنهيار

من الواضح تماماً أنّني أحببْتُ العمل الشاقّ وَ واظبْتُ عليْهِ طيلة حياتي و أخذْتُ نفسي بالشدّة و الإنضباط الصّارم الخليقيْن بإمرءٍ مُدمنٍ على العمل مثلي، و لم أنْسَ يوماً ضرورة الترييض الجسديّ لعضلاتي: ترتيب حديقة المنزل، المشيُ لمسافاتٍ طويلة بصحبةِ كلابي، السّباحةُ في البحر خلال أوقات الصّيف،،، و كانَ على زوجتي جوي أيضاً أن تعملَ بمشقّةٍ لاتقلُّ عن المشاقّ الّتي كنتُ أتحمّلُ عبئها و بخاصّةٍ أنّنا كنّا آنذاك مسؤولَيْن عن إعالة ثلاثة أطفالٍ إلى جانب حقيقة أنَّ كثيراً من الضّيوف كانوا يزوروننا في كورنوال و من غير موعدٍ مسبّقٍ و بالتّحديد في أوقات الصّيف، و كان زخمُ هؤلاء الضّيوف يبدأُ مع عيد الفصح و لا ينتهي حتّى بواكير تشرين أوّل و كثيراً ما كانَ يخونُني صبري مع هؤلاء الضّيوف و لكنّ جوي كانت تُبدي صبراً و تماسكاً هائليْن معهم.

حصلَ خلال شهر كانون أوّل عام ١٩٧١ أن دعتْني محطّة تلفزيونيّة مستقلّة في بلايموث تدعى (ويستوورد Westward) للظهور في برنامج تلفزيونيّ شهريّ كانت المحطّةُ تعملُ على تقديمه آنذاك، و بعد إجتماعِنا الاوّل إتفقْنا على أن يكون البرنامج بعنوان (فورمات Format) وَ كان مقرّراً أن يظهرَ بثلاثة أجزاء: واحد عن الموسيقى و الأدب، وَ آخر عن السينما وَ المسرح، وَ ثالثٌ عن الفن و العمارة، و تقرّرَ تكليفي بتقديم الجزء الخاص عن الموسيقى و الأدب

بينما يقدّمُ الممثّل جاك إيميري Jack Emery الجزء الخاص بالمسرح و السّينما في حين يقدّمُ شخصٌ جذّابٌ من غرب إنكلترا يُدعى (غليف غانيل Glive Gunnell) الجزء الثّالث الخاص بالفن و العمارة، وَ كان غليف قد عانى تجربةً مؤذيةً و شديدة القسوة عام ١٩٥٥: عندما كان يتمشّى أحد الأيّام في هامبستد هيث بصُحبةِ صديقٍ لهُ يُدعى (ديفيد بلاكلي David Blakely) إندفعَت إحدى عاشقات بلاكلي و تُدعى (روث إيليس Ruth Ellis) صوْبَهُ – وَ كانت تعملُ في نادٍ ليليّ – و أطلقت عليْهِ النّارَ من مُسدّسٍ بيَدِها، و بينما إنحنى غليف لُمعاينَةِ صديقه المُصاب أطلقت المرأةُ بضعَ إطلاقاتٍ إضافيّة في كتف بلاكلي ثمّ صوّبت مُسدَّسَها نحوَ صدّغِها و لكنّ المسدّسَ كان فارغاً من الإطلاقات، و عندما قدّمت إلى المُحاكمة لاحقاً وجدَها المُحلّفون مذنبةً بتهمة القتْلِ و شُنِقَتْ فعلاً و كانت آخر إمرأةٍ تُشنَقُ في إنكلترا، و للأسفِ عانى غليف من إنهيارٍ عصبيّ مؤلم بعد تلك الحادِثة.

حصلَ أن مررْتُ بتجربةٍ عسيرةٍ في المرّة الأولى الّتي تجمّعَ فيها فريقُ عمل برنامج (Format) لتسجيل البرنامج في الأستوديو: فما أن وقفْتُ أمامَ الكاميرا و أنا في كامل الإستعداد لقراءة السّطور الّتي أعددْتُها حتّى أخذَ قلبي يدقُّ بعنْفٍ وَ صارَ صوتي أقربَ إلى حشْرجةِ رجلٍ مختنقٍ و عندها أوقفَ مدير الأستوديو التسجيلَ و إعتذرْتُ من جانبي و كانَ عليّ إعادةُ قراءة الجزء الخاصّ بي ثانيةً، و بينما كنتُ أتأهّبُ للكلام راح قلبي يدقُّ بعنفٍ و أخذ صوتي يرتعِشُ كالسّابق، و بعدَ مُحاولتيْن فاشلتيْن إستطعْتُ أخيراً قولَ بضعة السّطور الّتي كانَ عليّ قولُها، و تعاطفَ معي كلُّ منْ كان في الأستوديو بعد أن رأوا شعوري الممضّ بالخجل من الجميع، و عندما شاهدْتُ البرنامج على التلفاز بعد بضعة أيّامٍ بدت عصبيّتي واضحةً للعيان و عادَ إليّ شعورُ الإحساس

بالمهانة و مضيْتُ أتساءلُ بإستغراب " ما الّذي يجري معي بحقّ السّماء ؟ ". كان تفسيري الشّخصيُّ لِما حصلَ هو أنّني قضيْتُ السنوات العشر الماضية في حالةٍ من فرط العمل القاسية: كنتُ أعملُ مثل طاحونةٍ طحنتْ مئاتِ آلاف الكلمات و بدا لي أنّني كنتُ مقيّداً داخل فخٍّ يقبعُ وسْط رأسي و حسبُ، لذا عندما وقفْتُ فجاةً أمام الكاميرا و وهجُ الأضواء يلمعُ كلّ مكانٍ حولي شعرتُ كما لو كنتُ حيوانَ خُلْدٍ mole آكلٍ للحشرات و قد جُرَّ جرّاً من حفرته عنوةً وَ وجدَ نفسهُ في ضوء النّهار. سألتُ طبيبي أندرو كراوشوو Andrew Crowshaw (و هو صديقٌ قديمٌ لي و يُشارِكُني حماستي في عشق النبيذ) إنْ كان يستطيعُ وصفَ أيّ دواءٍ لي يمكنهُ تسكينُ أعصابي المُتوفّزة فأعطاني بعضاً من المُهدّئات و أخبرَني أن آخذها قبل تسجيل البرنامج و أكّد على ضرورة أن أكتفيَ بحبّةٍ واحدةٍ فقط في كلّ مرّة و ألّا أتناولَ الكحولَ معها و إلّا فإنّها ستطرحُني أرضاً. في موعد التسجيل الثاني للبرنامج كانَ عليّ أن أجرَّ نفسي رغماً عنّي إلى بلايموث حيثُ يسجّلُ البرنامجُ و شعرْتُ كمَن كان في طريقه للوُقوف أمام فرقة إعدامٍ ستطلقُ النّار عليه عمّا قريب وَ تذكّرتُ حينها شو و كيفَ شعرَ بذاتِ الشّعور من التوتّر العصبيّ عندما توجّبَ عليه حضورُ تجمّعٍ إجتماعيّ لأوّل مرّة و عزفُ البيانو فيه، وَ يروي الرّجلُ كيف توقّفَ متردّداً أمام باب المبنى و دارَ حولهُ بضعَ دوراتٍ قبلَ أن يمتلكَ الشّجاعة الكافيةَ للطرقِ على الباب، و علّقَ شو على ذلك الموقف قائلاً " كنتُ سأهرُبُ بَعيداً عن المكان لولا أنّني أيقنتُ و بطريقةٍ غريزيّةٍ ضرورةَ أن لا أنهزمَ على تلك الصّورة المُهينة إذا كنتُ أبتغي فعلَ شيءٍ ذي جدوى في هذا العالم "، و بينما كنتُ أفكّرُ فيما قالهُ شو راحت أسناني تصطكُّ. أجريْنا بروفةً أمام الكاميرا في الصّباح و أخذْتُ حبّة مهدّئةً قبل البروفة و

لكن بدا أن لاشيءَ تبدّلَ معي إذ إجتاحتْني ذات الجائحة العصبيّة مثل سابقاتِها تماماً لذا أسرعْتُ إلى غرفة التواليت و أخذْتُ حبّة مهدّئة ثانية و بقي حالي على ماكانَ عليْهِ، و عند الغداءِ تناولْتُ بضعة كؤوسٍ من النّبيذ كما أخذْتُ قبل التسجيل الفعليّ للبرنامج حبّة مهدّئة ثالثة و لم تكن كلٌّ تلك المُحاولات بمُجدِيةٍ في إحداثِ أيّ تأثير عليّ حتّى لو كان صَغيراً للغاية و كان عليّ في الوقت ذاته كبحُ جماح رغبتي في الهرب بعيداً عن الأستوديو بينما كانت السّاعةُ تُتَكْتِكُ و هي تقترِبُ من موعد بداية الموسيقى الإفتتاحيّة للبرنامج، و بعدَما إنتهى تسجيلُ البرنامج أيقنْتُ أنّ المهدّئات لم يكن لها أيٌّ تأثيرٍ مُجدٍ معي، و عندما رأيْتُ البرنامجَ بعد بضعةِ أيّام وجدْتُ أنّ أدائي كان فظيعاً و لكنّي في أقلّ تقديرٍ لم أكن أبدو مُرتعِباً مثل المرّة السّابقة، و كان عليّ كلّ شهرٍ أن أخوض غمارِ ذات المُجاهدة و المكابدة المؤلمتيْن، و عندما كنتُ أُجري حواراتٍ تمهيديّة قبل التسجيل الفعليّ للبرنامج مع أشخاصٍ مثل كين راسل Ken Russell أو سبايك ميليغان Spike Milligan كنتُ أبدو هادئاً وَ طبيعيّاً تماماً و لكن ما أن كنّا ندلفُ إلى الأستوديو حتّى كانت نوبةُ هلعٍ تنتابُ معدتي و كان يتوجّبُ عليّ حينها الكفاحُ بقوّةٍ لكبح جماح رغبتي في الهرب بعيداً. كانَ كلّ يوم تسجيلٍ للبرنامج يُلقي في نفسي الرُّعبَ ذاته و الأمرُ الأسوأُ من ذلك أنّني كلّما جاهدْتُ أكثرَ في محاولتي كسرَ شوكةِ هلَعي كان الوضعُ يسوءُ أكثر من ذي قبلُ و أدركْتُ حينها أنّ ما كانَ يتوجّبُ عليّ فعلهُ هو اللّجوءُ إلى إستخدامِ ما أسماهُ فيكتور فرانكل (قانون الجُهد المعكوس The Law of Reverse Effort) (فكتور فرانكل Victor Frankel: عالم أعصاب و طبيب نفسيٌّ نمساويٌّ عاش في الفترة ١٩٠٥ - ١٩٩٧ وَ اوجد مدرسة فينّا في العِلاج النفسيّ الّذي يقومُ على إستخدام التحليل العلاجيّ الوجوديّ،

المُترجمة): كانَ عليّ بموجب آليّة فرانكل أن اقِفَ أمام الكاميرا وَ أكافح للتفكير في شئٍ آخر بعيد عن موضوع البرنامج بحيثُ لا أجعلَ الأدرينالين يفيضُ في مجرى دمي و يتسبّبُ لي في تلك الحالة المُزريةِ الّتي كنتُ عليْها، و شيئاً فشيئاً نجحت مُحاوَلاتي و أصبحْتُ أكثر قدرةً في مواجهة الكاميرا.

منذُ نشْرِ كتابي (السّحريّ و الغامض The Occult) كان جدْولي في الكتابة مزدحماً كالعادة: كانَ عليّ كتابةُ كتابٍ عن ماسلو (الّذي كان قد توفّيَ توّاً) بعنوان (مسارات جديدة في السايكولوجيا New Pathways in Psychology) و كتبتُ هذا الكتابَ تلبيةً لإقتراحٍ من ماسلو ذاته، ثمّ مضيْتُ في كتابة كتابٍ ثانٍ بعنوان (ترتيبُ القَتَلَة Order of Assassins)، و إنغمسْتُ بعدها في كتابة روايةٍ بوليسيّة بعنوان (قضيّة مقتل فتاة المدرسة The Schoolgirl Murder Case) و بعدها عملْتُ على كتابة كتابٍ عن النبيذ و ظهرَ لاحقاً بعنوان (كتابُ الخمْر A Book of Booze) و بعد كلّ هذا بدأتُ أبحثُ فكرة كتابة كتابٍ عن فيلهلم رايخ Wilhelm Reich (**محلّل نفسي نمساويّ عاش في الفترة ١٨٩٧ - ١٩٥٧ و يعدُّ من ابرز شخصيّات الجيل الثاني لمدرسة التّحليل النفسيّ الّتي أعقبت المدرسة الفرويديّة، المُترجمة**). حسّنت مبيعاتُ كتابي (السّحريّ و الغامض) من أوضاعنا الماليّة إلى حدّ معقول: فقد حقّقت الطّبعة الأمريكيّة من الكتاب مبيعاتٍ جيّدة بينما ظهرت الطّبعةُ البريطانيّةُ في نسخة خضراء مكبوتة مع جملةٍ غبيّة مكتوبة على الغِلاف " هذا الكتابُ كُتِبَ لهؤلاء الّذين إعتادوا السّير مع الآلهة "، و كما هو متوقّعٌ مع الكتب الّتي تحقّقُ مبيعاتٍ جيّدة فقد طلبَ إليّ النّاشرُ الأمريكيّ أن أكتبَ كتاباً مُكمّلاً لكتاب (السّحريّ و الغامض) و نُشِرَ الكتابُ لاحقاً عن دار نشر (راندوم هاوس) الأمريكيّة المرموقة.

أضفتُ مهمّة كتابيّة جديدةً إلى جدول أعمالي المُتخم بالأعمال: في تشرين ثانٍ ١٩٧٢ وجدتُ في نفسي رغبةً توّاقةً لإطلاق سلسلة من الأعمال حول الجريمة و على أمل أن تتحوّلَ هذه السلسلةُ إللى إنسيكلوبيديا في نهاية الأمر، و بالفعل إتّصلَ بي صديقٌ قديم يدعى (جو غاوت Joe Gaute) – الّذي كان يعملُ آنذاك ناشراً مُتخصّصاً في حقل الجريمة و يمتلك مكتبة مدهشةً تغصُّ بكتب الجريمة – و قضى يومَيْن معنا في وضع لمسات خطّة العمل الّتي أسفرت عن نشر عشرين مجلّداً من مجلّدات الإنسيكلوبيديا المعنْونة (الجرائم و العقاب Crimes and Punishment)، و في هذا الوقت ايضاً وافقْتُ على الإنضمام إلى لجنة خبراء تجمّع الفنون لمنطقة جنوب غرب إنكلترا South West Arts Association و كانت اللجنةُ هذه تجتمعُ مرّة كلّ ستّة أسابيع في مدينة إكسيتر Exeter منذ الحادية عشرة صباحاً و حتّى الرابعة عصراً، و ترأسَ الّلجنة الناقد الموسيقيّ إريك والتر وايت Eric Walter White و كانت اللجنة تضمُّ شعراء مثل تيد هيوز Ted Hughes وَ بيتر ريدغروف Peter Redgrove وَ رونالد دنكان Ronald Duncan وَ الروائي ألكسيس ليكيارد Alexis Lykiard، و كان عملُنا يقضي بتوزيع المنحة الحكوميّة البالغة بضعة الوف من الجنيهات على فعاليّات مثل إحتفاليّة تشيلتنهام للأدب Cheltenham Festival of Literature و العديد من الفرق المسرحيّة في الريف الغربيّ الإنكليزيّ، و دُهشْتُ كثيراً عندما راقني العملُ في تلك الّلجنة.

مع نهاية شباط ١٩٧٣ حصل تطوّرٌ أضاف تعقيداً إلى حياتي بعد وصول كاثي Kathi: الفتاة الأمريكيّة الّتي شربت حدّ الثّمالة عندما كنّا على ظهر القارب على الساحل الأمريكيّ في لونغ بيتش، و كانت كاتي قد منحت نفسها حقّ قضاء إجازةٍ أمدُها اسبوعان عندنا في

كورنوال و علمْتُ منذ البدء أنّ الأمر لن يمرّ بلا عواقب و بخاصّةٍ أنّ كاتي لم تكن تُخفي إفتتانها بي و لم ترَ أيّة موانع تقفُ أمامَها لتعيقَها عن إظهار معا لم ذلك الإفتتان، وَ ظهرت أولى بَوادر المتاعب الّتي عانيْتُها مع كاتي لحظة وصولِها تماماً إذ بادرت إلى القولِ لِجوي " و الآن أنا موجودةٌ هنا، لذا يمكِنُكِ أن تُغادري !! "، و لمّا كانت جوي شخصيّةً ودودةً غير ميّالة للمُواجهات فقد إكتفتْ برسْم أبتسامةٍ على وجهها كما لو أنّ كاتي قالت لها " مساء الخير " فحسْبُ. وصلَ قِطارُ كاتي متأخّراً و أصابتْها حال نزولِها من القطار نوبةٌ هستيريّةٌ بعد أن عرفت بحقيقة فقدانِها لحقيبتِها خلال سفرتها بالقطار من لندن، و لحسْنِ الحظّ وصلت حقيبتُها المفقودةُ صباح اليوم التّالي، و مضيْنا نؤكّدُ لها في السيّارة أن الحقيبة ستصلُ حتماً و تطلّبُ الأمرُ منّا جهداً هائلاً لتسكينِ روحِها المضطرِبة. عندما كنّا في السّيارة عائدين إلى المنزل من محطّة القطار وجدْتُ أنّ كاتي كان يفوحُ منها عطرٌ قويٌّ نفّاذ أعادَ إلى ذاكرتي على الفور أيام عملي في مصنعٍ للأحذية، و أخبرتْنا كاتي لاحقاً أنّ هذا العطر هو المِسْك Musk و تستخدمهُ النّساءُ في العادة لجعل الرّجال غير قادرين على الإفلات من أسرهنّ. كان من الواضح تماماً لي آنذاك أنّ حكاية كاتي على القارب – عندَما وجدْنا فتحةً كبيرةً في فستانِها من الخلف – كانت مُحاولةً فاضحةً من جانبِها لإغوائي، و عندما تركتْنا جوي صباح اليوم التّالي لوحدِنا في المنزل لم تهدُر كاتي أيّ وقتٍ فوضعت رأسَها على رُكبتي ثمّ رفعتْهُ بإتّجاه فمي و هي تقولُ " قبّلني " و لم تكن لديَّ حينها أيّةُ رغبةٍ في تصنّع الحشمة و الحياء و ربّما لو كنتُ رفضْتُ لأصابتْ كاتي جائحةٌ هستيريّة لذا وافقتُها و تبادلْنا قبلةً كانت كاتي خلالَها تداعبُ فمي بلسانها و تتأوّهُ و هي تقولُ " أشتهي أن آكلك "، و تصوّرْتُ حينها أنّ قولَها هذا لايعدو أن

يكونَ طريقةً بلاغيّة في الكلام تماماً كما تقولُ الأمّ لرضيعِها و لكنّ كاثي مضت في تحقيقِ ما تقولُ و بكلّ عنفٍ على الطريقة الأمريكيّة المعهودة في هذا المقام و زادت من وتيرة مُغازلتِها لي. عندما أدركَت كاثي في الأيّام الّلاحقة أنّني لا أرغبُ في متابعة المُضيّ بإغواءِها لي و أسفْتُ لِما بدا منّي من بعض التودّد نحوها راحت تنتابُها نوباتٌ هستيريّة عنيفةٌ و أخبرتْنا انّها قد تُقدِمُ على الإنتحار أثناء الّليل، و رغم أنّني بدأتُ آنذاك أمتعِضُ من وجود كاثي في المنزل لكنّني لم أرغب بالتأكيد في رؤيتها منتحرةً يوماً ما لذا أرغمْتُ نفسي عنوةً على إبداء مظاهر الحنان نحوَها و كانت جوي تعلمُ كلّ ماكان يدورُ بيننا و لم أكن من جانبي أُخفي أيّ شيءٍ عن جوي.

بدا لي الأسبوعان الّلذان قضتْهُما كاثي معنا في كورنوال و كانّها الأبديّةُ بعينِها: كانَ عليّ إصطِحابُ كاثي في جولةٍ بالسيّارة كلّ يومٍ لرؤية بعض المناطق الجّميلة و كان عليّ كذلك أن أعمل بكلّ جهديَ للإبقاء على روحها المعنويّة عاليةً دوماً عبْرَ جعْلها تشعرُ أنّها تستحوِذُ على كلّ إهتمامي و عندها كانت تبدو طبيعيّةً و مُبتهجة، و لكن مع منتصف النّهار كانت تعودُ مكتئبةً، و بعد حلولِ المساء كانت تنتابُها ذات النوبات الهستيريّة الّتي كانت تهدُدُنا خلالَها بعزمِها على الإنتحار. في اليوم الّذي غادرت فيه كاثي كورنوال كان عليّ حضورُ اجتماع لجنة خبراء الفنون، و قبل أن أصطحب كاثي معي إلى محطّة القطار ودّعَتْ جوي و أهدتْها قنّينة عطر المسك، و عند وداع كاثي في محطّة القطار قبّلتُها و أنا اشجّعُها على التماسك و عدم إطلاق العنان لدموعِها ثمّ لوّحْتُ لها بيديَّ مُودّعاً بينما كان القطارُ يُغادِرُ ببطءٍ، و عندما عدتُ للسيّارة غمرَني إحساسٌ رائعٌ و فجائيّ بالحريّة. لم نرَ كاثي بعد تلك الزّيارة إلّا مرّة واحدةً عندما كنتُ أحاضِرُ في

مدينة ميلووكي Milwaukee الأمريكيّة عام ١٩٨٧ و كانت تعيشُ آنذاك مع صديقٍ لها، و بعد أن دعوْنا الإثنيْن على العشاء كانت كاثي تُعامِلُني كما لو كنتُ مُلكاً شخصيّاً لها، و للأسف أقدمتْ كاثي على الإنتحار بعد سنتيْن من لقاءِنا ذاك بِتناوِلها جرعةً مفرطةً من الحبوب المنوّمة.

* * * * * * * * * *

حصلت إنتقالةٌ فاصلةٌ في حياتي عندما جاءَني شابّان يافعان من هيئة الإذاعة الوطنيّة الكنديّة لإجراء حوارٍ معي و كان الإثنان مهذاريْن لا يكفّان عن الكلام، و بالنتيجة لمْ أقدر على الذّهاب إلى فراشي إلّا بعد الحادية عشرة و النّصف ليلاً بعد أن شربْتُ الكثيرَ من النبيذ و إستمعْتُ إلى الكثير من النقاشات المُضجرة، وَ مازادَ في ضجَري أنّي كنتُ أعلمُ أنّ يوماً حافلاً بالإشتغالات ينتظرُني في الغد: المزيدُ من الحوار مع هيئة الإذاعة الكنديّة و من ثمّ الذهابُ لإلتقاط صورةٍ حديثة لي لجواز سفري و من بعدها العودةُ لتشذيب حديقة المنزل ثمّ كتابة الصّفحات الخمس الأخيرة من كتابي (القدرات الغريبة Strange Powers)، و من بعد كلّ هذا كتابةُ مراجعةٍ مستعجلة لأحد الكتب لحساب (السبكتاتور Spectator)، كما كان يتوجّبُ عليّ و بناءً على طلب محرّر مجلّة (أوديو Audio) أن أكتب مقالةً عن فيردي Verdi لنشرِها في عدد الأسبوع اللاحق. عند المساءِ إصطحبْتُ جوي وَ كاي إلى العشاء و من ثمّ لمشاهدة فلم (كاباريه Cabaret) و آويْتُ تلك الليلة إلى فراشي مع منتصف الّليل، و إستيقظْتُ فجاةً عند الرّابعة فجراً و سيطر عليّ التفكير في حجم الجهد المطلوب لكتابة المقالات السّبع المطلوبة لمجموعة (الجّرائمُ و العقابُ) و شعرتُ حينها بتعبٍ و إنهاك

مُفرطيْن و لم يكن بإستطاعَتي الإسترخاءُ مثلما إعتدْتُ أن افعلَ من قبلُ و بدا الأمرُ لي كما لو أنّني أمسكْتُ مُرغماً عن التنفّس، و طافَ برأسي حينها خاطرٌ ملحٌّ بأن أذهب إلى مكتبي في الطابق السفليّ وَ أشرعَ في كتابة إحدى المقالات السّبع و لكنّي عرفْتُ أن خطوةً مثل تلك ربّما ستعجّلُ في إصابتي بإنهيارٍ عصبيّ كامل لذا طردْتُ فكرة معاودة الكتابة في ذلك الوقت من رأسي، و بينما كنتُ أكافحُ في لجْم هذا الشدّ العصبيّ العنيف راح قلبي يدقُّ بعنفٍ و أحسسْتُ بالدم يندفعُ إلى وجهي وَ شعرْتُ بحرقة موجعةٍ في خدودي و أذُنيَّ، و بدا أنّني إرتكبْتُ خطأً فادحاً في تلك اللّحظة: حاولْتُ أن أتجاوزَ ذلك العارض المخيف باللّجوء إلى قوّة إرادتي فحسْبُ كما إعتدْتُ أن أفعل من قبلُ، و لكنّ قلبي راحَ يدقُّ كالطّبل و بسرعةٍ أكبر من السّابق حتّى بتُّ أخشى أن نوبةً قلبيّة قد إنتابتْني. هبطْتُ إلى المطبخ في الأسفل و تناولْتُ قدحاً من عصير البرتقال و مكثْتُ هناك حتّى هدأتُ نوعاً ما ثمّ عدْتُ إلى فراشي و شعرْتُ بخفّةٍ في رأسي كما لو كانَ بالوناً منتفِخاً، و لمّا لم أستطع النّومَ غادرْتُ فراشي إلى غرفة الجلوس في الطابق الأسفل وَ أذنايَ تطنّانِ طنيناً مزعِجاً وَ كافحْتُ لأسترخيَ قليلاً و أقرأ في كتابٍ ما و لكنّ إحساساً داخليّاً قويّاً كانَ يخبرُني أنّ خطباً ما قد أصابَني و قد يكونُ نوبةً قلبيّة أو سكتةً دماغيّة و كنتُ حينذاكَ أحاولُ تهدئة نفسي الّتي كانت تبدو مثل حصانٍ مُرتعب و لكنّي علمْتُ أنّ التقليلَ من شأن تلك الأعراض لن يكون أمراً محموداً إذ ربّما تكون تلك الأعراضُ إشاراتٍ إلى وقوعي في براثن إنهيارٍ عصبيّ و ما يترتّبُ على هذا الأمر من ضرورةِ إخبارِ ناشري بعدم قدرتي على المضيّ في كتابة أيّة مقالاتٍ إضافيّة أخرى، وَ راحت مخاوفي تتزايدُ حتّى غدوْتُ خائفاً من الخوف ذاته !!. أشارَ الكاتبُ ميلين

براند Millen Brand في موضعٍ من عمله المسمّى (النّومُ الوحشيُّ Savage Sleep) إلى حقيقة كيفَ يمكنُ أن ينزلقَ الذّهانيّون بسهولةٍ فائقةٍ في حالة إستنفاد القوى Exhaust Status و بدأتُ أشعرُ كم يمكنُ بسهولةٍ أن يحصلَ هذا معي: كانت طاقتي آنذاك تتسرّبُ خارجاً عنّي بالضّبط كما يحصلُ عند فتحِ بوّابات سدّ عظيم و من ثمّ تتدفّقُ المياه منه في عنفوانٍ مخيف، و قبلَ إطلالة الفجر إتّخذتُ قراري بالعودةِ إلى فراشي و شعرتُ بأهمّية إتّخاذ قرارٍ حاسم يوقِفُ هذا التدهور الناتج عن تسريب طاقتي، و مضيْتُ لأضطجعَ بجانب جوي و أنا أحدّقُ في إطار النافذة المربّع الشّكل ذي اللّون الرّصاصيّ و قاومْتُ جميع الافكارِ الّتي كانت تبتغي كتْمَ أنفاسي و غرقْتُ أخيراً في النّوم. نهضْتُ صباحاً و أنا مستنفدٌ تماماً و أشعرُ بتوعّكٍ شديد و لم أشأ إخبارَ جوي بشأن نوبة الهلع الّتي إنتابتْني إذ لم أرَ أيّ مسوّغٍ لإقلاقِها إلى جانب علمي المؤكّد بانّها كانت ستطلبُ إليّ الإقلاعَ عن إجهادِ نفسي في الكتابةِ بالطريقة الّتي إعتدْتُ عليّها، و بعْدَ تناولِنا فطوراً بسيطاً (إعتدْنا تناولَ الشّاي مع الخبز المحمّص – توست toast – و نحنُ لانزالُ ماكثيْن في الفراش) مضيْتُ إلى غرفة مكتبي و كتبْتُ إيجازاً بما حصلَ لي في دفتر مذكّراتي و هو ما ساعدَني في إستعادة هدوئي و حسّي الطبيعيّ و إنطلقْتُ للبدء في عملي كما أفعلُ كلّ صباحٍ و مع حلولِ العصر عدتُ كما كنتُ من قبلُ: شخصٌ طبيعيٌّ ممتلئٌ بهجة و نشاطاً. عادت مشكلةُ الهلع ثانيةً عند المساء بعد أن احسسْتُ بالتعب من العمل و بدأتُ اقلقُ من إحتمالِ أن تعاودَني نوبةُ الهلعِ متى ما آويتُ إلى فراشي. كانت نوبةُ الهلع تلك شبيهةً بالهلعِ الّذي إختبرْتهُ السّنة الماضية لحظة وقوفي اوّل مرّة أمام الكاميرا: قلقٌ من غيْر أساسٍ عقلانيّ يبدو خلالهُ أنّ الخوفَ يتغذّى على الخوف ذاته و تكونُ

النتيجةُ الحتميّة أن يُفاقم الخوفُ نفسهُ بنفسه، و بعد نصفِ ساعةٍ في الفراش كنتُ في كامل يقظتي و إستعصى عليّ النومُ و شعرتُ حينها بحنينٍ جارف لتلك الأيّام الّتي كنتُ أنامُ فيها فورَ أن اضعَ رأسي على الوسادة و مضيْتُ أفكّرُ بسخريّة فظيعة في تلك الفكرة الّتي راحت تطوفُ برأسي حينئذٍ: أن اؤسّسَ حياتي على الإعتقاد الرّاسخ بأنّ الوعي يمكنُ ضبطهُ و السّيطرةُ عليْه و ها أنا أبدو بعيداً تماماً عن تحقيقِ تلك الغايةِ.

في اليوم التّالي لنوبة الهلع الّتي أصابتْني بغتةً عملْتُ بجهدٍ و مشقّة – كعادَتي المزمنة – على كتابة مقالةٍ عن الخَوَنة traitors، و في اليوم التالي كتبْتُ مقالةً عن فيردي و مقالةً ثانية عن الجّريمة، و في اليوم الّلاحق كتبْتُ المراجعة المطلوبة لمطبوعة السبكتاتور و كانت عن الحركات الدينيّة البدائيّة، و كتبْتُ خمس مقالاتٍ إضافية في بضعة الايّام الّلاحقة، و تُشيرُ مذكّراتي أنّني كنتُ أعاني من أشكالٍ مُخففةٍ من نوبة هلعي الأولى تلك الايّام و بخاصّة عندما أكونُ مُتعباً و مستنفد القوى و بدا لي الأمرُ آنذاك كما لو أنّني سأعاني مرضاً مزمناً و سيُلازمُني طويلاً و كان عليّ الكفاحُ من أجل كبْحِ ذلك المرض مثلما يكافحُ شخصٌ في غلقِ بوّابةٍ تقفُ في وجْه عاصفةٍ هوجاء، و حتّى في تلك الأوقات الّتي كان يفترَضُ فيها أن أكونَ مسترخِياً وَ أنا جالِسٌ في كرسيٍّ ذي الذراعيْن أتناولُ كاساً من النبيذ كان يمكنُ بسهولةٍ فائقةٍ أن أنزلقَ إلى حالةٍ من التغذية الإسترجاعيّة السلبيّة حيثُ كان الإنهاكُ و القلقُ يتآمرانِ لِسحْبي إلى حالةٍ من القنوطِ و القتامة و لكنّي تعلّمْتُ الدّرس جيداً من قبلُ: متى ما كنتُ اشعرُ بنفسي و هي تنزلِقُ في وهدة القلق و القنوط كانت كينونتي الذاتيّة ترتفعُ إلى مستوىً أعلى من الضّبط و السّيطرة و هكذا يعودُ كلّ شيءٍ بعدها

ليكون رائعاً كما عهدتهُ من قبلُ. تعلّمْتُ لاحقاً أنّ نوبة الهلع الملعونة إذا ما داهمتْني منتصف الليل فإنّ الطريقة المثلى في التعامل مَعها هو أن أستيقظَ تماماً و أغادر الفراش، و أدركْتُ أنّ مخاوفي في تلك الحالة كانت بصورةٍ أساسيّة لا تعدو أن تكون سخافةً مطلقةً أتسبّبُ بها أنا لنفسي، و إعتدْتُ على تسميةِ حيلتي في السيطرة على نوبة الهلع تلك (تأثير معلّمة المدرسة) لأنّ الأمر بدا لي مثل معلّمة مدرسة تدخلُ صفّاً مكتظّاً بأطفالٍ يتنازعون و ما أن تصفّق المعلّمة بيديّها حتّى يحلّ فجاةَ صمْتٌ شاملٌ وَ تسودَ السّكينةُ.

واظبْتُ على العمل الشاقّ كعادتي، و في الأسبوع الاوّل من تشرين أوّل كتبْتُ عشر مقالاتٍ حول الجّريمة و غادرْتُ بعدها مع عائلتي إلى فرنسا لقضاءِ عطلة هناك و لا زلْتُ أتذكّرُ كيف كنتُ أقودُ السّيارة بمتعةٍ حول منطقة النورماندي و دهشْتُ أثناء تلك العطلة لإختفاء أيّ عارضٍ صحّي يصلحُ أن يكون مادّة مناسبة للشكوى و شعرْتُ بِراحةٍ و بهجةٍ مُكتملتيْن و لجأتُ حينها إلى تطبيق تكتيكٍ قديم واظبْتُ عليه طويلاً و أسْميْتهُ (حيلة القدّيس نيوت القصوى St. Neot Margin Trick): دفْعُ العقل إلى تخومٍ أبعد عبْر إدراك حقيقة أنّ أمراً ما – مهما بدا سيّئاً إلى حدودٍ لا تطاقُ – يمكنُ أن يكون سيّئاً عشر مرّات أكثر من سوئه الآن و كانت هذه الفكرةُ تبعثُ فيّ راحةً فوريّة وَ حاسمة. مكثت نوباتُ الهلع معي لبضعةِ أشهرٍ حتّى أنّ دفتر يوميّاتي لم يكن يحتوي أيّة مداخل أو إشاراتٍ للبقيّة الباقية من عام ١٩٧٣ لأنّ طاقتي كانت مُتراجعة و لكنّ زيارةً لصديقي بوب دي ماريا Bob DeMaria ملأت قلبي إنشراحاً: أخبرَني بوب أنّهُ هو الآخرُ إختبرَ سلسلةً من نوبات هلعٍ قاسية و مضى لإستشارة طبيبٍ نفسيٍّ بشأنها و أثبتَ الطّبيبُ انّهُ كانَ نزيهاً بما يكفي ليقولَ لصديقي بوب

بكلّ وضوحٍ: " أنظرْ،، أستطيعُ أن أجعلكَ تخسرُ الكثيرَ من المال في محاولةِ معرفة السّبب الّذي يقفُ وراء نوباتك هذه و لكنّ الأمر لن يعدو أن يكون خسارةً للمال و لن يقودَ إلى ايّة نتيجةٍ حاسمة لأنّ نوبات الهلع لا تستمرُّ في العادة لأكثر من ستّة شهورٍ في كلّ الأحوال. " و أكّدَ لي بوب أنّ ما قالهُ الطبيبُ كان دقيقاً إلى أبعد الحدود، و لو توخّيْتُ الحقيقة الكاملة لأمْكنني القوْلُ انّني كافحْتُ بلا هوادةٍ للإمساك بلجام سيطرتي على حياتي و نجحْتُ نجاحاً مميّزاً في كبح جماح نوبات هلعي و لكنّ الأمر تطلّبَ منّي جهداً مستنفِداً لقواي إذ كنتُ معظم الوقت أعاني من ذات الحالة الّتي وصفَها غراهام غرين قبل خوضهِ تجربة الروليت الروسيّ المُرعبة: إحساسٌ طاغٍ بالإنقباض و الإختناق و مع ذلك كان يمكنُ لهذه الأعراض المُعوّقة أنْ تزولَ فجأةً بسهولة ملحوظة.

خلّفَتْ فيّ نوباتُ الهلع قدراً عظيماً من الإنهاك، و إختبرْتُ ذلك الإنهاكَ عندما أمضيْتُ ثلاثةَ أشهرٍ في فيلادلفيا الأمريكيّة أواخر ربيع عام ١٩٧٣، و قضيْتُ تلك الأشهر بصفتي " أستاذاً زائراً " و تشاركْنا منزلاً مع بروفسورٍ من طائفة السبتيّين Sabbatical (السبتيّون أو الأدفنتست Adventist: **طائفة إنجيليّة بروتستانتيّة ظهرت في أمريكا منتصف القرن التاسع عشر، المُترجمة)** و كان المنزل ذاك يقعُ في منطقةٍ رائعة ضمن ضاحية من ضواحي فيلادلفيا الشّماليّة. كان عليّ معظم أيّام الأسبوع أن أقود سيّارتي لإلقاء محاضراتٍ في جامعة روتغرز Rutgers University في ذات المنطقة الّتي عاش فيها والت ويتمان جزءً من حياته، و كنتُ في ذلك الوقت أيضاً أكتبُ مقالاتٍ في سلسلة (الجرائم و العقاب) رغم أنّ السلسلة بدت و كأنّها إستنفدت أغراضها، و كنتُ في نهاية كلّ يوم عملٍ تقليديّ أشعرُ بأنّني منهكٌ تماماً بحيث

لم يكن في مقدوري فعلُ شيءٍ سوى التّهالك في كرسيّ و الإستغراق في سماع الموسيقى أو مشاهدة التلفاز. تشاركْتُ السّكن في روتغرز لبعض الوقت مع آلن غينسبرغ Allen Ginsberg و راودتْني هناك الفكرةُ المدهشةُ الّتي طالما أنعشت روحي عندما كنتُ ألقي محاضراتٍ في كليّة هولينز و جامعة واشنطن (في سياتل) قبل بضع سنواتٍ: فكرةُ أنّ العيشَ في أمريكا سيكونُ تجربةً باعثةً على الإسترخاء أكثر بكثيرٍ من مجرّد الحفاظ على الوجود الفيزيائيّ المحض عبْر مطحنة تأليف كتابٍ بعد الآخر، و كان الأمرُ الوحيدُ الّذي يُعطّلُني عن تنفيذ هذه الفكرة هو إضطراري حينئذٍ لترْكِ والديّ إلى جانب كتبي و أسطواناتي الّتي جمعْتُها على مدى ثماني عشرة سنة.

بعْدَ عودتِنا من فيلادلفيا الأمريكيّة قبلْتُ دعوةً من أحد الناشرين العرب لزيارة بيروت، و كنتُ أعلمُ منذ سنواتٍ خلَتْ أنّ كتبي تمّ قرصنتُها و تداولُها في البلدان العربيّة بلا أيّة حقوقٍ مترتّبةٍ لي و لكنّ ناشري البيروتيّ: الدكتور إدريس (واضحٌ أنّ ويلسون يُشيرُ إلى الدكتور **سهيل إدريس صاحب دار نشر الآداب البيروتيّة، المُترجمة**) وافقَ على دفع أتعابي المستحقّة في مُقابل توقيعي على إتّفاقٍ تحريريّ أمنحهُ فيه تخويلاً حصريّاً بنشر كلّ أعمالي في العالم العربيّ و منَحني الرّجل خمسمائة جنيه فور توقيعي على الإتّفاق. عندما هبطت طائرتُنا في مطار بيروت قدمت نحوَنا المُضيفةُ و أعلمتْنا أنّنا سنكونُ أوّل المُغادرين من الطّائرة ثمّ رافقتْنا نحو باب الطّائرة، و ذُهلْنا عندما هبطْنا درجات السلّم إلى الأسفل و إستقبلَنا طاقمٌ كاملٌ كان على رأسه محافظ بيروت الّذي توجّب علينا السّير بجانبه على السجّادة الحمراء و حينَها إكتشفْتُ و للمرّة الأولى أنني واحدٌ من أكثر المؤلّفين الأجانب مقروئيّةً في الشّرق الأوسط و تأكّدت قناعتي هذه بعد بضعة ايّامٍ عندما أخذَنا مضيفونا

الفلسطينيّون بالسيّارات إلى دمشق و بالتحديد إلى منزل وزير الدّفاع السوري الجنرال طلاس و هناك أخبرَني الجنرال أنّهُ عندما كان نزيل السّجن مع أخيه في سجون النّظام السّابق (للنظام الحاكم آنذاك) فإنّهما كانا يمضيان الوقت في القراءة و حصل أن قرءا النسخة العربيّة من روايتي (طقوسٌ في الظّلام) و كانا يضطرّان إلى خلع أوراق الرواية من الكتاب ثمّ تسريبها داخل السّجن لكي تمضي عمليّة القراءة بسلام. بعدَ أن عُدْنا إلى بريطانيا عقب إنقضاء جولتنا البيروتيّة تسلّمْتُ دعوةً لجولةٍ في إيران وَ إلقاء بعض المُحاضرات فيها (كان هذا بالطّبع أيّام الشّاه) و لكن لم استسِغْ فكرة أن أزورَ بلداً يتوجّبُ فيه ترجمة كلّ كلمة أقولُها لذا رفضْتُ فكرة تلك الزيارة. بعدَ فترةٍ قصيرة من زيارتي إلى بيروت – الّتي أدهشتْني بيئتُها المتحرّرة و المتحضّرة – غرقت المدينةُ في أجواء الصّراع العربيّ – الإسرائيليّ و إضطُرَّ ناشري البيروتيُّ لتصفيَة نشاطاته.

* * * * * * * * * *

فتحت نوباتُ الهلع الّتي إنتابتْني الكوّةَ أمامَ سيلٍ من الأفكار الّتي أبانت عن فائدتِها العَظيمة في إعداد كتبي اللاحقة: بدا لي واضحاً أنّ تلك النّوبات دفعتني إلى مدياتٍ أكبر من السيطرة على ذاتي و جعلتْني أدرِكُ و بيقين كامل أنّ معظم النّاس يرتقون إلى ماهُمْ عليْه ثمّ لا يلبثون أن يمكثوا على ذلك الحال و لا يُغادرونهُ إلى ماهو أبعدُ و يبدو الأمرُ معهُم في ذلك الحال كما لو أنّهم تعلّموا كلّ ما يمكنُ لهم أن يتعلّموه في حياتهم و قبلوا بقضاء حياتهم بطريقةٍ تكراريّة و ميكانيكيّة عبر النموذج المعهود للعمل معظم أيّام الأسبوع ثمّ الإسترخاء أثناء العطل الأسبوعيّة و الإجازات فحسبُ.

طلبَت إليّ في ذلك الوقت هيئة الإذاعة البريطانيّة تقديم سلسلةٍ من البرامج التلفزيونيّة تحت عنوان (قفزة في الظّلام A Leap in the Dark) و كانت كلّ حلقةٍ من حلقات هذا المُسلسل تحكي رواية عن حالة مفارقة للطبيعيّ Paranormal وكان التصويرُ يجري في الأماكن الّتي حصلت فيها تلك الحـالات، و تضمّنتِ الحكايات قصصاً عن الأشباح، وَ الأرواح الشرّيرة Poltargeist، وَ المعرفة المسبّقة Precognition،،،،. حكت إحدى تلك الحلقات التلفزيونيّة عن حالةٍ غريبةٍ لشخصيّاتٍ متعدّدة كانت تظهرُ بها إحدى مريضات الدّكتور مورتون برينس Morton Prince الّذي سجّلْتُ معهُ تلك الحالة بوجود مريضته الّتي دعوْناها بإسمٍ مستعار هو (كريستين) و كان ملخّصُ حالتها أنّها بعد أن عانت من صدمةٍ وجدانيّة عنيفة إنكفأت على نفسها و سقطت في فخّ الإكتئاب المدمّر ثمّ راحت كريستين تختبِرُ فتراتٍ من فقدان الذّاكرة amnesia كانت خلالها تتقمّصُ شخصيّة أخرى إعتادت أن تدْعوها (سالي) و كان من الواضح أنّ سالي إحتوت الوجود الجسديّ لكريستين بالكامل و كانت تدفعُها للإنطلاق في نزهاتٍ ريفيّة بعيدة عن المنزل، و بعد أن كانت كريستين تفوقُ من نومها كانت تجدُ نفسها بعيدةً للغاية عن المنزل الأمرُ الّذي يجعلُها تُصابُ بالدّهشة و الحيرة معاً. أدهشتْني حالةُ كريستين إلى جانب عشراتٍ من حالات " الشّخصيّات المتعدّدة " الّتي سجّلناها في الحلقات التلفزيونيّة، و كانَ ما يبعثُ على دهشتي بشأنِها أكثر من أيّ شيءٍ آخر هو كونُها حالات نجمت عقبَ نوبة إكتئابٍ حادّة تماماً مثل نوبات الهلعِ الّتي إنتابتْني. بعْدَ أن تمكّنْتُ من النّجاحِ في دفعِ نفسي بعيداً عن لُجّة الإكتئاب و القنوط عبر وسيلة الإرادة المركّزة و الموجّهة و نجحْتُ في جعْلِ نفسي شخصيّةً أقوى من ذي قبلُ مضيْتُ

أتساءلُ: هل نمتلِكُ جميعنا عدّة أنفُسٍ و عديداً من الشّخصيّات ؟ بدا لي حينذاك أنّنا جميعاً نرتقي إبتداءً من طفولتِنا و تكونُ لنا خلال ذلك الإرتقاء التطوّري سلسلةٌ من الأنفس و بدا لي أيضاً أنّ دوافعنا البيولوجيّة هي ما يدفعُنا إلى الإرتقاء عبْر سُلّم الأنفس Ladder of Selves و يبدو أنّ الفعاليّة الإرتقائيّة هذه تحصلُ بطريقةٍ سلسة و تلقائيّة و من غير جهدٍ عظيم من جانبِنا عندما نرتقي من الطّفولة نحو اليفاعة ثمّ البلوغ، و لكن يحصلُ عند البلوغ أنْ تنكفئَ قوّة الحياة الدّافعة و تتراجعُ و لايعودُ لها ذلك الـدّورُ الحاسِمُ في الإرتقاء و يتوجّبُ علَيْنا حينها أن ندفع ثمناً مُؤلماً وَ مُكلِفاً إذا ما شئنا الإرتقاء بإستخدام إرادتنا الذّاتيّة نحنُ و هذا هو بالضّبط ما أسماهُ غوردجييف " المُعاناة المقصودة Intentional Suffering ". لايبدو لي سُلّم الأنفس هذا مثل أيّ سلّم عاديّ بجانبيْن مُتوازِييْن بل هو أقربُ إلى مثلّثٍ مسحوبٍ من أحدَ أركانه و متى ما أرتقيْنا فيه إلى الأعلى غدتْ درجاتُهُ اقصرَ و توجّبَ علَيْنا بذلُ جهدٍ أعظم لنحافظَ على موطئِ أقدامِنا ضمن ذلك الحيّز الضيّق من السُلّم، و يبدو أنّ معظم النّاس لا يجدون سبباً كافياً لركوب المخاطرة و الإرتقاء إلى آفاق جديدة بعد أن يكونوا قد أسّسوا لأنفسهم حياةً مستقرّة و إمتلكوا بيتاً و عائلة و إستطابوا المكوث في ذلك الحيّز لبقيّة حياتهم، و لكنْ من الواضح أنّ بعض الأفراد لا يقبلون فكرة المكوث في ذات عتبة إرتقاءهم التطوّري و من ثمّ القبول بالرّكود السكونيّ، و يختبِرُ هؤلاء على الدّوام دافعاً داخليّاً غامضاً يدفعهُم دفعاً إلى الإرتقاء في سُلّم التطوّر و هؤلاء هم الفئةُ الّتي يصحُّ إدراج اللّامنتمين فيها.

٢١. التأريخ الإجراميّ

كنتُ لا أزالُ أعاني بين الحينِ و الآخر من بُرهاتِ تراجعٍ في طاقتي الحيويّة و إنزلاقي في لُجّة الرّكود و لكن كنتُ أدفعُ بنفسي دفعاً إلى الأمام دوماً بعدَ أن أتقنتُ كيفيّة التّعاملِ مع نوبات هلعي، أو بكلامٍ أكثر بلاغةً " تعلّمتُ كيفَ أمنعُ الحليبَ من الغليان و الإنسكاب خارجَ القِدْر ". إنتابَني شعورٌ بالتّراجع و الإنكفاء عام ١٩٨١ أثناء إنكبابي على كتابة (الأرواح الشّريرة Poltergeist): فعنْدما كنتُ مُنغمساً في قراءة المصادر الخاصّة بإعداد هذا الكتاب في شهر شباط من تلك السّنة إتّصلَ بي وكيلُ أعمالي و أعلمَني أنّ مجلّة (ريدرز دايجست Reader"s Digest) العالميّة عرضت عليّ مبلغ ثمانية عشر ألف دولار (ما يعادلُ سبعة آلاف جنيهٍ في ذلك الوقت) لقاء كتابة روايةٍ قصيرةٍ عن راسبوتينRasputin، و في اليوم ذاتهِ عرضِت عليّ دارُ نشرٍ صغيرةٍ مبلغ ثلاثة آلاف جنيْهٍ كأتعابٍ نظير كتابة كتابٍ يتناولُ موضوعة (العِرافة Witchcraft)، و لمّا كنّا قد سحبْنا ألفَيْ جنيه من البنك على المكشوف فإنّ مبلغ العشرة آلاف جنيه المُتوقعة عن أعمالي كانت تبدو ذات جاذبيّةٍ لاتُقاوَمُ، و المشكلةُ الوحيدةُ الّتي وقفت في طريقي آنذاك هي إتّفاقي المكتوب على تسليم نسخة كتاب (الأرواح الشّريرة) مع نهايةِ حزيران من ذلك العام، و طلبِتْ دار النّشر أن يكون حجم ذلك الكتاب في حدود المائة و عشرة آلاف كلمة و كانَ هذا يعني لي كتابة مُسوّدة أولى للكتاب لاتقلُّ كلماتُها عن المائتيْن و عشرين ألف كلمة في أقلّ من خمسة شهورٍ !!، و حين طلبْتُ من وكيلي الأدبيّ أن يعملَ

على إقناع النّاشر (المكتبة الإنكليزيّة الحديثة New English Library) على منحي شهراً إضافيّاً لإكمال العمل مع نهاية شهر تمّوز جاءني الجّوابُ بالرفض القاطع لأنّ جدولَ عملهم المُزدحم تطلّب أن يشرعوا في مُراجعةِ مسوّدة كتابي مع منتصف آب. في صباح اليوم ذاته الّذي جاءَني فيه جوابُ الرّفض من دار النشر ذهبْتُ لرؤية طبيبي الّذي كان يفحصُ ضغطَ دمي بإنتظامٍ فأعلمَني أنّ ضغط دمي كان عالياً: ١٥٥ / ١١٥»، و أنّني ما لم أعمَلْ بجدّيّة على تخفيضه و السّيطرة عليْه فسأكونُ عرضةً لسكتةٍ دماغيّةٍ أو نوبةٍ قلبيّة، كما أوْصاني طبيبي بضرورةِ خسارةِ ما لايقلُّ عن عشرين رطلاً من وزني المتراكم. عدْتُ إلى المنزل و أنا اشعرُ بكآبةٍ عميقة و مضيْتُ على الفور إلى مكتبي لإكمال العمل على كتاب (العِرافة) و كنتُ آنذاك منكبّاً على كتابة فصلٍ عن وسائل وَ طرق تعذيب السّاحرات في القرون الوسطى: صَبُّ غالوناتٍ من الماء داخلَ حناجرهنّ بإستخدام قُمعٍ، أو كيّهُنّ بالحديد الساخن حدّ التوهّج،،،، و هو مادفعَ بي أكثر إلى الإنزلاق في قعر مستنقعِ الأكتئاب العميق، و في لحظةٍ ما شعرتُ أنّ إكتئابي ذاك كان طاغياً إلى حدّ أنّني فزعْتُ خشيةً من أن أكون على حافّة إنهيارٍ عقليّ و نفسيّ كاملِيْن و شعرْتُ حينَها بالضّبط كما لو كنتُ أغوصُ في مستنقعٍ من الطّين اللّزج، و عندما جلسْتُ إلى منضدتي للشروعِ في الكتابة تدحْرجَ قلمي و سقط على أرضيّة المكتب فأرغمْتُ نفسي على الإنحناءِ و إلتقاطه و بعد أن فعلْتُ هذا الأمر تلاشى إكتئابي سريعاً كما لو كان فقاعةً إنفجرَتْ و بدا الأمرُ كما لو أنّ باعثاً سلبيّاً كان يدفعُني إلى التخاذل و الإستسلام و لكنْ في اللحظة الّتي رفضْتُ فيها الإنصياعَ لسطوةِ هذا الباعث السلبيّ إختفى تأثيرهُ تماماً، و شعرْتُ حينها بإرتياحٍ عظيم شبيهٍ براحة جنرالٍ عسكريّ حقّق إنتصاراً في

معركةٍ فاصلة، و هكذا واصلْتُ العملَ يوماً بعدَ يوم: أكملْتُ كتاب (العِرافة) خلالَ شهرٍ، ثمّ عملْتُ بعدها على رواية (راسبوتين) و أكملْتُها ايضاً، ثمّ شرعْتُ بالعمل على كتابة (الأرواح الشّريرة)، و معَ منتصف شهر أيّار من ذلك العام أكملْتُ الكتابَ قبلَ يومٍ واحدٍ من موعد تسليمه المُقرّر إلى النّاشر.

بينما كنتُ أضعُ اللّمسات الختاميّة لكتاب (الأرواح الشّريرة) جاءتْني أخبارٌ سارّة: كانت شركة إنتاج سينمائيّ صغيرة تُدعى كانون Cannon قد إختارت قبل سنتيْن روايَتي (مصّاصو الدّماء الفضائيّون Space Vampires) لتحويلِها إلى فكرة فلمٍ سينمائيّ، و هاهي الشّركةُ الآن تُعْلِمُني بأنّها قرّرت المُضيّ في العملِ على إنتاج الفلم و منحتْني لقاء ذلك ثلاثة عشر الف دولار لقاء الرواية و كان ذلك المبلغُ من المال أعلى مبلغٍ تسلّمْتهُ في حياتي حتّى ذلك الحين، و إستخدمْنا ثلاثة آلاف و خمسمائة دولاراً من المبلغ لإطفاء رهنٍ عقاريّ مُستحقٍّ على منزلنا، و إختبرْنا شعوراً طافحاً بالسّعادة و البهجة بعدَ أن إستطعْنا أخيراً تأمينَ حالتِنا الماليّة من تبعاتِ السّحب المُفرط على المكشوف.

عندما أنظرُ إلى الوراء اليوم و أعاينُ تلك الأيّام الّتي كنتُ أعاني خلالها من نوبات إكتئابٍ عميق أدركُ أنّ تلك النّوبات علّمتْني أمراً حاسماً كنتُ أدرِكهُ آنذاك بطريقةٍ مُشوّشة: يبدو لي أنّني كنتُ طيلة حياتي في حاجةٍ لمُواجهة نمطٍ من التحدّيات المتواصلة كما لو أنّ " ملاكي الحارسَ " كانَ قد حزمَ أمرهُ و علمَ أنّ الطريقة الفضلى لإستخراجِ أفضل مافي مكنوناتي الداخليّة هي بِجعْلي أكافِحُ بإستمرارٍ و بلا هوادة، كما تعلّمْتُ أنّ واحدةً من أهمّ السّمات الّتي تسِمُ الكائنات البشريّة هي أنّ النّجاحَ يدفعهُم ليكونوا كائناتٍ

ميكانيكيّة، و لكن بدا أنّ قدَري كان لايتهاونُ في دفْعي إلى بذْل المزيد من الجّهدِ و العمل و كأنّ عفريتاً خفيّاً كانَ يُراقِبُني و يدقّقُ فيما أبذلُ من جهْدٍ و إنضباطٍ في العمل. كانت سنواتُ مراهقتي كفاحاً لا ينتهي في مُواجهةِ العوامل الباعثة على الإحباطِ و الخذلان و كنتُ بالفعل قد لامسْتُ قاعَ مستنقع الوهن و الإستسلام عندما عزمْتُ على الإنتحار، و لكن من جانبٍ آخرِ كنتُ في أحلكِ الظّروف قادراً على الإحتفاظِ معظم الأوقات بحسٍّ تفاؤلي من خلال إقناع نفسي بأنّ الأمورَ سائرةٌ في طريق الإرتقاء لا محالة و هو الأمرُ الّذي تَحقّقَ فعلاً في السّنوات الّلاحقة، و لكنّ نجاحَ (اللامنتمي) تطلّبَ نوعاً غيْر معهودٍ بالكامل من الإنضباط الذّاتيّ: الإحتفاظُ بحسٍّ من الغاية المُوجّهة نحوَ هدفٍ ما على الرّغم من كلّ المُعيقات و المُغريات الّتي تُحاولُ حرْفَ إنتباه المرء عن عمله، و كانت ردّةُ فعلي أزاء تلك المُغريات المُعيقة عن العمل هي الهُروبُ من لندن و الإلتجاءُ إلى كورنوال و المكوثُ فيها طول الوقت.

جلبَ لي النّقدُ العنيفُ الّذي قوبلَ به كتابي الثّاني مشكلةً لم أتعاملْ معها من قبلُ: كيف يمكنُ لي المضيُّ في تحصيل مورد معيشتي ككاتبٍ بدتْ شهرتهُ الأدبيّة و كأنّها تحطّمتْ و غدت عصيّة على أيّ إصلاحٍ معقول ؟ و لازمتْني تلك المشكلةُ ذاتها للسنوات العشرين اللاحقةَ من حياتي، و كان عليّ دوماً أن أُدبّجَ كتاباً بعد كتابٍ و أن أعيشَ أنا و عائلتي على مقدّمات أتعاب كتُبي و كنتُ أشعرُ طول الوقْتِ كَمَنْ يسعى لإنقاذ قاربٍ يوشكُ على الغرق بمحض محاولة غرْف الماء من داخله بإستخدام كوب شايٍ صغير. تسبّبَ نجاحُ كتابي (السّحريّ و الغامض The Occult) في جلْبِ شيئٍ من الرّاحة المؤقّتة لي ثمّ داهمتْني مشكلةٌ جديدة عندما تسبّب لي فرط العمل الواجب لإدامة حياة

عائلتي بنوْباتٍ من الهلع عام ١٩٧٣ و لم يكنْ بوسِعي الإنهزامُ و الإستسلامُ أمام تلك النّوبات اللعينة و من ثمّ السّقوط في فخّ الإنهيار العصبيّ: فقد كانت لديّ عائلةٌ ينبغي عليّ أن أُعيلَها في نهاية المطاف و لم يكن التّخاذلُ و الإنهزامُ مسموحاً بِهما تحت أيّ حالٍ من الأحوال، و لحسْن الحظّ تمكّنْتُ من السّيطرة على تلك النوبات من خلالِ إتقان آليّات الضّبط السايكولوجيّ الذّاتيّ، و بدأتُ أدركُ لاحقاً أنّني أنا – و ليس إمرءٌ آخر – من يتوجّبُ لوْمهُ لتسبّبِهِ في إحداثِ نوبات الهلع تلك: فعندما كنتُ أجلسُ للكتابة كان ثمّة دافعٌ بداخلي يدفعُني دفعاً إلى العمل و إستعجال النتائج و من غيْر أيّ صبرٍ محمودٍ لقطْف الثّمار و هو ما يوضّحُ مثلاً كيف أمْكنني كتابةُ كتابٍ ضخمٍ مثل (السّحريُّ و الغامض) في أقلّ من ستّة شهورٍ و حسبُ، و لو حصَلَ و طرأ أمرٌ ما و أرغمني على التوقّفِ عن الكتابة خلال ذروة طوفان الأفكار في رأسي لغدوْتُ على الفور إنساناً مُحبطاً و ضيّق الصّدر، و كان حينها ينتابُني إحساسٌ بأنّ جهدي لم يكن يستحقُّ مُكابدَتي الكاملة و إنكبابي الدّائم على العمل و حينها تكونُ النتيجةُ الحتميّة المُتوقّعةُ في مثل تلك الظّروف هي خسارة طاقتي الدّاخليّة، و كان حينها يسودُني شعورٌ مماثِلٌ للشعور الّذي عناهُ (أودن Auden) عندما كتبَ:

أركنِ السّيّارة جانباً عندما تغدو الحياةُ فشلاً ذريعاً،،،

فما الخيْرُ الّذي ترتجيه بعد ذلك من الّذهاب إلى ويلز ؟

و تلك حالةٌ شديدةُ الخطورة للغاية لأنّها لو أستمرّت لفترةٍ ما من الوقت فستغدو الحياةُ بعدها بالتأكيد فاقدةً لأيّ معنىً و عبثيّة بالكامل، وَ ما يُفاقِمُ الحالة أكثر أنّ طاقتنا الحيويّة متى ما تناقصتْ كثيراً فسيكونُ من الصّعوبة البالغة إعادتُها إلى مستوياتها الإعتياديّة لاحقاً، و في كلّ

مرّةٍ تُواجِهُنا فيها متطلّباتٌ تبدو ثقيلة الوطأة فإنّنا نغرقُ في حالةٍ من الضّجر العميق و حينها تغدو الحياةُ – و على نحوٍ مفاجئٍ – غير محتملة العيْش لنا، و في تلك الأجواء نبدأُ بإختبار نوبات الهلع كمَن أوشك على الغرق في بحرٍ هائجٍ، و علّمتْني نوباتُ هلعي القاسية كيفَ أبطِلُ تأثير الشعور " الّذي يدفعُني إلى الغرق " قبل أن يتمكّن ذلك الشّعورُ من إمتصاص و تفريغ كلّ طاقتي الحيويّة، و لكنّ هذا كان محضَ جزءٍ من حلّ المشكلة، أمّا الجّزءُ المُتبقّي من الحلّ فكانَ يتمثّلُ في إستعادة الحسّ بالحماسة والغاية تجاهَ هدفٍ ما و ربّما كانت الطّريقةُ الأكثرُ سهولةً لفعْلِ ذلك هي محاكاةُ مفترضةٌ لمُعاناتي من كارثةٍ تخيّليّة – ربّما مثلما إعتاد غراهام غرين أن يفعل مع لعبة الروليت الرّوسيّة –: نظريّاً ثمّة إمكانيّةٌ فائقةٌ للكائنات البشريّة في بلوغِ أيّ مستوىً من السّعادة أو شدّة الوعي الّذي يقعُ إختيارهم عليْه بإستخدام " العقل ذاته " و إدراكِ كمْ هي كثيرةٌ الأمورُ المُروّعةُ الّتي لم نختبرْها في حياتنا (و ينبغي أن يملأنا هذا الإدراكُ سعادةً عظمى) و أظنُّ أنّ أوّلَ من سينجحُ في تعلّم هذه الحقيقة بسهولةٍ و طلاقةٍ طبيعيّة و تلقائيّة للغاية سيُحقّقُ واحداً من أكثرِ الأهداف الأساسيّة في تطوّرِنا البشريّ.

بعدَ أسبوعيْن من إكمالِ كتابي (الأرواح الشّريرة) إنطلقْنا إلى فنلندا حيثُ كان مطلوباً منّي إدارةُ بضعِ حلقاتٍ نقاشيّة (سِمِنارات Seminars) هناك، و في تلك الحلقات النقاشيّة تمكّنْتُ من بلوغِ بعض الإكتشافات المثيرة و الجديدة فيما يخصُّ قدرات النّصف الأيمن للدماغ البشريّ. بعدَ أن مضت بنا السيّارةُ إلى مطار هيثرو أقلعت بنا طائرةٌ إلى هلسنكي، و من هناك إنطلقْنا إلى مكان إقامتِنا الّذي

ستُعقدُ فيه الحلقاتُ النقاشيّةُ و الّذي يقعُ في غابةٍ قصيّة تُدعى فيتاكيفي Viitakivi، و أثبتتْ فكرةُ زيارة فنلندا بعد إنجازي لكتابة ثلاثة كتبٍ في مدى ثلاثة شهورٍ فحسبُ بأنّها كانت فكرةً صحيحةً و ناجحة للغاية لأنّ إسم فنلندا ذاته إستحضرَ في ذهني على الفوْر البُحيْرات، وَ غابات البلّوط، و موسيقى سيبيليوس (جان سيبيليوس Jean Sibelius: **مؤلّف موسيقيّ فنلنديّ عاش في الفترة ١٨٦٥ - ١٩٥٧ و يعتبرُ أهمّ الموسيقيّين الفنلنديّين في الفترة الرومانتيكيّة المتأخّرة. لعبت موسيقاهُ دوراً عظيماً في تشكيل الهويّة الوطنيّة الفنلنديّة، المُترجمة)**. غادرْنا الطّائرةَ بعدَ وصولها هلسنكي و كان في إستقبالِنا رجلٌ مُلْتحٍ يتكلّمُ بلغةٍ مشوبةٍ بلكْنةٍ أمريكيّة و قدّم نفسهُ إليْنا بإسم براد أبسيتز Brad Absetz، و مضيْنا على الفوْر إلى محلٍّ لتقديم الشّاي قديم الطّراز و بدا أنّ حالهُ لم يتغيّرْ في شيءٍ منذُ أيّام (إبسن) وَ(سترندبيرغ)، وَ راحَ براد يحدّثُنا عن فيتاكيفي الّتي بدتْ لنا شبيهةً بِـ (إيسالين Esalen) الكاليفورنيّة و كانت تتلقّى دعماً ماليّاً و رعايةً من جانب الحكومة الفنلنديّة، و كانت الدّروس الّتي تدرّسُ في فيتاكيفي واسعة الطّيف و تشمل موضوعاتٍ عديدةً شديدةَ التبائُن مثل الأديان العالميّة و الزراعة العضويّة. أدهشَني براد غاية الإدهاش و كان واضحاً لي أنّ الرّجلَ نجحَ نجاحاً مُبهراً في إقامة إتّصالٍ مباشرٍ مع النّصف الأيمن من دماغه و هذا أمرٌ قلّما يحدثُ مع الكائنات البشريّة، و من الطبيعيّ أنّ كلّ الأفراد ذوي القدرات العبقريّة يمتلكون قدرةً فائقةً على الإتّصال مع النّصف الأيمن من أدمغتهم: قالَ موزارت مرّة أنّ النّغمات تتجوّلُ في دماغه بحرّيّة و كلُّ ما يتوجّبُ عليْه فعْلهُ هو تسجيلُ تلك النّغمات على الورق، و يصحُّ الأمرُ ذاته مع رسّامٍ مثل جاكسون بولوك Jackson Pollock **(رسّام أمريكيّ عاش في الفترة ١٩١٢ - ١٩٥٦ و يمثّلُ الشخصيّة المؤثّرة**

الرئيسيّة في حركة الإنطباعيّة التجريديّة، و أشتُهرَ أيضاً بالرّسْم التنقيطيّ Drip Painting، المُترجمة)، و ينبغي على الفنّانين دوماً أن يُمارسوا قدراً هائلاً من التمرين للسيطرة على أنصاف أدمغتهم اليسرى (مثلما يفعلون مع اليمنى التي تبدو مطواعةً لهم بالكامل).

بالنّسبة لي كان تعليمُ ذاتي على الكتابة عمليّة شاقّة طويلة و غيْر مُشجّعة: في سنواتي المُبكّرة كان مِنَ المُمْكن أن أمضيَ مساءً كاملاً و انا أكتبُ بسرعةٍ و طلاقة و لكن بعدما كنتُ أقرأُ في صباح اليوم التّالي ما كنتُ كتبتهُ مساء اليوْم السّابق كانت تأوّهات الإحباط وَ الحرج تنطلقُ منّي على الفور و لكنّي مضيْتُ بإصرارٍ و عنادٍ في طريق الكتابة لعلْمي المُؤكّد أنّ كوْني كاتباً هو الوسيلةُ الوحيدةُ المُتاحةُ أمامي للتخلّصِ من عبء مُكابدة العمل في الأعمال المنفّرة لروحي، و حصلَ ذاتَ صباحٍ أن قرأتُ ما كنتُ كتبْتهُ في مساء اليوم السّابق و أحسسْتُ أنّ هذا هو بالضّبط ما كنتُ أبتغي قولهُ، و أدركُ اليوم أنّ نصفَيْ دماغي صارا يعملان بتناغمٍ و إتّساقٍ: النّصفُ الأيمنُ يوفّرُ الإستبصارات و الرّؤى فيما يعملُ نصفُ دماغي الأيسرُ على تحويلِ تلك الإستبصارات و الرّؤى إلى كلماتٍ يمكنُ تدبيجُها على الورق، و بدأتُ أرى اليوم أنّ الأمر الأكثر اهمّيّة في السرّ كلّه يكمنُ في معرفة أنّ ثمّة " نفسٌ أخرى " حاضرةٌ لمدّ يد العون دوماً، و للأسفِ فإنّ معظمَ البشر يقضونَ معظمَ حياتهم في حالةٍ من الشّقاء و التوتّر لِكوْنهم يعتقدون أنّهم وحيدونَ على الدّوام – و هم مخطئون في هذا الإعتقاد بالتّأكيد – مثلما كنتُ أظنُّ أيّام معاناتي مع نوْبات الهلع القاسية، و لمّا كنتُ لا أزالُ أُعاني شكلاً مُخفّفاً من التوتّر الطبيعيّ أثناء مكوثِنا في فنلندا فقد رأيْتُ أنّ براد يمتلكُ خبرةً ثمينةً للغاية و ينبغي لي أن أتعلّمها منهُ، و هو السّببُ ذاتهُ الّذي دفعَني لكتابة كتابي (منفذٌ إلى العوالم الدّاخليّة Access to

Inner Worlds) فوْر عودتي إلى إنكلترا مباشرةً، كما دَفعُني ذات السّبب لدفْعِ نصفِ أتعابي المتحصّلة من الكتاب إلى براد أبسيتز.

دفعتْني موضوعةُ " فسلجة العقل المُنشطر Split – Brain Physiology " إلى كتابة كتابيْن: (منفذٌ إلى العوالم الدّاخليّة) وَ (قلعة فرانكنشتاين Frankenstein"s Castle)، ثمّ دفعتْني الموضوعةُ ذاتُها في إتّجاه الكتابة عن الجّريمة و المُجرمين، و إبتدأتُ أفكّرُ جدّياً بكتابة مجلّدٍ ضخم و شاملٍ عن (تاريخ الجّريمة و الحضارة) بحيثُ يقفُ نِدّاً أمام كتبي الضّخمة الأخرى (السّحريّ و الغامض) وَ (الأحجِيات). كانت بريطانيا بعد عوْدتنا من فنلندا وسْطَ دوّامةٍ واحدةٍ من أزماتها الإقتصاديّة الضّارية و قد إنعكسَ تأثيرُ تلك الأزمة حتماً على عالم النّشر و تناهى إلى أسماعي من أصدِقائي الكُتّاب أنّ قبولَ كتابٍ و نشرَهُ باتَ أمراً أكثرَ صعوبةً من ذي قبلُ و لكنّي كنتُ محظوظاً عندما تعاملْتُ آنذاك مع دار نشر غرانادا Granada و المحرّر (مارك باري كينغ) الّذي صارَ مع الوقتِ صديقاً حميماً لي، و عندما أخبرْتُ مارك برغبتِي في كتابة مُجلّدٍ عن التأريخ العالميّ للجريمة قبِلَ الفكرة على الفور و ملأني ذلك بغبطةٍ عارمة و تعزّز شعوري بالغبطة عندما دفعت لي دارُ النّشرِ مبلغ خمسة عشر ألف جنيْه كمُقدّمةٍ عن أتعاب الكتاب الّذي كان يقومُ على ثيمةٍ أساسيّةٍ واحدةٍ تربطُ جميع موضوعاته: الدّافعُ السّايكولوجيّ للنزعة الإجراميّة، و كنتُ قد حصلْتُ على لمحةٍ حيويّة عن هذا الموضوع من صديقي أي. إي. فان فوغت A. E. Van Vogt بعدَ أن إلتقيْتهُ في إجتماعٍ لرابطة هوليوود لرواية الخيال العلميّ عام ١٩٦٦. كتبَ فان فوغتَ عن إكتشافه المُثير حقّاً لِنَمَط الشّخص الّذي خلعَ عليْه توصيف (الإنسان الصّائب The Right Man) و الّذي تُميّزهُ رغبةٌ جامحةٌ في حفظِ ماء وجههِ تحت كلّ الظّروف إلى حدّ أنّهُ لا يمكنُ

أن يعترفَ يوماً بأنّهُ إرتكبَ خطأً ما، و إذا ما حاولَ أيّ فردٍ أن يبيّن له موضعاً أخطأ فيه خطأً جسيماً بيّناً فسيغدو حينها غاضباً و سيجنحُ إلى العنفِ على الفوْر و ربّما لطمَ الفرد (النّاصحَ له) على وجْههِ و لكنّهُ لن يعترِفَ بخطاءِهِ مطلقاً و هذا هو ما يدعو إلى توصيفه بِـ (الإنسان العنيف The Violent Man) إلى جانب توصيفِهِ السّابق.

عندما كانَ فان فوغت يخطّطُ لكتابةِ روايةٍ تحكي عن معسكر إعتقالٍ صينيٍّ شخّصَ بدقّة سلوك الإنسان الصّائب: رغبةٌ أساسيّة متجذّرة في أن يكونَ طاغيةً يمتلكُ سلطةً مطلقة، و في أحسن الأحوال فإنّهُ يسلكُ كطاغيةٍ حلو السّمات تجاه زوْجته و عائلته و يتوجّبُ على هؤلاءِ أن يبدوا له فروض الطّاعة الكاملة كما لو كانوا رقيقاً مستعبَدين لديْه، و لو حصلَ و ساءلهُ أحد هؤلاء في قراراته فإنّ هذا سيتسبّبُ حتماً في إنفجار غضبه و لجوئه إلى العنف الجسديّ. يسلكُ الرّجلُ الصّائبُ في العادةِ سُلوكاً يتّسِمُ بخيانةٍ فاضحةٍ لزوجته لأنّ الإنتصار في غزواته الجنسيّة مسألةٌ عظيمةُ الأهمّيّة لترسيخ سطوته الذّاتيّة و شعورهِ بالحظوة و المكانةِ الرفيعة، و لكن لو أنّ زوجته إبتسمت محض إبتسامةٍ عابرة بوجْه رجلٍ آخر فمن المؤكّد أنّها ستتلقّى ضربة تجعلُ الهالات السّود تملأُ المساحة حول عينيْها، و الأمرُ المثيرُ في الموضوع أنّ الرّجل الصّائب يقصرُ سلوكه المتّسم بالعنف الشّديد داخل جدران بيته و حسبُ و يبدو في العادة للآخرين رجلاً طيّباً و محبوباً، بيْد أنّ ذات الرّجل يحوزُ خصلةً تتّسِمُ بغرابة شديدة: فلو تركتْهُ زوجته فعلاً فقد ينتهي به الأمرُ إلى إنهيارٍ عصبيٍّ أو ربّما قد يُقدِمُ على الإنتحار، و هنا يبدو واضحاً للغاية أنّ غيابَ زوجته عن حياته يهدّمُ أساساتِ القلعة الرمليّة الّتي شيّدَ عليْها أوهامهُ و ظلَّ يعتاشُ عليها طويلاً. هتلر – مثلاً – نموذجٌ معياريٌّ لرجلٍ يحوزُ سمات الإنسان الصّائب إذ

كان على شفا الإنتحار عندما إنتحرت قريبتهُ و عشيقته في الوقت ذاته غيلي روبال Geli Raubal في محاولةٍ من جانبِها لفكّ أسرها من سطوته الخانقة، و تبدو الحقيقةُ وراء هذا واضحة: عندما يعثرُ رجلٌ صائبٌ على إمرأةٍ تُبدي له فروض الطّاعة و الإنقياد الكامليْن و تهيمُ به عشقاً في الوقت ذاته فإنّ هذا الأمر يملؤهُ بجرعةٍ إضافيّة من الثقة المفرطة بالنّفس و بشعورٍ متعاظم من الخُيلاء الطّافحة و هنا يبدأُ الرّجلُ بحياكة خيوط حكايته الفنتازيّة الشخصيّة الخاصّة بعظمَته و سُلطته، و متى ما غادرت المرأةُ حياتهُ على نحوٍ مفاجئٍ – لأيّ سببٍ من الأسباب – فإنّ هذا الأمر كفيلٌ بتقويض أركان قلعة أوهامه التخييليّة، و يتقوّضُ عقلُهُ معها حتماً !!. يشيرُ فان فوغت إلى ضرورة إبداء قدْرٍ من التّعاطف مع الشّخص الصّائب لانّهُ " يكافحُ على الدّوام بالضّد من رُعبٍ داخليٍّ جامح يصعبُ تصوّرُ مداهُ "، و يبدو الرّجلُ كمن يخافُ الموت إختناقاً بعد إحتجازه في غرفةٍ موصدةٍ و معزولةٍ بالكامل، و يمكنُ لأفعاله العُنفيّة أن تجلبَ له راحةً وقتيّة لكنّها لاتستمرُّ في العادة أكثر من بضع ساعاتٍ قبل أن يُعاودَهُ الشّعورُ بالإختناق ثانيةً و هذا هو بالضّبط ما كان السّيد كيرتز Mr. Kurtz يُعانيه في رواية كونراد (قلب الظّلام Heart of Darkness).

الرّجالُ الصّائبون أكثرُ شيوعاً ممّا يمكنُ تصوّرهُ، و عندما تحدّثْتُ عنهم أثناء تدريسي لمقرّرات دراسيّة في أمريكا إندفعتِ الكثيرُ من الفتيات للقول " يا إلهي،،، كان أبي كما تصفُ بالضّبط "، أو " هذا هو الحالُ الّذي كان عليْه زوجي السّابق "، و لكن ماالّذي يتسبّبُ في نشوء نزعة الرّجل الصّائب ؟ حسناً: إنّ كلّ فردٍ في فئة الخمسة بالمائة الّتي تُبدي سمات الهيمنة (**سبقَ للكاتب أن تحدّث عن هذه الفئة بإسهابٍ في الفصل المُعنون "آفاق جديدة في الوعي البشريّ" من هذه السيرة**

الذاتيّة، المُترجمة) يبدي توْقاً شديداً للتعبير عن نوازعه في الهيمنة و لكن لا ينجحُ كلّ الذّكورِ في مسعاهم لذا يفعلون مثلما يفعلُ شاعرٌ رومانتيكيٌّ إستمرأ الهزيمة بدلَ مواجهة الحقيقة: الإلتجاءُ المريح إلى الخيال و نشدانُ السّلوى فيه، و لكن لو حصلَ وَ وُجدَ أحدُ هؤلاء شخصاً آخر يُشارِكهُ لعبته التخييليّة المُريحة تلك فإنّ شعوره بالرّضا و الإرتواء الذّاتي سيتضاعفُ ربّما عشر مرّات عمّا قبلُ و هذا ما يوضّحُ السّبب وراء الأهمّيّة الحاسمة لوجود إمرأةٍ خاضعةٍ و مُنقادةٍ في حياة كلّ رجلٍ صائب لأنّها تُعدُّ ضمانةً أساسيّة لتوكيد شعوره بأنّه ليس محضَ رجلٍ فنتازيٍّ يعتاشُ على الخيالات و الأوهام فحسبُ، و ممّا يبعثُ على الإندهاش أنّ نجاح الإنسان الصّائب في مسعاهُ لا يترتّبُ عليه أيُّ تغييرٍ حقيقيّ في حياته و يبدو أنّهُ متى ما صارَ مسكوناً في وقتٍ مبكّرٍ من حياته بفكرة كونه على صوابٍ طيلة الوقت فإنّ هذه الفكرة يصعبُ إقتلاعُها لاحقاً. كان هتلر وَ ستالين وَ ماو أمثلةً صارخةً لنمط الإنسان الصّائب و يمكن ضمّ الممثّل بيتر سيلّرز Peter Sellers معهم: ففي الكتاب الّذي نشرهُ إبنهُ مايكل بعنوان (بي. إس.: أحبّك PS I Love You) (**واضحٌ تماماً أنّ الحرفين يشيران إلى إسم بيتر سيلّرز، المترجمة**) نكتشِفُ أنّ الممثّل كان يفتقِدُ إفتقاداً عميقاً لشعوره الداخليّ بالثّقة بالّذات و كان سلوكه المتّسمُ بالانانيّة و العنف إشارةً إلى كونه يندرجُ في فئة (الإنسان الصّائب).

إنّ الحقيقة الصّارخة هي: ثمّة القليلُ للغاية من الذّكورِ الّذين يفشلونَ في تتبّعِ آثار " الإنسان الصّائب " في حيواتهم – متى ماكانوا نزيهين كفايةً للاعتراف بهذه الحقيقة –، و لا يبدو الأمرُ مثيراً للإهتمام طالما كان تحت السّيطرة الكاملة، و لكنّ الأمر يغدو شديد الخطورة على الفرد و المُحيطين به معاً عنما لا يكونُ الفردُ مدرِكاً لهذه الحقيقة،

و علمْتُ سريعاً أنّ هذا هو المفتاحُ الّذي نفتحُ به بوّابة السّايكولوجيا الإجراميّة: يبدو الإنسانُ الصّائبُ مثل طفلٍ أفسدهُ الدّلال الطّويل و بات عازماً على رؤية أيّ شيءٍ بطريقته الخاصّة و على النّحو الّذي يرتضيه هو وحده حتّى غدا عالقاً في عالمٍ لا وجود له إلّا داخل رأسه، و إذا حصل أن كان هذا الإنسانُ مفتقِداً للضمير الإجتماعيّ أو لدواعي الحذر و الحيطة الّتي تجعلُ معظم النّاس يسلكون في الحدود الّتي لا تتجاوزُ القانون عندئذٍ يلجأ هذا الإنسانُ إلى سلوكٍ عنفيٍّ يتسبّبُ بالكثير من الأذى له و لمجتمعه معاً.

أضحت تجربةُ كتابتي للكتاب الّذي صارَ يُعرفُ لاحقاً " التأريخ الإجراميّ للإنسانيّة " تجربةً في غاية الأهمّية لي لأنّها كانت محاولتي الأولى في مُصارعة التأريخ، و كان المؤرّخ أي. إل. راوس .A. L Rouse قد أشارَ إليّ مطلع السبعينات (من القرن العشرين) بِضرورة تعلّم المزيد عن التأريخ لكنّ وجهة نظري كانت أنّ التاريخ لا يوفّر سوى فرصةٍ ضئيلةٍ في دعمِ رؤيتي للتحليل السّايكولوجيّ الّذي أنا في مسيس الحاجة إليه، و لكنُ مراجعاتي المستفيضة للتأريخ الإجراميّ أثبتت خطلَ نظرتي تماماً: إذ سرعان ما باتَ واضحاً لي أنّ الكائنات البشريّة في كلّ مرّة حاولت فيها خلْقَ مجتمعٍ مؤسّسٍ على قاعدةٍ من السّلام و المُشاركة في الطيّبات فإنّ المجرمين كانوا يقفزون سريعاً للقبضِ على زمام الأمور و الهيمنة على مقاليد السّلطة. روما – مثلاً – مثالٌ صارخٌ لحضارةٍ إستباحَها الأشقياءُ و البلطجيّةُ، و إخترْتُ لفصل الكتاب الّذي يحكي عن روما عنواناً هو (مدينةٌ غير فاسدة No Mean City)، و كنتُ إستعرْتُ العنوان من عنوان روايةٍ تحكي عن أشقياء غلاسكو، و العنوانُ في الأصل مقتبسٌ من عبارةٍ للرسول بولس St. Paul يقولُ فيها " أنا مواطِنٌ من مدينةٍ غير فاسدة " و

هو يشيرُ إلى مدينة روما طبعاً. كان أمراً صادِماً لي عندما عرفْتُ في سياق بحثي التّأريخيّ أنّ المسيحيّة الأصيلة الّتي جاء بها يسوع Jesus ماكانت إلّا محاولةً مَدفوعةً بأصالةِ خالصة لخلْقِ مجتمعِ غير إجراميّ تسودهُ المحبّةُ و التّشارك الشّامل، و لكن ما أن جعلَ الإمبراطور قسطنطين Constantine المسيحيّة ديناً رسميّاً للإمبراطوريّة الرّومانيّة عام ٣١٢ بعدَ الميلاد حتّى تحوّلت الكنيسة المسيحيّة على الفور إلى مؤسّسةٍ إجراميّة طاغية بعدَ أن إستبدلتِ المحبّة و حسّ المُشاركة بالسّلطة و الثّروة.

جاءت لي كتابة (التأريخ الإجراميّ) برؤيتيْن مهمّتين قُدّر لهما أن يلعبا دوراً مركزيّاً في عملي اللّاحق: الرؤية الأولى هي تعضيد فكرة أنّ الجنسانيّة البشريّة مؤسّسةٌ على (الوهم الجنسيّ) الّذي يُمكنُ تلخيصه في القول بأنّ تأثير الجاذبيّة الجنسيّة على الكائنات البشريّة شبيهٌ بتأثير (الزمّار المرقّط) على عدد الفئران في بلدة هاميلين الألمانيّة (**يشيرُ الكاتبُ هنا إلى حكاية " الزمّار المرقّط و بلدة هاميلين " الألمانيّة الفلكلوريّة الشهيرة الّتي تحكي عن وقائع أسطوريّة حصلت في مقاطعة ساكسونيا السّفلى خلال العُصور الوسطى و صارت لاحقاً حكاية شائعة في أدب الأطفال، المُترجمة**)، أو تأثير السيرينات Sirens على يوليسيس (مرّت بنا الإشارة إلى مفهوم السيرينات في موضع آخر من هذه السيرة، المُترجمة): فهي تخلقُ شعوراً طاغياً من الرّغبة الّتي تشعِلُ الحواس مثل شرابِ مُسكرٍ، و ألقت فكرة الوهم الكامل للرغبة الجنسيّة ضوءً كاملاً و جديداً تماماً على مُشكلة الجّرائم الجنسيّة كما جعلتّني أدرِكُ في الوقت ذاته المدى الّذي لعبه ذلك الوهم في تطوّري الشخصيّ: كنتُ مثل بطل هيرمان هسّه في (ذئب البوادي Steppenwolf) رجلاً وَ ذئباً في شخصٍ واحد، و كان الجّزء الإنسانيّ فيَّ هو الّذي يحبُّ جوي و الأطفال

فيما كان جزئي الذئبيّ هو الّذي يتذمّرُ و يسيلُ لعابُهُ متى ما رأيْتُ فتاةً مرتديةً تنّورةً قصيرةً و هي تنحني لتنكشف ملابسها الدّاخليّة المصنوعة من النايلون، و لكن ما هوّن الأمر عليّ في أقلّ التقديرات أنّني و بعْد أن غدوتُ أكبر سنّاً لم يعد هذا الإنقسامُ في شخصيّتي مؤذياً لي مثلما كان قبْلاً بعد أن صرْتُ أرى الرّغبة الجنسيّة المتوقّدة شيئاً مثل إدمان المخدّرات، و للأسف يمكنُ تعدادُ نصف دزينةٍ من أصدقائي الّذين سمحوا لذلك الوهم بالسّيطرة على حياتهم فكانت النتيجة المحتّمة أن تحطّمت زيجاتهم و حيواتُهم، و الحقُّ أنّني لم أدرك حقيقة ما حصل معي: هل غدوْتُ إمرءً أخلاقيّاً أكثر ممّا كنتُهُ من قبل أم أنّ حقيقة الأمر هي أنّني صرْتُ أكثر حذراً في إبداء نوازعي الجنسيّة وحسبُ ؟ !!. الروْية الثانية الّتي أمدّتْني بها كتابة (التأريخ الإجراميّ) هي نظرةٌ جديدة لولادة الرّواية الحديثة في القرن الثّامن عشر: وُلد الشّكل الرّوائيّ على يد صاحب مطبعة يدعى (صامويل ريتشاردسون Samuel Richardson) (ثمّة هامشٌ يشيرُ إلى ريتشاردسون في خاتمة الموضوع المُعنون " رؤية في الرّواية: كولن ويلسون روائيّاً " في هذا الكتاب، المُترجمة). إعتزمَ ريتشاردسون أن يحكي قصّة في هيئة رسائل كتبتْها فتاةٌ خادمة تدعى (باميلا Pamela) بعد أن أراد سيّدُهاً إغواءَها، و عندما رآها خالعةً ملابسها في إحدى المرّات حاول إغتصابَها و لم ينقذْها من بين يديْه سوى حضور خادمة المنزل على نحوٍ غير متوقّع، و ظلّت باميلا تتمنّعُ على سيّدها حتّى إضطرَّ أخيراً إلى الزّواج منها مدفوعاً بطيبتِها و حلاوة روحها، وَ لم يحصل أبداً من قبلُ شئٌ من هذا: حكايةٌ أخلاقيّاتيّةٌ تتزيّا بزيّ العمل البورنوغرافيّ، و سرعان ما صارت رواية (باميلا) الأفضل مبيعاً في ذلك الوقت، و حتّى الكهنةُ راحوا يطرون الرّواية من منابر الوعظ الكنسيّة، و بعد

وقتٍ قصيرٍ من نشر الكتاب صارت الرّوايات تُقرأُ في كلّ بيتٍ من بيوت الطّبقة الوسطى و إنتشرت مكتباتُ إعارة الكُتب في كلّ مكانٍ من القارّة الأوربيّة. إنّ ما فعلهُ ريتشاردسون هو خلْقُ نوعٍ من بساطٍ سحريٍّ بوسْعهِ نقلُ القرّاء إلى "أرض الأحلام" بعد أن كانوا حتّى ذلك الوقت يتشاركون مع الحيوانات في كونهم مأسورين بأغلالِ وجودهم الجسديّ المحض: ففي تلك الأوقات كان المهرَبُ الوحيدُ أمام الأفراد من رتابة الحياة اليوميّة هو المداومةُ على حضور الكنيسة أيّام الآحاد و سماع الواعظ و هو يحكي لهم قصصاً من الكتاب المقدّس، و هذا ما يوضّحُ السّبب وراء كوْن مجلّدات المواعظ هي وحدها الّتي كانت تحقّقُ أفضل المبيعاتِ تلك الأيّام، و مع حلول عام ١٧٨٠ كان بمقدورِ ربّة بيتٍ ضجرة أن ترتمي على كرسيٍّ بجانب نافذة منزلِها و أن تنسى ببساطةٍ من تكونُ، و لكن بعد ذلك التاريخ صار بمقدورِها أن تقضي ساعةً كاملة في عالمِ خيالٍ ينسجهُ مؤلّفٌ بطريقةٍ تتشاركُ فيها ربّات البيوت الأخطاءَ و المشاكل الّتي تعترضُ حياة بطلة الرواية، و بدأت الكائناتُ البشريّة منذ ذلك الحين تختبِرُ كيفَ تُغادِرُ حدود أجسادِها و تسبحُ في فضاء التّخييل اللّذيذ، و ثمّة إحساسٌ سائدٌ منذ ذلك الحين أنّ الرّواية هي الإختراعُ البشريُّ الأكثرُ أهمّيّةً بعد إختراع العجلة.

أخبرَني جوليان هكسلي مرّة بضرورة إيلاء بعض التّفكير في الدّور الحيويّ الّذي يلعبهُ الفنّ في التطوّر البشريّ، و أرى الآن أنّني غدوْتُ أكثر فهماً لما كان يعنيه هكسلي: علّمت الروايةُ الكائنات البشريّة أن تحلم، و في الوقتِ ذاته تكوّنت لديهم ذائقةٌ لعوالمَ أخرى – عالم الشّقاء و عالم الجمال و عالم الرّومانسيّة –، و حصل حينها أن ادار الرّومانتيكيّونَ ظهورَهم تجاه قباحة الحياة اليوميّة و رأوا في الرّواية حقيقةَ أكثر غنىً و دهشةً، و تسبّبَ هذا التّوقُ العارمُ تجاه

تلك الحقيقة المدهشة في وفياتٍ مأساويّة خلال القرن التاسع عشر إبتداءً من موت أساطين الرومانتيكيّة كيتس وَ شيللي و حتّى إنتحارِ فان كوخ الماساويّ، و أشّرَ هذا التّوقُ الأبديُّ تجاه الحقيقة المدهشة بداية عصر اللّاإنتماء Outsiderism و هو ذات ما عناه كارل ماركس بالإغتراب Alienation. ينبغي الإنتباهُ لحقيقة أنّ رواية ريتشاردسون الثّانية الأكثر شهرةً و الّتي سمّاها (كلاريسّا Clarissa) تحكي عن بطلةٍ يتمُّ إغتصابُها و خطفُها و هو ما يقودُ إلى موتِها بفعْل شعورها بالعار المُذلّ، و منذ نشر تلك الرّواية إكتشفَ الكُتّابُ و بسرعةٍ فائقة أنّ روايات الفانتازيا الجنسيّة لها قرّاؤها الكثيرون و سوقُها العامرُ دوماً و أنّ الجنس الأدبيّ المُسمّى الأدب المكشوف Pornography قد خُلِقَ بالفعل مع رواية (فاني هيل Fanny Hill) الّتي نشرها الكاتب جون كليلاند John Cleland عام ١٧٤٥، و بعدَ عام ١٨٢٠ صار الأدبُ المكشوفُ صناعةً منتعشة، و لكن من المثير للغرابة في الوقت ذاته أنّ حيّزاً ضئيلاً للغاية قد أفرِدَ لما بات يعرَفُ اليوم (الجّريمة الجنسيّة Sex Crime)، و يعزى السّببُ الرئيسيّ في هذا الأمر إلى أنّ أعداداً غفيرةً من نساء الطّبقات الفقيرة كُنّ مضطرّاتٍ لبيْع أجسادهنّ لذا كان الجّنسُ الرّخيصُ متاحاً طول الوقت في تلك الأيّام و لم يكن من المنْطقيّ أن يلقيَ المرءُ بنفسه في غياهب السّجون جزْياً وراء أمرٍ هو متاحٌ له طول الوقت و متى ما شاء، و لكنْ حصلَ مع بداية النّصف الثّاني من القرن (يقصد الكاتبُ القرن التاسع عشر، المترجمة) أن جعلت تقاليد الإحتشام الفكتوريّة بيْع الجّنس سلعةً محظورةً و عندها ظهرت الجّريمة الجنسيّة بمفهومِها الحديث، و رغْم أنّ الفكتوريّين صُدِموا إلى أبعد الحدود بالأعمال الجرميّة الّتي إرتكبَها جاك السفّاح لكنّهم لم يصنّفوها بكونها أعمالاً إجراميّة خطيرة بل كانت نظريّتهم المفضّلة

أنّ الرّجل كان مهووساً بالفضيلة الدينيّة و سعى لإشاعة الأخلاقيّات الفاضلة بعد أن فاض به الكيل من كراهيّة النّساء اللّواتي كنّ يبعْن أجسادَهنّ، و منذئذٍ صارت الجَريمة الجنسيّة مفهوماً قائماً بذاته في القرن التّاسع عشر مع الزّيادة المُفرطة في حجم الوَهم الجنسيّ.

كانت كتابةُ عملي (التأريخ الإجراميّ للإنسانيّة) مسألةً في غاية الأهمّيّة لي لانّها وضعت أفكاري فيما يخصُّ "سلسلة اللّامنتمي" في سياقٍ تاريخيٍّ بعد أن جعلَني هذا العملُ فجأةً قادراً على رؤية الإتّجاه الّذي كان عملي يمضي فيه منذ كتابة (اللّامنتمي): أدركْتُ منذ البدء أنّ هذه الأعمال تحكي عن عصر الهزيمة، و أنّ هذه الهزيمة تأسّست على الخذلان و الخيبة المُرّة من آمال الرومانتيكيّين بعد أن كان كلٌّ من (غوته) وَ (شيللر) قد بشّرَ بأنّ الإنسانَ له قدراتٌ مماثلةٌ لقدرات الإله، و كان ويلز قد كتب هو الآخر روايةً تدعى (رجالٌ كالآلهة Men Like Gods) كما تنبّأ شو في عمله الأشهر (العودةُ إلى ميتوشالح) بوقتٍ سيكونُ فيه الإنسانُ خالداً مُخلّداً – و لو من ناحية إفتراضيّة محضة –، كما تحدّث ييتس عن أنّ الغرض الأسمى للفنّ هو " نشدانُ الكمال المدنّس للإنسانيّة "، و لكن كلّ هذا إنتهى إلى تشاؤمٍ أفضى إلى توطيدِ أساسات الأدب الّذي عبّرت عنهُ أعمال أدباءٍ مثل (غراهام غرين) وَ (بيكيت)، كما إنتهى الأمرُ إلى فلسفةٍ تشاؤميّة إبتدأت مع هايدغر ثمّ تواصلت مع أعمالِ ديريدا و مابعد الحداثيّين.

كنتُ في حاجةٍ تلك الأيّام إلى تأمين وضعي الماليّ بعد أن قرّرتُ المجيء بوالدتي للسكن معنا في كورنوال لأنّها ظلّت وحيدةً طول الوقت في ليسترِ بعد وفاة والدي عام ١٩٧٥. عانت والدتي من تأثير جلطةٍ دماغيّة جعلتْها تنهارُ في الشّارع قبل وقتٍ قصير للغاية من وفاة

والدي، و كان واضحاً أنّها عانت من تلك الجَلطة بسبب الإجهاد الفائق الّذي عانتْهُ في تمريض والدي و تلبية إحتياجاته بالكامل و لكنّها تعافت سريعاً من آثار تلك الجَلطة بعد وفاة والدي و حينها رغبْتُ في أن تشاركَنا بعض العطلات الطّويلة في كورنوال – و ربّما حتّى مشاركتنا رحلاتنا إلى الخارج – و لكنّ جلطةً دماغيّة ثانية جعلتْها شاردة الذّهن أغلب الوقت، و معَ الوقت صارت مُفرطة العصبيّة و بخاصّة بعد أن قرأت في الصّحف عن زيادة نسبة عمليّات السّطو في كورنوال و هو الأمرُ الّذي كان يجعلُها مُستيقظةً طول الليل و فاقم بالتالي من عصبيّتها، و عندها وجدْتُ أنّ الإتيان بها إلى كورنوال هو الحلّ الوحيد المتاحُ أمامي. لم تكن جوي سعيدة بفكرة المجئ بوالدتي للسكن معنا إذ كانت تخشى أن تُصابَ والدتي بجلطة دماغيّة جديدة و حينها ستكونُ في حاجةٍ حتميّة لرعاية تمريضيّة كاملة طول اليوم و لكنّنا – و رغم كلّ شيء – مضيْنا في تحمّل المخاطرة و العواقب الّتي يمكنُ أن تترتّب عليها، و إنطلقْتُ في ربيع عام ١٩٨٣ في سيّارتي إلى ليستر للإنتقال بوالدتي إلى كورنوال.

أثبتت مخاوفُنا بشأن والدتي أنّها كانت غير واقعيّةٍ تماماً: كانت والدتي نموذجاً للضيف المثاليّ الهادئ غير المتطلّب و البعيد عن التطفّل، و كنتُ أنا في غاية السّعادة لوجود والدتي معنا في المنزل و كان يملؤني شعور الغبطة و الرضا العميق عندما أراها قبالتي و هي تقرأ أو تأخذ قيلولة قصيرة، و حتّى وفاةُ والدتي كانت غايةً في الهدوء و السّكينة: في مساء أحد أيّام السّبت من عام ١٩٩١ إصطحبْنا والدتي إلى الحانة القريبة كعادتِنا في تناولِ مشروبٍ يوميّ، و بعدما عدْنا إلى المنزل تناولْنا عشاءَنا و أمضيْنا بعض الوقت في مشاهدة أحد البرامج التلفازيّة الّتي كانت تحكي عن الحياة بعد الموت و أبدت إمرأتان في

سياق البرنامج ثقتهُما المطلقة في الخلود البشريّ، و في صباح اليوم التّالي لم تغادر والدتي غرفتها كما إعتادت أن تفعل كلّ يومٍ عند السّاعة العاشرة و النّصف صباحاً لذا توقّعنا أنّها كانت لم تزل نائمة، و عندما ذهبت جوي للإطلالة عليْها في غرفة نومها وجدتْها مستلقيةً على أرضيّة الغرفة وَ بدا أنّها عانت جلطة دماغيّة عندما كانت تُحاولُ إرتداء ملابسها. جاءتني جوي بسرعة و أخبرتْني بالأمر – و كنتُ حينها منشغلاً بكتابة مقدّمة للنسخة الأمريكيّة من كتابي عن الأرواح الشّريرة – فمضيْتُ على الفور إلى غرفة نوم والدتي و رأيتُها مستلقية على السّجادة، و غمرَني على نحوٍ مفاجئ إحساسٌ عميقٌ بالنّدم لأنّني لم أجعل والدتي تدرِكُ كم كنتُ أُحبُّها: فقد كانت عائلتي تحافظُ على تقاليد صارمةٍ من التحفّظ العاطفيّ، و مع أنّني كنتُ أعامِلُ جوي وَ أطفالي بقدرٍ غير محدودٍ من التّعاطف و المحبّة لكنّ تقاليد عائلتي العمّاليّة كبحَتْ رغبتي دوماً في إبداء عِظَم محبّتي لوالدتي، و أذكرُ قبل أسبوعٍ من وفاة والدتي أنّني جئتُ لها بكوبٍ من الشّاي فقالت لي حينها " أوووووه،،، كم أحبّكَ بطّتي الصّغيرة !! " و صار النّدمُ يحرقُ جوفي بقسوة بعد وفاتِها لأنّني لم أضع تحفّظي العاطفيّ جانباً و لم أقل لها حينها " و أنا أحبُّكِ ماما "، و كلُّ ما فعلْتهُ حينها أنّني إكتفيْتُ برسْمِ إبتسامةٍ جبانة على وجهي ثمّ مضيْتُ خارجاً. جلسْتُ بمحاذاة جسدِ والدتي المتوفّاة على أرضيّة غرفة النّوم و إنحنيْتُ عليها و رِحْتُ أقبّلُ وجنتيْها الرّقيقتيْن الباردتيْن و أنا أصرخ " أحبُّكِ والدتي الحبيبة "، و كان ثمّة أملٌ بداخلي يخبرُني أنّها موجودةٌ في مكانٍ ما قريبٍ منّي و أنّها سمعت ما قلتُ لها للتوّ، ثمّ رفعتُ جسدها و وضعْتهُ على سريرِها – كانت خفيفة للغاية – و بعد أن فعلْتُ هذا سمعْتُ والدتي تتنهّدُ و عندها فكّرْتُ أنّها ربّما لم تكن قد ماتت بعدُ و لكنّي تيقّنْتُ

أنّ الأمر لا يعدو أن يكون بقايا هواءٍ خرجت من رئتيْها. كم تمنّيْتُ حينها لو كنتُ قلتُ لوالدتي " أحبُّكِ " عندما كانت لاتزالُ على قيْد الحياة و لكنّ الأمر أفلت من يديّ وَذهب إلى غيْر رجعةٍ الآن و لم يَعُدْ بمقدوري ثمّة ما أفعله.

٢٢. اليابان و أستراليا

جاءت جوي لغرفة مَكتبي في المنزل أحد أيّام تمّوز عام ١٩٨٦ وَ أخبرتْني أنّ صديقاً يابانيّاً يطلبُني على الهاتف و يسألُ إن كنّا نرغبُ الذّهابَ في جولةٍ لزيارة المعابد البوذيّة في اليابان، و كانت جوي مشمولةً بالدّعوة الّتي كانت كلُّ تكاليفها مغطّاةً ماليّاً من جانب المضيفين اليابانيّين: سفرٌ بالدّرجة الممتازة إضافةً إلى مكافأةٍ ماليّة قيمتُها بضعةُ آلافٍ من الدّولارات، لذا كان من الطّبيعيّ للغاية أن أقبلَ العرضَ بلا تردّد. ظلّ اليابانيّون يكنّون إهتماماً خاصّاً بأعمالي منذ أن نُشرَ اللّامنتمي في طوكيو عام ١٩٥٧ و قد ترجموا بالفعل كلّ أعمالي المنشورة بل و ذهبوا إلى حدّ ترجمة مقالاتي الصّحفيّة، و أذكرُ أحد أيّام ١٩٧٦ بَعدما عدْتُ إلى المنزل و أنا مستنزفُ القوى عقبَ برنامجٍ تلفزيونيّ في بريستول عندما فاجأتْني جوي بقولِها "لن تصدّقَ هذا !! " ثمّ أمسكتْ شيكاً بقيمة عشرة آلاف جنيه، و علمْتُ حينها أنّ ناشرَ أعمالي اليابانيّ كان يعدُّ العدّة لنشْرِ طبعةٍ جديدةٍ من كتابي (السحريّ و الغامض The Occult) و كان هذا الشّيكُ بمثابة مقدّمة أتعابٍ عن العمل و لحسن الحظّ جاءت النقودُ تماماً في الوقت الّذي كنّا نرتّبُ فيه أوضاعَنا لقضاء عطلةٍ في فرنسا، و أمضيْنا بالفعل أسبوعيْن في أرقى الفنادق هناك و نحنُ نتناولُ أرقى الأطعمة و نشربُ أفخم أنواع النبيذ و لهذا سيكونُ مفهوماً و واضحاً تماماً لِمَ كنتُ أكِنُّ عاطفةً خاصّة و حبّاً جامحاً لليابانيّين.

كنتُ في منتصفِ عام ١٩٨٦ في حاجةٍ ماسّة لقضاء عطلةٍ طويلة: بعْدَ أن أنهيْتُ كتابي (المُستكشفون الروحانيّون Psychic Detectives) مضيْتُ في كتابة روايةٍ بعنوان (جَـرّاح الشخصيّة Personality Surgeon) ثمّ أعقبْتُها بكتابة سيرةٍ مختصرة عن رودلف شتاينر Rudolf Steiner، ثمّ دراسة عن شواهد الحياة بعد الموت بعنوان (مابعد الحياة Afterlife)، و عندما جاءَني الهاتفُ من طوكيو كنتُ قد أنهيْتُ للتوّ العمل على رواية فنتازيّة تدعى (عالم العناكب Spider World) الّتي كانت نِتاجاً لعلاقة صداقةٍ حميمة مع جارٍ لي يدعى دونالد سيمان Donald Seaman: مراسل الديلي إكسبريس المتقاعد الّذي أشتهرَ بكتابة بضع رواياتٍ عن الجاسوسيّة وَ بات إسماً لامعاً في عالم الرواية الجاسوسيّة، و حصلَ الرّجلُ على تقاعدٍ مبكّر مع مكافأة نهاية خدمةٍ ممتازة و عندها عزم الرّجلُ القدوم إلى كورنوال و المكوثَ فيها و تعزيز مدخوله المادّيّ بكتابة روايةٍ كلّ سنة. صرف دونالد و زوجتهُ آيرين قيمة المكافأة الممتازة في الحُصولِ على كوخٍ جميل يقعُ في إحدى مقاطعات كورنوال و بأقساطٍ ميسّرةٍ طويلةَ الأمد، و حصل أن حقّقت الروايات الأربعُ الّتي كتبَها دونالد هناك نجاحاً ممتازاً و لكن برغم ذلك وجدْتُ الرّجل يعاني - عندما إلتقيْتهُ أوّل مرّة عام ١٩٨٣ - من المشاكل ذاتها الّتي قلّما يسلمُ منها كاتبٌ قرّرَ كسبَ عيشهِ عن طريق الكتابة و حسبُ. إعتدْنا أنا وَ دونالد أن نمشي لمسافاتٍ طويلةٍ عصرَ كلّ يوم بصُحبةِ كلابنا و كنّا خلال تلك الأوقات نناقشُ أعمالَنا وَ مشاكلنا، وَ كانت مشاكلُ دونالد ماليّة في الأساس لذا عندما وجدْتُ الرّجل أحد الأيّام في حاجةٍ ماسّة إلى المال لدفْع فواتير مُستحقّةٍ عليْه إقترحْتُ أن نتشاركَ في كتابة عملٍ تكميليّ في سلْسلة (إنسيكلوبيديا القتل Encyclopedia of Murder) الّتي كنتُ

بدأتُها عام ١٩٦٠ و وافقَ بالفعل ناشري القديم – دار نشر وايدنفيلد Weidenfeld – على تلك الفكرة و ساعدت مقدّمة الأتعاب الأدبيّة في تسديد فواتير دونالد و إطفاء ديونه. كان دونالد قد سافرِ إلى معظم مناطق العالم كمُراسلٍ أجنبيّ و كان في جعبته الكثيرُ من الحكايات المدهشة عن زياراته تلك و كنتُ إقترحتُ عليْه غيْر مرّة – مثلما فعلْتُ مع نيغلي فارسون Negley Farson قبْلهُ – كتابةَ سيرته الذاتيّة و لكنّ هذا لم يكن ليُناقضَ الحقيقة الصّارخة الماثلة أمام عينيَّ و الّتي أبانتْ لي أنّ دونالد كان يفتقدُ الباعث الشّغوف على الكتابة الّذي إمتلكهُ نيغلي كما كان يفتقِدُ إلى كاريزما مماثلة لهُ، و كانت فكرة دونالد عن الفردوس الأرضي لا تعدو أن يتمشّى في المناطق القريبة من كوخهِ مرّتيْن في اليوم لِيَسترخي بعدها مع كأسٍ من الويسكي في المساء.

في الوقتِ الّذي إستلمْنا فيه دعوةً من طوكيو لزيارتنا المرتقبة لليابان كنتُ بدأتُ توّاً في كتابة كتابي (إنسيكلوبيديا الأحجيات المجهولة Encyclopedia of Unsolved Mysteries) الّذي تولّت دار نشر هاراب Harapنشرهُ بعد إكتماله (و هي دار النّشر ذاتها الّتي كانت نشرت للتوّ أنثولوجيا عن أعمالي تحت عنوان " ما ينبغي أن تعرفه عن كولن ويلسون The essential Colin Wilson ") و منحتْني دار النّشر مقدّمة أتعابٍ بقيمة عشرة آلاف جنيه إستلمْتُ نصفها عند توقيع العقد، و كنتُ في تلك الأثناء منشغلاً في كتابي الجديد هذا و تشاركْتُ كتابتهُ مع إبني ديمون Damon الّذي كان آنذاك بلغ الحادية و العشرين من عمره و لم يكن قد إتّخذ قرارهُ بعدُ فيما يبغي عملهُ بحياته القادمة، و كان تصوّري أنّ إشراكَ ديمون في كتابة الكتاب سيكونُ الطّريقة الأسهل لتعليمه كيفيّة الكتابة، و تبدو عبارة " تعليمه كيفيّة الكتابة " باعثةً على الشّعور بأنّني عانيْتُ مشقّةً عظيمةً معهُ و لكنّ الحقيقة أنّ

النّصيحة الحاسمة الّتي أردْتُ ديمون العمل على هَذْيِها هي ببساطة أن يدقّقَ في كلّ عبارةٍ يكتبُها و أن يحذف منها على الفور كلّ كلمةٍ تبدو غير ضروريّة !!. تطلّبَ منّي الأمرُ صراعاً مكلِفاً مع ضميري عندما لم أدْعُ صديقي دونالد إلى الإشتراكِ في كتاب (الأحجيات) و بخاصّة بعد أن تناهى لسمعي حجمَ الضّائقة الماليّة الّتي كان يعانيها آنذاك و لكنّ ما هدّأ من روعي قليلاً هو علمي بأنّ المشاكل الماليّة للرجل لم تكن لتنتهي يوماً ما إلى جانب حقيقة أنّني أنا الآخرُ كانت لديّ عائلتي الخاصّة الّتي ينبغي أن أهتمّ بشؤونها الماليّة قبل أيّ أمرٍ آخر.

إنطلقْنا أنا وَ جوي إلى اليابان أواخر تشرين أوّل عام ١٩٨٦ و كنتُ حينذاك قد أنهيْتُ كتابي (أنسيكلوبيديا الأحجيات المجهولة) و أثبتَ فيه ديمون قدرته على الكتابة بإحترافيّةٍ بارعة. كان الصّديقُ اليابانيّ الّذي رتّب رحلتنا إلى اليابان يعملُ مترجماً و يدعى (كازو كوباتا Kazue Kobata) و كنتُ إلتقيْتهُ عندما حاورَني من قبلُ و ظهرَ ذلك الحوارُ على صفحات مجلّة (بلاي بوي Playboy) اليابانيّة. كان مضيفونا اليابانيّون مجموعةً من الرّهبان البوذيّين العاملين في كوياسان Koyasan و هوَ واحدٌ من أعظم المعابد البوذيّة اليابانيّة و شاء القيّمون عليْه أن نتشارك معهم في إحتفاليّتهم الألفيّة بذكرى تأسيس المعبد بجهود راهبٍ بوذيّ يدعى (كوبو دايشي Kobo Daishi) – و يسمّى أحياناً كوكاي Kukai – الّذي كان يقودُ طائفةً تدعى شينغون Shengon و الّتي كانت تمثّلُ شكلاً من البوذيّة الرواقيّة المغرقة في الزّهد. كنتُ في سنواتِ مراهقتي الأولى قد تأثّرتُ كثيراً بالبوذيّة و لكنّ إنجذابي نحوها أصابه الكثيرُ من الخفوت مع الوقت: فقد بدت لي البوذيّة سلبيّة بصورةٍ أساسيّة على خلاف الهندوسيّة الّتي كانت تسعى نحو هدفٍ محدّد هو الإتّحاد مع الله (أو براهمان Brahman) بحسب

القاموس الهندوسيّ، و تحكي أسطورةٌ رائعةٌ عن السرّ وراء هذا السعي العنيد عندما إتّخذ والدا الأمير غوتاما Gautama قرارهُما بضرورة الحفاظ على الأمير- الطفل بعيداً عن أيّة معرفة بالشرّ لذا جعلاهُ يقيمُ في قصرهما و لايبارحهُ طول الوقت، و حصل يوماً ما أن غادرَ الطفلُ القصرَ برفقة مُعلّمه، و عندما رأى الإثنان رجلاً مريضاً سأل الطفلُ معلّمهُ " ما خطبُ هذا الرّجل ؟ " فأجاب المعلّمُ " إنّهُ مريضٌ و هذا أمرٌ يحصلُ لكلّ إمرئٍ "، و في اليوم التالي رأى الإثنان رجلاً طاعناً في السنّ فبادرَ الطفلُ لسؤال معلّمه " ماخطبُ هذا الرّجل ؟ " فأجابهُ معلّمهُ " هو عجوزٌ و ذاك أمرٌ يحصلُ لكلّ إمرئٍ "، و أخيراً لمح الإثنان مراسيمَ جنازة رجلٍ ميّت فسأل الطفلُ معلّمه " و ما خطبُ هذا الرّجل ؟ " فأجاب المعلّمُ " إنّهُ ميّتٌ و ذاك ما يحصلُ مع كلّ إمرئٍ " و هنا صُعِقَ الأميرُ - الطّفلُ غوتاما وَ راحَ يفكّرُ: كيفَ يمكنُ للكائنات البشريّة أن تتجاوزَ أهوالَ الشّقاء و الموت ؟ و أسفرَ مسعاهُ عن المسار ذي الثماني طُرُقات Eightfold Path الّذي يقودُ إلى مستوىً أعلى من الإنضباط الدينيّ الذاتيّ و هو الأمرُ الّذي يُمكّنُ الأفراد من تحقيق إنفصالٍ detachment كلّيّ عن رغباتهم و أهوائهم و الوصول إلى حالة النيرفانا او الإتّحاد مع المطلق. بالنسبة لي كنتُ واثقاً على الدّوام أنّ الغرض من الإنضباط الذاتيّ لا يكمنُ في الإنفصال و المكوث بعيداً عن العالم بل في فهم الإمكانيّات غير المُستكشفة للوعي البشريّ: تلك الإمكانيّات المُدهشة الّتي عرفْتُ بعضاً منها عندما إنغمسْتُ في بحثِ موضوعاتٍ مثل السايكومتري Psychometry، و المعرفة المسبّقة، و تجربة مغادرة الجسد Out-of-the-Body Experiment و أظنُّ أنّ ييتس كان مصيباً غاية الصّواب عندما قال أنّ غاية الإنضباط الذّاتيّ هو " بلوغُ الكمال المُدنّس للنوع البشريّ ".

قبْلَ أن ننطلِقَ في رحلتِنا إلى اليابان بوقْتٍ قصير قرأتُ كتاباً عن كوبو دايشي مؤسّس البوذيّة الرّواقيّة الزّاهدة و كان الكتابُ قد أرسلهُ لي مُضيفيَّ اليابانيّون الّذين أعدّوا لرحلتي اليابانيّة المنتظرة، و ملأتْني الغبطةُ عندما علمْتُ أنّ واحدةً من أهمّ رؤى دايشي هي التأكيدُ على " الإستنارة في هذه الحياة " و تلك هي بالضبط الغايةُ الّتي لطالما سعيْتُ وراءَ تحقيقِها في حياتي و هو أيضاً الأمرُ الّذي يوضّحُ و بكلّ تأكيد لَمْ كنتُ أشعرُ بسعادةٍ طافحة عندما غادرت طائرتُنا مطار هيثرو اللّندنيّ، و مضيْتُ أفكّرُ و أنا على متن الطائرة فيما ينتظرُني من مَسرّات مُتوقّعة في رحلتي اليابانيّة. أقلعت طائرتُنا في الساعة الثالثة إلّا ربعاً بعد ظهيرة أحد الأيّام و توقّفنا أوّل الأمر في مدينة أنكوراج Anchorage: المدينة الأهمّ في ولاية آلاسكا الأمريكيّة و كان وضعاً غريباً للغاية أن أشعر بوهج الشّمس المشعّة في وقتٍ كان جسدي يعرفُ أنّ الوقت هو منتصفُ اللّيل !! و كان الأمرُ الأكثر غرابةً أن نتناولَ عشاءَنا في الطّائرة عند السّاعة الثّانية بعد منتصف اللّيل و أن نصل طوكيو عند السّاعة الثامنة و النّصف بتوقيت لندن ثمّ نكتشفُ أنّ التوقيت المحلّي في طوكيو هو الرابعة و النّصف عصراً و تسبّبَ لي فارقُ التوقيت هذا في إختلالٍ تكيّفيّ مزعج، و عندما أخذتْنا طائرةٌ إلى أوساكا (المدينة الأقرب إلى مقرّ الرّهبان البوذيّين في كوياسان) كانت السّاعة تشيرُ إلى السّابعة مساءً رغم أنّ جسدي كان يعلمُ بحسّه الدّاخليّ أنّ السّاعة كانت الحادية عشرة صباحاً. بعد ساعتيْن من وصولِنا أوساكا وجدْنا أنفسَنا و نحنُ نتناولُ عشاءَنا مع المحترم ماتسوناغا Reverend Matsunaga: رئيس جامعة كوياسان، و كان يصحبُنا على العشاء راهبٌ بوذيٌّ ممثّلٌ عن صحيفة ماينيكي Mainichi المُموّلة لرحلتِنا اليابانيّةِ و بالطّبْع كان صديقنا المترجم كازو حاضراً معنا. إحتوى

عشاؤنا اليابانيّ على شرائح سمكٍ نيئ وَ أعشاب بحريّة وّ حساء لحم السّلحفاة إضافةً إلى الرز المنقوع بالسّاكي، و في تلك اللّيلة نمتُ نوماً سيّئاً للغاية لأنّ جسدي لم يكن يعلمُ لَمَ توجّبَ عليْه الخلودُ إلى الفراش عند السّاعة الثّالثة عصراً !! (ربّما كَان الأفضلُ لي أن أطلبَ حبوباً منوّمةً و الّتي كانت حتماً ستوفّرُ لي الكثيرَ من الطاقة الّتي خسرتُها في محاولةِ إعادة التكيّفِ مع الظّروف المُستجدّة). في اليوم التّالي و بعْدَ مؤتمرٍ صحفيٍّ كنتُ خلالهُ أعاني إنهاكاً فاضحاً قدّمَ مضيّفونا الغداء لنا ثمّ إصطحَبونا في جولةٍ بمدينة أوساكا، و بعدها أخذْنا القطار المُتّجه إلى كوياسان وَ كان المعبدُ البوذيُّ الّذي نسعى إليْه على مبعدة عشرةِ أميالٍ فوق جبلٍ مُحاطٍ بغاباتٍ خريفيّةٍ فائقة الجّمال.

كان الجوّ بارداً للغاية في كوياسان لذا بعْدَ أن تناولْنا عشاءَنا النباتيَّ إنصرفْنا للحصولِ على شيءٍ من الرّاحة في غرفة المحترم ماتسوناغا و جلسْنا هناك حولَ طاولةٍ مستديرة الشّكل مغطّاةٍ بقطعة قماشٍ سميكة تلامسُ حافاتُها الجانبيّة أرضيّة الغرفة و كان ثمّة موقدٌ تحت المنضدة قريباً من رُكَبِنا. وجدَ الرّهبانُ لذّة لا تُبارى في الويسكي الأسكتلنديّ فطفقوا يتناولونه بكمّيّات كبيرة بينما كنتُ أنا معتاداً على شرب النبيذ منذ زمن بعيد لذا تجنّبتُ شرب الويسكي و فضّلْتُ عليْه شراب السّاكي اليابانيّ التقليديّ، و بعْد إكمال جلسةِ الشّراب أخذْتُ حمّاماً رائعاً في حوض إستحمامٍ حجريٍّ ضخم كان الماءُ السّاخنُ يعلو فيه إلى ارتفاع أربعة اقدامٍ و شاركَني في حوض الإستحمام بروفسورٌ يابانيٌّ شابٌ (طلبَ إليّ أنْ أكتفيَ بمناداتِهِ هيدو) و كم كانت دهشتي عظيمةً عندما قال لي هيدو في سياقِ حديثنا المشترك أثناء الإستحمام "آه، سيّد ويلسون، لا بدّ أن تكون شهرتُكَ في إنكلترا مُماثلةً لشهرة تشارلس ديكنز !! "، و لمّا بدا لي الشّاب أصغر بكثيرٍ من أن يكون قد تعمّد

السخريّة منّي فقد إكتفيْتُ بالتعليق قائلاً " قلّةٌ قليلةٌ من الإنكليز هم من سمعوا بإسمي في إنكلترا " و عندها بدا هيدو مذهولاً تماماً. نمتُ تلك اللّيلة على حصيرةٍ في غرفةٍ صغيرةٍ تقعُ في أحد المعابد و بعدَ ساعتيْن أفقْتُ من نومي و أمضيْتُ بقيّة اللّيل يقِظاً و كانت النتيجة المُتوقّعةُ في مثل هذا الحال أنّني عندما مضيْتُ لإرتداء ملابسي في الصّباح كنتُ أشعرُ بخوارِ قواي و بعدم قدرتي على الوقوف بثباتٍ و لم يكن بمقدور فطورٍ إنكليزيٍّ مُكوّنٍ من بيضتيْن مقليّتيْن مع خبزٍ مُحمّص أن يُعيدَني إلى حالتي الطبيعيّة، و بعد إكمال الفطور أخذَنا الرّهبانُ في جولةٍ ضمن مُجمّع المعابد البوذيّة الّذي كان يمتدُّ على مساحةٍ واسعةٍ، و عند مكانٍ ما في المجمّع شبيهٍ بمقبرةٍ شعرتُ برغبةٍ جامحةٍ لا تُقاومُ تعتريني للاضطجاعِ فوق أحد القبور الّتي كانت تملأُ المكان و من ثمّ الإستغراق في النّومِ و لكنّي ادركْتُ أنّ الوقت حان لكي أبذلَ جهداً عقليّاً مركّزاً لطرحِ هذا الإنهاك المفرط بعيداً عنّي و بالفعل تمكّنْتُ من إستعادة يقظتي التامّة، و من الواضح أنّ المعلّمَ كوبو دايشي كان محقّاً تماماً: الحلُّ يكمنُ على الدّوام في العقل ذاته. كانَ أمراً باعثاً على راحةٍ عميقةٍ لنا عندما عدْنا إلى أوساكا مع منتصف النّهار و أخذْنا مقاعدَنا في (القطار – الرّصاصة Bullet Train) المتّجه إلى طوكيو و المنطلق بسرعة مائة و عشرين ميلاً في السّاعة و بدا لنا جبلُ فوجي غايةً في الرّوعة عندما مررْنا قريباً منه، و عند السّاعة السّادسة مساءً كنّا في طوكيو و إستأجرْنا سيّارةً في منطقةٍ تقعُ قبالة القصر الإمبراطوريّ (كان الإمبراطور هيروهيتو لم يزلْ حيّاً آنذاك) و أقلّتْنا سيّارةُ الأجرة إلى فندق أكاساكي الأميريّ و أقمْنا في غرفةٍ رائعة تطلُّ على منظر بانوراميّ كامل للعاصمة طوكيو، و هناك زوّدَني صديقي كازو بتذاكر سفرٍ بالطائرة إلى أستراليا الّتي كانت الوجهة المكمّلة لرحلتِنا إلى

اليابان (دفعَ مضيفونا اليابانيّون تكاليف الرحّلات كلّها بكرمٍ بالغ) كما منحَني كازو مليون ينّ يابانيّ (و هو ما كانَ يعادلُ حينذاكَ أكثَر بقليلٍ من أربعة آلاف جنيه) كمقابلٍ لقبولي بتلبية طلب الرحلة إلى اليابان، و فوق كلّ ذلك مصروف جيب قيمته خمسون دولاراً تقريباً عن كلّ يومٍ مقابل وجبات الغداء و العشاء (في عام ١٩٨٦ كانت اليابان قد وصلت نقطة ذروةٍ مميّزة في سلّم إرتقاءها الإقتصاديّ و كان ثمّة إحساسٌ بالغنى و الثّراء و إرتفاع الأسعار كذلك في كلّ مكانٍ في اليابان). كنتُ قلقاً آنذاك من أن تستمرّ معاناتي من تأثيرات فرق التوقيت عندما ألقي محاضرتي الأولى منتصف نهار اليوم التّالي و لكنّ الأمور مضت على نحوٍ ممتاز تماماً: حصلتُ على قسطٍ كافٍ من نومٍ مريح و إستيقظْتُ عند التاسعة من صبيحةِ اليوم التّالي وَ أنا أشعرُ بإستعادة قواي كاملةً و تناولْتُ فطوراً إنكليزيّاً مُكوّناً من شريحة لحم و بيضةٍ و طماطم، و بدا لي آنذاك أنّ ملاكي الحارسَ عادَ ليزاولَ عملهُ الرائع معي مثلما إعتاد أن يفعلَ من قبلُ. كانت تجربةُ إلقاء محاضرةٍ على جمْعٍ غفير من الحُضور و هم يستمعون إليّ عبّر سمّاعات الآذان تجربة غير يسيرةٍ على الإطلاق إذ كان يتوجّبُ عليّ الحديثُ ببطء شديد حتّى يتمكّن صديقي كازو من إتمام ترجمة كلامي عبارة بعد عبارة إلى جمهور الحاضرين و كانت أخباراً سارّة لي عندما تناهى لأسماعي لاحقاً أنّ الجّمهور الحاضر إستقبلَ محاضرتي بحماسة مشجّعة، و بعد تناولِ وجبة عشاءٍ متأخّرة من طبق السوشي اليابانيّ التقليديّ تلك الليلة إصطحبّنا مضيّفونا إلى معرض تسوّقٍ في غينزا Ginza ثمّ عدْنا إلى الفندق لحضورِ حلقةٍ نقاشيّةٍ (سمبوزيوم Symposium) عن الماندالا Mandalas (شكلٌ هندسيٌ يمثّلُ الكون طبقاً للفلسفة الرمزيّة البوذيّة و الهندوسيّة، المُترجمة)، و بعد ختام تلك الحلقة النقاشيّة كنتُ

متعباً إلى أبعد الحدود و لم أرغبْ في شيءٍ قدرَ رغبتي في الإضطجاعِ على سريري في غرفة الفندق و بخاصّةٍ أنّني كنتُ أعلمُ أنّ جدولاً حافلاً بالمواعيد ينتظرُني في اليوم التّالي.

كنتُ أستمتعُ بكأسٍ من النّبيذ الفرنسيّ - الّذي إشتريْتُ قنّينةً منه بسعرٍ مناسبٍ للغاية في غينزا - عندما رنَّ الهاتفُ في غرفتي: كان كازو يطلبُ إليْنا النّزولَ على الفور إلى قاعة الإستقبال في الفندق لذا هرعْنا للنزول إلى الأسفل و ملأتْنا الدّهشةُ عندما إكتشفْنا أنّ جميع الحاضرين كانوا في إنتظارِنا و ضجّت القاعةُ بالتّصفيق فورَ أن رآنا الحضورُ و نحنُ نطلُّ على القاعة، و كان علينْا أن نشقَّ طريقَنا نحوَ مائدتِنا وسْطَ صفّيْن من الحاضرين المُنشغلين بالتّصفيق، و لم يحصلْ أن دهشْتُ في حياتي بمثل تلك الدّهشة إلّا عندما وصلْنا بيروت قبل سنواتٍ خلتْ وَ وجدْنا محافظ المدينةِ و طاقماً كاملاً من المسؤولين في إستقبالِنا، و تطلّبَ الأمرُ منّي بعض الوقت لإدرِكَ حقيقة أنّني كنتُ كاتباً ذائع الصّيت في اليابان تماماً مثل ذيوع شهرتي في منطقة الشّرق الأوسط و أدركْتُ بشكلٍ حاسم أنّ هيرو كان محقّاً للغاية عندما إفترضَ أنّ شهرتي في إنكلترا لَم تكن لتقلَّ في شيءٍ ما عن شهرة تشارلس ديكنز: فعندما ذهبتُ لإلقاء محاضرةٍ في أحد المحلّات الشهيرة لبيْع الكتب كان الطابورُ الواقفُ بالإنتظار إستعداداً للدُخول طويلاً بحيثُ لم يتّسع المكانُ للجميع و توجّبَ الإعتذارُ عن تلبية طلبِ دخول بعض الواقفين في الطّابور. كان اليابانيّون حريصين دوماً على إحدى عاداتهم الرّائعة في تسليمي بعدَ كلّ لقاءٍ تلفازيٍّ أو حوارٍ صحفيّ مظروفاً مغلقاً يحتوي على مبالغ تتراوحُ أقيامُها بين خمسين و مائتين و خمسين جنيْهاً، و في هيروشيما مثلاً حصلْتُ على مبلغٍ إجماليٍّ قدرهُ ثمانمائة جنيه بعد أن القيْتُ محاضرةً و حضرْتُ حواريْن تلفازيّيْن،

وَ أسرّتني جوي حينها بشعورِها الرافض لكسْب المال من أبناءِ مدينةٍ سبقَ أن عانت أهوالاً جحيميّة فظيعةً مثل هيروشيما و عندها إعتزمْنا التبرّعَ بالمال المتحصّل لجماعة هيباكشي Hebakshi – و هم النّاجون من تدمير القنبلة الذرّيّة – و لكنّ مُضيفينا اليابانيّين أبدوا رفضاً قاطعاً في قبول المال.

كانَ عليّ لبقيّة رحلتنا اليابانيّة أن أبذلَ مجهوداً دائماً للحفاظِ على عقلي في حالةٍ من التركيز العميق، و لم تكن المعابدُ البوذيّة هي ما تسبّبت لي في هبوط طاقتي الحيويّة بل كانت على العكْسِ رائعةً للغاية بحدائقها الصخريّة، و بُرَكِها المائيّة، وَ منحوتاتها من الأرواح الحارسة، و لكنّ المشكلة كانت في وجبات الغداء: فحتّى عندما كانت وجبتُنا بسيطةً لاتتعدّى النودلز (الشعريّة) مع البيرة كان يتوجّبُ علَيْنا بعد إنتهاء الغداء إرتقاءُ مئاتٍ من العتبات المغطّاة ببراعم الكرز حتّى نبلغ معبداً يطلُّ على وادٍ شديد الوعورة و يجري فيه شلّالٌ مائيٌّ، و لم أكنْ من جانبي أرى أيّة غايةٍ من وراء تسلّق تلك العتبات على تلك الطريقة الميكانيكيّة الرتيبة، و طرقت هذه المسألةُ عقلي بقوّة بعد أن قرأتُ مقطعاً من كتابات كوبو دايشي و بعدها مضيْتُ في إكتشاف خيوط السرّ: عندما أدخلُ معبداً ما فإنّني أسعى لتسكينِ عقلي بالكامل لغرض الإرتقاءِ إلى حالةٍ من الإسترخاء متزامنةٍ مع يقظةٍ متّسعة كمن يجاهدُ في الإصغاء إلى صوتٍ شديد الخفوت أو ربّما الإستماع إلى الصّمت ذاته !! و بدأتُ أكتشفُ أنّني متى ما فعلْتُ هذا لبضعِ دقائق فإنّ مدى إسترخائي كان يتّسِعُ و أنّ الصّمت ذاته كان يقودُني إلى تخوم أكثر عمقاً كما لو كنتُ أخترقُ الحافّة المقابلةَ من الصّمت، و عرفْتُ حينها كيفَ أنّ المعابد هي بذاتِها تقودُ إلى إحداثِ هذا الشّعور الرّائع كما لو أنّ قروناً من الصّمت و التأمّل تركت بصماتِها على

المكان و كانت إستجابتي وسط تلك المعابد مثل إستجابة الباحث عن الماء بواسطة العصا الكاشفة dowser لذا لم أعد أشعرُ بتعبٍ بعد أرتقاء مئات العتبات يومياً حتّى مع تعبي الجسديّ الفعليّ إذ سرعان ما كانت تغمرُني سكينةٌ داخليّةٌ شاملةٌ كنتُ أختبِرُ خلالَها ومضاتٍ سريعةً من الحقيقة المطلقة الّتي لا يُتاحُ لحواسِنا إلتقاطُها في الأحوال العاديّة و هي الحقيقة اللازمنيّة ذاتُها الّتي لمحْتُ أطيافَها تحومُ حولي احياناً في سنوات مراهقتي المبكّرة عندما كنتُ أتأمّلُ في كتاب باغافاد غيتا.

دهشْتُ كثيراً بعدما قرأتُ ملاحظة كيوبو القائلة " عندما ترى فتاةً جميلة ذات خصْرٍ رشيق فكّرْ فيها كما لو كانت شيطاناً أو شبحاً !! " و قد طافت برأسي تلك العبارةُ كلّ مرّةٍ كنتُ أزورُ فيها أحد المعابد، و أذكرُ في إحدى الدعوات الّتي حضرتُها كيف إنحنتْ إحدى فتيات الغيشا Geisha لإعادة ملء كأسي بالشّراب أو إعادة ملء طبقي بالطّعام، و كان من السّهولةِ الفائقة بالطبع تصوّرُ إمكانيّة أن تقومَ فتاةٌ من هؤلاء بتوفير خدماتٍ ذات طبيعةٍ جنسيّة و بخاصّة في إطار ثقافةٍ تشغلُ فيها النّساءُ موقعاً مرؤوساً، و لمّا كانت فتاة الغيشا الّتي رأيتُها خلال الدعوة جميلةً و رشيقةً فقد إمتلأتُ برغبةٍ جامحةٍ في إقامة علاقةٍ جنسيّةٍ معها و لكنّ ذلك الجزءَ فيّ الّذي تعلّمَ الغرقَ في لُجّة السّكينة و الإسترخاء داخل المعابد كان ينظرُ إلى تلك الفتاة الجذّابة بإنفصالٍ كاملٍ و راحَ يرى فيها محْضَ حلوى لزجةٍ كفيلة بأن تتسبّب لي بمرَضٍ عضالٍ !!، و بالنظر إلى هذه الأفكار فإنّ الإحتفاليّة الألفيّة بتاسيسِ جامعة كوياسان خلت تماماً من برهات ذروةٍ جنسيّة. كان المعبدُ – حيثُ نقيمُ – مكاناً واسعاً للغاية و مفتوحاً من جهاته الأربع، و إعتادَ الضّيوف الثلاثة – أنا، و ليال واتسون Lyall Watson(*)، وَ فريتجوف كابرا Fritjof Capra(**) – على الجّلوس في منتصف المعبد

مع مانوالا كبيرة خلفَنا، و كان في كلّ صباح ثمّة تقليدٌ بوذيّ إذ كنّا نراقبُ الرّهبان البوذيّين و هم يستعرضون في مسيرةٍ أمامنا.

في ظهيرة يوم الإحتفاليّة الألفيّة إفتتحْتُ حلقةً نقاشيّة لتوضيح مفهوم (هرم الوعي Pyramid of Consciousness): المفهوم الّذي مضيْتُ بعيداً في تطويرهِ عندما كتبْتُ كتابي عن ويلهيلم رايخ، و قد رأيْتُ أنّ الوعي اليوميّ له سمةٌ غيرُ مترابطةٍ يمكنُ مقارنتها مع طاولة بليارد تتناثرُ عليها الكراتُ بصورةٍ متفرّقة و عشوائيّة، و عندما يحصلُ أن نمارسَ تركيزاً في وعينا فإنّ هذا يماثلُ إقترابَ كرات البليارد من وسط الطاولة، و عندما نمضي في ممارسة تركيزٍ أكبر في وعينا فإنّ هذا يماثلُ إصطفافَ كرات البليارد بعضها فوق بعضٍ لأنّ التركيز ذاته يمكنُ أن يخلّقَ تغذيةً إسترجاعيّةً تجعلُ بقاء الكرات فوق بعضها أمراً دائميّاً و تلك حالةُ الوعي ذاتها الّتي وصفَها كوبو دايشي مرّة بقولهِ " بلوغُ الإستنارة في الوجود البشريّ ذاته "، ثمّ أكملْتُ حديثي في محاضرةٍ أخرى لاحقة بالحديث عن (المَلَكة X، Faculty X): تلك المَلَكة الّتي نختبرُها عندما نكونُ في حالةٍ نشعرُ معها بأنّ الماضي حقيقةٌ موكّدة. كانَ الحضورُ أثناء إلقاء محاضراتي يُقارِبون الألف و كانَ معظمهم غير قادرين على رؤية المتكلّمين، و في هذه الاثناء كنّا أنا وَ جوي نقدّمُ فروض الشّكر المستحقّة لحسْنِ طالعِنا إذ كنّا بين ضيوف الشّرف و كان في مقدورِنا تجاوز رعشة البرد بتغطية رُكَبِنا ببطّانيّاتٍ وزّعها مضيّفونا على ضيوف الشّرف وحدهم، و في تلك الظّهيرة الباردة أدركْتُ أنّ الرّهبان المؤسّسين لجامعة كوياسان عانوا من الأهوال ما يرقى بهم جميعاً إلى أن يكونوا في مصاف القدّيسين.

* * * * * * * * * *

بعدَ ثمانٍ و أربعين ساعةً من محاضرتي في إحتفاليّة كوياسان هبطت بنا الطّائرةُ أنا وَ جوي في سيدني و هناكَ إتّخذ كلٌّ منّا وجهةً مختلفة عن الآخر: ذهبت جوي لرؤية أخيها نيل في تاونزفيل، و مضيْتُ أنا في طريقي إلى ملبورن، و هناكَ لمسْتُ على الفور التناقض الفاضح بين عادات اليابانيّين و الأستراليّين: فقد كنتُ في حاجةً ماسّةٍ إلى بطاقةٍ تتيحُ لي الحديث عبر الهواتف العموميّة لذا ذهبْتُ إلى دائرة الخطوط الجوّية لأستفهمَ منهم أين يمكنني شراء مثل تلك البطاقة، و راحت الفتاةُ الّتي كانت جالسةً وراء الحاجز تحدّقُ فيّ كما لو كنتُ مجنوناً أخرقاً ثمّ أجابتّني بضرورة التسجيل في خدمة إحدى شّركات الهاتف العاملة، و بعدَ أن مشيْتُ خمسين خطوةً لمحْتُ محلّاً لبيْع الصُّحف و طلبْتُ هناك بطاقةً هاتفيّة فباعوني واحدةً في الحال، و عندما كنتُ في طريقي إلى البوّابة الخارجيّة مررْتُ بالفتاة ذاتها و أخبرتُها لو حصلَ و طلبَ إليْها أحدٌ ما في المستقبل بطاقة هاتفٍ فيمكنُها بكلّ بساطةٍ أن تدلّهُ على محلّ بيع الصُّحف القريب منها، فما كان من الفتاة إلّا أن ترمقني بنظرةٍ قاسيةٍ و تقولَ بإقتضابٍ كمن يريدُ إنهاء الحديث " أووووه، شكراً لك ".

في ميلبورن تمّ جدولةُ أوقاتي بحيثُ يمكنني إلقاءُ أكبر عددٍ من المحاضرات على أن تكون محاضرتي الرئيسيّةُ في جامعة لاتروب Latrobe University حيثُ يعملُ صديقي هوارد دوسر Howard Dossor مديراً للإدارة فيها و كان يعكفُ آنذاك على كتابةِ كتابٍ عنّي، و عندما مضيْتُ أوّل مرّة إلى الجامعة لمحْتُ صديقي هوارد من بعيدٍ ينتظرُني عند بوّابة الجّامعة و كان بصحبتِهِ صديقتي القديمة أيّام عملي في مقهى Coffee House: كارول آن، و كانت آنذاك في الأربعينات من عمرها و بدت جميلةً كما عهدْتُها من قبلُ. بعد إنتهاء علاقتي مع

كارول آن عام ١٩٥٥ مضت هي إلى معلّم غناء و إكتشفت لديْه أنّها تمتلكُ صوتاً ممتازاً من طبقة السّوبرانو النّادرة، ثمّ إلتقت ممثّلاً أستراليّاً يدعى تيري غيل Terry Gill فتزوّجها و هاجر الإثنان إلى أستراليا، و في ميلبورن إفتتحَ الإثنان مطعماً و قاعة موسيقى و شكّلَ الإثنان فريقاً لامعاً من زوجٍ وَ زوجة و كانا يستمتعان بأداء الثنائيّات الغنائيّة المأخوذة عن الأوبرات غير المُعقّدة و المسرحيّات الموسيقيّة و الغنائيّة مثل (شبح الأوبرا The Phantom of the Opera)، و أمضيْتُ حقّاً أمسيةً ممتعةً في تلك القاعة و دهشْتُ لأنّ كارول آن كانت غدت بالفعل مُؤدّيةَ سوبرانو رائعة و كان زوجُها تيري هو الآخر شخصاً ذا مزاجٍ طيّب يبعثُ على الإرتياح و ذكّرَني أوّل ما رأيْتهُ بأخي الأصغرِ باري لذا أحببْتهُ على الفور، و كنتُ قد رأيْتُ كارول آن في لندن مرّاتٍ عديدة لأنّها كانت من نمط الّذين يحرصونَ على إدامةِ علاقاتهم مع أصدقائهم القّدامى و كانت تبدو رشيقةً على الدّوام في كلّ مرّة أراها بسبب مداومتِها على ممارسة التمرينات الرّياضيّة في قاعة التدريب الرياضيّ gym بينما كنتُ أنا أراكِمُ وزناً فوق وزنٍ و تلك مَعضلةٌ مهنيّةٌ جدّيّةٌ و خطيرة تواجهُ كلّ كاتبٍ و ينبغي أن ينتبهَ لها على الدّوام. بالنسبة إلى صديقي هوارد دوسر الّذي تولّى جميع ترتيبات رحلتي لإلقاء المحاضرات في ميلبورن فقد كان كاتَبَني بشأن ترتيب سلسلة المحاضرات قبل سنتيْن من سفري و قدم بالفعل إلى إنكلترا مرّاتٍ عدّة و كانَ يحرصُ على زيارتي في كلّ مرّة، و قبلَ أن يعمل مدير إدارةٍ جامعيّة كان هوارد يعملُ كاهناً و هو الأمرُ الّذي يمكنُ توقّعهُ بالنّظر إلى شخصيّته الودودة المتخمة رقّة وَ كياسةً، ثمّ وقع الرجلُ فريسةً لمرض السّرطان و أخبرهُ الأطبّاءُ أنّ أمامهُ سنةً واحدةً يبقى خلالها حيّاً، و لمّا كان الرّجلُ مُعجباً بأفكاري فقد إتّخذ قراراً

حاسماً بأن يكرّسَ الوقت المتبقّي له في الحياة لكتابة كتابٍ عنّي و لحسْن الحظّ عولِجَ الرّجلُ من السّرطان و لكن حصل بعد شفاءهِ من المرض أن تخلّى عن إيمانه المسيحيّ و هو الأمرُ الّذي يُعزى في جزءٍ منه لي و في جزءه الآخر إلى الروائيّ اليونانيّ نيكوس كازانتزاكيس الّذي كنتُ أنا الآخر من أكثر المعجبين به و أكنُّ له إحتراماً عظيماً، وَ هكذا تركَ هوارد سلك الكهنوت وَ صارَ أكاديميّاً و راح يجمعُ كلّ كتبي المنشورة و جعلَ منها مكتبةً كبيرة.

كانَت جامعة لاتروب قائمةً وسْطَ مجمّعٍ جامعيّ فسيحٍ تكسوهُ الخضرة في كلّ مكان و لكنّ ما روّعني كثيراً هو حجمُ النّفايات و الفوضى الّتي كانت سائدةً في المجمّع الجامعيّ و لم يكن ذلك بسبب نقصٍ في عدد مسؤولي النّظافة أو حاوياتِ جمْع النّفايات بل لأنّ الطلّابَ فضّلوا ببساطةٍ رمْيَ الصّحف و القناني البلاستيكيّة و علب البيرة الفارغة على الأرض أو بين ألواح الزّهور رغم وجودِ حاوية نفاياتٍ على مبعدة بضع ياردات بين الواحدة و الأخرى، و بعْدَ أن عاينْتُ النّظافة الفائقةَ للشوارع و المَجمّعات اليابانيّة بدا لي منظرُ النفايات المتناثرة في كلّ مكان من تلك الجامعة الأستراليّة صادماً و سجّلْتُ هذه الملاحظة بشان الجامعة في دفتر يوميّاتي و إعتزمْتُ إستخدامها في كتابي القادم عن (القتَلة التسلسليّون Serial Killers) الّذي كنتُ أخطّطُ لكتابته آنذاك: إنّ فقدانَ حسّ المسؤوليّة هو نقطة الشّروع في تفاقمِ أيّة نزعةٍ إجراميّةٍ، و بالطّبع لم تكن أستراليا تفتقِدُ إلى قيم الإحساس بالمسؤوليّة إلى حدودٍ أكثر ممّا هوَ سائدٌ في إنكلترا أو أمريكا و لكنّ التضادّ الصّارخ و النّاجم عن مقارنة الحال مع ماهوَ سائدٌ في اليابان هو ما جعلَ الحالة تبدو أكثرَ سوءً لي.

* ليال واتسون Lyall Watson: عالم حيوان و نبات و بيولوجيّ و أنثروبولوجيّ جنوب افريقيّ ولد عام ١٩٣١ و توفّى عام ٢٠٠٨، و يعرفُ عنه تأليفه الكثير من الكتب الّتي تندرجُ تحت توصيف العصر الجديد New Age و من أهمّها كتابه الأكثر مبيعاً (الطبيعة الفائقة: تأريخٌ طبيعيّ للظواهر الخارقة Supernature: A Natural History of the Supernatural) عام ١٩٧٣. (المترجمة)

** فريتجوف كابرا Fritjof Capra: فيزيائيّ نظريّ ولد في فينّا بالنمسا عام ١٩٣٩ و حاز الجنسيّة الامريكيّة لاحقاً. يعرفُ عنه إهتمامه بالأُشتغالات المعرفيّة الخاصّة بالعلاقة بين العلم و الميتافيزيقا إلى جانب ولعه بالتصوّف الشرقيّ. نشر العديد من الكتب نذكرُ منها:

– كتاب الطاويّة للفيزياء الحديثة: The Tao of Physics: An Exploration of the Parallels Between Modern Physics and Eastern Mysticism (١٩٧٥) (مترجم إلى العربيّة)

– نقطة التحوّل: The Turning Point: Science، Society، and the Rising Culture (١٩٨٢)

– الحكمة غير الشائعة: Uncommon Wisdom (١٩٨٨) (المترجمة)

٢٣. لمحاتٌ من سنواتي الأخيرة

أثناء زيارتي الأولى إلى اليابان و عندما كنتُ مُقيماً في فندق بمنطقة نارا الّتي تضمُّ المعبد البوذيّ الأكبر في اليابان حصل أن تلقّيتُ إتّصالاً هاتفيّاً من مدينة نيويورك يُطلَبُ منّي فيها إبداء مدى رغبتي في زيارة المدينة السنة القادمة و إلقاء بعض المحاضرات في المركز المفتوح Open Center، و كان ذلك توكيداً لفكرة أنّ النيويوركيّين لا يقلّون إهتماماً بفكر العصر الجديد New Age من الكاليفورنيّين و هو الأمرُ الّذي تبيّنتُ صحّته لاحقاً، و سافرتُ بالفعل مرّات عدّة إلى نيويورك و اليابان و أستراليا في بحر السنوات العشر اللاحقة و لكن لمّا كانت أحاديثُ الأسفار تضجرّني كما يضجرني إلى حدّ أكبر الكتابةُ عن تلك الأسفار لذا لن أتحدّث عن تلك الأسفار بأيّة تفاصيل إضافيّة.

عندما عدنا من سفرتنا إلى اليابان و أستراليا وجدنا دون سيمان Don Seaman في إستقبالنا بمحطّة القطارات، و كان الرجل – كما عهدناهُ من قبلُ دوماً – يشكو ضيقات ماليّة حادّة و توجّب عليّ إقراضهُ مبلغ ألفي جنيه عن مقدّمة الأتعاب اليابانيّة لقاء مساهمته في كتابة كتاب الفضائح Scandal Book معي، و لدهشتي فإنّ الرجل كافأني بطريقته الخاصّة و الغريبة عندما عرض عليّ فكرة ممتازة لكتابة كتابٍ جديد قائلاً " لِمَ لا تكتبُ كتاباً عن المهووسين الجنسيين الخارجين عن السياقات الإعتياديّة The Sexual Misfits ؟ " و بدت لي الفكرة رائعة إذ لطالما إختزن عقلي الكثير من الأفكار عن الأوهام الجنسيّة و

هكذا وجدتُ نفسي مندفعاً لهذا الأمر و لم أسمح للوقت بالإفلات من بين يديّ عندما عرضتُ فكرة الكتاب على ناشري و أقنعتهُ بنشر الكتاب، و كانت معنويّاتي آنذاك في أعلى أشكال التوهّج و تدفعُني لكتابة جزء مكمّل لكتابي السابق " أصول الدافع الجنسيّ " و كان ثمّة أمامي مايصلحُ كنقطة إنطلاق للمضيّ في كتابة الكتاب: فقد أرسلت لي سيّدة هنغاريّة غريبة الأطوار تدعى تشارلوت باخ Charlotte Bach عام ١٩٧١ مخطوطة ضخمة و غير مفهومة تتناول موضوعة الجنس، و بعدما نجحتُ اخيراً في تعديل النصّ و جعلهِ قابلاً للقراءة إكتشفتُ أنّني أزاء نصّ زاخرٍ بالأصالة: كانت فكرة النصّ تقوم على أساس القناعة بأنّ كلّ الرّجال مسكونون برغبة أساسيّة في أن يكونوا نساء مثلما أنّ كلّ النساء مسكوناتُ برغبة جارفة في أن يكُنّ رجالاً !!!، و رأت تشارلوت أنّ الشدّ الداخليّ الّذي تتسبّبُ به تلك الرغبة الحارقة هي ذاتها القوّة التطوّرية الّتي تقفُ وراء كلّ فعلٍ إرتقائيّ و كلّ شكلٍ من أشكال الابداع البشريّ، و أنّ هؤلاء الّذين يسمحون لتلك الرغبة بالتحقّق يصبحون محض مقلّدين للجنس الآخر و يدمّرون كلّ قدراتهم الإبداعيّة الثمينة في حين أنّ من يمضون أعمارهم و هم يصارعون تلك الرغبة الدفينة يمكنُ لهم وحدهم أن يصبحوا فنّانين عظماء أو حتّى قدّيسين أو متصوّفة، و حصل أن إدّعت تشارلوت أنّها حاورت مرّة شخصاً إمتلك شهوة جنسيّة متّقدة لم تخفت شدّتها لثماني ساعات متّصلة !! و تمضي إلى التعليق على هذا الأمر بأنّه ماكان ليتحقّق لو لم يمتلك ذلك الشخص قوى داخليّة هي في أعلى درجات الإتّزان و بأعظم مستويات للطاقة، و حصل في وقتٍ لاحق أن قابلتُ تشارلوت فوجدتُها سيّدةً ضخمة تمتلكُ صدراً عريضاً و صوتاً أجشّ، و مضيتُ أبعد من مجرّد اللقاء العابر معها فأجريتُ معها حواراً نشِر في

مجلّة تدعى (وقت الراحة Time Out) لأنّني وجدتُ في أفكارها ما يستحقُّ أن يجذب الإنتباه و المناقشة إلى حدّ أنّني خصّصتُ مقطعاً في كتابي (الأحجيات) عرضتُ فيه نظرياتها و أفكارها غير المسبوقة، و كم كانت دهشتي عظيمة عندما علمتُ ذات يوم بأنّ تشارلوت وُجِدَت ميّتة عام ١٩٨١ في غرفتها، و عندما نُزعَت عنها ملابسُها بان واضحاً للجميع أنّها كانت رجلاً !! و علمتُ لاحقاً انّها توفّيت بسبب السرطان بعد أن أحجمت عن مراجعة طبيبٍ ما لخشيتها من إفتضاح سرّها الدّفين.

أفردْتُ الفصلين الأوّلين من كتابي (الخارجون عن السياق) لمناقشة حياة تشارلوت و أفكارِها و أتخذتُ منها رافعةً للحديث عن مختلف أشكال اللامنتمين الجنسيين: من دي صاد و حتّى فيتغنشتاين و تي. إي. لورنس (ثمّة هامشٌ عن فيتغنشتاين في خاتمة الكتاب، المترجمة)، و كنتُ منغمساً في كتابي الجديد هذا بعد أن فرغتُ من كتابة كتاب صغير الحجم عن أليستر كراولي Aleister Crowley (*) و هو رجلٌ آخر من أمثلة الرجال الّذين كانت حياتهم مسكونة بالوهم الجنسيّ، و الحقُّ أنّني حتّى ذلك الحين كنتُ لا أزالُ أشعرُ بحقيقة عدم ملامستي لقاع الحقيقة الكامنة وراء مشكلة الوهم الجنسيّ على رغم شعوري الصارم بأنّني قد خطوتُ خطوة في الإتّجاه الصحيح عندما إقترحتُ في كتابي السابق (مصّاصو الدماء الفضائيّون Space Vampires) بأنّ الجنس إنْ هو إلّا شكلٌ من أشكال تبادل الطاقات الحيويّة: يبدأُ كارلسن Carlsen (و هو بطل إحدى روايات ويلسون، المترجمة) بفهم حقيقة أنّ الرجل و المرأة عندما يتطارحان الحبّ فإنّهما يتبادلان الطاقات بينهما، و بات مقتنعاً إلى حدّ بعيد أنّ كلّ الكائنات البشريّة يمكنُ لها أن تتقن حيلة إنتقال الطاقة هذه و متى ما تحقّق هذا الأمرُ

فإنّ أغلب مشاكلنا المستعصية على الحلّ ستختفي: الحروب، جرائم القتل، أفعال الإنتحار، الأمراض العقليّة،،،، لأنّ كلّ الفعاليات البشريّة السلبيّة تقريباً تنشأ عن الإحباط المُلازم لنقص الطاقة الحيويّة، و بدا واضحاً لِكارلسن أنّ كلّ فردٍ لو إستطاع تطوير نوعٍ من نزعة إمتصاص الدماء Vampirism لكان في وسع البشريّة أن ترتقي نحو مراتب القداسة و التفاؤل المستديم.

أنهيتُ كتابة كتابي عن الوهم الجنسيّ في تمّوز ١٩٩٤ و بالضبط بعد سنتين من شروعي في كتابته و لكن كان قد تضخّم إلى ما يعادلُ الربع مليون كلمة و هو ما يكافئُ حجم كتابي عن عالم العناكب Spider World (**سلسلةٌ تضمُّ أربع رواياتٍ يمكنُ معرفتها بمراجعة قائمة الملحق ١ في هذا الكتاب، المترجمة**)، و لكنّ ناشري كان وجد حلّاً مناسباً لمشكلة الحجم المتضخّم في حالات سابقة بأن عمد إلى تجزئة الكتاب إلى جزئين و لكن هذا الأمر لم يكن لينجح بأيّ حال مع كتابي (تحوّلات مصّاص الدّماء Metamorphosis of the Vampire) حتّى لو جعلته ثلاثة أجزاء فكانت النتيجة أنّ كتابي هذا فشل في إيجاد ناشرٍ له. كانت الأيّامُ المتبقّيةُ من سنة ١٩٩٤ كئيبة تماماً بعد أن كانت رزمُ الكتاب الضخمة تطرقُ أبواب دور النشر و لاتجدُ سوى الرفض على الدّوام، و إقترح وكلائي البريطانيّون و الأمريكان تصغير حجم الكتاب و لكنّي عزمتُ منذ بدء الكتابة في هذا الكتاب أن لا أحذف أيّة كلمة من المخطوطة بعد أن أمضيتُ سنتين كاملتين من العمل المُجهد عليها.

عندما كنتُ مضطجعاً في سريري و أنا يقظٌ و قد إستعصى عليّ النومُ في أحد الايّام الخريفيّة من تلك السنة راح التفكيرُ المقلق بأمر

المبلغ الضخم من المال المسحوب على المكشوف من البنك ينغّصُ عليّ و يحرمُني هناءة النوم، و مضيتُ أتساءلُ " هل كانت الأمورُ حقّاً بذلك القدر من السّوء الذي بدت عليه ؟ لِماذا هذا النكران و التجاهل من قبل الناشرين لكتابي ؟ هل أنّ قدرتي على الحُكم و إتّخاذ القرارات المناسبة قد خذلتني بالكامل ؟ "، و في تلك اللحظة بدأتُ أفكّرُ في بيع منزلنا و إيجاد منزلٍ أصغر لنا أو حتّى الذهاب إلى أمريكا و محاولة إيجاد وظيفة جامعيّة لي و راقت لي فكرة الذهاب إلى أمريكا و بخاصّة انّ أولادي قد إشتدّ عودهم و أنّ والدتي كانت توفّيت قبل ثلاث سنوات و لكن عزّ عليّ فراقُ كلّ كتبي و أسطواناتي الموسيقيّة الأثيرة إلى قلبي. حصل بعد فترة من تلك الليلة أن نهضتُ من نومي عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل و لم يكن في مقدوري معاودة النوم ثانية، و وجدتُ نفسي مجبراً على التساؤل فيما إذا كنّا أنا و عائلتي على شفا حفرةٍ من كارثة وشيكة مقبلة، و بعد أن جالت ببالي تلك السنوات الكالحة السّواد الّتي عانيتها خلال مراهقتي عندما حاولتُ الإنتحار و تأمّلتُ ذلك المشهد المُستعاد عندما غمرتني روح التفاؤل البهيج بعد أن أعدتُ قنّينة السيانيد إلى مكانها و عندها أيقنتُ أنّ ما يبدو أمامي مشهداً مفرط العتمة و القتامة ماهو إلّا محضُ تصوّراتٍ غير ضروريّة لالزوم لها بأيّ حال من الأحوال، و إندفعتُ بعدها في مواصلة عملي و الإبقاء على الروح التفاؤليّة متّقدة داخلي و هو الأمرُ الّذي تكفّل لاحقاً بحلّ كلّ مشاكلي العالقة، و عندها وجدتُني أعودُ فوراً إلى معاودة نومي الهانئ بعد أن إجتاحَني شعورٌ طافحٌ بالثقة و الراحة.

* * * * * * * * * *

بعد وقت قصير من الرفض المتواصل الّذي لقيتهُ مسوّدة كتابي (تحوّلات مصّاص الدّماء) من قبل الناشرين بدا أنّ بعضاً من خُططي المبكّرة بدأت تُؤتي قطافها، و كان الأمرُ يتعلّقُ بالمضيّ في كتابة كتابٍ حول موضوعٍ لطالما أبهرني لوقتٍ طويل و أقصدُ بذلك العمر الموغل في القدم لتمثال أبو الهول Sphinx المعروف: بدأ الأمرُ عام ١٩٧٩ عندما راجعتُ كتاباً بعنوان (أفعى في السّماء Serpent in the Sky) كتبه أمريكيٌّ يدعى (جون أنتوني ويست John Anthony West) و كان في الأساس دراسةً لأفكار عالم مصريّات مشبع بروح التمرّد يدعى (رينيه شوالر دي لوبيز Rene Schwaller de Lubicz) الذي أمضى سنوات عدّة من حياته و هو يدرسُ معبد الأقصر الشهير، و كان شوالر قد توصّل إلى إستنتاج إشكاليّ مفادهُ أنّ تمثال أبو الهول الأعظم في الجيزة طالتهُ التعرية الجوّية بفعل المياه لا الرياح الرمليّة الهابّة من الصحراء – على العكس تماماً من إيمان المؤرّخين و الآثاريّين –، و لمّا كانت الأمطار القويّة نادرة الحدوث في مصر لذا فإنّ أبو الهول لابدّ أن يكون أكثر قدماً بآلاف السنوات ممّا تصوّر أيُّ أحد من قبلُ، بل و أكثر من ذلك لمّا كانت الحضارة المصريّة هي الحضارة الأكثر قدماً المعروفة في التاريخ لذا بدا أنّ فكرة شوالر كانت تشيرُ بوضوحٍ إلى وجود ثمّة حضارة مؤسّسة قبل عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد و الذي شهد تشييد الهرم الأعظم و تمثال أبو الهول معاً، و ما أشار إليه شوالر في أفكاره المنشورة أن تلك الحضارة المؤسّسة هي حضارة سكّان قارّة اتلانتس المفقودة !!. كان هذا الإدّعاءُ صادماً – كما يشعرُ المرءُ للوهلة الأولى – إذ أشار شوالر أنّ مصر في عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد كانت أحرزت مستوى متقدّماً للغاية في الثقافة و العلم و الرياضيّات و العمارة و كذلك في الدين، و كنتُ أنا ذاتي قد قرأتُ

إقتراح شوالر ذاته في كتاب غوردجييف المعنون (حكايات بعلزبول Beelzebub"s Tales) **(بعلزبول هو أحد مسمّيات الشيطان الواردة في الكتاب المقدّس Bible و يعني رئيس الأبالسة على وجه الدقّة، و ثمّة مساحة له في الميثولوجيا الدينيّة المشرقيّة، المترجمة)**، و يذكر غوردجييف بصراحة كاملة أنّ الحضارة المصريّة أسّسها ناجون من إضمحلال قارّة أتلانتس الّتي حدّد أفلاطون تأريخ إندثارها في حدود ٩٦٠٠ سنة قبل الميلاد، و كان حصل قبل ثلاث سنواتٍ و في عام ١٩٩١ بالتحديد أن طلب إليّ منتج افلام يدعى (دينو دي لورنتيس Dino de Laurentiis) أن أكتب ملخّصاً حول أتلانتس و كانت فكرتي الأولى حينها هي جعلُ القصّة تبدو حقيقيّة من وجهة النظر التأريخيّة أكثر من القصّة الخياليّة السّائدة عن أتلانتس، و من البديهيّ أنّني أسّستُ أفكاري في كتابة النصّ حول أتلانتس على أفكار شوالر الّتي حكيتُ عنها.

حصل في تشرين ثانٍ عام ١٩٩١ و بينما كنتُ أُحاضرُ في حلقة دراسيّة معقودة في طوكيو أن تحدّثتُ عن أفكاري حول قارّة أتلانتس أمام مُضيفي في نادي الصحافة موراي سايل Murray Sayle فذكر الرجلُ أنّهُ كان قرأ مؤخّراً مقطعاً في إحدى الصحف يؤكّدُ صحّة أفكار شوالر عن العمر الموغل في القدم لتمثال أبو الهول و لكنّهُ لم يتمكّن من العثور على تلك الصحيفة، و لكن بعد أسبوعٍ من ذلك التاريخ و عندما كنّا أنا و جوي في ملبورن الأستراليّة حصلَ و جئتُ على ذكر الموضوع ذاته أمام محرّر مطبوعة (العصر The Age) كرايتون بيرنز Creighton Burns الذي وضع بين يديّ في اليوم التالي نسخة ضوئيّة من المادة الصحفيّة و كانت مُستلّة من صحيفة لوس أنجيليس تايمز، و كانت المادّة تشيرُ بوضوحٍ أنّ أبو الهول كان دُرِسَ من قبل بإستفاضةٍ من قبل جيولوجيٍّ يدعى (روبرت شوش Robert Schoch) و أشار

هذا الجيولوجيّ إلى أنّ عمر أبو الهول يمكنُ أن يمتدّ إلى سبعة آلاف سنة قبل الميلاد، و كان الرجل قد عرض فكرته هذه في أحد إجتماعات الجمعيّة الجيولوجيّة الأمريكيّة في سان دييغو -كاليفورنيا و لقي رأيه هذا موقفاً عدائيّاً من قبل الآثاريّين المتطرّفين بينما أبدى الجيولوجيّون موقفاً متعاطفاً مع شوش إلى حدٍّ مثير للدهشة.

* * * * * * * * * *

بدت لي إحدى سنوات العقد التسعينيّ غريبة تماماً إذ كان كلّ شيءٍ فيها يقودُ إلى نتائج غير طيّبة: عانيْتُ لسنواتٍ طويلةٍ من متاعب في المثانة لذا كنتُ في مسيس الحاجة لأخذ أقساطٍ متعدّدة من الراحة خلال عملي في سنواتي المتقدّمة، و في إحدى رحلات عملي إلى لندن تفاقمت متاعبي و عانيتُ وضعاً حادّاً بعد أن لاحظتُ شيئاً من الدم يخالطُ إدراري فهاتفتُ جوي على الفور و طلبتُ إليها أن تحجز لي موعداً لإجراء فحص طبّي في مستشفانا المحلّي وقفلتُ عائداً إلى المنزل صباح اليوم التالي. كان القلقُ يعتريني من إحتمال إصابتي بالسرطان و راحت تلك الفكرة تثقلُ روحي لأنّ مغادرتي للحياة و تركي لعائلتي ترزحُ تحت وطأة دينٍ ناجم عن السحب المفرط على المكشوف من البنك لم تكن فكرةً مقبولة أو واردة بخاطري على الإطلاق و صعب عليّ تخيّلها بأيّ حال كان، و لحسن الحظّ فإنّ مراجعة المستشفى أعادت لي شيئاً من راحة مُفتقدة بعد أن أخبرَني الطبيب عند إفاقتي من تأثير المخدّر أنّه وجد حصاتين كبيرتين في المرارة و أزالهما على الفور، و هكذا بعد أن أمضيتُ يوماً أو يومين غير مريحين في المستشفى و أنا أتبوّلُ عبر أنبوب مطّاطيّ مغروس داخلي سُمِح لي بالمغادرة إلى منزلي.

كتبت إليّ شركة تلفاز يابانيّة تسالني فيما إذا كنتث راغباص في الذهاب إلى منطقة الشرق الأوسط لعمل برنامجٍ بعنوان " على خطى لورنس العرب In the Footsteps of Lawrence of Arabia " و كنتُ حينها أنا و جوي في نيويورك حيثُ كنتُ أحاضِرُ في المركز المفتوح، و حصل أن إتّصل بنا إبننا روان ليخبرنا بشأن العرض اليابانيّ و أضاف روان في مكالمته الهاتفيّة أنّ اليابانيين يعرضون سبعة ملايين ين لقاء إتمام العمل التلفزيونيّ، و بعدما ألقينا لمحة على أسعار تصريف العملات في صحيفة النيويورك تايمز وجدنا انّ المبلغ المعروض يعادلُ خمسين ألف جنيه لذا لم أتردّد في قبول العرض و إخبار روان بضرورة الإتّصال بالشركة اليابانيّة و إعلامها بموافقتي على العرض فوراً، و لكن بعد ان عدتُ إلى منزلي في كورنوال إتصلتُ أنا ذاتي بالشركة للإستفهام عن مدى صحّة المبلغ المعروض فتلقّيتُ جواباً إعتذاريّاً أوضحت فيه الشركة أنّها إرتكبت خطأً فادحاً عندما أضافت صفراً إلى المبلغ المعروض و أنّهم يعرضون مبلغ سبعمائة الف ين فحسب و هو ما يعادلُ مبلغ خمسة آلاف جنيه لاغير: مبلغٌ معقولٌ غير أنّهُ لم يكن يكفي لإطفاء ديوننا للبنك كما كنتُ حسبتُ بداية الامر، و بعد بعض المناقشة معهم إرتضوا رفع سقف المبلغ المعروض قليلاً لكنّهُ كان لم يزل بعيداً للغاية عن مبلغ الخمسين ألف جنيه الموعودة. حزمنا أمتعتنا أنا و جوي مع شهر حزيران من ذلك العام و سافرنا إلى الأردن و سوريا و أنجزتُ فعلاً ذلك البرنامج التلفازيّ الّذي أتاح لي فرصة رؤية تلك الأماكن الّتي لطالما قرأتُ عنها مطوّلاً في " أعمدة الحكمة السّبعة ".

* * * * * * * * * *

عندما كنتُ على وشك المغادرة إلى لندن لأجل طبع كتابي (فجرٌ غريب Alien Dawn) إنغمستُ في تحضير النسخة النهائيّة من كتابي (الكتب في حياتي The books in My Life) و الذي كان مقرّراً نشره في أمريكا – واضحٌ أنّني إستعرتُ عنوانه من الكاتب هنري ميلّر – و أهديته إلى فرانك دي ماركو Frank DeMarco: الناشر الّي قابلته في نيويورك و الذي سيصبحُ لاحقاً أحد أصدقائي المقرّبين للغاية و كان هو من منحني فرصة نشر الجزء الرابع من كتابي الذي تأخّر نشره كثيراً في سلسلة كتبي المسمّاة (عالم العناكب Spider World) . قابلتُ فرانك أوّل مرّة خلال إحدى محاضراتي في المركز المفتوح بمدينة نيويورك، و عندما سألني لاحقاً فيما لو كان لديّ أيّة كتب يمكنهُ نشرها أجبته على الفور: الكتبُ في حياتي، و كان هذا الكتاب في الأصل سلسلة من المقالات التي كتبتُها لمجلّة تصدرُ في طوكيو تدعى (الأدب Litteraire)، و حصل فعلاً أن ذهبنا أنا و جوي في تشرين أوّل ١٩٩٨ إلى تشارلوتسفيل لأجل نشر كتابي (الكتب في حياتي).

* * * * * * * * * *

أرى أنّ مهمّتي ككاتبٍ تقومُ على إستكشاف – و أحياناً خلق – ما إعتادت ريا وايت** Rhea White أن تدعوه " التجربة البشريّة الإستثنائيّة ": ففي دراساتٍ لي مثل (اللامنتمي) و سلسلة الأجزاء المكمّلة له سلّطتُ الضوء على تلك الثّلّة من الافراد الذين يتنازعهم إحساسٌ بعدم الرضا العميق في دواخلهم على الحالة الّتي دعاها هايدغر (البديهيّة الحياتيّة اليوميّة)، و في أعمالٍ أخرى لي مثل (طفيليّات العقل) و (حجر الفيلسوف) و (عالم العناكب) ركّزتُ على محاولة خلق تصوّري الخاصّ عن شكل التجربة البشريّة الإستثنائيّة

و كذلك على محاولة جعل القرّاء قادرين على تمثّل تلك التجربة بوساطة قدرة الخيال الخلّاق.

..... و في الوقت الّذي أدوّنُ فيه هذه الكلمات في ٣ كانون أوّل ٢٠٠٣ أشعرُ تماماً أنّ هذا هو الموضعُ الملائمُ للغاية لإنهاء سيرتي الذاتيّة: فالساعة الآن هي الرابعة عصر يومٍ شتويٍّ و صار لزاماً عليّ إصطحابُ كلابي في جولتها اليوميّة المعتادة.

* أليستر كراولي : Aleister Crowley منجّم وساحر إنجليزي بارز ولد عام ١٨٧٥ و توفى عام ١٩٤٧، قام بتأسيس ديانة ثيلما التي كتب فيها نصّا مشهوراً، وهو أيضاً كاتب وشاعر وناقد إجتماعي ومتصوف ومتعاطي مخدرات وباحث عن المتع الحسّية، ومن هواياته لعب الشطرنج وتسلق الجبال. إشتهر بكتابات الغموض ومن أهمها (كتاب القانون Book of Law)، وكتاب (نصّ ثلما المقدس The central sacred text of Thelema). كتب ويلسون كتاباً يوثّق فيه سيرة كراولي الغريبة و حياته المثقلة بالغموض. (المترجمة)

** ريا وايت Rhea White: باراسايكولوجيّة أمريكيّة ولدت عام ١٩٣١ و توفيت عام ٢٠٠٧ و كانت عضوة في الجمعيّة الباراسايكولوجيّة الأمريكيّة. أبدت منذ عام ١٩٥٤ ولعاً طاغياً بموضوعات التخاطر Telepathy، و الإستبصار Clairvoyance، و المعرفة المسبّقة Pre–Cognition. نشرت العديد من الكتب، أهمّها (تحدّي البحث النفسانيّ: كتابٌ أساسيٌّ في الباراسايكولوجي Challenge of Psychical Research: A Primer of Parapsychology) عام ١٩٦١. (المترجمة)

٢٤. خاتمة

قال فتغينشتاين Wittgenstein(*) مرّة " قد يكون الغرضُ من الوجود البشريّ أيّ شيءٍ إلّا أن نكون سعداء "، و أظنّ أنّني عندما كنتُ بالغاً فإنّ قولاً مثل هذا كان كفيلاً بأن يتسبّب لي بإكتئابٍ عظيم و لكنّه يبدو لي اليوم أمراً صحيحاً بصورةٍ بديهيّة لا بالمعنى الّذي قصده شو عندما قال " لا أبتغي من حياتي أن أكون سعيداً بل أن أكون حيّاً و فعّالاً " و لكن بمعنى أنّ كون بقاءنا أحياءً و فعّالين يبدو عملاً شاقّاً على الدوام، و يسري هذا الأمر على جميع الكائنات البشريّة: الملوك و المليونيرات كما سواهم. عندما كنتُ في الثالثة عشرة حلمْتُ أحلام يقظةٍ طويلة رأيتُ فيها نفسي و قد تحقّق لي مستقبلٌ عظيم و غدوْتُ غنيّاً و ذا شهرة عالميّة و بات إسمي موضع إطراء و إعجاب الكثيرين، و عندما نُشِر (اللامنتمي) بدا كما لو أنّني بدأتُ بداية موفّقة بإتّجاه تحقيق حلم يقظتي الطفوليّ و لكن بات واضحاً لي بعد وقت ليس بالطويل أنّ حلم يقظتي لم يكن بالأمر الحقيقيّ أبداً و فوق هذا فقد أثبت أنّه الهدف الخاطئ و أنّني حتّى لو أتيح لي و حقّقتهُ فلم أكنْ عندها لأحقّق السعادة الّتي لطالما حلمتُ بها، و يشبهُ الأمر تماماً حالة شخصٍ إلتهم وجبةً فاخرة من الطعام و لّما يزلْ يشعر بالجوع، و تيقّنْتُ لاحقاً أنّ أغلب غاياتنا البشريّة تافهة إلى الحدّ الّذي لا تستحقّ معه عبء تحقيقها و لن تكون كفيلة بجلب السعادة المرتجاة لنا في نهاية المطاف و على النحو الّذي تصّورناه من قبلُ و لكنّني مع هذا لم أقعْ في فخّ الجانب السلبيّ من الرواية و الّتي نظنّ معها الحياة وهماً

محضاً، و يبدو لي اليوم أنّ ثمّة أهدافٌ محدّدة نستطيع إنجازها و تستحقّ عبء تحقيقها و سبق لي في هذه السيرة أن رويّتُ بعضاً من هذه التجارب الّتي قادتْني إلى هذا الإعتقاد مثل حالة تضخيم الإدراك الّتي تلبّستْني و أنا أقود سيّارتي عبر الطرقات المثلجة من منطقة (شيبووش Sheepwash) (**يشيرُ الكاتبُ هنا إلى حالةٍ وصفها بالتفصيل في الجزء الأوّل من سيرته، المترجمة**) و كنتُ في هذه الحالات و أمثالها أدفعُ بوعيي إلى مستوياتٍ غير مسبوقة.

ثمّة إشكاليّةٌ أخرى ملازمةٌ لوجودنا البشريّ: فنحنُ نقضي معظم أعمارنا في حالةٍ من الوعي الأحاديّ البعد الّذي تمثّله الحالة الضيّقة من الوعي و الّتي لا ندركُ فيها سوى اللحظة الحاضرة، و تشبه هذه الحالةُ وجودنا في غاليري و نحنُ مُجبرون على النظر إلى اللوحات و أنوفنا لصيقةٌ بنسيج الكانفاس الّذي رُسمت عليه اللوحات المعروضة بحيثُ لا نرى سوى ذلك الحيّز الصغير المتاح لنا وحسب. عندما أتذكّر اليوم تلك التجارب المثيرة الّتي مررْتُ بها في حياتي أدرِكُ أنّ جوهر ما فعلْتهُ هو أنّني اغلقْتُ الشقوق الّتي كانت تتسرّبُ منها طاقتي الحيويّة و منعْتُ عقلي من الإنجراف بعيداً كبالونٍ تائه.

إنّه لأمرٌ في غاية الأهمّية أن ندرك كم أصبحْنا عبيداً لل (روبوت) الّذي بداخلنا، و أورِدُ هنا مثالاً للعبة تلفزيونيّة تُلقى فيها أسئلة سريعة متتابعةٌ على المتسابقين بحيثُ لا تتاح لهم فرصةٌ كافية للجواب بِ (نعم) أو (لا) و لا حتّى لمجرّد هزّ أكتافهم أو إبداء أيّة إستجابةٍ مناسبة، و يبدو هذا المثالُ توكيداً عمليّاً لنظرة غوردجييف بأنّنا نحيا و كأنّنا " آلاتٌ " و حسبُ. لم أقلْ في سيرتي هذه و لا في أيّ مكان آخر كلّ ما نويْتُ قوله بحقّ غوردجييف و إسمحوا لي الآن أن أؤكّد بأنّني اعتبرُ

هذا الرجل المعلّم الأعظم في القرن العشرين و قد يبدو هذا القول مفاجئاً للكثيرين و لكن يبدو لي أنّ الرجل ذاته لم يكن يدركُ هذه الحقيقة.

قال غوته مرّة " كنْ مدركاً تماماً لما ترغبُ في تحقيقه و أنت لمّا تزل بالغاً لانّك ستحقّقه حتماً و أنت في متوسّط عمرك "، و هنا يبدو غوته مُدركاً بصورة رائعة للحقيقة المدهشة بشأن حصول المرء على ما يرغبُ فيه متى ما أراده بعمقٍ و شغفٍ، و تبدو المعضلة الأعظم دوماً هي طلب الأشياء الصحيحة من بين كلّ الأشياء المتاحة أمامنا. عندما أتطلّعُ اليوم إلى حياتي المنصرمة أدركُ انّني سعيْتُ دوماً وراء ذلك النوع من الأشياء الّتي سعى إليها رومانتيكيّو القرن التاسع عشر: هدوءٌ و عزلةٌ كافيان لتكريس نفسي لما كان يُمتّعُني أكثر من أيّ شيءٍ سواه و أعني بهذا " لحظات الرؤيا الملهمة "، و بعد نشر اللامنتمي أدركْتُ أنّ النجاح الّذي حلّ عليّ معه لم يكن أبداً ما سعيْتُ وراءه بل على العكس وجدتُ أنّ أغلب الوقت الثمين يضيعُ مع الآخرين و لم أستطعْ إستعادة التركيز على عملي و رؤيتي الخاصّة إلّا بعد أن إنطلقْتُ إلى العيش في الكوخ الريفيّ الجميل في كورنوال، ثمّ كان عليّ دفع ثمنٍ باهظ: أن أقبل بتنكّر النقّاد لأفكاري و مهاجمتها بقسوةٍ و غلظة و لكنّني أحسبُ أنّ هذا الثمن كان عادلاً للغاية معي لأنّ حياتي المنعزلة تلك أتاحت لي أن أختبر ذات الظروف الّتي إختبرْتُها من قبلُ و الّتي قادت إلى كتابة (اللامنتمي) و أرى أنّ جرعةً إضافيّة من النجاح المماثل لنجاح اللامنتمي كانت ستمزّقُني أشلاءً، و لم يكن ينبغي أن أنسى طول الوقت حيازتي لعائلة رائعة و منزل جميل و هو الأمر الّذي لم يكن ليعدلَهُ أيّ ثمن، و ها أنا اليوم و بينما أدخلُ العقد السابع من عمري (**يشيرُ الكاتبُ إلى وقت كتابة سيرته الذّاتية، المترجمة**)

أدرك تماماً أنّ واحدةً من أهمّ القناعات غير المتوقّعة و الّتي تطوّرت لديّ في حياتي هي القناعة التالية: ثمّة شئٌ ما في عقولنا يمكنه أن يغيّر نوعيّة حياتنا، و كان ويلز عبّر على لسان السيّد بوللي عن هذه القناعة بالقول " إذا لم تكن حياتكَ تعجبُك فيمكنُك تغييرُها " و لكنّ ويلز كان يتحدّثُ عن تغيير براغماتيّ في نوعيّة الحياة الّتي نحياها في حين أنّني أرى ثمّة وسيلة أخرى في تغيير حياتنا و تلك هي: إستخدامُ القدرة الشغوفة لعقولِنا و الّتي نُمضي حياتنا بأكملها و نحن بعيدون عن فهم مدياتها الفسيحة.

بعدما قرأتُ كتاب (العودة إلى ميتوشالح Back to Methuselah) علمْتُ أنّ شو كان مصيباً في رؤيته: الوسيلةُ الوحيدة لجعل الحياة البشريّة أقلّ غباوة و عبثيّة هي أن نعيش أطول !! و لكن كيف يكون هذا ؟ قال شو أنّ الأمر يحصلُ ببساطة و تلقائيّة و لكنّني لا أرى في هذا جواباً مناسباً. إنّ ما يبدو لي أكثر وضوحاً اليوم و أنا أغدو أكبر عمراً هو أنّ الطريقة الوحيدة للعيش أطول هو بأن نكون مدفوعين بإحساسٍ قويّ بوجود غايةٍ ما في حياتنا: فالكائناتُ البشريّة تموتُ لذات السبب الّذي يجعلها تنامُ و أعني بذلك أنّها لا ترغبُ في بذل أيّ مجهودٍ إضافيّ للبقاء يقّظين !!. يبدو لي أنّ أهمّ ما كَتبه غوردجييف من تعليقاتٍ هو التعليق الّذي يقول فيه أنّ الكائنات البشريّة تقضي معظم حيواتها فيما يشبه البيئة السيبيريّة الصقيعيّة و ترى هذه الكائنات نفسها وسط بيئة شديدة العدائيّة، كما يبدو لنا أنّ حياتنا محكومةٌ بقوّة جاذبيّة تجعلُ من كلّ خطوةٍ نخطوها عملاً مرهقاً و يستلزم جهداً متطلّباً يستنفد طاقتنا الحيويّة، و بعد كلّ هذا يأتي السؤال السرمديّ: لَم نحنُ هنا ؟ و سأجيبُ ببساطة و وضوح: نحنُ من إخترْنا أن نكون هَنا !!. يبدو لي أنّ الكائنات البشريّة تشبهُ فريقاً من مستكشفي كوكبٍ

بعيد من الذين لا يُتاحُ لهم الإتّصالُ بقاعدتهم الأمّ سوى عبْر جهاز إرسالٍ راديويّ متهرّئ !!. إنّ المشكلة الأساسيّة و الأكثر خطورةً الّتي تواجه الكائنات البشريّة هي نسيانُ " لَمَ نحنُ هنا ؟ " و عندها يطغى الارتباكُ و التشويش و ضياع التوجّه في هذه الحياة و يمكن للمرء حينها أن يقع بسهولةٍ فريسةً للضجر و الملل و الكسل و لوْم ما يرى فيه حظّه العاثر !! و أقولُ عند هذه النقطة بوضوح: إنّ أمثال هؤلاء البشر يهدرون حياتهم الثمينة و أحسبُ أنّهم لو أتيح لهم إدراكُ الإمكانيّات الثمينة و الغنيّة الخبيئة داخل ذواتهم فإنّ أوّل ما سيفعلونه هو أن يركلوا مؤخّراتهم بقسوة عقاباً للغباوة التي سلكوا فيها من قبلُ و سيستحيلُ الفجر الرماديّ الّذي تحيا فيه معظم الكائنات البشريّة ضوء نهارٍ ساطعاً و سيكونُ عندها أمام الوعي البشريّ إمكانيّة فتحِ مَعْبرٍ – و لو جدّ صغير – لولوج عوالم جديدة لم يختبِروها من قبلُ.

تشارك (أوسبينيسكي Ouspensky) و (آر. إج. وارد R. H. Ward) ذات الرؤية: إنّ هذا العالم الماديّ ليس بالموطن الّذي تتطلّعُ إليه الكائناتُ البشريّة، و أنّ موطنها الموعود يقبعُ في مكانٍ ما من عالم آخر غير مُستكشفٍ لليوم، و لكن يمكنني القولُ أنّ البعض – على أقلّ تقدير – من هذه الكائنات البشريّة يمكنُ لها أن تدرك بأنّها – مع ما يكفي من العزيمة و الخيال – قادرةٌ على جعل عالمنا هو موطننا الموعود، و متى ما تحقّق هذا الأمل أظنّ حينها أنّ الغاية المرتجاة من وراء الوجود البشريّ تكونُ قد تحقّقت.

* لودفيغ فتغينشتاين Ludwig Wittgenstein: فيلسوف نمساويّ حاصل على الجنسيّة البريطانيّة. وُلِدَ في فينّا عام ١٨٨٩ لأسرة متخمة الثراء، و توفّى

في بريطانيا عام ١٩٥١ بعد إصابته بسرطان البروستات. تتناولُ أعماله بصورة اساسيّة مجالات: المنطق، فلسفة الريّاضيّات، فلسفة العقل، الفلسفة اللّغويّة. درس هندسة الطائرات في جامعة مانشستر أولاً ثمّ إنتقل لدراسة الفلسفة في جامعة كامبردج الّتي صار أستاذاً فيها حتّى إستقال عام ١٩٤٧ من أجل التفرّغ لكتابة اعماله في عزلةٍ ريفيّة تامّة على السّاحل الغربيّ لايرلندا. مارس الكثير من الاعمال في حياته: فقد عمل بوّاباً، و عاملاً في حديقة أحد الاديرة، و مهندساً معمارياً بارعاً صمّم منزلاً لأخته يعدّ تحفة معماريّة، كما مارس التعليم في إحدى القرى النمساويّة إلى جانب عمله ممّرضاً في بريطانيا خلال الحرب العالميّة الثّانية. أشتهر من بين أعماله العملان التّاليان:

– مقالة منطقيّة فلسفيّة Tractatus Logico—Philosophicus، ١٩٢٢.

– أبحاث فلسفيّة Philosophical Investigations، ١٩٥٣ (نشِر بعد وفاته). (المترجمة)

ملحق (١):

قائمة بأهمّ أعمال الكاتب كولن ويلسون

أوّلاً: سلسلة اللامنتمي

* اللامنتمي

The Outsider

* الدين و المتمرّد

Religion and the Rebel

* عصر الهزيمة

Age of Defeat

* أن نقوى على الحلم: الأدب و الخيال

The Strength to Dream: Literature and the Imagination

* أصول الدافع الجنسيّ

Origins of the Sexual Impulse

* مابعد اللامنتمي

Beyond the Outsider

* الوجوديّة الجديدة

The New Existentialism

ثانياً: الأعمال الّتي تخصّ الظواهر الخارقة

* السحريّ و الغامض

The Occult

* أحجيات

Mysteries

* مابعد السحريّ و الغامض

Beyond the Occult

* الأرواح الشريرة: دراسة في الآثار المدمرة للأرواح المسكونة

Poltergeist: A Study in Destructive Haunting

* المخبرون النفسانيّون: تأريخ علم القياس النفسيّ

The Psychic Detectives: The History of Psychometry

* مابعد الحياة

Afterlife

* القدرات غير الإعتياديّة

Strange Powers

* ظاهرة غيللر

The Geller Phenomenon

* ألغاز و أحجيات

Enigmas and Mysteries

* الرجال ذوو القدرات غير الإعتياديّة

Men of Strange Powers

* الفائق للطبيعيّ

The Supernatural

ثالثاً: السّيرة

* راسبوتين و سقوط آل رومانوف

Rasputin and the Fall of the Romanovs

* برنارد شو: إعادة تقييم

Bernard Shaw: A Reassessment

* السّعي وراء فيلهلم رايخ

The Quest for Wilhelm Reich

* غوردجييف: الحربُ ضدّ النوم

Gurdjieff: The War against Sleep

* رودلف شتاينر: الرّجل و أعماله

Rodulf Steiner: The Man and his Works

* يونغ: سيّد العالم السفليّ

Jung: The Lord of the Underworld

* أليستر كراولي: طبيعة الوحش

Aleister Crowley: The Nature of the Beast

* الحياة الغريبة لِـ دي. بي. أوسبينسكي

The Strange Life of D. P. Ouspensky

رابعاً: علم الجّريمة

* إنسيكلوبيديا القتل (مع بات بتمان)

The Encyclopedia of Murder

* كتاب حالات القتل A Casebook of Murder

* تصنيف منفّذي الإغتيالات: سايكولوجيا القتل

Order of Assassins: The Psychology of Murder

* التأريخ الإجراميّ للبشريّة

A Criminal History of Mankind

* مكتوب بالدّماء: تأريخ البحث الجنائي (مع مات ويلسون)

Written in Blood: The History of Forensic Detection

* جاك السفّاح: مجمل التاريخ و الحكم القضائي (مع روبن أوديل)

Jack The Ripper: Summing Up and Verdict

* القتلة التسلسليّون (مع دونالد سيمان)

The Serial Killers

* طاعون القتل: تأريخ القتل التسلسليّ

A Plague of Murder: The history of Serial Murder

خامساً: الرّواية

* ثلاثيّة سورم

The Sorme Trilogy

* طقوسٌ في الظّلام

Ritual in the dark

* رجل بلا ظلّ (المذكّرات الجنسيّة لجيرارد سورم)

The Man Without Shadow (The Sex Diary of Gerard Sorme)

* إله المتاهة

The God of the Labyrinth

* ضياعٌ في سوهو

Adrift in Soho

سادساً: عالم العنف

* الشكّ الضروريّ

Necessary Doubt

* القفص الزجاجيّ

The Glass Cage

* الغرفة السّوداء

The Black Room

* القاتل (لينغارد)

(The Killer (Lingard

* السّاحر السيبيريّ

The Magician from Siberia

* جرّاح الشخصيّة

The Personality Surgeon

سابعاً: قصص التحرّيات الإجراميّة

* قضيّة مقتل طالبة المدرسة

The Schoolgirl Murder Case

* قضيّة مقتل يانوس

The Janus Murder Case

ثامناً: قصص الخيال العلميّ و الفنتازيا

* طفيليّات العقل

The Mind Parasites

* حجر الفيلسوف

The Philosopher"s Stone

* مصّاصو الدّماء الفضائيّون (قوّة الحياة)

The Space Vampiers (Life Force)

* سلسلة عالم العناكب

Spider World

١. البرج

The Tower

٢. المثلّث

The Delta

٣. السّاحر

The Magician

٤. أرض الظّلال

Shadowland

تاسعاً: المسرحيّات

* ستريندبيرغ

Strindberg

* موت الإله و مسرحيّات أخرى (مع كولن ستانلي)

The Death of God and other Plays

عاشراً: الأعمال الفلسفيّة و التأريخيّة و السايكولوجيّة و العلميّة

* من أتلانتيس إلى أبو الهول

From Atlantis to the Sphinx

* مخطّط تصميم أتلانتيس (مع راند فليم - آث)

the Atlantis Blueprint

* أتلانتيس و الحضارات القديمة

Atlantis and the Old Ones

* فجر غريب: بحث في تجربة الإتّصال الخارجيّ

Alien Down: An Investigation into the Contact Experience

* الخارجون على السّياق: دراسة في اللامنتمين الجنسيّين

Misfits: A Study of Sexual Outsiders

* الشّعر و التصوّف

Poetry and Mysticism

* مسارات جديدة في السّايكولوجيا: ماسلو و الثورة مابعد الفرويديّة

New Pathways in Psychology: Maslow and the Post-Freudian Revolution

* كتاب الأشربة المسكرة

A Book of Booze

* البراندي و الملعون (مقالات في الموسيقى)

(Brandy and the Damned (Essays in Music

* النسر و الحشرة القميئة (مقالات عن الكتب و الكُتّاب)

(Eagle and Earwig (Essays on Books and Writers

* الجنس و المراهق الذكيّ

Sex and the Intelligent Teenager

* الباحثون عن النجوم: تأريخ العلم و الفلك

Starseekers: A History of Science and Astronomy

* حرفة الرواية

The Craft of the Novel

* العبقريّة غير الإعتياديّة لديفيد ليندساي

The Strange Genius of David Lindsay

* إنسيكلوبيديا الفضائح (مع مات ويلسون)

Encyclopedia of Scandel

* إنسيكلوبيديا الأحجيات غير مفهومة

Encyclopedia of Unsolved Mysteries

* قلعة فرانكنشتاين

Frankenstein"s Castle

* النفاذ إلى العوالم الداخليّة

Access to Inner Worlds

* ماركس مفنّداً (مع رونالد دنكان)

Marx Refuted

* شجرة تولكين

A Tree by Tolkien

* دليل الإمكانيّات المتاحة

A Directory of Possibilities

* الكتب في حياتي

The Books in My Life

* الوعي الفائق: السّعي وراء تجارب الذروة

Super Consciousness: The Quest for Peak Experiences

* الحبّ و طرقُه

L"amour: The Ways of Love

* هرمان هسّه

Hermann Hesse

* خورخي لويس بورخيس

Jorge Louis Borges

* هسّه – رايخ – بورخيس: ثلاث مقالات

Hesse – Reich – Borges: Three Essays

* كين راسل: في البحث عن بطل

Ken Russell: In Search of a Hero

* رواية الخيال العلميّ كأدب وجوديّ

Science Fiction as Existentialism

* كتاب الزمن (تحرير بمساعدة جون غرانت)

The Book of time

* ضدّ سارتر: مع مقالة عن كامو

Anti–Sartre: with an Essay on Camus

* الكون – العفريت (مع تيد هوليداي)

The Goblin Universe

* نظريّة لوريل و هاردي في الوعي

The Laurel and Hardy Theory of Consciousness

* تحت جبل الجليد

Below the Iceberg

* حفلة الشيطان

The Devil"s Party

* أطلس الأماكن المقدّسة

The Atlas of Sacred Places

* الجرائم العاطفيّة: الحاجز الرقيق بين الحبّ و الكراهيّة

Crimes of Passion: The Thin Line between Love and Hate

* النّقد الوجوديّ: مراجعات كتب مختارة (مع كولن ستانلي)

Existential Criticism: Selected Book Reviews

* ما ينبغي أن تعرفه عن كولن ويلسون (قرص مضغوط)

The essential Colin Wilson

* سنوات الغضب: إرتقاء جماعة الشّباب الغاضب و إنكفاؤها

The angry Years: The rise and Fall of the Angry Young Men

* تعليقات عن الضّجر، و الإنسانيّة التطوّريّة و السايكولوجيا الجديدة

comments on Boredom، Evolutionary Humanism and the New Psychology

* اتلانتيس وَ مملكة النياندرتال

Atlantis and the Kingdom of Neanderthals

* الموسيقى و الطبيعة و اللامنتمي

Music، Nature and the Outsider

* ملخّص عن النساء اللامنتميات

Outsider of the Female Outsider

* الحديث بطريقة وجوديّة: مقالات في فلسفة الأدب

Existentially Speaking: Essays in the Philosophy of Literature

* الأجسام الطائرة الشهيرة في العالم

World Famous UFOs

حادي عشر: السيرة الذّاتيّة

* رحلة إلى البداية: سيرة ذاتيّة ذهنيّة

A Voyage to the Beginning: An Intellectual Autobiography

* تأمّلات سيريّة ذاتيّة

Autobiographical Reflections

* الحلم بغايةٍ ما

Dreaming To Some Purpose

إثنا عشر: الأعمال غير المنشورة

* مقدّمة إلى " وجوه الشيطان

" Introduction to " Faces of Evil "

* تشريح العظمة البشريّة

The Anatomy of Human Greatness

* تحوّلات مصّاص الدّماء

Metamorphosis of the Vampire

ملحق (٢):

قائمة ببعض المصادر الخاصّة بدراسة أعمال الكاتب كولن ويلسون و حياته:

* جون أي. ويغل كولن ويلسون بوسطن، دار نشر توين، ١٩٧٥

Boston: (١٩٧٥) Weigel، John A. Colin Wilson Twayne Publishers

* نيكولاس تريديل روايات كولن ويلسون، لندن، مطبعة فيشن، ١٩٨٢

(١٩٨٢) Tredell، Nicolas. The Novels of Colin Wilson London: Vision Press

* مايكل ترويل كولن ويلسون: الإتّجاه الإيجابيّ، نوتنغهام، مطبعة بوبرز، ١٩٩٠

Trowell، Michael. Colin Wilson، the positive approach Nottingham: Paupers' Press ،(١٩٩٠)

* هوارد إف. دوسر كولن ويلسون: الرجل و العقل، شافتسبري، دورست، مطبعة إيلمنت، ١٩٩٠

Dossor، Howard F. Colin Wilson: the man and his Shaftesbury، Dorset: Element Books (١٩٩٠) mind

* تيم دالغليش الفيلسوف العملاق: كولن ويلسون و الوجوديّة، نوتنغهام، مطلعة بوبرز، ١٩٩٣

Dalgleish، Tim The Guerilla Philosopher: Colin Wilson Nottingham: Paupers' Press ،(١٩٩٣) and Existentialism

* هوارد إف. دوسر فلسفة كولن ويلسون: ثلاث وجهات نظر، نوتنغهام، مطبعة بوبرز، ١٩٩٦

Dossor، Howard F. The Philosophy of Colin Wilson: Nottingham: Paupers' Press ،(١٩٩٦) three perspectives

* فوغان روبرتسون ويلسون متصوّفاً، نوتنغهام، مطبعة بوبرز، ٢٠٠١

،(٢٠٠١) Robertson، Vaughan. Wilson as Mystic Nottingham: Paupers' Press

* جون شاند وَ غاري لاغمان كولن ويلسون فيلسوفاً، نوتنغهام، مطبعة بوبرز، ٢٠٠٢

Shand، John & Lachman، Gary. Colin Wilson as

Nottingham: Paupers' Press ،(١٩٩٦) Philosopher

* براد سبرغيون كولن ويلسون: فيلسوف النزعة التفاؤليّة، مانشستر، مطبعة مايكل بتروورث، ٢٠٠٦

Spurgeon، Brad. Colin Wilson: philosopher of Manchester: Michael Butterworth ،(٢٠٠٦) ،optimism

* سدني آر. كامبيون حاجز الصّوت: دراسة في أفكار كولن ويلسون، نوتنغهام، مطبعة بوبرز، ٢٠١١

Campion، Sidney R. The Sound Barrier: a study of the Nottingham: Paupers' ،(٢٠١١) ideas of Colin Wilson Press .

لستُ أُخفي رغبتي المقترنة بأملي في أن يكونَ هذا الكتابُ- السيرةُ الذاتيّة نوعاً من مرجعيّةٍ تخدمُ طيفاً واسعاً من القرّاء المُحبّين للأدب والفلسفة، وقبلٍ هذا أولئك الّذين يّحرصون على متابعة نتاجات الكُتّاب ذوي الإشتغالات المعرفيّة الكثيرة و المشتبكة مع بعضها و الّذين يصلحُ وصفهم بِـ (الهايدرا المعرفيّة) كما وصفتْهم إحدى مقالات هذا الكتاب، و تملأني رغبةٌ جامحةٌ في أن يكون هذا الكتابُ بمثابة مرثيّة وداع جميلةٍ لكاتبٍ سيثْبِتُ مع الأيّام أنّ أعمالهُ- وبخاصّة الفلسفيّة منها- تستحقُّ الإشادة الكاملة و التقدير الواجب و بطريقةٍ تليقُ بكاتب وفيلسوف إنكليزيٍّ متفرّد تمرّدَ على التّقاليد الثّقافيّة الأنكلوسكسونيّة والفرانكوفونيّة السّائدة وَإمتلك رؤيةً بطوليّة لعصرنا و لم يتخاذل أمام الصّعاب وحافظ على روح التفاؤل الشّجاعة تحت أقسى الظّروف حتّى غدا رمزاً يستحقُّ البحث المُعمّق و القراءة الجادّة.

ISBN 978-2843062410